كتاب القلق

فرناندو پسو

> ترجمة تحسين الخطيب

الطبعة الكاملة

Firmandelesson

فرناندو پسُوًا

كتاب القلق

(الطبعة الكاملة)

ترجة: تحسين الخطيب

مراجعة: أحمد خريس

PO9261 .P417 7462125 2022

Pessoa, Fernando, 1888-1935

- ما القلق / تأليف فرناندو بِسُوًا ؛ ترجمة تحسين الخطيب ؛ مراجعة أحمد خريس. - ط. 1. - أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2022.

531 ص. ١ 24 سم.

نرجمة كتاب: Livro do desassossego

تدمك: 4-853-49-9948

2- الشعر البرتغالي- دواوين وقصائد- القرن 20. ا- خطيب، تحسين. .1935 -1888 (Pessoa, Fernando -1 ب- خريس، أحمد. ج- العنوان.

يتضمن الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي (ترجمة عن البرتغالية):

Livro do desassossego

by Fernando Pessoa

From the edition of Jerónimo Pizzaro © 2013

Cover design by Peter Mendelsund @ 2017

Translated into Arabic from the English translation of Margaret Juli Costa © 2017 first published by New Directions Books

Manuscript photographs: Arquivo Digital do "Livro do Desassossego", Centro de Literatura Portuguesa da Universidade de Coimbra

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام - وزارة الثقافة والشباب- رقم الطلب 1113743-01-03-01. طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 80022220



مركز أبوظبي للغلة العربية Abu Dhabi Arabic Language Centre



مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي غير مسؤول عن آواء المؤلف وأفكاره، ونعز وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراه المؤلف وليس بالضرورة عن وأي المركز.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي. يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّ وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغر افي والتسجيل على اعرطة أو أقراص مفروءة أد بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطئ من الناشر.

كتاب القلق

(الطبعة الكاملة)

المحتويات

7		مقدمة الطبعة الإنگليزيَّة
17		ملحوظة محرِّر الطبعة الإنگليزيَّة
21		مقدمة الطبعة العربيَّة
27	************************	كتاب القلَق: الطُّور الأوَّل
215	• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •	كتاب القلَق: الطُّور الثَّاني
523		كتاب القلَق: ملحقان
529		الحواشي الختاميَّة

مقدمة الطبعة الإنكليزية

تنقسمُ حياة بِسُوَّا بدقَّةٍ إلى أطوارِ ثلاثة. فلقد كنبَ في رسالة إلى المجلَّة البريطانيَّة لعلوم الفلك، مؤرَّخة في 8 فبراير 1918، أنَّهُ لا يتذكَّر من حياته، بجلاء مُطلَّق، سوى تاريخَيْن: 13 يوليو 1893؛ تاريخ موت أبيه بالسلِّ، وهو لَمَّا يُجاوِز الخامسة من عمره بَعْدُ، و30 ديسمبر 1892؛ التَّاريخ الذي تزوَّجت فيه أُمُّه مرَّة أخرى، الأمر الذي يعني أنَّ العائلة سترحل، بعد فترة وجيزة، إلى دُورين، حيث كان زوج أُمَّه قد عُيِّن قُنصلاً للبرتغال هُنَاك. ويذكو في الرَّسالة ذاتها تاريخاً ثالثاً أيضاً: 20 أغسطس 1905؛ التَّاريخ الذي غادر فيه جنوب إفريقيا عائداً إلى لشبونة دون رجعة.

انطوى الطّور الأوَّل الوجيز على خسارتَيْن: موت أبيه وشقيقه الأصغر، وربَّما خسارة ثالثة أيضاً؛ خسارة معشوقته لشبونة. وسرعان ما بات بِسُوَّا يتكلَّمُ الإنگليزيَّة والفرنسية بطلاقة، في أثناء الطَّور الثَّاني، على الرَّغم من أنَّه لم يكن يعرف حين وصل إلى دوربن سوى البرتغاليَّة فحسب.

كان من الواضح أنّه لم يكُن تلميذاً عادياً، فلقد وصفه أحد زملائه التّلاميذ حين سُيل عن ذلك، بعد بضع سنين قائلاً: "تلميذٌ صغير ذو رأس كبير. كان ألمعياً بارعاً ولكنّه بجنونٌ إلى حدِّ بعيد». وبعد ستّ سنين من وصوله إلى دوربن، في العام 1902، فاز بالجائزة الأولى على مقالة كتبها عن المؤرِّخ البريطاني توماس بابنغتن ماكوالي. ولقد بدا، دون ريب، أنّه يُبدِّدُ أوقات فراغه في القراءة والكتابة، وكان في ذلك الوقت قد شرع في ابتكار أنواته الأخرى المتخيّلة، أو "أنداده heteronyms»، مثلها وصفها في فترة لاحقة، التي بات يُشتهر بها في الوقت الرَّاهن، مؤلّفاً قصصاً وقصائد موقَّعة من لدنه بأسهاء مِن قبيل: شوقاليه دويا (())، وديڤيد ميريك، وتشارلز روبرت أنون، وهوراس جيمز فيبر، قبيل: شوقاليه دويا (())، وديڤيد ميريك، وتشارلز روبرت أنون، وهوراس جيمز فيبر،

⁽¹⁾ يشير الكاتب الأمريكي/البرتغالي ريتشارد زينيث؛ أحد القلائل الذي عكفوا طويلاً على دراسة أرشيف بِسُوًا المحفوظ بالمكتبة الوطنيّة في البرتغال، في كتاب السّبرة الأحدث (والأضخم، في أيّ لغة، على الإطلاق: زهاء 1000 صفحة)، الصّادر بالإنكليزيّة، في الولايات المتحدة، بتاريخ 2021/7/20، تحت عنوان «بِسُوًا: سيرة»، إلى أنَّ فر نائدو بسُوًا كان قد خطّ، وهو في السّادسة من عمره، في كتاب أهدي إلى أمّه في عيد ميلادها، اسم أوّل أنداده، شوقالييه دويا كان قد خطّ، وهو فارسٌ متخيّل وقع بِسُوًا باسمه رسائل كان يكتبها إلى نَفْسه في ذلك الوقت. وتجدر الإفارة إلى أنَّ الاسم في حدّ ذاته يعني، في الفرنسيّة، حرفياً: الفارس ذا الخطوة، أو شيئاً من هذا القبيل. (المترجم)

وألكسندر سيرتش، وكثير غيرها. عدَّدَ خيرونيمو پيسارُّو وپاتريسيو فيرَّاري، في كتابها الأحدث، «أنا أنثولوجيا Eu sou uma antología»، 136 نِداً، ذاكرين سيرة كلِّ نِدُّ، ونهاذبَ من الأعمال التي ألَّفوها.

كتب بِسُوًّا عن أنداده، في العام 1928، قائلاً: «إنَّهم مخلوقات تمتلك حياةً من نوع ما خاصَّةً بهم، ومشاعرَ لا أمتلكها وآراء لا أقبلها. ولكنَّ كتاباتهم، على الرَّغم من أنَّها ليست كتاباتي، يصادف أيضاً أن تكون كتاباتي».

بدأ الطَّور الثَّالث من حياة بِسُوًا حين عاد وحيداً، وهو في السَّابعة عشرة من عمره إلى لشبونة، ولم يَرجع إلى جنوب إفريقيا قَطُّ، كانت عودته بزعم أنَّه سوف يلتحق بالجامعة. ولكنَّه، لعدَّة أسباب -من بينها، اعتلال صحَّته وإضراب الطَّلبة - تخلَّى عن دراسته في العام 1907، وغدا زائراً منتظاً للمكتبة الوطنيَّة، مُستأنِفاً عادته اليوميَّة في القراءة النَّهمة للفلسفة، وعلم الاجتماع، والتَّاريخ، والأدب البرتغاليِّ على وجه الخصوص. عاش في البدء مع عاته، قي فترة لاحقة، أي منذ العام 1909 فصاعداً، في غرف مستأجرة. تركت لَهُ جدَّنُه لأَمَّه في العام 1907 ميراثاً صغيراً، فاستخدم ذلك المال في العام 1909 لشراء مطبعة لِ "إمْپُريْزا في العام 1909 لشراء مطبعة لِ "إمْپُريْزا أيْليْش" (لَّي سوف يشرع في تأسيسها بعد بضعة شهور. ولكنَّ الدَّار أُغلقتُ في العام 1910، دون أن تنشر أيَّ كتاب قَطُّ (فَّ. ثُمَّ باشر بِسُوَّا، منذ العام 1912 فصاعداً، في العام 1910، دون أن تنشر أيَّ كتاب قَطُّ (فَّ. ثُمَّ باشر بِسُوَّا، منذ العام 1912 فصاعداً، في العام 1915 فصاعداً، وقت تأسيس

(- الكوميديا)، وهما محلَّتان مجهولتان، لم تُعمّرا طويلاً، كانتا تصدران في لشبه نة. (المترجم)

Empreza Íbis (2) والاسم الكامل لهذه الدَّار هُوَ: Empreza Íbis—Typographica e Editora؛ ويعني، حرفباً: مؤسسة أبو منجل للطّباعة والنشر؛ إشارة إلى الطَّائر الذي يعرَف بهذا الاسم. ولقد اتَّخذ بِسُوًّا نقشاً لهذا الطّائر شعاراً للدّار أيضاً. ويشير زينيث، في كتاب السّيرة الذي أشرت إليه آنفاً، إلى أنَّ بِسُوًّا حين اختار اسم هذا الطَّائر، كانت في ذهنه شواطئ النّبل، في مصر القديمة، حيث الإله تحوت Thoth (أو: تُوت)، كاتب الآلهة الأخرى ومخترع الكتابة المقدّس؛ الذي عادة ما يُصوَّر بجسم بشريٌ ورأس طائر أبي منجل، الأمر الذي يجعل هذا الطَّائر رمزاً لفنَّ الكتابة المقدّس؛ (المترجد)

⁽³⁾ حيَّرت هذه المعلومة دارسي بِسُوًا كثيراً، مثلما يقول زينيث في كتاب السِّيرة آنف الذَّكر، إذ لا دلبل ملموساً على أنّها قد طبعت أي كتاب، مثلما تذكر جول كوستا هُنا. ولكنَّ زينيث يشير إلى أنَّ أحد الباحثين واسمه خُوي شِبّا Bli قد طبعت أي كتاب، مثلما تذكر جول كوستا هُنا. ولكنَّ زينيث يشير إلى أنَّ أحد الباحثين واسمه خُوي شِبّا Sena قد توصّل في العام 2010 إلى أنَّ هذه المعلومة ليست دقيقة تماماً، فقد عملت الذَّار طيلة ثلاثة شهور متواصلة في العام 1910 على طباعة جريدة أسبوعيَّة تصدر في بلدة لُولِي Loulé، في ألْغَارْفِة Algarve إلى أنَّ الدَّار كانت قلا وتعني «الغرب»]، ثُمَّ تُشخن النَّسخ بالقطار. وتوصّلت الباحثة ريتا يالمبريم Rîta Palmeirim إلى أنَّ الدَّار كانت قلا طبعت العدد الأوَّل من مجلَّة A Mosca (= الذَّبابة)، الصادر في 16 مارس 1910، وعدَّة أعداد من مجلَّة Comédia

المجلّة الأدبيّة «أورفيو» التي أصدرها رفقة مجموعة من الفنّانين والشّعراء تضم الماذا نيغريروش Almada Negreiros وماريو ذا سا-كارنيرو Almada Negreiros الظّليعة الأدبيّة في لشبونة، ومنخرطاً في عدَّة حركات أدبيّة، لم تُعمَّر طويلاً، كـ «التّقاطعيّة الظّليعة الأدبيّة في لشبونة، ومنخرطاً في عدَّة حركات أدبيّة، لم تُعمَّر طويلاً، كـ «التّقاطعيّة مستقلًا للوثائق والمراسلات التّجارية من الإنكليزيّة والفرنسيّة، قد نشر في عدَّة بجلّات مستقلًا للوثائق والمراسلات التّجارية من الإنكليزيّة والفرنسيّة، قد نشر في عدَّة بجلّات وجرائد، وترجم رواية ناثانييل هوثورن «الحرف القرمزي»، وقصصاً قصيرة لأو هنري، وقصائد لإدغار ألآن پُو، علاوة على استمراره بالكتابة، كثيراً، في جميع الأنواع الأدبيّة. لم يشر من شعره ونثره إلّا النّزر البسير في أثناء حياته: ديوان «رسالةٌ كتبها بالإنكليزيّة. ولكنّة ديوان صغير من قصائد كتبها بالبرتغاليّة، وأربعة كراريس شعريّة كتبها بالإنكليزيّة. ولكنّة خلف وراءه حين مات في العام 1935، وهو في السّابعة والأربعين، الصّناديق الدَّاتِعة الصّيت رئمة صندوقان على الأقل) المكدّسة بالأوراق المكتوبة -نحو ثلاثين ألف قُصاصة فلم يُعرَف إلّا حينئذ فحسبُ بوصفه ذلك العبقريّ غزير الإنتاج، والفضل عائدٌ إلى أصدقائه وعديد الدَّارسين الذين أفنوا سنوات، مُذَاك، ينقبون في ذلك الأرشيف.

عاش بِسُوًا ليكتُب ويرقن ويخربش على أيِّ شيء يقع بين يديه: القصاصات الورقيَّة، والمغلَّفات، والمطويَّات الدعائيَّة، والنشرات الإعلانيَّة، وظهور صفحات الرَّسائل التِّجاريَّة... إلخ. كما أنَّه كتب في جميع الأنواع الأدبيَّة أو كاد: الشِّعر، والنَّشر، والمسرح، والفلسفة، والنَّقد، والنَّظريَّة السياسيَّة، علاوة على اهتهامه العميق بالتَّنجيم، والفلسفة، وعلم الفلك. ولقد خطَّ الطَّوالع، لا لنفسه فحسب، وإنَّها لأصدقائه أيضاً، وكذلك لكثير من الكتَّاب الموتى والشخصيَّات التَّاريخيَّة، من بينهم شكسبير، وأوسكار وايلد، وروبسپيير (٢٠)، بالإضافة إلى أنداده heteronyms، النَّه يصف، على وهو مصطلح فضَّله على مصطلح «الاسم الأدبي/ المستعار pseudonym»، لأنَّه يصف، على نعض؛ فلقد نحو أدق، استقلاليتَهم الأسلوبيَّة والفكريَّة عنه هُوَ الذي أوجدهم، وبعضهم عن بعض؛ فلقد

⁽⁴⁾ Orpheu: المقابل البرتغاني لـ «أورفيوس»، الأسطورة الإغريقيَّة. (المترجم)

⁽⁵⁾ التي تتقاطع مع الأنواع الأدبية الأخرى، فتكون قادرة على استيعاب جميع الفنون، ومحو كلُّ ما سواها. (المترجم)

 ⁽⁶⁾ بذكر زينيث، في الفصل الحادي والثّلاثين من كتابه آنف الذّكر، أنَّ بِسُوّا قد صاغ بيان هذه الحركة (Sensacionismo)،
 في البرتغاليّة) التي تنادي بأن تكون الأحاسيس هي محور الإبداع الفنيّ، على ظهر صفحتَي القصيدتَيْن 24 و25 من كتابه (راعي القطيع) المورَّختَيْن في 13 مارس 1914. (المترجم)

⁽²⁾ Robespierre: محام ورجل دولة فرنسيٌّ، ذاع صيته لمشاركته الفاعلة في الثُّورة الفرنسيَّة. (المُترجم)

منحهم جميعاً سِيراً ذاتيَّة مُعقَّدة، وامتلكوا أساليبهم وفلسفاتهم المميَّزة. ويتفاعلُ هؤلاء الأنداد، في بعض الأحيان، بعضهم مع بعض، حتَّى إنَّ بعضاً منهم ينتقد أعمال بعضهم الآخر، أو يعمد بعضٌ منهم إلى ترجمة أعمال بعضهم الآخر. وكانت ثلةٌ من كُتَّاب بِسُوَّا المُتخيَّلين مُجرَّد صور وصفيَّة، وكتب نفرٌ منهم بالإنگليزيَّة والفرنسيَّة، بَيْدَ أنَّ أنداده الثَّلاثة الرَّئيسين: ألبيرتو كَآيُرُو، وريكاردو خَايِشُ، وألقر دو كامپوش (٥) لم يكتبوا إلّا بالبرتغاليَّة، وأنتج كلُّ واحد منهم مدوَّنة أعمال في مُنتهَى المتانة والقوَّة.

ولهذا «الكتاب» أيضاً غيرُ مؤلّف، وهو لم يكتمل بتاتاً، ولم يُوضَع في أيِّ نسَقٍ قَط، فظلً شَدْرِياً دائماً. كان فيسنته غيدِش أوَّل «مؤلّفيه»، الذي كتب قطعاً نثريَّة شِبه-رمزيَّة كي تُدرَج في شيءٍ كان بِسُوَّا قد أطلق عليه، منذ بداية العام 1913، «كتاب القلق». وَصفت تُدرَج في شيءٍ كان بِسُوَّا قد أطلق عليه، منذ بداية العام 1913، «كتاب القلق». وَصفت هذه النّصوص في الغالب حالات ذهنيَّة معينة، أو مناظر طبيعيَّة مُتخيَّلة، أو أسدتِ النّصح إلى الحالمين المحتملين أو حتى إلى المتزوِّجات التّعيسات (وهو موضوع بدا بِسُوَّا العازب، للوهلة الأولى، لا يعرف عنه أيَّ شيء على الإطلاق) أو إلى أولئك الذين فقدوا مِثلَة إيمائهم الدّينيَّ. ولكنْ يبدو أنَّ الكتاب قد ضلَّ طريقة، في نحو العام 1920، فنسي بِسُوَّا أمرَ غيدش و«كتابَ القلق». بعدَها يأخذ الكتاب، في العام 1929، منحى مختلفاً بمؤلِّف آخر، هو برناردو سوارش؛ كاتب الحسابات المتواضع الذي يعمل بمكتب في وسط مدينة لشبونة، ويقفي أوقات فراغه يكتب «سيرة شخص لم يُوجَد على الإطلاق». وصف بِسُوَّا سوارش بأنَّ شخصيَّته ليستْ شخصيَّي، أوقات فراغه يكتب «سيرة شخص لم يُوجَد على الإطلاق». وصف بِسُوّا سوارش بأنً ليس إلَّا «شِبْهُ نِدِّ الله عن شخصيَّي، ولكنَّها بالأحرى مجرَّد تشويه بسيط لها. إنَّه أنا ناقصاً المنطق والانفعال الوجدانيًّ» (ف).

لقد شعر بِسُوًّا أَنَّ سوارش كان المؤلِّف المثاليَّ، حتَّى إِنَّه وضع خُطَّة لما سوف يفعله بتلك الشَّذرات:

ولا بُدَّ أَن يُنظُّم الكتاب وفقَ انتخابٍ صارم، بِقَدْر المستطاع، للنُّصوص الموجودة،

⁽⁸⁾ هكذا تلفظ هذه الأسماء في البرتغاليّة الأوروبيّة، وليس كما شاع لفظها في الثقافة العربيّة؛ فهو «كآيْرُو Caeiro» وليس «كاييرو»؛ وخَايِشْ Reis» وليس ريِّس؛ و«القر Alvaro»، وليس القارو. (المترجم) (9) وذلك في رسالة بعثها في 13 يناير 1935 إلى الشَّاعر والنَّاقد أدولفو كاشياس مونتيرو Monteiro. (المترجم)

مع تهيئة أيِّ نصوص قديمة كي تغدو متوائمة مع سيكولوجيَّة برناردو سوارش، مثلما تتجلَّى في هذه الأوقات. ولا بُدَّ، بمعزل عن هذه المسألة، القيام بمراجعة عامَّة للأسلوب، ولكن دون فقدان النَّبرة الشخصيَّة أو المنطق المنحرف، غير المتهاسك، الذي يميِّزها،

ولم يشرع بِسُوّا قَطُّ في عمليَّة الانتخاب الصَّارم والتَّهيئة تلك. وبذلك، ظلَّ «الكتاب» عملاً في طَوْر التَّطوُّر إلى الأبد. ولم تظهر الشَّذرات حقيقة في هيئة كتاب بالبرتغاليَّة، رغم نَشر بعضها في المجلَّات وبِسُوَّا حيِّ، إلَّا عامَ 1982، أي بعد 47 عاماً من موته. والفضل في ذلك يعود إلى ماريًا ألبيتي غالوس، وتريزا سوبراو كونيا، وجاسينتو ذو پرادو كويلو الذين فكُوا شفرة كتابة بِسُوَّا التي تكاد تكون عصيَّة على القراءة، ووضعوا النُّصوص (بعضها مؤرَّخ، ومعظمها من دون تاريخ) ضمن ترتيب متناسق. ولذلك كان لا بُدَّ أن تكون كلُّ طبعة برتغاليَّة لاحقة مختلفة، وكلُّ ترجمة أيضاً، ضامة العديد من النصوص ذاتها، ولكن طبعة برتغاليَّة لاحقة مختلفة، وكلُّ ترجمة أيضاً، ضامة العديد من النصوص ذاتها، ولكن أعال بِسُوَّا – تقترحُ أن نقرأ «كتاب القلق»، على الشَّاكلة التي تطوَّر بها، دون خلط النُّصوص التي تنتمي إلى مرحلة سوارش. يقول بيسارُّو: إنَّ أمياً التي تنتمي إلى مرحلة سوارش. يقول بيسارُّو: إنَّ التي تنتمي إلى مرحلة سوارش. يقول بيسارُّو: إنَّ التي تنتمي إلى مرحلة سوارش. يقول بيسارُّو: إنَّ التي تنتمي إلى مرحلة عيدش مع تلك التي تنتمي إلى مرحلة سوارش. يقول بيسارُّو: إنَّ التي تنتمي إلى مرحلة من الكتاب الثَّاني فحسب. يقطن مؤلِّف الكتاب الأوَّل كوناً غامضاً يكاد يكون طيفياً، في حين عيضن الكتاب الثَّاني فحسب. يقطن مؤلِّف الكتاب الأوَّل كوناً غامضاً يكاد يكون طيفياً، في حين عيضن الكتاب الثَّاني لشبونة ويحنفي بها: «آه، لشبونة، يا موطني !». [252]

ما الذي يجعل هذا الكتاب ثرياً ومُجزياً؟ إنَّه، في النِّهاية، «يو ميَّات» كاتب أو كُتَّاب، طافح بمشاعر القلَق الوجوديِّ والاغتراب؛ ويمكن للفظة «desassossego»، التي في العنوان، أن تُترجَم على وجوه مختلفة: «Turmoil/Unease/Unrest/Anxiety/Disquiet» ولكنَّ معظم القرَّاء يجدون في هذه النُّصوص المتباينة مصدراً للرَّاحة، وحتَّى للبهجة. وأعتقد أنَّ هذا عائدٌ كثيراً إلى أنَّ المرء يشعر بالمواساة حين يعثر على تلك اللَّحظات، وتلك الحالات الدَّهنيَّة

⁽¹⁰⁾ وتجمع لفظة «القلّق» هذه المفردات جميعاً، بدرجاتها المنفاوتة، وهي الأقرب في معناها إلى لفظة desassossego و البرتغاليّة، ولهذا آثرتُ ترجمة العنوان بـ «كتاب القلّق». (المترجم)

الموصوفة على نحو عاطفي، عبر نثر بارع نادر الوجود. والشِّيء الذي أُحبُّه في هذا الكتاب الذِّهنيِّ على نحو جلٍّ هُو التَّفاصيلُ المحسوسة، كمشهد الشَّارع هذا:

الترامات تهدرُ وتُقرقع حول أطراف السّاحة، كغلب ثقابٍ كبيرة، صفراة، متحرِّكة، حين حيث غرز طفلٌ عودَ ثقاب مُستهلَكاً في إحدى الزَّوايا كانَّهُ سارية؛ تُطلِق، حين تنطلق، صغيراً عالياً صاراً كالحديد. والحهام الذي يتجوَّل حول التَّمثال المركزيُّ يشبه فُتاتاً مُعتهاً بتبدَّل دائهاً تحت رحمة ريح مُبعثِرة. [240]

أو هذا التَّأمُّل في الاستيقاظ من النَّوم:

وحين بأي الضّوء المعتم الذي يملاً شقوق المصاريع (البعيدة، كلَّ البُعْد، عن أن تكون كتيمة، مُحكمة السَّدًا) بِرِيَب رماديَّة، ينتابني شعور أنَّني لن أكون قادراً على أن أظلَّ طويلاً في مأواي، مستلقياً على سريري، غير ناثم، ولكنْ يعتريني إحساسٌ لا ينقطع باحتياليَّة النَّوم، والانجراف في الأحلام. لا أعرفُ إنْ كانت الحقيقة هي الموجودة أم الواقع، مُحدَّداً بين الدِّفء العذب للملاءات النَّظيفة، غير مُدرك، بعيداً عن الإحساس بالرَّاحة، وجود جسدي نفسه. أشعرُ بانحسار الافتقار البَهيج للوعي الذي يستمتع به وعيي، الطَّريقة الحيوانيَّة، الكسولة، التي أنظرُ بها من بين عينيْن نصف مغمضتيْن، مثل قِطِّ في الشَّمس، إلى الحركات المنطقيَّة لمخيِّلتي المُطلقة السَّراح. أشعر بالانزلاق بعيداً عن امتيازات هالة الظلِّ، حيث الأنهار البطيئة التي تجري أسفل أشجار رموشي المَلمُوحة شَرْراً، وهمس الشَّلَالات المفقودة بين صوت تجري أسفل أشجار رموشي المَلمُوحة شَرْراً، وهمس الشَّلَالات المفقودة بين صوت الدَّم المتواني الذي يدقُّ في أُذُنيَّ، والمطر الخافت الذي لا يكفُّ. أفقدُ نَفْسي في الحياة على مَهلي. لا أعرفُ إنْ كنتُ نائهاً أمْ أنَّني أتوهم ذلك فحسب. [205]

ويُعَدُّ «الكتاب الثَّاني»، إلى حدِّ بعيد، ترنيمةً إلى لشبونة التي عشقها بِسُوَّا، ولم يغادرها، إلَّا نادراً، بعد عودته من جنوب إفريقيا:

ولكنَّني أحبُّ نهر تيجو لأنَّ المدينة العظيمة مُشيَّدة على ضفَّتيه. وأستمتعُ بالسَّماء لأنَّني أراها من نافلة الطَّابق الرَّابع بشارع في بَايْشًا. فلا شيء في الرِّيف أو في

الطَّبيعة يستطيع أن يمنحني أيَّ شيء يعدل البهاءَ المُتشظِّي للمدينة الهادئة، المضاءة بنور القمر، حين تُرَى من غرَاسًا أو سَوْ بِيدْرُوْ ذَا الْكَنْتَرَة. فلا زهورَ، بالنِّسبة إليَّ، ينور القمر، حين تُرَى من غرَاسًا أو سَوْ بِيدْرُوْ ذَا الْكَنْتَرَة. فلا زهورَ، بالنِّسبة إليَّ، يمكن أن تضاهي ألوان لشبونة التي لا تكفُّ عن التلون بأشعّة الشَّمس. [358]

إنَّ المتعة المُطلَقة في [تذوُّق] اللَّغة، والمتعة في التَّفكير، بل المتعة في الرُّؤية، هي التي تجعل كتاب القلَق، من دون شكَّ، ذلك الكتاب الذي يبعث على الرَّاحة، مثلها بدا أنَّهُ كذلك بالنِّسبة إلى مؤلِّفه/ مؤلِّفيه(11):

أكتبُ غالباً من دون رغبة في النَّفكير، في حلم يقظة خارجيٍّ، تاركاً الكلمات تداعبني كما لو كنتُ فتاةً صغيرة تجلس في حضنها. إنها بجرَّد بُحَل بلا أيِّ معنى، تتدفَّقُ متكاسلة مع تدفُّق الماء الذي ينسى نَفْسَهُ مثلها يفعل الجدولُ بالأمواج التي تختلطُ وتتلاشى، ثُمَّ تُولَد ثانيةً إلى الأبد، متدفِّقة بلا نهاية بعضها فوق بعض. هكذا تعبُرُني الأفكارُ والصُّور، المرتعشة بانتَّعابير، كأنَّها موكبُ حرائر باهتة تحفُّ، تُومِضُ في وسطها فضَّةُ فكرةٍ، مُوشَّاة وغائمة في ضوء القمر. [326]

وحين سألني پيت آيرتن (٢٠) صاحبُ دار «سير پنتس تبيل» للنَّشر، في العام 1990، إن كنت أرغب (أستطيع؟) في ترجمة (١٤) كتاب القلق لفرناندو پِسُوَّا، فإنَّ تلك المتعة في تذوُّق اللَّغة والتَّفكير والرُّوية هي التي جعلتني، تحديداً، أوافق بلا تردُّد. اعتمدت طبعة «سير پنتس تبيل» على المنتخبات التي وضعتها ماريًّا جوزيه لانكاستري (١١) وترجمها إلى الإيطاليَّة أنطونيو تابوكي. وحين سُئِلتُ، قبل عام أو نحو ذلك، إنْ كنتُ راغبةً في ترجمة طبعة أكثر

A Property of the same

⁽¹¹⁾ الثَّلاثةُ على حدُّ سواء: غيدهي وسوارهي ويشوًّا نَفْسُه. (المترجم)

⁽¹²⁾ Pete Ayrton: مترجم مرموق من الفرنسيَّة والإيطاليَّة، أنشأ في العام 1986 دار Serpent's Tail المستقلَّة، المتخصصة في نشر الأدب المترجم والأعمال الرَّوائيَّة الأولى. (المترجم)

⁽¹³⁾ لا بُدُ من الإشارة إلى أنَّ هذه التُرجمة التي تشير إليها مارغريت جول كوستا، والتي صدرت عن دار «سيرينتس تبيل» في العام 1991، بتحرير ماريًّا جوزيه لانكاستري، وتقدمة جون بويد، فازت بجائرة «Prize» في العام 1992. (المترجم)

⁽¹⁴⁾ ماريًّا لاكاستري هي زوجة أنطوبيو تابوكي، وأستاذة الأدب البرتعالي في عدَّة جامعات، ومترجمة بعض أعمال بر يُسُوَّا إِلَى الإِبطَاليَّة. (المترجم)

اكتمالاً، اعتماداً على طبعة خيرونيمو بيسارُ و(١٥)، اغتنمتُ الفرصة ولم أُفوِّتها بتاتاً.

تحوي طبعة خيرونيمو پيسارُ و نصوصاً كثيرة حُذفَتْ من طبعة ماريًا جوزيه لانكاستري، وحين واجهتُ تلك النُّصوص الجديدة، تذكَّرتُ مدى الصُّعوبة التي تواجه المترجم كي يعشر على المعنى في تلك الجُمَل «التي بلا معنى» -التي غالباً ما تكون غامضة ومُحيِّرة - وأن يُعيد، في الوقت ذاته، إنتاجَ الانسيابيَّة المتوانية ذاتها في الإنگليزيَّة، ذلك الصَّوت المُغري. وكان يسوًا قد كتب، في مُفتَتح النَّص 362، الذي سبق الاستشهاد بمقتطف منه أعلاه، قائلاً: «ألتلُّ حين أنطقُ الكلهات ... فالكلهات بالنِّسبة إليَّ أجسادٌ ملموسة، عرائسُ بحر جَلِيَّة، رغباتُ شهوانيَّة متجسِّدة». والقبضُ على تلك الحِسيَّة المستشعرة هُو التَّحدِّي الثَّالَث الذي يواجه المترجم. فهَا هي الجُملة الثَّانية من النَّص 264:

As casas desigualam-se num aglomerado retido, e o luar, com manchas de incerteza, estagna de madrepérola os solavancos mortos da confusão.

والمنازل، المختلفة جميعاً، تنتصب معاً في حشد مُكتظً على بكرة أبيه، وضوءُ القمر الحيران، حيرة المدينة نَفْسها، يُبرِّكُ هذه الفوضى الصَّامتة، المتدافعة، بعِرقٍ من اللَّؤلؤ.

يمكن لهذه الجُملة، من القراءة الأولى، أن تكون واحدة من تلك الجُمَل «التي لا معنى لها»، ولكنّها، على الرّغم من ذلك، طافحة بالمعنى. فالصعوبة (٥٠) التي تواجه المترجم تكمنُ (أ) في فهم «مَا» يقصده المؤلّف، و(ب) تخيّل الصُّورة التي يبتكرها، و(ج) نقل ذلك المعنى، وتحسوسة، وحِسيّة. إنَّ مجاراة الأصل لن تُجدي نفعاً، بكلّ بساطة، في هذه الحالة البتّة. فمن المفارقة، إذن، أن تضطر التَّرجمةُ إلى اتّخاذ خطوة جريئة مما في الابتعاد عن الأصل إذا أرادت الحفاظ على المعنى والصُّور المجازيّة. فقد شعرتُ أنَّ عماماً في الابتعاد عن الأصل إذا أرادت الحفاظ على المعنى والصُّور المجازيّة. فقد شعرتُ أنَّ

⁽¹⁵⁾ Jerónimo Pizarro: محرِّر و ناقد ومترجم، يعمل رئيساً لقسم الدِّر اسات البرتغاليَّة في معهد كامويش في كولومبيا، ويرأس تحرير مجلة «Pessoa Plural» المتخصصة بكلِّ ما يتعلق بأعمال بِسُوَّا و حياته. ويعدُّ من القلائل الذين عكفوا طويلاً عمى فكُّ «شفرة» كتابات بِسُوَّا العصيَّة على القراءة. (المترجم)

⁽¹⁶⁾ وتحدر الإشارة، هُنَا، إلى أنَّ قاليرياً توكُو، مترجمة كتاب القلق لى الإيطالية، قد تحدَّثت في مقدَّمتها عن الصَّعوبة التي واجهتها في ترحمة نثر بِشُوَّا، جرَّاء حنوحه إلى اختلاق الفاط و تعابير جديدة و نحت كلمات لم تكن مستخدمة من قبنه في اللغة البرتغالية. أنظر الحاشية 314، لمزيد من التَّفصيل. (المترجم)

الفعل الأوَّل «desigualam se» - الذي يعنى، حرفياً «يغدو مختلفاً أو مُتغايراً» - يعمل بصورة أفضل، إلى حدٌّ كبير، لو حُوِّل إلى صفةٍ: «تُختلِف». و لأنَّني أحتاجُ إلى فعل آخَر في تلك الجملة، فقد اخترتُ «تنتصبُ معاً»، فتلك المنازلُ، المرئيَّة في اللَّيل من مسافة بعيدة، هي -في ذهني- مثل حشدٍ مُكتظِّ وصامت، يخالطُ بعضُه بعضاً، على مضض. والطَّابع الإنساني الذي تمتاز به هذه المنازل مؤكَّدٌ، على نحو أكثر، باستخدامي لكلمة «صامتة» و «متدافعة» لوصف كلمة "confusão"؛ فكلمة "صامتة" بعيدة تماماً عن المعنى المعناد لكلمة "morto"، التي تعني «ميِّتة»، بالطَّبع، ولكنَّها تحمل، أيضاً، معنى «الباهت»، و«عديم الحياة/ الجامد»، و«المتعَب»، و «المُطفَأَ»، و «الأخرس/ المكتوم الصُّوت». أمَّا كلمة «متدافعة»، فهي بعيدة كلَّ البُعْد عن كلمة «solavancos»، التي تعني «خضَّات» أو «صدمات». ثُمَّ أقولُ، بُجِدُّداً، إنَّ الكلمات التي يستخدمها في البرتغاليَّة ليست، بالضرورة، هي الكلمات التي قد يقرنها المرءُ بالمنازل. نُمَّ إنَّ سبب إضافة عبارة «الحائر حيرة المدينة نَفْسها» عائدٌ إلى ظهور كلمة «حائرة» في الفقرة الأولى أيضاً، وليستُ إضافتي إلَّا وسيلة لتفسير ذلك التِّكرار. ثُمَّ هُنَاك عبارة (estagna de madrepérola" - "يركدُ مع عِرق اللؤلؤ" - التي لا تعني، في الإنگليزيَّة، أيَّ شيء البتَّة. فكان لزاماً عليَّ، مرَّة أخرى، أن أتصوَّر المشهد الذي كان يصفه، ضوء القمر وهو يُرقَّشُ تأويلي لـ «manchas»، التي تعني «يُبقِّع» – المنازلَ بعِرق اللَّؤلؤ، ولكنَّني أردتُّ استخدام فعل ينطوي، مثل فعل «estagna» يركد»، على إيحاءات تشير إلى الماء، فبدا الفعل "يُبرِّكُ puddles»(17) -الذي هُوَ بعيد تماماً عن أن يكون فعلاً شائعاً في الإنگليزيَّة- يشي بالإيجاء المائيِّ الضَّروريِّ، علاوة على أنَّه يُحقِّق تأثير التَّرقيش ذاك. أُدرِكُ أنَّني قد أَتَّهَم بالانحراف كثيراً عن الأصل، ولكنَّني شعرتُ ألا بديلَ لديَّ، حين واجهتني جملةٌ شديدة التَّعقيد، في معناها وتركيبها

⁽¹⁷⁾ نستخدم جول كوستا، هُنا، كلمة puddle التي تعني بِرْكَة، بصيغة الفعل «puddles» على الرَّغم من أنّها، كما تقول، بعيدةً، كلَّ البُغد عن أن تكول فعلاً شائعاً في الإنگليزيَّة؛ ولكلَّ اللغة العربيَّة قد تحتمل مثل هذا «الانزياح»؛ تقول العرب «بَرُك السُحاب: إذا اشتدُ مطره فقشَّر وجه الأرض»، وتقول أيضاً: «بَرْكَت ابْرَكَت السَّماءُ: إذا تهاطلَّ أمطارُها دُوغًا انقطاع». ولهذا فقد آلرت استخدام الفعل «بَرُك» (الذي بتناعم لفظياً مع كلمة «بركة») كمديل له «مطارُها دُوغًا انقطوي عليه من إيحاءات تشير إلى الماء، فكأنَّ القمر يهطلُ على تلك الفوضى انصَّامته عرفاً من اللُّولو، وهو عين المعنى الذي قصدته جول كوستا حين استحدمت «puddles»، وعين المعنى الذي أرادة بسُوًا؛ أصلاً، حين استخدم «puddles»، عرفاً من اللُّولو.

النَّحُويِّ، سوى إعادة ابتكار الشَّيء كلِّه من جديد، مع المحافظة قَدْرَ اللَّستطاع في الوقت ذاته - تلك المفارقة، مرَّة أخرى - على دلالة المعنى الضّمنيَّة، والفروق الدَّقيقة بين الكلهات، والإيقاع، والمحافظة - أَجَل - على غرابة الصِّياغة أو الألفاظ. فنثرُ غيدش/ سوارش/ بِسُوَّا، مثل جميع النَّشر البديع، يُجبِر المترجم على أن يمدَّ حدود لغته إلى أقصاها، وأن يغوص في وعيه النَّد البديع، على طرائق جديدة للتَّعبير عن المعنى.

ولقد تُرجِم كتاب القلِّق إلى لغات عدَّة، فكانت كلُّ طبعة من تلك الطبعات المترجمة متباينةً، بنصوص مختلفة غالباً وفقَ ترتيب مغاير. وقام تيم هو بكنز، من دار «هاف پنْت پرس» اللُّندنيَّة، في العام 2017، بوضع نسخة أخرى، تتكوَّن من شذرات شتى، مُنضَّدة ومطبوعة يدوياً على مجموعة منتخبة من المواد المُهملة التي لا تدوم طويلاً -مثل صورة بالأبيض والأسود، ودفتر أوراق يانصيب، ومحرمة ورقيَّة من تلك المحارم المستخدمة في المقاهي، وبطاقة عمل شخصيَّة، وعلبة أعواد ثقاب، على سبيل المثال- ثُمَّ وضعها، بلا أيِّ ترابط، في صندوق مطبوع يدوياً. يمنحُ هذا العمل المرءَ إحساساً مُنَمْنَهُ عَمَّا كان يتوجَّب أن يشعر به لو اكتشف صندوق الأوراق ذاك، بعد وفاة پسُوًّا، وشرع في تجميع تلك الأوراق ليصنع منها كتباً شعريَّة ونثريَّة كاملة. ولكنَّ عدم اكتمال الكتاب، في حدِّ ذاته، شيءٌ مُغر، ويُشجِّع القارئ بطريقة ما على صُنع كتابهُ الخاص من تلك الشَّذرات. فما ينتظرُ كلُّ قارئ لـ «كتاب القلَق» هو المُتعة المحضة وليدة الصُّدفة الناجمة عن فتح الكتاب بشكل عشوائيِّ وقراءة أيِّ شذرة يقع نظره عليها بالصدفة. وكلُّما صادفتُ صورةً فوتوغرافيَّة لبِسُوًّا ووجهه الذَّائع الصِّيت، الخالي من أيِّ تعبير، الذي لا يرغبُ في أن يُرَى، أتخيَّلُ عقلَهُ وكأنَّه ذلك الصَّندوق، مزدهمَّا بكلِّ هؤلاء الكُتَّابِ الآخَرين وتلك المشاريع اللَّانهائيَّة التي لن تكتمل أبداً، وطافحاً، على شاكلة «كتاب القلق»، بالأفكار والصُّور والمشاعر.

مارغريت جُول كُوستا (١٤)

⁽¹⁸⁾ مارغريت جُول كُوستا Margaret Jull Costa؛ مترجمة بريطانيَّة، تنقل عن البرتغاليَّة والإسپائية، ذاع صبتُها للتَّرجمات التي أنجزتها لجوزيه ساراماغو. أصدرت أكثر من تسعين كتاب مترجماً، وفازت بنحو 18 جائرة في التُرجمة، آخرها حائزة «Premio Valle-Inclán» في العم 201/ عن ترحمتها لرواية «على الحافّة» لرفاييل تشيريس. (المترجم)

ملحوظة محرّر الطبعة الإنگليزيّة

يُعَدُّ كتابُ القلَّق، الذي هُوَ صورة وصفيَّة شخصيَّة للشبونة، ولراسم صورتها هذه، تُّحفةَ فرناندو يسُوًّا النَّثريَّة، وأحدَ أعظم الأعمال الأدبيَّة التي ظهرت في القرن العشرين. وتبدو المقولة منطوية على مفارقة حين يخطر ببالنا أنَّ پسُوًّا لم يُكمل كتاب القلق قَطَّ. لم يفعل سوى أنَّه كدُّس مثات الشَّذرات في صناديقه؛ إذ كان يعتقد أنَّ إكمالَهُ سوف يكون شكلاً من أشكال الجُبْن، أو العجز، أو «مسيرة هزيمة» (وهو العنوان الذي أطلقه، في البدء، على قصيدة «دكَّان بائع التَّبغ»). ولكنَّ هذا الكتاب -الذي بذل محرِّروه المتعاقبون كلُّ ما في وسعهم لجمعه وإكماله- هذا الجُبْن البهيج، وهذا العجز الخصيب، وهذه الهزيمة المُظفَّرة، هُوَ فِي الوقت الرَّاهن كتابٌ لا بُدَّ من قراءته لِمَن يرغب في «البَدْء» بقراءة أعمال پسُوًّا. بدأ «كتاب القلَّق» بوصفه نوعاً من يوميَّاتِ ما-بعد-رمزيَّة متأثِّرة باليوميَّات والاعترافات التقليديَّة التي ظهرت في القرن التَّاسع عشر، ولكنَّه انتهى بوصفه يوميَّاتِ شخص مُتخيَّل: قُسِنْتِه غِيْدِش، في البَدْء، ومِن ثُمَّ برناردو سوارش، الذي عمل في وسط مدينة لشبونة. ولكنَّ الكتاب، علاوة على اليوميَّات التي كتبتها هذه الأنا الأخرى المُتخيَّلة، كان بمثابة الصُّورة الشَّخصيَّة (البورتريه) لهذا المحاسب المساعد الذي يعمل في لشبونة؛ الصورة الشخصيَّة التي من المستحيل فصلها عن وصف المدينة التي يعيش فيها «بَارْتِلْبِي»(١٥) المعاصر هذا. ونعثرُ، في فقرة يحاول فيها المؤلِّف الْمُتخيَّل تفادي التَّأثيرات الرُّومانسيَّة، على التَّعليق التَّالى:

قال أَمْيِل إِنَّ المنظر الطبيعيِّ حالةٌ ذهنيَّة، ولكنَّ هذه العبارة البهيجةَ قد صاغها على نحو يفتقرُ إلى الدَّقة حالمٌ فاترُ الهِمَّة. فالمنظرُ الطَّبيعيُّ منظرٌ طبيعيُّ ولا يمكنُ أن يكون حالةً ذهنيَّة. ولا بُدَّ للمرء، كي يكون قادراً على التَّجُسيد، أن يكون قادراً على التَّجُسيد، أن يكون قادراً على الخَلْق، فلا أحدَ يقول إنَّ قصيدةً مُكتملةً هِيَ حالةً ذهنيَّةٌ عن التَّفكير في كتابة

⁽¹⁹⁾ Bartleby: إشارة إلى بارتبي النّساخ، الشخصيّة الشهيرة في القصة القصيرة الذي كتبها هيرمن ميثقِل (المترجم)

قصيدة. فقد تكون الرُّؤية أنْ نحلم ولكنَّنا نستخدم كلمة «رؤية» بدلاً من كلمة «حُلم» لأنَّنا نُفرَّقُ بين الرُّؤية والحُلم. [...] سيكون من الأصوب القول إنَّ الحالة الدِّهنيَّة منظرٌ طبيعيٌ، وبذلك تعدو هذه المقولة عيَّزةً بأنَّها لا تحوي بُهتان نظريةٍ ورنَّها تحوي حقيقة استعارة. [386]

إنَّ المنظر الطَّبيعي لِـ «كتاب القلَق»، مثلها أراه، ليس بالضَّبط مدينة لشبونة التي تصيب البطل بالقلَق، وإنَّها بالأحرى توعُكُّ بِسُوَّا نَفْسه وسأمُه الذي يغدو المنظر الطَّبيعيَّ للكتاب. فـ «كتاب القلَق» يوميَّاتٌ حيمية -على شاكلة «يوميَّات حيمة» لِأَمْيل - وليس كذلك على حدِّ سواء. إنَّهُ يوميَّات كاتب، ويوميَّات شخص يكتب لتزجية السَّاعات التي تعقب العشاء، ولكنَّ «اعترافات» الزَّمن المعاصر هذه -إنْ كان يعنُّ على بالنا القدِّيس أوغسطين وروسُّولكنَّ «اعترافات» الزَّمن المعاصر هذه -إنْ كان يعنُّ على بالنا القدِّيس أوغسطين وروسُّوليستُ إلَّا «أعترافات» حيمية أو شخصيَّة، في ضوء أنَّ جميع أعمال القَصِّ العظيمة شخصيَّة، على نطاق عالميًّ، من دون استثناء. إنَّ صُور لشبونة الشَّخصيَّة، وتلك الصُّور الشَّخصيَّة لذلك الذي يرميم هذه الصُّور؛ الموظَّفُ المكتبيُّ الذي عمل في عدَّة شركات في وسط مدينة لشبونة (على شاكلة بِسُوَّا تماماً)، لا يختلف بعضُها عن بعض. فقلَقُ بِسُوَّا ينهمر على المدينة مثل المطر.

تقترحُ هذه الطبعة ضرورة أنْ يُقرأ «كتاب القلَق» على الشَّاكلة التي ظهر بها إلى الوجود، لا بخلط نصوص الطَّوْر الأوَّل مع تلك التي تنتمي إلى الطَّوْر الثَّاني. لقد كان ثمَّة كتاب أوَّل وكتابٌ ثان -مرَّتُ عدَّةُ سنوات بينها - فلا ضرورة، إذن، إلى إجراء مونتاج موضوعات لتوحيد ما لا يحتاجُ إلى توحيد. فثمة عنفٌ غير ضروريٌ تنطوي عليه سيرورةُ جمع نصوص تفصل بين أوقات كتابتها سنوات كثيرة، أو خلق نصوص طويلة من تلك الصَّغيرة، أو التَّقليل من أهيَّة قسنته غيدش كمؤلِّف مشارك في صناعة الكتاب، فارضين وحدةً تأليفيَّة عت اسم فرناندو بِسُوَّا؛ الاسم الذي كان مُفرداً وبصيغة الجَمْع، على حدِّ سواءِ، دائمً وسيبقى كذلك.

تظهر النُّصوص، في هذه الطبعة، في الغالب الأعمِّ، وفقَ التَّرتيب الذي رُتِّبت به في طبعني النَّقديَّة لـ «كتاب القلَق Livro do desassossego» الصَّادرة في العام 2010، عن دار «إمْپرِنْسَا مُعْمِرِنْسَا حَارَا ذا موِيْذَا»، التي أعادت طبعها دارُ "تِينْتَا -ذا - شِينَا»، دون التَّرتيب النَّقديُّ

ذاته، في العام 2013. ولم أغير، في هذه الطبعة الأخيرة، سوى موضع بعض النُصوص التي قُصِد أن تكون تمهيديَّة وبعض النُصوص الأخرى التي تحمل قرينة الأحرف الأولى «L. do D.» (الله متبوعة بعلامة استفهام. علاوة على أنَّني قد رجعت أيضاً إلى جميع طبعات اكتاب القلق» الأخرى، المتوافِرة قبل شهر يونيو 2012، فأجريتُ بعض التَّعديلات الإضافيَّة على قراءتي الشخصيَّة لبعض نصوصه الأصليَّة.

إن هذا الكتاب، وفق كلمات بِسُوًا نفسه، "يقين سيمفونيٌّ عظيم"، نجحت مارغريت جول كوستا في ترجمته إلى الإنگليزيَّة بـ "إعادة استلهام [تلك الشَّذرات]، التي من دونها تكون التَّرجة مجرَّد إعادة صياغة في لغة أخرى»، على حدِّ قول بِسُوَّا في واحدة من شذراته المأثورة. أودُّ أن أشكرها على عملها البارع، وأشكر نِكْ شيرين من دار "سيربنت تيبل" على دعمه غير المشروط لهذه المشروع.

خيرونيمو بيسارو

معدمه الطبعة العربية

بقلم رصاص، على سرير المرض، مرتعداً من الحمّى، والأوجاع تقطّع أحشاءه، خطَّ فرناندو پِسُوَّا (20 كلماته الأخيرة، بالإنگليزيَّة، قبل يوم واحد من موته المحتوم: «لا أعرفُ ما الذي سيأتي به الغَدُ»(22).

لم يكتب شذرة الأنفاس الأخيرة هذه واقفاً مثلها تعوَّد أن يكتب، وإنَّها طريحَ الفراش، هذه المرَّة، بغرفة صغيرة في مستشفى القدِّيس لُويش (دَّ)، وقُبَّعته السَّوداء، الذَّائعة الصِّيت، مرميَّةٌ على ظهر الخزانة الصَّغيرة ونظَّرته الصَّغيرة اللَّدوَّرة، التي لا تقلُّ شهرةً عن صاحبها، ولا عن قُبَّعته تلك، مطويَّةٌ على الطَّاولة.

«ناولوني نظَّارتي» (٤٤)، قالها يِسُوَّا قبل أن تصعد روحه في معراجها الأخير. لم يكُن معه في غرفة المستشفى، في تلك اللَّحظة، سوى الطَّبيب والممرِّضة والقسِّيس. كان قد أدخل المستشفى في اليوم السَّابق، ورفض أن تجرى له عمليَّة جراحيَّة، وفضَّل قضاء ساعاته الأخيرة وحيداً، إلَّا من رفقة الثَّلاثة هؤلاء.

«نظرتُ من حولي، فوجدتُ أنّني في حجرة، وعلى سرير، جسدي يؤلمني، بطني تتقطّع، ومعدي منتفخة، ورأسي يدقُّ من الوجع. ثُم رأيتُ مُرِّضة، في هذه الأثناء، فسألتها بجهد جهيد: «أين أنا؟» فأجابت: «أنت في مستشفى القديس لويش»، ثُمَّ صحتُ، بصوت عال: «في أيّ يوم نحن؟» فأجابتني المرِّضة، التي مازالت واقفة هُنَاك: «إنّه الـ 30 من نوڤمبر». فسرحتُ بأفكاري: الحياةُ سريعة الزَّوال... الآلام تشتدُّ موجاتٍ على موجات. حسناً، هذه نهايتي؟ تذكّرتُ، لوهلةٍ، قصيدةَ ألبيرتو كآيرو:

⁽²¹⁾ هذا هو اللفظ الصحيح لاسمه في البرتغاليَّة الأوروبيَّة: بِشوًّا Pessoa، وليس «بيسوا» كما شاع عندنا في الثقافة العربية.

^{(22) «}know not what tomorrow will bring» (22)، وهي مؤرِّحة من لدن بِسُوَّا نفسه على هذا النَّحو: (29–11– 1935)، بحسب صورة الوثيقة المحفوظة في أرشيف بِشُوَّا بالمكتبة الوطنية في البرتعال.

⁽²³⁾ ثمة صور فوتوغرافيَّة منتقطة لهذه الغرفة تُطهِر هذا المشهد.

العيارة في الأصل البرتغالي: dá-me os óculos.

«لعلَّهُ آخرُ يوم في حياتي رفعتُ يدي اليُّمني كي أُلوِّح للشَّمس وداعاً، ولكنَّني لم أرفعها تلويحة وداع، فقد كنتُ سعيداً أن أرى الشَّمس، ليس إلَّا».

مات بِسُوّا في السّاعة الثامنة مساءً. فهل كانت هذه السّاعة محض صُدفة؟ ألم تكُن تلك «السّاعة» هي التي طلب أن يُعَاد فيها إلى نَفْسه! ألم يكتب، في «كتاب القلّق»، قائلاً: «أسمعُ جرساً أو برج أجراس يدقُّ السّاعة، لا بُدَّ أنَّها السّاعة الثّامنة على الرغم من أنَّني لا أعُدُّه. مات في الساعة الثّامنة مساء الثلاثين من شهر نو قمبر سنة 1935. أهي مصادفة أخرى؟ أن يموت مساء آخر يوم من شهر نو قمبر، الشهر الذي يرمز إليه بزهرة الأقحوان؛ رمز الموت في الثقافة الأوروبيَّة، وشارة الحزن والضرَّاء والرِّثاء. زهرة الأقحوان التي تمنَّى أن يُنشَر مع بتلاتها، حين ابتهل إلى محبوبته، منشداً:

«يا حُبِّي، انثريني مع البتلات عن وردك الأمثل، زنابقك الأكمل، بتلات الأقحوان التي يفوح منها نغم اسمك. سأُميتُ حياتي فيكِ،

لقد تاق إلى الموت في الورد الأمثل، فهات مكلَّلاً، كما يشتهي بزهرة الذَّهب، زهرة الأقحوان:

«كَلِّلُونِيَ بالوردِ كَلِّلُونِيَ بالوردِ بلا رَيْبِ: بوردٍ ينطفئ على جبين ينطفئ، في التَّوِّ، عمَّا قليلِ كَلِّلُونِيَ بالوردِ أهي ساعة الأقحوان تلك التي كان يبحث فيها عن نفسه طيلة حياته ولم يجدها؟ ساعةُ الموت التي كان لا بُدَّ أن يُزيِّن فيها روحَهُ بالأقحوان: «أبحث عن نفسي، ولكنَّني لا أجد نفسي. إنَّني أنتمي إلى ساعات الأقحوان، المتناهية واضحةً في صفوف طويلة من المزهريَّات. لا بُدَّ أن أصنع شيئاً مُنمَّقاً من روحي».

لقد مات فرناندو أنطونيو نوغيرا پشوَّا مساءً، مات الشاعر الذي تعدَّد في نفسه حتَّى فاضت تفسه عن نفسه، كما يليق بـ «ملك تخلَّى عن عرشه طواعيةً، من أجلِ الأحلام والضَّجر»:

> «آهِ، أَيُّهَا اللَّيلُ الأبديُّ، احتسبني ابنكَ وخذني بينَ ذراعيك».

مات وقد ترك في «حجرة الانتظارِ». حجرة الموت في المستشفى، «صولجانَةُ المهشَّمَ وتاجَهُ»، وعلى «السَّلالمِ الحجريّةِ الباردةِ»، ترك «درعَهُ»، خالعاً «مُلكَهُ، وجسده وروحَهُ/ عائداً إلى اللَّيلِ»: اللَّيلِ الأوحد؛ «ليل السِّرِّ العتيق»!

وهل كانت محضَ صدفة، أيضاً، هكذا كيفها اتَّفق، أم أنَّها تصاريف الأقدار وعينها اليقظة التي لا تخطئ أيَّ شيء على الإطلاق: أن تكون الإنگليزيَّة لا البر تغاليَّة؛ لغته الأم، هي لغة الكلام الأخير؟ الإنگليزيَّة التي كانت اللغة الأولى التي ينشر بها أشعاره، في هيئة كتاب (25) باسمه الصَّريح: فرناندو بشوًا!

أهي عودة الغريب القُدريَّة إلى نَفْسه؟ أم أنَّ الأمر، كلَّهُ، مجرَّد حادث عرضيَّ، ليس إلَّا، الشاعر البرتغال الأكبر «أحد أكثر رموز الحداثة الأوروبيَّة أهميَّة» الذي عاش حياة طافحة بالقلق، بين قُرنائه، وأشباه أنداده، وأسمائه المستعارة، وشخوصه الأدبيَّة المختلقة، «مجهولاً

⁽²⁵⁾ لم ينشر بِسُوّا في حياته سوى أربعة كُتُب فحسب وباسمه الصّريح شلالة منها بالإنكليزيَّة: «أنتينوس Antinous» في العام 1918 و«قصائد إنكليزيَّة (انتينوس English Poems» في العام 1918 و«قصائد إنكليزيَّة English Poems» في العام 1928، وهو أوَّل كتبه الشعريَّة و «رسالة Mensagem» وهو الكتاب الشعريُّ الوحيد الذي بشره بالبرتعاليَّة في حياته العام 1921. أمَّا الكتاب الرَّابِع فهو «رسالة Mensagem» وهو الكتاب الشعريُّ الوحيد الذي بشره بالبرتعاليَّة في حياته

من لدنِ نفسه»(25)؟ ولماذا اختار قلم الرَّصاص، من دون أدوات الكتابة الأخرى التي جرَّبها جميعاً، وبألوان الأحبار كافَّة؟

ألم يكتب، قبل نحو أربع سنين من موته بتشمَّع الكبد، جرَّاء إدمانه الكحول، قائلاً: «أكتبُ، أو بالأحرى، أخربش، هذي السُّطور، كي لا أقول شيئاً على وجه التَّحديد، وإنَّما لأمنح ارتباكي شيئاً يفعله. بالعلامات الرَّقيقة التي يخطُّها قلم رصاصٍ مفلول لا يطاوعني قلبي أن أبريه، أملاً على مهَل الصفحة البيضاء»؟

هو قلم «العلامة» إذن؛ قلم الرَّصاص العبثيِّ الذي يشكِّل حروف البوح العقيم.

مات يِسُوّا وهو في السابعة والأربعين، وبقي سِفره الأشهر «كتاب القلق» حبيس أوراق مكدّسة، في صندوق خشبيّ كبير، طيلة سبعة وأربعين عاماً أيضاً. يا للمصائر كيف تُقدَّر! كأنّ الكتاب قد عاش، «مجهو لا من لدنِ غيره»، هذه المرّة، حياة كاملة أخرى. لقد ظلَّ طيّ الكتان، عدد السّنين التي قضاها بِسُوّا على قيد الحياة، في ذلك «التّابوتُ المقوَّس» الضخم، الذي ضمّ نحو 25574 صفحة: معظم هذه الأوراق مكتوب بالأقلام، والباقي مرقونٌ على الآلة الكاتبة.

ولا عجب أن يظلَّ الكتاب متناثراً هناك في صندوق، طيلة ذلك الوقت، في انتظار أن «يخرج من غربته». فكلمة «صندوق»، بالبرتغاليَّة، تعني «arca»، التي من معانيها الأخرى: التّابوت والفُلك. كأنّ الكتاب «تابوت العهد»، أو «تابوت السَّكينة» (التي ظلَّ پِسُوَّا يبحث عنها طيلة حياته!) المصنوع من خشب السَّنط، المطيي بالذهب، الذي حفظت فيه الألواح في قدس الأقداس. ألم يكن صندوق بِسُوّا، الذي حفظت فيه «ألواحه»، هو الآخر خشبياً ذا قبية كأنّه «قدس أقداس» صغيرة؟ ألم تكن فكرة «التّمويه بالذهب» أيضاً أثيرة لدى بِسُوّا في كتابه هذا؟ أم لعلّه كان «فُلكاً»، كفلك نوح، أبحر في طوفان السَّام والقلق وغياب السّكينة، الذي ما كفّ يجتاح بِسُوَّا، ولكنّه لم يوصله إلى أيّ برّ، خارج نفسه، البتّة؟ ألم يصفه ذات يوم بأنّه «قارب يطوف على غير هدى»؟

بقي الكتاب مجهولاً، حتى العام 1982، حين انكبّت ماريّا أليبتي غالوس، رفقة تريزا (26) استعررُ هذه العارة مرعنوال المقالة الشهيرة لتي كتبها الشاعر المكسيكي أكتاثيو پاس عن بِسُوّا، والتي تحمل العنوان (26)

سوبراو كونيا، على تجميع النصوص المتفرِّقة، التي كتبت على مدار أكثر من عشرين عاماً، وحلِّ "شيفرتها" وفكَّ «مغالقها"؛ فخطُّ يد بِسُوَّا كان في غاية العشوائيَّة: متعرِّجاً ومتداخلاً وليس من السَّهل قراءته على الوجه الصَّحيح. وكانت نتيجة ذلك الجهد الدَّوب أن ظهر «كتاب القلق»، للمرَّة الأولى، ضمن نسَق «منطقيًّ» (أعدَّه جاسينتو ذو پرادو كويلو)، مروياً، في هيئة يوميًات أو شذرات، معظمها بلا تواريخ مُحدَّدة، تدور على لسان «نِدَّيْهِ»: فسِنْتِه غِيْدِش، وبرناردو سوارش،

نُقل «كتاب القلق» إلى الإسپائية في العام 1988، وإلى الألمائية سنة 1985، وبعدها بعام ظهر مترجماً إلى الإيطاليّة، ثم ظهر بالفرنسيّة عام 1988. أمّا الإنكليزيّة، فقد حظي الكتاب، في سنة واحدة، عام 1991، بأربع ترجمات مختلفة لأربعة مترجمين مختلفين: ترجمة ألفريد ماك آدم (التي اعتمدت على الطبعة الأولى التي صدرت في مجلّدين عن دار أتيكا في لشبونة، سنة 1982)، وترجمة مارغريت جول كوستا (التي سارت، في ترتيب مقاطعها، على منوال التَّرجمة الإيطاليّة التي وضعتها ماريا جوزيه دي لانكاستري)، وترجمة ريتشارد زينيث (الذي قدَّم فيها ترتيباً مختلفاً، مستنداً إلى معاينته الشخصيّة للأوراق المحفوظة بأرشيف بيسُوًا بالمكتبة الوطنيّة في البرتغال)، ثمّ ترجمة إيان واتسن (التي اعتمدت في تنسيقها على الطبعة الفرنسيّة التي أنجزتها فرانسوا لِيي). ولم يفتصر تعدُّد الترجمات والطبعات على الإنكليزيّة وحسب، فئمّة في اللغة الألمائيّة وحدها نحو 16 ترجمة مختلفة منشورة منذ العام 1985. أما عربياً، فقد عرف الكتاب ترجمة وحيدة أنجزها الشاعر المغربي المهدي أخريف، نقلاً عن الإسپائيّة (ت²³⁾ عرف الكتاب ترجمة وحيدة أنجزها الشاعر المغربي المهدي أخريف، نقلاً عن الإسپائيّة (ت²³⁾ طهرت باسم «كتاب اللَّاطمأنينة» في العام 2008. وقد سبق للشاعر اللبنائي الوَّاحل بسام حجار أن نشر منتخبات من الكتاب تحت اسم «كتاب اللَّادَعة»، سنة 2000.

وتوجد، حتى هذه اللَّحظة، ستَّةُ أنساقٍ تحريريَّة مختلفة تماماً للكتاب بالبرتغاليَّة: الطبعة

⁽²⁷⁾ اعتمدت ترجمة المهدي أخريف على الطبعة الإسهائية التي وضعها لشاعر آنخل كريسهو، وهي طبعة «غير كاملة»، ولا تفصل النُصوص التي كتبها غيدش، عن قلك التي كتبها سوارش، ناهيك عن أنُ أخريف لم يتقيَّد بالنَّسق الطَّباعي والتَّحريري الذي سار عليه كريسهو، وإنَّما اختار نسقاً من عبده، واضعاً عناوين من صبعه لكلُّ شدرة، فظهر الكتاب كَانَّهُ كتاب آخر.

التي أعدَّها جاسينتو برادو كويلو، في مجلَّدين، سنة 1982، والطبعة التي نظَّمها أنطونيو كوادروش سنة 1986، والطبعة التي وضعتها تريزا سوبراو كونيا عام 1990، وطبعة ريتشارد زينيث سنة 1998، ثمَّ الطبعة التي حرَّرتها البرازيليَّة تريزا ريتا لوپس في العام 2015، وهناك الطبعة «الأضخم» التي صنعها خيرونيمو پيسارُّو؛ أستاذ الدراسات البرتغاليَّة في معهد كامويش في كولومبيا، سنة 2013، التي تعدُّ أوثق الطبعات الصادرة، لغاية الآن، وتحتوي على جميع النصوص (المكتشفة) المنسوبة إلى قسِنتِه غيدِش وبرناردو سوارش على حدَّ سواء، لا مجرَّد تلك النصوص التي كانت تنسب إلى سوارش، كما في الطبعات السَّابقة. وميزة هذه «الطبعة النَّقدية» أنَّها تتبع، للمرَّة الأولى، تطوُّر هذا السَّفر وأطوار كتابته، وفق تسلسل تاريخي (منذ مطلع 1910 حتى نهاية 1930)، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها مارغريت جول كوستا في ترجمتها الجديدة هذه، التي صدرت في العام 2017.

تحسان الخطيب

كتاب القلَق الطّور الأوُل

يمكن للمرء أن يعثر في الطوابق العليا لبعض الحانات التي تتمتّع بسمعة حسنة في لشبونة على عدد قليل من المطاعم أو المحلّات التي تُقدِّم الطعام بأنهان زهيدة (٢٥). إنها تشبه في مظهرها البسيط الذي لا يُثير في النَّفْس أيَّ مشاعر البتَّة تلك المطاعم التي يشاهدها المرء في البلدات المفتقرة حتى إلى محطة للقطارات. ويمكن للمرء أن يصادف، على الأرجح، بين زبائن تلك الأماكن التي نادراً ما تكون مزدحة إلّا في أيَّام الآحاد، أشخاصاً غريبي الأطوار، ويشراً عاديين يصعب تصنيفهم؛ أن يجد أناساً ليسوا إلّا متوالية من حواش هامشيّة في كتاب الحياة. وكانت ثمّة فترة من حياتي، دفعتني فيها قلّة المال والرَّغبة في السَّكينة والهدوء إلى التَّردُّد على أحد هذه المطاعم. كنت أتناول طعام العشاء في نحو السابعة من كلِّ ليلة، حين تسنح على أحد هذه المطاعم. كنت أتناول طعام الوقت الذي يصل فيه رجل بعينه. لم أعبأ به كثيراً في البَدْء، ولكنَّةُ بمرور الوقت راح يثير فضولي.

كان في الثلاثين من عمره، نحيفاً، معتدل الطُّول، محدودباً جداً حين يجلس، على الرغم من أنّه يبدو أقلَّ تحدُّباً حين يقف. يرتدي ثيابه دونَ اكتراثٍ ولكن ليس على نحو مُستَهْتَر به تماماً. لم يُضْفِ البؤس البادي على أسارير وجهه العاديَّة الشَّاحبة أيَّ أهميَّة، ولم يكُن من السَّهل معرفة أصل ذلك البؤس على وجه الظَّبط، فقد يكون ذلك عائداً إلى عدَّة أشياء: ضَنَك العيش، والحزن، أو لعلَّه، بكلِّ بساطة، ذلك البؤس النابع من اللَّامبالاة النَّاجة عن المعاناة طويلاً.

⁽²⁹⁾ شاع التعبير Casas de pasto في البرتغال والبرازيل حتى أواخر القرن التاسع عشر، في إشارة إلى تلك الأماكن التي كانت تقدم الطعام (الغداء والعشاء في العادة) بأسعار زهيدة. وكانت هذه الأماكن في الحقيقة مزيجاً بين الحامة والمطعم. ثم يتأثير من اللعة الفرنسية استبدلت العبارة، لاحقًا، بكلمة restaurante. (المترجم)

كان يقتصد في طعامه، ثُمَّ يُدخِّن، بعد أن ينتهي، لُفافةً من تبغ رخيص. كان ير،قب الزَّبائن الآخرين، لا عن ريبةٍ، بل كأنَّهُ مهتمٌ بهم حقّاً. لم يكُن ليمعن النَّظر فيهم رغم رغبته في أن يطبع في ذاكرته وجوهَهم أو أيَّ بيِّنةٍ خارجية تدلُّ على شخصيًاتهم، ولكنَّه كان بكل بساطة مفتوناً بهم. ولقد كان هذا الطبع الغريب هو الذي أثار فضولي في بادئ الأمر.

رحتُ أراقبه مِن كثب. لاحظتُ أنَّ أساريره تتألَّق بالمعيَّةِ مُتردِّدة، ولكنَّ سحائبَ اللَّغُوب غالباً ما كانت تُغيِّمُ وجهَه ويشله برد الخوف؛ ألمعيَّةٍ كان من الصعب رؤيتها أبعد من هذا كلَّه.

علمتُ من أحد ندلاء المطعم أنَّ الرَّجل كان يعمل كاتباً في شركة يقع مكتبها في الجوار. ثم، ذات يوم، وقع شجارٌ في الشَّارع خارج المطعم تماماً؛ عراكٌ بين رجلَيْن. هُرع الزبائن إلى النَّوافذ جميعاً، وأنا كذلك والرجل الذي كنتُ أصفه. ألقيتُ عليه بعض كلام مبتذل، فردَّ عليَّ بالمثل. كان صوته خافتاً، متهدِّجاً؛ صوت الذي لا يأمل في شيء، فالأمل ضرب من العبث. لعلَّني كنت أحق حين أسبغتُ الكثير عيى رفيق مسائي في المطعم.

لا أعرف بالضّبط لماذا اعتدنا أن نتبادل التّحيّة بعد تلك الحادثة. ثُمَّ، ذات يوم، وللصّدفة السّخيفة التي دفعتنا نحن الاثنين إلى الذّهاب لتناول طعام العشاء في وقت متأخر عن المعتاد في التّاسعة والنصف، شرعنا في محادثة عابرة. وعند نقطة معيّنة، سألني إن كنتُ كاتباً. أجبته أنني كنتُ. ذكرتُ له مجلّة «أور فيو» التي صدرت مؤخّراً"، فكالَ المديح للمجلّة، أمام دهشتي، وأثنى عليها ثناءً عظيماً. وحين أفصحتُ له عن دهشتي، قائلاً إنَّ الأعمال الإبداعيّة التي صنعها أولئك الذين كانوا يكتبون في «أور فيو»، لم تَرُق إلا لقلّة قليلة، فأجاب إنَّهُ كان واحداً من تلك القيلة، وأضاف أنَّه لم يكن جاهلاً تماماً بتلك الأعمال الإبداعيّة، ثم عقب قائلاً على نحو خجول إنّه غالباً ما كان يعود بعد العشاء إلى غرفته المستأجرة، حيث لا مكان قضى ليله في الكتابة.

هكذا قابلتُ «ڤسِنْتِه غِيْدِش» بالصدفة البحتة. كُنَّا عادةً ما نذهب إلى المطعم الهادئ، الرَّخيص، ذاته. لقد عرف أحدُنا الآخر رأي العين(٥٥)، وكُنَّا نوميُّ برأسَيْنا تحيَّةً صامتةً

⁽³⁰⁾ أن يعرف المرء الشخص بمجرَّد أن يراه، دون أن يكون قد قابله من قَبْل أو تحدث إليه. (المترجم)

بالطَّبع. وجدنا نفسَيْنا، على الرَّغم من ذلك، جالسَيْن ذات مرَّة إلى الطاولة ذاتها، فها كان في البَدْء مجاذبة قصيرة الأطراف الكلام أصبح حديثاً لا ينقطع. بدأنا التَّقابل هناك كلَّ يوم، عند تناول الغداء والعشاء. وكُنَّا أحياناً حين نفرغ من طعام العشاء، نغادر المطعم معاً، نمشي المُوَيِّنَا وتُدردش.

لقد كابد «ڤسنته غيدش» حياته الفارغة سادراً ببراعة في اللّامبالاة، وكانت أسس موقفه العقليِّ نابعة من رواقيَّةِ الضَّعفاء.

ولقد جُبِلَ على أن يكابد شتَّى ضروب القلَق، ولكنَّ القدَر كتبَ عليه أن ينجو منها جميعاً. لم أقابل رجلاً أكثر منه فرادةً قطُّ. لقد تخلَّى عن كلِّ شيء حَبَتْهُ إيَّاهُ الطَّبيعة، ولكن ليس زُهداً البتَّة. وعلى الرَّغم من أنَّهُ كان طموحاً بالفطرة، فإنَّه إسْتَمْرَاً الظُّهورَ بأنْ لا مطامحَ لديه على الإطلاق.

تبسَّمَ الرَّجل النَّحيل لي ابتسامةً غريبة ثُمَّ رمقني مرتاباً، بَيْدَ أَنْ لا ضغينةَ قد تراءَتْ في تلك النَّظرة، وتبسَّمَ ثانيةً حزيناً هذه المرَّة، قبل أن يغضَّ الطَّرْفَ محدِّقاً في صحنه، ويواصل التهام عشائه في استغراقِ صامت.

ولقد أثَّتَ مُحجرتَيْه —غير مكترثِ بتكاليف بعض الحاجيات الأساسيَّة — بأشياءَ شِبُه فخمة. وتجشَّم عناءً خاصاً في شراء المقاعد —أرائك وثيرة، وعميقة — وستائر الأبواب والسَّجاجيد. أخبرني أنَّ ذلك كان طريقته في خلق عالم داخليِّ «يصونُ كرامةَ سأمه». ففي حجرة مؤثَّة على الطَّراز الحديث، يغدو السَّامُ ألمَّ محسوساً، ألماً مزعجاً.

لم يكُن مجبراً على فعل شيءٍ على الإطلاق. لقد قضى طفولته وحيداً، ولم يسبق له الانتهاء للى أي جماعة بتاتاً، ولم يذهب إلى أي جامعة قَطَّ، ولم يسبق له أن كان جزءاً من أي حشد. ومثلها يحدث مع أناس كثيرين، أو ربَّها مع كلِّ واحد (مَن يعرف) فقد أملَتْ غرائزُهُ ظروف حياتهِ الفجائيَّةَ والسَّبيلَ الذي سلكته؛ وفي حالة [قسنته غيدش]: العطالة والعزلة.

ولَم يتوجَّب عليه البَّنَة التَّعامل مع متطلَّبات الدَّولة أو المجتمع. حتَّى إنَّه تجنَّب متطلَّبات غرائزه هُوَ. لم يتَّخذ أصحاباً أو عشيقاتٍ قطُّ. كنتُ الشَّخصَ الوحيد الذي غدا مُقرَّباً منه على نحو ما. فإلى جانب إدراكي أنَّني لم أعرف سوى شخصيَّته المزيَّفة تلك —وارتيابي في أنَّه لم يفكِّر قط في أن أكون صديقه— أدركتُ أنَّه احتاج إلى شخص يستطيع أن يُورَّثه كتابه.

وعلى الرَّغم من أنني قد وجدتُ هذه المسألة في بادئ الأمر جارحةً، فإنَّ المسرَّة تغمرني الآن حين أفكِّر في أنني لمَّا رأيتُ كلَّ شيء في نهاية المطاف من وجه نظر أحاديَّة تليق بطبيب نفسيً، بقيتُ صديقَهُ الصَّديقَ المئذورَ للسَّبب ذاته الذي جذبني إليه في المقام الأوَّل: نشر كتابه هذا. وإنَّه لأمر غريب، ولكنَّه، حتى في هذا الصَّدد، كان محظوظاً لأنَّ الظُّروف عرَّفته على واحد مثلي، يمكن أن يُسدي إليه خدمة ما.

... هذا الكتاب العذب.

هذا كلُّ ما يبقى وما سوف يظلُّ من أكثر المخلوقات الذين رآهم العالَم؛ أبرعهم في الكسَل، وأكثرهم تهتُّكاً على نحو حالم. أشكُّ في أنَّ ثمَّة كائناً آدمياً جسَّدَ صورتَهُ الخارجية عن نَفْسه تماماً [كمثله هُو]. ذا أَنَفَةٍ باذخةٍ، تبخترَ في أركانِ صناعةِ الأحلامِ عبرَ مُصادفة الوجود.

هذا الكتاب سيرةُ شخص لم يوجَد قط.

فلا أحد يعرف ڤسِنْتِه غِيْدِش أو ماذا فعل، ولا...

فهو لم يكتب هذا الكتاب، بل إنَّ هذا الكتاب هُوَ. لكنْ من الواجب علينا أن نتذكَّر دائماً أنَّ وراء كلِّ شيء مكتوب، هَا هُنَا، يكمن ظلُّ، سرُّ...

فلقد كان وعيُّ ڤسنته غيدش بنَفْسه فناً وأخلاقاً، والحُلم ديانةً.

أوجدَ أرستقراطيَّة جُوَّانيَّةً، سلوكَ رُوحٍ يشبه إلى حدٍّ بعيد سلوك جسد الأرستقراطيِّ الكامل. روحي أوركسترا محجوبةً؛ لا أعرفُ أيَّ آلاتٍ، أيَّ كمنجاتٍ وقيثاراتٍ، أيَّ طبولٍ ودفوفٍ، وأيَّ صوتٍ وصليلٍ فيَّ. لا أعرفُ نَفْسِي إلَّا حينَ تكونُ سيمفونيَّةً (١٤). كلُّ جهدٍ جريمةٌ؛ فليستْ كلُّ إيهاءةٍ (٤٠) إلّا خُلُهاً مَيْتاً.

يداكِ مثلُ حمامتَيْنِ حبيستَينِ. شفتاكِ يهامتانِ بريَّتانِ صامنتانِ (تراهما عينايَ تتطارحانِ الهديلَ).

كلُّ إياءاتكِ طيورٌ. أنتِ سنونوةٌ حين تحطِّين مِن عَلِ، نسر أمريكيٌّ ضخمٌ حين تنظرين إلى عُقابٌ في نشواتكِ كامرأةٍ شمَّاءَ لا تُبالي. لستِ إلَّا رفرفة أجنحةٍ، كأجنحةِ [...]، أنتِ بحيرةُ ما أراة.

أنتِ مُجنَّحةٌ، كُلُّكِ، مُجنَّحةٌ [...]

إنَّهَا تَمَطُّرُ، تَمَطُّرُ، تَمْطُرُ..

إنَّها تمطرُ ولا تكفُّ، حزينةً تمطرُ..

جسدي يُرْعِشُ روحيَ بالبردِ، لا بردَ الفضاءِ، بل بَرْدِيَ حينَ أكونُ أنا الفضاء..

كلُّ الملذَّات رذيلةٌ؛ فغايةُ المرء أن يفتِّشَ عن اللَّذة في الحياة، وشَرُّ الرذائل أن يفعل المرءُ ما يفعلُ الآخرون.

⁽¹³⁾ كذلب إضافي عبى تعدُّد ((قر اءات) خطَّ بِسُوّا، المتسارع والمداخل بعصه في بعض، من طرف الذين شتغلود عبى فثُ الشفرته) (وس ثمّ: تعدُّد (اتر تيب) صفحات هذا ((الكتاب-المتاهة)) فإنّنا تلحظ أنَّ لفظة (سيمفويئة) -الواردة في هذه الشَّنرة، على سبيل المثال - قد رُقِنَتُ (sinfonia)، في طبعة تيريرا سوبراو كوبيا (المقطع 15، ص 69)، وطبعة ريتشارد ريبيث (المقطع 30، ص 79)؛ في حين رُقِنَتُ (symphonia) في طبعة حيرونيمو بيسارًو (المقطع الأول، ص 13)، وطبعة جاسينتو دو برادو كويلو (المجلد الأول، المقطع 27، ص 29) على حدُّ سواء، مع أنَّ القصاصة التي خطُّ عليها بشوّا هذه الشَّلرة، بقلم حير سائل، والمحفوطة في المكتبة الوطنية البرتعالية، تحت الرقم (BNP/ التي خطُّ عليها بشوّا هذه الشَّلرة بقلم حير سائل، والمحفوطة في المكتبة الوطنية البرتعالية، تحت الرقم (BNP المعافقة البرتعالية) في اللغة البرتعالية في المتعافقة المائية التي أخذتها عن اللاتينية الوسيطة symphonia). (المترجم) المرتعالية في المتعافقة المائية التي أخذتها عن اللاتقام على ملامع الوجه، وإنما تعمّاها إلى أنَّ وكة أو بشارة و لفته يقوم بها لحسد بأي من أعضائه، وهي هُنَا، عند بِسُوّا، في استخدامه المتكرّر لها، تجمع هذي المعاني جميعاً، على المتنبية الورد، ومائم (التربية) على المعادة (التربية) عند بيسُوّا، في استخدامه المتكرّر لها، تجمع هذي المعاني جميعاً، على حدّ سواء (التربية) المنادة (التربية المنادة) وهي هُنَا، عند بِسُوّا، في استخدامه المتكرّر لها، تجمع هذي المعاني جميعاً، على حدّ سواء (التربية)

لا أحلمُ بامتلاككِ. ما المسألةُ إذن؟ قد تكونُ بمثابة أن أترجمَ حُلُمي لصالح شيءٍ سُوقيٌ. فأن تمتلكَ جسداً هُوَ أن تكونَ مُبتذَلاً لأبعد حَدٌ. ولعلَّ الأسوأَ أن تحلمَ بامتلاكِ جسدٍ، حينَ يكونُ هذا الشَّيءُ ممكناً؛ فذاكَ يعني أن تحلمَ بنفسكَ مُبتذَلةً: إنَّهُ الرُّعبُ الأعظمُ.

و لأَنَّنا نختارُ أن نكونَ عقيمينَ، فَلْنَتَعَفَّفْ أيضاً؛ فلا شيءَ أخسُّ وأكثرُ انحطاطاً من أن ننبذَ جميعَ الأشياء الخصبة في الطَّبيعة، ثُمَّ نَضِنُ على نحوٍ سافلٍ بأيِّ شيءٍ يقدحُ رغبتَنا بينَ تلك الأشياء المنبوذة. فليس ثمة نَبَالاتٌ مجتزأة.

فَلْنَكُنْ عَفِيفِينَ كشفاه ميِّتةٍ، طاهرينَ كأجساد تحلومٍ بها، مُنقادينَ إلى أن نكونَ هذه الأشياء على حدٍّ سواء، كراهباتٍ صغيرات مجنونات...

فَلْيَكُنْ حَبُّنَا صِلاةً.. مَرِّخِيْنِي برَّ وْيتكِ، وَمِن تلكَ اللحظات حينَ أحلمُ بكِ سوفَ أصنعُ سُبْحةً فتكونُ تبرُّماتي «آباءَنا الذينَ في السَّمواتِ»، ولحظاتُ قلقي «السَّلامُ عليكنَّ يا مَرْيَهَات».. (33)

هكذا سنظلُ إلى الأبدِ كشكلِ رجلٍ في نافذة من زجاج مُعَشَّق مقابلَ شكل امرأة في نافذة أخرى من زجاج مُعَشَّق.. ووقعُ أقدام الظّلال تتردَّدُ أصداؤها باردةً بَيْنَنا — سيعبرُ البشرُ... ستعبرُ ، يَيْنَنا صلواتٌ مقتولةٌ ، وأسرارٌ ... ومن حين إلى آخر ، سيطفحُ بالبخورِ الهواءُ . وفي أوقات أخرى ، ذات الشّمالِ أو ذات اليمين ، سيرشَّنا شكلٌ يشبهُ التَّمثالَ بالصَّلواتِ... وهناكُ سوف نظلُ ، في النَّافذتين ذاتيها ، تشعَانِ بالألوان حين تشرق الشَّمسُ ، وتُعتمُ عروقُ الزُّجاج حين يهبطُ اللَّيلُ ... لن تلمسَ القرونُ صمتنا الزُّجاجيَّ . وفي الخارج ، سوف عروقُ الزُّجاج حين يهبطُ اللَّيلُ ... لن تلمسَ القرونُ صمتنا الزُّجاجيَّ . وفي الخارج ، سوف تأتي حضاراتُ وتروحُ ، ستنفجرُ ثوراتُ ، وتندفعُ أحزابٌ ، ويُهرعُ ناسٌ عاديُّونَ وديعرنَ . ونحنُ ، يا حُبِّيَ الوهميَّ ، سوف نتجمَّدُ في الوضعيَّة العقيمة ذاتها ، الوجودِ الزَّائف ذاته ، والسلف ، وينتهي كلُّ شيءً ... الكنيسةُ ، في نهاية المطاف ، وينتهي كلُّ شيءً ...

⁽³³⁾ تعرف الصلاة الأولى، في المسيحيَّة، باسم الصلاة الربَّية التي تبدأ بـ «أبانا الذي في السّموات». أمَّا الصلاة الثانية، فهم تعرف باسم صلاة لسلام الملائكي، وتبدأ بـ «السلام عليك يا مريم». ولا يخفى علينا المعنى العميق الذي يحاول يِسُوُّا قوله من هذا التَّحريف الذي يحريه. (المترجم)

ولكنَّنا، لم يَمْسَسْنَا شيءٌ مِن ذلك، سنظلُّ هنا، لا أعرف، بالضّبط، كيفَ أو أينَ أو متى، كنافذتَيْنِ أبديَّتَيْنِ من زجاج مُعَشَّقٍ، ساعاتِ فنَّ بريءٍ رسمَها فنانٌ كانَ ينامُ طويلاً في قبر قُوطيًّ حيثُ ملاكانِ، قد شابكا أيديهما في الصَّلاةِ، قد أطلقا فكرةَ الموتِ في المرمر البارد.

3

[\$1913]

تمجيد العاقر

لو كنتُ سأختارُ، ذاتَ يوم، امرأةً من بين نساءِ هذي الأرض، فَدعي صلاتَكِ من أجلي: أن تكون عاقراً. ولكنِ اسألي الله أيضاً، لو كانتْ صلاتُكِ من أجلي، بألّا أحظى بهذهِ الزوجة المُتخيّلةِ أبداً.

فلا نبيلَ ولا جليلَ إلَّا العقمُ والعقرُ. وحدَهُ قَتْلُ الذي لم يكُنِ البتَّةَ، شيءٌ نادرٌ وجليلٌ وعبثيُّ.

4

[1913]

سيَّدةُ الصَّمِت

أحياناً، حينَ يمشني اللَّغوبُ والقهرُ، تنزعُ الأحلامُ عنِي أوراقها فأذبلُ، ثُمَّ يغدو الحلمُ الوحيد الذي أقدرُ عليه هُوَ التَّفكيرُ في أحلامي، فأتصفَّحها كأنّها كتابٌ يتصفَّحه المرءُ مرَّةً ثُمَّ أخرى، فلا يجدُ سوى الكلمات التي لا مندوحةَ عنها. ثُمَّ أتساءلُ مَن أنتِ، يا أنتِ، أيّها الطيف الذي يجوبُ رؤيايَ المتلكئة عن مناظرَ طبيعيَّةِ متوانيةٍ، ودواخلَ عتيقةٍ، وطقوسِ صمتِ باذخةٍ. تتجلِّينَ في جميعِ أحلامي كحلم أوْ ترافقينني كحقيقةٍ باطلةٍ. أزورُ، معنِ، أراضيكِ، وأقاليمَ قد تكونُ تجسيداتِ الغيابِ والقسوةِ، جسدكِ الجوهرَ المجبولَ سهلاً هادئاً أو جبلاً يتبدَّى بارداً في حديقة قصرِ محجوبٍ، لعلَّ حلمي الوحيدَ أنتِ، ربَّها حين أضغطُ وجهي على وجهكِ سوفَ أقرأُ في عينيكِ تلكَ المناظرَ الطبيعيّةَ الوحيدَ أنتِ، ربَّها حين أضغطُ وجهي على وجهكِ سوفَ أقرأُ في عينيكِ تلكَ المناظرَ الطبيعيّة

المستحيلة، ذلك السأم الباطل (٥٥)، وتلك المشاعر التي تقطنُ في كآبة إعياءاتي وكهوف قلقي، من يعرف، لعل مناظر أحلامي إنْ هِي إلا طريقتي كي لا أحلم بك؟ لا أعرف من أنت، ولكنْ هَلْ أعرف مَن أنا تماماً؟ هل أعرف معنى أن أحلم بطريقة تستوجب أن أدعوك حلمي؟ كيف أعرف من أنا تماماً؟ هل أعرف معنى أن أحلم بطريقة تستوجب أن أدعوك حلمي؟ كيف أعرف بأنّك لست بعضاً مني، بعضاً قد يكون حقيقياً، لا غنى عنه ؟ وكيف لي أن أعرف أني لستُ الحلم وأنّك الحقيقة، أو أني حلمك ولستِ الحلم الذي أحلمه ؟ في فأي حياة لك؟ وأي طريق رؤيا هذي الطريقة التي أراك بها؟ إنّها ليست ذاتها دوما ولكنّها لا تتغيّر البيّة. وإنّني أقول هذا الشّيءَ لأنّني أعرفه، على الرّغم من أنني لا أعرف أني أعرفه. جسدك؟ أنْ أراه عارياً وأنْ أراه مرتدياً ثيابة، سيّانَ عندي، ولا فرق بينَ أنْ أراه جالساً أو مستلقياً أو واقفاً. ما معنى هذا؟ لا معنى نَهُ ببساطة.

5

[1913]

[سيّدةُ الصّمتِ؟]

تتمينَ إلى جنسِ هيئاتِ الأحلام، إلى لا جنسِ الأشكالِ [. . .]

مجرَّدَ صورةٍ جَانبيَّةٍ تارةً، مجرَّدَ وضَعيَّةٍ معيَّنةٍ تَارةً أخرى، وفي أحايينَ ساكنةٍ إيهاءةً بطيئةً تكونينَ أوْ تكادينَ — أنتِ لحظاتٌ وأوضاعٌ معينَّةٌ نُحلِقَتْ روحاً في روحي.

لا انجذاب جنسياً مُضمَراً حينَ أحلمُ بكِ، تحتَ ردائكِ المَرْيَمِيِّ العُذْرِيِّ (35) الغامض؛ رداءِ صمتكِ الجوَّانيِّ. نهداكِ ليسا مِن طينةِ النَّهودِ التي قد يفكِّرُ المرءُ في لثمها. جسدُكِ، كلُّهُ، مِن لحم ونَفْس، ولكنَّهُ ليسَ جسداً ونَفْساً البتَّةَ. لحمكُ ليسَ روحاً، إنَّهُ روحانيُّ. أنتِ امرأةُ ما قبلَ الشَّقوطِ، خُلقتِ من أوَّل طين الفردوس.

رعبي من النّساءِ الحقيقيَّاتِ، أقصدُ النّساءَ الشَّهوانيَّاتِ، هو الطريقُ التي سلكُتُها كي أعثرَ عليكِ. أولئكَ النِّساءُ الدُّنيوِيَّاتُ، اللَّواتي لا بُدَّ، كي يَكُنَّ [...] أَنْ يحتملنَ وطأةَ الرَّجلِ أعثرَ عليكِ. أولئكَ النِّساءُ الدُّنيويَّاتُ، اللَّواتي لا بُدَّ، كي يَكُنَّ [...] أَنْ يحتملنَ وطأةَ الرَّجلِ الجَيَّاشة — مَن يستطيعُ أَنْ يعشقهنَّ ؟ مَن لا يشعرُ بالحُبِّ وهوَ يتبدَّدُ عند التَّفكير في المتعة الجنسيّةِ، فحسبُ ؟ ببساطة، مَن يستطيعُ أَن يُجِلَّ امرأتهُ ولا يفكِّرُ فيها كامرأةٍ في وضعيَّةِ

⁽³⁴⁾ استخدم كلمة «الباطل»، سواة هنا أو في المواضع الأخرى، يمعنى: المُزيَّف false، وكلَّ ما هو ضد الصَّورة المُقَّة والجوهر الحَقِّ الذي ينبغي أن توجد عبه الأشياء، سواء في الحياة أو في دو اخل أنفسنا. (المترجم) (35) نسبة إلى مريم العدراء، أو مادونا Madonna التي هي التحسيد المرثيُّ لمريم العدراء. (المترجم)

جنسيَّة أخرى؟ مَن لا يشعرُ بالغثيان لأنَّ لَهُ أُماً؛ لأنَّهُ كان بُضعياً في أصلهِ، ثُمَّ قُذِفَ إلى العالمَ على نحو وضيع؟ مَن لا يشمئزُ من فكرة أصلِ نَفْسِنَا الشَّهوانيُّ، مِن البَلْبَلَةِ الحِسيّةِ التي وُلِدَ منها جسدُنا الذي، مهما كان جميلاً، فإنَّ أصلَهُ قد دنَّسَهُ، قد دنَّستهُ ولادتُه؟

مثالثُو الحياةِ الواقعيَّةِ الباطلونَ يُمَوِّهونَ المرأةَ بالشَّغر، يركعونَ أمام فكرةِ الأُمِّ... طريقتُهم في الأحلام رداءً بحجِب، ليستْ حلماً يخلِقُ.

إِلَّا أَنَّكِ طَاهِرةٌ، يَا سَيَّدَةَ الأحلام، يَا مَن أَستطيعُ تَخَيُّلُهَا عَاشَقَةً بِلا دَنَس، لأَنَّكِ غيرُ موجودةٍ. أَستطيعُ أَن أَنْحَيْلُكِ أُمّاً، فأهيمُ بِكِ، لأنَّ أهوالَ أن تحبلي أوْ تَلِدي لم تُدَنَّسْكِ قَط. كيف لي ألّا أهيمَ بِكِ، حينَ يليقُ بِكِ، أنتِ وحدَكِ، الهُيَامُ؟ وكيف لي ألّا أحبَّكِ، حينَ يليقُ بِكِ، أنتِ وحدَكِ، الهُيَامُ؟ وكيف لي ألّا أحبَّكِ، حينَ يليقُ بِكِ، أنتِ وحدَكِ، الهُيَامُ؟ وحدَكِ، الحُبُّ؟

لعلّني، حينَ أحلمُ بكِ، أخلقُكِ حقيقةً، ولكنْ في حقيقةٍ أخرى؛ ربّما تكونينَ لي هناكَ، في ذلكَ العالمَ الآخر الأطهرِ، حيثُ سيعشقُ بعضُنا بعضاً دونَ أن نتلامسَ البتّة، بنوع مختلف من العناقِ وطرائقَ أخرى أكثرَ حيويّةً لامتلاكِ بعضنا بعضاً؟ لعلّكَ قد وُجدتِ قَبْلاً، ولم أخلقكِ، وإنّما رأيتُكِ فحسبُ بطريقةِ رؤيا مختلفةٍ، جوّانيّة ونقيّة، في عالم آخرَ أكملَ؟ لعلّ أخلقكِ، وإنّما رأيتُكِ فحسبُ بطريقةِ رؤيا مختلفةٍ، جوّانيّة ونقيّة، في عالم آخرَ أكملَ؟ لعلّ حلمي بكِ لم يكن إلّا العثور عليكِ، لعلّ حبّي لكِ لم يكن إلّا رؤيتكِ، ولعلّ ازدرائي الجسد ومشاعرَ اشمئزازي لم تكن إلّا شهوةً خفيّةً كنتُ أنتظرُكِ بها، قبلَ أن أعرفكِ، وليستْ إلّا الأملَ الغامضَ؛ أملَ أنّني قد أحببتُكِ، حتّى قبلَ أن أعرفكِ؟

لَسْتُ أَعرفُ حَقَّاً إِنْ كَنتُ قد أَحَببتُكِ قَبْلاً، في خواءِ رَبَّها سَأَمي اللَّعَمِّرُ بالنِّسبةِ إليهِ نوعٌ منَ الحنينِ. لعلَّكِ نوعٌ آخر من الحنين، غيابٌ محسوسٌ، حضورٌ قَصِيٌّ، أُنثى ربَّها لأسبابٍ تتجاوزُ كينونَتكِ الأُنثى.

أستطيعُ أن أُنخيَّلكِ عذراءَ وأُمَّا على حدِّ سواءٍ لأَنْكِ لستِ من هذا العالم. ولقد كان الطِّفلُ الذي تحملينَهُ بين ذراعيكِ رضيعاً صغيراً على الدَّوامِ فَلَمْ يتوجَّب عليكِ بتاتاً أنْ تُدنِّسيهِ فتحميلهِ في رحمكِ. ولأنكِ لم تكوني قط إلَّا ما أنتِ عليه في هذه اللَّحظةِ، فكيفَ لكِ أن تكوني أيَّ شيءٍ إلَّا عذراء؟ أستطيعُ أن أُحبَّكِ وأهيمَ بكِ فحبُّي لا يستحوذُ عليك وهيامي لا يُقصيك.

كُونِ النَّهَارَ الأبديَّ وَخَلِّي مغاربي أَشَعَّةُ تندائح من شمسكِ، تملكُ نفسَها فيكِ! كُونِ الشَّفقَ المحجوبَ وَخَلِّي رغباتي وقلقي تستحيلُ ألوانَ حَيْرتكِ وظلالَ ريبتكِ. كُونِ اللَّيلَ التَّمَامَ، كُونِي اللَّيلَ الأوحدَ، وَخَلِّي نَفْسِيَ كلَّها مفقودةً فيكِ ومنسيَّةً، وَلْنُشِعُ أحلامي كالنُّجوم في جسدكِ الطَّافح بالبُعْدِ والجُنُودِ . . .

فَلْأَكُنْ طَيَّاتٍ جُبَّتكِ، الجواهرَ فِي تاجكِ والذَّهبَ المرصَّعَ بالنُّجومِ؛ ذهبَ الخواتمِ فِي أصابعك.

أستطيعُ أن أكونَ رماداً في موقدكِ، ما نفعُ أن أكونَ محضَ غبارٍ؟ أو نافذةً في حجرتكِ، ما نفعُ أن أكونَ محضَ غبارٍ؟ أو نافذةً في حجرتكِ، ما نفعُ أن أكونَ محضَ فضاءٍ فارغ؟ أو ساعةً في ساعتكِ الرَّمليةِ، ما نفعُ أن أتبدَّدَ، أنْ أظلَّ، لأنَّني لكِ، أو أنْ أفقدكِ، لو كانَ فقدُكِ يعني أن أجدَكِ؟

يا خالقة العبثيَّاتِ، يا مُريدة الجُمَلِ التي لا جِنْسَ لها. فَلْيُهَدْهِدْنِ صَمَتُكِ كَي أَنَامَ، فَلْتُعانقني كَينُونتُكِ المَحْضَةُ وتُروِّح عنِّي وتريحُني، يا رسولة الآخرة، يا إمبراطورة الغيابِ، أَيَّتُهَا البَتُولُ أُمُّ الصَّمَتِ كُلِّهِ، يا موقد الأرواحِ المرتعشةِ وموطنها، يا ملاك المهجورينَ الحارسَ، أيَّتُهَا المنظرُ الإنسانيُّ — الحزينُ حُزناً لا يُصدَّقُ — أيَّتُهَا الكَمَالُ الحالد.

6

[\$1913]

[سَيِّدةُ الصَّماتِ؟]

حياتي في غايةِ الحُزن، ولكنَّني على الرَّغم من ذلكَ لا اهتمُّ حتَّى بالبكاء عليها؛ ساعاتي باطلةٌ، حتَّى إنَّني لا أحلمُ بالإيهاءةِ التي قد تُبدِّدها.

كيفَ لِي أَلَّا أَحَلَّمَ بِكِ؟ كيفَ لِي أَلَّا أَفْعَل؟

يا سيَّدةَ السَّاعاتِ التي تمرُّ، يا علراءَ المياهِ الآسنةِ والطَّحالبِ الميَّتةِ، أيَّتها الإلهةُ التي تحرسُ الصَّحاري الواسعةَ والمنظرَ الطَّبيعيَّ المعتم الذي من صخور جرداءً، حرَّريني مِن يفاعَتي الصَّحاري الواسعة والمنظرَ الطَّبيعيَّ المعتم الذي من صخور جرداءً، حرَّريني مِن يفاعَتي يا عزاءَ الدينُ لا عزاءَ لَهُم، يا دموعَ الذينَ لم يذرفوا دمعةً قطُّ، أيَّتها السَّاعةُ التي لا تدفَّ

أبداً - حرِّريني من فرحي وحُبُوري.

يا أفيونَ الصَّمتِ كلِّهِ، أَيَّتها القيئارةُ التي لن تُنْقَرَ أوتارُهَا على الإطلاق، يا نافذةَ الزُّجاجِ المُعشَّقِ؛ نافذةَ البُعْدِ والهجرانِ --- قد يكرهني الرجالُ وتزدريني النِّساءُ.

يا سَنْطُورَ المَسْحَةِ الأخبرة (١٥٥)، أيَّتها اللَّمسَّةُ التي بلا لَمْسِ، أيَّتها اليهامةُ الميِّتةُ في الظُّلالِ، ويا بلسمَ السَّاعاتِ التي تبدَّدتُ في النَّوم — حرِّريني مِنَ الدَّيْنِ فَهُوَ وديعٌ ومِنَ الكُفْرِ فَهُوَ شرس.

أَيَّتُهَا القيثارةُ التي تتلاشى في المساءِ، يا صندوقَ الوردِ الذَّابلِ، والصَّمتَ بين صلاةٍ وصلاة — املَثِيني قَرَفاً من الحياةِ، وكراهةً للعافيةِ، وازدراءً للفتوَّةِ.

اجعليني عقياً لا خيرَ فِي، يا حاصدة جميع الأحلام الفارغة، اجعليني طاهراً بلا سبب وتخاتِلاً بلا عشيقةٍ. يا جدول الحزن المُطاقِ الذي يجري، فَلْيَكُنْ فمي صفحة أرض من جليد، وعيناي بحيرتَيْنِ ميَّتتينِ، وإيهاءاتي نَزْعاً وئيداً لأوراقِ الشَّجر العتيقِ — يا أبتهال الفَلَقي كلِّهِ، يا قُدَّاسَ التَّعب الأرجوانيَّ، يا تُوَبْحَ الزَّهرةِ، أيّتها المنسابَةُ، أيا معراجاً.

كُمْ يحزنني إذْ يتوجَّبُ عليَّ التَّضرُّع إليكِ كأنَّني أتضرَّعُ إلى امرأةٍ، وألَّا أحبَّكِ مثلها ينبغي لرجل، وألَّا أكونُ قادراً على رَفْعكِ إلى عينَيْ خُلُمي كفجرِ جنسٍ زائف، عالِيهُ سافِلهُ، لملائكةٍ لم يدخلوا الجنَّةَ قطُّ!

.

[\$1913]

ستيدةُ الصّعت

لَستِ امرأةً. حتَّى إِنَّكِ لا تُوقظينَ فِيَّ شيئاً قد أختبرهُ بوصفه أنثوياً. فليسَ إلَّا حينَ أَنحَدُّتُ عنكِ تُسمِّيكِ الكلماتُ التي أستعينُ بها أُنثى، وتمنحُكِ شكلَها مفرداتي. ولأنَّه يتوجَّبُ على أن أُكلِّمكِ كما لو في حلم رقيقٍ كَلِفٍ، لا تجدُ الكلماتُ إلَّا صوتاً من أجلِ هذا

Extreme Unction (36): المسحة الأحيرة، في التقليد المسيحيّ، مسح القسّيس جبين المريض بزيت الزّيتون المبارك والصّلاة كي يشفيه الله من المرض أو الكرب. (المترجم)

فأخاطبكِ بصيغة المؤنَّث.

بَيْدَ أَنَّكِ لا شيءَ في جوهركِ الغامض. لا حقيقة لكِ، ولا حتَّى حقيقة نَفْسكِ. إنَّن أقولُ الصَّحيحَ لا أراكِ أو حتَّى أشعرُ بكِ. إنَّهُ كشعورِ هُوَ غيةُ نَفْسهِ ويتتمي برمَّتهِ إلى ذاتهِ الأعمق. أنتِ دائها المنظرُ الطَّبيعيُّ الذي كنتُ على وشك أن ألمحه، هدبُ ثوبٍ لم أرهُ تماماً، ضائعاً في حاضر أبديُّ يستلقي حول الزاوية فحسبُ. صورتُكِ الشَّخصيَّة تُعوِّلُ على أنَّكِ لا شيءَ وشكلُ جسدكِ الوهميِّ يفرطُ نَفْسَهُ وينثرُ دُرَّ فكرةِ أنَّ لكِ شكلاً أيضاً. لقد عبرتِ قَبْلَ الآنَ، وقَبْلاً كُنتِ، وإنَّني قد أحببتُكِ سَلَفاً — هكذا أشعرُ بحضورك.

تَحَتلُينَ برازخَ أفكاري وصدوعَ مشاعري. لذا، فإنَّني لا أفكَّرُ فيكِ ولا أشعرُ بكِ، أو بالأحرى حينَ أحسُّ حضورَكِ، تغدو أفكاري غُوطِيَّةً. وحينَ أستحضرُكِ، تغدو مشاعري قُوطِيَّةً.

يا قمرَ الذِّكرياتِ الضائعة الذي يشعُّ على المنظر الطَّبعيِّ المعتم، يا أَيَّتها البرَّاقةُ في سكون فَهْمِي النَّاقص. كينونتي تحشُّكِ على نحو غامض، كأنَّها زُنَّارٌ محجوبٌ يَلُقُكِ. لقد انحنيتُ على وجهكِ الأبيضِ المعكوس في مياهِ قلقي اللَّيليَّة، بَيْدَ أَنَّني لن أعرف أبداً إنْ كنتِ تتدلِّينَ في سهايَ لِتُحدثي ذلكَ القلق، أو كنتِ عوضاً عن ذلكَ قمراً غريباً في الأعهاق (37) يختلقُ القلقَ فحسبُ.

لو أنَّني أستطيعُ أنْ أُوجِدَ طريقةَ رؤيةٍ جديدةً لأراكِ، وأفكاراً جديدةً ومشاعرَ جديدةً لأَفكِّرَ فيكِ وأشعرَ بكِ!

وحينَ أحاولُ أن ألمسَ سِثْرَكِ، تَستنفدُ كلماتي كُلَّ طاقة الجَهْد الذي أبذلهُ لأصلَ إليكِ، وتَعَبُّ شديدٌ مؤلمٌ يجعلُ كلماتي جليداً. كتحليقةِ طائر يبدو أنَّه يقتربُ ولكنَّهُ لا يصلُ بتاتاً، ذلكَ التَّعبُ، بِعَيْنِهِ، يُحوِّمُ فوقَ ما أريدُ قولَهُ عنكِ، بَيْدَ أَنَّ كُنَّهَ جُهَلِي عاجزٌ عن محاكاة الجوهر أو صوتِ خُطاكِ، أو الأثرِ الذي تتركهُ نظراتُكِ في الخلف، أو اللَّونِ الفارغ الحزين للإيهاءاتِ التي لم تأتِ بها قطُّ.

⁽³⁷⁾ الأعماق، هنا، تعود على مياه القلق في الجملة التي قبلها. كأنَّها قمر غريب يغوص تحت سطح هذه المياه (المترجم)

[\$1913]

تمجيدُ العبثي

أَتَحَدَّثُ بِجِدِّيَّةٍ وحُزنِ؛ فهذه المسألةُ ليستْ سارَّةً، لأن مسرَّات الأحلام حزينةٌ ومتناقضة وهي مُبهجةٌ، لتلكَ العلَّةِ، على نحوِ غامض.

أَطْرِفُ عيني بعض الشَّيء أحياناً، في داخلي، صوبَ تلكَ الأشياء العبثيَّةِ البُهجةِ التي لا أُستطيعُ أَن أراها فهي تبدو غيرَ منطقيَّةٍ — الجسورِ التي تبدأُ في اللَّا أَيْنَ وتذهبُ إلى اللَّا أَيْنَ، الشَّوارِعِ التي لا أُوَّلَ لها ولا آخرَ، المناظرِ الطَّبيعيَّة التي عَالِيها سافِلُها — الأشياءِ العبثيَّة غير المنطقيَّةِ، المتناقضة، كلِّ شيءٍ يفصلنا عن الحقيقيِّ ويُبعدنا عنهُ، عنِ الحاشيةِ الممسوخة للأفكار العمليَّة والمشاعر الإنسانيَّة والرَّغبات توقاً لِصَنيع ناجع وفعَّالٍ. يُنقذنا العبثيُّ رغمَ السَّام مِنْ حالِ الرُّوح التي يبدؤُها غضبُ الأحلام الأخَاذُ.

ثُمَّ بطريقةٍ أو أخرى أهتدي إلى وسيلةٍ غريبة غامضة لتخيُّل تلكَ العبثيَّاتِ — لا أعرفُ كيفَ يمكنني تفسيرُ ذلك، ولكنَّني أرى أشياءَ لا يمكن تصوُّرُ حتَّى أنَّها تُرَى.

9

[91913]

تمجيدُ العبثي

فَلْنَجْعَلِ الحياةَ عبثيَّةً من الشَّرقِ إلى الغرب.

10

[\$1913]

بالإحجام عن النّضافُر في وجود العالَم الخارجيّ، تحدثُ، من بين أشياءَ أُخَرى، ظاهرةٌ نفسيَّة عجيبة.

فَدِلإحجامِ داخلياً عن الفِعْل، غيرَ مكترثٍ بِ الأشياءِ، أستطيعُ رؤيةَ العالم الخارجيّ، حينَ أنظرُ إليهِ، يموضوعيَّةٍ تامَّة. وإذْ لا علَّةَ لتغييرهِ ولا سببَ، فإنَّني لا أفعلُ.

[وهكذا أنا...]

[\$1913]

أحلامي: ولأنَّني أخلقُ الأصدقاءَ في أحلامي، فإنَّني أمشي معهم؟ مع نقصانهم الغريب...

كُنْ نقياً، لا لتكونَ نبيلاً أو قوياً، وإنَّها لتكونَ نَفْسك. أن تمنحَ الحُبُّ هُوَ أَنْ تفقدَ الحُبّ. أهجر الحياة كي لا تهجُركَ نَفْسُك.

المرأةُ مصدرٌ جيِّدٌ للأحلام. لا تلمس المرأةَ أبداً.

تعلُّمْ أَن تَفْصُلَ أَفْكَارَ الشُّهُوةَ وَالْمُسرَّةِ. تعلُّمْ أَنْ تَتَمَتُّع بِكُلِّ شِيءٍ، ليسَ لماهيَّةِ تلك الأشياء، بل للأفكارِ والأحلام التي تستثيرُها. فلا شيءَ مَا هُوَ عليهِ، ولكنَّ الأحلام دائمًا هيَ الأحلامُ. ولذلكَ، لا ينبغي عليكَ أن تلمسَ شيئًا. وإنْ فعلتَ، فإنَّ حلمكَ سوف يموتُ، ويستحوذُ على مشاعركَ الشَّيءُ الملموسُ.

البصرُ والسَّمعُ هما الشَّيتَانِ النَّبيلان الأوحدانِ اللَّذانِ تنطوي عليهما الحياةُ. الحواسُّ الأخرى مُبتذَلَةٌ وشهوانيَّة. الأرستقراطيَّةُ الوحيدة تكمن في عدم اللَّمس. لا تقتربْ كثيراً - هذي هيَ النَّبالةُ الْحَقُّة.

[?1913]

نُبْلٌ أن تكونَ خجولًا، شهيراً بأنَّك لا تعرفُ ماذا تصنعُ، وعظيماً لأنَّك لا تملكُ موهبةً

وَجْدَهُ السَّامُ، الذي هُوَ شكلٌ من العُزلة، والفنُّ، الذي هُو شكلٌ من الازدراء، يُموِّهانِ حياتنا بمظهَرِ من القناعة.

فالسَّرابُّ الذي يخرجُ من أنفُسِنا الفاسدة ينشرُ الضَّوءَ في عتمتنا على الأقلِّ. وَحْدَها التَّعاسةُ تَسْمُوْ بِنَا — والسَّامُ الذي نجنيهِ من تلكَ التَّعاسةِ لا يُنْبِئ إلَّا عن كَوْنِنَا ذُريَّةَ أبطالِ غابرين.

أنا بترُ إِيهاءاتٍ لم تُبْذَلُ قطُّ، بترُ كلماتٍ لم تُنطَقِ البتَّةَ ولم تخطرُ أبداً على قلب بشَرِ، بثرُ أحلام نسيتُ أن أحلمَها حتَّى النهاية. أنا أطلالُ أبنيةٍ لم تكُنِ إطلاقاً أكثر من أطلالٍ سَثِمَ أحدُهم، وَهُوَ في غمرة تشييدها، الرَّغبةَ في بنائها.

دعونا ألّا ننسى أن نمقتَ أولئك الذين يتمتّعونَ بالأشياء لأنّهم يتمتّعونَ بها، أن نحتقرَ أولئك الشياء الأنهم يتمتّعونَ بها، أن نحتقرَ أولئك الشعداء الأجوف، وتلكَ التعداء الأجوف، وتلكَ الكراهيةُ العاجزة، إلّا القاعدةُ التي نرفعُ عليها، بكبرياء وتفرّد، تمثالَ سأمنا، شكلاً مُعتماً تتّقدُ على تُحيّاةُ ابتسامةٌ خَفيّةٌ لا تُسبَرُ أغوارُها.

طُوبَي للَّذينَ لا يُوكِلُونَ حيواتِهم إلى أحد.

13

[\$1913]

برزخ

هذي السَّاعةُ الرَّهيبة التي إما أن تتضاءل فتصيرَ احتمالاً أو تتعاظمَ فتغدو فَنَاءً. فَلَا ينبلجَ الفجرُ بتاتاً، فَلْأُقَطَّرْ لَئِلاً، عتمةً مُطلقةً، أنا وهذي الغرفةُ برمَّتها والأجواءُ التي أنتمي إليها، حتَّى لا يظلَّ مِنِّيَ شيءٌ، ولا حتَّى ظلُّ يُدنِّسُ مع ذاكرتي أياً مما تبقَّى.

14

[1913]

باطلٌ كلُّ ما ينطوي على فِعْلى، سواءٌ أكانَ حرباً أمْ تأمُّلاً؛ وباطلٌ أيُّ شيءٍ ينطوي على تنازُلٍ. لو أنَّني عرفتُ فحسبُ كيفَ ألَّا أفعلَ وكيفَ ألَّا أتنازل عن الفعل أيضاً! سيكونُ ذلك تاجَ مجدي المأمول، صولجانَ عظمتي الصَّامت.

ولكنّني لا أتعذّب. فازدرائي شديدُ العظمة لكلّ شيءٍ إلى درجة أنّني أحتقرُ نَفْسي. ولأنّني أحتقرُ نَفْسي، ولأنّني أحتقرُ معاناتي، ولذا أسحقُ معاناتي تحت وطأة احتقرُ معاناتي، ولذا أسحقُ معاناتي تحت وطأة احتقاري. أو، ولكنّني أتعذّبُ أكثرَ حينئذٍ، فالمرءُ حينَ يُعظّمُ معاناتَهُ فإنّهُ يُموِّهها بالشّمس الذهبيّة للكبرياء. فقد تمنحُ المعاناةُ العظمى المرءَ وهمَ أنّهُ نبيُّ الألمِ المختارُ.

[?1913]

المالُ جميلٌ، لآنَّهُ تحرُّر…

الرَّعْبَةُ فِي الذَّهَابِ إِلَى بِكِينَ (**) والموت هناك، وألَّا أكونُ قادراً على ذلك، شيءٌ يُثقِلُ كاهلى كفكرةِ كارثةٍ مُحدِقَة.

إِنَّ الذينَ يشترون الأشياء العقيمة هم أكثر حكمةً ممّا يظنُّون: إنَّهم يشترون أحلاماً صغيرة. إنَّهم أطفالٌ حين يتعلَّقُ الأمر بالشَّراء. إنَّهم منجذبون إلى الأشياء الصَّغيرة العقيمة التي تغويهم حين تُدرِكُ بأنْ ثمّة مالاً يتوجَّبُ إنفاقه، فيتملَّكُ المشترون تلك الأشياء بسعادة طفل يتلقطُ الأصداف من الشَّاطئ! فلا تُوجَد صدفتان متشابهتان بتاتاً، بالنَّسبة إلى الطَّفل. يغلبُهُ النُّعاسُ مع الصَّدفتين الأجمَيْن اللَّتيْن تقبضُ عليها يداه، وحينَ تضيعان أو تُرْمَيَان وهذه جريمةٌ أو تكادُ، كما لو أنَّ مِزَقاً شرقتْ من روحه أو شظايا تناثرتْ من أحلامه! وينتحبُ كإله شرق مِن كَوْنِهِ المخلوقِ حديثاً.

16

[91913]

فاصلُّ مؤلم

كلُّ شيءٍ يُضنيني، حتَّى تلك الأشياء التي لا تضني. فرحي مؤلمٌ كحزني. ليتني طفلٌ يُطلق قواربَ ورقيَّة في بركة في الحديقة، وعرائشُ العنب قد تصالبتُ في السَّماء فوقَهُ، طارحةٌ رقاعَ ضَوْءٍ وظلِّ أخضرَ كأنَّها رقاعُ شطرنج فوقَ الانعكاسات الدَّاكنة في المياه الضَّحلة.

لوحُ زجاجٍ هشٌّ يحولُ بيني وبينَ الحياة. وبصرف النَّظر عن الوضوح الذي أرى بهِ الحياةَ وأفهمُها بهِ، فإنَّني لا أستطيعُ أن ألمسَهُ.

⁽³⁸⁾ عُرفت بكين Peking تاريخياً عبد العرب، باسم: خان بالق، كما أورد المؤرِّخ ابن فضل الله العُمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار». (المترجم)

هل يتوجَّبُ علينا أن نستدلَّ على الطريق خارج الحُزن؟ ولكنْ لماذا، حينَ يتطلَّبُ الاستدلالُ مجهوداً؟ فالإنسانُ الحزين يفتقرُ إلى الطَّاقة الضروريَّة لبدل أيِّ جهد البتَّة. ولكنَّني لا أتخلَّى عن الإيهاءات المبتذَلة للحياة التي أتمنَّى لو أنَّني استطيعُ أن أتخلَّى عنها. فالتخلِّي يتطلَّب جهداً، وأنا لا هِمَّةَ لديَّ كافية للقيام بذلك الجهد.

كم مرَّةً يؤلمني ألَّا أكون قبطان تلك السَّفينة، وسائقَ ذلك القطار! أنْ أكونَ شخصاً آخر مبتذلاً حياته طافحة ، لأنَّها ليستْ حياتي، بلهفة بهيجة وإحساسٍ شِعريِّ بالآخر.

لن ترعبَني الحياة حينئذ بوصفها شيئاً. ولن تُثقل كاهل أفكاري فكرةُ الحياة مُجملةً. أحلامي ملاذٌ سخيفٌ، لا يُعوَّلُ عليهِ إلَّا كمثل مظلَّة في عاصفة رعديَّة. أحلامي ملاذٌ سخيفٌ، لا يُعوَّلُ عليهِ إلَّا كمثل مظلَّة في عاصفة رعديَّة. أنا شديدُ الخمول، كبائس فقير، ولذلك أفتقرُ كُليَّةً إلى الإيهاءات والأفعال.

ومهما انغمستُ عميقاً في نَفْسي، فكلُّ مسالكِ أحلامي تُفضي إلى أمداء القلَق.

وثمَّة أوقاتُ تُدْبِرُ فيها الأحلامُ عنِّي، على الرَّغم من أنَّني حالمٌ مُفرطٌ في أحلامه، ثُمَّ تتراءى الأشياءُ أوضح. ينقشعُ السَّديم الذي ألفُّ بهِ نَفْسي، وجميعُ الحوافِ الصَّارمة التي تتجلَّى الآن تجرحُ إهابَ روحي، وجميعُ الأسطح القاسية تكدمُ بَعْضِيَ الذي يعرفُ أنَّها قاسيةٌ، وجميعُ الأشياء الثَّقيلة المُتجليَّة تُرهِوُ روحي،

كأنَّ شخصاً كانَ يستخدمُ حياتي ليضربني بها،

[1913]

يَهُوُّ مُعمَّد

وحينَ شكّل المنظر الطّبيعيُّ في تلك السّاعات هالةً حول الحياة، والحلمُ ليس إلّا أنْ يحلمَ المرءُ بِنَفْسه، ألّفتُ، آهِ، يا حُبِّي، في صمت قلقي، هذا الكتابَ الغريبَ كمتواليةِ أعمدةٍ تتّسع عند جادَّةِ مهجورة.

وكي أُكتبَ هذا، قطفتُ الأرواحَ من جميع الأزهار، ومن اللَّحظات العابرة لكلِّ الأناشيد التي تصدحُ بها جميعُ الطُّيور نسجتُ أبديَّةً وخمولاً. جالساً في نافذة حياتي ناسياً أَنني كنتُ حياً، أنّني موجودٌ، شرعتُ في نسج أكفانٍ أُكفِّنُ بها سأمي، وأرديةِ كتَّانٍ طاهرة لمذابح صمتي.

وإنني أقدَّمُ هذا الكتابَ إليكِ لأنني أعرفُ أنّه سيكونُ جميلاً وبلا طائلِ على حدًّ سواء. إنّهُ لا يهدي إلى شيء، ولا يبشَّرُ بشيء، ولا يثيرُ وجداناً. إنّهُ جدولٌ يجري في جحيم رمادٍ تنثرهُ الرّيحُ؛ رمادٍ لا يُخصِبُ ولا يعيثُ فساداً — لقد وضعتُ روحيَ كلّها في صُنعهِ، ولكنّني لم أكن أفكرُ في ذلك حينئذٍ، وإنّها في نَفْسي الحزينة وفيكِ فحسبُ؛ نفسي ونفسكِ اللّيّن لا أحدً.

ولأنَّ هذا الكتابَ عبثيُّ، فإنَّني أحبُّهُ. ولأنَّه بلا طائل، فإنَّني أرغبُ في أن أهبَكِ إياه. ولأنَّه لا طائلَ من الرَّغبة في منحهِ لكِ، فإنَّني أُعطيهِ على أَيِّ حالِ...

صلِّي مِن أجلي حينَ تقرأينَهُ، أنعِمي عليَّ بحبِّكِ لَهُ، ثُمَّ انسيهِ كما نسيتُ أولئك النِّسوة، مجرَّدَ أحلام لم أعرف كيف أحلمُها بتاتاً.

يا بُرجَ رغباتي الصَّامتَ، فَلْيَكُنْ هذا الكتابُ ضَوْءَ القمرِ المتحوِّلَ في ليلِ السرِّ العتيق! يا نهرَ النُّقصانِ المؤلمِ، فَلْيَكُنْ هذا الكتابُ قارباً يطوفُ على غيرِ هُدى في مياهكِ ثُمَّ ينجرفُ إلى قاع بحرٍ لَمْ يُحَلَمْ بهِ بَعْدُ.

يا منظرَ الآغَرَابُ والهجرانِ الطَّبيعيَّ، فَلْيَكُنْ هذا الكتابُ كتابَكِ كمثلِ ساعتكِ، وَلْبَسْمُ بكِ كها تفعلُ السَّاعةُ الأرجوانيَّةُ المحتومة. نهر أبديٌ يجري أسفلَ نافذة صمتي. أستطيعُ أن أرى الشَّاطئ الآخَر دوماً، ولا أعرفُ لمَ لا أحلمُ بأنَّني هناك مختلفٌ وسعيدٌ. ربَّما لأنَّكِ تُواسينَ فحسبُ، تترنَّمينَ كي أنامَ فحسبُ وَتُمَرِّحِينَ وتُقدِّسينَ فحسبُ.

فأيَّ قُدَّاسِ أَبِيضَ تُقاطعينَ كي تُرسلي إليَّ بركةَ أن تجعليني أرى أنَّكِ موجودةٌ؟ وفي أيِّ دَوْرٍ في هذا الرَّقصِ المتلوِّي تتوقَّفينَ، والدَّهرُ معكِ، لتجعلي من توقُّفكِ جسراً إلى روحي ومِن ابتسامَتكِ أُرجوانَّ ردائي؟

يا بجعةَ القلَّقِ المُنظومِ إيقاعاً، ويا قيثارةَ السَّاعاتِ الأبديَّةِ، ويا قيثارَ الأحزانِ الخُرافيَّةِ المُتردَّدَ — أنتِ المُنتظَرةُ والضَّائعةُ، يا مَن تُعانِقُ وتجرحُ على حدَّ سواءٍ، ويا مَن ثُمُوه مسرَّتَنا بالألم الذَّعَبِ وتُكلِّل حُزنَنا بالوردِ.

أَيُّ إِلَّهِ أُوجِدَكِ، وأيُّ إِلَّهِ أَبِغضَهُ الإِلَّهُ الذي أوجدَكِ؟

أنتِ لا تعرفينَ أو حتَّى تعرفينَ أنَّكِ لا تعرفينَ، أنَتِ لا تريدينَ أن تعرفي أو ألَّا تعرفي. لقد جرَّدتِ حياتَكِ مِن غايتِها، وطوَّقتِ حضورَكِ بهالةِ الوهم، وكسوتِ نَفْسكِ بالكَمالِ واللَّاتَجسُّدِ، حتَّى لا تقدرَ السَّاعاتُ أن تُقبِّلكِ، أو الأيَّامُ أن تتبسَّمَ لكِ، أو أن تراكِ اللَّيالي رافعةً القمرَ في راحتَيْكِ حتَّى صارَ كأنَّهُ زَنبقةٌ.

يا حُبِّي، انشُريني معَ البتلاتِ عن وردكِ الأمثَلِ، زنابقكِ الأكمَلِ، بتلاتِ الأقحوانِ التي يفوحُ منها نغمُ اسمكِ.

سَأُميتُ حياتي فيكِ، أيَّتها البتولةُ التي لا تنتظرُ عناقاً، ولا تبحثُ عن قُبلةٍ، ولا غايةً ترومُ.

H

سأجعلُنِي شاعراً جرَّاءَ حلمي بكِ، وسيحتوي نثري، حينَ يصفُ جمالكِ، على إيقاعات الشِّعر، وتثنيًّاتِ مقاطع القصائد الغنائيَّة، والأُبَهاتِ المباغتة التي نعثرُ عليها في الأشعار الخالدة.

كتابُ القلُق- تهاية

1

أنتِ غيرُ موجودةٍ، أعرفُ ذلك، ولكنْ هَل لِي أَنْ أَتَأَكَّدَ أَنِّي مُوجُودٌ؟ وهل تَمْتَلَكُ الأَنَا التي تسمحُ لكِ بأَنْ تُوجَدي فِيَّ حياةً حقيقيَّة بالضَّر ورة أكثرَ منكِ، أكثرَ من الحياةِ الميُّنة التي تعيشُكِ؟

يا لهيبَ الهالةِ الرَّفيعة، أيا حضوراً غائباً، أيا صمتاً أنثوياً موقَّعاً، يا شفقَ الجسدِ الغامض، يا أيَّتها الكأسُ المتروكة في المأدبة، يا نافذةَ الزُّجاجِ المزخرفِ الذي لوَّنَهُ حلمُ رسَّامٍ مستفحلٌ في العصور الوسطى الأرض أخرى.

يا كأسَ العفَّةِ والقربانَّ، أيا مذبحاً مهجوراً لقدِّيسةٍ مازالتْ على قيدِ الحياة، وأيا توبجاً محلوماً به لزنبقةٍ في حديقةٍ لم يدخلها أحدٌ قطُّ...

أنتِ الشَّكُلُ الوحيد الذي لا يتهلَّلُ بالسَّأم، لأنَّكِ تتبدَّلينَ رفقةَ مشاعرنا، ولأنَّكِ حينَ تلثمينَ مسرَّتَنا، فإنَّكِ تُهدهدينَ حزنَنا وسأمَنا، أنتِ الأفيونُ الذي يشرحُ الصَّدْرَ، والنَّومُ الذي يجلبُ الرَّاحة، والموتُ الذي يطوي أياديَنا برقَّةِ فوقَ صدورنا.

أيا ملاكاً، مِن أيِّ جوهر قُدَّتْ أجنحتُكِ؟ وأيُّ حياةٍ تُبقيكِ أرضيَّةً، أنتِ الَّتي لم تَطبري البتَّةَ، ولم تصعدي قَطُّ في السَّماواتِ، أنتِ الَّتي كلُّها حبورٌ ذاهلٌ وسكينةٌ حائرة؟

[(قسم أخير)]

П

فَلْنَخْلِقْكِ، آهِ يا مَن أنتِ لي وحدي، لأنَّكِ موجودةٌ، وَلأُخلقُ لأنَّني أرى أنَّكِ موجودةٌ، إِنَّهُ فَنَّ مُختلفٌ تماماً عن أيِّ فنِّ آخر.

فَلْأَجِدْ سبيلاً كي أستمدَّ من جسدكِ الأَمْفُورِيِّ العقيم الوهجَ المنسيَّ لأشعارِ جديدة،

وَلْتَعشر أصابعي المرتعشةُ، في إيقاعاتكِ البطيئة التي كأنَّها موجةٌ ــــموجةٌ لا أوَّلَ لها—على طريقِ للبحثِ عنِ الأسطُرِ الحَتَّالةِ لِنَثْرِ بِكْرِ لم يُسمَع بهِ من قَبْلُ.

فَلْتَكُنِ ابتسامتُكِ الغامَضةُ المتلاشيةُ، مِن أجليَ، الرَّمزَ الجليَّ وشِعارَ قَدَرِ العالَمِ اللَّاعدود آنَ يجدُ نَفْسَهُ مجرَّدَ خطأِ، مجرَّدَ رَيْبٍ،

فَلْتَكُن يداكِ، يداكِ العارْفتانِ على القيثارِ، قُربَ عينيً حينَ اموتُ لآنَني عَمَرْتُ حياتيَ من أجلكِ. وأنتِ، يا لا أحد، سوفَ تكونينَ إلى الأبدِ –آيَّتها العَلِيَّةُ – الصَّنعةَ الفنيَّةَ الأثيرةَ لآلهةٍ لم تُوجَد مِن قَبْلُ، والأُمَّ البتولَ العاقرَ لآلهةِ لن تُوجَد أبداً.

19

[?1913]

أَنظُرُ مرتعداً من شرفة هذا المقهى إلى الحياةِ. لا أقدرُ أن أرى جُلّها، ليسَ إلّا هَرجُ أناسِ معتشدينَ في هذي السَّاحة الصَّغيرة المُشرقة التي تخصُّني. وَهَنْ كنشوة (30) سُكْرٍ يُنيرُ أرواحَ الأشياء من أجلي. تنسابُ الحياةُ، في خُطى عابر وفي سَوْرةِ الحركةِ المحسوبةِ، واضحةً ومُتَّفَقاً عليها، عابرة قُربي. وفي هذي اللَّحظةِ، حين تكون جميعُ مشاعري راكدة، وكلُّ شيءٍ يبدو أيَّ عليها، عابرة قُربي. وفي هذي اللَّحظةِ، حين تكون جميعُ مشاعري راكدة، وكلُّ شيءٍ يبدو أيَّ شيءٍ إلَّاهُ —مشاعري خطأً حائرٌ ولكنَّهُ جليُّ —أفردُ جناحيَّ، كنسرِ خياليِّ ضخم، ولا أطيرُ. لعلَّ تشوُّفي الأعظم، كرجلِ مثاليِّ، لا يذهبُ في الواقع أبعدَ من تَبَوَّءِ هذا الكرسيِّ على هذه الطَّاولة في هذا المقهى.

عبثُ كلُّ شيءٍ، كتهييجِ رمادٍ باردٍ، وغامضٌ كالبُرهةِ التي تسبقُ الفجر.

والضَّوْءُ يسقطُ صافياً، صفاءً شديداً، وبالغَ الكهال فوقَ الأشياء، يُذهِّبُها بحقيقة حزينة وبَشُوشة. سرُّ العالمَ يتجلَّى أمامَ عينيَّ بأكملهِ وقد قُدَّ من هذا الابتذال، هذا الشَّارع.

آه، كم هي غامضة أشياءُ الحياة اليوميَّة التي نلمسها! وفوقَ سطح هذي الحياة الإنسانيَّة المُعقَّدة، الذي مسَّهُ الضَّوْءُ، يتفتَّحُ الوقتُ كابتسامةٍ مُتردِّدةٍ فوقَ شفاهِ السرِّ! كم جديدِ يبدو كلُّ هذا، ولكنَّهُ في قرارتهِ ضاربٌ في القِدَم، ومحتجبٌ جداً، ومختلفٌ اختلافاً شديداً عن هذا المعنى الذي ينبلجُ خارجَ هذا كلِّهِ ا

⁽³⁹⁾ النُّشُوة، عند العرب، هي أوَّل السُّكُر. وبِسُوَّا يستخدم مفردة começo (بداية/أوَّل)؛ ولكنَّها جاءت، في الترجمة الإنگليزية، بصغية الجمع beginnings، (المترجم)

[?1913]

دعونا لا نلمس الحياةَ حتَّى بأطرافِ أصابعنا.

دعونا لا نُحِب حتَّى في أفكارنا. دعونا لا نُجرِّب فُبلةَ امرأةٍ، حتَّى في الأحلام، كبهجةٍ حقيقيَّة.

يا حُدِّاقَ الكسَل، فَلْنُركِّز على تعليم التحرُّر من الوهم. أمَّا أُولئك الذين ينتاجُمُ الفضولُ بشأنِ الحياة، فَلْيَنظروا خارجَ كلِّ بابٍ ونافذة، بالحَدْسِ المُنْهِك أنَّهم لن يَرَوْ شيئاً جديداً أو جميلاً.

يا نُسَّاجَ الياس، فَلْنَنْسِج أكفاناً فحسبُ — أكفاناً بيضاءَ للأحلام التي لم نحلمها قطَّ، وأكفاناً سوداءَ للأيَّام حينَ نموتُ، وأكفاناً رماديَّةً للإيهاءاتِ التي لم نحلم إلَّا بها فحسبُ، وأكفاناً إمبراطوريَّةً أرجوانيَّةً لمشاعرنا العقيمة.

يجوسُ الصيَّادونَ في التِّلال والوديان وشواطئ البحيرات بحثاً عن الذَّئاب والظِّباء والظِّباء والطِّ البريِّ. فَلْنَكْرَههم لا لأَنَّهم يقتلون، وإنها لأَنَهم يُمتِّعونَ أَنْفُسَهم (ونحنُ لا نفعلُ). فَلْيَكُنِ التَّعبيرُ المرتسمُ على وجوهنا ابتسامةً شاحبةً، كابتسامةِ الذي على وشك أن ينفجرَ في البكاء، تحديقة ذاهلةً، كتحديقة الذي لا يرغبُ في أن يرى نظرةً ذاهلةً، كنظرةِ الذي يحتقرُ الحياة، ولا يعيشُ إلَّا ليحظى بشيء يحتقره.

فَلْنَحتقر أولئكَ الذين يعملونَ ويكافحونَ، وَلْنَمْقُت أولئكَ الذين ينتظرونَ مُوقِنين.

(نهاية)

21

[1913]

فاصلٌ مؤثم

لا أُجدُ عزاءً حتَّى في الزَّهْوِ والتَّباهي. ما الذي يدفعني إلى الزَّهْوِ وأنا لستُ خالقَ نَفْسي؟ وحتَّى لو كانَ ثمَّةَ شيءٌ فِتَيَ أَزْهُوْ بهِ، فكم مزيداً من الأشياء هناكَ لا أشعرُ بأنَّها جديرةٌ بالفَّخُر؟ أرقدُ مضطَّجعاً في حياتي، حتَّى إنَّني لا أعرفُ كيف أحلمُ بإيهاءة أن أنهضَ، ووليجةُ نَفْسي خاويةً، خواءً شديداً، فلا حماسةَ البتَّةَ لأيِّ مجهود.

مازالتِ المعاناةُ جديدةُ على مُبدعي المنظومات الغيبيَّة والتَّفاسير السَّيكولوجيَّة. التَّصنيفُ المنهجيُّ، والتَّفسيرُ... والبناءُ؟ وكلُّ هذا --التَّنظيمِ، والتَّرتيب، والتَّنسيقِ-- ليسَ إلَّا طاقةً مستنفدةً ويَبَامِاً كما الحياةُ!

لستُ مُتطيِّراً. طافحونَ بالمسرَّةِ أولئك الذين يستطيعونَ أن يجعلوا معاناتهم شيئاً كونياً. لا أعرفُ إنْ كانَ العالمُ حزيناً أمْ طالحاً، ولا أكثرتُ، فأنا أشعرُ بالسَّام واللَّامبالاة تجاه معاناة الآخرين. وطالما لا يبكونَ أو يتأوَّهونَ -ذاكَ يثير سخطي وإزعاجي - فإنَّني أهزُّ كتفيًّ تجاهُلٍ لمعاناتهم، فاحتقاري لهم عميقٌ جداً.

أُحبُّ الاعتقادَ أنَّ الحياة نصفُ ضياء، نصفُ عتمةٍ. كلَّا، لستُ مُتطيِّرًا. لا أتذمَّرُ من أهوال الحياة. لا أتذمَّرُ إلَّا من أهوال حياتي. ليستِ الحقيقةُ المُهمَّة، بالنِّسبة إليَّ، إلَّا حقيقة أنّني موجودٌ وأنّني أُعاني ولا أستطيعُ، بِكُلِّيَّتِي، أن أحلمَ بنفسي خارجَ الشُّعور بتلك المعاناة. المتفائلون حالمون سعيدون. يجعلونَ العالمَ على صورتهم ويقدرونَ على الدَّوام أن يكونوا على راحتهم، فرحينَ بها لديهم. ما يؤلمني، شديدَ الألم، البَوْنُ بينَ هَرَج العالمَ وحبورهِ وبينَ حُرْنِ، بينَ صمتى الضَّجر.

لا بُدَّ للحياة، على الرَّغم من أحزانها ومخاوفها وخضَّاتها، أن تكونَ طيِّبةً وسعيدة، كرحلةٍ في عربةٍ قديمة مُتقلقلة بصحبةِ الآخرين (بنافذةٍ ننظرُ منها إلى الخارج).

حتَّى إنَّني لا أستطيعُ أن أختبر معانات علامةً على العظمة. لا أظنَّهَا كذلك. ولكنَّني أَكَابِدُ مثل تلكَ الأشياء المُتبذَلة، فلا أجرؤُ بتلك الفرضيَّة أُكابِدُ مثل تلكَ الأشياء المُتبذَلة، فلا أجرؤُ بتلك الفرضيَّة النَّفي قد أكون عبقرهاً.

لا يغمرني غروبُ شمس جميلٌ بالمسرَّة البتَّة. ولكنَّني لا أبرحُ أُفكِّرُ: كَمْ لا بُدَّ على الشَّخص السَّعيد أنْ يشعرَ بالرِّضا لرؤية هذا [الغروب]!

هذا الكتابُ صرخةُ ألم طويلةٌ. وحينَ أفرغُ من كتابتهِ، لَنْ يَغْدُو [ديوانُ] "وحيداً" لأنطونيو نُوْبُرُ الله الكتابَ الأشدَّ حُزِناً (الله في البرتغال،

جميعُ الآلام الأخرى تبدو باطلةً أوْ تافهةً، مقارنةً بألمي. إنَّها آلامُ أُناسِ سعيدين أوْ آلامُ أولئكَ الذينَ هُمْ مُفعمونَ بالحياة كفايةً كي يبثُّوا شكواهُم. ألمي ألمُ شخصِ مسجون في الحياة، مقطوع...

لا أرى، بيني وبينَ الحياة، إلَّا أشياءَ تجلبُ القلق، ولا أشعرُ بأيٌّ من تلك الأشياء التي تجلبُ المسرَّة. ولقد لاحظت أنَّ التَّعاسةَ شيءٌ تراهُ بدلاً من أنْ تحسَّهُ، وأنَّ المسرَّةَ شيءٌ تحشُهُ بدلاً من أنْ تحسَّهُ، وأنَّ المسرَّةَ شيءٌ تحشُهُ بدلاً من أنْ تراهُ، لأنّك حين لا تُفكِّرُ ولا ترى، تعتريكَ سكينةٌ مُعيَّنة، كحالِ الصُّوفيَّةِ بدلاً من أنْ تراهُ، لأنّك حين لا تُفكِّرُ ولا ترى، تعتريكَ سكينةٌ مُعيَّنة، كحالِ الصُّوفيَّةِ والبوهيميِّينَ والأوغادِ المُطلَقِين. تدخلُ التَّعاسةُ، بِقضِها وقضيضِها، عبرَ نافذةِ المُشاهدة (الله وبابِ التَّقكُر.

22

[1913]

إنني أحلمُ إذن لا أعيش، أحلمُ الحياة الحَقَّة. فكلُّ السُّفُن سفائنُ أحلام طالما كُنَّا قادرينَ على أَنْ نحلم بها، وليسَ عَدَمُ العَيْش مَا يقتلُ الحالمَ آنَ يحلمُ، وليسَ انعدام الأحلام مَا يُدْمِي الفَاعِلَ (٤٠ آنَ يعيشُ، مَزَجْتُ جَمَالَ العالمَ وحقيقة الحياة في لون بهيج واحد. لَكَ أَنْ تمتلكَ حُلُما، ولكنَّكَ لَنْ تَملِكُهُ أبداً على نَحْو مَا تملكُ منديلاً في جيبكَ، أوْ تملكُ —إنْ شئت جسمكَ أنتَ. وحتَّى لو عشت حياتكَ غارقاً، من قمّة رأسكَ حتَّى أخصي قدميكَ، في نشاطِ محموم وجامح، فَلَنْ تستطيع اتقاءَ التَّعامل مع الأخرينَ أو التَّعشُّر جرَّاءَ الصَّعَاب، مها كانتْ صغيرة، أو الشَّعور بأنَّ الوقتَ يمرُّ.

أَنْ نَقْتُلَ الْحَلَمَ هُوَ أَنْ نَقْتُلَ أَنْفُسَنا. إِنَّهُ كَمثُلِ أَنْ نَسْتَأْصُلَ رُوحَنَا. الْحُلُمُ أَعزُ أَشْيَائِنا الْحَقَّةِ التي لا يمكنُ أَنْ تُستَأْصُلَ، ولا سَبِيلَ إلى النَّفاذِ إلْيها.

⁽⁴⁰⁾ كان نُوْيُرُ نفسه هو الذي وصف الكتاب بعبارة « أشد الكتب حُزناً في البرتغال»، وذلك في البيت الأخير «que é o livro mais triste que há em Portugal»، من قصيدة «Memória»، التي افتتح بها الكتاب. (المترجم) (41) بمعنى المراقبة والملاحطة والرُّصد. (المترجم)

⁽⁴²⁾ الذي يصنع الأفعال ويقوم بها. (المترجم)

ينتمي الكونُ --مسواءٌ أَحَقاً كانَ أمْ وَهَماً- إلى كلّ واحدٍ، وكذلكَ تنتمي الحياةُ، فكلُّ واحد يستطيعُ أنْ يرى ما أرى، ويملكُ ما أملكُ أو يستطيعُ، على الأقلّ، أنْ يتخيّل أنّهُ يراهُ أو يملكَهُ...

ولكنَّني لا أستطيعُ أن أرى إلَّا ما أحلمُ بهِ، [مَا] أستطيعُ امتلاكَهُ ليسَ إلَّا. وإنْ كانتُ سبيلي إلى رؤية العالَم الحارجي تختلفُ عن سبيل الآخرين، فذاكَ لآني لا أحسِنُ رؤيتَهُ إلَّا عَبْرَ مَا مَلاَّتِ الأحلامُ بهِ عينيَّ وأُذُنَيَّ.

23

[1913]

بحيرةُ الحيازة

الحِيازة، بالنِّسبة إليَّ، بحيرةٌ عَبَثيةٌ — كبيرةٌ جداً، ومدلهمَّة العتمةِ وضحلةٌ من غيرِ رَيْبٍ. ولا تبدو عميقةً إلَّا لأنَّها طافحةٌ بالقذارةِ والأكاذيب.

الموتُ؟ لكنَّ الموتَ جزءٌ لا يتجزَّأُ من الحياة. فهل أموتُ تماماً؟ لا أعرفُ. هل أنجو بنَفْسي؟ مازلتُ أعيشُ.

الخُلُم؟ لكنْ أنْ نحلمَ جزءٌ لا يتجزَّأُ من الحياة. فهل نعيشُ الحلمَ؟ إنَّنا نعيشُ. فهل نحلمُ [الحياة] فحسبُ؟ إنَّنا نموتُ. والموتُ جزءٌ لا يتجزّأُ من الحياة.

تَتبعُني الحياةُ مثلَ ظِلٍّ. والظلُّ لا يكفُّ عن الوجود إلَّا حينَ لا يكونُ ثمَّةَ ظِلُّ (اللهُ). ولا تكفُّ الحياةُ عن تتبُّعِنا إلَّا حينَ نستسلمُ لها.

أَشَدُّ مَا يؤلمُ حِينَ نحلمُ هُوَ أَلَّا نُوجَد، فلا نقدر على الحُلُم حَقاً.

ما الذي يعنيهِ التَّملُّك؟ لا نعرفٌ. وكيفَ لنا حينئذِ أنْ نرغب في امتلاك أيَّ شيءٍ؟ قد يقولُ المرُّ إنَّنا لا نعرفُ ما الحياةُ، ولكنَّنا على الرَّغم من ذلك نعيشُ. ولكنْ هل حَقاً نعيشُ؟ وهلِ العَيْشُ دونَ أنْ نعرف ما الحياةُ عَيْشٌ حَقَّ؟

⁽⁴³⁾ يستخدم بشواً، في الأصل، لفظة «sombra» في الموضعين على حدَّ سواء؛ بخلاف الترجمة الإنكليزية التي استخدمت لفظة «shade» كمقابل للكلمة في الموضع الأول، في بداية الجملة، ولفظة «shade» كمقابل للكلمة في الموضع الأول، في بداية الجملة، ولفظة «shade» كمقابل للكلمة في الموضع الثاني، في نهاية الجملة. (المترجم)

[?1913]

مناظرُ الطَّبيعةِ العقيمةُ التي تُزيِّنُ أقداحَ الخَزَف، تنطلق من طرف المَقْبَض لِتَتُوقَّفَ بغتةً في الطَّرف الأَخر، الأقدامُ دوماً متناهيةُ الصِّغَر. أين يمكنُ أنْ ينتهي ذلكَ المنظرُ الطبيعيُّ الذي لا يذهبُ أبعدَ من مَقْبَض القدح؟

قد تشعرُ بعضُ الأَنْفُس بالحُزن العميق لأنَّ المنظر الطبيعيَّ المرسومَ على مروحة صِينيَّةٍ يفتقرُ إلى الأبعاد الثلاثة.

25

[?1913]

برزخ

أخفقتُ في الحياة - حتى قبل أنْ أعيشها، فلقد أخفقتُ في رؤية فتنتِها حتى حين حلمتُ بها. لم أشعر إلّا بتعب الأحلام، ثُمَّ غمرني إحساسٌ باطل ونهائيٌّ، كما لو أنَّني قد وصلت نهاية طريق لا متناهية. فضتُ عن حدود نَفْسي على الرَّغم من أنَّني لا أعرفُ أين بالضَّبطِ أفيضُ، سَاكِناً بقيتُ هناكَ وعقياً لا خَيْرَ فِيَّ. أنا شيءٌ كُنْتُهُ ذاتَ مرَّةٍ. لا أستطيعُ أنْ أجِد نَفْسي حين أشعرُ، وَلَوْ ذهبتُ للبحث عن نَفْسي، فلَنْ أعرف من يبحثُ عني. إحساسٌ بضجرٍ عميم يُنهكني. أشعرُ كأني قد نُفيتُ عن روحي.

أَرقَبُ نَفْسي. أنا شاهدُ نَفْسي. تتبخترُ مشاعري مارَّةً بإحدى نظراتي العصيَّةِ على أن تُعْرَف كأشياء خارجية. يُضجرني كلُّ شيءٍ يخصُّنِي. لقد تخضَّبَ كلُّ شيءٍ، حتَّى أعهاق جذوره الغامضة، بلونِ ضَجَرِي.

كانتِ الأزهارُ التي مَنَحَتْنِيهَا السَّاعاتُ قد ذهبَتْ عنها نضارتُها. لا أستطيعُ الآنَ إلَّا أن أقطف البتلات على مَهَلِ، [وهي] سيرورةٌ أضحَتْ أعقد على مَرِّ السِّنين.

أَجِدُ أَقلَ الأَفْعَالَ مَسْتَحِيلًا، كَأَنَّهُ بِعَضُ فِعْلِ بطوليٍّ. إِنَّ مِجَرَّدَ التَّفْكيرِ في الإِتيانِ بأصغر إيهاءةٍ يُثقِلُ كاهلي كَأَنَّهُ شيء كنتُ قد فكَّرتُ في صُنعهِ حقاً. لا أصبُو إلى شيءٍ. تُدميني الحياةُ. أشعرُ بالضّيقِ حيثُ أنا وحيثُ أفكّرُ أينَ يمكنُ أنْ أكون.

وقد يكونُ المُثلُ الأعلى في عدم تَنَكُّبِ مَزِيدٍ من الأفعالِ إلَّا باطلَ ما تفعلُه النَّافورة — فهي لا تصعدُ إلَّا لتهبط في المكان ذاته، لامعةً في ضوء الشَّمس على غير هُدى، محدثة جلبةً في صمت اللَّيل كي تنعقدَ ابتسامةٌ غائبة على شفتَي الحالم الذي يحلمُ بالأنهار.

26

[1913]

الرحلةُ التي لم تكُنْ قطُّ (44)

كانَ مساءَ حريف عامضاً، لمّا أرخت العتمةُ سُدُولها، حينَ شرعتُ في رحلة لم أقمْ بها قطُّ. لم تكُنِ السّماءُ — التي يستحيلُ عليَّ تذكُّرها — إلّا بقيّة أرجوان وذهب باهت، وفوق خطّ الجبال الجليّ المحتضر تدلّق شيءٌ كأنّهُ هالةٌ نَفذتْ نغماتُهُا المُميتة، على رِسْلِهَا، مِن تلك الأقطار المراوغة. وفي شِقّ السّفينة الآخر (حيثُ كانَ، تحت الظُّلّةِ، بَرْدُ أكثر وعتمةٌ أشدُّ)، يستلقي المحيطُ وقد عَرَتْهُ رِعْدَةٌ على مَدّ الأفقِ الشّرقيّ الحزين، حيثُ رَفَّتْ نَسَمَةُ ظُلمةٍ يستلقي المحيطُ وقد عَرَتْهُ رِعْدَةٌ على مَدّ الأفقِ الشّرقيّ الحزين، حيثُ رَفَّتْ نَسَمَةُ ظُلمةٍ كسديم حَرِّ، طارحة ظلالَ ليلٍ فوقَ الخطّ المعتم السيّال فوقَ طرف البحرِ الأقصى.

وكاًنَ للبحرِ، أذكرُ، نغماتٌ ظِليَّةٌ متآلفةٌ شِيبَتْ بأضواءِ خافتة تَرعشُ — كانَ كلُّ شيءٍ غامضاً غموضَ فكرةٍ حزينة في لحظة فرح، تتنبَّأُ بها لا أعرفُ.

لم أغادر من أيِّ ميناء معروف. ولا أستطيعُ حتَّى هذا اليوم أنْ أقول أيَّ ميناءِ كانَ لأَنَني لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ بِتاتاً بَعْدُ. ناهيكَ عن أنَّ غايةَ طقوس رحلتي كانتِ الذَّهابَ بحثاً عن موانئ غير موجودة — موانئ كانت نقاطَ عبورٍ فحسبُ؛ مَصبَّاتٍ منسيَّة، ومضائقَ بين مدنٍ وهميَّة لا غُبارَ عليها. وحينَ تقرأُ هذا الكلام، سوفَ تحكمُ على كلماتي بأنَّها عبثيَّةُ، دونَ ريبٍ، فأنتَ لم ترتحلِ على الإطلاق مثلها فعلتُ.

فهل شرعتُ في تلك الرِّحلة؟ لا أستطيعُ أن أُجيبكَ بانَّني فعلتُ. لقد وجدتُ نفسي في مكان آخَر، فرأيتُ موانئ أخرى، وعبرتُ مدناً غيرَ هذي المدينة، على الرَّغم من أنَّ هذي المدينة لم تكُن حقيقيَّة البتَّة، ولم تكُن كذلك المدن الأخريات. ولا أستطيعُ أن أُقسم أيضاً بأنّني أنا الذي شرعَ في تلك الرِّحلة، وليسَ المنظر الطبيعيُّ هو الذي قد فعل ذلك، وبأنَّن زرتُ أراضيَ أخرى وليسَت هيَ التي زارتني. لا أعرفُ مَا الحياةُ، ولا أعرفُ حتَّى إنْ كنتُ أنا الذي يعيشُ الحياةَ أمْ أنَّ حياتي هي التي تعيشُني (لو سمحنا لكلمةِ "يعيش» الفارغة ان تعنيه ما تَوَدُّ أن تعنيه)، ولا يتوجَّبُ عليَّ أن أُقسم على أيُّ شيء في الواقع بتاتاً.

ولقدِ ارتحلتُ. يبدو من العبث أن أُفسِّرَ أَنْني لَم أَرْتَحَل لأشهر أو أَيَّام أو لأَيِّ حِينِ آخَر من الدَّهر ولقد رحلتُ في الزَّمن حقاً، ولا ذرَّة شكُ في ذلك البَّة ، ولكنْ ليسَ في هذا الجانب من الزَّمن حيث نعدُّ بالسَّاعات والأيَّام والأشهر؛ لقد سافرتُ إلى الطَّرف الآخر من الزَّمن حيث لا يُحصيه الزَّمن أو يُقاس. يمرُّ ، ولكنَّ المر الا يستطيع أن يحصيه النَّه يمرُّ أسرع من زمننا وليس أسرع منه على حدِّ سواء ، ولا حتَّى أسرع لَوْ عُدَّ بالسِّنين. قد تسألني ما الذي تعنيه هذه الكلمات ، ولكنَّك مخطئ لا ترتكب الخطأ الصِّبيانيَّ في السؤال عن معنى الأشياء والكلمات ، فلا شيءَ يعنى أيَّ شيء .

وفي أيّ سفينة شرعت في هذه الرحلة؟ في الباخرة «أياً كانت» (6). أنت تضحك. وأنا كذلك أضحك، ربَّها عليك أضحك. من يقول إنَّني لا أكتب رموزاً كي تفهمها الآلهة؟ لا يهمُّ. غادرتُ عند الشَّفق. مازال الصَّوت الأجشُّ للمرساة وهي تُرفَع يرنُّ في أذنيَّ. ومازلتُ أرى، مِن طرف ذاكري، أذرع الرَّافعة تتحرَّك ببطء، قبل أن تعود في النِّهاية إلى

وهارت المعاد، هي التي كانت قد خدشت رؤيتي، قبل ساعات، بصناديق وبراميل لا نهاية خولها المعتاد، هي التي كانت قد خدشت رؤيتي، قبل ساعات، بصناديق وبراميل لا نهاية لها، ثُمَّ برزت فجأة للعيان هذي الصَّناديق والبراميل مربوطة بسلسلة، على شفير السَّفينة، حيث توقّفت لبرهة، كاشطة السِّياج المحيط بسطح السَّفينة، ساعة لنفسها، وهي تتايل، أنْ تُدفَع وتُدفَع حتَّى صارت فوق العنبر الذي انحدرت إليه فجأة، ثُمَّ ارتطمت بصوت خشبي مكتوم في جزء مخبوء من العنبر، ثُمَّ صَعِد من الأسفل ضجيجُ فكها من السِّلسلة،

⁽⁴⁵⁾ يستحدم يِسُوَّا في الأصل عبارة «Qualquér»، بحروف كبيرة، التي تعني «أيَّ/أيَّا». ولهذا آثرت استحدام لفظتي «أياً كانت» اسماً لهذه الباخرة. حول كوستا تستخدم هنا لفظة «Anyship» (أيُّ سفينة»)، في حين ذهب ريتشاره زينيث في ترجمته لاستخدام لفظة Whichever، (المترجم)

نُمَّ صعدت السِّلسلة على الفور بعد ذلك تُصلصل في الهواء، وبدأ كلُّ شيء من جديد، كها لو أنَّه عبثُ.

ولكنْ لِمَ أقصُّ عليك كلُّ هذا؟ فَمِن العبث أن أقصَّ عليك، آخذاً بعين الاعتبار أنَّني قد قلتُ إنَّني سأحدِّثك عن رحلاتي.

زرتُ قارَّاتِ أوروبًا جديدة، ورخَّبتُ بوصولي مُبحراً على ظهر سفينة شراعيَّة، في مضائق بوسفور مزيَّفة، قُسطنطينيَّاتُ (١٠٠) أخرى. سفينة شراعيَّة، قد تسألُ؟ نعم، صحيحٌ. فالباخرة التي أقلَّتني حين غادرتُ قد وصلت إلى ميناء [...] الأعظم، كسفينة شراعيَّة. ولكنَّك تقول إنَّ ذلك مستحيل. ولهذا حدث كلُّ شيء.

وصلتني الأخبار، على ظهر سفن شراعيَّة أخرى، عن حروب محلوم بها في بلاد هندٍ مستحيلة. وحين تناهتْ إلى مسامعنا أحاديث عن تلك الأراضي شعرنا فجأةً بالحنين إلى أرضنا، لا لشيءٍ بالطَّبع سوى أنَّ أرضَنا لم تكُن أرضً بتاتاً.

27

[?1913]

أَنْ نُنظِّمَ حياتنا حتَّى تغدو سراً للآخرين، حتَّى لا يعرفنا أولئك الذين يعرفونن حقَّ المعرفة إلَّا عن قُرْبٍ. هكذا شكَّلتُ حياتي، بلا قَصْدِ أو أكادُ، ولكنَّني أدخلتُ فيها كثيراً من الفنِّ الغريزيِّ إلى درجة أنَّني صرتُ، حتَّى بالنِّسبة إلى نَفْسي، فرداً غير واضح تماماً.

28

[\$1913]

إستطيقا اللامبالاة

ما يتوجَّب على الحالم محاولتُهُ كي يشعرَ تُجاه أيِّ شيءٍ هو اللَّامبالاة المُطلقة التي يستفزُّها، بوصفه شيئاً، في داخله.

أن تعرفَ بالغريزة على الفور كيف لا تستخلص من كلِّ شيءٍ وحدَثٍ إلَّا ما يصلح مادَّةً

⁽⁴⁶⁾ جمع كلمة قسطنطينيّة. (المترجم)

مناسبة للأحلام، وأن تترك لما هُوَ ميِّتُ في العالم الخارجي أيَّ حقيقة واقعيَّة يحتويها، ذاك ما يتوجَّب على الحكيم السَّعي إلى تحقيقه في نَفْسه.

لا يتوجَّب على المرء البيَّة أن يحسَّ بمشاعره تُخلصاً من أعماق قلبه، ثُمَّ يُعلِي من شأن ذلك النَّصر الباهت بدرجة يكون فيها قادراً على النَّظر إلى طموحاته وأشواقه ورغباته بعين اللَّامبالاة؛ أن يمرَّ المرءُ بأفراحه وأحزانه كما يتوجَّبُ عليه حينَ يمرُّ بشخص لا يُعيره أيَّ اهتمام.

وكبح النَّفْس الأعظم الذي يستطيع المرء تحقيقه هُوَ اللَّامبالاة تجاه نَفْسه، الإيهان بنفسه وجسده وروحه، ألَّا يكون سوى البيت والحديقة حيث قدَّر القدَرُ أن يقضي فيهما المرء حياته.

ولا بُدَّ للمرء أن يتعامل مع أحلامه ورغباته الحميمة باللَّامبالاة المُتكبِّرة التي لسيِّد عظيم، مُظهِراً القَدْرَ الأعظم من الرِّقَة التي تُمكِّنه حتَّى من عدم ملاحظتها. ولا بُدَّ أن يمتلك المرء إحساساً بالتَّواضع تجاه نَفْسه، وأن يُدرك أنَّنا لن نكون وحيدين البتَّة في حضرة أنفسنا، فنحن شهداء على أنفسنا، ولذلك فمن الأهميَّة أن نتصرَّف دائماً كما نفعل أمام الغريب، مُتَّخذين مظهراً خارجياً مدروساً وهادئاً؛ لا مُبالياً لأنَّه أرستقراطيِّ، وبارداً لأنَّه لا مُبالي.

وكي لا نحط من قَدْر أنفسنا في أعيننا، تكفي ضرورة أن نتعوَّد على ألَّا نُخفي أيَّ طموحاتٍ أو شغف أو رغبات أو آمال أو غرائز أو مشاعر مرتبطة بالقلَق. ولا بُدَّ، لتحقيق ذلك، أن نتذكَّر أنَّنا دائماً في حضرة أنفسنا، وأنَّنا لن نكون وحيدين على الإطلاق، وبأنَّنا لن نرتاح أبداً. هكذا سوف نتحكَّم بالشَّغف والطموحات لأنَّ الشَّغف والطموحات تجعلنا عاجزين عن الدِّفاع عن أنفسنا، ولا بُدَّ في المقابل ألَّا ترعى الرغبات أو الآمال، لأنَّها مجرَّد إياءات فظَّة وغير أنيقة، ولا يتوجَّب علينا أن نكون عُرضةً للغرائز الفجائيَّة أو للقلق، لأنَّ الشُّلوكَ الأرعن وقاحةٌ في عيون الآخرين، وقلَّة الصَّبر سُوقيَّة دائماً.

الأرستقراطيُّ شخص واع داثماً لحقيقة أنَّه ليس وحيداً البتَّة، ولهذا فإنَّ آداب السُّلوكُ واللَّياقة الاجتماعيَّة خصيصة فطريَّة لدى الأرستقراطيَّة. لا بُدَّ أن نستوعب الأرستقراطيَّ. ولا بُدَّ أن نستوعب الأرستقراطيَّ. ولا بُدَّ أن نجرَّه بعيداً عن غرف الرَّسم والحدائق كي يدخل أفكارنا، عوضاً عن ذلك،

ووعينًا بوجودنا. فَلنتعامل دائها مع أنفسنا بآداب السُّلوك واللّياقة الواجبة وبالإيهاءات الحذرة المُسخَّرة لصالح الآخرين،

كلَّ واحدِ مِنَّا مجتمعٌ برمَّته، أُمَّةُ الله جمعاء؛ فلا أقلَّ من أن نُضفي حينئذ بعض الأناقة والأصالة على الحياة الدَّائرة في ناحية البلدة التي نعيش فيها، أن نحرص على أنْ تتَّسم الاحتفالاتُ التي تقيمها حواشنا بالذَّوق الرَّفيع والاحتشام، وبالأُبَّهة الرَّصينة والدَّماثة في مادب أفكارنا. فَلْتُقِم الأرواحُ الأخرى مساكنها الفقيرة المُتداعية من حولنا، وَلْتَثْرُكُونَا نُعلِّمُ بوضوح أين تبدأ حدود مساكننا وأين تنتهي، ونتأكَّد من أنَّ كلَّ شيء، من واجهات منازلنا حتى الأحرام الدَّاخليَّة لِخَجُلاتنا، نبيلٌ ورائق، منحوتُ بأناقة وأناة.

ولا يُدَّ أن نجد لكلِّ شعور أسلوب التَّعبير الأهدا؛ أن نختزل الحُبَّ إلى مجرَّد ظلِّ حلم حُبِّ، برزخ شاحب ومرتجف بين قمَّتي موجتَيْن صغيرتَيْن تلمعان في ضوء القمر؛ أن نصنع من الرَّغبة شيئاً عبثياً ومُسالماً، الابتسامة الرَّقيقة والخاصَّة التي تتبسَّمُها روحٌ إلى نَفْسها؛ أن نصنع منها شيئاً لا يُفكِّرُ إطلاقاً حتَّى في الإعلان عن حضوره، ناهيكَ عن إدراك نَفْسه. لا بُدَّ أن نُهدهد الكراهية لتنام كأفعى حبيسة، ونأمرَ الخوف ألَّا يحفظ غير الكرب في عينيه وفي عيون أرواحنا، الموقف الوحيد الجدير بمُحبِّ للجَهال.

29

[91913]

جمالية الخديعة

تَحُولُ الحياة بَيني وبينَ أَنْ أَكُونَ قادراً على التَّعبير عن الحياة. فلو كنتُ سأخوض غمار حُبِّ عظيم، فلن أكون قادراً على وصفه البتَّة.

وأنا نَفْسي لا أعرف إنْ كانت «الأنا» التي أبنُها أمامكم في هذه الصَّفحات الشَّيطانيَّة موجودة بالفعل أمْ مجرَّدَ مفهوم جماليٍّ مزيَّف اختلقته بِنَفْسي عن نَفْسي، نعم، إنَّني أعيش جماليً في كينونة أخرى. لقد نحتُّ حياتي كتمثال صُنع من مادَّة غريبة عنِّي، حتَّى إنَّني لا أعرفُنِي، في بعض الأحايين، فلقد غدوتُ بَرَّانياً، شديدَ البرَّانيَّة على نَفْسي، ونشرتُ وعيي بنَفْسي على نحو في غاية البراعة الفنيَّة. فَمَن أنا خلف هذي اللَّاحقيقة؟ لا أعرفُ. لا بُدَّ أن

أكون شخصاً ما. وإنْ لم أسعَ إلى أن أعيش، إلى أن أفعلَ أو أشعر، فإنّ ذلك -صدِّقني - كي لا أقلق راحة الخطوط التي قد خُطَّتْ مسبقاً لِنَفْسي المزيَّفة. أريدُ أن أكونَ ما أريدُ تماماً ولكنّني لستُ كذلك. إن عشتُ فسوف أدمِّر نَفْسي. أريد أن أكون عملاً فنيا، فيا يخصُّ روحي على الأقلِّ، مادام ذلك مستحيلاً جسدياً. ولهذا فقد نحتُّ نَفْسي بهدومُ ولا مبالاةٍ وضعت نَفْسي في دَفيئة، بعيداً عن تيَّارات الهواء والضوء المباشر - حيث يمكن لزهرة اصطِنَاعي الغريبة أن تتفتَّح في بجال مُخْتَلِ بِنَفْسه،

أفكّر في بعض الأحيان كم جميلاً سيغدو الأمر لو استطعتُ توحيد أحلامي وخلق حياة لا تنقطع، حيث تتعاقب الأيّام يوماً وراء يوم، وضيوف مُتخيّلون يحضرون مآدب مُتخيّلة، فأعيش تلك الحياة المزيّفة وأذوق مُرّها وألتذّ بها. ولسوف تشتدُّ بي هناكَ بناتُ الدَّهر (٥٠) فأذوق أفراحاً عظيمةً. ولن يكون أيٌّ منها حقيقياً، لكنّها ستمتلك منطقها الرَّائع من تلقاء فأذوق أفراحاً عظيمةً ولن يكون أيٌّ منها حقيقياً، لكنّها ستمتلك منطقها الرَّائع من تلقاء نَفْسها؛ ستتبعُ إيقاع باطل شهواني وتحدثُ في مدينة صُنعَتْ من رُوحي، ممتدَّةً إلى حيثُ الرَّصيف الذي قُرب الحليج الهادئ، بعيداً داخل نَفْسي، بعيداً، بعيداً جداً... ولسوف تكون في غاية الوضوح جيعاً ومحتومة، وفي الحياة الجماليَّة الخارجية الأقلِّ التي عِيشَتْ بعيداً عن الشَّمس.

30

[بعد 10 مايو 1913]

ضعي يديكِ معاً، ضعيهما بينَ يديُّ وأصغي إليَّ، يا حبيبتي.

أريدُ أن أخبركِ، بالصَّوت الخفيض المُواسي لشخص باءَ بذنبه ويُسدي النَّصيحة، كيف أنَّ رغبةَ تحقيق شيء تبزُّ ما قد حقَّقناه بالفعل إلى حدِّ بعيد.

أريدُ أن أُرتِّلَ عليكِ ابتهالَ اليأس وأنتِ تُنصتين باهتمام شديد.

لا تُوجَد صنعةٌ فنيَّة لا يمكن أن تكون أكثر كَمَالاً. فأقرتي بيتاً بيتاً، فلا قصيدة، مهما

⁽⁴⁷⁾ تقول العرب: اشتدَّت به بَنَاتُ الدَّهر، كلايةً عن المصائب التي تحيق بالمرء. ولقد وضعتها، هنا، مقابل العبارة (Misfortunes would befall me there»

كانت عظيمة، لا تضمُّ بيتاً واحداً لا يمكن تجويده، ولا واقعةً لا يمكن أن تكون أشدَّ وطأة، فالكُلِّي ليس كاملاً تماماً البتَّة إلى درجة أنَّه لا يمكن أن يكون أكثر كَمَالاً.

الويلُ للفنّان الذي يلاحظ هذا، الذي يفكّر ذات يوم بهذا. لن تغدو صنعته بهجةً مرَّة أخرى بتاتاً، ولن ينام قريرَ العين ثانيةً أبداً. سيغدو شاباً محروماً من الشّباب ويهرم بسخط. ولماذا يُكلّفُ المرءُ نَفْسه عناءَ التّعبير عن نَفْسه؟ ولم من الأفضل أن يظلّ غير مَقولِ هذا الذي يتوجّب على الصّغير قوله.

لَوِ استطعتُ إِقناع نَفْسي بجهال الزُّهد، وكم من المؤلم أن أكون سعيداً إلى الأبد! ولأَنْكِ لا تُحبِّين ما أقوله بالأُذنين اللَّتيْن أسمع بهما نَفْسي تقولُ. فلو سمعتُ نَفْسي تتحدَّث بصوت عال، فإنَّ الأُذنين اللَّتيْن أسمع بهما نَفْسي تتحدَّث بصوت عال لا تُنصتان إلى بالشَّاكلة التي تُنصِت بها أُذُني الجُّوَانيَّة التي بها أجرؤ على التَّفكير في هذه الكلمات. ولو توجَّب علي مراراً، حين أُنصِت إلى نَفْسي، أن أسأل نَفْسي ماذا أعني، كم من الصِّغار الآخرين سوف يفهمني؟

يتكوَّن فهمُ الآخرين لنا من سُوءِ أفهام كثيرة معقَّدة.

لن يعرفَ من يريد أن يُفهَم أبداً لذَّةَ أَن يُفهَم، لأنَّ هذا لا يحدثُ إلَّا للمُعقَّدِين نفسياً والمُسَاء فهمُهم، [أمَّا] النُّفوس البسيطة، تلك التي يمكن للآخرين فهمها، فلا تشعر بالرَّغبة في أن تُفهَم.

31

[بعد 10 مايو. 1913]

[ابتهالُ اليأس؟]

هل فكَّرتِ يوماً، أيَّتها الأُخرى، كم بعضُنا محجوب عن بعض؟ وهل تأمَّلتِ كم قليلاً بعضُنا يعرف بعض؟ يرى أحدنا الآخر ولا يراه. نسمع بعضنا، ولا يسمع كلُّ واحد منَّا سوى صوت في داخلنا.

كليات الآخرين أخطاءٌ في سمعنا، حطامُ سفائن في فهمنا. كم نؤمن واثقَيْن بتفسيرنا لكليات الآخرين. للمُتَع الحِسيَّة، التي يحوِّلها الآخرون إلى كليات، طعمُ الموت عندنا. نقرأ

الحِسيَّةَ والحياة في الكلمات التي يقولها الآخرون دون قصد قول أيَّ شيء بليغ... صوتُ الحِداول التي تُفسِّرينها، أيَّتها المُفسِّرةُ النَّقيَّةُ، صوت الأشجار التي نُملي على همهاتها المعنى - آهِ، يا حُبِّيَ المجهولَ، كم يشبهنا هذا، ببساطة، حين تتسلل الخيالات الرماديَّة المحضة بين قضبان زنزانتنا!

32

[نحو 15 مايو 1913]

[تجلِّي (18) العبثيّ (أو تجلِّي الأكاذبب)؟]

إن هذا بالنظر إلى احتماليَّة ألَّا يكون كلُّ شيء باطلاً، وألَّا شيءَ، يا حبيبتي، يشفينا من نوبة الكذب الممتعة.

مثل هذا النقاء! ضلالٌ مطلق! فللكذبة العبثيَّة كلُّ سحر الضَّالُ رفقة السِّحر المَّلل وقله السِّحر المَّلال والأعظم لكون المرء بريئاً. ضلال النيَّة البريئة، مَن يستطيع الزيادة على هذا النقاء؟ الضَّلال الذي لا يتوق حتَّى إلى منحنا اللَّعة، والذي يفتقر إلى الرَّغبة المحتدمة في إيلامنا، والذي يسقط على الأرض نصفَ ألم، نصفَ مُتعة، عقيهاً وعبثياً كدُميةٍ صُنعت بفجاجةٍ يسعى راشدُ إلى أن يُسلِّى بها نَفْسه!

ألا تعرفينَ، أيَّتها الواحدةُ الشَّهيَّةُ، مُتعةَ شراء الأشياء غير الضَّروريَّة؟ أتعرفين طعم الطُّرُق التي إذا سُلِكَتْ، وأفكارُ المرء سائحة في مكان آخر، فسوف تُسلَك خطأً؟ أيُّ أفعال بشريَّة ألوائها بجمال ألوان الأعمال الباطلة، التي تُشيع الكذب بشأن طبيعتها الحقَّة وتكذب بشأن نيَّتها الحقَّة وتكذب بشأن نيَّتها الحقَّة؟

المُتعة السَّامية في تبديد حياة كانت من الممكن أن تكون مفيدة؛ في عدم إنجاز عمل كان سيكون جميلاً من دون شكّ؛ في التَّخلِي منتصفَ الطَّريق عن طريق النَّصر المُحتَّم! سيكون جميلاً من دون شكّ؛ في التَّخلِي منتصفَ الطَّرية عن طريق النَّصر المُحتَّم! آه، يا حبيبتي، يا مجد أعمال ضاعت ولن تُوجَد أبداً، مجد أطروحات لم ينجُ منها سوى العناوين، مجد مكتبات شبَّت فيها ألسنة النِّيران، مجد تماثيل مكسورة.

⁽⁴⁸⁾ كلمة epiphany، في حدّ ذاتها، مأخوذة من الكلمة اليونائية epiphaneia التي تعني الظهور أو التحلّي. وتشير الكلمة في المسيحيّة إلى عيد العطاس أو عيد الظهور الإلهي. (المترجم)

مُطوَّبون بالعبث أولئك الفنَّانون الذين أحرقوا عملاً فنياً في غاية الجهال، أو أولئك الذين، على الرَّغم من مقدرتهم على صنع شيء جميل، قد صنعوه ناقصاً (٥٠) عمداً، أو شعراء الصَّمت العظام أولئك الذين، وهم يعرفون أنَّهم قادرون على صُنع شيء كامل تماماً، قد اختاروا ألَّا يجازفوا البتَّة. (على الرَّغم من أنَّه لو كان ناقصاً، لبدت تلك مسألة أخرى).

كم ستكون الجوكوندا أجمل لو استطعنا ألَّا نراها! ولو سرقه شخص وأحرقها، فأيَّ فنَّان عظيم سوف يكون، سيكون أعظمَ من الرَّجل الذي رسمها!

لماذا الفنُّ جميل؟ لأنَّه عبثيُّ. ولمَ الحياة ذميمة؟ لأنَّها برمَّتها أهداف ومقاصد ونوايا. فكلُّ طُرقها معنيَّة بالذَّهاب من هذه النُّقطة إلى تلك. يا ليتنا نُعطَى طريقاً بين مكان لا يغادره أحد بتاتاً وآخر لا يذهب إليه أحد أبداً، فحسب الوكان ثمَّة مَن يُكرِّسون حياتهم لبناء طريق تبدأ من منتصف أحد الحقول وتنتهي في منتصف حقل آخر؛ طريق لو امتدَّت، لكانت مفيدة، ولكنَّها ستظلُّ، على نحو جليل، منتصف طريق فحسبُ.

جمال الأطلال؟ حقيقة أنَّها لم تَعُد نافعة لشيء البتَّة.

عذوبةُ الماضي؟ أن نكون قادرَيْن على تذكّرَها، فتذكُّر الماضي أنْ نجعله حاضراً مرَّة أخرى، فالماضي ليس الحاضرَ ولا يمكن أن يكون – عبثيةٌ، يا حبيبتي، عبثيةٌ.

فلإذا، إذن ، أُسطِّرُ هذا الكتاب؟ لأنَّني أعرف أنَّه ناقص. فلو حلمتُ به، لبلغ حدًّ الكَال؛ فحقيقة كتابته في حدِّ ذاتها تجعله ناقصاً، ولهذا أُسطِّرهُ.

ولاَّنَني، فوق ذلك كُلِّه، أُدافع عن العقيم والعبثيِّ - فإنَّني أُسطِّرُ هذا الكتاب كي أكذب على نَفْسي، لأخون نظريَّتي الخاصَّة.

وإنَّ مجد هذا كلِّه، يا حبيبتي، هو فكرة أنَّ هذا ربَّما ليس حقيقياً، وأنَّني ربَّما حتَّى لا أومن بأنَّه سيكون حقيقياً.

. فَلْنَقُلِ الْحَقِيقَة، حين يبدأ الكذب في إمتاعنا، كي نكذب على الكذب. وَلْنَتوقَّف، حين يُقلقنا، كي لا تُعظِّمنا المعاناة ولا تجلب لنا مُتعةً سادرة في غيِّها...

⁽⁴⁹⁾ ضدُّ الكامل والتَّام؛ كلُّ ما هو ناقص في حدّ ذاته، وليس كل ما يذهب من الشَّيء بعد تمامه. (المترجم)

[تحو 15 مايو 1913]

قصيدة پيدرو الزّعويَّة (50)

لا أعرف أين رأيتُكِ أو متى. ولا أعرف إنْ كان ذلك في رَسمةٍ أم في حقل حقيقيً، بين أشجار ونباتات معاصرة لجسدكِ؛ ربَّها في رَسمةٍ، فالذِّكرى التي أحفظها لكِ مثاليَّةُ جداً وفي غاية الوضوح. ولا أعرف حتَّى متى وقع ذلك أو إنْ كان قد وقع فعلاً -فمن المحتمل ألَّا أكون قد رأيتكِ في رسمة - ولكنَّني أعرف بكلِّ محدوس بصيرتي أنَّها كانت أصفى اللَّحظات في حياتي.

كنتِ، يا راعية النِّيرانِ الصَّغيرة، تمشين بهدوء، رفقة ثور ضخم ووادع، على امتداد شريط الطَّريق العريض. رأيتكِ من بعيد، أو هكذا يُخيَّل إليَّ، فجئتِ نحوي، ثُمَّ مشيتِ أمامي مباشرة. كنتِ كمن لا يلحظ وجودي هناك. كنتِ النَّاطورة البطيئة الذَّاهلة لذلك الثَّور الأكبر. ولقد نَسِيَتْ تحديقتُكِ أن تتذكَّر، وكان ثمَّة صفاءٌ عظيم في روحكِ؛ فلقد هجرتِ وعيَكِ بنَفْسكِ كلَّهُ. فكنتِ، في تلك اللَّحظة، ليسَ أكثر مِن...

وحين رأيتُكِ، تذكّرتُ أنَّ اللَّدن تتغيَّر، ولكنَّ الحقول أبديَّةٌ. نُسمِّي الأحجارَ والتَّلال توراتيَّة، لأنَّها هي ذاتها على الدَّوام، على الشَّاكلة التي كانت عليها الأحجار والتِّلال في الأزمنة التَّوراتيَّة.

وأُودعُ، في تلك النَّظرة الخاطفة القصيرة لجسمكِ المجهول، كلَّ طاقة الحقول الحافلة بالذِّكريات، فحين أفكِّر فيكِ، تملأُ روحي السَّكينة التي لم أشعر بها قطَّ. تمايلتُ مشيئكِ قليلاً، تموَّجتُ مُتردِّدةً، وكلُّ إيهاءة أرسلتِها كانت مثل طائر يحطُّ؛ زواحف صغيرة محجوبة تلتفُّ حول جسدكِ. صمتُكِ -كانت الشَّمس تغيب ولُغُوبُ شِيَاهِ جاءَ يَثْغُوْ، وأجراسُ تلتفُّ حول جسدكِ. صمتُكِ -كانت الشَّمس تغيب ولُغُوبُ شِيَاهِ جاءَ يَثْغُوْ، وأجراسُ

⁽⁵⁰⁾ وهنا مثال آخر على تعدُّد قراءة خطَّ يِسُوّا العويص: نرى العنوان في الطَّعتَيْن البرتغاليَّتَيْن اللَّتِين حرَّوهما وربَّبَ مقاطعهما كلِّ من برادو كويلو (1982، المقطع 286، المجلَّد الثَّاني، 10-11) وزينيث (2012، المقطع 506، 474-475) على هذا النَّحو (Pastoral De Pedro)، في طبعة سوبراو كونيا (2008، المقطع 86، 104-104) وطبعة بيسارو (2010، المقطع 53، 39-40) على هذا النَّحو: (Ecloga De Pedro). في حين يُظهر النصُّ الذي خطَّه بسوا على وجهي قصاصة ورقيَّة، بقدم حبر أسود، والمحقوظ في المكتبة الوطنيَّة، أنَّه وضع كلمة Pastoral أوُلا نُمْ حطَّ تحتها على سحو غير واضع تماماً كلمة هي أقرب إلى Ecloga. وكلتا اللَّفظتين تعني في البرتغاليَّة (اقصيدة رعويَّة الشبه الرُّعاة». (المترجم)

تُجلجل، أسفل المُنحدرات الشَّاحبة للسَّاعة - كان صمتُكِ نشيدَ الرَّاعي الأخير، الذي أُقصِيَ من قصيدة رعويَّة نسيَ أن ينظمها قرجيل، فظلَّ غير مُغنَّى إلى الأبد، وصورته الظَّليَّة منعكسة على الحقول إلى الأبد، لعلَّكِ كنتِ تبتسمين؛ لنفسك، ولروحك، تتخيَّلين نَفْسكِ في عقلكِ وتبتسمين، ولكنَّ شفتَيْكِ كانتا ساكنتَيْن كشكل التَّلال، وكانت إيهاءة يديكِ القرويَّتَيْن، التي أنساها، مُكلَّلةً بأزهار الحقل.

نعم، لا بُدَّ أَنَّني قد رأيتُكِ في رسمةٍ، ولكنْ من أين جئتُ بفكرة أنَّني رأيتُكِ تمشين صوبي، ثُمَّ تتجاوزينني، وأنا أسيرُ، فلا تستديرين لأكون قادراً على أن أراكِ الآن ودائها؟ يتوقَّف الزَّمن ليسمح لكِ بالعبور، ولقد أخطأتُ وضعَكِ في غير مكانكِ حين حاولتُ وضعك في الحياة – أو في مظهر من مظاهر الحياة.

34

[913]

لا أسخط، فالسُّخط للأقوياء، ولا أتخلَّى عن نَفْسي، فالتَّخلِّي للنُّبلاء؛ ولا أظلُّ صامتاً، فالصَّمت للعظهاء. لستُ قوياً ولا نبيلاً ولا عظيهاً. أعاني وأحلم. أتذمَّر لأنَّني ضعيف، ولأنَّني فنان فإنَّني أُسلِّي نَفْسي بنسج موسيقى حول تذمُّراتي وترتيب أحلامي لتناسب فكرتى عن الأحلام الجميلة على أكمل وجه.

نَدَمي الوحيد هو أنّني لست طفلاً، لأنّ ذلك سوف يسمح لي بالإيمان بأحلامي والإيمان بأنني لست مجنوناً، الأمر الذي سوف يسمح لي بأنْ أنأى بروحي عن جميع أولئك المحيطين بي...

ولقد تركني عَدُّ الأحلام واقعاً، والعيش كثيراً في الأحلام، مع شوكة هذي الوردة الباطلة؛ حياتي المحلوم بها: حتَّى أحلامي لا تُرضيني، فَلي عليها مآخذً.

ولا أستطيع، حتَّى حين أدهن هذا اللَّوح الزُّجاجيَّ بأَحلام مُلوَّنة، أن أحجب عن نَفْسي همسَ الحيوات الأخرى التي وراءه، طُوبي لصُنَّاعِ الأنظمة المتشاثمة. ليس لشعورهم بالرَّاحة لأنَّهم قد صنعوا شيئاً فحسب، وإنَّها لأنَّهم يسعدون بالأشياء القابلة للتَّفسير، ويشعرون أنَّهم جزء من معاناة كونيَّة.

أنا لا أتذمّر بشأن العالمَ. أنا لا أحتجُ باسم الكون. لستُ متشائماً. إنّني أعاني وأتذمّر، ولماذا ولكنّني لا أعرف إنْ كانت المعاناة هي القاعدة العموميّة أمْ أنّ الإنسانيّة أن يعاني المرء. ولماذا أكترث إنّ كان هذا صحيحاً أم غير ذلك؟ إنّني أُعاني، ربّما أستحقُّ. (أَيّلُ مُطارَدُ)، لستُ متشائهاً، إنّني حزينٌ فحسبُ.

35

[\$1913]

فَلْنَعِش على الأحلام وللأحلام، نُخرِّب الكون ونعيد تكوينه ذاهلينَ، كي يناسب اللَّحظة التي نحلم فيها، على أكمل وجه. فَلْنَفْعَل ذلك مُدركينَ عقمَهُ المُطلَق. فَلْنتجاهل الحياة بجسدنا كلِّه، وننفصل عن الواقع بحواسِّنا كلِّها، ونتخلَّى عن الحُبِّ بروحنا كلِّها. فَلْنَمْلاً الجرارَ التي نأخذها إلى البيِّر برملٍ عقيم، ثُمَّ نفرغها، لنملاها ثانيةً ونفرغها من جديد؛ فكلًا كان فعلنا هذا بلا جدوى فهو أفضلً.

فَلْنَحْبِكُ أَكَالِيلَ زِهُورِ ثُمَّ، حِين تَتِمُّ، نَفكُّها بأناةٍ ودقَّة متناهية.

فَلْنَخْتَر دهاناتٍ ونمزجها على لوحة الألوان، ولا قماشةَ قنّبِ أمامنا كي نرسم عليها. فَلْنُرسل في طلب مَن ينحت الحجر حين لا يكون لدينا إزميلٌ ولسنا نحّاتين. فَلْنُصَيِّر كلَّ شيءٍ عبثاً، ونُزيِّن ساعاتنا العاقرة بمزيد من العُقم (51). فَلْنَلعب الغُمَّيضة مع وعينا بأنّنا على قيد الحياة.

فَلْنُنصت إلى الله، وابتسامة مرتابة ونشوانة على شفاهنا، وهو يخبرنا بأنّنا نُوجَدُ. فَلْنَظرِ الزَّمن يرسمُ العالَم، فنجد أنّ الصُّورة النّاجمة ليست زائفة فحسب، وإنها جوفاء بلا معنى ولَنْهُ فَكُنُ فَكُر في التّناقضات ونتكلّم بأصوات ليست أصواتاً وألوان ليست ألواناً. فَلْنَقُل

⁽⁵¹⁾ بصيغة الجمع في الأصل. (المترجم).

-ونفهم، حيث الفهم، بالطّبع، مستحيل- بأنّنا نعي أنْ لا وعيّ لنا، وأنّنا لسنا نحن. فَلْنُفسّر هذا كلّهُ بطريقة غامضة ومتناقضة، قائلينَ إنَّ للأشياء جهةً أُخرى إلهيَّةً، وإيَّاكم أن نؤمن كثيراً بهذا التَّفسير كيلا نضطَّر إلى نهذه.

فَلْنَنحت من الصَّمت الفارغ أحلامَ كلامنا كلُّها. فَلْنَسمح لأفكار افعالنا كلُّها بالانزلاقِ إلى سبات عميق.

ولكنَّ المناظر الطَّبيعيَّة المحلوم بها ليست إلَّا دخاناً ينبعث من مناظر طبيعيَّة معلومة، وسأم الحُلم بها عظيمٌ عِظَمَ السَّام الذي ننظر به إلى العالَم، أو يكادُ. ويحوِّمُ ذاهلاً فوق هذا كلِّه، كسماءٍ زرقاء واسعة، رعبُ أن نعيش.

36

[أغسطس 1913]

في غابة الأغتراب(52)

أعرفُ أنَّني قد صحوتُ وأنَّني نائماً لاأزال. يخبرني جسدي القديم، الذي أضنته الحياة، أنَّ الوقت مازال مبكّراً جداً... أشعر من بعيدٍ أنَّ الحُمَّى تدبُّ في جسدي، فَأَثَّاقَلُ، لسببٍ أو لآخر، على نَفْسى...

خدتُ، في حالٍ من الشّبات المُشرِق، الطَّافح بطاقة روحانيَّة عظيمة، بين النَّوم واليقظة، في حلم هُوَ ظلُّ الحُلم. يطفو انتباهي بين عالمَيْن، فأمعن النَّظر كالأعمى إلى أعماق البحر وإلى أعماق البحر والسَّماء بعضها في بعض، وتمتزج، فلا أعرف أين أنا ولا بأيِّ شيءٍ أحلمُ.

⁽⁵²⁾ شريشو هذا النّص، باسمه الصّريح، وبالعنوان ذنه (في البرتغاليّة: Na Floresta Do Alhemaneto) في مجلة «Aguia (تعني «النّسر» في البرتغاليّة)، العدد العشرين، الأوّل من أعسطس 1913 (42-38). وكان يسُوّا قد أعرب في ملحوظة تركها حول كيفيّة ترتيب «كتاب القلق» عن تفكيره في نشر بعض المقاصع الصويلة المعنونة من لذنه، في كتاب منفصل، قاتلاً: «وقد يكون ثمّة داع لتضمين فقرات طويلة، ذات عناوين باذحة، مثل «جنازة لودليم النّاني، ملك بافاريا» أو «سيمعونيّة اللّيل المعظرب». وثمّة داع أيضاً لنبذ فقرة «الجنازة» مثلما هي أو تضمينها في كتاب آخر رفقة الفقرات لطّويلة الأخرى على حدّ سواء»، وجدير بالذكر أنّ يسوا قد خصّ في نهاية نصّ «غابة الاغتراب» أنّه جزء من «كتاب القلق، قد الإعداد Do Livro do Desasocego, em preparação). (المترجم)

ريحٌ غامضة تُذرِّي رفات نوايا ميَّنة على الشَّخص الذي أكونُهُ حين أستيقظُ. فيسقط ندى السَّأمِ الدَّافئُ من سهاء مجهولة. ويضطَّرب قلَقٌ عظيم هامد في روحي فيكدِّرني، لبعض الوقت، كالنَّسيم الذي يكدِّر رؤوس الأشجار.

أَنَا فِي غَرِفَةَ نُومِي الدَّافِئةِ التي هَدَّهَا التَّعب، والفجر في الخارج ليس إلَّا نفَساً قاتماً. كُلِّ فوضى هادئة... لمَ يتوجَّب على الصُّبْح أن يتنفَّس؟ فمعرفة أنَّ الفجر سوف ينبلج يُرهقني، كأنَّ ذلك يتطلَّبَ منِّي جُهداً عظيماً.

ثُمَّ هدأتُ، شيئاً فشيئاً، على نحو غامض. غرقتُ في سُباتي ثانيةً. طفوتُ في الهواء، نصفَ يقظان، ونصفَ نائم، ثُمَّ تجلَّى واقعٌ من نوع آخر لا أحد يعرف من أينَ، وأنا في المُنتصف... إنَّه يتجلَّى، ولكنْ دون أن يمحو حقيقةَ غرفة النَّوم الدَّافئة والرَّطبة هذه أو تلك الغابة الغريبة. إنَّه ا تتعايشان في عقلي، مغلولتَيْن إلى ذَيْنكَ الواقعَيْن، كعموديْ دخان يمتزجان. ولا ريب أنَّ هذا المنظر الطَّبيعيَّ الهائل الشَّفَّاف ينتمي إلى هذه الحقيقة والأخرى على حدًّ معهاء.

ومَن هذي المرأة التي، مِثلي، تُسَرِيلُ الغابةَ الغريبة بنظرتها المُتفرِّسة؟ ولماذا يتوجَّب عليًّ حتَّى أن أسأل نَفْسي ذلك الشُّؤال في هذي اللَّحظة؟ ولا أعرف حتَّى إنْ كنتُ راغبًا في أن أعرف...

غرفتي الفارغة زجاجٌ معتم أنظر من خلاله عَمْداً إلى ذلك المنظر الطَّبيعيِّ... منظرٍ طبيعيٍّ عرفته منذ وقت مديد أيضاً، برفقة هذه المرأة المجهولة ذاتها، تجوَّلتُ، أنا الواقع المختلف، في واقعها هي. أشعر أنَّ معرفة عمرها قرونٌ تعتمل فِيًا معرفة عن تلك الأشجار وتلك الأزهار وهذي الدُّروب غير المطروقة، وعن الأنا التي تتمشّى فيها، قديمة وبادية لِعِيَان نظري المُتفرِّسة التي تُسربلها معرفة أنَّني في هذه الغرفة برؤية غامضة...

وفي تلك الغابة، بين تارة وأخرى، حيث أستطيع أن أرى نَفْسي وأشعر بها من بعيد، ريحٌ بطيئة تكنس الدُّخان، فيغدو ذلك الدُّخان الرُّؤية الواضحة والقاتمة لغرفة النَّوم التي أنا فيها حاضرٌ، لقطع الأثاث الغامضة والسَّتاثر هذه وسباتها اللَّيليِّ. ثُمَّ تعبر الرَّيح فيغدو كلُّ شيءً المنظرَ الطبيعيَّ لذلك العالم الآخر ولا شيءَ سواةً...

ئُمَّ تغدو هذه الغرفة الضَّيِّقة، في أوقات أخرى، سديهاً أرمدَ على أُفق تلك الأرض البديلة... وثمَّة لحظات تغدو فيها الأرض التي نمشي عليها هذه الغرفة الجليَّة ذاتها...

أحلمُ وأطفو، نَفْساً مزدوجة، أنا وتلك المرأة... لُغُوبٌ عظيم يستحيل ناراً سوداء تُبدّدني...: ولهفةٌ كامنة عظيمة تستحيل حياةً باطلة تعانقني...

يا لها من سعادة مُضِحِرة ا أن أكون إلى الأبد في نقطة حيث يتشعَّبُ سبيلان! أحلم وخلفي شخص آخر يحلم معي... ربَّها لستُ سوى حلم ذلك الشخص غير الموجود... في الخارج، الفجرُ البعيد أبدَ الدَّهر! الغابة حاضرة، على أشدً ما يكون الحضور، أمام عينيً الأخريين!

وحين أكون بعيداً عن ذلك المنظر الطبيعيّ، فإنّني أكاد أنساه، ولا أفتقده إلّا حين يتجلَّى أمامي، ولا أبكيه وأتوق إليه إلّا حين أمشي فيه...

الأشجار والأزهار والسِّرُّ دروبٌ مُرتصَّة بالأشجار!

كنّا نمشي معاً في بعض الأحيان، ذراعاً بذراع، تحت أشجار الأَرز وأشجار يهوذا (53)، ولا تعنّ على بال أحدنا فكرة أن نعيش. كان لحمن عطراً غامضاً وحياتُنا صدى ينبوع فوّار. وكنّا نشبك يديّنا، وكانت عيوننا تتساءل عبّا ستكون حال المرء لو كان كائناً حِسياً ويرغب في جعل الجسد وهم الحُبّ...

وكانت في حديقتنا أزهار من كلِّ زوج بهيج - ورود ذات بتلات جِعَادِ، وزنابق بيضاء مَشوبة بالأصفر، وأزهار خشخاش كان يمكن أن تكون خبيئة لو لم تخُن حضورَها مُحرتُها المتورِّدة، وبضع بنفسجات على الحوافِّ المزدحمة لمساكب الزَّهر، وزهور أُذُن فأر صغيرة، وكاميليا قاحلة لا أريج فيها... وفوق العشب الطَّويل العيونُ الواسعة لعبَّادات الشَّمس الوحيدة التي كانت ترقبُنا.

وكانت برودة الطَّحالب البادية تداعب أرواحَنا التي تُبصر كلَّ شيء، فَسرنا مارِّين بأشجار النَّخيل، وشعرنا بإيحاء قادم من الأراضي الأخرى... ثُمَّ طفحت عيوننا بالدُّموع لأنَّه حتَّى هنا، حيث كنَّا سعيدَيْن، لم نكُن سعيدَيْن...

⁽⁵³⁾ سُمِّت بهذا الاسم لأنَّ يهوذا قد شنق نفسه على أغصان هذه الاشحار، بعد أن خان المسيح، كما تقول الأسطورة. (المترجم)

ثُمَّ زلَّتْ بنا الْحُطَى فوق المجسَّات الميِّتة لأشجار بلَّوط عتيقة طافحة بالعُقَد... أشجار دُلْبٍ شاهقة جامدةً تنتصِبُ... وفي المسافة، ملموحةً عبر الأشجار، تتدلَّى عناقيد عنب أسود تونع على عرائش صامتة...

طار أمامَنا حلمُ أن نعيش، فتبسَّمنا له الابتسامةَ اللَّامبالية ذاتها وروحانا متَّفقتان، دون الحاجة إلى أيِّ تبادُلِ للنَّظرات، بألَّا يرى أحدنا الآخر إلَّا كذراعٍ تستريح على الثَّقَل الطَّوعيُّ لذراع الآخر الشَّاعرة بها.

لا باطنَ لحياتنا. كُنَّا الخارجَ والآِخرَ تماماً. لم نعرف نَفْسَيْنَا، كأنَّنا قد تجلَّينا لروحَيْنا، ليس إلّا، بعد رحلة عبر الأحلام...

ولقد نسينا الزَّمن، فبدت، حين نظرنا إليه، شساعة الفضاء صغيرة أيضاً. فهل كان ثمَّة شيء حقيقيَّ هناك، بعيداً عن تلك الأشجار القريبة وتلك الكروم البعيدة، وتلك الجبال في الأفق البعيد؛ شيءٌ نال جدارة تفرُّس المرء في الأشياء التي تُوجَدُ؟

أعلنت السَّاعة المائيَّة لنقصاننا انقضاءَ ساعات غير حقيقيَّة بقطرات أحلام بطيئة ومنتظمة... لا شيء يستحقُّ العناء، يا حُبِّيَ البعيد، إلَّا معرفة كم هُوَ جميل أن نعرف ألَّا ميء يستحقُّ العناء...

حركة الشَّجر السَّاكنة؛ سكون النَّوافير القَلِق؛ الزَّفير العصيُّ على الوصف الذي تزفره الإيقاعات السِّريَّة للنَّسغ؛ غروب الأشياء البطيء، الذي يبدو قادماً من الدَّاخل ويمدُّ بداً روحانيَّة عطوفة إلى الحُون الذي يكبرُ، بعيداً كُلَّ البُعْدِ عن الرُّوح وقريباً كُلَّ القُرب منها، والذي ينبعث من صمت السَّاء الباسق؛ تساقط أوراق الأشجار، المحسوب والعبثيُّ، كقطرات اغتراب يغدو فيها المنظر الطبيعيُّ شيئاً للآذان وحدها، كحنين إلى وطن مُستحضر في الذَّاكرة - كلَّ هذا يربط بعضنا ببعض، دونَ يقينٍ، كحزام يظلُّ إبزيمه مشدوداً على الدَّوام.

ولقد عشنا هناك زمناً، زمناً عاجزاً عن أن يمرً، في فضاء لا يمكن للمرء حتَّى أن يُفكِّر في قياسه؛ زمناً يمرُّ خارج الزَّمن، وفضاء لا يعرف شيئاً عن الأعراف المالوفة للفضاء الحقيقيً... آهِ يا رفيقةَ سأمي العقيمةَ، أيُّ ساعاتٍ قلَقٍ سعيدٍ قد بدتْ ساعاتُنا! ساعات فطنة شاحبة، أيَّ معنيٰ فضائيٌ، قرون جُوانيَّة لمناظر طبيعيَّة خارجية... ولم نسأل نَفْسَيْنا لأجل أيُّ شيئً

كان ذلك، فلقد أسعدتنا معرفة أنَّه لم يكُن لشيءٍ.

بحاسة سادسة لم نمتلكها، عرفنا بطريقة أو أخرى انَّ العالَم المُؤلم الذي سنكون فيه اثنَيْن، إنْ كان مثل هذا العالَم موجود حقّاً، يمتدُّ وراء الأُفق الأقصى حيث الجبال ليست إلَّا أشكالاً مزفورة، لا شيء وراءها، ونظراً إلى تناقض معرفة هذا الشَّيء فإنَّ الزَّمن الذي قضيناه هناك كان معتماً عتمة كهفٍ في أرض المُتطيِّرين، وكانت حقيقةُ أنَّنا نستطيع الشعور بذلك غريبةً كمشهد مدينة مغربيَّة تنعكس صورتُه الظُليَّةُ على سهاء المساء الخريفيَّة...

ثُمَّ تكسَّرت، على الأفق المسموع، أمواج محيطات مجهولة على شواطئ لن نراها أبداً، ففرحنا أن نسمع هذا، إذ بتنا قادرَيْن على أن نرى في داخل نَفْسَيْنا ذلك المحيط الذي خرت عبابَهُ سفن شراعيَّة صغيرة واثقة لتحقيق أهداف تختلف كليَّة عن تلك الأهداف العمليَّة التى تطلبها الأرض.

ونلاحظ فجأة، كشخصين يلحظان فجأة أنَّها على قيد الحياة، وأنَّ الهواء كان طافحاً بأغاريد الطُّيور وأنَّ تَثَنِّي الورقة على الورقة كالأمواج، على شاكلة العطور المُعتَّقة التي تفيح في الحرير الفاخر، قد كان مكنوناً في داخلنا أعمق من وعينا بأنَّنا نستطيع سهاعه.

وهكذا فإنَّ دندنات الطَّيور، وهمس الأشجار والضَّجيج الخلفيَّ الرَّتيب المنسيَّ للبحر الأبديِّ الذي وضع حول حياتنا المهجورة هالةً من الجهالة. نمنا لأيَّام مستيقظَيْن، قانعَيْن بأنَّنا لا شيء، بلا رغبات أو آمال، فلقد نسينا لون الحُبِّ أو طعم الكراهية. كُنَّا نُظنُّنَا خالدَيْن...

عشنا هناك ساعات مليئة بطريقة مختلفة تماماً في خوض غيار تلك السّاعات، ساعاتٍ من نُقصانٍ فارغ، كاملةٍ في نقصانها، مائلة على يقين الحياة المُتعامد... ساعاتٍ إمبراطوريَّة من إمبراطوريَّة مدحورة، ساعاتٍ مُسربلة بالأرجواني الباهت، ساعاتٍ ساقطة في هذا العالمَ من عالمَ آخر يفخر فخراً شديداً بأحوال قَلَقِهِ الكثيرة المتهالكة...

وَالنَّهَارِ عَلَى ستائر غرفة النَّوم ظِلُّ ضَوء. ولشفتيَّ اللَّتَيْن أعرف أنَّهما شاحبتان طعمُ رغبة في عدم العيش.

والهواءُ في غرفتنا الحياديَّة ثقيل الوطأة كستارة مسدلة في مدخل الباب، انتباهنا الوسنان بسرِّ هذا كلِّه منهكٌ كحاشية ثوب يجرُّ أذيالَه على الأرض في حفل دائر ساعةَ الشَّفق. ولا سبب كي تُوجدَ أيُّ من رغباتنا، فانتباهنا عبثٌ سمحت بهِ عطالتُنا المُجنَّحة. و لا أعرفُ أيَّ زيوتٍ غامضة تُمرِّخُ فكرة جسدنا. فتعبُّنا ظِل تعَبٍ فحسب. ياتي إلينا من بعيدٍ، كفكرتنا عن امتلاك حياةٍ...

لا اسم لأي منّا ولا وجود ظاهرياً لنا، فلو كُنّا قادرَيْن بها يكفي على تخيّل نَفْسَيْنَا نضحك، لضحكنا بلا ريب على فكرة التّفكير بأنّنا نعيش. البرودة الدّافئة للملاءة تُمسّد أقدامنا (قدميكِ وقدميّ على حدّ سواء)، الأقدام التي تشعر بأنّها عارية تماماً، بعضُها تجاه بعض. إيّاكِ أنْ نُخدَع، يا حبيبتي، بشأن الحياة وطرائقها. فَلْنَهرب من كوننا نحنً... إيّاكِ أن نخلع من إصبعنا الخاتم السحريّ الذي حين يُفرَك، يستحضرُ جنيّات الصّمت وعفاريت الظّلال وأقزام النّسيان...

وحين نحلُم بالكلام عن الغابة، فإنَّها تصعد أمامنا مرَّة أخرى، حتَّى إنَّها أكثر اضطراباً الآن من اضطرابنا وأكثر حزناً من حزننا. كسديم رفيع، تهرب فكرتنا عن العالم الحقيقيِّ أمامها، ثُمَّ أملكُ نَفْسَي ثانيةً في حلمي الشّريد، حلم شكّلته الغابة الغامضةُ...

آه، الأزهار التي رأيتُها هناك! الأزهار التي ترجّها البصرُ إلى أسماء، حين عوفتُها، التي التقطت روحي عطرَها، لا من الأزهار نفسِها، بل من لحن أسمائها... أزهار لم تكن أسماؤه، حين كُرِّرَتْ مُتعاقبة، إلَّا أوركسترات كاملة من عطور رنَّانة... وأشجارٌ يطرح أخضرُها الشّهوانيُّ ظلاً على أسمائها وبرودةً... ثمار كانت أسماؤها قَضْماً في رُوحٍ لُبّها عَيْنه... ظلال كانت آثارَ سوالف أزمنة سعيدة... تجليّات، تجليّات صافية، كانت أوضح الابتسامات التي افترَّ عنها المنظر الطبيعي الذي يمتدُّ مُتثائبًا قُربي... آه أيّتها السّاعات العديدة ألوائها! أيّتها اللّحظاتُ الأزهارُ، ويا آيّتها الدّقائقُ الأشجارُ، آه أيّها الزّمن المُتجمِّدُ في الفضاء، أيّها الزّمن المُتجمِّدُ في الفضاء، أيّها الزّمن المُسجّى ميّتاً في الفضاء، تُعطيه الأزهار وعطور الأزهار وعطور أسماء الأزهار!...

حلمٌ مجنونٌ في ذلك الصَّمت الغريب!

كانت حياتُنا الحياةَ برمَّتها... وكان حُبُّنا عطرَ الحُبِّ... عشنا ساعاتٍ مستحيلة، مُمَنكَيْنُ بكوننا نحنُ... ذاكَ أَنَّا عرفنا، بكلِّ ذرَّةٍ في جسدنا، أنَّنا لم نكُن حقيقة ...

كُنّا غيرَ شخصَيْن، مُتجرِّدَيْن من نَفْسَينا، شيئاً آخر تماماً... كُنّا ذلك المنظر الطَّبيعيَّ الذي تلاشى من وعيه... ومثلها كان المنظر الطبيعيُّ منظريْنِ -الحقيقيَّ والوهميَّ- فإنَّنا كُنَّا كذلك اثنين على نحو غامض، ولا أحد منَّا يعرف تمامَ المعرفة إنْ كان الآخر هُوَ نَفْسه أو نَفْسها أم

غير ذلك، أو إنَّ كان الآخر المُلتبَس على قيد الحياة...

وحين وجدنا نَفْسينا أمام البحيرات المُتجمَّدة، شعرنا برغبة في البكاء... هناك، امتلأت عيون المنظر الطبيعيِّ بالدُّموع، عيون لا تتحرَّك، طافحة بسأم الكينونة الذي لا حدَّلَهُ... نعم، طافحة بسأم الكينونة، سأم وجوب أن يكون شيئاً، حقيقياً أو وهمياً - وكان ذلك السَّام قِد توطَّنَ مع صوته في صمت تلك البحيرات ومنفاها... غير أنّنا كُنَّا لانزال نمشي جاهلَيْن. وعلى الرَّغم من ذلك، يبدو أنَّنا كُنَّا نتسكع قُرب شواطئ تلك البحيرات، لأنَّ كثيراً مناً، أنا وأنتِ، قد عاش هناك وتسكّع، متجسداً ومتشَرَّباً...

ويا لَهُ مِن رعبِ جديد وبهيج أنَّ أحداً آخر لم يكُن هُنَاك! حتَّى نحن، اللَّذان كُنَّا نمشي هناك، لم نكُن هناك. لم نكُن شيئاً قَطُّ... لم تكُن لدينا حياةً قد يقتلها الموت. كُنَّا ضعفاء، على أشدً ما يكون الضَّعف، ولا يعبأ بنا أحد البتَّة، إلى درجة أنَّ الرِّيح العابرة قد تركتنا بلا حول ولا قوَّة وداعبتنا السَّاعة العابرة كنسيم في رأس نخلة.

لم نمتلك عُمراً ولا أَرَب. تركنا الغاية من كلِّ الأشياء وجميع المخلوقات عند باب جنَّة الغياب تلك. ولكي نشعر بِنَفْسَينا تشعران، لم يتحرَّك شيء، لا أرواح جذوع الشَّجر القاسية، ولا أرواح الورق المعروضة، ولا أرواح الزَّهْر التي بلغت سِنَّ الرُّشد، ولا أرواح الثَّمَر التي تنوءُ بالأحمال...

وهكذًا نموت طيلة حياتنا، عازمَيْن على موتِ حياتَيْنا الشَّخصيَّة إلى درجة أنَّنا لم نلحظ أنَّنا قد كُنَّا واحداً والشَّخصَ نَفْسَهُ، وأنَّ كِلَيْنَا كان وهمَ الآخر، وفي داخل كلِّ واحد كان صدى نَفْسِنَا الأصغر...

ذبابةٌ تطنُّ حيرانةً، وأصغرَ عَمَّا يكونُ...

تناثرُ أصواتٍ مشرقٌ وغامض يومضُ في عقلي، مالئاً بضوء النَّهارِ وعيي بغرفتي... غرفتنا؟ بأيِّ معنى أقول غرفتنا ما دمتُ وحيداً؟ لا أعرف. كلُّ شيء يذوب بعيداً وكلُّ ما تبقَّى، إذ يزول، ليس إلَّا واقعاً يسوده الضَّباب تغرق فيه رِيبتي، ويهوي وعيي بذاتي في النَّوم، بعد أن هدهده الأفيولُ.

هَا إِنَّ الصَّبِحَ قد تنفَّسَ، ساقطاً من رأسِ السَّاعة الشَّاحب... وجذوات أحلامنا قد التهمتها ألسنةُ النَّيران، يا حبيبتي، في مُصطلى حياتنا... إِيَّاكِ أَن يَخدَعنا الأمل، فهو يَخونُ، أو أن يَخدَعنا الحُبُّ، فهو يُتعِبُ على مرِّ الأيَّام، أو أن تخدَعنا الحياة، فهي تُتخِمُ ولا تُشبِعُ، أو أن يخدَعنا الموت، فهو يجلب أكثر مَّا يرغب المرُهُ وأقلَّ ثمَّا يتوقَّعُ.

إِيَّاكِ أَن يَخْدَعنا سَأَمُنا، أَيَّتُها الواحدةُ المُحتجبةُ، فالسَّأَمُ يهرم في حدِّ ذاته ولا يجرؤُ تماماً على أذ يكون القلَقَ الذي هُو.

إِيَّاكِ أَن نبكي، إِيَّاكِ أَن نكره، إِيَّاكِ أَلَّا نرغب...

فَلْنُدَثِّر، أَيَّتها الواحدة الصَّامتةُ، صورةَ نقصانِنا الميِّتةَ الجامدة بملاءة كتَّانيَّةٍ فاخرة...

37

[\$1913]

لو كانت حياتًنا وقفةً طويلة واحدة عند النَّافذة، لَوِ استطعنا البقاءَ هناك فحسب، من لَفَّة دخانِ صغيرة لا تتحرَّك، جامدةً في اللَّحظة اليتيمة في المساء الذي يرسم منحنى التَّلال بالألم. لَوِ استطعنا البقاءَ على تلك الشَّاكلة، في جانب المستحيل هذا على أقلَّ تقدير، كأنَّ على رأسَيْنا الطَّيرَ، ولا تقترف شفاهنا الشَّاحبةُ خطئة التَّقوُّهِ بمزيد من الكلمات!

أنظري، هَا إِنَّ اللَّيلَ يُرخى سُدُولَهُ! وسكينةُ كلِّ شي، التي لا لُبسَ فيها، تملؤني بالغضب، بشيء هُوَ الطَّعم المُنُّ المُتبقِّي على اللِّسان للهواء الذي أتنفَّسه، روحي تتوجَّعُ... وشريط دخان يصعد، في البعيد، ثُمَّ يتبدَّدُ... سأمٌ قَلِقٌ يحجبُ أيَّ أفكار إضافيَّة قد تنتابني عنكِ... كم هُوَ غير ضروريٍّ هذا كلُّه؟ نحن والعالمَ وسرُّهما على حدٍّ سواء.

38

[1913]

هَا إِنَّ المطر ينهمرُ، وابلاً بعدَ وابلٍ... كَأَنَّ شيئاً في الظُّلمةِ خارجاً كان على وشك أنْ يُطلَق له العنانُ... يُخيَّلُ إليَّ اليومَ أنَّ الكومة التَّلِيَّة العشوائيَّة للمدينة أكثر من مُجرَّد سهل؛ سهلِ طافح بالأمطار. وحيثها يمَّمتُ عينيَّ، فإن كلَّ شيءٍ بلون المطر، أسود شاحب.

تغمرني أحاسيس مثيرة غريبة، باردة كلُّها. يُخيَّلُ إِليَّ الآن أنَّ المنظر الطبيعيَّ ليس إلَّا سديهاً، والبيوتُ هي السَّديمُ الذي يحجبُه.

وسوسةٌ، لم تبلغ حَدَّ العُصَابِ بعدُ، عمَّا سأكونُ حين لا أعودُ نَفْسي، تُرجِفُ جسدي وروحي. وَتَعْرُونِي هِزَّةٌ فِي الأعماق إذْ يَغْشَى النَّفْسَ ما يغشى، كأنَّها ذكرى موتيَ المُؤجَّل. وأشعر، في ضبابِ الحَدْس، بأنَّني مادَّة مَيتةٌ، طريحة الأرض في المطر، ناحتْ عليها الرِّيحُ.

والبردُ الذي لن أشعر به حينئذٍ يقضمُ قلبيِّ الرَّاهن.

39

[1913]

كيف نحلم على أكمل وجه

أَجِّلَ كُلَّ شيء. لا تفعل اليوم ما تستطيع تأجيلَه إلى الغد. لا يتوجَّب عليك أن تفعل أيَّ شيء، غداً أو اليوم.

لا تُفكِّر البَّة فيما ستفعله. لا تفعله، هكذا بكلِّ بساطة.

عِش حياتك. ولا تتركها تعيشك أبداً. كُنْ نَفْسك، في الصَّواب والخطأ، وفي الصِّحة والمرض. ولن تستطيع فعل ذلك إلَّا بالحُلم، فحياتك الحقَّة، حياتك البشريَّة، لا تنتمي إليك، بل إلى الآخرين. فبدِّل حياتك بالحلم واحرص على أن تحلم على أكمل وجه. ففي جميع أفعال حياتك الحقَّة، منذيوم ولادتك وحتَّى يوم مماتك، لستَ مَن يقوم بتلك الأفعال؛ فأنت لا تعيش، أنت عشتَ فحسب.

كُن أبا هَوْلٍ عبثياً في عيون الآخرين. إحبس نَفْسك في برجك العاجيّ، ولكن لا تَصفِق خلفَك الباب، فبرجك العاجيُّ هُو أنت.

وإذا أخبرك أحدٌ أنَّ هذا بأطل وعبثي، فلا تصدِّقه. ولا تُصدِّق ما أقصُّه عليك أيضاً، فأنتَ لا بُدَّ ألَّا تُصدِّق شيئاً. احتَقِر كلَّ شيء، ولكن بالطَّريقة التي يبدو فيها الاحتقار طبيعيّاً جدَّاً. ولا تظنُّ آنَّك متفوِّق حين تحتقر الآخرين. فهنا يكمن فنُّ الاحتقارِ النَّبيلُ.

40

[\$1913]

بحيرة التُّملُّك

لا شيءَ ينفذُ، لا الذرَّاتُ ولا الأرواحُ. ولهذا لا يستطيعُ شيءٌ امتلاكَ شيء آخر. فمن الحقيقة إلى المنديل، لا شيءَ قابلٌ للامتلاك. (المُلكيَّة ليست سرقة (١٤٠): إنَّها لا شيء).

41

[913]

كيف تحلم على أكمل وجه

إحرص، في البَدْء، على ألَّا تحترم شيئاً وألَّا تؤمن بشيء. ويتوجَّب أن يكون موقفك، حين تواجه الأشياء التي لا تحترمها، موقف الرَّاغب في احترام شيء ما؛ وينبغي على مشاعر النُّفور التي تنتابك، حين تواجه ما لا تُحِبُّ، أن تكون على شاكلة رغبة مؤلمة في أن تُحبُّ ولا تحتفظ من ازدرائك للحياة إلَّا بفكرة أنَّ عيشَ الحياة وحُبَّها أمرٌ حسن. هكذا سوف ترفع القواعد لأحلامك.

واحرصْ على أن تكون البناية التي تقترح تشييدها أطول المباني جميعها. أنْ تحلم أنْ تجد نَفْسك. ستكون كولمبوس روحك. ستنطلق باحثاً عن مناظرها الطَّبيعيَّة. تأكَّد، حيئلًا، من الانطلاق في الاتِّجاه الصَّحيح وأنَّ أدواتك دقيقة.

فَنُّ الْحُلَم صعب فهو فنَّ سلبيٌّ، إذ يُقصَد من بذل أيِّ جُهدٍ خلقُ غيابٍ تامَّ لأيِّ جُهد. وعَّا لا شكَّ فيه أنَّ فنَّ النَّوم، إنْ كان ثمَّة فنَّ، يشبه هذا بطريقة أو أخرى.

وتذكَّر، إنَّ فنَّ الحُلم ليس فنَّ توجيه أحلامك، فأنْ تُوجِّه يعني أن تفعل. الحالم الحَفَّ يُسلِمُ نَفْسه إلى نَفْسه، سامحاً لنَفْسِه بأنْ تملكها نَفْسُه.

⁽⁵⁴⁾ يعارض يِسُوِّل هنا، لمقولة الشُّهيرة، «الْملكيَّة سرقة La propriété, c'est le vol)»، التي أطبقها ييير جوزيف

اهرب من جميع الاستفزازات. ثمَّة، كي تبدأ، اغراءُ أن تستمني. وثمَّة، بعد ذلك، إغراءُ الكحول والأفيون... فجميع هذه الأشياء تتطلَّب فعلاً من نوع ما. ولا بُدَّ، لتكون حالمًا جيِّداً، أن تكون حالمًا ليس إلَّا.

واحكم على نَفْسك دائماً بأن تكون أكثر حزناً مَّا أنت عليه وأتعس. فهذا شيء ليس سيِّتاً البِتَّة. ولأنَّه وهم، فإنَّه خطوة من الخطوات المفضية إلى الحُلم.

42

[بعد 12 سپتمبر 1913]

حطام سفائن؟ كلّا، أبداً. ينتابني انطباعٌ، على الرَّغم من ذلك، بأنَّ جميع رحلاتي انتهت وقد تحطَّمت السَّفائن، إنَّ خلاصي مخبوء بعيداً في حالات وعي مُتقطِّعة...

أحلام غامضة، وأضواء مُشوِّشة، ومناظر طبيعيَّة محيِّرة – َذاك ما تبقَّى في روحي بعد كلِّ أسفاري.

ينتابني انطباع بأنّني قد عرفتُ ساعاتٍ من كلّ لون، غراميَّات من كلّ نكهة، رغبات من كلُّ شكل وحجم. ولقد أسرفت في الشّهوات إسرافاً لا يُحَدُّ، ولكنّني لم أكُن كافياً لِنَفْسي البتَّة حتَّى في أحلامي.

لا بُدَّ أَن أَفسِّر بِأَنَّني قد ارتحلت حقاً، ولكنَّ كلَّ شيء يتلمَّظ عليَّ لأَنَّني حدَّثت نَفْسِي بأَنَّني قد ارتحلت، على الرَّغم من أنَّني لم أفعل. حملتُ جيئةً وذهاباً، من الشَّمال حتَّى الجنوب، ومن الشَّرق حتَّى الغرب، تعبَ أنَّ لديَّ ماضياً، قلقَ أنَّني أعيشُ حاضراً، وسأمَ ضرورة أن يكون لديَّ مستقبل. ولكنَّني مازلت أكافح كفحاً شديداً، لأبقى في الحاضر تماماً، قاتلاً في الماضى والمستقبل.

سَرتُ على طول ضفاف أنهار وجدت أنّني لا أعرف أسهاءها. وجدت نَفْسي، وأنا جالس على طاولات المقاهي في المدن التي زرتها، مُفكِّراً في كلّ شيءٍ كان بالنّسبة إلى بطعم الأحلام، بطعم الفراغ. وكنت أجد نَفْسي في بعض الأحيان متسائلاً إنْ كنتُ ماأزال جالساً على طاولة بيتنا القديم، بلا حَراك وقد أبهرتني الأحلام! لا أستطيع أن أعدكِ بأنَّ هذا ليس ما يحدث، بأنّني لم أزل هناك الآن، وبأنَّ كلَّ هذا، بها في ذلك هذه المحادثة معك، باطل

43

[1913]

رحلة لم تُجرُ قطُّ

أختبئ خلف الباب، حتى لا أراني، حين يَدلِفُ الواقعُ. أختبئ خلف الطَّاولة ثُمَّ طَفَرتُ فَحِاةً لأُفزعَ الاحتمال. أنسحبُ من نَفْسي، كأنَّني قد شُحِبتُ من بين ذراعي عناق؛ السَّامَيْزِ العظيمَيْن اللَّذَيْنِ يُحُوطانِي - سأمِ قُدرتي أن أعيش على الحقيقيِّ فحسبُ، وسأمِ قُدرتي على الحقيقيِّ فحسبُ، وسأمِ قُدرتي على تخيُّل المُمكن فحسبُ.

هكذا علَى الواقع أنتصرُ. فهل قلاع الرَّمل هذه انتصاراتي؟ مِن أيِّ مادَّةٍ تُصنع القلاءُ التي ليستْ قلاعَ رمل؟

أَنَّى لَكِ أَن تَعرفي بَأَنَّني، إذ أرحل بهذه الطّريقة، لا أُعيد على نحو غامض تجديد نَفْسي؟ أعيشُ صِبايَ مرَّة أخرى، يا طفلة العبث، فألعب مع أفكار الأشياء مثلها لعبتُ يوماً مع جنودي الدُّمَى، التي فعلت بها، وأنا صبيُّ، أشياء ضدَّ فكرة أنَّهم جنود فحسب. سكرانَ على الأخطاء، أجدُ نَفْسى، برهةً، على قيد الحياة بالخطأ.

44

[913]

شلال

يعرف الطِّفل أنَّ الدُّمية ليس حقيقيَّة، ولكنَّه يعاملها كأنَّها حقيقيَّة، حتَّى إنَّه يبكي مُنفطرَ القلب حين تنكسر، يكمن فنُّ الطِّفل في جعل الأشياء غير حقيقيَّة. طُوبي لتلك المرحلة الحياتيَّة الشَّقيَّة، حين يفسخُ الحُبَّ غيابُ الجنس، وحين يفسخُ الواقعَ اللَّعبُ، مُعامِين الأشياء الحقيقيَّة على أنَّها ليست كذلك.

فَلْأَعُد إلى طفولتي وأظل هناك إلى الأبد، غير مكترث بالقيم التي يمنحها الرَّاشدون للأشياء، أو بالعلاقات التي أقامها الرَّاشدون بينهم. كنت غالباً ما أُوقفُ جنوديّ الدُّمي، حين كنت صغيراً، على رؤوسها، وأرجلها في الهواء... فهل ثمَّة سبب، تدعمه جدالات منطقيَّة، لماذا لا يتوجَّب على الجنود الحقيقيِّين أن يمشوا مشيتَهم العسكريَّة رأساً على عقب.

لا يمنح الطِّفل قيمةً للذَّهب أكثر من الزُّجاج. وهل يستحقُّ الذَّهب في الحقيقة قيمةً أكثر؟ يجد الطِّفلُ الشَّغف ومشاعر الغضب والمخاوف التي يراها على وجوه الرَّاشدين عبثيَّةً على نحو غامض. وأليس صحيحاً أنَّ جميع مُخاوفنا ومشاعر القرف التي تنتابنا وغراميًاتنا عبثيَّةً تماماً وبلا جدوى؟

آهِ، أَيُّهَا الحَدْسُ الطُّفوليُّ العبثيُّ المقدس! هَا الرؤيةُ الحقَّة للأشياء التي نرتديها وفقَ الأعراف كلَّما رأيناها وقد تجرَّدتْ عاريةً، الأشياء التي نلتفُّ بها في ضباب أفكارنا بدلاً من رؤيتها مباشرةً!

أُربَّما الإله مجرَّد طفل كبير؟ وهل يبدو الكون بأكمله مثل لُعبةٍ؛ خدعة قام بها طفل شقيُّ؟ غير حقيقيٍّ إلى حدُّ بعيدٍ...

قذفتُ هذه الفكرة إليكِ عالياً في الهواء، ولكنَّ رؤيتَها من بعيدٍ قد جعلتي أرى فجأةً كم هي مُرعبة! (ماذا لو كان ذلك حقيقياً؟)

إنَّها تسقط على قدميَّ فتتناثرُ غُباراً مُرعباً وشظايا غامضة...

أستيقظُ لأعرف أنَّني موجود...

وفي أُذُني سأمٌ عظيم حيران، يَخِرُّ ببرودة هائلة تأتي من الشَّلَال، خلف قفار النَّحل، في الأعهاق الغبيَّة للحديقة.

45

[913]

منظر طبيعي ماطر

يسقطُ، في اللَّيل، لساعات وساعات، همسُ المطر. ثُمَّ، طيلةَ اللَّيل، وأنا مُحدَّد نصفَ يقظان، نَاكَدَتْنِي الرَّتابةُ السَّائلة الباردة للمطر المنهمر على نافذتي. ثُمَّ هبَّت من الأعالي،

في هذي الأثناء، عصفة ريح جعلت الماء يدورُ متألّاً على نَفْسهِ ويخبطُ الزُّجاجَ بأجنعة سريعة، ثُمَّ هدهدَ العالمَ الميِّت في الخارج كي ينام، في هذه الأثناء، صوتٌ مُضجِرٌ. كانت روحي ذاتها كها هي دائها، سواءً بين الملاءات أو بين النَّاس، واعية بالعالمَ وقد بَرَّحَتُها الآلامُ. وكان النَّهار كالسَّعادة يستغرق وقتاً مديداً كي يصل، فبدا في تلك السَّاعة كانَّه لن يصل أبداً.

ليتَ النّهار والسّعادة لا يأتيانِ أبداً! وليتَ الآمال لا تذوق البتّة خذلانَ أنّها لن تتحقَّر!
ثُمَّ تعالى من طرف الشَّارع القصيِّ الصَّوت العارضُ لعربة آخر اللَّيل تهتزُّ بعنف على الحصى المرصوف، وتعبر منسحقة تحت نافذي، قبل أن تتلاشى في آخر الشَّارع، في أعاق نوم غامض لا أستطيع الانقياد له تماماً. ثُمَّ يُصفَق بابٌ، بين الفينة والأخرى. وكان، في بعض الأحيان، سَحْقُ خَطُو، وحفيفُ ثيابِ رطبة. وبدا صوت هذي الخُطَى أعلى وأكثر اقتحاماً من الصوت الذي يتعالى حين تكون ثمَّة في العادة خطوات أكثر. ثُمَّ، حين تلاشن الخُطَى، عاد الصَّمت، واستمرَّ المطرينهم ولاحدً له.

وكلَّما فتحتُ عينيَّ مستيقظاً من نوم باطل، رأيتُها تومضُ على جدران غرفتي المرئيَّة على نحو معتم، شظايا أحلام لم تُحلَم بَعْدُ، وأضواءٌ خافتةٌ، وخطوطٌ سوداءُ، وعَدَمِيَّاتٌ صغيرةٌ تعلو وتهبطُ. ثُمَّ لاحَ الأثاث أكبرَ ممَّا كان عليه في أثناء النَّهار، أشكالاً مُعبِّشة في العتمة العبثيَّة. ولم يُشر إلى حضور الباب إلَّا شيء لم يكن أكثر شحوباً من اللَّيل ولا أكثر إعتاماً منه ولكنَّه مختلف. أمَّا النَّافذة، فلم أستطع إلَّا أن أسمعَها [دون أن أراها].

تَواصل صوت المطر، في هذه الأثناء، سائلاً وحيرانَ. تباطأت اللَّحظاتُ كي تحافظ عن وتيرتها. فتعاظمَتُ عُزلة روحي، ثُمَّ انتشرتُ وطوَّقتْ ما كنتُ أشعر به، ما كنتُ أرغبُ فِه، وما كنتُ على وشك أن أحلم به. ثُمَّ حضرتِ الأشياء الغامضة، جُلَساء عتمة أَرَقِي، كي تقاسمني المكانَ والألمَ على حدَّ سواءٍ في خرابي.

46

[\$1913]

لم أَدَعْ أحاسيسي تعرف البتَّة ما أريد أن أجعلها تشعر به... ألعب بها كثيراً كما تلعبُ أميرة ضجرة مع قططها الكبيرة، السّريعة، الوحشيَّة...

أصفق أبوابي الجُوَّائيَّة، حيث كانت بعض الأحاسيس على وشك أن تمرَّ عبرها كي تُجَسَّ. أُزيل، بفظاظة، من دربها أشيائي العقليَّة التي قد تمنحها إيهاءات معيَّنة.

تَقلَّتَتْ بعض الألفاظ القصيرة الجوفاء إلى المحادثات التي نتحيَّل أنَّنا نُجريها؛ عبارات عبثيَّة صِيغَتْ من رفات عبارات أخرى لم تَعُد تعنى شيئاً.

- نظرتُكِ تشي بأنَّ موسيقي قد عُزفَتْ على ظهر سفينة واسعة، في الغُرْض الغامض لنهر تنهض على ضفَّته المقابلة الغاباتُ...

لا تَقُل إنَّ سبب ذلك عائد إلى أنَّ اللَّيلة مقمرةً. فأنا أكرهُ اللَّيالي المقمرة... على الرَّغم
 من أنَّ بعض النَّاس معتادون في الواقع على عزف الموسيقى في اللَّيالي المقمرة...

- وذلك، أيضاً، مستحيل، وواحدٌ من أشدٌ الأشياء مدعاة للأسف، بالطّبع... ولكنّ نظرتكِ تبدو على وشك التّعبير، في الحقيقة، عن حنين إلى شيء ما، ولكنّها تفتقر إلى العاطفة الضروريّة للتّعبير عنها... أجدُ في بُطلان تعبيركِ بعض الأوهام التي ساورتني...

- صدِّقني حين أقول إنَّني أشعر بها أقول في بعض الأحيان، وأشعر، على الرَّغم من كوني المرأة، بها أقوله بعينيَّ أيضاً...

- ألا تقسين على نفسك؟ أتشعرين حقاً بها نظنُّ أنَّنا نشعر به؟ فهل تُبدِي هذه المحادثة، على سبيل المثال، أيَّ علامات تشير إلى الواقع؟ كلَّا، إنَّها لا تفعل. وهذا لا يُسمَح بحدوثه في أيٌ حديث بتاتاً.

" نعم، أنت عقى تماماً... لستُ متأكِّدة، تمامَ التأكُّد، بأنّني أتحدَّث إليكَ... على الرَّغم من كوني امرأة، فقد جعلت من واجبي أنْ أكون صورة مستوحاة من كرَّاسة رسم مُصمَّم مجنون... أحتوي في داخلي بعض التَّفاصيل الواضحة على نحو غير عاديٍّ... أعرف أنَّ هذا يعطي إنطباعاً عن واقع مُغالَى فيه ومفروض بالقوَّة... أعتقد أنَّ الطُّموح الوحيد الذي تستحقه المرأة العصريَّة أن تكون صورة. فلقد أردتُ، حين كنت طفلة، أن أكون الملكة البِنْت] المرسومة على ظهر إحدى أوراق اللعب القديمة التي كانت لدينا في المنزل... اعتقدتُ أنَّ ذلك كان نداءً جوَّانياً رؤوفاً حقاً... ولكنَّ المرء حين يكون طفلاً، تكون لديه مثل تلك التَّطلُّعات الأخلاقيَّة... ولن نفكر جِدياً بهذا الأمر إلَّا حين تغدو جميع تطلُّعاتنا،

في عمر مُعيَّن، تطلُّعاتٍ أخلاقيَّة.

- وحيث لم أُعِر الْأطفال كثير انتباه إطلاقاً، فإنّني أومن بغرائزهم الفنيّة... أتعرفين، حتّى وأنا أتكلّم إليك في هذه اللّحظة، فإنّني أحاول الغوص في المعنى الأعمق لما تحاولين قوله... أتغفرين لي؟

- ليس تماماً... فلا يتوجّب علينا التطفّل على المشاعر التي يتظاهر الآخرون بأنهم يشعرون بها، فدائهاً ما تكون تلك المشاعر شخصيَّة جداً... صدِّقني، يؤلمني حقاً أن أشاركك هذه الأسرار الشخصيَّة، فحتَّى وإن كانت باطلة جميعاً، فإنها تُمثّل جُذاذاتٍ حقةً من روحي المسكينة... إنَّ أقلَّ الأجزاء حقيقيَّة، في قراءة نَفْس المرء، كها تعلم، هي تلك التي تكون الاتعس، فمآسينا العُظمى تحدث في فكرتنا عن نَفْسنا.

هذا صحيح جداً... ولكنْ، لماذا تقولين ذلك؟ لقد جرحتني الآن. لماذا نُخرج حديثا من لاواقعيَّته الرَّاهنة؟ فالحديث يغدو، إذا فعلنا ذلك، حديثاً حقيقياً ممكناً، رفقة كوب من الشَّاي بين امرأة جميلة وحالم يتخيَّلُ الأحاسيس.

-نعم، نعم، أنت مُحقِّ تمامًا. والآن دوري كي أعتذر، فلقد كنت مشتَّتةً، فلم أُدرك حتَّى أَنْني قد قلت شيئاً حقيقياً... فلنُغيِّر الموضوع. كم نتأخَّرُ [في الاعتذار] دائماً! فلا تغضب ثانيةً في هذه اللَّحظة. فها قلته للتوِّ لا يعني شيئاً البتَّة...

- لا تعتذري، ولا تكترثي حتّى بأنّنا كُنّا نتحدّث أصلاً... فلا بُدَّ أن تكون جميع المحادثات مُناجاةً (مونولوغاً) بين اثنين... ولا بُدَّ ألّا نعرف، تمام المعرفة، دون أن يساورنا شكّ، إنْ كُنّا نُكلِّم في الواقع أحداً أمْ نتخيّل الأمرَ كُلّه... فأبهجُ المحادثات وأكثرها حميميّة، وأهمّ من ذلك كلّه تلك المحادثات التي تُفيد من النّاحية الأخلاقيّة أكثر من غيرها، هي تلك المحادثات التي يكتبها الرّوائيّون بين شخصيّتين في كتاب. فعلى سبيل المثال...

- أرجوك! لستَ، حقاً، على وشك أن تضرب لي مثالاً. فذاك لا يحدث إلَّا في كتب القواعد التي لن نُكلَّف خاطرنا بقراءتها على الإطلاق.

- هل قرأتِ كتاب قواعد من قَبْل؟

- لا، إطلاقاً! فلطالما شعرتُ بمقت شديد لمعرفة كيف يتوجَّب على المرء قول الأشياء. الشَّيء الوحيد الذي راق لي في كتب القواعد كانت الاستثناءات والحشو في الكلام فحسب. تدعو النَّظرة المعاصرة الحقَّة إلى تَجنُّب القواعد والتلَّفُظ بالهراء فحسب. أليس هذا ما يقولونه؟

- بالطَّبع، فأسوأ شيء بشأن كتب القواعد (هل لاحظت الاستحالة البهيجة الكامنة في تبادلنا الحديث حول هذه المسألة؟) أسوأ الأشياء على الإطلاق، هو الأفعال. إنّها الكلمات التي تمنح الجُمَل معاني ... ولا بُدّ للجُملة الصَّادقة أن تمتلك عدَّة معان دائهاً. الأفعال! أحد أصدقائي المنتحرين - ففي كلِّ مرَّة أُجرى محادثة أطول من المعتاد، ينتحرُ أحد الأصدقاء - قرَّر أن يقضى حياته كلَّها يبطش بالأفعال...

- (ولمُ انتحر؟)

- على رسلك، فأنا لم أعرف بعد... كان يحاول اكتشاف طريقة لتكملة الجُمَل، وترسيخ هذه الطَّريقة، دون أن يظهر كأنَّه يحاول. اعتاد أن يخبرني أنَّه كان يبحث عن جرثومة الدِّلالة... فانتحر، بالطَّبع، لأنَّه أدرك ذات يوم المسؤوليَّة الجسيمة التي ألقاها على عاتقه. جنَّنته أهميَّة المسألة... مُسدَّسُ...

- واحَرَباهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ الله

- وهل تنسجهان؟

- بِفَدْر ما نستطيع... ولكنَّ تلك الفتاة، لا تستطيع أن تتخيَّل...

لم يتبادل المخلوقان اللّذان يجلسان إلى الطّاولة يحتسيان الشّاي هذه المحادثة البتّة، بَيْدَ الله من العار ألّا يكونا قد فعلا ذلك، وقد بدوا، في ثيابهما الأنيقة، على هيئة مُنزَّهة عن النّقص. ولهذا السّبب أكتبُ هذه الأشياء كي يكونا قادرَيْن على إجراء مثل تلك المحادثة... مواقفهما وإيهاءتهما البسيطة ونظراتهما وابتسامتهما الطفوليّة، التي تفتح فضاءات في إحساس المرء بوجوده، في تلك المواقف التي تطرأ في أيّ محادثة، قد عبَّرت عمَّا أتظاهر بأنّني قد قلته مخلصاً... حين تزوَّج كلُّ واحد منهما من شخص آخر، دون شكَّ، وذهب كلُّ في طريقه (55) تُسنخدم، في العربيّة، عند إظهار الحزد والتأشف، وهي مأخوذة من «الحرّب» التي تعنى الويل والهلاك (المترجم).

- فقد كانا متشابهَيْن إلى حدَّ بعيدٍ كي يتزوَّج أحدهما الآخر - فإذا قُدَّر لهما أن يقرآ هذي الصَّفحات ذات يوم، فأنا متأكِّد أنَّهما سيتعرَّفان على الأشياء التي لم ينطقا بها قط، وسيكونان تُمتنَّيْن لأنَّني قد وضَّحت بدقَّةٍ ليسَ ما هما عليه في الواقع فحسب، وإنها ما لم يرغبا في أن يكونا عليه البتَّة، وما لم يعرفا بناتاً أنَّهما قد كانا عليه ...

فلو قُدُّر هما أن يقرآ هذا الكلام، فاتركوهما يعتقدان أنَّ هذا ما قد قالاه حقاً. لقد كانت ثمَّة أشياء كثيرة ناقصة في الكلمات الجليَّة التي سمع أحدُهما الآخرَ يقولها - العطر الذي فاح في تلك السَّاعة، ونكهة الشَّاي، ودلالة الأزهار التي شبكتها على صدرها... ولقدنسيا ذكر أيَّ من تلك الأشياء التي كانت جزءاً من المحادثة أيضاً... ولكنَّ كلَّ شيء كان هناك، فكانت مُهمَّتي أقلَّ من مهمَّة كاتب وأكثرَ من مهمَّة مؤرِّخ، فأنا أعيدُ الصِّياغة وأكمل... وذلك سوف يكون عذري لديها، بأنَّني كنت أنصِت باهتهام بالغ إلى ما أخفقا في قوله.

47

[?1914]

فاصلُ مؤلم

كشخص ينظر بعد استغراقه الطّويل في قراءة كتاب، فتضرب عينيّه أشعّة الشّمس الطّبيعيّة العاديّة ضربة عنيفة، لو نظرت إلى نَفْسي فجأة، فسوف يؤلمني إيلاماً شديداً، ويحرقني أن أرى صفاء الحياة الخارجية وما يستقلُّ منِّي عنها، وجودَ الآخرين، موضع الحركات في المكان وارتباط بعضها ببعض. أتعثَّر بمشاعر الآخرين الحقَّة، فيعين خطواتي ويُقيِّدُ حركتَها تصادمُ أنْفُسها مع نفسي، فأنزلق بين أصوات كلماتها وأختفي، وتمسي غريبة، كلَّ الغرابة، على أُذُنيَّ خطاها النَّابِتةُ الواثقة على الأرض الحقَّة، وإيماء أتما الموجودة حقا، وطرائقها الغريبةُ المُعقَّدة في أنْ تكون تنويعاتٍ أخرى وليستْ مجرَّه تنويعاتٍ عنى.

ثُمَّ أَجدُ نَفْسي في إحدى تلك الهاويات التي أُلقي فيها نَفْسي عاجزاً وخاوياً، شاعراً كأنَّني قد مِتُ، على الرَّغم من أنَّني أعيشُ، ظلاً شاحباً ينتحبُ؛ ظلَّا سوف يُلقيهِ أرضاً أوَّلُ نسِم يحلُّ، ثُمَّ غباراً يُبَسُّ عندَ أوَّل لمسة. أسألُ نَفْسي إِنْ كَانَ كُلُّ ذلك يستحقُّ الجهد الذي بدلته في عزل نَفْسي وأصعدُ، إِنْ كانت الجُلجلة البطيئة التي صنعتها من نَفْسي لبلوغ مجدي المصلوب تستحقُّهُ، تستحقُّ لمشقَّة على الصَّعيد الدِّينيِّ. وحتَّى لو عرفتُ أنَّها كانت كذلك في تلك اللَّحظة، فإنَّ شعورَ أنَّها لم تكن جديرةً به، ولن تكون البَّتَة، قد أثقل كاهلي،

48

[1914]

حلمُ مُثلَّث

ارتعشتُ، في حلمي على ظهر السَّفينة - وسَرَتْ في روح أميري البعيد رِعدةٌ مُتوجِّسة. اجتاحَ صمتٌ صاخبٌ ينادي بالويل والثُّبور جوَّ الغرفة المرئيَّ كنسيم باهت.

أضفى كلُّ ذلك وهجاً ساطعاً ومُقلِقاً على أشعَّة القمر فوق المحيط الذي لم يَعُد يهتزُّ ولكنَّه يرتعش؛ بدا واضح –حتَّى قبل أن أسمعها أنَّ سرواتٍ كانت تكبر قُربَ قصر الأمير.

لمَعَ نصلُ أوَّل صاعقة برق غامضاً حول روحي... بلون البرقِ القمرُ الذي فوق البحر المتلاطم، وقصر الأمير الذي لم أَكُنْهُ البتَّة يرتمي في الأطلال وفي الماضي البعيد...

ومثل صوتٍ مُتوعِّد يقترب مسرعاً، تَمَخرُ السَّفينة عُبابَ المياهِ، فأشرقتِ الغرفةُ بالعتمةِ، والأمير لم يمُت، ولم يُقبَض عليه، آهِ، ما الذي جرى لَهُ، وأي شيءٍ باردٍ ومجهول هُوَ الآن قدَرُه؟

49

[?1914]

مازال عيشُ الحياة زُوراً وفي الأحلام يُعَدُّ عيشَ الحياة, فأنْ تتخلَّى هُوَ أن تفعل. وأنْ تحلم هُوَ أن تعترف بضرورة العيش، مستبدلاً الحياة الحقَّة بحياة باطلة، وجذا تكون [تلك الحياة الباطلة] تعويضاً عن عدم قابليَّة الرَّغبة في الحياة.

أَليس كُلُّ هذا في نهاية المطاف سعياً وراء السَّعادة؟ وهل يبحث المرء عن شيء آخر؟

فهل تمنحي أحلام يقظتي المتواصلة، وتحليلي غير المنقطع، أيَّ شيء مختلف في جوهره عمَّا ستمنحني إيَّاه الحياة؟

لم أجد نَفْسي في اعتزال النَّاس، ولا...

هذا الكتاب أحد أحوال الرُّوح، مُحلَّل من كلِّ زاوية، ومدروسٌ وفقَ كلِّ منحى ممكن. فهل سيجلب لي هذا الموقف شيئاً جديداً على الأقلَّ؟ كلَّا، فأنا حتَّى لا أُعزِّي نفسي بذلك. كلُّ شيء موجود مِن قَبْلُ في أقوال هيراقليطس (50) وسِفْر الجامعة. الحياة دُمية طِفل في الرِّمال.. الباطل (57)... وفي سِفْر أيُّوب المسكين، في مُجملة واحدة: قد كرِهَتْ نَفْسي حياتِ (60). وفي حياتِ الله عنه وفي كتابات ياسكال: ...

وعند ڤِيني (59): فيكِ...

وفي أعمال أَمْيِلُ (60)، في أعمال أَمْيِلْ إلى حدٌّ بعيد تماماً: ...

ولدى ڤرلين، والرَّمزيِّين...

كلُّهم مرضى مثلي... حتَّى إنَّني لا أمتلك حظوةَ أن تكون لديَّ ذرَّة أصالة في سَقَمِي... أفعل ما قد فعله آخرون كثيرون من قَبْلي... لقد باتت معاناتي تافهة ومبتذَلة... ولماذا حتَّى أفكر بهذه الأشياء وقد فكَّر فيها آخرون كثيرون من قبلي وكابدوها؟

ولكنَّني أتيتُ بشيء كان جديداً، على الرَّغم من أنَّني لستُ مسؤولاً عن وجوده. لقد جاء من اللَّيل فلمع كنجمةٍ فِيَّ... لم أبذل أيَّ مجهود في صُنعه ولم أمنعه من القدوم... فأنا

⁽⁵⁶⁾ سبق لبِشوّا أن كتب نصاً شدرياً، باللغة الإنكليزيّة، عن هيراقليطس، نشر في العام 1968، رفقة بصوص أخرى، في كتاب بعنوان «مقالات فلسفيّة Textos Filosoficos». ولم أعثر في شدرات هيراقليطس على شدرة بلفظ العبارة التي أترجمها عن الإنكليزيّة، فحسب: «الحياة طفل يلعب، يُحرّك القطع في لعبة. الموكيّة تليق بالطّعل». (المترجم)

⁽⁵⁷⁾ إشارة إلى الآية الثانية من الإصحاح الأوّل من سفر الحامعة. «بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ، قَالَ الْجَامِعَةُ: يَاطِلُ الأَبَاطِيلِ، الْكُلُّ بَاطِلٌ». (المُترجم)

⁽⁵⁸⁾ أوردتُّ العبارة مثلما هي بلفظها في الترجمة العربية للكتاب المقدِّس، سفر أيُّوب، الإصحاح العاشر، الآبة الأولى. (المترجم)

⁽⁵⁹⁾ الشاعر الفرنسي ألفريد دي فيني. (المترجم)

⁽⁶⁰⁾ الفيلسوف الأخلاقي والشاعر السويسري هنري فريديريك أَمْيِل. (المترجم)

جسر بين سرَّيْن، ولا أدنى فكرة لديٌّ كيف شُيِّدتُ...

أَنصتُ إلى نَفْسي تحلمُ. أُهدهدها كي تنام مع صوت الصُّورِ التي اتخيَّلُ... إنَّهُنَّ يتلاشَيْنَ مِنِّى أَلْحاناً تَلتَبسُ.

صوتُ عبارة طافحة بالصُّور جديرٌ بمئة إيهاءةٍ! وتستطيعُ استعارةٌ أن تواسي المرءَ عن أشياء كثيرة!

أُنصت إلى نَفْسي... أسمعُ احتفالات تدورُ فِيَّ. حاشيات... خيوط لَمَاعة في سأمي... حفلات تنكُّريَّةٌ راقصة... أشاهدُ روحي فأذهلُ...

مِشكَالُ متوالياتِ شذريَّة...

أضحت خُيلاء الأحاسيس مبتذلةً جرَّاءَ العيش... أسرَّة ملكيَّة في قلاع مهجورة، جواهر أميرات ميِّتات، خليج صغير لاح عبر شقَّ إطلاق السِّهام في إحدى القلاع، ستعود السَّفائن لا محالة، وقد تكون ثمَّة حاشيات في المنفى، لأولئك الذين لديهم نصيب وافر من الحظِّ... أوركسترات نائمة، وخيوط لصُنع الشَّباك...

50

[?1914]

ومثلها أحلم، فإنَّني أُفكِّرُ أيضاً إنْ كنت قد اخترتُ أن أحلم، فذاك نوعٌ آخر من الحلم، ليس إلّا.

يا أميرَ السَّاعات الخَيِّرة، لقد كنتُ يوماً أميرتَك، فأَحَبَّ أحدُنا الآخَرَ بنوع مختلف من الحُبِّ الذي تجرحني ذكراةً.

51

[1914]

أَنْ نَلَفَّ العَالَم حول أصابعنا، كخيط أو شريط تتلهَّى به امرأة وهي تحلم جالسةً عند النَّافذة. وليس ذلك إلَّا كي نُختبر السَّأمّ بطريقة غير مؤذية.

وسيكون مثيراً أن يكون المرءُ مَلِكَيْن في الوقت ذاته: ليسَ روحًا واحدةً لأحدهما، بل روحيْن.

52

[1914]

أودُّ أن أسنَّ قانون عطالة لزعماء المجتمعات الحديثة.

سيحكم المجتمع نَفْسه عفوياً حين لا يضمُّ أناساً حسَّاسين وأذكياء. ذاك صدِّقوني العائق الوحيد. فلقد عاشت المجتمعات البدائيَّة سعيدةً بها يكفي وفق تلك القاعدة، بصورة أو أخرى.

المشكلة هي أنَّ عزل زعاء المجتمع سوف يؤدِّي إلى موتهم، فهم لا يعرفون كيف يعملون. أو ربَّها يموتون من السَّأم، حيث لم يكُن ثمَّة مُتَّسع كافِ للغباء بينهم. بَيْدَ أنَّ ما أَتحَدَّث عنه شفاءٌ للسَّعادة الإنسائيَّة. فكلُّ قائد يظهر في المجتمع سوف يُنفَى إلى مدينة القادة. سيُطعَمون هناك، كحيوانات في قفص، من لدن مجتمع طبيعيِّ.

صدِّقوني، فحين لا يكون ثمَّة أناس أذكياء يشيرون إلى الأمراض البشريَّة المختلفة، فلن تلحظ وجودَها البشريَّة. فالبشر الحسَّاسون يجعلون الآخرين يذوقون الأمرَّين بدافع الشَّفقة.

ولكنَّ واجب القادة الوحيد، نظراً إلى وجودنا في المجتمع، تقليل مشاركتهم في حياة القبيلة إلى الحدِّ الأدنى. فلا ينبغي قراءة الصُّحف، إلَّا حين نودُّ أن نعرف ما يتعلَّق بشيء تافه أو غريب يحدث؛ لا تستطيعون تخيُّل المتعة الحسيَّة التي تغمرني حين أقرأ الأخبار الواردة من الأقاليم. فالأسهاء وحدها تفتح لي أبواباً على الغامض والمُلتبس.

الحالة الأسمى والأشرف لرجل أسمى كامنةٌ في ألَّا يعرفُ اسم رأس دولته، وألَّا يعرف إِنْ كان يعيش في ملكيَّة أم في جمهوريَّة.

ولا بُدَّ أَن يكون موقفه برمَّته مُنصبُّ على ترتيب روحه حتَّى لا تُقلِقه الأشياء ولا الحوادث. وإذا أخفق في فعل ذلك، فسيضطَّر، من منطلق مصلحته الشخصيَّة، إلى الاهتام مأناس آخرين.

أحملُ أشدَّ الآراء تناقضاً، وأشدَّ المعتقدات تنوُّعاً. وهذا لأنَّني لا أفكِّر البَّة أو أتحدَّث أو أخدَّث أو أفعل... فأحد أحلامي، الذي أُجسِّد فيه لبرهة نفسي، يتحدَّثُ ويفعل الأشياء نيابة عني. أشرع في الحديث فتنطق أناي—الأخرى بدلاً منِّي. ولا أشعر، فيما يخصُّد في المحديث فتنطق أناي—الأخرى بدلاً منِّي. ولا أشعر، فيما يخصُّد في الموى بقصور شديد، وخواء هائل، وعجز في مواجهة كلِّ الذي هو الحياة. لا أعرف الإيماءات المناسبة لأيِّ فعل حقيقيِّ...

فلم أتعوَّد أن أكون موجوداً بتاتاً. أحقِّقُ كلَّ شيء أرغب فيه، طالما يظلُّ في داخلي.

وإذا سألتني إنْ كنتُ سعيداً، فسأقول إنَّني لستُ كذلك...

أُريدُ أن تثير قراءَتُك لهذا الكتاب إحساساً في داخلك بأنَّك عشت كابوساً شَبقياً.

فها كان أخلاقياً ذات مرَّة قد أضحى جمالياً، بالنِّسبة إلينا، في هذه الأثناء... وما كان اجتهاعياً قد بات فردياً...

ولماذا أشاهدُ قدومَ الشَّفق وفِيَّ ألفُ شَفق مختلف -وبعضُ الأَشفاق التي ليستُ أَشفاقاً- مادمتُ، علاوةً على رؤيتها في داخلي، أنا نَفْسي تلك الأشفاق، في الدَّاخل والخارج؟

⁽⁶¹⁾ يبجأ بِسُوّا في هذه الشَّدرة إلى كتابة ضمير المتكّم، العائد عليه، بحرف كبير (Me)، مع أنَّه ليس في مفتتح الكلام الجُملة. كأنَّ الضمير، هنا، ليس ضميراً عائد على كينونة، وإنما كينونة مستقلة، في حدَّ ذاته، منفصلة عن أيِّ فعل. فالضمير هنا، بحرف كبير، هو «الأنا» الحقَّة في مقابل أنه الأخرى Other، أن الآخر الذي يسكن في قرارة نفسه. فالضمير هنا، بحرف كبير، هو «الأنا» الحقَّة في مقابل أنه الأخرى الضمير عن الفعل، وكتابته بخط غامق Bold، للدّلالة لذا، آثرت رقن الكلمة على هذا النّحو، «يخصُّ في»، فاصلاً الضَّمير عن الفعل، وكتابته بخط غامق Bold، للدّلالة على كينونته المستقلَّة، في محاولة للسّير على نهج بِسُوّا نفسه؛ فصل الأنا، وكلَّ ما يتعلَّق بها، عن الفعل في حدَّ ذاته، فهو ليس الذي يقوم بالفعل، وإنَّما أناهُ الأخرى. (المترجم)

كيف تحلم بالغيبيّات

منطق [...] - وكلُّ شيء سوف يغدو سهلاً وَ [...] (62)، فالحُلم، عندي، هُو كلُّ شيء أُحدِّث نَفْسي بأنْ تحلم بشيء فتحلم به. وأخلق أحياناً، في داخلي، فيلسوفاً يضع فلسفاته من أجلي بحرص شديد، أما أنا السَّاعي، فأغازلُ عند نافذة منزله ابنتَهُ التي أُحبُّ روحها. وأنا، بالطَّبع، محصور في حدود معرفتي. فلا أستطيع أن أخلق عالم رياضيَّات... ولكنَّني، رغم ذلك، قانع بمعرفتي التي تسمح بوجود توليفاتٍ لانهائيَّة وأحلام تُعَدُّ ولا تُحصَى. ومَن يعرف، فقد أستطيع بواسطة الأحلام تحقيق المزيد، ولكنَّ الأمر لا يستحقُّ العناء، فأنا في يعرف، فقد أستطيع بواسطة الأحلام تحقيق المزيد، ولكنَّ الأمر لا يستحقُّ العناء، فأنا في أحسن حال كيفها أنا الآن.

سَحَقُ الشَّخصيَّة: لا أعرف ما هي أفكاري أو مشاعري أو شخصيَّتي ... فإنْ كنتُ أشعر بشيءٍ، فإنَّ كنتُ أشعر بشيءٍ، فإنَّني أشعر به في الشَّخص المرئيِّ لمخلوق يتراءى في داخلي. فلقد استبدلتُ نَفْسي بأحلامي. ليس كلُّ شخص إلَّا حُلمه بِنَفْسه، ولكنَّني لستُ ذلك حتَّى.

إيّاكَ أن تقرأ كتاباً حتى النّهاية البتّة، وإيّاك أبداً أن تقرأ الصّفحات تباعاً، دونَ أن تتخطّى. لم أعرف قط ما شعرتُ به. فحين يحدثني النّاس عن هذه العاطفة أو تلك ثُمّ يصفونها، كنت أشعر على الدّوام بأنّهم يصفون بعض روحي، ولكنّني حين كنتُ أفكر في ذلك لاحقا، فإنّ الرّيبة تتسلّل إلى نَفْسي. لا أعرف البتّة إنْ كان الشّخص الذي أشعر بأنّه نَفسي سيكون فإنّ الرّيبة تتسلّل إلى نَفْسي، لا أعرف البتّة إنْ كان الشّخص الذي أشعر بأنّه نَفسي سيكون الصفحة الأخيرة، وصاعد حتى رأسها) يضع بشؤا لفظة «منطق Raciocini» في بداية الصفحة الأولى ثمّ يض فاصلة بعدها مباشرة ثمّ يترك فراغاً طويلاً بعد الفاصدة، ويضع عبارة «كلّ شيء سيغدو سهلاً Mido será facil e في نهاية الشفحة الأولى ثمّ يض ولا المستقدة الأولى ثمّ يض في نهاية الشفحة الأولى ثمّ يتن في المناسبة إلى بعض الناس «ثانويّة» أو «للبست ذات قيمة»، ولكنّني أرى أنّها «أساسيّة» في عمل بسُؤا «الشّذي المناسبة» في عمل بسُؤا «الشّذي المناسبة» في طبحتهما المختلفتين، الله استخدم الرّمزين إلى المنابك الذي دوّن به يسؤا هذا النصّ الطويل)، في حين لجات تويزا سوبراو كونيا إلى وصع فاصلة في الحظ المُتعرّج المتشابك الذي دوّن به يسؤا هذا النصّ الطويل)، في حين لجات تويزا سوبراو كونيا إلى وصع فاصلة والسية معلى تعدُد قراءات «المتاهة الشّذريّة» إن جاز في القول لهذا الكتاب، حمّد داخا اللغة اله تغالثة نفسها. (المرجع) على سيس المثال لا الحمر تلا

أنا حقاً، أمْ إنَّني مَا أُفكِّرُ في أنّني هُو، ليس إلَّا. أنا جُذاذاتُ شخصيًّات من أحلامي. كلُّ جهد بلا طائل، ولكنّه يجعل الوقت يمرُّ. المنطق عقيم، ولكنّه يُسلِّ. الحُبُّ مُضجِر، ولكنّه مُفضَلٌ على عدم العَيْش (بَيْد أنَّ الحُلم، على أيِّ حال، يستبدل كلَّ شيء). تستطيع، في مُفضَلٌ على عدم العَيْش (بَيْد أنَّ الحُلم، على أيِّ حال، يستبدل كلَّ شيء). تستطيع، في خلمي، الأحلام، التللذُّذَ بفكرة الجهد دون الحاجة الفعليّة إلى القيام بأيِّ جهد. أستطيع، في مُحلمي، خوضَ المعارك دون أن يعتريني خوفٌ أو أن أُجرَح بتاتاً. أستطيع التَّفكُرَ، دون توقع الوصول إلى أيِّ حقيقة، ودون أن أتكدَّر حين لا أصلُ البتَّة؛ فمن دون التَّفكير، سوف أحلُّ كلَّ معضلة، عارفاً [في قرارة نَفْسي] آنني لن أفعل على الإطلاق... أستطيع أن أحبَّ دون أن أُرفضَ أو أتعرَّض للخيانة أو أكون مكروهاً. أستطيع تغيير حبيبتي دون حتى أن تتغيَّر هي بتاتاً. وإنْ أردتُ أن تخونني أو تهجرني، فإنّني أستطيع أن أجعل ذلك يحدث على نحو ما أريدُه بالضَّبط وبالطَّريقة التي تمنحني المُتعة الأعظم. أستطيع، في الأحلام، خوض نحو ما أريدُه بالضَّبط وبالطَّريقة التي تمنحني المُتعة الأعظم. أستطيع في الأحلام، خوض غار القلق (قا العظيم، والعذابات العظيمة، والانتصارات العظيمة. أستطيع خوض غار كلَّ هذه الأشياء كأنَّها واقعة في الحقيقة؛ وذلك يعتمد، في المقام الأوَّل والأخير، على قُدرتي في جعل الحُلم واضحاً، ومُشرقاً، وحقيقياً. وهذا يتطلَّب صبراً جُوَّانياً ومثابرةً تبذل كلَّ ما وسعها.

ثمّة طرائق غتلفة للحُلم. إحدى هذه الطَّرائق أن تُسلِم نَفْسك لأحلامك تماماً، فلا تحاول أن تجعلها واضحة، تاركاً إيَّاها في شَفَقِ أحاسيسك الغامض. وهذا نهج دُونِيُّ ومُنهِكُ أيضاً، فهو رتيبٌ ولا يتغيِّر على الإطلاق. ثُمَّ هناك الحُلم الواضح المباشر، ولكنَّ الجهد المبذول لتوجه الحُلم يسلِّط الضُّوء على البراعة. ولا يحتاج الفنَّان الأسمى، الحالم مثلي، إلَّا إلى رغبة أن يجري الحُلم بطريقة مُعيَّنة، ماضياً وفق أهوائه... فيتجلَّى أمامَهُ مثلها اشتهى أن يكون، بلا زيادة أو نقصان، ولكنَّه لا يتخيَّل البتَّة أنَّه سوف يتجشَّم كلَّ ذلك العناء. فلنفترض أنَّني رغبتُ في أن أحلم بأنَّني مَلِكُ... فهأنذا، ملكُ هذا البلد أو ذاك. سوف يخبرني الحُلم أيَّ بلد أختار أو أيَّ نوع... فأنا أسيطر على ما أحلم به، في تلك اللَّحظة، حتَّى إنَّ أحلامي أيَّ بلد أختار أو أيَّ نوع... فأنا أسيطر على ما أحلم به، في تلك اللَّحظة، حتَّى إنَّ أحلامي غرِّة، كلَّ ما أريدُ. وغالباً ما تكون الأحلام واضحة، جليَّة الوضوح، نقرتبُ تسلسل الأحداث الغامض، الذي تستقبله منِّي، على نحو مثاليً. لستُ قادراً على أن

⁽⁶³⁾ وعنا، أيضاً، ترد لفظة « لقلق» بصيغة الجَمْع. (المترجم)

أَتَخَيَّل، بصورة واعية، العصورَ الوسطى للحقبِ الزَّمنيَّة المختلفة وكرات الأرض المختلفة التي رأيتُها في أحلامي. أذهلني فيُض المختِّلة الذي لم أعرف قَطُّ أنَّه لديَّ وأنَّ أحلامي تتجيَّ لي أتركُ أحلامي سادرة في طريقها (١٠٠)... إنَّها دائماً ما تفوق توقعًا في. إنَّه دائماً أكثر جمالاً بمَّ أَمِلتُ، ولا يصل إلى هذا المقام إلَّا الحالمُ المُجرِّبُ. ولقد بدَّدتُ سنينَ حالماً، أبحث عن تلك الحبرة. وهَا قد ظفرتُ بها الآن، بلا حول منِّي ولا قوَّة...

وأفضل طرائق البَدْءِ في الحُلم عبر الكُتُب، فالرِّوايات مفيدةٌ، كلَّ الفائدة، للمبتدئين. الخطوة الأولى: تعلَّم الاستسلامَ بِكُلِّيَتكَ إلى ما تقرأ، والعيشَ جنباً إلى جنبِ مع الشُّخوص الموجودين في الرِّواية. إنَّما علامةٌ على ارتقاءِ الشُّعور إلى الحَدِّ الذي يجعلكُ تشعرُ أنَّ عائلتك الخاصَة وأحزانها تافهةٌ ومُنفِّرة مقارنةٌ بتلك الشُّخوص المُتخيَّلة.

ومن الأفضل تجنُّب الرِّوايات الأدبيَّة حين يكون شكلُ الرِّواية قد شتَّت انتباهك. ولا أخجل من الاعتراف بأنَّني، أنا نَفْسي، قد بدأت على هذا المنوال. ومن الغريب كفايةً أنْ أكونَ قد انجذبتُ، رغم ذلك، إلى الرِّوايات البوليسيَّة على نحو غريزيِّ.

لا أستطيع في الحقيقة التَّركيز على الرِّوايات الرُّومانسيَّة البَّنَة، ولكنَّها مسألة ذوق شخصيٍّ، وذاك لأنَّني لستُ من النَّوع الرُّومانسيِّ، ولا حتَّى في أحلامي. لا بُدَّ لكلِّ واحد منَّا، إذَن، أن يصقل ميولَهُ الحَاصَة. وتذكَّروا دائهاً: أن نحلم هُوَ أن نُفتِّش عن أنفسنا. ولا بُدَّ للشَّهوانيِّ اختيارُ الكتب التي تكون على النَّقيض عَمَّا سوف أختارُ.

نستطيع القول -حين يذوق الحالم بهجة إحساس فيزيقيِّ حقيقيِّ - إنَّهُ قد ذهب أبعدَ من الطَّوْر الأوَّل من الحُلم. أقصدُ: حين تتركُ روايةٌ، تتحدَّث عن شجارات وتحليقات ومعارك، حسدكَ مكدوماً بلا ريب، وساقَيْك مُنهكتَيْن، تكون إذَّاكَ قد وصلت إلى الطَّور الأوَّل. أمَّا الشَّهوانيُّ، فيتوجَّب عليه، في هذه الحالة -لائذاً بالاستمناء الذِّهنيِّ - أن يذوق لذَّة القذف حين تحدث مثل تلك اللَّحظة في الرَّواية.

ثُمَّ يتوجَّب عليه محاولة نقل هذا كلَّه إلى الصَّعيد الدِّهنيِّ. فلا بُدَّ للقذف، في حالة الشَّهوانيِّ (وأختار هذا المثال لأنَّه الأكثرُ عنفَّ وتطرُّفاً) أن يُحسَّ دون أن يجدث فعلاً. سبكون الشَّهو الذي يعقب ذلك أعظم، ولكنَّ اللَّذةَ ستكون أشدَّ إلى حدِّ بعيد.

⁽⁶⁴⁾ تقول العرب: «سَدُرَ في البلاد: ذهبَ ولم يُثْنِهِ شيءٌ». (المترجم)

وسوف تكون جميع الأحاسيس ذهنيَّةً في الطُّور الثَّالث. ستتعاظم اللَّذة ويتعاظم التَّعَب، ولكنَّ الجسد لن يكون قادراً على الشُّعور بأيِّ شيء بعد ذلك البثَّة، فلا تعود أوصالك تشعر بالضَّعف، ولكنَّها قدرتك العقليَّة وأفكارك وعواطفك التي تشعر بالرَّخاوة والوهَن... ويكون الوقت، في هذه المرحلة، قد حان للانتقال إلى الطَّور الأعلى من الحُلم.

والطُّور الرَّابِع هُوَ أَنْ تُبدع رواياتك الخاصَّة. ولا يتوجَّب عليك محاولة ذلك إلَّا حين تكون قد نجحت -مثلها قلتُ سابقاً- في عَقْلَنة الحُلمَ تماماً. وإلَّا فإنَّ أيَّ جهد أوَّليِّ تبذله كي تبتدع رواياتٍ سوف يحول دون العقلنة المُثلَى للَّذَة.

(صعوبات مُعيَّنة)

طُورٌ ثالث

وما عليكَ، حين تكون قد درَّبتَ مُخيِّلتك، سوى الرَّغبة في أن تحلم بشيء، فتحلم المخيِّلة الحُلمَ الذي اشتهيئة. وليس ثمَّة، في هذا الطَّور، أيُّ تعب ذهنيٍّ أو يكادُ. تَمَّحي الشَّخصيَّةُ إِذَاكَ الحُّاء كاملاً. لسنا سوى رُفاتٍ مُنِحَت روحاً، يفتقرُ إلى الشَّكل – ولاحتَّى شكلَ الماء؛ الشَّكلَ الذي يستمدُّه من الوعاء الذي يحمله. وقد تتجلَّى في داخلنا، عندما يستقرُّ كلَّ شيء الشَّكلَ الذي يستمدُّه من الوعاء الذي يحمله. وقد تتجلَّى في داخلنا، عندما يستقرُّ كلَّ شيء في مكانه، مسرحيَّاتٌ دراميَّة تتطوَّرُ، سطراً إثر سطر، مُستقلَّة على نحو مثاليُّ. وقد لا نحتاج حين ذإلى تدوينها. سنكون قادرين على الابتداع بطريقة غير مباشرة: نتخيَّل في أنفسنا شاعراً يكتب، ولسوف يكتب بأسلوب مُعيَّن، في حين قد يكتب شاعر آخر بأسلوب آخر. أستطيع يكتب، ولسوف يكتب بأسلوب مُعيَّن، في حين قد يكتب شاعر آخر بأسلوب آخر. أستطيع في هذه اللَّحظة، وقد صقلتُ هذه المهارة حتَّى الدَّرجة التَّاسعة، أن أكتب بجميع الأساليب في هذه المتحدية التي ستكون أصيلةً جميعاً.

ولن نبلغ الطَّور الأعلى للحُلم إلَّا حين نعيش في الوقت ذاته حيوات الشُّخوص الذين ابتدعناهم جميعاً - فنحن تلك الأرواح معاً وتفاعُليًا.

ويه للدَّهشة كيف يُبدِّدُ هذا الشَّيءُ شخصيَّةَ الرُّوح، كيف يجعلها رُفاتاً! وإنِّي لأعترف بأنه من الصَّعب ألَّا نستسلم حينئذٍ للإعياء الكليِّ الذي يجتاح كينونة المرء على بكرة أبيها. ولكنْ، يا لَهُ من نَصْر! وهذا هُوَ الزُّهْدُ الوحيدُ المُمكِنُ. لا ينطوي على إيهانٍ، ولا حتَّى على إلهٍ. أنا صنو إله.

55

[91914]

منظر طبيعيٌّ في المطر

مع كلِّ قطرةِ مطرِ تبكي معَ الطَّبيعةِ حياتي التي أخفقَتْ. ثمَّة شيء مِن قلَقي في انهار المطر ثَجِيجاً لا يكفُّ، فَيُفرغُ النَّهار بهِ حزنَهُ عبثاً على الأرض.

إنَّهَا تَمطر وتمطرُ. تخضلُّ روحي وهي تصغي إلى المطر. مطرٌ غزيرٌ… يسيلُ جسدي ماءً حول وعيى بهِ.

بَرْدٌ شدَيدُ الوطأةِ يُطبِقُ يديهِ الجليديتين على قلبيَ المسكينِ. والسَّاعاتُ، رماديَّةً و[...]، تمتدُّ في الزَّمنِ؛ واللَّحظاتُ تطولُ. كيف تمطرُ!

بَصَقتِ المزاريبُ فُيوضاتِ صغيرةً من ماءٍ فجائيًّ. والصَّوت المزعج للماء الذي يندفَّق في الأنابيب ينفذ إلى عقلي. يدقُّ المطر زجاج النَّوافذ، بلا هوادةٍ، مُلتاعاً من الأسى؛ في الـ [...].

يدٌ باردةٌ تأخذُ بخِناقي فتمنعني من تنفُّس الحياة.

كلُّ شيء فِي يموتُ، حتَّى المعرفة التي أستطيع أن أحلمَ بها تموتُ! لا أشعر أنَّ جسديٍ على خيرِ ما يرامُ. كلُّ الأشياء المُريحة التي أستندُ إليها تجرحُ بأطرافها الحادَّة روحي. وكلُّ نظرةٍ أرمقُها قد عتَّمَتُ، هزمها ضوء هذا النهار الفقير الذي تهيَّأ كي يموتَ في هذي اللَّحظة ميتةً بلا ألم.

إِنَّ امتلاكَ شغفِ (60) وآراء وغرائزَ مُحدَّدة وراسخة، وشخصيَّة ثابتة ومعروفة، يؤدِّي إِلَى رَعْبِ جَعْلِ ووحِنا حقيقة، جعلِها ماديَّة وبرَّانيَّة. وإنَّ العيش في حالة ماتعة وسيَّالة من الجهالة بالأشياء والنَّفْس هي الطَّريقة الوحيدة للحياة المضمونة كي تناسب هذا الطَّوْر وتجلب لَهُ الرَّاحة.

وإنَّ القُدرة على التَّديُّل المتواصل بين النَّفْس والأشياء الأخرى تُعبِّر عن أعلى درجات المعرفة والتبصُّر.

ولا بُدَّ لشخصيَّتنا أن تكون عصيَّةً على النَّفاذ حتَّى على أنفسنا: ولهذا ينبغي أن يكون واجبنا دائهاً أن نحلم، وأن نُشرك أنفسنا في أحلامنا، حتَّى يكون من المستحيل علينا أن نتشبَّث بأيِّ رأي يتعلَّق بأنفسنا.

ولا بُدَّ أَن نحمي شخصيَّتنا على وجه الخصوص وأنَّ نمنع الآخرين من اقتحامها. فأيُّ اهتمام يُبديه الآخرون بنا هو فظاظة فادحة. إنَّ الشَّيء الوحيد الذي يمنع التَّحيَّة اليوميَّة، «كيف الحال؟»، مِن أن تغدو إهانةً لا تغتفر هَوَ حقيقةُ أنَّها في العموم فارغةٌ ومنافقة تماماً.

أَنْ نُحبَّ يعني أَنْ نتعبَ من كوننا وحيدين، لا أكثر: ولهذا فإنَّ الحُبَّ جُبنٌ وخيانة لأنفسنا على حدِّ سواء. (فمن الأهميَّة القصوى ألَّا نُحبُّ).

أَنْ تُسدي لشخص نصيحةً ذهبيَّة أَنْ تُبدِي استخفافكَ التَّامَّ بالقُدرة التي وهبها الله لذلك الشّخص على أقتراف الأخطاء. ولا بُدّ، علاوة على ذلك، أن تظلّ أفعال الآخرين

(66) في الأصل البرتغالي بصيغة الجُمع ipaixões وكذلك في الترجمة الإنكليزيَّة: passions. (الترجم)

⁽⁶⁵⁾ على الرُغم من أنَّ بيسارُو قد سار في الطبعة البرتغالية التي وضعه على نهج بسُوًا نفسه في القصاصات التي دوَّن فيها أقواله المَاثُورة/حِكُمِه Maxims (في البرتغاليَّة: Maximas) هذه، واضعاً شُرطةً صغيرة في مفتتح كلَّ قول، فاصلاً بيسها بمساحات بيضاء، فإنَّ جول كوستا، في ترجمتها الإنگليزية هذه التي تعتمد، في الأصل، على طبعة بسارُّو، قد آثرت عدم الاقتداء بذلك، مكتفية بذكر القول في فقرة مستقلة، مع المحافظة على المساحات البيصاء بين كل قول و آخر. وعلى نهج حول كوستا، هذا، سارت سوبراو كونيا في الطبعة البرتغاليَّة التي حرَّرته، فيما اقتدى برادو كويلو و زينيث، في طبعتَهِما، بنهج بِسُوَّا نفسه. (المترجم)

محتفظةً بميزة أنَّها ليست أفعالنا. السَّبب الوحيد المُحتمل لطلب النّصيحة من الآخرين هو أن نعرف -حين نفعلُ في وقت لاحق خلاف ما أخبرونا به بالضّبط- أنّنا نحن أنفُسنا حقاً، ونتصرَّف في تناقُضِ تامٌ مع كُلٌ ما هُوَ آخَو،

الميزة الوحيدة للدِّراسة أنَّ نستمتع بجميع الأشياء التي لم يقلُها الآخرون.

الفنُّ صَنِيعُ عُزلةٍ. فلا بُدَّ أن يسعى كلُّ فنَّانٍ إلى عزل الآخرين، إلى أن يملأ أرواحهم بالرَّغبة في أن يكونوا وحيدين. فالنَّصر الأعظم الذي يظفر به الكاتب أنْ يحظى بقارئٍ يختار أن يقتني كتُبَه، من دون أن يقرأها، فحسب. وليس لأنَّ هذا هو ما يحدث للكتَّاب العظام، وإنَّما لأنَّه التَّقدير الممكن الأعظم...

أنْ تكون جلياً يعني ألَّا ينحرفَ مزاجُك تجاه نَفْسك. فالحالة العقليَّة الشرعيَّة الوحيلة حين ينظر المرءُ في نَفْسه فلا يرى سوى حالة شخص لا يرى سوى الأعصاب والحِيرات.

الموقف الفكريُّ الوحيد الجدير بمخلوق أسمى هو شعور المرء بعاطفة هادئة ورائعة تجاه كلِّ شيء ليس نَفْسَهُ. وهو لا يعني بالضَّرورة أنَّ هذا الموقف يحمل طابع ما هو عادل وحقيقيٌّ، ولكنَّه موقف مُثير للحسد، فينبغي للمرء أن يمتلكه.

57

[\$1914]

خُلم مُثلَّث

استحال الضَّوءُ أصفرَ على مهلهِ، أصفرَ مُسرِفاً في صُفرته وقد لطَّخه الرَّماديُّ. والبرانخ التي بين الأشياء قد طالتُ، والأصواتُ التي كانت متباعدة على نطاق أوسع من المعتاد قد دوَّتْ متقطَّعةً، ثُمَّ توقَّفتْ فجأةً كأنَّها قد مُنِعَتْ من أن تُدَوِّي. كان الحَرُّ الذي بدا أنَّه قد تعاظم حَرّاً وبرداً على حدٍّ سواء. أستطيع أن أرى في الشَّجرة الوحيدة المرئيَّة، عبر شنَّ قد تعاظم حَرّاً وبرداً على حدٍّ سواء. أستطيع أن أرى في الشَّجرة الوحيدة المرئيَّة، عبر شنَّ

في المصاريع، هواءَ انتظارٍ مُسرِفاً في انتظاره. كانت خضرة الشَّجرة خضرةٌ مختلفةً، طافحةً بالصَّمت مثلما هي طافحة باللَّون. أطبقتْ في الجوِّ على نَفْسها البتلاتُ. والشُّهول التي في التَّكوين الفعليِّ للمدى قد انتقلَتْ وشقَّتِ الوشيجة بين الأصوات والأضواء والألوان.

58

[\$1914]

أفكرُ في بعض الأحيان، وقد غمرتني مسرّةٌ متناقضة، في إمكانيَّة أن نُوجِد في المستقبل جغرافيَّة لوعينا بالنَّفُسنا. سيكون مؤرِّخُ مشاعر المستقبل، مثلها أرى، قادراً ربَّها على أن يُغيِّر موقفه تجاه وعيه بروحه وتحويله إلى علم مُحكم ودقيق. ولكنَّنا مازلنا، في غضون ذلك، أغراراً في هذا الفنِّ الصَّعب، فهو لايزال مجرَّد فنِّ، كيمياء مشاعر لم تتجاوز الخيمياء كثيراً. سيمتلك عالمُ عالمُ الغَدِ، هذا، حساسية خاصَّة بحياته الجوَّانيَّة. سيصنع من نَفْسه الأداة اللَّقيقة اللَّزمة للتَّحليل الذي يُجريه. لا أرى صعوبة عظيمة في صُنع أداة للتَّحليل الذَّاقيِّ من فواليذ الفِكر وقطع برونز حقيقيَّة، ولكنَّها من فواليذ الفِكر وقطع برونز حقيقيَّة، ولكنَّها صن فواليذ وقطع برونز حقيقيَّة، ولكنَّها الضَّرورة أن يتفتَّق ذهن المرء عن فكرة أداة دقيقة، ثُمَّ يرى تلك الفكرة مُتجسِّدة أمام ناظريه الضَّرورة أن يتفتَّق ذهن المرء عن فكرة أداة دقيقة، ثُمَّ يرى تلك الفكرة مُتجسِّدة أمام ناظريه قبل أن يكون قادراً على المُضِيِّ قُدماً في أيِّ تعليل صارم لذاته. ولسوف يكون من الضَّرورة أيضاً، بطبيعة الحال، تحويل الرُّوح إلى مادَّة محسوسة يُطوِّقها فضاء تستطيع أن تُوجَد فيه. ويعتمد هذا كلُّه على تنقية مشاعرنا الجَوَّانيَّة تنقية عظيمة؛ مشاعرنا التي سوف تعمد إلى أن تُوبَد فيه. ويعا أو تخلق، دون ريب، حين تبلغُ حدَّها الأقصى، فضاءً أصيلاً يشبه الفضاء الذي وبَحد فيه الأشياء المحسوسة ولكنَّه، في الحقيقة، لا يُوجَد بوصفه شيئاً في حدَّ ذاته.

ولا أعرف، بالضَّبط، إن كان سيغدو هذا الفضاء (67) الجُوَّانيُّ مجرَّد بُغدِ آخَر للفضاء الآخَر. ربَّما سوف تكتشف البحوث العمليَّة المستقبليَّة أنَّ كلَّ شيء، سواءً أكان محسوساً أمْ روحانياً، هو مجرَّد بُعْدِ للفضاء ذاته. فنحن نعيش جسداً في أحد الأبعاد، في حين نعيش روحاً في البُعْد الآخَر. وربَّما ثمَّة أبعاد أخرى قد نختبر فيها مظاهرَ حقيقيَّةً أخرى من أنفسنا

⁽⁶⁷⁾ أستخدم كلمة الفصاء space، سواء في هذا المقطع أو في غيره، بمعنى المكان الو سع. (المترحم)

على حدِّ سواء. أستمتعُ أحياناً في ترك نَفْسي تَحَمَّن بعيدا على جناح هذا التامّل العقيم حول المدى الذي قد يقودنا إليه هذا البحث.

ربيًا سوف يكتشفون أنَّ ما ندعوه مقدساً، الموجود بوضوح في مستوى آخر من ذلك الواقع المنطقيِّ المكانيِّ والزَّمانيِّ، هو مجرَّد طريقة أخرى من طرائق كينونتنا، إحدى الطَّرائق التي نختبر بها أنفسنا في بُعْد آخر من الوجود. وهذا لا يبدو مستحيلاً في رأيي. وقد تكون الأحلام بُعْداً آخر نعيش فيه أو حتَّى تداخلاً بين بُعْدَيْن. ومثلها يُوجَد الجسد في الارتفاع والعرض والطُّول، فمن يدري ألَّا تكون أحلامنا موجودة في الفضاء في الوقت ذاته، في العالمَ المثاليِّ وفي الأنا العُليا: تمثيلها المحسوس في الفضاء؛ وتمثيلها غير المحسوس في العالمَ المثاليِّ ودورها كمظهر حميم لأنفسنا في الأنا العُليا. حتَّى إنَّ كلَّ «أنا» كلِّ شخص قد تكون المثاليُّ ودورها كمظهر حميم لأنفسنا في الأنا العُليا. حتَّى إنَّ كلَّ «أنا» كلِّ شخص قد تكون الميا أخر. وهذا كلَّه في غاية التَّعقيد، ولكنَّه سيُحلُّ عاجلاً أم آجلاً دون ريب. ولعلَّ الحالمِن اليومَ هُمُ الأسلافُ العِظامُ للعِلم المستقبليِّ المُطلق، على الرَّغم من أنَّني لا أومن بأيُ عِلم مستقبليٍّ مُطلَق. ولكنَّ ذلك لا علاقة له بالمسألة مدار البحث.

وأَخترع أحياناً غيبيًّات، كهذه، بكلِّ الانتباه الشَّديد الحِرص، النَّامِّ عن التَّوقير، الذي يُوليه شخص منهمك في عمل علميٍّ أصيل. ومن الممكن، مثلها قلتُ سابقاً، أن أصل إلى المرحلة التي قد أفعل فيها كلَّ ذلك بالضَّبط. والشَّيء البالغ الأهميَّة هو ألَّا تمشيَ في الأرض مَرَحاً جرَّاء ذلك كلِّه، فالخُيلاء تضرُّ بالحياد الصَّارم للموضوعيَّة العلميَّة.

59

[\$1914]

مِلِّيمتراتٌ (معاينة الأشياء المتناهية في الصُّغَر)

أعتقد أنَّ الحاضر قديم، مُوغل في القِدَم، لأنَّ كلَّ شيء، حين وُجِدَ، قد وُجِدَ في الحاضر فحسب، وبناءً عليه، ولأنَّ جميع الأشياء تنتمي إلى الحاضر، فإنَّني أشعر، تجاه الأشياء جبعاً بشغف عالم الآثار، وغضب جامع القطع الأثريَّة المُحبَط الذي يعتقد أنَّ العالم ينبذ الأخطاء الني ارتكبتُها بحقِّ الأشياء، بتقديم تفسيرات عمليَّة مُبرَّرة ومنطقيَّة، حتَّى إنَّها قد تكون حقبقيَّة ببدو الوضعيَّات المتعاقبة المختلقة، التي تتَّخذها فراشةٌ حين تطير عبر الهواء، لعنيً

الدَّهشتَيْن، كأنَّها لحظاتٌ منفصلة مازالت مرئيّة في الفضاء. وإنَّ ذكرياتي ساطعة حتَّى إنَّها [...]

ولكنّني لا أختبر، بحدّة، إلّا المشاعر في حدودها الدُّنيا تجاه الاشياء المتناهية في الصّغر. ولابُدّ أن يكون هذا نابعاً من حُبِّي للعقيم أو ربّا من شغفي بالتَّفاصيل. ولكنّني أعتقد ولا أعرف؛ فهذه أشياءٌ لم أُحلّلها قَطُّ بها أنَّ المُتناهيَ في الصَّغَر لا يتمتّع بأيِّ قيمة اجتماعيّة أو عمليّة على الإطلاق، فإنّه ربّا، للسّبب هذا بعينه، مُتحرّرٌ من أيِّ صلات دنيئة بالواقع بتاتاً. كلَّ الأشياء، لديَّ، بطعم اللّاواقعيِّ. فعديم الجدوى جيلٌ لأنّه أقلُ واقعيّة من المُفيد الذي يتمتّع بوجود متواصل ودائم؛ في حين أن العديم في جدواه على نحو بديع، المتناهي في الصّغر على نحو بهيٍّ، يظلُّ حيثُ هُوَ، ولا يذهب أبعدَ ممّا هُوَ عليه، ويعيش حُرّاً ومستقلاً. الصّغر على نحو بهيٍّ، يظلُّ حيثُ هُوَ، ولا يذهب أبعدَ ممّا هُوَ عليه، ويعيش حُرّاً ومستقلاً. يخلقُ عديم الجدوى والعقيم برازخَ بَمالٍ مُتواضِع في حيواتنا الحقّة. فالوجود الوضيع المُجرّد لدبُّوسٍ شُكَ في شريطٍ، يستثيرُ في روحي كلَّ أنواع الأحلام والمسرَّات العجيبة! أشفق على أولئك الذين لا يُدركون أهيّة هذه الأشياء!

وثمّة، من تلك المشاعر الجارحة الأعقد والأشيع، ذلك الشَّعور اللَّذيذ في حدِّذاته أو يكادُ؛ إنه القلَق الذي يثيره سرُّ الحياة. وليس من السَّهل بتاتاً اكتشاف ذلك السرِّ، مثلها هي الحال في تأمُّل الأشياء البالغة الصِّغر التي تكون، لكونها لا تتحرَّك، شفَّافة على نحو مثاليٍّ، إنَّها تتوقَّف كي يمرَّ السرُّ. والأصعب هُو اختبارُ أيِّ إحساس بالسِّرِّ حين نتأمَّل معركة ومع ذلك، فإنَّ تدبُّر عبثيَّةِ أن يكون ثمَّة أناس ومجتمعات ومعارك تدور بينهم هو ما يقدر، بكلِّ سهولة، على دفعنا إلى نشر راية النَّصر والاحتفاء بِغلَبة السِّرِّ أكثر من تأملنا حجراً واحداً صغيراً في الطريق، ولأنَّهُ لا يستثير أيَّ فكرة فيننا أبعدَ من حقيقة وجوده، فإننا إذا واصلنا التَّفكير، لا يستطيع أن يُخفِق في أن يستثير فينا الفكرة التي تنثال من هُناك عي الفور، أقصدُ: سرَّ وجوده. طُوبَي للمَّخات، ولظلالِ كلِّ الأشياء المتناهية في الصِّغر، التي هي أشدُّ هذه الأشياء تواضعاً الحظات [. . . .]

مِلِّيمترَات - وجودها جنباً إلى جنب، بعضُها قُربَ بعض على المسطرة، يستنهضُ فِيَّ انطباعَ تعجُّبِ وجُرأة. تؤلمني مثل تلك الأشياء، في بعض الأحيان، وتجلب لي المسرَّة على حدُّ سواء. أشعرُ بنوع من الكبرياء المثيرة في هذا كلَّه.

أنا لوحٌ فوتوغرافيٌّ حسَّاسٌ لا حدَّ لَهُ. كلُّ تفصيلة متناهية في الصَّغَر قد سُجِّلَتُ فِيُّ وَكُبِّرَتُ لتكونَ جزءاً من كُلِّ. لا تعنيني إلَّا نَفْسي. فالعالَم الخارجي، بالنِّسبة إليَّ، إثارةٌ محضةٌ. ولا أنسى ما أستطيع أن أشعر به البيَّة.

60

[*1914]

أَنْ أُقِيمَ فِيَّ دُولَةً لِمَا نظامُها السِّياسيُّ الخاصُّ وأحزابها السياسيَّة الخاصَّة وثوراتها الخاصَّة، وأنْ أكون كلَّ هذه الأشياء جميعاً، أن أكون إلها في وحدة الوجود الملكِيَّة لـ «أناللَّعُبُ» تلك، وجوهرَ أجسادهم وسلوكهم، وأرواحَهم، والأرضَ التي يمشون عليها والأشياء التي يقومون بها. أنْ أكونَ كلَّ شيء، أنْ أكُونَهم وألَّا أكُونَهم على حدًّ سواء. آه، هذا حُلم لم أقترفه بَعْدُ. وإنْ فعلتُ، فقد أموتُ، لا أعرف لماذا، بَيْدَ أنه لا يتوجَّب على المرافقة أن يعيشَ بعد اقتراف مثل ذلك التَّدنيس، مثل ذلك الاغتصاب للقوَّة الإلهيَّة في أن يكون كلَّ شيء.

يا لُلمسرَّة التي سوف تغمرني حينَ أُقيمُ يَسُوعِيَّةَ الحواسِّ!

بعض الاستعارات أكثر واقعيّة من النّاس الذين ترونهم يمشون في الشّارع. وبعض الصور الدِّهنيَّة، التي يجدها المرء في الكتب، مفعمة بالحياة أكثر من أغلب الرِّجال والنّساء وتمتلك بعض العبارات الأدبيَّة فردانيَّة إنسانويَّة مُطلقة. وتُرْعِدُنِي أجزاءٌ من فقراتٍ مُعيَّة كتبتُها، فهي تتراءى في كأنّها بشرٌ، مُظلَّلة بوضوح على جدران غرفتي، اللّيل، العتمة... ولقد كتبتُ بُمَلاً، سواءً قُرئَتْ بصوتٍ عال أمْ خفيض، فإنَّ صوتَها الذي يستحيل حجبُه، صوتُ شيء اكتسب لا محالة مظهرة الخارجي المُطلق، وروحَهُ التّامَّة الخالصة.

ولماذا أضع في بعض الأحيان طرائق متناقضة ومتنافرة للحُلم وتعلَّم أن نحلم؟ ربَّمَا لأَنني قد كبرتُ متعوِّداً على اختبار الزَّائف بوصفه حقيقياً، والمَحلُومَ به بوصفه شيئاً قد رأيته بأمِّ عينيَّ، وبأنَّني قد فقدتُ القُدرة الإنسانيَّة -الجوفاء، على ما أعتقد- للتَّفرين بين الحقيقة والأكاذيب.

ولا أحتاجُ لرؤية الشِّيء جلياً؛ إلا أن أراهُ بعينيَّ أو أُذنيَّ أو بعض حواسِّيَ الأخرى، حنَّى

أُقتحمَ لُجَّتَه كَأَنَّه شيء حقيقيُّ. وقد أشعر أنَّني أرى شيئيْن منفصلَيْن كُليَّةً في الوقت ذاته، غيرَ أنِّي لا أكثرتُ.

ثمّة مخلوقات قادرة على مكابدة المعاناة ساعات طويلة لأنّها لا تستطيع أن تكون شكلاً في رسمة أو على أوراق اللعب، فحسبُ. وثَمّ أرواحٌ تُثقِل كهلَها، كاللّعنة، استحالة أن تكون شخصاً من العصور الوسطى. فلقد شعرتُ بذلكَ مرَّة، بَيْدَ أَنْ ليسَ بَعْدُ. ذهبتُ أبعدَ من ذلك كُلّهِ. ولكنّني لم أعُد أتوجَّعُ حين لا أكون قادراً مَثلاً على أن أحلمَ بمَلكَيْن من المكان على عند فقتين، ينتميان، على سبيل المثال، إلى كونَيْن مختلفَيْن بنوعَيْن مختلفَيْن من المكان والزَّمان. يؤلمني ألّا أكون قادراً على ذلك حقاً. كأنَّ الجُوعَ يفوحُ.

وأنْ أكونَ قادراً على أن أحلم بالمُحَالِ وأُجَلِّهِ ليسَ إلاَّ نصراً من تلك الانتصارات المؤزَّرة التي نادراً ما أظفر بها حتَّى أنا الحالم العظيم على الرغم من كوني كذلك. فأن أحلم، مثلاً، في وقت واحد، وعلى حِدة، لا تساورني شكوكُ، بأنَّني الرَّجل والمرأة في النُّزهة الَّتي يقوم بها الرَّجل والمرأة قُربَ النَّهر. أنْ أكون قادراً على أنْ أرى نَفْسي، في الوقت نَفْسهِ وبالوضوح بها الرَّجل والمرأة في نَفْسها تماماً ومنفصلةً عن نَفْسها تماماً - سفينة واعية في البحار الجنوبيَّة وصفحة مرقومة في كتاب عتيق. كم عبثياً يبدو هذا الأمرُ ا بَيْدَ أنَّ كلَّ شيء عبثيَّ، وما الأحلامُ إلَّا الأقل عبثيَّة من بين جميع الأشياء.

61

[?1914]

حُسُدٌ مُقَدِّسِي

كلّما شعرتُ بالمسرَّة صحبةَ الآخرين، أحسدهم على الجزء الذي احتلُّوه في ذلك الشُّعور. يُخيَّلُ إليَّ أنَّه نوع من الصَّفاقة أنْ أشعر بضرورة أن يشعروا مثلي؛ بضرورة أن يغزوا روحي بأرواحهم شاعرين بالتَّناغم الكُليِّ مع روحي.

والصُّعوبة العظمى بشأن الكبرياء التي تنتابُني حين أتأمَّل المناظر الطَّبيعيَّة، هي الحقيقة المؤلمة بأنَّ شخصاً آخر سوف يكون قد تأمَّلها لا محالةَ من قَبْلُ وقد انتابه شعورُ الكبرياء ذاته تماماً. وهذا صحيحٌ، في أوقات مختلفة، وفي أيَّام مختلفة، ولكنَّ التَّفكير على هذا المنوال يبدو كأنِّ أُعانقُ نَفْسي وأُروِّحُ عنها بحذلقةٍ هي دُوني. أعرف أنَّ الفارق ليس ذا أهميَّة كبيرة، وأنَّ الأخرين سوف يكونون قد نظروا إلى المنظر الطَّبيعيِّ ذاته بالرُّوح نَفْسها وبطريقة لم تكُن تشبه طريقتي لكنها تضاهيها.

ولهذا أُجبر نَفْسي على أن تُغيِّر دائها ما أراه كي تجعله مِلكِي على نحو لا جدال فيه -كان تُغيِّر مَثَلاً شكل الجبال على صفحة السَّماء، في حين تحافظ على جمالها وتُبقِيها نَفْسَها؛ مستبدلة أشجاراً وأزهاراً مُعيَّنة بأخرى متشابهة تماماً ومختلفة إلى حدِّ بعيد؛ أن أرى ألواناً أخرى في المغيب ولكنْ بالتأثير ذاته - وهكذا أخلق، والفضل لتجربتي وطريقتي العفويَّة والمألوفة في النَّظَر، تلك الطريقة الجوَّانيَّة للنَّظَر إلى العالم الخارجيِّ.

وهذا، على أيِّ حال، المستوى الأدنى في استبدال المرتيِّ. أنا، في لحظات حُلمي الأفضل والأكثر حريَّة، مهندسُ أشياءٍ أكثر طموحاً إلى حدِّ بعيد.

أجعلُ المنظر الطّبيعيَّ يُصدر تأثيرات موسيقيَّة، ويستدعي صوراً مرئيَّة - فيا له من نصر فضوليًّ وفي غاية التَّعقيد للحالة النَّشوانة؛ نصر صعب لأنَّ واسطة الاستحضار من الطّبقة ذاتها التي لتلك المشاعر التي سوف تستدعيها. وكان نصري الأعظم حين تأمَّلتُ «كَايْش دُو سُو ذُرِي» (60) - في ساعة تُحدَّدة، غامضة على نحو غريب بخصوص الشَّكل والضُّوء - فرأيتُ معبداً صِينياً بأجراس عجيبة، مثل قُبَّعات سخيفة، على حوافِّ الأفاريز - معبداً غريباً مدهوناً في الفضاء، فوق ذلك الفضاء الحرير، لا أعرف كيف، فوق الفضاء الذي يكابدُ بُعْداً ثالثاً رهيباً. بدتِ السَّاعاتُ في الواقع، بالنِّسبة إليَّ، تفوح منها رائحة قياشة جُرَّن يكابدُ بُعْداً ثالثاً رهيباً. بدتِ السَّاعاتُ في الواقع، بالنِّسبة إلىَّ، تفوح منها رائحة قياشة جُرَّن الله مكان بعيد، تجتاحني رغبة عظيمة في أن يكون ذلك حقيقياً...

Cais do Sodré (68) عطة سكة حديد في لشبونة. وكلمة cais تعني في البرتعالية: رصيف بحري؛ مرسى. أمّا كلمة Sodré (68) فئمة رواية تقول إنّها نسبة إلى فيسنته سوفري الدي كان قد شيّد منزلاً في تلك المنطقة بعد الزلزال الدي ضربها في العام 1755. ورواية ثانية تقول إنّها نسبة إليه ولأخوته الذين عمّروا المنطقة وشيّدوا المرسى هناك. وثمة رواية ثالثة تقول إنّ الكلمة تحريف لاسم Sudley لإنگليزي (إشارة إلى المدوق فريدريك سدلي الذي قدم إلى البرتغال مى العام 1381)، ثم بات الاسم يُنفظ في البرتغالية Sodré يعد وقت من الزّمان. (المترجم)

[914]

الإنسان الحصيف الحَقُّ هو ذلك الذي لا يدع الأحداث الخارجيَّة تزعجه كثيراً بقَدْر ما يستطيعُ. ويحتاج، للقيام بذلك، إلى تحصين نَفْسه فيحوَّطها بحقائق واقعيَّة أقرب إليه من تلك الحقائق. تلك الأحداث، وقد تغيَّرتُ كي تنوافق مع تلك الحقائق.

63

[نحو 29 أكتوبر 1914]

أَن نُفكِّر، نعم، حتَّى أَن نُفكِّر، هُوَ أَن نفعل. وحدها أحلام اليقظة المُطلَقة، حيث لا فِعلَ يتدخَّل، حيث يغرزُ وعينا بأنفسنا كلَّه في الوحل نهائياً - فليس إلَّا هُنَاك فحسب، في حالة اللَّاكينونة الدَّافئة والرَّطبة تلك، يستطيع المرءُ أن يهجر كلَّ فِعل.

ألَّا نرغب في الفهم، في التَّحليل... أن نرقب أنفسَنا مثلها يرقب المرءُ الطَّبيعة؛ أن نُحدِّق في الطباعاتنا مثلها يحدِّق المرءُ في أحد الحقول - هذي هي الحكمة الحَقَّة.

64

[بعد 31 أكتوبر 1914]

درب التَّبَّانة

... بعباراتٍ ملتوية لروحانيَّةٍ حقودة...

... طَقُوسٌ أُرجِوانيَّات رئَّةٍ، واحتفالات غامضة لا تعاصر أحداً...

... أحاسيسُ مثيرة، حبيسة، تُختبَرةٌ في جسد آخر غير ماديٌ هُوَ جسدٌ وماديٌّ، على حدٌّ سواء، وفقَ ما يشاءُ، يُعشِّقُ تفاصيل دقيقة، بعضُها مُعقَّد، وبعضها بسيط...

... بحيراتٌ تُحَوِّمُ فوقها، بوضوح لا شِيَةَ فيهِ، إلماعةُ ذهبِ باهتٍ، وزنبقةٌ لا يساورها بعضَ الشَّيعُ الشَّيطانيَّة، في أنَّها قد خُلِقَتْ حقاً ذات يوم، تقبضُ عليها يدان بيضاوان، ناصعتا البياض...

... عهودٌ قُطِعَتْ بين السُّبات والقلِّق، خضراءُ غامقة، لا تبالي به العينُ، ثاويةٌ بين خَفَر

السَّأُم وقد هدَّها التَّعبُ...

... عِرقُ لؤلؤٍ ذو مآلاتٍ عقيمة، ومرمرٌ منقوعٌ مرَّات ومرَّات - مَغيباتٌ نُحوَّطة بحوافٌّ الأرجوان والذَّهُب للتَّرويح عن النَّفْس، بَيَّدَ ألَّا سُفنَ تُبحر إلى شواطئ أفضل، ولا جسور تُفضى إلى أشفاقِ أطول...

... والاحتَّى فكرة البِرَك، بركٍ كثيرة، ملموحة من بعيدٍ عبرَ أشجارٍ حورٍ أو ربَّها سروات،

مُعتمداً على المقاطع المحسوسة عميقاً؛ المقاطع التي لفظت بها السَّاعة أسماءَها...

... ولهذا ثُمَّ نوافذ تطلُّ على خلجانٍ، وأمواجٌ تدقُّ الأرصفة البحريَّة ولا تكفُّ، وحاشيةٌ مُشوَّشة، ومجنونة، غارقةٌ في ذاتها، كأحجار عقيقِ تكتب بينها سوالفُ العروس(٥٥) والبُّطْمُ ليالي أرقِ (٢٥) الفَهم على جدران السَّمَع المحجوبة...

... خيوطُ فضَّةٍ نادرة، أواصرُ أَرجَوانيِّ مُنحَلِّ، ومشاعرُ عقيمةٌ أسفلَ أشجار الزَّيزفون، وعلى طُول دروب محاطة بأشجار الشَّمشير، أزواجٌ ممعنون في القِدَم، صامتون، ومراوحُ فجائيَّة، وإيهاءات غامضةٌ، وحدائقُ سامية، بلا ريب، تنظر إلى التَّعب الرَّائق للاشيءٍ سوى مزيدٍ من الطُّرُق المُشجَّرة والدُّروب...

... أنهاطُ أشجارٍ مُخمَّسةٌ، وتعريشاتٌ، وكهوف، وأسرَّة أزهار، ونوافير، الفنُّ الذي خلَّفه المُعلِّمون الرُّؤساء الموتي، الذين في غضون المبارزات التي تــمَّت في دواخل أنفسهم بين السُّخط والجَلِيِّ قد صمَّموا مواكب كاملة من موادِّ الأحلام في الشُّوارع الضَّيِّقة للقرى العتيقة للمشاعر...

... ألحانُ مرمرٍ في القصور البعيدة، وذكرياتٌ تشبك أيديَها بأيدينا، ونظرات مألونة هيَّابةً، مغيباتٌ في سهاوات مشؤومة - تُعتُّمُ بين نجوم تتلكَّى فوق صمت (٢١) إمبراطوريَّاتِ متهالكة...

أَنْ نحوِّل الإثارة إلى عِلم، أَنْ نحوِّل التَّحليلَ النَّفْسيَّ إلى منهج مِجهريٍّ مضبوط - توفَّ

⁽⁶⁹⁾ نبات، ويعرف أيضاً باسم عرف الدّيك أو القطيفة. (المترجم)

⁽⁷⁰⁾ يستخدم بشوًا هنا لفظة الأرق insomnia (في البرتغاليّة: insomnias) في صيغة الحمع، ولهذا استعصت عنها بعبارة «لياني الأرق». (المترحم) بعبارة «لياني الأرق». (المترحم)

⁽⁷¹⁾ في الأصل بصيغة الحمع silences (وفي البرتغاليَّة: silencios)، (المند)

يحتلُّ، مثل عطش متأصِّل، صلب إرادي...

وبين الإثارة ووعيي بها تحدثُ جميع المآسي العظيمة لحيات... وفي تلك المنطقة الغامضة والمجهولة التي تكسوها الغابات وتخرُّ فيها المياهُ، تتدفَّقُ، غير مكترثةٍ حتَّى بصخب حروبنا، النَّفْسُ التي أكافحُ عبثاً كي أعثرَ عليها...

أَتَمَدَّدُ هَاجِعاً فِي حَيَّتِ. (أحاسيسي المثيرة مرثيَّةٌ، قصيدةٌ غُنغوريَّةٌ(٢٦) طويلةٌ تُدثِّرُ حياتِ المُيَّة). ويُدركني الموتُ ويدركني المَغيبُ. ولا أُحسِنُ إلَّا أن أنحتَ قبري من أجل الجَال الجَال الجَوَّانيِّ.

وتنفتح الأبواب العظيمة لانفصالي عن الحياة على متنزَّهات لانهائيَّة، لكنْ لا أحدَ يمشي فيها، ولا حتَّى في أحلامي- إنَّها تنتصبُ مفتوحةً على العقيم إلى الأبدِ ومغلقةً على الباطلِ إلى الأبد.

أقطفُ بتلات الأمجاد الضَّائعة في حدائق الخُيلاءِ الجُوَّانِيِّ ثُمَّ أمضي صاحباً، ماراً بوشائع الشَّمشير، في دروب محلوم بها تُفضي إلى الغامض.

ولقد شيَّدتُ إمبراطوريَّات تامَّة في الغامض، على شواطئ الصَّمت، وفي الحرب الغبراء التي سوف يُهزَم فيها التَّامُّ.

يُدرك العالم أنّه، هُو نَفْسه، حقيقته الواقعيّة الوحيدة، وأنّ العالم الواقعيّ الوحيد هو الذي تمنحه إيّاه أحاسيسه المثيرة. ولهذا نراه، بدلا من اتباع النّهج الباطل محاولاً تكييف أحاسيسه لتتناعم مع أحاسيس الآخرين، فيجعل العلم بهذه الطريقة موضوعياً، يسعى جاهداً للوصول إلى معرفة كاملة بعالمه وشخصيّته. فلا شيء أكثر موضوعيّة من أحلامه، ولا شيء خاصّته أكثر من وعيه بنفسه. يشحذ عِدمه وفق هاتَيْن الحقيقتَيْن الواقعيّتين. وإنّه علم غلم غلماء الأزمنة القديمة، الذين سعوا، بعيداً عن علم غلم علماء الأزمنة القديمة، الذين سعوا، بعيداً عن البحث عن قوانين «العالم الخارجي» وتنظيم ما دعوه «الطّبيعة».

⁽⁷²⁾ سبة إلى الشاعر الإسباي النَّائع الصّيت لوبس دي عوبغورا صاحب هذه النَّزعة التي اتَّسمت بستخدام «النَّحو اللَّاتيني وأسلوب تعبيره، واستحدام الألفاظ المهجورة، والتّلميحات الأسطوريّة، والصور البادحة» (المترجم)

[بعد 31 أكتوبر 1914]

[درب التبّانة؟]

جزءُ ثانِ

الحُلم والقُدرة على الحُلم شيئان بدائيًّان، عادةً، في قي. فمُذ كنتُ طفلاً هادئاً ومنعزلاً وظروفُ حياتي - رفقة ربَّما قوى موروثة غامضة شكَّلتني من بعيل وصوَّرتني على غرار صورتها الشَّريرة - قد منحت روحي فيضَ أحلام يقظة لا ينقطع. وكلُّ ما هُوَ أنا مرتبطُ بهذا، وحتَّى بعضي الذي يبدو أبعدَ ما يكون عن الحالم، ينتمي بلا ريبٍ إلى روح شخص يحلم فحسب، روح صعدت إلى درجتها العُليا.

أرغب، قَدْرَ ما أستطيع، وللمتعة التي يجلبها التّحليل الذّاتي تماماً، في أن أُعبِّر بالكلمان عن جميع السّيرورات العقليّة التي ليست إلّا شيئاً واحداً فِيَّ: حياة مكرّسة للحُلم، روحاً تشأتُ لتحلم فحسب.

وحين أشاهدُ نَفْسي من الخارج، مثلها أفعل ذلك دائها أو أكادُ، أُدرك أنّني غير مناسب للأفعال تماماً، فتكدّرني بسهولة الحاجة إلى الحَطْوِ أو الإيهاء، غير مرتاح حين أتحدّن إلى الآخرين، مفتقراً إلى البصيرة الكافية للتّرويح عن نَفْسي، مُصارعاً الأمور الرُّوحائيّة، ومفتقراً أيضاً إلى البسيق الجسديِّ الضَّروريِّ كي تنكبُّ نَفْسي على أيَّ فعل جسديِّ، لا غير.

من الطَّبيعيِّ أن أكون على هذه الشَّاكلة. فأيُّ حالم يعرف أنَّ هذه هي الحال. فأيُّ حقبة تزعجني. وتدفعني حوارات الآخرين إلى الدُّخول في حالة من العذاب المُبرِّح. تدهشني حقيقة روح الآخرين على الدَّوام. والشَّبكة الواسعة غير الواعية التي تمتدُّ أبعدَ من جميع الأفعال تبدو وهماً عبثيَّ، بلا أيِّ تماسُكِ منطقيٍّ، لا شيء.

ولكنَّك إذا اعتقدت بأنَّه يتوجَّب عليَّ جرًّاءَ ذلك أن أكون جاهلاً بسيرورات الآخرين النَّفْسيَّة المعقَّدة، وبأنَّه ينبغي عليٌّ أن أفتقر إلى فهم واضح لأفكار الآخرين الحميمة ومحفِّزاتهم، فأنتَ مخطئٌ. لستُ مجرَّد حالم، أنا حالمٌ مَحضُّ ولا شيءَ سواهُ. ولقد منحتني عقليَّتي الفردانيَّة التي أرعى بها عادةَ الحُلم وضوحَ رؤية جوَّانيَّة؛ وضوحاً خارجاً عن المألوف. ولستُ أرى، وقد شرحَ صدري على نحو مُخيف وفي بعض الأحيان مُقلق، أشكالَ أحلامي وخلفيًّاتها فحسب، وإنَّما أرى، بالوضوح ذاته، أفكاري المُجرَّدة، ومشاعري الإنسانيَّة ما تبقَّى منها - وبواعثي السُريَّة، ومواقفي النَّفسيَّة تجاه نَفْسي. أقصدُ أنَّني أرى أفكاري المُجرَّدة فِي، أراها برؤية جُوَّانيَّة حَقَّةٍ تسكنُ فضاء جُوَّانيًّ أصيلاً. هكذا تتجلَّى لي أدقُ تفاصيلِ أحاديثها الطَّويلة الفارغة.

بِتُ أعرف نَفْسي، بهذه الطَّريقة، حقَّ المعرفة، فحين أعرف نَفْسي حقَّ المعرفة، فسوف أعرف الإنسانيَّة حقَّ المعرفة كذلك. فلا باعث أساسياً، ولا غريزة نبيلةً لم تومض على روحي؛ أعرف الإيماءات التي تصاحب كلَّ فكرة. أعرف الأفكار الشَّريرة على حقيقتها، أيَّ أقنعة طِيبةٍ أو لامبلاةٍ ترتديها. أعرف الشَّيء الذي يكافح داخل أنفسنا كي يخدعنا. وهكذا أعرف معظم النَّاس الذين أراهم أفضل ممَّا يرون أنفسهم. فغالباً ما أنكبُّ على دراستهم بعمق، لأنَّني أستطيع أن أملكهم بهذه الطَّريقة. فأنا أقهر النَّفْس التي أُحلِّلها، لأنَّ الحُلم، بالنَّسبة إلى، هُوَ أن تَملك. ولهذا، فإنَّ من الطَّبيعيِّ أن ترى حالمًا مثلي يتوجَّب عليه أن يمتلك قوى التَّحليل تلك.

ولهذا فإنَّ المسرحيَّات إحدى الأشياء القليلة التي أستمتع بقراء هما. أعرضُ مسرحيَّات، كلَّ يوم، داخلَ نَفْسي، وأعرف كلَّ ما يتوجَّب عليَّ أن أعرفَه كي أُجرِي إسقاطَ الرُّوح الميركاتوريَّ (٢٥٠). ولكنَّ الحقيقة أنَّني لا أستمتع إلَّا قليلاً بهذا كلِّه، فالمسرحيُّون يرتكبون على الدُّوام الأخطاء الفادحة والمُبتذلة ذاتها. لم أعثر على المسرحيَّة التي تُرضيني بَعْدُ. ولأَنَّني رأيتُ علم النَّفس البشريَّة بوضوحِ وميضِ برق يُنير كلَّ الزَّوايا حين أنظرُ، فإنَّني أراهُ مؤلماً ذاك البناءُ الأخرق وتحليل الشخوص الذي ينهض به معظم المسرحيَّين، ولم تبهجني المسرحيَّات القليلة التي قرأتُها كأنَّها لطخة حبر على صفحة في دفاتر حساباتي.

⁽⁷³⁾ إسقاط ميركاتور، أو الإسقاط الميركاتوري (بسبة إلى الجغرافي الفلمنكي جيراردوس ميركاتور) يقوم على إحاطة الكرة الأرضية بأسطوانة، فتتلامس الكرة والأسطوانة عند حط الاستواء، فيحدث إسقاط لسمات الأرض ونقاطها كاقه على تبك الأسطوانة التي تنفتح بعد دلك، ثُمُ تُبسَط مُشكَّلة خارطة مستطيلة ذات خطوط طول عموديَّة وخطوط عرض أفقيَّة, (المترجم)

تُشكِّل الأشياء مادَّةَ أحلامي، ولهذا أُعِير ذلك الانتباه المُشتَّت إلى بعض تفاصيل العالم

ويتوجَّبُ على ، كي أمنح أحلامي إشراقها، أن أعرف كيف تتراءى مُشرقة أمام أعينا ويتوجَّبُ على ، كي أمنح أحلامي إشراقها، أن أعرف كيف تتراءى مُشرقة أمام أعينا المناظرُ الطبيعيَّة الحَقَة وشخوص الحياة الواقعيَّة . فرؤية الحالم ليست كرؤية مَن يرى أشياء وحسب. فالمرءً لا يبني نظرتَهُ ، في الأحلام ، على المظاهر المهمَّة وغير المهمَّة للأشياء الحقَّة على حدَّ سواء . فالحالم لا يرى سوى الجزء المهمَّ . فحقيقة الشَّيء الحقَّةُ لا تكمن إلَّا في بَعضه والمقيِّة هي الضَّريبةُ النَّقيلة التي يدفعها للعالم الماديِّ مقابلَ وجوده في المكان . وعلى صعيد عمائل ، فإنَّ بعض الظُّواهر التي تمتلك حقيقة عسوسة في الأحلام لا تمتلك أيَّ حقيقة في المكان . فالغروب الحقُّ عصيً على التخيُّل وعابرٌ سريع الزَّوال . أمَّا المَغيبُ الحُلمُ ، فنابتُ المكان . فالغروب الحقُّ عصيً على التخيُّل وعابرٌ سريع الزَّوال . أمَّا المَغيبُ الحُلمُ ، فنابتُ وأبديُّ . والشَّخص الذي يستطيع أن يكتب يعرف كيف يرى أحلامه واضحة (فهذا ما تعنيه الكتابة) أن يرى الحياة مجرَّدةً من المادَّة، وأن يلتقط له صوراً فوتوغرافيَّة بكاميرا أحلام يقظته ، التي لا تؤثّر فيها أشِّعة الأشياء المُضجرة والمنفعة والمحدودة، فلا تظهر إلَّا سوداء على لوح التَّصوير العائد للرُّوح.

وهذا النّهج، الذي فاقمته أحلامي المفرطة، يعني ألّا أرى سوى الجزء الحُلميِّ من الحقيقة. فرؤيتي للأشياء تقمع في داخل هذه الأشياء كلَّ شيء لا يُفيد حُلمي. وهكذا فإنّني أعيش دائماً في الأحلام، حتَّى حين أعيش في العالم الحقِّ. سيّانَ عندي النّظرُ إلى مَغيبِ شمسٍ في أو إلى مغيبِ في العالم الحقِّ، ذاك أنّي أرى بالطّريقة ذاتها، فرؤيتي مصنوعة كي لا تحيدً عن نظامها الذي لا يتغيّر.

ولهذا تبدو الفكرة التي لديَّ عن نَفْسي فكرةً خاطئة لدى الكثيرين. وإنَّها كذلك بطريقة أو أخرى. ولكنَّني أحلم بنَفْسي فأختار ما يصلح للحُلم فيَّ، مُشكِّلاً نَفْسي ومُعيداً تشكيلها بكلِّ طريقة ممكنة حتَّى ألبِّي متطلَّباتي الخاصَّة لما يتوجَّب أن أكونَ عليه أو ألا أكون. وتكون أحيانا الطريقة المثل لرؤية شيء هي أن ندمِّره، لأنَّه يعيشُ على الرَّغم من أنَّني لا أستطيع بالضَّبط تفسير كيفية ذلك - في عَدَمه وخرابه، وهذا ما أفعله تجاه مناطق واسعة من كينونتي التي مَ إنْ تُرسَم خارج تصويرة نَفْسي، حتَّى تُفضي إلى تجلِّي نَفْسي في داخل حقيقتي.

كيف لي التأكّد من أنّني لا أخدعُ نَفْسي بشأن سير ورات الوهم الجوّانيّة هذه؟ فالسّير ورة التي تستمدُّ مظهراً واحداً من العالم أو شكلاً واحداً من الحُلم فنحوّله إلى حقيقة ساطعة، تجلب معها عاطفة أو فكرة، فتجرّدها من جميع ادّعاءات النّبل والنّقاء، التي لاحقّ لها في أن تدّعيها على أيّ حال، كما هي الحال دوما أو تكادُ. ولسوف تلاحظ انّ موضوعيّتي هي المُطلَقة على الإطلاق. أخلقُ الشّيء المُطلَق وأمنح حقيقته الماديّة صفاتها المُطلَقة. لم أهرب من الحياة تماماً، بمعنى البحث عن سرير أوثر لروحي، فلقد قايضتُ حيواتٍ فوجدتُ في أحلامي بعص الموضوعيّة التي وجدتها في الحياة. فأحلامي التي سوف أتعامل معها في أحلامي بعص الموضوعيّة التي وجدتها في الحياة. فأحلامي التي سوف أتعامل معها في مكان آخر - تُوجد مستقلّة عن إرادتي وغالباً ما تصعقني وتجرحني. وما أجده غالباً في نَفْسي يغمّني ويخزيني (لعلّه بعض جُذاذةِ نَاسُوتِ ثاويةٍ فِيّ ماتزالُ - فها الخِزيُ بعد كلّ شيءٍ؟) ويخيفني.

ثُمَّ قامتُ مقامَ الصَّحوِ أحلامُ يقظة لا تنقطع. وأنا في هذه الأثناءِ مُركَّبٌ على الأشياء التي رأيتُها، حتَّى الأشياء التي رأيتها في الأحلام، الأحلام الأخرى التي أحملها معي. وحين أغفلُ كفايةً فلا أستطيع القيام على أكمل وجه بها أشرتُ إليها على أنّها «الرُّؤية كها لو أنّها في الأحلام» - لأنَّ تلك الغفلة كانت قد حرَّكتها أحلامُ يقظة لا متناهية وانهاكُ (غافلاً، بالأحرى، مرَّة أخرى) في المسار الذي سلكته أحلامي - أستطيعُ تركيبَ ما أحلمُ به على الحُلم الذي رأيتُهُ، وأن أُواشجَ الحقيقةَ التي جُرِّدت من واقعيَّتها الماديَّة في هذه اللَّحظة مع اللَّماديُّ المُطلَق.

ومن هُنَا تنبع قُدرتي على السَّعي وراء عدَّة أفكار جُملةً واحدة، أنْ أراقب شيئاً وأحلم في الوقت ذاته بتعدُّد عظيم لأشياء أخرى؛ أنْ أحلم بمغيب حقيقيٍّ فوق "نهر تيچو" حقيقيً في الوقت ذاته الذي أحلم فيه بصباح تحلوم به أشرق على "محيط هاديّ" في. يختلط الشَّينان المحلوم بها دون أن يمتزجا، ودون أنْ يشوَّشا حقاً الحالة العاطفيَّة المختلفة التي ارتقى كلُّ واحد منها إليها. هكذا أكون مثل شخص يراقب أناساً كثيرين عابرينَ في الشَّارع ويكون داخل روح كلِّ واحد منهم في الوقت ذاته (مَّا يفترض وحدةً كاملة في الشَّعور) ويرى في الوقت نفسه أجسادهم (التي لا بُدَّ أن تُدرَك على حِدَةٍ) يمرُّ بعضُها ببعض في شارع طافح بأرجُل تمشي.

[*1914]

أنْ تصنعَ شيئاً، ثُمَّ تُدرك أنَّه ليس حَسَناً، مأساةٌ من مآسي الرُّوح، والسيَّما حين يتوجَّب عليك الاعتراف بأنَّه أفضل ما تستطيعُه. ولكنْ حين تكون على وشك أن تكتب شيئاً وأنت تعلم سلفاً بأنَّه سيكون ناقصاً، إخفاقاً دون ريب، فهذا لَعَمْرِي هُوَ الكرب الرُّوحانُ الأعظم والحِزي الأكبرُ. ولستُ أشعر بأنَّ السُّطورَ التي أكتبها لا تُلبِّي الطُّموحَ فحسبُ، وإنها أعرف أنَّني سوف أجدُ أيَّ سطرِ أكتبه في المستقبل لا يُلبِّي الطُّموحَ بالقَدْر نَفْسهِ. أعرف هذا الشَّيءَ من النَّاحية الفلسفيَّة والجسديَّة (الشَّبَقِيَّة)، والفضل يعود إلى بصيرة غامضة، وثاقبةٍ (كأنَّها ضلُ سكِّين يتغلغلُ).

فلماذا أكتبُ، إذَّن؟ أكتبُ لأنَّني لم أتعلَّم بَعْدُ، كَمُبشِّر بِالزُّهدِ، ممارسةَ ما أدعو إليه. لم أتعلم بَعْدُ التَّخلِّي عن جُنوحي إلى النَّشر والشِّعر. لا بُدَّ أَن أكتب كما لو أنَّ الكتابةَ كفَّارةً. وأسوأً تكفير عن الذُّنوب معرفةُ أنَّ ما أكتبُ عقيمٌ وواهٍ ومُخفِقٌ تماماً.

نظمتُ السَّعرَ طفلاً. كان شعراً ركيكاً، شديدَ الرَّكاكة، ولكنَّني ظننتُه كاملاً. لن أذوقَ ثانيةً المسرَّة الباطلة النَّاجة عن صُنع شيء كامل. ما أكتبه اليوم أفضل كثيراً. إنَّه في الحقيقة أفضلُ مَّا يقدرُ عليه الكُتّاب الفُحول. ولكنَّه، بلا ريب، لسبب أو آخر، دُونَ ما أشعرُ بانَّني أفضلُ مَّا يقدرُ عليه الكُتّاب الفُحول. ولكنَّه، بلا ريب، لسبب أو آخر، دُونَ ما أشعرُ بانَّني أستطيع -أو ربَّما يتوجَّبُ عليَّ- أن أكتبَهُ. أبكي تلك القصائد الرَّديئة، التي نظمتُها في طفولتي، بكائي على طفلٍ ميِّت، ولدٍ ميَّت، أملِ مفقود.

67

[\$1914]

وحين أتقرَّى ألمي، فإنِّي أتقرَّاه بتلك الضَّغينة المُرتابة، العصيَّة على أن تُحدَسَ أو تكادُ، التي تُحيي كلَّ قلبِ آدميُّ حين يواجه ألم الآخرين أو انز عاجهم؛ أذهب بمشاعري هذه إلى أبعد الحدود حتَّى إنَّني أستمتع بتلك المناسبات التي أُجبَر فيها على الشَّعور بالسَّخافة أو الوضاعة، كما لو أنَّها كانت تحدث لشخص آخر. ولا أشعر، جرَّاء تحوُّل غريب ومدهش ينتاب مشاعري، بأيِّ فرحٍ حقود ومُفرطٍ في إنسانيَّته تجاه ألم الآخرين وسخافتهم، فأنا لا

أَتْأَلُّمُ حِينَ تُواجِهِنِي مَصَائِبِ الآخرين، ولكنَّ شعوراً مِن الضِّيقِ الجَهَالِيِّ والاستفزاز الحفيِّ ينتائبني، ولا دَخْلَ للدَّماثة في هذا كلِّه، فلم عين يُجبَر على أن يشعر باتَّه سخيف، فسوف يظهر كذلك، ليس لي فحسب وإنِّها للآخرين أيضاً، وهذا ما يستفزُّني؛ يؤلمني أن يضطَّر أيُّ يظهر كذلك، ليس لي فحسب وإنِّها للآخرين أيضاً، وهذا ما يستفزُّني؛ يؤلمني أن يضطّ الحق في حيوان من الجنس البشريِّ إلى أن يضحك على حساب الآخرين حين لا يمتلك الحق في ذلك. لا أكترث إن ضحك على الآخرون، فدرعُ الأَنفَةِ المُستخفَّةِ الفعَّالُ مجميني.

أقمتُ، كي أخطَّ حدودَ حديقة كينونتي، سياجاً عالياً، مُرَوِّعاً أكثر من أيِّ جدار، كي أستطيع في الوقت الذي أرى فيه الآخرين، بوضوح تامِّ، أنْ أُقصيهم، وأنْ يظلُّوا هُم الآخَرين.

فلقد ركَّزت انتباهي كلَّهُ، طيلة حياتي، وكلَّ خالجة أخلاقيَّة، على إيجاد طرائق أتجنَّبُ فيها الفِعل. فأن لا أخضعُ للدَّولة ولا إلى البشر؛ ثمَّة مقاومةٌ هاجعةٌ فِيَّ. فالشَّيء الوحيد الذي تريده الدَّولة مني هو القيام بأيِّ فِعل، وإنْ رفضتُ، فلن تحصل الدَّولة مني على أيِّ شيء. وفي حين ليس ثمَّة عقوبة إعدام في هذه الأيَّام، فكلُّ ما تستطيع الدَّولة فعله أن تُنغِّصَ علي حياتي. بَيْدَ أَنَّني، حين يحدث ذلك، سوف أُجدِّدُ الدِّرع المحيط بروحي وأُحصِّن نَفْسي علي حياتي. بَيْدَ أَنَّني، ولكنَّ ذلك لم يحدث قطَّ. لم تزعجني الدَّولة على الإطلاق. أظنُّ أنَّ حُسنَ الطَّالع هُوَ الذي لا بُدَّ قد حماني،

68

[\$1914]

لو كنتُ مَن كتب «الملك لِير» لندمتُ على ذلك طيلة حياتي. فهي مسرحيَّة عظيمة في غاية العظمة إلى درجة أنَّ عيوبها؛ عيوبَها الفادحة، تلوح في الأفق على نحو مرعب، على شاكلة الأشياء المتناهية الصِّغَر في بعض المشاهد التي تمنعها من الوصول إلى الكمال الحَقِّ. فكلُّ ما قَد صُنِعَ مِن قَبْلُ طافحٌ بزلَّات؛ أخطاءٍ في المنظور الفكريِّ أو أخطاءِ جَهالةٍ، لحظاتِ ذوقٍ فاسد، ضعف، وتراخٍ. لم يمتلك أحدٌ الألوهيَّة الضَّروريَّة لكتابة عمل فنيُّ كبير بما يكفي ليكون سامياً، ولن يجالف أحدٌ الحظَّ ليكون عظيمٌ، ودقيقٍ وكاملٍ بما يكفي ليكون سامياً، ولن يجالف أحدٌ الحظَّ ليكون

قد حقّق ذلك. فالذي لا يتدفّق بحريّة مِنّا ناجمٌ عن الأرض غير المستوية لنفسنا النّاقصة. وحين أفكّر على هذه الشّاكلة، يغشى مخيّلتي حزنٌ رهيب، يقينٌ مؤلم لن يتمكّن البتّة من فعل أيّ شيء جيّد أو نافع في سبيل قضيّة الجمال. فالطريقة الوحيدة لبلوغ الكمال هي أن تكون الله. فكلُّ جهد رئيس يستغرق وقتاً، والوقت الذي تستغرقه يسافر في عبر حالات مختلفة لروحنا، وكلُّ واحدة من هذه الحالات تطبع شخصيّتها الخاصّة على فردانيّة العمل. ولن نكون مُتيقّين إلَّا من شيء واحد: حين نكتب، نكتب برداءة؛ فالعمل العظيم والكامل الأوحد هو الذي لا نحلم بصنعه أبداً.

أنصِتْ وأشفِقْ على نَفْسك. اسمعني ثُمَّ أخبرني إنْ كانتِ الأحلام لا تستحقُّ أكثرَ من الحياة نَفْسِها. فالعمَل لا يُفضي لشيء بتاتاً، والجهد لا يُوصلنا إلى مكانِ البَّقة. وحدهُ التَّخلِّ نبيلٌ وسامِقٌ، فهو إقرارٌ بأنَّ أيَّ عمَلٍ قد نتنكَبه ناقصٌ لا محالةً، فالشَّيء الماديُّ هُوَ دائماً ظلَّ

العمَل المحلوم به.

لو أستطيع الكتابة فحسب، بالكلمات على الورق، لو حوارات النّاس في مسرحيّاتي الدراميّة المُتخيّلة يمكن أن تُقرأ عالياً فتُسمَع! فلتلك المسرحيّات حبكاتٌ كاملة بلا عيوب، وحوارات بلا أخطاء، ولكنّ الحبكات مجرّد تخطيطات في رأسي ولا يمكن أن تتجسّد حقيقة، ولا حتّى جوهر تلك الحوارات الحميمة المصنوعة من الكلمات تماماً، كلماتٍ تستطيع لو أصيخ إليها بعناية، أن تُترجَم إلى كتابة.

أحبُّ شعراء غنائيِّن بعينهم، لأنَّهم لم يكونوا شعراء ملحميِّين أو مسرحيِّين، لأنَّهم كانوا مُحقِّين لمَّا أحشُوا بضرورة ألَّا يسعوا إطلاقاً إلى أن يُجوِّدوا في الكتابة أكثرَ من لحظة شعور أو حُلم واحدة. فكلَّما كتب الشَّاعر بلا وعي كان أقربَ إلى الكَمال المُمكن. فلا مسرحيَّة لشكسبير تَشُرُّ كمثل قصيدة غنائيَّة لهايْنه. فَشِعرُ هاينه الغنائيُّ كاملٌ، والمسرحيَّات جميعاً الشكسبير تَشُرُّ كمثل قصيدة غنائيَّة لهايْنه. فَشِعرُ هاينه الغنائيُّ كاملٌ، والمسرحيَّات جميعاً الشكسبير تَشُرُّ كمثل قصيدة غنائيَّة لهايْنه. فَشِعرُ هاينه الغنائيُّ كاملٌ، والمسرحيَّات جميعاً الشكسبير أم شخص آخر – ناقصة لا تحالة. أنْ تكون قادراً على البناء؛ على تشييد ما هُوَ كُلِّيُّ؛ على تكوين شيءٍ كجسد آدميًّ، تتجانش أعضاؤه تجانساً تامّاً، وتُوحِّدُ تنوُّعَ كلَّ عضو حياةٌ مُوحِّدة، مُنسجمة مع ذاتها!

وأنتَ، يا مَن تسمعُني ولا تكادُ تُنصِتُ، أنتَ لا تفهم أيَّ مأساةٍ هي هذه! فأنْ تفقد أباً وأُمَّا، وألَّا تُحقِّق مجداً ولا سعادةً، وألَّا يكون لديك معشوقة ولا صديق - كلُّ تلك الأشياء

مُطَاقَةٌ. ما لا يُطَاقُ أَنْ تحلم بشيء جميل، وتفتقر إلى مهارةِ أَنْ تَعْبُوهُ أفعالاً أو كلمات. الوعيُ بأنَّ عملاً مَا كاملٌ، والقناعة بعمل قد تحقَّق - يا لِطِيب النَّوم تحت ظلِّ تلك الشَّجرة، في يوم صيفٍ هادئ...

69

[91914]

مشكَالٌ

لا أستطيع أن أجد معنى لنَفْسي ... الحياة تُثقل كاهلي ... العواطف كلُها فوق ما أُطيقُ ... وحده الله قادر على أن يَعلم مكنون قلبي ... فهل كنتُ قد تعودتُ كثيراً على المواكب المَهيبة حتَّى إنَّ إعياءً ذا مباهجَ غامضةٍ ومفقودة يُهدهِدُ في هذه الأثناء أيَّ تَوقي (٢٠٠ إلى الماضي قد يكونُ حرَّاقاً لديَّ؟

أَيُّ ظُلَل؟ وأيُّ عناقيد نجوم؟ وأيُّ زنابق؟ وأيُّ بيارق؟ وأيُّ نوافذ زجاج مُعشَّق؟ وفي أيِّ سرِّ ظلَّلته الأشجارُ تجلَّتْ خِيرَةُ تخيُّلاتنا الجامحة؛ التخيُّلات التي ليست في العالم الحَقَّ سوى تذكارِ جداول وسَروِ ووشائع أشجار شمشير، ولكنها لا تجد ظُلَلاً لحاشياتها إلَّا بالزُّهد والتَّعفُف؟

لا تتكلَّمي... فأنتِ حقيقيَّةٌ جداً... أندمُ على أنَّني قادرٌ على أن أراكِ... فمتى تكونينَ مِجرَّد حنينٍ لِي؟ فكم «أنتِ»، حتَّى تلك اللَّحظة، سوف تكونين! وليس تفكيري بأنَّني

(74) آثرت، هذا، استخدام عبارة «النّوق الحرّاق» مقبل كلمة «yearnings» التي تستخدمها جول كوستا في صعتها الإنكليزيّة هده، مُنطعًا من كدمة «saudade» التي استخدامها بِسُوّا نفسه في هذا الصّر؛ وهي كلمة لا معنى «مُحدّداً» لها. فهي «حالة شعوريّة من الألم والمرارة والكآبة يصعب وصفها تنتاب المر؛ جرّاء الحنين/التّوق إلى شيء مُنحص قد لا يستقيه المر؛ في حباته ثابية بناتاً. هي «تشبه الحبي (التوستالجيا nostalg، الكدمة الأحرى المستحدمة في اللغة العربيّة؛ تقول البرتغالية أيضاً) ولكنها تختلف عنها تماماً». ربّما هي أقرب إلى لفظة «السّوداء» المستخدمة في اللغة العربيّة؛ تقول لعرب: المّت به السّوداء/السّويداء: الكآبة والقلق. ويعرف جمين صبيبا في معجمه الفلسفي «السّوداء» على أنّها «التّلذة بالحزن لخفيف الذي يتولّد من تلكّر السّعادة المصية أو من نصرُر الأحلام التي لا يعقبها التّمحقيق». ويدكر المعجم الوسيط أنها «اضطر ب الوجدان وتغنّب لغمّ والحرن والقلق وضيق الصّدر». ويذهب أوبري بن إلى وصف العجم الوسيط أنها «اضطر ب الوجدان وتغنّب لغمّ والحرن والقلق وضيق المحتمع البرتغائي في ظلّ اجمهوريّة الأولى، على انّها «رعبة غامضة و مُدحّة في شيء غير موجود وربّما لي يُوجَد، إلى شيء غير احاضر، استدارة نحو الماضي أو صوب المستقبل؛ ليست تلمّر متواصلاً أو حزناً شعيداً، وإنما صمّة بطيء من للهفة واللّوعة والأسى». ويعرّف المعجم البرتغائي كيمة «saudade» أنها «شعور سوداوي بالنّفس، مرتبط بالتّفكير بالحرماد حرّ عنيب شخص أو شيء من الهنة واللّوعة والأسى». ويعرّف المعجم أو الإبتعاد عن مكان ما، أو فقداد رغبات أو تجارب سارّة خاضها المرء في السّابق». (المترجم)

أستطيع أن أراكِ إلَّا جسراً قديهاً لا يعبرهُ أحدً... هكذا تبدو الحياة. لقد وضع الأخرون مجاديفهم... ولا انضباط في هذه الأثناء بين الجُند. غادر الفرسان عند الفجر وصوت الرِّماح... قلاعُكِ واقفةٌ في انتظار أن تُهجَر... ولا ريحَ هجرتْ صفوفَ الأشجار في أعالي التَّلَة... أروقةٌ مُعمَّدةٌ عبئيَّة، أدوات مائدة مُبعَدةٌ، تكهُّناتُ نبوءاتٍ - كلُّ ذلك ينتمي إلى مساءات زائلة في معابد وليس إلى لقائنا الآن، فالسَّببُ الوحيد الذي يحضُّ أشجار الزَّيزفون على أن تطرحَ ظلالهَا هُوَ أصابعكِ وإيهاءتُها المتأخِّرة...

وأكثرُ مِن سببٍ كافٍ كي تُوجَد المناطقُ القصيَّةُ... معاهداتٌ وقَعها ملوكٌ من زجاج مُعشَّق... زنابقُ مِن لوحات دينيَّةٍ... لِمَن تنتظرُ الحاشية؟ ... أينَ ذهب النَّسر الضَّائعُ؟

70

(75) [?1914]

أعرفُ اليوم الذي أخفقتُ فيه. والشَّيء الوحيد الذي يدهشني في بعض الأحيان هو أنَّني لم أتنبَّأ بأنَّني سوف أُخفق. فهل كان ثمَّة شيءٌ فِيَّ قد وَعَدَ بالنَّصر؟ افتقدتُ قوَّة المنتصرين العمياءَ أو رؤية المجانين المُطلَقة... كنتُ شفَّافاً وحزيناً مثل نهارٍ بارد.

الأشياءُ الواضحة وضوحَ الشَّمس تبعثُ على الرَّاحة، على شاكلة الأشياء التي تُنوِّرها الشَّمس. مراقبة الحياة تمرُّ قُربي في نهار ساطع تُعوِّضُ كثيراً ما فاتَ. وأنا أنسى إلى الأبدِ، أنسى أكثر مَّا أتذكَّر. قلبي الشَّفاف الذي تلعب فيه الرِّبح قد نَخبتهُ الكِفايةُ المُطلقة للأشياء، فأكثن عالنَّظر إليها وقد غمرتني المحبَّة، لم أكن قطُّ أكثرَ من رؤية غير مُجسَّدةٍ بلا روحٍ في مَعزِلٍ عن نسيم غامض هبَّ ثُمَّ سَكَنْ.

⁽⁷⁵⁾ تُظهِر لقصاصات التي خُطَّتُ عليها هذا المقاطع بحبر أسود، أنَّ بِسُوًا قد رقَّم المقطعين الثَّاني والتَّالث (بالرقمن 2 وق) مقط، في حين روَّس صمحة فارغة بالرَّقم 4 دون أن يخطُّ تحته أيُّ كدمة. كما تُظهِر أنَّه قد فصل بين فقرات كلَّ مقطع بحط صعير وليس بفراغات وفق الصيعة التي لجأت ليها جول كوست هُنَا. وكان أيصاً قد فصل المقطع الأوَّل عن باقي المقاطع بخط طويل متعرَّح. وعلى منوال بِسُوًا في استخدامه للخطوط القصيرة بين الفقرات (دول ذِكر التَّرقيم) سار بيسارُ و في طبعته البرتغاليَّة، في حين حنح زينيث وبرادو كويلو وسوبراو كونيا، في طبعانهما البرتغالية التُرقيم) الني سبق وأن أشرنا إليها بالتُفصين، إلى النَّهج الذي سارت عبيه جول كوستا. وهذه إلماعة أخرى إلى تعدُّد (الشّكل الطباعي) الذي قدَّمه محرّرو الطبعات البرمعائية المختلفة لـ (شذرات) كتاب بسُوًا هذا. (المترجم).

فِيَّ بعضُ صفات روحانيَّة تناسبُ البوهيميَّ؛ ذلك البوهيمي الذي يسمح للحياة بأنْ تمرَّ كشيءٍ ينزلق من بين أصابعه في لحظةٍ مُعيَّنة، أو الذي تهوي نائمةً في داخله أدنى إيهاءةً تحاول القبض على الحياة، لمجرَّد التَّفكير في أنَّه يحاول. ولكنَّني لا أمثلك التَّعويض البرَّانيَّ للرُّوح البوهيميَّة - الكسلَ العفويَّ للعواطف المهجورة على الفَوْر، لم أكُنِ البَتَّةَ أكثرَ من بوهيميُّ منعزل، أي بوهيميُّ عبثيُّ أو صُوفيُّ، وهذا مستحيلٌ.

بعضُ السّاعات - البرازخ التي عشتُ فيها؛ السّاعاتِ التي بدَّدتُها متأمِّلاً الطَّبيعة، منحوتةً من طَلاوة العُزلة، سوف تظلُّ لديَّ مثل نياشين. وكنتُ قد نسيتُ، في تلك اللَّحظات، كلَّ الخُطط التي ربَّها وضعتها لحياتي، وكلَّ الاتَّجاهات التي قد سلكتها. غمرتني مسرَّةُ كُوني لا شيءَ على الرَّغم من كلِّ فيض السَّكينة الرُّوحانيَّة التي هَوَتْ في حِجر تطلُّعاتي الأزرق. ولكنَّني ربَّها لم أختبر قطُّ ساعةً دائمة مُتحرِّراً من كلِّ تيَّار روحانيٍّ باطنيٍّ من الإخفاق والكنَّني ربَّها لم أختبر قطُّ ساعةً دائمة مُتحرِّراً من كلِّ تيَّار روحانيٍّ باطنيٍّ من الإخفاق واليأس. وكان وجعُ تأخذهُ سِنَةُ من النَّوم دائها في كلِّ ساعاتيَ الحُرَّة، ثُمَّ يتفتَّحُ أو يكادُ، ولكنَّ عطرَ تلك البراعم الحزينة ولونَها الحَقَّ قد مرًّا بداهةً عبرَ الجدار إلى الجهة الأخرى، وفي سرِّ كينونتي المُضطَّرب، تلك الجهة - الأخرى التي كانتْ -حيث الوردُ كلَّهُ يتفتَّحُ - وفي سرِّ كينونتي المُضطَّرب، تلك الجهة - الأخرى التي كانتْ -حيث الوردُ كلَّهُ يتفتَّحُ - الجهة المقهورة لحياتي التي يُثقِلُ جفنيها الوَسَنُ.

تدفَّق نهرُ حياتي بحراً جُوَّانياً. فكانتِ الأشجار، التي حَفَّتُ أملاكيَ المحلوم بها، قد ارتَدتُ ألوانَ الحريف. المنظر الطَّبيعيُّ الدَّائريُّ تاجُ أشواكِ رُوحي. ولقد كانت أسعدُ لحظات حياتي أحلاماً أحلامَ حُزنٍ، حيث أحدِّقُ في نَفْسي في بحيراتها مثل نَرْسِيس أعمى يلتذُّ ببرودة الماء القريبة، واعياً بأنَّه كان يميلُ عليهِ بفضلِ رؤيةٍ ليليَّة سابقة هُمِسَتْ لعواطفه المُجرَّدة وخُزِّنَتْ عميقاً بعنايةٍ أُموميَّة في الزَّوايا السِّريَّة لمخيِّلته...

قاسمتني قلادتُكِ المحبوكة من لؤلؤ مُزيَّف ساعاتيَ الأبهى فأحببتها أيضاً. كانت زهورنا المفضَّلة قَرَنْفُلاتٍ، ربَّما لأنَّها كانت عاديَّة أكثرَ. واحتفتْ شفتاكِ بسخريةِ ابتسامتها وقد

رانَ عليهم الوقارُ. فهل تفهمينَ قدَركِ الآنَ تمامَ الفهم؟ ولأنَّكِ عَرَفتهِ بلا فهم، طرحَ السُّو المكتوب في حزن عينيكِ ذلك الظلَّ فوق شفتَيْكِ المدحورتَيْن. كان وطننا بعيداً كل البُعْدِ من أجل الورود. وكان المه في شلّالات حديقتنا صافياً بالصّمت. وفي الشُّقوق الصَّغيرة بين الأحجار، حيث اختار الماءُ أن يتدفّق، تستلقي أسرارُ الطُّفولة؛ أحلامٌ بحجم جنودنا الصَّفيحِ، يمكن أن تُوضَع فوق أحجار الشَّلال، وهي على أُهبة تنفيذ بعض الحركات العسكريَّة الرَّئيسة، لا ينقص أحلامَنا شيءٌ ولا شيءَ أوقف تدفُّق تخيُّلاتنا.

أعرفُ أنَّني قد أخفقتُ. ألتذُّ بمسرَّة الإخفاق اللَّبهمة مثل شخص يُزجي شُكرَهُ المُتعبَ إلى تُحَمَّى تُبقيهِ منعزلاً في غرفته.

أمتلكُ موهبةً معيَّنة للصَّداقة، بَيْدَ أنَّني لم أحظَ بأصدقاء قَطُّ، إمَّا لأنَّهم لم يظهروا البتَّة، وإمَّا لأنَّ الصَّداقة التي تخيَّلتُها كانت غلطة اقترفتها أحلامي. فلطالما عشتُ حياةً منعزلة أضحتْ أكثر عزلة إلى حدَّ بعيد كلَّما أقبلتُ على معرفة نَفْسي.

71

[91914]

كُلُّ إِيهَاءَة، مهما كانت بسيطةً، تُعَدُّ انتهاكاً لسرِّ روحانيٍّ. كلُّ إِيهَاءة فعلٌ ثوريُّ؛ نفيٌّ ربَّما عن الــــ[...(٥٠] الحَقُّ لمقاصدنا.

الفِعلُ مرضُ الفِكر، سرطانُ المخيِّلة. أنْ تفعل يعني أنْ تنفي نَفْسك. فكلُّ فعل غيرُ كامل وناقصٌ، تظلُّ القصيدة التي أحلمُ بها كاملةً بلا أيِّ سُوءٍ حتَّى أحاول كتابتها. وهذا مكتوب في أسطورة يسوع، فالربُّ، حين يغدو إنساناً، لا ينتهي إلَّا شهيداً. فالحالمُ الأعظم لا يرضَى لَهُ ابناً إلَّا التَّضحيةَ العُظمى،

⁽⁷⁶⁾ لا يخفى وحود كلام محدوف، هُنَا، لم يذكره بِسُوًّا، يتعلُق بالشّيء الذي يصمه على أنَّه الحُقُّ /الحقيقيُّ؛ فلقد ذكر الصّفة دون الموصوف، كعادته في التُركيز عل الصّمات؛ فما يتبقّى من الشيء هو صفته فحسب. (المُترجم)

ظلالُ أوراق الشَّجرِ المكسورةُ، غناءُ العصافيرِ المرتعشُ، أذرعُ الأنهارِ الممدودةُ، ضُوؤها الباردُ يرتعش في الشَّمس، الخُضرةُ، والخشخاشُ، وبساطةُ الإحساس المثير - حين أشعر بهذا كلِّه، يغمرني حنينٌ إليها كما لو كنتُ في تلك اللَّحظة لا أشعرُ في الواقع بكلُّ شيء.

كعربةٍ تعبرُ في المساء، تعودُ السَّاعات صارَّةً إلى البيت عبر ظلال أفكاري. فلو نظرتُ عبر تلك الأفكار، فسوف تحرقُ عينيَّ فُرجَةُ العالَم المُبهرة.

أَنْ تَعرفَ الْحُلَمَ لا بُدَّ أَنْ تِنساهُ؛ أَنْ تَصرفَ انتِباهَك عنهُ. أَنْ تَعرفُ شيئاً هُوَ أَلَّا تَعرفَهُ. الحياةُ تعجُّ بالتَّناقضاتِ مثلها يعجُّ الوردُ بالأشواكِ.

أُودُّ إِيجَادَ مِثَالِ أَعلى لتشوُّشِ جديد قد يغدو الدُّستورَ الهَدَّامَ للفوضويَّة الجديدة للأرواح. فلطالما فكَّرتُ بأنَّ البشريةَ ستستفيد لو وضعتُ تلخيصاً لأحلامي. ولهذا سعيتُ إلى ذلك ما استطعتُ إليه سبيلاً، ولكنَّ فكرة احتهاليَّةِ أن يكون شيءٌ فعلته مفيداً قد جرحتني وأخرسَتني.

أملكُ عِزَباً ريفيَّةً في ضواحي الحياة. أقضي غياباتي من مدينة أفعالي بين أشجار أحلام يقظتي وأزهارها. ولم تصل حتَّى أخفتُ أصداء الحياة، التي قادتها إيهاءاتي إلى تلك الخُلوات البهيجة الخضراء. تُهدهدني ذاكرتي كي أنام كها لو كانت موكباً لا نهائيًا يمرُّ. ولا أشرب من كؤوس تأمَّلي إلَّا ابتسامة النَّبيذ الأبهت؛ أشربها بعينيَّ فحسبُ، ثُم أغمضها، فتمرُّ الحياة قُربي مثل شمعة بعيدة.

للأيَّم المشمسة طعمُ كلِّ الذي لم أمتلكه. السَّماء الزَّرقاء والغيوم البيضاء، الأشجار، والمزمار الذي لا يصدح هُناك – قصائدُ رعويَّةٌ قطعها ارتعاشُ الأغصان... وكلُّ هذا والقيثارة الصَّامتة التي أمسح أوتارها برفق ولين.

أكاديميَّة الصَّمت الخاملة... واسمُكِ يرنُّ كالخشخاش... البِرك... عودي... القسِّيس المخبول الذي جُنَّ في أثناء القُدَّاس. تنبع تلك الذِّكريات من أحلامي... لا أغمض عينيً، بَيْدَ أنَّي لا أرى شيئاً... فالأشياء التي أستطيع رؤيتها ليست هُنا... الطَّحالب...

أخضرُ الأشجار، وقد تشابكَ، بعضُ دمي. وفي قلبٍ بعيد تخفقُ الحياة فِيَّ... لم أخلَق للواقع، ولكنَّها الحياة التي سَعتُ إليَّ.

عذاب القدَر اقد أموتُ غداً! وقد يحيق بروحي اليومَ شيءٌ رهيب اوحين أتكلَّمُ، في بعض الأحيان، عن هذه الأشياء، ينتابني رعبُ الجبروت القهَّار الذي يجبرنا على الاستمرار في السَّير على الرَّغم من أنَّن لا نملك أدنى فكرة عمَّ ستقابله الرِّيبةُ التي تُساورنا.

72

[91914]

بَدَتْ لِي الحياةُ العمليَّة أَنَّهَا أقلُّ الانتحارات راحةً على الدُّوام. كان اقتراف الفِعل، بالنِّسبة إليَّ، معادلاً على الدَّوام لإدانة حُلم مُدانٍ زُوراً وبُهتاناً. وبدا التأثير في العالَم الخارجي، وتغيير الأشياء، وتبديل أحوال المخلوقات الأخرى، والتأثير في النَّاس، أكثرَ ضبابيَّةً بالنِّسبة إليَّ مِن الأشياء، وتبديل أحوال المخلوقات الأخرى، والتأثير في النَّاس، أكثرَ ضبابيَّةً بالنِّسبة إليَّ مِن أحلام يقظتي. وكانت رؤية العُقم الجوهريِّ لجميع أشكال الفعل، مِن الطُّفولة فصاعداً، واحدةً من وسائلي المفضَّلة لِسَلخ نَفْسي عن نَفْسي.

أَنْ تفعلَ، أَنْ تكون ردَّةُ فِعلكَ ضدَّ نَفْسك. أَنْ تؤثِّر في الآخرين، أَنْ تترك البيت. وبها أَنَّ الحقيقة الواقعيَّة ليست إلَّا متوالية أحاسيس مثيرة، فقد كنتُ على الدَّوام أُفكِّرُ في مدى عبثيَّةِ ضرورة وجود تلك الأشياء البسيطة، على نحو مُعقَّد، كالتِّجارة والصِّناعة والعلاقات الاجتهاعيَّة والعائليَّة، فتغدو مُبهمةً لا تُسبَر أغوارها على نحو بائسٍ حين تجابه سلوك الرُّوح الجوَّانيَّ تجاه فكرة الحقيقة.

[\$1914]

دات يوم

(تعرُّج)

نادمٌ، شديدَ النَّدم، على أنَّني لم أكن ذات يوم سيَّدةَ «حَرَمْلِك»!

يظلُّ في نهاية هذا اليوم ما تبقَّى من الأمس وما سوف يبقى من الغد: الشَّوق النَّهِم الذي يَجِلُّ عن الحصر إلى أن أكون نَفْسي والآخر دائهاً على حدٍّ سواء.

إهبط درَجَ أحلامي وسأمي، إهبط من لاواقعيَّتك، إهبط وخُذ مكانَ العالَم.

74

[\$1914]

عبثي

فَلْنَجعل أَنفَسَنا تماثيلَ أَبِي هول، حتَّى لو كانت مُتخيَّلة، حتَّى نبلغ الحالةَ التي لا نعود نعرف فيها ما نحن عليه، فالحقيقة أنَّنا تماثيل أبي هول مُتخيَّلة ولا نعرف في الواقع ما نحن عليه. الطريق الوحيدة التي نستطيع فيها أن نكون على وفاق مع الحياة هي أن نكون على خلاف مع أنفسنا. العبثيُّ مقدَّسُ.

فَلْنَصُغْ نظريًّاتِ ونمعن التَّفكير فيها بصبر وأمانة، كي نناقضها في أفعالنا فحسب، ونبرِّر تلك الأفعال وفق النظريَّات التي تُدين نظريَّاتنا السَّابقة... فَلْنَشُقَ سبيلاً في الحياة ثُمَّ نسلك سبيلاً أخرى ضدَّها على الفور. فَلْنَتْتَحِل كلَّ إيهاءات ومواقف شيء لسنا هُوَ ولا نرغب في أن نكونَهُ، ولا حتَّى نرغب في التَّفكير في أن نكونَهُ،

فَلْنَشْتِرِ الكُتبَ كَي لا نقر أها، فَلْنَدْهِ إلى الحفلات الموسيقيَّة كي لا نسمع الموسيقى ولا نرى مَن غيرنا هُنَاك، فَلْنَدْهِ فِي نزهات طويلة لأنَّنا نكره المشي ونقضي أيَّاماً في الرِّيف لأنَّنا نمقت الرِّيف.

أسطورة إمبراطوريّة

تُخيِّلتي مدينة في الشَّرق. كأنَّ لمنظر معمارها في الفضاءِ الحَقِّ ملمسٌ حِسيٌّ لسجَّادة ناعمة باذخة. تستندُ الحشود، التي تلوِّن شوارعها بألوان مختلفة، على خلفيَّةٍ ليستْ لهم بطريقة أو أخرى، كما لو أنَّهم قد طُرِّزُوا بالأصفر والأحر على أَبهت أقمشة الحرير الأزرق. يرفرف تاريخُ هذي المدينة السَّالفُ برمَّته حول مصباح حُلمي مثل عثَّةٍ لا تكادُ تُسمَعُ في هالةٍ ظلَ الرُّوحِ التي تُنصِت إليها. عاش خيالي الجامحُ ذات يوم وسطَ أَبُّهة وفخامة عظيمتَيْن فتلقَّى من أيدي الملكات جواهر غطَّتها العَتَاقةُ. وكانت رمالٌ عَدَمِي قد فُرشَتْ سِجَّاداً برقَّةٍ حميمة، وغيومُ الطّحالب طافية في أنهاري مثل أنفاس مزفورة غامضة. وهكذا كنتُ أروقةً مُعمَّدةً في حضارة مفقودة، زخرفةً عربيَّةً محمومةً على أفاريز ميِّتة، لطخات سوداءَ عتيقةً على منحنيات أعمدة مكسورة، صواريَ منعزلة فوق حطام سفائن بعيدة، الدَّرَجَ الصَّاعدَ إلى عروش تلاشَتْ، حُجُباً لا تحجبُ شيئاً، وحدها تصعدُ الظِّلالُ والأشباح مثل دخان ينبعث منَّ المباخر المحطَّمة على الأرض. كانت مملكتي مُروِّعة ومريرة طافحة بحروب دائرة على حدود بعيدة عن السَّلام الإمبراطوريِّ الذي ينعم به قَصري. ولكنَّ الصَّخب الْمُردِّدَ لاحتفالات بعيدة ومواكب تمرُّ تحت نوافذي، كان على الدُّوام قريباً، لكنْ لا سمكة ذهبيَّةً داكنةً سبحت في بركي، ولا ثمارَ كَبُرَتُ بين الخُضرة الهادئة لبساتيني، ولا حتَّى الدخان المنبعث من مداخن أكواخ فقيرة حيث يعيش الآخرون سعداء يمكن أن يُهدهد للنَّوم، بأغنياتِ شعبيَّة بسيطة، سرَّ روحي المُضطَّربَ.

يتحاملُ العالمَ الماديُّ (100) في كلِّ يوم عليَّ، حساسيتي (700) مثل شُواظِ نارٍ في الرَّيح. أمشي في الطَّريق فلا أرى في وجوه السَّابلة تعابيرَهُمُ الحَقَّةَ بَلِ التَّعابيرَ التي قدير تدونها لو عرفوا بشأن حياتي وكيف أكونُ، لو أنَّ الغَرابةَ العبثيّة والخجولة لروحي قد تجلَّتُ واضحة في إيها اتي وفي وجهي. أهجسُ في العيون، التي تتفادى عيونى، سخرية أشعرُ بأنَّها طبيعيَّة فحسب، مُوجَّهة إلى الاستثناء غير الأنيق الذي أمثِله في عالم يلتذُ بالأشياء والأفعال، فأخيَّلُ في الأعماق المفترضة لهذه الأسارير العابرة، وأقحمُ فيها وعياً بالطبيعة الخجولة لحياتي التي تعزق في الضّحك. أحاول عبثاً، بعد التَّفكير في ذلك، أنْ أقنع نَفْسي بأنَّني أنا وحدي أصل فكرة سخرية الآخرين هذه، وسلوكهم المخزي المهادِن. ولكنَّها مَا إنْ تتجسَّم في الآخرين، عمرة عير قادر على استعادة صورة نَفْسي بوصفها هيئةٌ مَرِحة. أشعرُ بنَفْسي قد أضحتُ عامضة ومترددة فجأة في دَفيتة تعجُّ بالسُّخرية والبغضاء. ومِن أعاق أرواحهم، يشيرُ كلُّ عامضة ومترددة فجأة في دَفيتة تعجُّ بالسُّخرية والبغضاء. ومِن أعاق أرواحهم، يشيرُ كلُّ واحد بإصبع عيَّ، يرجمُني كلُّ من يمرُّ بغطرسة مُستخفّة مَرِحة. أمشي بين أشباح الأعداء واحد بإصبع عيَّ، يرجمُني كلُّ من يمرُّ بغطرسة مُستخفّة مَرِحة. أمشي بين أشباح الأعداء والخين استحضرتهم مخيَّلتي المريضة وغرستهم في أناس حقيقيِّن. كلُّ شيء يلكزني ويضحك الذين استحضرتهم مخيَّلتي المريضة وغرستهم في أناس حقيقيِّن. كلُّ شيء يلكزني ويضحك عليَّ. بيُد أنَّني، أحياناً، في منتصف الطَّريق عيرَ مَنظُورٍ، بعد كلُّ شيء يلكزني ويضحك باحثاً عن بُعْدٍ فجائيَّ جديدٍ؛ بابٍ يُفضي إلى دَاخلةِ الفضاء، إلى الجهة الأخرى من الفضاء، باحثاً عن بُعْدٍ فجائيًّ جديدٍ؛ بابٍ يُفضي إلى دَاخلةِ الفضاء، إلى الجهة الأخرى من الفضاء، باحثيً عن بُعْدٍ فجائيًّ جديدٍ؛ بابٍ يُفضي إلى دَاخلةِ الفضاء، إلى الجهة الأخرى من الفضاء،

(79) الحساسية (sensibility؛ وفي البرتغاليَّة sensibilidade): «قَوْة الشُّعور بالأحوال الانفعانيَّة كاللَّدات والآلام». (المترجم)

⁽⁷⁷⁾ يبدو أن جول كوست قد سهت عن ذكر عبارة «يوميّات عشوائيّة Diario Ao Acaso» التي خطَّ عليها هذا المقطع، بحبر أسود. وكان بِشوًا قد دوّن العبارة وتحتها خطُّ تعقبه في المنتصف إشارة +. لم تعفل الطبعات البرتغالية المختلفة الإشارة إلى هذا العنوان الخاص بهذا المقطع: طبعة بسارو (المقطع 57)؛ طبعة برادو كويلو (المقطع 52)؛ طبعة زينيث (المقطع 488؛ ولكنه وضع هذا المقطع، في الطبعة الإنگليزيّة التي ترحمها بنفسه، بعنوان منفصل «Random Diary» ضمن ملحق في نهاية الكتاب، أفرده للمقاطع التي عنونها بشوًا بنفسه، نظراً إلى أنّ بِسُوّا كان قد عبر «لاحقُ» عن رغبة في أنه «قد» ينشر هذه المقاطع أو بعضاً سها التي عنونها بشوًا بنفسه، نظراً إلى أنّ بِسُوّا كان قد عبر «لاحقُ» عن رغبة في أنه «قد» ينشر هذه المقاطع أو بعضاً مها في كتاب منفص، على الرُغم من إشارته الخطبة، حين كتبها في الأصل، إلى أنّها جزء من «كتاب القتق». (المترجم) في كتاب منفص، على الرُغم من إشارته الخطبة، حين كتبها في الأصل، إلى أنّها لهذا لجأت جول كوستا إلى ترجمتها به «العالم المادي المتحدام لفظة matter ولكنها تستعمل مفردة material world في الموضع الذي يستخدم فيه بِسُوّا الكلمة في صيغتها المُجرّدة، بحرف استهلاليً صغير، (المترجم)

حيث قد أهربُ دونها إرجاءٍ من وعيي بالآخرين، ومِن حَدْسي المغرق في موضوعيَّته لحقيقة الأرواح الحيَّة للآخرين،

فهل هي عادي في وضع نفسي في أرواح الآخرين هي ما يجعلني أرى نفسي مثلما يرونها أو مثلما يرغبون في أنْ يَرَوْنِي إنْ لاحظوا وجودي هُنَاك؟ أهِيَ ثلك؟ سيبدو الأمر، حين أشعر بها سوف يشعر به الآخرون تجاهي، كأنهم كانوا يشعرون به ويُعبِّرون عنه في تلك اللَّحظة بعينها تماماً. عذابٌ أن أعيش مع أناس آخرين. ثُمَّ هناك الذين يعيشون فِي، ولكنني مُجبَرُ على العيش معهم، حتَّى حين أصرَفُ من الحياة. وحيداً، تَحِفُّ بيَ الحشودُ. لا مكان أهربُ إليه حتَّى أهربَ من نَفْسى،

آهٍ، يا جبالَ الشَّفقِ الشَّاهقةَ، أيتها الشُّوارعَ المُّنوَّرةَ بضَوْءِ القمرِ يا شوارعَ ضيِّقةً أو تكادُ، ليتني تنعَّمتُ بقلَّةِ وعيك بــ [...] رؤيتكِ الرُّوحانيَّة للعالَم الماديِّ، بلا حياةٍ جُوَّانيَّة، مُجزَّداً من الحساسية، بلا أيِّ حيِّز للمشاعر أو الأفكار أو القلَق! وأنتِ، أيَّتها الأشجار التي لن تكون أكثر من مجرِّد أشجار أبداً، بأوراقك الخضراء التي تغمر العيون بهجةً، لا تعبئينَ بهمومي وأحزاني، ولكنَّكِ تُواسين كَربي لافتقارك إلى عيون تراه بها، أو روح تنظر عبر تلك العيون فتسيءُ الفهمَ وتَسخر! أيَّتها الأحجارُ التي على الطَّريق، ويا أيَّتها الأشجارُ المقطوعةُ الرُّؤوس، ويا تُربةَ الأرض الخالصةَ المجهولةَ، إنَّ برودَ مشاعركم تجاه روحي مثل عناق أُختِ، بلسم... تحتَ الشَّمسَ أو أسفِلَ قمر الأرض، أُمِّي، أُمِّي الحنونة، لأنَّكِم لا تستطّيعونُ انتقاديُّ مثلما تستطيع أن تفعل أُمِّي البشريَّة، لأنَّكم لا تمتلكون روحاً تُحلِّلوني بها عن غير قصدٍ، ولا تستطيعون قذفي بنظرات سريعة تستنهض أفكاراً عنِّي لا تستطيعون الاعتراف بها حتَّى لأنفسكم. أيُّها البحرُ الواسع، يا رفيقَ طفولتي الصَّاخب، هَا أنت تجلب لي السَّكينةَ وتُهدهدني فأنتَ لا تملك صوتاً بشرياً ولن تهمسَ ذات يوم في آذان الآدميِّين الآخرين عن عيوبي ومواطن ضعفي. ويا أيَّتها السَّماءُ الرَّحبة، السَّماءُ الزرقاء، يا قابَ قوسَيْنِ أو أدنى من سرِّ اللَّائكِ [...] أنتِ لا تنظرينَ إليَّ بعينَيْن حسودتَيْن، ولا تُدبِّسينَ الشَّمسَ على صدركِ كي تُغريني ولا [...] ولا ترتدين قناعاً من نجوم كي تسخري منِّي... أَبُّنَّها السَّكينةُ الهَائلةُ للطَّبيعةِ، أيَّتها الأُمومِيَّةُ في جهلكِ المُطلَق بِي، ويا هدوءَ الذَّراتِ والأنظمةِ البعيدَ، أيَّها الأخويُّ في عجزك المُطلَق عن معرفتي... أودُّ أن أُصلِّي لرحابتكَ وسَكينتك،

تعبيراً عن امتناني لآنك هُنَا ولآنَني قادرٌ على الحُبِّ بلا شكَّ أو ريبة، أودُّ أن أُلقِي السَّمعَ إلى صَمَمِك، وأرفعَ عينيَّ إلى عَائك السَّامي، أودُّ أن تراني تلك العينان المتخيَّلتان وأن تسمعني تلك الأُذُنان المتخيَّلتان، تغمرني المسرَّة أن أكون في حضرةِ عَدَمِك، أصيخُ إلى ما هُوَ بعيدٌ، كأنّني إلى موتِ مُحقَّق أصيخُ، لا يحدوني أملُ أن أعيش حياةً أخرى غيرَ حياة إله، أبعدَ من احتماليَّة أن أصيرَ عدَماً شهوانياً يتَّخذُ اللَّون الرُّوحانيَّ للهادَّة جمعاء.

77

[1914]

أين الإله، حتَّى لو أنَّه غير موجود؟ أريدُ أن أُصلِّي وأنتحب، أنْ أُكفِّر عن الجراتم التي لم اقترفها، أنْ تغمرني مسرَّةُ أنْ يُغفَر لي كأنَّ الغفرانَ ليس عِناقَ أُمَّ تماماً.

حُضنٌ أَنشَجُ فيهِ، ولكنّه حضن واسع بلا شكل، فسيحٌ مثل ليلةٍ صيف، ولكنّه قريب ودافئ وأنثويٌ، قُربَ مدفأةٍ في مكان ما... أنْ أبكي على الأخطاء التي لا أعرف طبيعتها المُعيّنة أيضاً، وعلى المشاعر الرقيقة تجاه أشياء غير موجودة، وعلى الشكوك المرعبة التي ساورتنى تجاه مستقبل مجهول...

طفولة جديدة، ومُربِّيةٌ عجوز، وسرير صغير تُقَصَّ عليَّ فيهِ، وقد غلبني النُّعاسُ، حكايات لم أكد أسمعُها، ولكنَّني أنصتُّ وقلبي قد أصغَى، أخطارٌ تغلغلتْ في شَعريَ الفَتِيِّ، الذَّهبيِّ كالحنطة... وأنْ أنالَ هذا كُلَّهُ سَحاً غَدَقاً، كأنَّه سرمديُّ وحتميُّ بحجم الإله، هُنَاك في الأعماق الحزينة والهادئة للحقيقة المُطلَقة لـ الأشياء.

حُضن أو مَهْدٌ أو ذراع دافئة حول عنقي... صوت يُغنِّي بنعومة كأنَّه يدفعني إلى ذَرفِ الشَّموعِ... النَّار تُجَرِّحِرُ (80 في الملدفأة... دفءٌ في الشِّتاء... وعيي الطَّائفُ على مهلهِ... ثُمَّ، إذَّاكَ، بلا أيِّ نَاْمَةٍ، حلَّ نومٌ رقيق في فضاء هائل، مثلَ قمرٍ يتدحرج أمام النُّجوم...

وحين أُنحِّي حِيَلي البارعة ثُمَّ بكلِّ حرصٍ وعبَّةٍ -مُتمنِّياً لو أستطيع أن أغمرها بالقُبَل-أُرتُّبُ ألعابي في زاويةٍ، كلماتي، وصوري وعباراتي - أشعر بأنِّي ضئيلٌ، في غاية الضَّالة،

⁽⁸⁰⁾ تطلق العرب على صوت النار في المدفأة/الموقد اسم: الجَرْجَرة. (المترجم)

ومُسالم، ووحيدٌ، شديد الوحدة، في تلك الغرفة الحزينة الكبيرة، يجتاحُ أعماقي الحزنُ!... ولكنْ، بعد كلِّ شيء، مَن أنا حين لا ألعبُ؟ يتيم مسكينٌ هُجِرَ في شارع الأحاسيس المثيرة، يرعشُ بالبرد في زوايا الواقع التي تعصف فيها الرَّيحُ، ولا بُدَّ أن ينام على دَرَج الحُزن ويأكل الخبز الذي يجود به الخيالُ. أعرف اسمَ أبي؛ أخبروني أنَّ اسمَهُ الإله، بَيْدَ أنْ لا معنى للاسم لديَّ. فأحياناً، في اللَّيل، حين أشعر بالوحدة تماماً، أدعوه وأنتحب، ثُمَّ أَخيَّله شخصاً قد أُحبُّه... ثُمَّ أُحدِّثُ نَفْسي بأنَّني حتَّى لا أعرفه، وبأنَّه قد لا يُشبه كلَّ ذلك البتَّة، وربَّما لن يكون أبا روحيَ البتَّة، وربَّما لن

متى سينتهي هذه كلُّهُ، الشَّوارع التي جرجرت فيها بؤسي، وذلك الدَّرَج الذي للمتُ عليهِ نَفْسي كي أَتَّقي البرد، شاعراً بلمسة يديِّ اللَّيلِ الجليدتَيْن تسري عبر أسهالي؟ ... لو أنَّ الإله يأتي ذات يوم ويجدني ويأخذني إلى بيته فينعم عليَّ بالدفء ويغمرني بالمحبَّة... وحبن أفكر جذا، أبكي فرحاً لمجرَّد التَّفكير بأنَّني أستطيع التَّفكير في ذلك... ولكنَّ الرِّيح تضربُ الشَّوارع بالسِّياطِ فتسقطُ أوراق الأشجار على الرَّصيف... أنظرُ فأرى النُّجوم عقيمةً بلا أيِّ معنى... وأنا كلُّ الذي قد تبقَّى، طفلٌ مسكين مهجور، لم يَرْعَبُهُ الحُبُّ ابناً مُتبنَّى، ولم تختَرُهُ الصَّداقةُ رفيقاً تلهو معه.

إنِّيَ باردٌ، بردي شديدُ. سئمتُ حاليَ المهجورة. فاذهبي يا ريحُ واعثري على أُمِّي، ثُمَّ احمليني في اللَّيلِ إلى البيت الذي لم أعرفهُ قطُّ... آهِ أَيُّها الصَّمتُ الفسيحُ، أَعِدْ مُربِّيتي والمهدَ وتهويدةَ النَّوم...

78

[91914]

رسالة

لو أتقبّل فكرة أن يكون واجبكِ مجرَّد مُحلم حالمٍ. أن تكوني مِبخرة في كاتدرائيَّة أحلام يقظتك. أن تُشكِّلي إيهاءاتك كها لو أنَّها أحلامٌ، كي تكون نوافذ تُفتَح على مناظر طبيعبَّة جديدة في روحك. أنْ تُبدعي جسداً -حُلماً، حتَّى يكون كلُّ من يراك عاجزاً عن التَّفكير في أي شيء آخر، حتَّى تذكّريهم بأحد أو شيء إلَّاكِ، حتَّى تكون رؤيتك مثل سهاع الموسيقي أو

كَسَيرِ النَّاتُم عبر مناظر طبيعيَّة شاسعة لبحيرات ميِّنة، وغابات غامضة، صامتة، ضائعة في أعماق عصور أِخرى، حيث يختبر بشرٌ مختلفون ومحجوبون مشاعرَ ليست لدينا.

لا أريدُكِ إلا لكيلا أنالكِ. فلو كنتُ أحلمُ، ثُمَّ تجلَّيتِ، لرغبتُ في أن أكون قادراً على تغيُّل أنّني مازلتُ أحلم، ربَّما إنَّني حتَّى لا ألحظُ أنَّ البحيرات الميِّنة كانت طافحة بنور القمر، وأنَّ أصداء الأغاني كانت تنبعث فجأةً عبر الغابة الشاسعة، الغامضة، الضَّائعة في عصور مستحيلة.

ولسوف تغدو رؤيتك السَّريرَ الذي تغطُّ عليه روحي في النَّوم، كطفلة مريضة، كي تحلم ثانيةً بسياء أخرى. وماذا لو تكلَّمتِ؟ سيكون سياعُكِ حينتذٍ هُوَ ألَّا أسمعَكِ، ولكنْ أنْ أراكِ على جسور ضَوْءِ القمر الهائلة التي تصل الضِّفَّتَيْن المعتمتيْن للنَّهر المتدفِّق من البحر العتيق، حيث المراكب الشراعيَّة الصَّغيرة جديدةٌ إلى الأبد.

79

[?1914]

رسالة؟ خاتمة

لو صادفَ أن أتحدَّ إلى شخص قصيَّ، ولو توجَب عليكِ أن تنهمري غداً -أنتِ يا غيمة المستحيل اليوم - مطراً لا ريب فيه على الأرض، فلا تَشْنِي البَّةَ أصولَكِ الإلهيَّة بوصفك حُلماً من أحلامي. فَلْتَكُوني دائماً شيئاً يستطيعُ أن يكون حُلمَ شخص وحيدٍ وليسَ ملاذاً للمحبوب البتَّة. فَلْتَصنعي من واجبك جسماً فارغاً. لَبِّي نداءكِ مثل قارورة عتيقةٍ تفيضُ. ولا يقولنَّ أحدٌ عنكِ ما قد تقوله روح النَّهر لضفَّتيه اللَّتَيْن لا تُوجدان إلَّا لِتَحبسانه. حَقِيقٌ بكِ ألَّا تتركي أحلامك تجفُ.

فَلْتَكُمُنْ عَبَقريَّتُكِ فِي أَنَّكِ فائضةً، ولتكن حياتُكِ فنَّ النَّظرِ إلى الحياة؛ في أنْ تكوني النَّظرةَ التي ليستُ نَفْسَها البَتَّةَ. إِيَّاكِ أن تكوني أكثرَ من ذلك أبداً.

ولستِ اليومَ إِلَّا الصُّورَة الشَّخصيَّة المُستلَّة من هذا الكتاب، السَّاعة التي تجسَّدتُ مفصولةً تماماً عن السَّاعات الأخرى. لو تيقَّنتُ بأنَّ هذا ما كنتِ عليهِ، لأَقمتُ ديانةً حول مُحلم أن أُحبَّكِ.

أنتِ ما ينقصُ كلَّ شيءٍ. وأنتِ ما يطلبه كلُّ شيءٍ كي نكون قادرينَ على حُبُّه دائماً. وأنتِ مفتاحُ أبواب المعبدِ الضَّائعُ، والمرُّ السريُّ إلى القصر، والجزيرةُ البعيدة التي يلفُّها السَّديمُ إلى الأبدِ ولا تُرَى أبداً...

80

[91914]

رسالة

ولقد رأيتني أنظرُ إليكِ، مرَّاتٍ غير معروفة شهوراً كثيرة، أنظرُ إليك ولا أكفُّ، بالنَّظرة المُتردِّدة القَلِقة ذاتها. أعرفُ أنَّكِ قد لاحظتِ. ولا بُدَّ أنَّكِ قد استغربتِ، إذْ لاحظتِ أنْ نظرتي التي ليست خجولة تماماً لم تحمل في ثنايا نَفْسها أيَّ معنى البتَّة. نظرة مُبالية، وغامضة، لا تتبدَّلُ بتاتاً، كأنّها قد اكتفتْ بأن تكونَ مجرَّد حُزن ذلك الحواء... ليس إلَّا... وفي أعاق أفكارك عن هذا -أياً كان الشُّعور الذي انتابكِ حين فكرتِ فييً - لا بُدَّ أنَّكِ قد أمعنتِ النَّظر في نواياي المحتملة. ولا بُدَّ أنَّكِ قد حدَّثتِ نَفْسكِ، دونَ أن تَرْضَيْ تمامَ الرِّضا عن تفسيرك بأنَّني لا بُدَّ أن أكون إمَّا رجلاً شديد الخجل من طينة أصيلة شديدة الغرابة، وإمَّا شيئاً قاب قوسَيْن من الجنون أو أدنى، وفيها يتعلَّق بنظري إليك، يا سيِّدتي، فلستُ رجلاً شدول أبكلُ ما في الكلمة من معنى، ولستُ مجنوناً تماماً. أنا شيء آخر، مختلف كُليَّة، مثلها سوف أشرح، لا يحدوني أمل كبير في أن تصدِّقيني فعلاً.

كم مرَّةً همستُ إلى نَفْسكِ المحلوم بها: فَلْتَصنعي من واجبك قارورةً عتيقة بلا جدوى لئي نداء أن تكوني جسماً فارغاً ليس إلَّا. وكم انتابني الحنين إلى الفكرة الباطلة الني رغبتُ في أن أُكوِّنها عنكِ حين أدركتُ، ذات يوم، أنَّك قد كنتِ متزوِّجة! كان اليوم الذي عرفت فيه ذلك مأساةً في حياتي. لم أغَرْ من زوجكِ. لم يخطر ببالي أنَّ لكِ زوجاً، فلقد اشتقتُ إلى فكرتي عنك، ليس إلَّا. سيكون ألمي عظيماً عِظَمَ الألم الذي سوف أشعر به لو اكتشف ذات يوم الحقيقة المجرَّدة بأنَّ امرأةً في لوحة -نعم، في لوحة - كانت متزوِّجة. فهل أردتُ امتلاكك؟ أنا لا أعرف حتَّى كيف أمضي في امتلاك شخص. وحتَّى لو حملتُ في داخلِ الوصمة البشريَّة في أن أعرف ذلك، فيا لجزيي من نَفْسى، ويا لها من إهانة ما بعدها إهانة الوصمة البشريَّة في أن أعرف ذلك، فيا لجزيي من نَفْسى، ويا لها من إهانة ما بعدها إهانة

لعظمتي، أَنْ أُفكِّر حيَّي في أن أضع نَفْسي في المستوى ذاته مع زوجكِ!

أَملكُكِ؟ فقد يتسلَّطُ عليكِ مُعتد، وأنت تمشين ذات يوم وحيدةً في شارع معتم، فيملككِ، وقد يُحبِّلكِ وحتَّى إنَّه قد يُخلِّفُ وراءَهُ بعض أثرٍ في الرَّحم. بَيْدَ أنَّه لو كان امتلاكُكِ يعني امتلاكَ جسدكِ، فيا نفعُ ذلك؟

تقولين إنَّه لم يكُن قادراً على امتلاك روحك؟ فكيف لِامرِئ أن يملكَ روحاً؟ ولو تمكن عاشقٌ ماهرٌ · زوجُكِ، على سبيل المثال- من امتلاك تلك «الرُّوح»، فهل سأكون راغباً في أن أنحطً إلى دَرِّكِهِ الأسفل؟

كم ساعةً أفنيتُ في عشاءِ ربَّانيِّ سرِّيِّ مع فكري عنكِ؟ وكيف أحبَّ أحدُنا الآخرَ في أحلامي! ولكنَّني حتَّى هُنَاك - أُقسِمُ- لم أُحُلمِ البَّنَّةَ بامتلاككِ. فأنا رقيقٌ وعفيفٌ حتَّى في أحلامي. حتَّى إنَّني أُبجِّلُ الحُلمَ الذي أحلم فيه بامرأةٍ جميلة.

81

[?1914]

[نصيحة إلى المتزوّجات التّعسات]

أَتَمَنَّى أَن تَحَطَينَ، أَيَّتُهَا الْمُريدات العزيزات، بناءً على نصيحتي الشخصيَّة، بِلذَّاتٍ مضاعفة لا تنضب، ليس مع الحيوانِ الذَّكِرِ الذي قيَّدتكُنَّ به الكنيسةُ أو الدَّولةُ -سواءٌ بالرَّحم أو الاسم الأخير- وإنَّها من خلالهِ.

فالطَّائرُ لا يُحلِّق إلَّا حين يضغطُ قدميه بقوَّةٍ على الأرض. فَلْتَكُنْ تلك الصُّورة، يا بُنَيَّاتِي، تذكرة دائمة بالوصيَّة الرُّوحانيَّة الوحيدة اللهمَّة.

كُنَّ بِنَاتِ هُوى، عربدنَ بكلِّ رذيلةٍ، دونَ أَن تَخُنَّ أَزُواجِكنَّ حَتَّى لَوْ بِنَظْرَةٍ – فكُّرنَ كم سيكون ذلك ممتعاً لو استطعتنَّ تحقيقَهُ.

كُنَّ بناتِ هوى في دخيلتِكُنَّ، خُنَّ أَزُواجِكُنَّ من الدَّاخلِ، خُنَّهُم حين تعانقونهم، وفي القُبَل التي تلثمونهم بها، وأنتن تُفكِّرنَ في شخص آخر -آهِ أَيَّتها النِّساءُ العالياتُ، يا تَبِيعاتي القُبَل التي تلثمونهم بها، وأنتن تُفكِّرنَ في شخص آخر -آهِ أَيَّتها النِّساءُ العالياتُ، يا تَبِيعاتي العقلانيَّات الغامضات- هُنا تكمنُ اللَّلَّةُ الحَقَّةُ. ولمَ لا أسدي النَّصيحة ذاتها إلى الرَّجال؟ لأنَّ الرَّجل كائنٌ مختلف. فلو كان من النَّوع الأدنى، لنصحته بأن يتمتَّع بالنِّساء على قَدْر ما

يستطيعُ: عليكَ بذلك واستمتع بالشّخرية منّي حين [...] فلا حاجة للرَّجل الأعلى إلى أيِّ امرأةٍ قطُّ. فهو لا يحتاج إلى أن يملك أحداً جنسياً كي يذوق اللَّذَة. والنِّساء، حتَّى النِّساء العاليات، لا يستطعن قبول ذلك، فالنساء مخلوقات جنسيَّة في المقام الأوَّل.

82

[\$1915]

أبحثُ عنّي (اه) فلا أجدُ أحداً. أنتمي إلى ساعة الأقحوانِ؛ ساعةِ الزُّهور الزَّاهية في مزهريَّاتٍ طويلة. فلقد خلق الله نَفْسي (٤٥) زينةً.

لا أَعْرِفُ أَيَّ التَّفاصيل الرَّائعةِ سَأَختَارُ كي أُعرِّفَ جوهر روحي (83). ولا شُكَّ آنَني أُحبُّ الزِّينة، لأنَّ فيها شيئاً أُحسُّ بأَنَّهُ يطابق كُنْهَ (84) نَفْسي.

i 83

[91915]

كلُّ ما صنعته هُوَ أن أحلم أبداً. ولقد كان ذلك، وذلك وحده، معنى وجودي. فالشَّي، الوحيد الذي حرصتُ عليه حقًا هُوَ السِّيناريو الدَّاخلي الخاصّ بي. تفنى أحزاني العظمى لحظة أفتح النَّافذة على أحلام يقظتي وأنسى نَفْسي مُستغرقةً في النَّظر.

لم أحاول قَطُّ أن أكون أيَّ شِيء سُوى حالم. ولم أُعِر اهتمامي إلى الذين أخبروني بأن أخرج وأعيش. فلطالما انتميتُ إلى كلِّ ما هُو بعيد عنِّي وإلى كلِّ ما لم أستطع أن أكونَهُ أبداً. فأيُّ شيء لم يكُن لي، مهما كان وضيعاً، قد لاح طافحاً بالشِّعر. كان الشَّيء الوحيد الذي أحبته عدَماً محضاً. لم أشتهِ البتَّهَ ما كان فوقَ تخيُّلاتي. فلقد كان كلُّ الذي طلبته من الحياة هُوَ أَنْ

⁽⁸¹⁾ أستخدم، هُنَا، عبارة «عني» في مقابل عبارة myself (وفي الأصل البرتغالي: usco-me) التي تعبي نَفْسي اذاتي، للتفريق بينها وبين كلمة soul التي تعني النّفس (التي هي ذات الإنسان) وبين كلمة spirit (وفي الأصل البرتغالي: espirito) التي تعني لرّوح. ولقد أحسنت جول كوستا الصّنعة حين لجات إلى مثل هذا التّفريق، خلافاً لريتشارة زينيث الذي آثر في طبعته الإنگليزيَّة استخدام لفظة soul في كلا الموضعين. (المترجم)

⁽⁸²⁾ النَّفس من بمعنى soul وليست بمعنى spirit كما بيَّنا في الحاشية السابقة. (المترحم)

⁽⁸³⁾ لرُّوح هذ عمني spirit وليست معنى soul و منابينا في الحاشية السابقة. (المترجم)

⁽⁸⁴⁾ استخدمت هنا لفظة كُنْه مقابلاً لكلمة substance (في البرتغلية: substancia) لتتّفريق بينها وبين كلمة الجوهر essence (في البرتغاليّة. feitjo) التي يستخدمها بِسُوّا حين يتحدث، في السطر السابق، عن جوهر الرُّوح. (المترحم)

ثمرَّ دونَ حتَّى أن أشعر بها. ولم أطلب من الحُبِّ سوى ألَّا يكون البَّة أكثرَ من حلم بعيد. ولقد كان البعيدُ، في المناظر الطبيعيَّة غير الحقيقيَّة التي فِيَّ، هُوَ الذي جذبني دائهً، والمعالمُ الضَّبابيَّة للقناطر المائيَّة، التي تكادُ تضيع في مدى المناظر الطبيعية التي أحلم بها، مُضفيةً عذوبةً حُلميَّة على الأجزاء الأخرى من المناظر الطبيعيَّة، عذوبةً مكَّنتني من أن أُحبَّها.

لم يفارقني هوسي المحموم بإيجاد عالم باطل ولن يتركني إلَّا حين أموتُ. لم أعُد أَصفُ بكرات القطن والبيادق في أدراج مكتبي -والفيل والفرس مرميَّان كيفها اتَّفق- ولكنَّني أندم على تركي تلك العادة... بَيْدَ أَنَّني رحتُ، عوضاً عن ذلك، أَصفُ في مخيَّلتي، كشخص في الشِّناء، يلتمس الدِّفء قُرب النَّار، مراتب شخصيًّات حيَّة، ودائمة، تسكنُ عالمي الجوَّانيَّ. فثمَّة عالم كامل من الأصدقاء فِي، يعيشون فيه حيواتهم الحَقَّة والمحتومة والنَّاقصة.

يجورُ الزَّمان على بعضهم، ويعيش بعضٌ حياة بوهيميَّة رائعة ومتواضعة. ويعض آخر يعمل مندوب مبيعات جوَّالاً (كان حلمي بأن أكون مندوب مبيعات جوَّالاً واحداً من أعظم طموحاتي – ولكنَّه لسوء الحظِّ لم يتحقَّق قط!). ويعيش بعضهم في قرى وبلدات قُرب حدود برتغال أحملها فييً؛ يأتون إلى المدينة حيث يصدف أن أقابلهم فأعرفهم وأعانقهم بحرارة... وحين أحلم بهذا كلِّه، ذارعاً غرفتي جيئة وذهاباً، متحدِّثاً بصوت عالى، مُومِئاً... حين أحلم بهذا كُلِّه، ذارعاً غرفتي جيئة وأشعر بأنِّ كامل، فأنظُ من الفرح، وتلمع عيناي، فأفتح ذراعيَّ هم تجتاحني سعادة هائلة لا تُوصَف.

آهِ، لا حنينَ أشدَّ إيلاماً من الحنين إلى الأشياء التي لم تكن قطًا ما أشعر به حين أفكر في الماضي الذي عشته في الزَّمن الواقعيِّ، وحين أنتحبُ على جثَّة طفولتي الضَّائعة... حتَّى هذا لا يُقارن بالاحتدام المؤلم الواجفِ الذي ينتابني حين أبكي لا واقعيَّة الأجسام المتواضعة التي تعمُّرُ أحلامي، حتَّى إنَّني أستطيع تذكُّرَ بعض الشَّخوص الثانويَّة التي لمحتها مرَّة فحسبُ صُدفة في حياتي الباطلة، حين انعطفتْ حول زاوية في السِّيناريو الذي تخيَّلتُه، داخلة باباً في شارع كنتُ قد مشيئة في أثناء ذلك الحُلم.

والغضب الذي يعتريني، حين أعرف أنَّ الحنين المحضَ عاجزٌ عن إحياء الماضي وبعثه من رُقادهِ، لم يكُن قد صُبَّ جامُهُ، وقد اغرورقت عيناي بالدُّموع، على الإله الذي خلق هذه المستحيلات أكثر ممَّا حين أنتبهُ إلى أنَّ أصدقاء حُلمي، الذين شاركتهم تفاصيل كثيرة

جدًا من حياتي المُتخيَّلة، الذين استمتعت معهم بأحاديث رائعة في مقاه متخيَّلة، لم يكن لديهمُ البيَّة مكانٌ يخصُهم يستطيعون فيه أن يكونوا مستقلِّين عن وعيى بهم! آه، الماضي المينت الذي أحمله معي، الماضي الذي لم يُوجِد بتاتاً إلّا فِيَّ! الأزهار التي في حديقة البيت الرِّيفيِّ الصَّغير الذي لم يُوجِد إلَّا فِيَّ! حدائقُ الخُضر، والبساتين وغابة السَّرو للعزبة التي الرِّيفيِّ الصَّغير الذي لم يُوجِد إلَّا فِيَّ! حدائقُ الخُضر، والبساتين وغابة السَّرو للعزبة التي لم تكن إلَّا واحدةً من أحلامي! المنتجعات الصَّيفيَّة المُتخيَّلة، نزهاتي ماشياً عبر الرِّيف الذي لم يكن قطُّ! الأشجار على قارعة الطَّريق، والممرَّات الرِّيفيَّة، والأحجار، والقرويُّون الذين يمرُّون... وهذا كلَّهُ، الذي لم يكن أكثر من حُلم أبداً، مُغلَقٌ بعيداً في ذاكرتي، ومُسجَّى يُولِمُ، وأنا، الذي بدَّد ساعات في حُلم ذلك كُلَّه، يغمرني حنين خالصٌ، أنتحبُ على ماضِ حقيقيَّة هي ميَّتةٌ وأُحدِّقُ فيها بهيبةٍ وهي مُسجَّاة في الكفن.

وهَا هِيَ المناظر الطُّبيعيَّة والحيَوات التي لم تكُن جُوَّانيَّةً تماماً. فبعد قضاء عدَّة ساعات. على سبيل المثال، في صحبة صور أو مطبوعات حجريَّة مُعيَّنة (لا تتمتَّع بأيِّ ميزة فنيَّة عظيمة) معلَّقة على جدران غرف مُعيَّنة، تغدو تلك الصُّور بعضاً من حقيقتي الجُوَّانيَّة. وكان الألم الذي شعرت به إِذَّاكَ مُحتلفاً، أَمَضَّ وأحزنَ، سواءٌ أكان المشهد حقيقياً أم غير ذلك. كابدتُ أَلَّا أَكُونَ بَعْضَ رَوْسَمَ صَغْيَرَ فِي غَرَفَةً لَمْ أَنَمْ فِيهَا حَقَيْقَةً البُّنَّةَ حَيْنَ كَنْتُ أَيْفَعَ، كابدتُ أَلَّا أكون، على أقلِّ تقدير، جسماً إضافياً خُطٌّ على حرفِ الغابة المُقْمِرة. ولقد أوجعني ألَّا أكون قادراً على تخيُّل نَفْسي مخبوءةً هُنَاك، في الغابة قُربَ النَّهر، في ضَوْء القمر الأبديِّ ذاكَ (حتَّى لو كان رديءَ الرَّسْم)، أرقبُ رجلاً يعبرُ في قارب أسفلَ الأغصان المُتدليَّة لشجرة صَفصاف. أوجعني عجزي عن أن أحلم بهذا كلُّه. فحنيني قد تنكُّبَ خصائصَ أُخرى. كانت إيهاءاتي اليائسة مختلفة. وتمخِّض عن الاستحالة التي عذَّبتني حالةٌ تبريح مختلفة. ليتَ هذا يجد بعض معنى في الإله، بعضَ تحقُّقِ يليقُ بروح رغباتنا، لا أعرف أينَ ۖ بالضَّبط، ربَّها في بعض زمن عموديٍّ، متوحِّدٍ في جوهره مع جميع اشتياقاتي وأحلام يقظتي. ليتني امتلكتُ فردوسيَ الخاصّ المخلوق لهذي الغاية. لو استطعت مقابلة الأصدقاء الذين حلمت بهم، أو المشي في الشوارع التي أوجدتُها، أو الاستيقاظ على أصوات الدِّيَكة الصَّغيرة والدَّجاجات وضوضاً المنزل الصباحيَّة، المنزل الرِّيفيِّ الذي تَخيَّلتُ نَفْسِيَ فيهِ... ولقد حلمتُ بهذه الأشياء كأنَّ الله قد خلقها في أحسن تقويم وهداها سواءَ السَّبيل لتكون طوع بناني في ذلك الشَّكل الذي

جُبِدَتْ عليه بالضَّبط، الشَّكل الذي لا يمكن تحقيقه حتَّى في أحلامي، الذي لا يفتقر إلَّا إلى بُعْدِ الفضاء الجوَّانيِّ الذي تشغله تلك الحقائق البائسة.

أُشيحُ ناظريَّ عن الصَّفحة التي أكتب عليها... مازال الوقت مبكِّراً، فلقدِ انقضتِ الظَّهرة، وإنَّه ليوم الأحد. سَقَمُ الحياة ومحنة وعيي يدخلان جسدي فيزعجاني. لم لا تُوجَد جُزُرٌ لأولئك الذين لا يشعرون بالرَّاحة هُنَا، وجادَّاتٌ عتيقة كي يحلم الوحيدون فيها، ولا يعثر عليها الآخرون؟ أن يتوجَّب عليَّ أن أعيش، مها كان عيشي ضعيفاً، وأن أفعل؛ أن يجرحني حقيقة أنْ ثمَّة في الحياة أُناسُ آخرون ليسوا حقيقيِّين هُم أنفسُهم. وأن يتوجَّب عليَّ أن أكون عاجزاً عن الحُلم، ليس علي أن أكون عاجزاً عن الحُلم، ليس علي أن أكون هُنَا أكتبُ هذا، لأنَّ روحي تطلب ذلك، وأن أكون عاجزاً عن الحُلم، ليس إلا، وعن التَّعبير عنه بالكلمات، حتَّى من دون وعي، عبر نَفْسِ أخرى أستطيع إنشاءَها من الموسيقي والفَناء، وأن تطفح عيناي بالدُّموع لمجرَّد الشُّعور بذلك التَّعبير عن نَفْسي، وأن أشعر بتَفْسي وهي تتدفَّق، مثل نهر مسحور، جاريةً أمام الضِّفتَيْن المتوانيتَيْن لتَفْسي ذاتها، أشكر بَفْسي وهي تتدفَّق، مثل نهر مسحور، جاريةً أمام الضِّفتَيْن المتوانيتَيْن لتَفْسي ذاتها، أشدَّ قُرباً إلى اللَّشعوريِّ والبعيد، بلا معنى أو وُجهةٍ إلَّا الله.

84

[نحو 7 يناير 1915]

اعتدتُّ أن ألعب بالشاحنات الصَّغيرة، حين كنتُ طفلاً... ولقد أحببتها محبَّةً مؤلمة -أنَّى لِي أن أتذكَّر ذلك تماماً!- ولقد كانت تلك المحبَّةُ طافحة بالشَّفقة بالحنان، لأنَّها لم تكُن حقيقيَّةً...

ويا لبهجتي حين وضعتُ بديّ، ذات يوم، على بفيّة مجموعة شطرنج! أَسميتُ كلَّ قطعة على الفور، فأضحت كلُّها جزءاً من عالم أحلامي.

ثمَّ باتتْ شخوصاً عيَّزة، تتمتَّع كلُّ قطعة بحياتها الفرديَّة. عاش أحدهم -الذي منحته اسم شخصيَّة رياضيَّة طائشة- في صندوق فوق صندوق أدراجي، فكان، بعد أن أعود، وهُوَ بالطَّبع، من المدرسة بعد الظَّهيرة، يسافرُ في حافلة كهربائيَّة (85) صُنعَتْ من أعواد ثقابٍ

⁽⁸⁵⁾ آثرت استحدام عبارة «حافلة كهربائية» وليس ترام أو ترامواي (بحسب الترجمة الإنگليزيَّة) لأنَّ بِسُوَّا يستخدم في الأصل عبارة «carro electrico». (لمترجم)

شُدَّ بعضُها إلى بعض بسلكِ على نحو ما. وكان دائماً يقفز من الحافلة وهي تسير. آه، يا طفولتي الميَّتة! أيَّتها الجثَّةُ الحيَّةُ في صدري أبداً! فحين أتذكَّر الدُّمى التي لعبتُ بها طفلاً كامل النُّضج، تغرورق عينايَ بدموع حارَّة، وينخبُ قلبي حنينُ عارم أجوف، كأنَّه نَدَمٌ. ولقد انقضى كلُّ شيءٍ في هذه الأثناء، وسوف يظلُّ في الماضي ميِّتاً وقاسياً، بادياً للعيان أو قابلاً للتصوُّر، في فكرتي الأبديَّة عن غرفة نومي في الوقت الذي، حول نَفْسي العصيَّة عي التصوُّر كطفلة، مرئيَّة من الدَّاخل، تخرجُ من صندوق الأدراج إلى منضدة الزِّينة ومن منضدة الزِّينة ولمن منضدة الزِّينة عبر الهواء، متخيِّلة أنّها جزء من شركة الشَّاحنان الحقيقيَّة، ناقلة تلامذتي الحشبيِّين المُضحكين إلى البيت.

وكنتُ قد نسبتُ إلى بعضهم بعضَ الرَّذائل -التَّدخين أو السَّرقة- ولأنَّني لستُ كائناً جنسياً، فلم أنسب أيَّ أفعالِ لهم، ما خلا الرَّغبة ربَّها، التي اعتقدتُّ بأنَّها مجرَّد رغبة لعوب، في تقبيل الفتيات ومحاولة اختلاس نظرة خاطفة إلى سيقانهنَّ. وكنتُ أترك تلامذي مختبئين خلف صندوق كبير فوق صندوق أمتعةٍ، حيث «يدخِّنون» مِزقةً من ورقة ملفوفة، وقد يأتي أحد الأساتذة أحياناً. كان الفزع يعتريني طيلة الوقت بقَدْر ما فزعوا، فلقد شعرت بأنِّي مجبر على الشُّعور بها كانوا يشعرون به، فكنتُ أُخبِّئ السيكَارة المزيَّفة، وأضعُ المدخِّن في الزَّاوية، ناظراً بكُسل تملؤني الرِّيبة، منتظراً الأستاذكي أُحيِّيه، لا أذكر كيف بالضَّبط، حين كان لا بُدَّ أن يمرَّ ماشياً... وأحياناً تبدو الشخصيَّتان بعيدتين كلُّ البُّعْد بعضهما عن بعض، فلا أستطيع، بيدٍ واحدة، أن أناور بهما سويَّةً. فكنتُ أضطر، حينئذ، إلى أن أحرِّك كلُّ واحد منهما تباعاً، فتألَّتُ كما أتألُّم اليوم لعجزي عن التَّعبير عن الحياة... ولكنْ لماذا أتذكُّر هذا كلُّه؟ لمَ لَمْ أظلَّ طفلاً إلى الأبد؟ لمَ لَمْ أمُّت هُنَاك وحينتذِ، مُستغرقاً في حِيَل تلامذني ووصول أساتذتي الذِّي كأنَّه غبر متوقَّع؟ لا أَسَتطيع فعل ذلك الآن... فلا شيءَ لديَّ اليومَ إلَّا الواقع، ولا أستطيع اللَّعب مع ذلك... الطُّفل المسكين المنفيِّ في رجولته! لمَ توجَّب عليَّ أن أكبر؟ اليومَ، حين أتذكَّر هذا، يغمرني حنينٌ إلى الأشياء الأخرى أيضاً، فُلقد ماتت أشياء كثيرة فِيَّ عدا ماضيَّ فحسبُ.

[\$1915]

السبيل الوحيدة لاختبار أحاسيس مثيرة جديدة أنْ تُعمَّر لنَفْسك روحاً جديدة. ستذهب كلُّ جهودك أدراجَ الرِّياح لو رغبتَ في الشُّعور بأشياء أخرى دون أن تشعر نَفْسُك بطريقة غتلفة، وأن تفعل ذلك دون أن تتغيَّر روحك. فالأشياء مثلها نشعر بها -فكم مرَّة فكَّرت بأنَّك قد عرفت هذا الشَّيء دون أن تعرفه حقاً ؟ - والسبيل الوحيدة لامتلاك أشياء جديدة، للشُّعور بأسياء جديدة، للشُّعور بأسياء جديدة، هي أن تجد طريقاً جديدة للشُّعور بها.

غيِّر روحك. ولكن كيف؟ هذا ما يتوجَّب عليك الاشتغال عليه.

فنحن أرواح تتغيَّرُ على مَهَل، منذ اليوم الذي نُولَدُ فيه حتَّى اليوم الذي نموت فيه، وأجسادُنا، كذلك، تتغيَّرُ. جِدْ سبيلاً لتجعل ذلك التَّغيير أسرع، بسرعةِ التَّغيير الذي يدبُّ في أجسادنا حين نمرض أو نتعافى.

86

[\$1915]

نصيحةٌ إلى المتزوِّجات التَّعيسات

أعرضُ عليكِ أن أعلمكِ كيف تخدعين زوجكِ، ولكنْ في مخيِّلتكِ تماماً، لا أكثر. صدِّقيني، لا تخدع أزواجها حقاً إلَّا المخلوقات المبتذَلة، فالعِفَّةُ شرط أساسيًّ لتحقُّق اللَّذَة الجنسيَّة. والعفَّة لا تموت إلَّا حين تمنحين نَفْسكِ لأكثر من رجلٍ واحد.

أُقرُّ بِأَنَّ دُونِيَّة امرأةٍ تعني أنَّها لا تطلبُ رجلاً. ولكنَّني أعتقدُ بأنَّهاً لا بُدَّ أن تُقيِّد نَفْسَها برجل واحد فحسب، ولكنْ أن تجعل منه، عند الحاجةِ، مركزَ دائرةٍ مُوسَّعة من رجال مُتخيَّلين.

> وأفضل الأوقات للقيام بذلك في الأيَّام التي تسبق الطَّمَث. وبناءً عليه:

تخيَّلي جسد زوجكِ أبيضَ ممَّا هُوَ عليه. فإن نجحتِ في التخيُّل، فسوف تختبري الجسد المستلقي فوقكِ أنصعَ بياضاً ممَّا هو عليه.

وإِيَّاكِ الْافراطَ في الحِسيَّة. قبِّلي زوجكِ المستلقي فوقكِ واستبدليهِ في مخيِّلتكِ بالرَّجلِ الوسيم المستلقى فوق روحكِ،

فَجُوهِرِ اللَّذَّةِ كَامِن فِي أَنَ تُقسِّمِي نَفْسكِ إلى أكثر من نَفْسٍ واحدة. شرَّعي النَّافذةَ إلى المَاكِر فيكِ.

كيف تزعجين زوجكِ.

فلا بُدَّ أن يستشيط زوجك غضباً، بين حين وآخر.

ابدئي، أوَّلاً، بالانجذاب إلى الأشياء التي تَنفرين منها، دون أن تفقدي شيئاً من انضباطكِ الخارجي.

ينجم عن اختلاط الفوضي الجوَّانيَّة العَميمة بالانضباط الخارجي العميم قَلْرٌ مثالًى من الحِسيَّة. فكلُّ إيهاءة تُحقِّقُ حُلهاً أو رغبةً هي في الواقع تُبطِل تحقُّق ذلك الحُلمَ وتلك الرَّغبة.

وليس الاستبدالُ على قَدْر الصُّعوبة التي تظنَّينَها. وأعني بالاستبدال ممارسةَ أن تتخيَّل نَفْسك تذوقين المتعة مع هذا الرَّجل في الحِين الذي تجامعين فيه ذاك.

87

[91915]

رسالة

لن أعرف أبداً كيف أتزَّلفُ إلى روحي كي تُقنعَ جسدي بأنْ يَمْلِكَ جسدكِ. حنَّى إِنْ التَّفكير في ذلك يجعلني أصطدم بعراقيل محجوبة فِيَّ، وأنْ أختلطَ داخل شِبَاكِ غبر معروفة. وما الأشياء الأخرى التي سوف تُصيبني لو رغبتُ في امتلاككِ حقاً؟ أُكرِّرُ أنّني سأكون عاجزاً عن المحاولة. لا أستطيع حتَّى أن أجعل نَفْسي تحلم بأنَّها تفعلُ.

هذه، يا سيّدي، الكلماتُ التي لا بُدَّ أن أكتبها في هامشِ المعنى الذي تُثيره نظرتُكِ اللَّاإِراديَّة المُستفهمة؟ وفي هذا الكتاب سوف تقرئين لأوَّل مرَّة هذي الرِّسالة الموجَّهة إليك، ولو أخفقتِ في فهم أنَّها موجَّهة إليك، فسوف أجعلُ نَفْسي تذعنُ إلى تلك الحقيقة. أكتبُ كي أُسلِي نَفْسي أكثرَ عَمَّا أودُّ أن أخبركِ بشيءٍ. فالرَّسائل التجاريَّة، وحدها، هي التي تكون موجَّهة إلى شخص بعينه. ولا بُدَّ لجميع الرَّسائل الأخرى، فيها يخصُّ الرَّجل الأعلى على الأقل، أن تكون مكتوبة لِنَفْسهِ فحسبُ.

لا مزيدَ قَوْلِ لديَّ إليكِ. فصدِّقيني حين أقولُ إنَّني معجبٌ بكِ بِقَدْر ما أستطيع الإعجابَ بأيِّ شخص آخر. ولسوف أفرحُ لو خطرتُ على بالك بين تارةٍ وأخرى.

88

[1915]

قادني الأبتعاد، الذي فرضته على نَفْسي، عن مقاصد الحياة واتّجاهاتها، والانقطاع، الذي فرضته على نَفْسي، عن أيّ صِلَة بالأشياء، إلى ما أحاول الهروب منه بالضّبط. لم أرغب في الهروب من الإحساس بالحياة أو لمس الأشياء، فلقد عرفتُ من مناسبات سابقة كان فيها مزاجي على صلة بالعالم أنّ الإحساس المثير لكوني على قيد الحياة بدا مؤلماً بالنّسبة إليّ على الدّوام. ولكنّني، في تجنّب تلك الصّلة، قد عزلتُ نَفْسي، ثُمّ فاقمتُ حين عزلتُ نَفْسي على الدّوام. ولكنّني، في تجنّب تلك الصّلة، قد عزلتُ نَفْسي، ثُمّ فاقمتُ حين عزلتُ نَفْسي ولكنّ تلك العزلة المُطلقة مستحيلةً. وبصرف النّظر عن قلّة ما أفعل، فإنّني مازلتُ أتورك. وهكذا، وحساسيتي تُفاقم وبصرف النّظر عن قلّة ما يتوجّب فعله، فإنّني مازلتُ أتحرّك. وهكذا، وحساسيتي تُفاقم عزلتي، أجدُ أنّ أصغر الأشياء، التي لم يكن لها أيّ تأثير في السّابق حتّى عليّ، قد باتتُ تنهال عزيرة وتجرحني كمثل أسوأ الكوارث. لقد اخترتُ وسيلة الهروب الخاطئة. سرتُ في طريق مختصرة شاقة قادتني إلى حيث كنتُ، فازداد رعبُ العَيْش سوءاً هُناكَ مُخلطاً بِتَعب الرّحلة. لم أُفكر في الانتحار حلا قطّ، فأنا لا أكره الحياة إلّا لاّنَي أحبُها. استغرقتُ وقتاً طويلاً لم قنسي بشيء، فذلك يعني فقدانَ وهم آخر من أوهامي.

ولقد قتلتُ إرادي، حين حلَّلتُها، ماذا سأمنح لأعود إلى طفولتي قبل أن أتعلَّم كيف أحلًل، لأعود حتَّى إلى الزَّمن الذي يسبق الزَّمن الذي ملكتُ فيه إرادي! نومٌ ثقيل يملاً حدائقي، بركُ تستلقي نَعْسى تحت شمس الظَّهيرة، وجلبةُ الحشرات تنثالُ في السَّاعة والحياةُ شديدةُ الوطأة علي، ليست كُون وإنَّما مثل وجع جسديٌ لا يكفُّ. قصورٌ بعيدة، ومتنزَّهاتُ للاستغراق في الأحلام، والخطوط الضيَّقة لجادًات بعيدة، والرَّوعةُ البائدة للمقاعد الحجريَّة التي شُيِّدت من أجل الذين كانوا ذات يوم - أُبَّهات بائدة، وأناقة خَرِبة، وحليُّ رخيصة مفقودة. أيَّها الحنينُ العذب الذي ينزلقُ إلى النَّسيان على مهله، ليتني أستطيعُ استعادة الألم الذي حلمتُكَ به.

89

[1915]

أفضل تسمية تُطلَق لوصف روحي اليوم هي صانعة اللّامبالاة. أتحرَّقُ رغبة، أكثر من أيِّ شيء آخر، إلى أن يقتصر دوري في العالم على تعليم الآخرين أن يشعروا بأنفسهم، أكثر فأكثر، وأن يتخفَّفُوا بأنفسهم من قانون الجهاعة الدِّيناميكيِّ إلى أبعد الحدود. ويبدو لي أنَّ تعليم الآخرين، في حدود ذلك التَّقشُّف الرُّوحانيِّ، الذي سوف يحول دون انتشار عدوى الابتذال، هُوَ القدر الأسمى لِمُعلِّم الحياة الجوَّانيَّة الذي أودُّ أن أكونَهُ. أنْ ينوجَب على كلِّ من يقرأني -شيئًا فشيئًا، بحسب ما يتطلَّبُ الموضوع - أن يشعرَ بلامبالاةٍ مُطلَقة على ركود حياني الشُكولائيِّ كافية على ركود حياني الشُكولائيِّ مَا اللَّهُ ولائيِّ مَا اللَّهُ ولائيُّ المَا اللَّهُ ولائيُّ مَا اللَّهُ ولائيُّ المَا اللَّهُ ولائيُّ المَا اللَّهُ ولائيُّ مَا اللَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المُعلَقِ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ المَّهُ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ المَّهُ المُنْ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ ولائيُّ المَّهُ المَّهُ ولائيُّ المُسْبِعُ المَّهُ ولائيُّ ولائيُّ ولائيُّ المُوسِوع المُنْفِقُ المُنْهُ ولائيُّ ولائيُّ والمُنْ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفُلُولُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفِقُ المُنْفُولِ المُنْفِقُ المُنْفُلُولُ المُنْفُلُولُ المُنْفُولُ المُنْفُلُولُ المُنْفُ

فلطالما شعرت في داخلي أنَّ عجزي عن الفعل محنةٌ ترجعُ أصولها إلى الغيبيَّات. فكانت كُلُّ إيهاءة تنطوي دائمًا، وفقَ طريقتي في اختبار الأشياء، على اضطراب العالم الحارجيِّ وتشظَّيه؛ فكنتُ أخشى دائمًا أن تُفضي كلُّ حركةٍ آتي بها إلى إزاحة النُّجوم أو تبديل السَّماوات. ولهذا، سرعان ما باتتِ الأهميَّةُ الغيبيَّة، حتَّى لأدنى إيهاءة، ذاتَ أهميَّةِ استثنائيَّة بالنِّسبة إلىَّ.

⁽⁸⁶⁾ السُّكولائي scholastic (و في البرتغاليَّة escholastico): أحد أتباع الفلسفة المُدرسيَّة/الكتابيَّة/السُّكولاتيَّة لتي انتشرت في أوروبُّ في القرون الوسطى، وتقوم على تقديم تفسير دينيَّ نظريٌّ للكون انطلاقاً من أفكار أرسطو وأفلاطون، ومنها نشأ علم الكلام. (المترجم)

اكتسبتُ، فيما يتعلَّق بالفعل، نزاهةً متساميةً منعتني مُذ وعيتُها من أن أُقيم أواصرَ قويَّة مع العالمَ المعلوس.

90

[1915]

لتبديد الوقت فلسفته الجماليَّة الخاصَّة. فثمَّة كُتيِّب عن الخمول والعطالة، خاصُّ باللَّوذعيِّن الرَّاسخين في الأحاسيس المثيرة، يجوي وصفات لضروب الصَّفاء والإشراق كافَّة. الاستراتيجيَّة التي يصارعُ فيها المرء فكرة آداب السُّلوك الاجتماعيَّة، وبواعث الغرائز، ومتطلِّبات الخوالج الوجدانيَّة، تستدعي دراسة تخلص إلى أنَّ المولعين بالجَهال ليسوا جميعاً مستعدِّين لتنكَّب ذلك. ولا بُدَّ أن يتبعَ الدِّراسة المُضنية لمُسبِّبات الوساوس تشخيصٌ يتهكَّمُ على خضوعنا لكلِّ ما هو عاديٌّ، ولسوف نحتاج أيضاً إلى تنمية سرعة استجابة في وجه تدخُّلات الحياة؛ فلا بُدَّ أن تُحصَّننا درجةٌ من الحذر ضدَّ آراء الآخرين؛ ولا بُدَّ أن تحمي أرواحنا لامبالاةٌ معتدلة من الضَّر بات البليدة النَّاجة عن تعايشنا مع الآخرين الذي لا مفرَّ منه.

91

[1915]

الحِسْيُّ

في هذا العصر الذي انحطَّت فيه جميع المعارف، والذي تحتضر فيه المعتقدات ويتراكم الغبار شيئاً فشيئاً على جميع الأديان، فإنَّ أحاسيسنا المثيرة هي الحقيقة الوحيدة التي تبقَّتُ لنا. والهاجس الوحيد الذي لا بُدَّ أن يشغلنا، والعِلْم الوحيد الذي يُرضينا هو المرتبط بأحاسيسنا.

بِتُ مقتنعاً، أكثر فأكثر، أنَّ الزِّينةَ الجوَّانيَّة هي الطَّريق السَّامية، الإشراقيَّةُ، التي تمنحُ حيواتنا قدَراً. فلو استطعتُ أن أعيش حياتي مُزنَّراً بِدَنْتِلَةٍ روحانيَّة، لابتعدتُ عنِّي هُوَّاتُ اليَّاس، الفاغرة أفواهَها، التي تجعلني أنذمَّرُ.

فأنا أنتمي إلى جِيلٍ -أو، بالأحرى، إلى بعض جيل- فقدَ احترامَهُ كلَّهُ للماضي وإيهانَهُ أو

أملَهُ كلَّهُ في المستقبل. ولهذا نعيش في الحاضر وقد اشتدَّ بِنَا الجَوَى إلى شخص لا بيتَ آخرَ لَهُ. ولأنَّنا لا نعثر إلَّا في أحاسيسنا العالميسنا العقيمة، الطَّائشة - ولاسيَّا في أحلامنا، على حاضر لا يذكِّرنا بالماضي أو المستقبل، فإنَّنا نبتسمُ لحياتنا الجوَّانيَّة وقد رانَ علينا الوَسَنُ الأشمُ، مُنتزعينَ أَنْفُسَنا من الحقيقة الكميَّة للأشياء.

ولسنا مختلفين اختلافاً شديداً ربَّها عن أولئك الذين لا يفكّرون، عبر حيواتهم، إلَّا باللَّهو والمُتعة. ولكنَّ شمسَ أنانيَّتِنا التي تخدم ذاتَها فحسبُ على وشكِ أن تغرب، ومذهبّنا في المتعة الغارق في ألوان شفقيَّة متناقضة يجتاحه البَرْدُ.

تحزُ في طَوْرِ نقاهة فضن، في العموم، مخلوقات لم تتعلّم قطَّ أيَّ فنَّ أو مهارة ولاحتَّى فنَّ الاستمتاع بالحياة أو المهارة اللَّازمة لذلك. نميلُ، نحن الغرباء على أيِّ علاقات طويلة الأمد، إلى أن نسأم من أصدقائنا الحميمين، بعد أن يكون قد مرَّ نصف ساعة على وجودنا معهم فحسب؛ فنحن لا نتوق إلى رؤيتهم إلَّا حين نفكرُ في أن نراهم، وأفضل الأوقات التي نقضيها معهم هي تلك التي تكون حين نحلم بأنَّنا معهم فحسب. ولا أعرف إن كان هذا دليل على قلَّة الصَّداقة من ناحيتي. ربَّما لا. فالحقيقة رغم ذلك كامنة في أنَّ الأشياء التي نبيم بها عشقاً، أو التي نظنُّ أنّنا نعشقها، لا تمتلك قيمتَها الكاملة إلَّا حين نحلم بها، ليس إلَّا. نحن نمقتُ العروض المسرحيَّة ومشاهدَ الفُرجة. نحتقرُ الممثّلين والرَّاقصين. فليستُ نحن نمقتُ العروض المسرحيَّة ومشاهدَ الفُرجة. نحتقرُ الممثّلين والرَّاقصين. فليستُ

وعلى الرَّغم من لامبالاتنا بآراء الآخرين -ليس [بالفطرة] منذُ البداية، ولكن عبر تهذيب مشاعرنا التي تفرضها علينا تجارب مؤلمة مختلفة - فإنَّنا مهذَّبون دائماً مع الآخرين، حتَّى إنَّنا نحبُّهم محبَّة صادقة عبر ضربٍ من اللَّامبالاة التي تهتمُّ بذواتهم وحسب، فمن المحتمل أن يثير المرء الاهتمام فيغدو قابلاً للتحوُّل إلى مادَّة مُحلميَّة، إلى شخص آخَر...

عجزنا عن الحُبّ، فاجتاحنا سأمٌ من الكلمات، حتّى قبل أن تُلفظ؛ الكلمات التي يتوجّبُ أن نقولها كي نُحَبّ. ثُمّ، أيّنا يرغبُ في أن يُحَبّ؟ كلماتُ شاتوبريان «كُنّا نُتعبِهُ بِحُبّنا لَهُ) (١٥) لا تليقُ بنا بتاتاً. ففكرة أن نُحَبّ، في حدّ ذاتها، تصيبنا بالسّام إلى درجة الفزع.

حياتي مُمَّى لا تكفُّ، عطشٌ لا يُطفَأُ. ألفيتُ الحياةَ الحقَّة غاشمة كهجير يتلظَّى. ثمَّة شيءٌ مُهِينٌ في ذلك كلَّه إلى حدٍّ بعيد.

92

[1915]

يتوجب على المرء ألا يكون قادراً على رؤية وجهه، فلا شيءَ أشدَّ رُعباً من ذلك. لقد حبتهُ الطَّبيعة نعمةَ ألَّا يكون قادراً على رؤية وجهه ولا النَّظر في عينيه.

لَهُ أَن يرى وجهه في مياه الأنهار والبرك فحسب. وحتَّى الوضعيَّة التي توجَّب أَن يتَّخذها للقيام بذلك كانت رمزيَّة، فلقد تحتمَّ عليه أن ينحني، أن يخفض نَفْسه، كي يجني على نَفْسهِ عارَ أَن يرى وجهه.

صانعُ المرآةِ سمَّم الرُّوحَ الإنسانيَّة.

93

[1915]

طالمًا قرأتُ بامتعاض، في يوميَّات أَمْيِل⁽⁸⁸⁾، أيَّ إشاراتٍ إلى الكُتب التي نشرها. هُنَاك تحطُّم المِثال الأعلى. ويا لَهُ منِ رجل عظيم، لولا ذلك!

فطالمًا أوجعتني يوميَّات أَمْيِلْ بصورة شخصيَّة.

فحين وصلتُ إلى المطرح الدّي يقول فيه إنَّ شِيرير (8) قد وصفَ ثمرة العقل بأنَّها «وعي الوعي»، شعرتُ بأنَّه كان يُلمِحُ مباشرة إلى روحي.

94

[\$1915]

ستبدو يوميَّاتي هذه، المكتوبة لِنَفْسي وحدها، بالنِّسبة إلى الكثيرين، مضطنعة جداً.

⁽⁸⁸⁾ الفيلسوف الأحلاقي والشاعر السويسري هنري فريديريك أنيِل. (المترجم)

⁽⁸⁹⁾ الكاتب النمساوي فيلهلم شيرير. (المترجم)

ولكنَّ شيمتي أن أكون مصطنعاً. وإلَّا كيف سأسلِّ نَفْسي إنْ لم أُدوِّن بأناةٍ هذه الملحوظات الرُّوحانيَّة؟ وهذا لا يعني أنَّني أكترث بها كثيراً، ولكنَّني أُجِّعها مفتقراً إلى حِرصٍ شديد. فهذه اللغة المُنقَّحة هي الطريقة الطبيعيَّة التي أُفكِّر فيها.

أنا شخص يَعُدُّ الْعَالَمَ الخارجي حقيقةً جُوَّانيَّةً. لا أشعر بذلك غيبياً، بل بالحواسَّ العاديَّة التي أقبض فيها على الحقيقة الواقعيَّة.

طيشٌ الأمسِ شوقُ اليوم (المتواصلُ) الذي يقضمُ حياتي.

لهذه اللَّحظة أورقتُها المُعمَّدة. والشَّمسُ قد غربت على مراوغاتها الزَّهيدة. وفي العيون الزُّرق للبِرَك يأسٌ أخير يعكسُ موتَ الشَّمس. ولقد كُنَّا بعضاً من الحدائق العتيقة إلى حدً بعيد، مُجسَّدينَ على نحو شهوانيٍّ في حضور التَّهاثيل المتراصفة على طول الجادَّات الإنكليزيَّة الأنيقة التي تكسوها الأشجار. وكانت الثِّيابُ والسَّيوف والشُّعور المستعارة والتَّزلُفاتُ انحناءً (٥٠٠)، والمواكبُ وثيقة الصِّلة بالجوهر الذي قُدَّتْ منه روحُنا إلى حدِّ بعيد! مَن تلكَ الدنحنُ ؟ وحدها الحديقة المهجورة والنَّافورة، ماؤها المُجنَّحُ يُحلِّقُ مُنخفضاً في محاولته الحزينة للطَّيران.

95

[1915]

يمرُّ عليَّ الوقتُ كأنَّهُ وجعٌ رهيب. فأستاءُ على نحو يبعث على الشَّخرية حين يتوجَّب عليَّ أن أغادر أيَّ شيءٍ: الغرفة المستأجرة الصغيرة البائسة التي قضيت فيها بضعة شهور، والطاولة في الفندق الرِّيفيِّ التي تعشَّيتُ عليها في كلِّ يوم من أيَّاميَ السَّتَّة هُناك، حتَّى حجرة الانتظار في محطَّة السِّكَّة الحديد التي بدَّدتُ فيها ساعتَيْن منتظراً القطار. ولكنَّ الأشياء الجيَّدة الموجود في الحياة تؤلمني ألماً غيبياً، عارفاً بكلِّ الحساسية التي تستطيع أعصابي

⁽⁹⁰⁾ Bowings and scrapings: أن يبحي المرء عميقاً لتحيَّة / تملُّق شخص آخر، وقد ألقى ساقه اليُمني إلى الحلف (كأنّه يكشط الأرض) ويده اليسري مضغوطة على بطم، ويده اليمني على حانمه (١١ ـ)

حشده أنَّني لن أراها البتَّةَ ثانيةً أو أمتلكها من جديد، ليس على الأقلِّ مثلما تكون في تلك اللَّحظة المُحدَّدة بعينها. هاويةٌ تتثاءب مفغورةً في روحي، وعصفةُ بَرْدٍ من ساعة الله تمسح وجهي الشَّاحب.

الزَّمن! الماضي! هُناك، شيءٌ، صوتٌ، أغنيةٌ، رائحةٌ فجائيّة في الهواء، تُميط اللَّامَ عن ذكرياتي... ما كنتُ وما لن أكونَه مرَّةً أخرى أبداً! ما مَلَكتُ وما لن أملكَ ثانية أبداً! الموتى! الموتى الذين أحبُّوني حين كنتُ طفلاً. وحين أذكرُهم، يجتاح روحيَ البردُ، وأشعرُ نَفْسي منفيّةً من كلِّ قلبٍ، وحيداً في ليلِ نَفْسي، أبكي مثل شحَّاذٍ على أعتاب الصَّمتِ المُوصَد لكلِّ باك.

96

[\$1915]

يومان أو ثلاثةٌ ويعتريني شيءٌ كأنَّه بدايةً الحُبِّ...

كلُّ هذه الأشياء مفيدة للمُولَع بالجَهال بسب الأحاسيس التي تُثيرها فيه. ولكنَّ التغوُّل أبعدَ سيدخله في ذلك النِّطاق حيث تنشأ الغيرة والمعاناة ويبدأ التهيُّج الجنسيُّ. وثمَّة، في حجرة انتظار المشاعر هذه رقَّةُ الحُبِّ كلُّها، بلا أغوارها - ولكنَّ رعشةَ اللَّذَةِ، هُناكَ، وأريجَ الرَّغبةِ الغامض، وحين يفقد المرءُ البهاءَ الكامن في مأساة الحُبِّ، تغدو مراقبةُ المآسي بالنِّسبة إلى المُولَع بالجَهال -لاحظوا ذلك - مثيرةً للاهتهام ولكنَّ مكابدتها شاقَّةُ. تهذيبُ الحياة يحول دون تهذيب المخيِّلة؛ إنَّهُ الإنسانُ غير العادي الذي يَسُودُ.

سأكون الآن راضياً تمامَ الرِّضا عن هذا لو أقنعتُ نَفْسي بأنَّ هذه الفرضيَّة ليست ما هي عليه، جلَبة مُعقَّدة أُحدِثُها في أُذنَيْ بصيرتي حتَّى لا تلاحظَ، في أعماق نَفْسي، أنَّ المسألة حين تتعلَّق بالعَيْش، فلا خيارَ إلَّا خَجَلي وعجزي،

[1915]

أستطيقا اليأس

ولأنَّنا لا نستطيعُ استخلاصَ الجَهال من الحياة، فَلَا أقلَّ مِن أَنْ نستخلصَ الجَهال من عجزنا على استخلاص الجَهال من الحياة. فَلْنَصنع من إخفاقنا نصراً، شيئاً إيجابياً نفخرُ به، مكتملاً بأركانه وجلالته وإذعانه الرُّوحانيُّ.

فإنْ لم تهبنا الحياةُ سوى زنزانةٍ، فَلَا أقلَّ مِن أن نُزيِّنها بظلال أحلامنا، بتصاويرَ زاهية الألوان، كي نُدوِّن نِسيانَنا على شُكونِ جدرانها الحجريِّ.

طالما شعرتُ، مثل كلِّ الحالمين، بأنَّ سقفيَ الإبداعُ. فلقد كان، مُذ كنتُ عاجزاً البَّة عن بذل أيِّ جهد أو تحقيق أيِّ غاية، الشَّيءَ ذاتَهُ بالنِّسبة إليَّ دائهاً، كالحُلم أو الرَّعبة أو الشَّهوة، فأصنعُ في الأحلام الإيهاءات التي أودُّ صُنعَها.

98

[915]

أخلاقيًّات اليأس

أَن تُنشَر (() = المشاركةُ الاجتماعيَّة للأنا، فيا لها من ضرورة أساسيَّة! ولكنَّها لاتزال بعيدةً كلَّ البُعْد عن كونها فِعلاً، فالنَّاشرُ يجني الأرباح، والطَّبَّاعُ يصنعُ الكتاب... ولكنَّ النَّشر يتمتَّع بميزة التَّنافُر على الأقلِّ.

فَمِن أعظم شواغلِ الإنسان، مُذيبلغُ سنَّ الرُّشد، أنْ يجعل نَفْسَهُ كينونةً مفكِّرةً وفاعلة، وفق صورة مثاله الأعلى. ولأنَّ الكَسَل هو المثال الأعلى الذي يُجسِّد، خيرَ تجسيد، منطق استجابة روحنا الأرستقراطيَّة تجاهَ هَرَجِ الحياة المعاصرة ومَرَجِها، فلا بُدَّ، إذن، أن يكون الكَسولُ، الخاملُ، مثالنا الأعلى. مشروع عبثيُّ؟ ربَّها. ولكنَّ ذلك لا يؤرِّق سوى أولئك المنجذبين إلى العبث.

(91) يقصد أن يُقدم الكاتب عبى نشر مؤلّفاته. (المترجم)

[91915]

جمالية التَّخلِّي

أَنْ تَمَتُلُ يَعني أَنْ تُذَعِنَ، وأَن تَفُوزَ يعني أَنْ تَمَتُلَ وأَنْ ثُهزَم. ولهذا فإنَّ جميع الانتصارات مبتذلَةٌ بالضّرورة. يفقدُ الرَّابحون شعورَ اليأس من الحاضر الذي قادهم في الأصل إلى المعركة التي منحتهمُ النَّصر. يشعرون بالرَّضا، ولا يشعرُ بالرِّضا سوى المُمْتَثِل، الذي لا يمتلك عقليَّة الفائز. فالفائز الحَقُّ الذي لا يفوز بأيِّ شيء البتَّة. والأقوياء حقاً أولئك الذين يعيشون حالة فَزَع دائمة. فالتَّخيِّ أنبلُ الأشياء وأشدُّها رفعةً. فالإمبراطوريَّةُ الأسمى تنتمي بعيشون حالة فَزَع دائمة. فالتَّخيِّ أنبلُ الأشياء وأشدُّها رفعةً، وعن الرِّجال الآخرين، والذي لا تُعْدِلُ همومُ الدَّولة عِندَهُ كيسَ جواهر.

100

[\$1915]

رَعَيتُ قَرَفِي من الأفعال بحرص الذي يرعى زهرةً في دَفيئةٍ. أُفاخرُ نَفْسي بانشقاقي عن الحياة.

101

[\$1915]

«المشاعر مثلُ هذا الضَّجَر». تلك الكلمات الجُزافيَّة، التي قالها أحدهم في أثناء محادثة مقتضبة، مازالت تلمعُ مُسجَّاةً على أرض ذاكرتي. فلقد أسبغت طبيعة العبارة المتبذَلةُ على العبارة رونقَها.

102

[1915]

حتَّى أحلامي تعاقبُتي. فلقد حقَّقتُ درجةً من الإشراق في الأحلام، فَبِتُّ أرى كلُّ شيء

أحلمُ بهِ كَأَنَّهُ هُوَ فِي الواقع، ولذلك فإنَّ كلَّ شيء أحلمُ بهِ يفقُدُ قيمتَه كلَّها. لو حدمتُ بأنَّ صيتي قد ذاع، فسوف أكابدُ كلَّ العُرْيِ الذي يأتي بهِ المجدُ؛ فقدان الخصوصيَّة، وإخفاء الاسم الذي يجعل الشُّهرة بالنِّسبة إلينا مؤلمة أشدَّ الألم.

103

[1915]

الإيمانُ غريزةُ الفِعْلِ.

104

[1915]

الحياسةُ ابتذالٌ محض.

وإنَّ التَّعبيرَ عن الحماسة انتهاكٌ أكثرَ من أيِّ شيء لحقوق نفاقِنا.

فنحن لا نعرفُ البَّنَة متى نكون صادقين. وربَّيها لسنا كذلك أبداً. فحتَّى لو كُنَّا صادقين اليوم، فقد نكذب غداً حول شيء آخر مختلف تماماً.

لم تكُن لديَّ قناعاتٌ البَّة. كانت لديَّ انطباعاتٌ دائهاً. لا أستطيع أن أكره أيَّ مكان رأيتُ فيه غروبَ شمسِ فاضحاً.

فتسويغ الانطباعات طريقة لإقناع أنفسنا بأنَّ تلك الانطباعات قد ساورتنا دون أن تكون قد ساورتنا بالفعل.

105

(92) [91915]

مُعتقداً أنَّ كلَّ خطوة في حياتي قد تعني الاتِّصال مع رعب جديد، وأنَّ كلَّ شخص جديد

⁽⁹²⁾ لفت انتباهي إلى أنَّ جول كوستا قد أغفت، هذا، الإشارة إلى عبارة «Sen.to.Apocalyptico» (شعورٌ رُونِويُّ النبوتيُّ التي خطَّها يِسُوَّا، بحبر أسود، في رأس القصاصة الأولى من القصاصات الحمس التي دوَّن فيها هذا المقطع الطُويل، مع أنَّ بيسارُّو، محرِّر الطبعة الإنگليزيَّة، هذه، قد أوردها في طبعته البرتعاليَّة الصادرة في العام 2010 (القطع 105 مناه 105 على مناه المناه المنا

أقابله كان جزءاً جديداً وحياً من المجهول يُوضَع أمامي على طاولة تأمُّلي اليوميِّ المرعب، قرَّرتُ الإحجام عن كلِّ شيء، ألَّا أذهب إلى مكان، وأن أُقلِّل الفِعل إلى حَدِّه الأدنى، وأن أَعَلِّل الفِعل إلى حَدِّه الأدنى، وأن أَعَنَّب مقابلة الرِّجال ومجابهة الأحداث ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، وأن أتعقَّف (60) وأرتادَ في التَّخلِي آفاقاً جديدة، فكم يخيفني العَيْش هكذا وكم يعدِّبني ا

فَاتَّخَاذُ قَرَارَ ، وَإِنَهَاءُ شِيءٍ ، وَتَرَكُ الرِّيبَةِ فِي نَهَايَةَ المَطَافُ وَالْعَتَمَةِ وَرَائِي، أشياء تبدو كارثيَّةً بالنِّسبة إليَّ، كأنَّها طامَّاتُ كونيَّة كُبرى.

هكذا أكابدُ الحياة، كأنّها نهاية العالَم وطامّةٌ كُبرى. فكلَّ يوم يجلبُ عجزاً متعاظماً في نَفْسي عن الإتيان بأدنى إيهاءة، حتَّى أن أتخيَّل نَفْسي أجابه مواقف حقيقيَّة واضحة. حضورُ الآخرين –الذي دائماً ما يكون حدثاً فجائياً بالنِّسبة إلى روحي – يزدادُ إيلاماً وغماً في كلِّ يوم. يُرعِدُني التَّحدُّث إلى الآخرين. فإنْ أبدوا اهتهاماً بي، أهربُ. وإنْ نظروا إليَّ، أرتعشُ. وإنْ ل...]

أنا دائماً في موقع المدافع. الحياة تجرحني والنّاسُ. لا أستطيع أن أنظر في عين الواقع. والشّمس نَفْسها تتركني قانطاً خَرِباً. وحيداً في اللّيل، وحَدْي، منسياً وضائعاً -بلا أيّ صلات بالواقع، ودونَ حاجة إلى الانهاك في شيء مفيد - أجدُ نَفْسي فأواسيها، فحسبُ. تُرجِفُنِي بَرْدا الحياةُ. ووجودي كهوف رطبة وسراديبُ موتى معتمة. أنا الهزيمة العظيمة لآخر جيش هي الإمبراطوريّة الأخيرة. في مذاقُ سقوطِ حضارة قديمة مسيطرة. إنّني وحيدٌ ومهجور، أنا الذي تعوّد أن يأمرَ الآخرين، لا صديق لديّ، ولا دليلَ، أنا الذي أبداً قد مهّد دربَهُ الآخرون.

أورد العبارة عبواناً لهذا النص بصبغة (Apocalyptic feeling) (شعور رُويُويِّ) في الملحق الحَاصِ الذي أفرده) في نهاية طبعته، للمقاطع التي كان بِسُوّا قد عنونها بعسه. والملحوظة الثّابية، هي أنَّ بِسُوّا كان في الأصل قد فصل بين فقرات هذا المقطع بالأرقام (2-9)، بَيْدُ أَنَّ الطّبعاب البرتغاليَّة الأربع الرَّئيسة التي صدرت لعاية اليوم (سوبراو كويا: المقطع 366، المجلد الثاني، 100-104 وزييت: المقطع 306، 14-141 كونيا: المقطع 306، المجلد الثاني، 100-104 وزييت: المقطع 306، مستعيضة عن وييسرُّو: المقطع 306، 110-112) قد أغفلت هذه المسألة، دامحة فقرات النّص، بعصها وراء بعص، مستعيضة عن لترقيم بحساحات بيضاء فاصنة، دول إحلال، بالطّبع، بترتيب الفقرات أو شكلها (الأمر الذي انسحب، بدوره، عنى الطبعة الإنكليزية التي وصعتها جول كوستا، هنا، انطلاقاً من طبعة بيسارُو). (المترجم)

شيءٌ فِيَّ يتوسَّلُ العطفَ الأبديَّ ويبكي على نَفْسهِ كَمَن يبكي إلهَّ ميِّتاً سُلِبَ مذابِحَهُ (١٠) كلَّها، حين لاحَ قدومُ البرابرة الباهتُ عند الحدود فاستدعتِ الحيةُ الإمبراطوريَّةَ كي تَسَالُهَا عبًا فعلتهُ بالسَّعادة.

أخافُ دائياً أن يحكي علي النّاس، أخفقتُ في كلّ شيء، ولم أجرو البتّة على التّفكير في أن أصنع شيئاً من نَفْسي؛ ولا حتّى حلمتُ بالتّفكير في اشتهاءِ شيء، فلقد أدركتُ، في قرارة أحلامي، وحتّى في حالي الرُّؤيويَّةِ التي لا أكون فيها إلّا مجرَّد حالم، أنِّي لم أكُن مُناسباً للحياة. لا شعورَ يستطيع أن يدفعني إلى رفع رأسي عن الوسادة التي أدفنه فيها، فأنا لا أستطيع التكيُّف مع جسدي ولا مع فكرة أنَّني على قيد الحياة، ولا حتَّى مع الفكرة المطلقة عن الحياة.

أنا لا أتحدَّثُ لغة الواقع. أترنَّحُ بين أشياء الحياة كمريض ينهضُ لأوَّل مرَّةٍ بعد أن طالَ عليه الأمدُ في السَّرير. لا أشعرُ إلَّا ببعض الحياة العاديَّة حين أكون في السَّرير، أُسَرُّ حين تسبتدُّ بِيَ الحُمَّى فهي تبدو مناسبةً وطبيعيَّة [...] لحالِ رُقادي. أتلعثمُ، كشُوَاظِ نارِ في الرِّيحِ، فَيُغْمَى عليَّ. ليسَ إلَّا في هواءِ الغرفِ المُؤصدةِ؛ الهواءِ الميِّتِ أتنفَّسُ الحياة الطَّبيعيَّة لحياتٍ.

لا شيء يبقى من الأصداف التي أجدها على شواطئ البحار، ولا حتَّى حنين خافت. تخلَّيتُ عن نَفْسي لأجعلَ من روحي دَيْراً وألَّا أكون لِنَفْسي أكثرَ من خريفٍ في حقل ناشف مهجور، حيث شرارة الحياة الوحيدة هي انعكاس ساطع كضوء يحتضر في العتمة التي أرخت شدولها على البِرَك، ولا مزيدَ جهدِ أو لونٍ إلَّا البهاءَ البنفسجيَّ، والمنفى المُبدَّدَ لغروب الشَّمس فوق الجبال.

ولاً مسرَّةَ أعظمُ، في قرارة النَّفْس، من أن يُحلِّلَ المرَّءُ أَلَمُهُ، ولا لذَّةَ حسيَّةً أعظم من الانعطافات العَلِيلة السَّيَّالة للمشاعر حينَ تتداعى وتَبلى – خطوات خفيفة في الظلال الغامضة، يسَّاقطُ وقعها ناعماً على المَسامِع فلا نلتفتُ حتَّى لنعرف من الذي يخطو؛ أغنيات

⁽⁹⁴⁾ المقصود، هنا، المذابح التي تقدُّم عليها القرابين في الأضرحة وأماكن العبادة. (المترجم)

⁽⁹⁵⁾ عادة ما تشير عبارة dead air (وفي الأصل البرتغالي: ar morto) إلى الهواء الحبيس أو السّاكن في حيّز ما، ولكنّس آثرت ترجمتها، حرفيًا: «الهواء الميت» لما تنظوي عليه من معنى مرتبط بثنائيّة الموت والحياة التي ترسمها الصورة الكليّة لهذا الشّذرة. (المترجم)

بعيدة وغامضة لا نحاول أن نلتقط كلماتها، ولكنَّها تُهدهدنا أكثرَ، فنحنُ لا نعرفُ ماذا تقول ولا من أين تنبعث؛ الأسرار الغامضة للمياه الشَّاحبة التي تملأُ اللَّيلَ مسافاتٍ واهيةً؛ فمن أين تأتي وماذا تحملُ في داخلها، تلك العرباتُ القصيَّة، بجلجلة أجراسها التي لا تكاد تُسمَع من هُنَا، الوسنانة في سُبات ما بعد الظُّهيرة الحارِّ حيث ينزلقُ الصَّيفُ إلى الخريف؟ ماتتُ الأزهار في الحديقة، فذبلتْ، وأضحتْ زهوراً مختلفة أكبرَ سِناً وأنبلَ، وألوانها الصَّفراء متناغمة مع السرِّ والصَّمت والهجران. تمتلك الفقاعات الطَّافية على سطح البرك أسبابَ أحلامها. أذاكَ نقيقُ الضَّفادع البعيد؟ آو، يا حقولَ نَفْسي المِّتةَ! أيتها السَّكينة الرِّيفيَّةَ التي لا تُعرَفُ إلَّا في الأحلام! حياتي العبثيَّة كحياة فلَّاح لا يعمل بل ينام على قارعة الطريق ورائحة الحقول تنسلُّ كالسَّديم إلى روحه، في نوم باردٍ وشَفيف عميقٍ وطافح بالأبديَّة مثل كلُّ شيء يربطُ العدَم بالعدَم؛ ليليُّ ومجهول، ومُتعَب، ورحَّالِ تحت حنان النَّجوم البارد. أتبعُ دربَ أحلامي، جاعلاً من صورها خطوات تُفضي إلى صور أخرى؛ فاتحةً كمروحةٍ الاستعارات التي تُوجَد صَّدفةً في اللُّوحات العظيمة لرؤايَ الجُّوَّانيَّة؛ أُعرِّي نَفْسي من الحياة ثُمَّ أُمدِّدها على أحد الجانبين كبذلةٍ ضاقتْ علىَّ كثيراً. أختبيُّ بين أشجار بعيدة عن الطُّرُق. أَضيِّعُ نَفْسي. فأعَكَّن، بضعَ لحظات خفيفة، عابرةٍ، من أن أنسى طعم الحياة، وأن أتحرَّر من فكرة الضُّوء والضوضاء وأموت، شاعراً في البَدْءِ بكلِّ وعي وغرابة، كأنَّني إمبراطوريَّةً

تُوجعني أسطح البرك العَلِيلة التي صنعتها في أحلامي. شحوبُ القمر، الذي أتخيّله ساطعاً فوق مناظر الغابة الطّبيعيَّة، لي أنا وحدي. خريف السّباوات الرَّاكدة التي أستحضرها دون أن أكون قد رأيتها ليسَ إلَّا تعَبي. حياتي الميِّتة برمَّتها تُثقل كاهيَّ، وجميع أحلامي التي أخفقتُ، وكلُّ شيء امتلكته ولم يكُن في، وزرقةُ سهاواتي الجوَّ نيَّة، والخرير المرئيُّ لأنهار روحي، والسَّكينة المضطَّربة، الشَّاسعة، لحقول الحنطة في السُّهول التي أراها ولكنِّي لا أراها. فنجان قهوة، سيكارة، رائحة دخانها النَّفَّاذة، وأنا جالس في الغرفة الظَّلِيلة وقد أغمضتُ عينيَّ نصفَ إغهاضةٍ – لا أُريدُ المزيدَ من الحياة سوى أحلامي وهذا... لا يبدو كثيراً؟ لا عينيَّ نصفَ إغهاضةٍ – لا أُريدُ المزيدَ من الحياة سوى أحلامي وهذا... لا يبدو كثيراً؟ لا

أطلال معذَّبة، مدخلاً عظيماً بين راياتٍ وطبولِ انتصاراتِ في مدينة أخيرة شاسعة حيث

سأبكي على لا شيء، راغباً في لا شيء، ولا أطلبُ حتَّى أن أكون نَفْسي.

أعرفُ. فما الذي أعرفه عمَّا هُوَ قليلٌ وعمَّا هُوَ كثيرُ؟

هَا مَسَاءُ الصَّيفَ هُنَاكَ، فأنَّى أُحبُّ أن أكون شخصاً آخر... أفتحُ النَّافذة. كلُّ شيء في الحَارج شديدُ الرِّقَة، ولكنَّه يطعنُني بألم مُبهَم، شعورِ استياء غامض.

الحارج شديد الرقع، وتحده يقعمني بهم مبهم، سعور وحي أشلاء، إنّه أنا في الحقيقة؛ أنا الذي وثمّة شيء أخير يطعنني، يمزّ قُني، يتركُ روحي أشلاء، إنّه أنا في الحقيقة؛ أنا الذي يتوجّبُ عليه، في هذه اللّحظة، عند النّافذة، ناظراً إلى تلك الأشياء الرَّقيقة الحزينة، أنْ يتجلّى شخصيّة جماليّة، جميلة كشخص في صورة - ولكنّني لا أفعل، حتّى إنّني لا أفعل ذلك... فَلْتُمَرَّ هذي السَّاعةُ وتُنسَى... فَلِياتِ اللَّيلُ، فَلْيَجِنَّ، ويهبط على كل الأشياء ولا ينتهي أبداً. فَلْتَجُنْ هذي الرُّوحُ قبريَ الأبديَّ، وَ... لْتَكُن العتمةُ مُطلَقةً، فلا أعيشُ أكثرَ أبداً ولا أبداً ولا أبداً ولا الله المناه ولا ينتهي الرُّوحُ قبريَ الأبديَّ، وَ... لْتَكُن العتمةُ مُطلَقةً، فلا أعيشُ أكثرَ أبداً ولا ينتهي

106

أشعر أو أُريدُ...

[?1915]

والأقحوانُ يُبدِّدُ حيواته المُتعبة في حدائق تجهَّمتْ لوجوده.

... للرَّفاهيَّة الياپانيَّة بُعدان واضحان، فحسب.

... الوجودُ اللُّلوَّن الذي يُعلِّفُ شفافية الأشكال الياپانيَّة على الأكواب.

... طاولةٌ أُعدَّتْ لاحتساء الشَّاي خلسةً - مجرَّد ذريعة لأحاديث عقيمة تماماً- بَدَتْ لِهِ دائماً أَنَّها تُمتلك شيئاً كوجودها نَفْسه، فَرْدَانيَّتِها العاطفيَّة. إنَّها تُشكِّل كُلاً مصطنعاً، كأيُّ كائن حيِّ آخر، ولكنَّها ليستُ النَّاتجَ الصِّرفَ للأجزاء (التي تُكوِّنها).

يبدو لي أن أكون رائداً (٥٥) متقاعداً حالةٌ مثاليَّة. فيا لعارِ ألَّا أكون دائهاً رائداً متقاعداً.

تركني العطش، كي يكتمل، في حالةٍ من الألم العقيم.

عبثُ الحياة المأسويُّ.

فضولي (97)، شقيقُ القُبَّرات.

قَلَقُ المَغيباتِ الغدَّارُ، أكفانُ الفجرِ (١٤٥٠ الخجولةُ.

فَلْنَجلِس هُنَا، حيثُ نستطيع رؤية المزيد من السَّماء. المدى الشَّاسعُ لهذه المرتفعات المرصَّعة بالنُّجوم يُواسي المرء، آيَّما مواساةٍ. تُوجِعُ الحياةُ أقلَّ حين نوى ذلك المدى؛ إنَّهُ يداعبُ حدودَنا الحارَّةَ بالحياةِ بالنَّسيم الباردِ الذي يهبُّ من مروحةٍ خفيفة.

108

[\$1915]

ينتابني إحساسٌ بعدم وجود ظروف ماديَّة مؤاتية لتلك المخلوقات التي على شاكلتي، ولا مواقف ستؤول نهاياتُها إلى خير، وهذا الإحساس كافٍ لِأناًى بنَفْسي عن الحياة؛ ولكنَّه يدفعني، في الواقع، إلى أن أناى بنَفْسي أكثر. فقائمة الإنجازات التي تجعل النَّجاح محتوماً، بالنِّسبة إلى البشر العاديِّين، قد أدَّتْ، حين طُبِّقتْ عليَّ، إلى نتيجة مختلفة تماماً، وغير متوقَّعة، وعكستَّة.

ويخامرني في بعض الأحيان الانطباعُ المؤلم بأنّني ضحيَّة عداوةٍ إلهيَّة. يبدو لي أنَّ التَّفسير الوحيد لسلسلة الكوارث التي تُعرّفُ حياتي، هو أنَّ شخصاً يتلاعب شُعورياً بالأشياء كي

⁽⁹⁶⁾ رتبة عسكريَّة. (المترجم)

⁽⁹⁷⁾ كلمة فضول (curiosidade) في لبرتعالية، مؤنَّثة. وبما أنَّها مذكّرة في العربيَّة فقد استحدمت لفظة «شقيق» بدلًا من «شقيقة» المستحدمة في الأصل. (المترجم)

⁽⁹⁸⁾ بصيغة الحمع في الأصل (في الصنعة الإنگليزيَّة: dawns، وفي البرتغاليَّة: auroras)، وحيث لا توجد صيغة، كهذه، في العربيَّة، استخدمتها بصيغة المفرد. (المترجم)

يُحوِّل أيَّ إنجاز إلى شيء خبيث:

ونتيجة هذا كُنِّه أَنَّني لا أحاول جاهداً البُّنَّة. فَلْيَأْتِ الْبَحْتُ (99)، إنْ شَاءَ، ويعثر عليَّ. أعرفُ، حتَّ المعرفة، أنَّ جهوديَ العظمى لن تحظى أبداً بالنَّجاح الذي يهنأُ به الآخرون. ولهذا أَسدمتُ نَفْسيَ للبختِ دون أن أتوقُّع منه شيئًا. ولمَ أتوقُّعُ؟

رِوَاقِيَّتِي ضرورةٌ عضويَّةٌ. أحتاجُ إلى تدريع نَفْسي ضَدَّ الحياة. وبها أنَّ الرِّواقيَّة ليستُ في الواقع إلَّا شكلاً من الأبيقوريَّة، شديدَ القسوة، فإنَّني أُريدُ، قَدْرَ استطاعتي، الاستمتاعُ بِسُوء بِختي. ولستُ متأكِّداً إلى أيِّ مدىً سوف أُحقِّق ذلك. ولستُ متأكِّداً إلى أيِّ مدىً سوف أَحقِّق أيَّ شيء. ولا أعرفُ إلى أيِّ مدىً يستطيعُ المرءُ أن يُحقِّق أيَّ شيء...

وطلما أنَّ المرء يفوزُ، ليس بفضل جهوده، وإنَّما لأنَّ فوزه حتميٌّ، فإنَّني لم أَفُزْ بشيءٍ قَطُّ ولن أفوزَ أبداً، مهما بذلتُ من جهدٍ أو كان ذلك محتوماً.

لعلَّ روحيَ قد وُلدتْ في يوم شتاء قصير قصير. هبطَ اللَّيلُ مُبكِّراً فوق وجودي. لن أستطيع أن أعيش حياتي إلَّا بالإحباط والعزلة.

ولا شيءَ رِواقياً من هذا كُلِّهِ في قرارة نَفْسي. فلا تكون معاناتي نبيلةً إلَّا حين أصوغُها بِالْكُلَّهَاتِ، وَإِلَّا سُوفَ أَئِنُّ وأَتَأَوَّهُ كَطْفُلُ مُريضٍ. أَهْتَاجُ وأَقْلَقُ مثل ربَّةِ بيتٍ. حياتي عقيمةً بأسرها وحزينة جمعاءً.

109

[\$1915]

تربية وجدائية

تحدثُ أوَّل خطوة لمن يجعل من أحلامه حياتَهُ، ويجعل من نباتات دفيئةِ مشاعره ديانةً وسياسة -تلك الخطوة التي تخبره في أعماق روحه بأنَّه قد اتَّخذها حقاً- حين يبدأ في الاستجابة إلى الأشياء المتناهية في الصِّغر بطريقة استثنائيَّة وغير مبالَغ فيها. تلك هي الخطوة الأولى، ولا شيءَ أكثر. أن يعرف كيف يحتسي كوباً من الشَّاي من دون الشهوانيَّة المفرطة التي يجدها الإنسان العاديُّ في المسرَّات العظيمة التي تنجم عن تحقُّق فجائيِّ لطموح أو

⁽⁹⁹⁾ اللفطة مؤنَّنة في الأصل (في الصنعة الإنكليزيَّة Fortune؛ وفي البرتغالبَّة: Sorte). (لمترحم)

خفوت غير مُتوقَّع لتوق عارم، أو في المطارحة الغراميَّة الشهوانيَّة الأخيرة؛ أن يكون قادراً على العثور، في تأمَّل غروب شمس أو تفصيلة زينة، على تلك الاستثارة العارمة التي تُوجَد عموماً، ليس فيها يراه المرء أو يسمعه، وإنَّما فيها يشمُّه أو يذوقه، دُنُوُ الشَّيء الحسيِّ الذي لا تستطيع إلَّا الحواسُّ الأشدُّ شهوانيَّة -اللَّمس، والتذوُّق، والشمُّ- أن تطبعه في اللَّاشعور؛ أن يكون قادراً على جعل عينه الجوَّانيَّة أو أُذُنِ حُلمه -قُصارَى القول، جميع الحواسُّ المُتخيَّلة أو حواسٌ المُتخيَّلة الحواسُّ المُتخيَّلة الحواسُّ المُتخيِّلة ومحسوسة على شاكلة الحواسُّ التي تتحوَّل طبيعياً إلى الخارج: فَمِن بين جميع الأحاسيس المثيرة المدهشة التي يستطيع تحقيقها الحارثُ (100) الحسيُّ الخبير، أختارُ الأخيرة -وثمَّة حواسُّ مماثلة أخرى واضحة - كي أُعطي فكرةً تقريبيَّة وملموسة عبًا أحاول قوله، ليس إلَّا.

ولكنّ الوصول إلى هذه الدَّرجة من الخبرة يفرضُ على عاشق الأحاسيس المثيرة الوطأة الجسديّة المُاثلة أو عبء الأحزان الجوَّانيّة والخارجية التي لا بُدَّ أن تؤثّر، وبالشَّدَّة العقليَّة ذاتما، في تركيزه. وما يُحفِّز الحالم، لا تَّخذ الخطوة الثَّانية في عُرُوجه إلى نَفْسه، إدراكُ أنَّ فَيُصَ الأحاسيس، الذي يستطيع استثارة فيض في اللَّذَة، يمكن أن يتسبَّب أيضاً في بده فترة مديدة من الألم. أُنحِّي جانباً الخطوة التي قد يكون قادراً على اتَّخاذها أو لا يكون؛ الخطوة التي، استنداً إلى كونه يستطيع اتَّخاذها أو لا يستطيعُ، سوف تُحدِّدُ سلوكه، مِشيته إنْ شتتم، في الخطوات التي يمضي حينئذ في اتِّخاذها، استناداً إلى كونه يستطيع عزل نفسه تماماً عن الحياة الواقعيَّة أو لا يستطيع (إنْ كان غنياً، بالطَّبع، أو غير ذلك). أعتقد أنَّ ذلك واضحُ، من الواقعيَّة أو لا يستطيع فيها الحالم أن يعزل نفسه، مُنكباً عليها، فلا بُدَّ أن يُركِّز تماماً، وقد استبدَّ به قلق شديد، على شحذ حساسيَّته خلال القراءة بين سطور ما أقوله، اعتباداً عبى الدَّرجة التي يستطيع فيها الحالم أن يعزل أن يقابله مبهّة في كلِّ يوم -ويمكن للمرء حقاً أن يقلص هيميَّته مع الآخرين إلى حدِّها الأدني (ف لحميميَّة، وليس مجرَّد الاتصال بالنَّاس، هي التي تجلب الضَّرر الأكبر) - لا بُدَّ أن يُحوِّل مظهرَه الاجتهاعيَّ الخارجي إلى جليدٍ حتَّى تنزلق كلُّ لفتةٍ أخويَّة أو اجتهاعيَّة عن هذا المُخول مظهرَه الاجتهاعيَّ الخارجي إلى جليدٍ حتَّى تنزلق كلُّ لفتةٍ أخويَّة أو اجتهاعيَّة عن هذا

⁽¹⁰⁰⁾ دلك ،لذي يحرث الحسد والرُّوح معاً، فيقلبهما رأساً على عقب، ليزرع فيهما أحاسيس حديدة لا يمكن أن تتحقق للإنسان لعاديّ، وإمًا للخبير المُجرّب لذي يعرف، حقّ المعرفة، كُنْه الجسد وجوهر الرُّوح. (المترجم).

المظهر، فلا تنفذ إليه أو تطبع نَفْسها عليه. يبدو هذا الأمر مُتطلّباً جداً، ولكنّه ليس كذلك حقاً. فمن السّهل كفايةً إبعادُ الآخرين، فالأمر منوطٌ بقدرة المرء على إبعاد نَفْسه، ليس إلّا. ولكنّني سأُهمل الخوض في هذ الحديث الآن وأعود إلى ما كنت أقوله.

على الرَّغم من أنَّ إسباغَ شدَّة وتعقيد، في الحال واللَّحظة، على أبسط الأحاسيس المثيرة، وأكثرها حتميَّة، يُصعِدُ للْهَ الشَّعور إلى حدِّ كبير، فإنَّه بستطيع كذلك تصعيد المعاناة النَّاجة عن الشُّعور إلى حدِّ يفوق الوصف. ولهذا، فإنَّ الخطوة الثَّانية، التي يتوجَّب على الحالم التَّاذَها، تجنُّب المعاناة. ولا ينبغي عليه تجنُّبها مثلها قد يفعل الرَّواقيُّ أو الأپيقوريُّ، بإقلاق نَصْسه طريقاً لجعلها منيعة صلدة صدَّ اللَّذَة والألم. لا بُدَّ له، على النَّقيض، من محاولة العثور على اللَّذَة في الألم، أيا كانت تلك اللَّذَة، فثمَّة طرائقُ مختلفة يستطيع من خلالها تحقيق ذلك. الأولى؛ أن يُجري تحليلاً مُفصَّلاً للألم، فالحالمُ، بعد أن كان قد درَّب نَفْسه في البَدْء على كلَّ ما يختصُّ باللَّذَة، لا يُحلِّلُ وإنَّها يشعر فحسب، وهذا أسهل بالنِّسبة إلى الحالم الأكثر خبرة أكثر ممَّا قد يبدو. فتحليل الألم والتَّعوُّد على الاستسلام له كلَّما تجلّى، حتَّى يصل الحالمُ إلى الطَّوْر الذي يحدث فيه ذلك غريزياً ودون تفكير، فتنضافُ إلى الألم لذَّة التَّحليل. ولسوف يعمل هذا التَّمرين، بتعظيم قُدرات الحالم التَّحليديَّة وغرائزه وجعلها مثاليَّة، على امتصاص يعمل هذا التَّمرين، بتعظيم قُدرات الحالم التَّحليديَّة وغرائزه وجعلها مثاليَّة، على امتصاص الحالم، فلا تبقى منه إلَّا ماذَة غامضة غير محدودة لتحليلها.

وثمّة طريقة أبرع وأصعب تكمن في أن يُعوِّد المرء نَفْسه على أن يُجلِّي ألمَّة في هيئة صورة متخيَّلة، أن يخلق «أنا» أخرى تتنكَّب عبء معاناتنا، فتعاني ما نعاني. والمرحلة التَّالية أنْ يُخلق سَاديَّة جوَّانيَّة، مازوشيَّة تماماً، فيلتلَّ بمعاناته كما لو أثمًا معاناة شخص آخر. وهذه الطَّريقة التي تبدو مستحيلة للوهلة الأولى ليست سهلة، ولكنْ يتوجَّب ألَّا تكون صعبة بالنِّسبة إلى أولئك الذين جاهدوا ليكونوا خبراء في خلق الحياة الجوَّانيَّة. إنَّها، في الحقيقة، فابلة للتحقُّق بجدارة لافتة لننظر، وحين تتحقَّق، يأخذ الألمُ والمعاناة طعمَ الدَّم والمرض والمذاق الغريب للذَّة بعيدة ومُنحطَّة (101) للألم فوَّة الرَّعشة المُقلِقة، الماحقة. أمَّا المعاناة الخريب للذَّة بعيدة ومُنحطَّة (101) اللهم الحميم للرِّضا الغامض الذي يعقب نقاهة النَّوع البطيءُ، المديد فتأخذُ مسحة الأصفر الحميم للرِّضا الغامض الذي يعقب نقاهة

⁽¹⁰¹⁾ الانحطاط، هُنا، بمعنى decadence وفي النُص البرتغاليُّ: (decadente)، وهو يشير عند بِسُوًّا إلى النَّهُ التي حبا أوارها. (المترجم)

طال الشُّوق إليها، ثُمَّ تدنو لمسةٌ مبتذلة من قلق وحزن لِتُضارعَ الاضطَّراب (102) المُعقَّد الذي ينجم عن التَّفكير في الطَّبيعة العابرة، سريعة الزَّوال، للملذَّات جميعاً، وفي التَّعب القَبْليِّ الذي يُولَد من التَّفكير في التَّعب الذي لا بُدَّ أن تجلبه الملذَّات المستقبليَّة جميعاً.

وثمّة طريقة ثالثة لتحويل الآلام إلى لذائذ والشُّكوك والفلَق ((103) إلى سرير وثير، أقصدُ منحَ القلق والمعاناة ((104) درجةً من الاهتهام، مثيرةً للغيظ، شِدَّةً يجلبُ فَيْضُها لذَّةَ الفَيْض؛ على شاكلة الذي كرَّس نَفْسه ونذرَها، بالعادة والتدرُّب، للَّذَة، وعنف اللَّذَة المُطلَق الذي يُوجعُ، في بعض الأحيان، حتَّى إنَّ طعمَهُ دَمَّ. وحينَ تُستخدم هذي الطُّرُق الثَّلاث متزامنة، كما في حالتي -بوصفي الذي يُنقِّي التَّصفيات الباطلة، والمهندس الذي يُعمِّرُ نَفْسه بالأحاسيس المثيرة التي تنخَلت ناعمة بالبصيرة والتَّخلي والتَّحليل والألم في حدِّ ذاته - فَيُحلَّلُ الحزن الفجائيُّ، الذي لا يترك وقتاً لإيجاد استراتيجيَّة جوَّانيَّة، حتَّى الموت، في التَّوُ واللَّحظة، مقذوفاً بلا رحمة في «آنا» برَّانيَّة، مدفوناً حتَّى أقصى درجات الحُزن، اشعرُ حقاً بأنَّ نَفْسي هي المنتصرة البطلة. ويحدث هذا حين تتوقَف الحياة، وتُلقِي الصَّنعةُ الفنيَّة نَفْسها عند قدميً. المنتصرة البطلة. ويحدث هذا حين تتوقَف الحياة، وتُلقِي الصَّنعةُ الفنيَّة نَفْسها عند قدميً. وليست هذه إلَّ الخطوة الثَّانية التي يتوجَّب على الحالم أن يتَخذها كي يخلق حُلمه.

ولكنْ، مَن إلَّايَ قَدِ التَّخذَ الخطوة الثَّالثة، التي تُفضي مباشرة إلى عتبة المعبد الباذخة؟ إنَّها الخطوة الأصعب، فهي تتطلَّبُ جهداً جُوَّانياً أعظم من أيِّ جهد جسديٍّ قد يبذله المرء، ولكنَّه يكافئ الرَّوح بطريقة تعجز عنها الحياة. فحين تأتي الأشياء جميعاً، على نحو مثاليً، بعضها مع بعض، وقد استُخدمتِ الطُّرُق البارعة الثَّلاثُ حتَّى فَنِيَتْ، تُمرِّرُ هذه الخطوة الإحساسَ المثير عبر البصيرة الخالصة مباشرة، فتنخله بالتَّحليل الأعلى، مانحة إيَّاه شكلاً صافياً تُمدُّه بالحجم والهيئة. هكذا أمنح الإحساس المثير وجوداً سر مداً. وهكذا أجعلُ الخيالي حقيقة، وأُمِدُ بعيدَ المنال بقاعدة أبديّة. ثُمَّ كنتُ، في قرارة نَفْسي، الإمبراطور المتوَّج.

⁽¹⁰²⁾ لا بُدُ، هنا، من التّفريق بين لفظتي «desassocego و inquietação) (في صنعة جول كوستا الإنگليزية، هذه: disquiet و unease) النّدَيْن يستخدمها بِسُوّا، في هذه الشّذرة، للإشارة إلى الفلق؛ فالأولى تدلُّ على الفلق بمعناه الوجوديّ؛ في حين تُشير الثّانية إلى الفّىق الآنيّ، الباجم عن حادثة معيّنة أو متعلّل بوجودها. ولذا، فقد استخدمتُ لفظة «الاضطراب» مقابلاً للثّانية؛ لأنّها، في أصل استخدامها عند بِسُوّا، حالة قلّق نقترب من الكآبة، ولكنّها تزول بنوال الباعث، وليست كحالة القلق الوجوديّة الأولى الدّائمة التي لا تزول إلّا بالموت. (المترجم)

⁽¹⁰³⁾ ترد كسة القلّق، مُنّا، بصيغة الجمع. (المترجم)

⁽١٥٩) لرد كلمة المعاناة، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

أرجو ألا تظنّو ابأيّ أكتبُ كي أنشر، أو لاجل الكتابة أو صناعة الفنّ فحسب. أكتبُ كغاية في حدِّ ذاتها، التّصفية الأسمى، التّصفية المزاجيّة غير المنطقيّة، لتهذيب أحوال الرُّوح. فلو اخترت أحد أحاسيسي المثيرة، ثمّ اختبرته إلى الدَّرجة التي أستطيع فيها أن أنسج منه حقيقة جوَّانيَّة، أُسمِّيها إمّا «غابة الاغتراب» (٥٠٠) وإمّا «الرِّحلة التي لم تكُن قطُّ (٥٠٠)، فصلً قوني، أنا أفعل ذلك كي لا يبدو نثري صافياً، مُرتعشاً، أو حتَّى لأنّ النّثر يُمتعني -حتَّى لو رغبت في هذا الشّيء بوصفه تصفية أسمى، كستارة جميلة تُسدَل على السّيناريوهات التي حلمتُ بها- وإنّا ليمنح برَّانيَّة كُليَّة لما هُو جُوَّانيٌ، حتَّى أُدرك الذي يُدرَك، وأن أجمع التَّناقضات بعضها إلى بعض، ثُمَّ لمَّا أجعلُ الحُلم برَّانياً، مانحاً إيَّاه قُدرة قصوى كحلم صاف، في الدَّور بعضها إلى بوصفي الذي يجعل الحياة راكدة، ونحّات الأغلاط، والسّاعي العليل الذي ينقل الرَّسائل إلى روحي الملكحة، قارئاً لها في ساعات الشّفق، ليسَ القصائد التي في هذا الكتاب، المفتوح في حضن حياتي، وإنّا القصائد التي أنظمها وأنظاهر بأني أقرأها، وتتظهر الكتاب المفتوح في حين يقبع المساء، بعضَ الشّيء، في مكان ما -في هذه الاستعارة المُثارة المُثابًا تسمعها، في حين يقبع المساء، بعضَ الشّيء، في مكان ما -في هذه الاستعارة المُثارة داخل الواقع المُطلق- يُغفّفُ الضّوء الرّفيع المتلاشي على مهله ليوم روحانيً غامض.

110

[91915]

عذوبة ألَّا يكون لدينا عائلة أو أصحاب، والمتعة الرَّقيقة التي تشبه متعة المنفى، الني نشغر فيها بكبرياء الظلِّ البعيد، بشهوانيَّة متردِّدة، وقلَق غامض ينجم عن كوننا بعيدين عن الوطن - نعم، أستمتع بطريقتي المبالية بهذا كُلِّه. وإنَّ إحدى سهات نظري العقليَّة وجوبُ الوطن - نعم، أستمتع بطريقتي الحُلم يتوجَّب معاملته بإيجاز، بوعي أرستقراطيِّ أنَّ الحُلم بلا تُفرط في انتباهك؛ فحتَّى الحُلم أهميَّة بالغة سوف يُفضي، في نهاية المطاف، إلى منح أهميَّة بالغة لشيء قد انشقَ عنَّا فحسب، كي يجد، بقَدْر ما يستطيع، مكاناً لنَفْسه في الواقع، ففقد حقَّه المُطلَق في أن نعامله برقَّة.

(105) أنظر المقطع 36: «في غابة الإغتراب». (المترجم)

⁽¹⁰⁶⁾ أنظر المقطع 26: «رحلة لم تكن قطُّ»، والمقطع 43: «الرُّ حدة التي لم تكن قطُّ». (المترجم)

للأجسام المُتخيَّلة جوهر وحقيقة أكثر من الأجسام الحَقَّة.

فلطالما كان عالمي المتخيَّلُ العالمُ الحَقَّ الوحيد بالنِّسبة إليَّ. فلم أَذُقِ قَطُّ صباباتٍ حَقَّةً، خالصةً، طافحة بالدَّم والشَّغف والحياة، مثلها ذفتُ رفقةَ الشَّخوص التي خلفتها بِنَفْسي. فيا للعار! إنَّني أفتقدها جميعاً، فهي، أيضاً، ككلِّ الصَّباباتِ، تنصرمُ...

111

[1915]

أحياناً، في المساءات الرَّائعة لمخيِّلتي، في حواراتي مع نَفْسي، في مجادلات الشَّفق المُتعَبة في صالونات مُتخيَّلة، في أثناء الفواصل الزَّمنيَّة في المحادثة حين أُترَك وحيداً مع أحد المحاورين أكثر من غيره، أتساءلُ لماذا لم يُوسِّع عصرنا العلميُّ إصرارَهُ على الفَهْم ليشملَ المُصطَنعوا حاد الأسئلة التي لا أكفُ عن طرحها، وقد أضناني الكسل، لماذا لا يُوجَد، إلى جانب علم النَّفْس العادي المتعلِّق بالبشر وما دونَهُم، علمُ نَفْس -مثلها يتوجَّب أن يكون - يختصُّ بتلك الأجسام والمخلوقات الاصطناعيَّة التي لا توجَد إلَّا في السَّجاجيد والرُّسومات. فَمَن يقصر نَفْسه على العضويِّ، ولا يقبل فكرة أنَّ للتَّاثيل ونُجُودِ البيوت (١٥٠٠) أرواحاً، فلا بُدَّ أن يكون لديه فكرة قاتمة، شديدة القتامة، عن الواقع. فحيثا يُوجَد شكلٌ تُوجَد روحُ.

هذه ليست مجرَّد أفكار عقيمة، وإنَّما دراسة علميَّة كغيرها من الدراسات. ولهذا - وقبل أن يتفتَّق الذَّهن عن إجابة، لستُ أملكها - أتخيَّلُ المُمكنَ ثُمَّ أُسلِمُ نَضْي، في تحليلات مُوانيَّة، إلى الرُّؤية المُتخيَّلة للمظاهر المُحتمَلة لذلك الشَّيء الذي أبتغي وجودَه لو كان حقيقة واقعة. ولا أكادُ أُقلِّبُ المسألة، في داخل الرُّؤية الدَّائرة في عقلي، إلَّا وأرى العلماء مُنحنين على الرُّسومات، مدركين أنَّهم يُنعمون النَّظر في حيوات؛ والمجهريِّينَ يفحصون نسيج السَّجاجيد الحشن؛ والفيزيائيِّينَ يحلِّلون زخرفها العريضة المُلتفَّة؛ والكيميائيينَ بسبون أفكاراً إلى أشكال الرُّسومات وألوانها؛ والجيولوجيِّينَ يدرسون طبقات النُّقوش؛ يسبون أفكاراً إلى أشكال الرُّسومات وألوانها؛ والجيولوجيِّينَ يدرسون طبقات النُّقوش؛ وعلماءَ النَّفس -وهنا تكمن الأهميَّة القصوى - يلاحظون ويجمعون، واحداً فواحداً، الأحاسيسَ التي يتوجب على التَّمثال أن يشعر بها، والأفكارَ التي ينبغي أن تخطر في قرارة الأحاسيسَ التي يتوجب على التَّمثال أن يشعر بها، والأفكارَ التي ينبغي أن تخطر في قرارة

⁽¹⁰⁷⁾ نُحُود البيوت: السُّتُور التي تُعنَّقُ على الجدران لمزَّينة، والتي تكون موشَّاة بالرُّسوم والزَّخارف، إلخ. (المترجم)

النَّفْس (١٥٥) الْمُلوَّنة لجسم في لوحة أو نافذة من زجاج مُعشَّق، والنَّزوات المجنونة، والهُيامات الجامحة، والتَّبات الفضوليَّ والموت في الإيهاءات الجامحة، والتَّبات الفضوليَّ والموت في الإيهاءات الأبديَّة للنُّقوش الغائرة والحركات المحجوبة للأجسام الموجودة على أقمشة الرُّسومات.

الأدب والموسيقى أكثر انفتاحاً من الفنون الأخرى في تأمُّل لطائف علماء النَّفْس ودقائق ملحوظاتهم. فالشُّخوص في رواية هي -كها نعلم جميعاً- شخوص حقيقيّة كأيِّ واحد منّا. وثمّة أصواتٌ معيّنة تمتلكُ روحاً بُجنّحة، رشيقة، أكثر عُرضة لعلم النّفْس وعلم الاجتهاء. فثمّّة بجتمعات بأكملها -مثلها يتوجّب أن يُعلَم الجُهلاء- موجودةٌ في داخل الألوان، والأصوات، والعبارات، وثمّة أنظمةٌ وثورات، وممالك، وسياسات و[...] -حرفياً لا مجازياً في الكُلِّ النّظم للرّوايات، وفي الأمتار المربّعة لرسمة مُعقّدة، حيث تمتزجُ اللّذَة والألم في الوضعيّات الملوّنة للمحاربين، أو العشّاق، أو العشّاق، أو العشّاق، أو العشّاق، أو العشّاق، أو الأجسام الرّمزيّة.

فحين يُكسَر أحدُ أكواب مجموعتي الياپانيَّة، أحلمُ بأنَّ مَرَدَّ ذلك ليس عائداً إلى يدي الخادمة الخرقاوَيْن، وإنَّما إلى رغبات أجسام من يسكنُ الجانبَ المُتَأَوِّدَ من الكوب؛ العزيمة المتجهِّمة الانتحاريَّة، التي سيطرتُ عليهم، لا تُفزعني على الأقلِّ، فلقد استخدموا الخادمة، حيث قد نستخدم مسدَّساً دوَّاراً. وإنَّ معرفة ذلك (مثلما أفعل) هو أن يذهب المرء أبعدَ من علوم وقتنا الرَّاهن.

112

[91915]

أَغبطُ كلَّ امريً على حقيقةِ أنَّهُ ليس أنا. طالما بدا هذا المستحيل، مِن بين المستحيلات جميعاً، أنَّه الأعظم، فلقد شكَّل الجزء الأعظم من جرعتي اليوميَّة من الكَرُب، واليأس الذي ملاً كلَّ ساعة حزينة.

⁽¹⁰⁸⁾ النَّمْس، هنا، يمعنى psyche (في البرتغاليَّة: psychismo) المأخوذة عن البونانيَّة، التي تجمع عدَّة معان دفعة واحلة: التَّفْس، وقرارة النَّفْس، والنُّوج، والعقل (المات مين)

شعاعُ شمس باهتٌ ومرعب قد سفعَ الإحساس الجسديّ المثير للرُّؤية. وحَرُّ أصفرُ قد ركد في لون الأُسْجار الأخضرَ المُعتمِ. سباتٌ [...]

113

[91915]

يومٌ ماطر

الهواءُ أصفرُ محتجبٌ، كأصفرَ شاحبٍ يُرَى عَبْرَ أبيضَ قَذِرٍ. بَيْدَ أَنْ لا أصفرَ، على الرَّغم من ذلكَ، في الهواء الرَّماديِّ، أو يكادُ. ولكنَّ الرَّماديَّ الشَّاحبَ يضمُّ، على أيِّ حالٍ، مِسحةً من أصفرَ قد تخيَّلناهُ.

114

[\$1915]

الانتشاءُ الخفيفُ جرَّاءَ مُمَّى خفيفة، حين يملأُ عظامَنا كَدَرٌ خفيفٌ وبردٌ قارس، فتلتهبُ أعينُنا وأصداغُنا تنسحقُ أحبُّ ذلك الكَدَرَ كما يُحبُّ العبدُ طاغيةً محبوباً. إمنحني تلك الحالة المرتعشة، الخربة، من الخمول الذي ألمحُ فيه الرُّؤى، وأُقلِّبُ زوايا الأفكار، فأشعر نفسي، بين المشاعر المتلاطمة، وقد صارتْ أشلاءً.

يغدو التَّفكير، والشُّعور، والرَّغبة شيئاً واحداً تصيبه الحيرةُ. تختلطُ المعتقدات، والمشاعر، والمُتخيَّل، كالمحتويات الفوضويَّة لعدَّة أدراج أُفرغَتْ على الأرض.

115

[?1915]

نصيحة إلى المتزوِّجات التَّعيسات

تَشْمَلُ المَتْزُوِّجَاتُ التَّعيسات جميعَ المتزوِّجات وبعضَ العوانس. حرَّرنَ أنفسَكُنَّ، فوقَ كلِّ شيء، من تعزيز أيِّ مشاعرَ إنسانويَّة. فالإنسانويَّةُ مبتذَلة. أكتبُ ببرود وعقلانيَّة، فلستُ أُفكِّرُ إلَّا في سعادتكنَّ، أيَّتها المتزوِّجات التَّعيسات

المسكينات.

يكمن الفنُّ كلُّهُ والحُرِّيَّةُ كلُّها في إخضاع العقل بأقلِّ قَدْر بمكن، تاركاتِ الجسدَ يخضعُ بقَدْر ما يختارُ.

فلا جدوى في أن تكوني فاسقة، فذلك بنتقص من قَدْرِ شخصيَّتك ويُتفِّهها في عيون الآخرين. كوني فاسقة في نَفْسك، ما دُمتِ تُحيطينها باحترام غير منقوص. كوني بَتُوليَّة جسدياً وزوجة خلصة وأماً متفانية، على الرَّغم من انغياست في بعض الفجور، العصيَّ على التَّفسير، مع الرِّجال الذين في الحيِّ جميعاً، من البقالين إلى [...] - وهذا هُوَ المقصد احتُّ لَمَن تُريد حقيقة الاستمتاع بفردانيَّتها وتوسيع حدودها، دونَ الانحطاط إلى أساليب الخادمات، التي لا بُدَّ أمَّا وضيعة، أو الوقوع في الصِّدق الصَّارِم للمرأة الغبيَّة، الذي لا جَرَمَ أنَّهُ ثمرة الحرص على المنفعة الشخصيَّة، ليس إلَّا.

ولأنكنَّ متفوِّقات، أيَّتها الأرواح الأنثويَّة، فسوف تَفهمن ما أقولُ. فكلُّ اللَّات تأي من اللَّماغ؛ وكلُّ الجرائم تُقتَرف، مثلها يقولون، في أحلامنا. أتذكَّرُ جريمة جميلة لم تحدث البتَّة. وحدها الجرائم التي لا نستطيع تذكَّرها هي الجميلة. فهل اقترف بُورجا جرائم جميلة. كلَّا. لقد كان حلمنا عن بورجا، فكرتُنا عنه هي التي اقترفت الجرائم الملكيَّة، الفاتنة، الباهرة. أنا على يقين بأنَّ تشيزَره بُورجا الحقيقيَّ كان رجلاً غبيًا ومبتذَلاً؛ ولا بُدَّ أنَّه كان كذلك حقاً، فوجود المرء في حدٍّ ذاته شيءٌ غبيٌّ دائهًا ومبتذَل."

أُسدي هذه النَّصيحة لا مُبالياً، مُطبِّقاً منهجي على حالة لا تهمُّني على الإطلاق. فأحلامي جميعاً، بالنِّسبة إليَّ شخصياً، إمبراطوريَّةٌ ومجدٌ، وليستْ حِسيَّةً البتَّة. ولكنِّي أودُّ أن أكون مُفيداً، حتَّى وإن لم أذهب أبعدَ من ذلك، لأزعجَ نَفْسي فحسب، لأنَّني أمقتُ المُفيد. فأن، في جِبِلَّتي، أُوثِرُ الآخرين على نَفْسي.

116

[\$1915]

ثمَّة كائنات تعاني، أشدَّ المعاناة، لأنها لم تقابل السيِّد بِكُوك في الحياة الواقعيَّة قطُّ، ولم تصافح السيِّد وُرْدِل البِتَّة (100). وأنا واحدٌ منها، فلقد ذرفتُ دموعاً حقيقيَّة على تلك الرِّواية،

(109) كوك Pickwick ووردل Wardle شخصتان في رواية تشاران مي الله د المالية الما

لِأَنِّنِي لِم أَعرفِ ذَيْنِكَ الشَّخصَيْن، ذَيْنِكَ الشَّخصَيْن احقيقَيْن، ولم أقابلهما بتاتاً.

الكوارث في الرِّوايات جميلة دائياً فلا دمَ حقيقياً يُسفَح فيها، ولا تبلى أجساد الموتى أيضاً؛ ففي الرِّوايات، لا يبلى حتَّى البِلَى نَفْسُه.

فحين يكون السيِّد بِكُوك سخيفاً، فإنَّه لا يكون سخيفاً لأنَّه سخيف في رواية فحسب. ربَّا الرَّواية حقيقة واقعة أكثر اكتهالاً، حياة أكثر كهالاً من التي خلقها الإله من خلالنا، وبأنَّنا ربًا -من يعرف؟ - لا نُوجَد إلَّا لنَخلق. فالحضارة لا تظهر إلى الوجود إلَّا لتصنع الفنَّ والأدب، لأنَّ الذي يُعبِّر عنهما، والذي يتبقَّى منهما، هو الكلمات. فلماذا يتوجَّب على تلك الأجسام المفرطة في إنسانيَّتها أن تكون حقيقيَّة حَقاً؟ تُعذَّبني فكرة أنَّ هذا قد يكون حقيقيًا.

117

[\$1915]

ولكي أُسلِّي نفسي، في أكثر الأحيان -فلا شيءَ يُسلِّي أكثر من العلوم أو أشباه العلوم حين تُستخدم على نحو عبثيِّ - أضعُ دراسةً دقيقة عن نَفْسي مثلها يراها الآخرون. المُتعة، التي تجلبها هذه الحيلةُ البارعة، حزينة في بعض الأحيان، ومؤلمة في أحايين أُخَر.

أحاول دراسة الانطباع العموميّ الذي أتركه لدى الآخرين، ثُمَّ أستخلصُ النَّائج. فأنا، بوجه العموم، شخصٌ يحبُّه النَّاس، حتَّى إنَّه يفرض احتراماً غامضاً ومثيراً للفضول. ولكنَّني لا أجنحُ إلى إثارة أيِّ مشاعر قويَّة. فلا أحدَ سيكون صديقي المخلص. ولهذا يستطيع كثير من النَّاس احترامي.

118

(.10) [\$1915]

لا نستطيع، في هذا العصر البربري المعدني الذي نعيش فيه منع شخصيتنا من التّبدُّدِ السلطيع، في هذا العصر البربري المعدني الله الله التي عتمدت عيها في صنعتها (110) من الملاحظ، هنا، أن جول كوستا قد أغفلت الإشارة (خلافاً لطبعة بيسارُّو البرتغالية التي عتمدت عيها في صنعتها الإنگيزية، هذه) إلى أنَّ بِسُوَّا قد دوَّن في نهاية القصاصة، التي خطَّ عليها هذا المقطع، عنواناً منفصلاً من المفترص الإنگيزية، هذه) إلى أنَّ بِسُوَّا قد دوَّن في نهاية القصاصة، التي خطَّ عليها هذا المقطع، عنواناً منفصلاً من المفترص

عَدَماً أو أن تغدو شيئاً طبقَ الأصل عن الآخرين، إلَّا بتعزيز قدراتنا على الحلم والتَّحليل والجَذْب بمنهجيَّةٍ وعلى نحو مهووس.

ولا تكمن حقيقة أحاسيسنا المثيرة هذه، إذْ كان ثمَّة أحاسيس، إلَّا في غَيْرِيَّتِهَا على وجه الضَّبط، فالحقيقة تتكوَّن من المألوف والمُشترَك. ولهذا لا نُوجَد أفراداً، إلَّا في الجزء المُختلَق من أحاسيسنا المثيرة. كم ستغمرني المسرَّةُ حين أكتشف ذات يوم أنَّ الشَّمس كانت قرمزيَّة! ستكونُ تلك الشَّمس لي، لي أنا وحدي!

119

[1915]

... ثُمَّ ازدراءٌ عميق ومُبتذَل تجاهَ أولئك الذين يعملون من أجل البشريَّة، أولئك الذين يقاتلون من أجل أوطانهم مُضحِّينَ بحيواتهم كي تستمرَّ الحضارة...

... ازدراءً طافح بالقرف تجاهَ أولئك الذين لا يعرفون أنَّ الحقيقة الوحيدة لكلِّ واحد مثًا هي روحُنا الخاصَّة فحسب، وأنَّ كلَّ شيء آخر - العالَم الخارجيَّ والنَّاسَ الآخرين-كابوسُّ غير جَماليٍّ، يشبه الذي ينجم عن أحلام نَوبةٍ من عُسر الهضم العقليِّ.

يكادُ نُفوري من بذل أيِّ جهدٍ يغدو رعباً هستيرياً في وجه الجهد العنيف. والحرب، العمل المُنتِج الحيويُّ، نساعدُ الآخرين... يبدو كلُّ ذلك، بالنِّسبة إليَّ، ليس أكثر من عاقبةِ صفاقةِ محضة، [...]

مُقارنةً بالحقيقة الأسمى لرُوحي، بالعَظَمُوت المُطلَق المُهيمِن لأشدِّ أحلامي أصالةً وتَواتُراً، يتراءى كلُّ مَا هُوَ مُفيدٌ وخارجيُّ تافهاً لا يَغبَأُ بهِ أحد. فأحلامي، بالنِّسبة إليَّ، أكثر واقعيَّةً إلى حدُّ بعيد.

أن يشتغل عليه، «عشق امرأة صينيَّة على فنحان شاي من الخزف Razões (الأسباب Razões) فقط، متبوعة بنقطتين رأسيَّتَن، وporcelana ، ثُمُ كتب بعد هذا العوان، في سطر جديد، كلمة (الأسباب Razões) فقط، متبوعة بنقطتين رأسيَّتَن، يلحقهما مربَّع صعير. ثُمَّ خطَّ الجملة الوحيدة التَّالية في سطر وحدَه: «وقعا في العرام بهدوء وسلام، متلما أرادتُ، في بُعْذَيْن فقط Os nossos amores decorriam tranquillos, como ella queria, nas duas dimensões في بُعْذَيْن فقط do espaço apenas». ولا بُدُ من الإشارة، أيضاً، إلى أنَّ عبارة ((في بُعْدَيْن)) تُذكِّر بالمقطع 106، الذي يتحدَّث فيه بِسُوًّا عن بُعُدَيِّ الرَّفاهية اليابانيَّة. (المترجم).

[?1915]

لاحاجة للسيّارات والقطارات السّريعة كي تغمرني لذَّهُ الشَّعور بالسَّرعة الفائقة ويجتاحني رعبُها. لا أحتاج سوى حافلة كهربائيّة، وقُدرتي على تعزيز موهبتي الاستثنائيّة في التّجريد. فأنا قادرٌ، في حافلة من هذا النَّوع، بعد تبنّي موقف رياضي وتحليلي فوري، على فصل فكرة الحافلة عن فكرة السُّرعة، حتَّى تغدوان شيئين واقعيّين ختلفَيْن. ثُمَّ أستطيع أن أشعر بنفسي تسافرُ، ليس في الحافلة، وإنّها في سُرعتها. وإذا أردتُ الذَّهابَ مرحلة أبعد، راغبا في الاستمتاع بهذيان السُّرعة العالية، فإنّني أستطيع نقل تلك الفكرة إلى «مفهوم السُّرعة المُجرّدة، فأزيد السُّرعة، في نزوة، أو أُخفّفها، متجاوزة كلَّ الشُرعات المحتملة التي حقّقتها الحافلات الميكانيكيّة من قَبْل.

وبعيداً عن قذفها الرُّعبَ في قلبي - فلا علاقةَ للخوف بقدرتي على الشُّعور بكلِّ ما هُوَ مُسرِفٌ – فإنَّ مكابدةَ الأخطار الحَقَّةِ تُعطِّل انتباهَ أحاسيسي الكامل، فتكدِّرُني، وتُبدَّدُ شخصيَّتي.

أَتْجَنَّبُ كُلَّ المخاطر. يُضجِرني الخطرُ ويخرُّفني على حدٌّ سواء.

مغيبُ الشَّمس ظاهرةٌ عقليَّة.

121

(iii) [§1916]

حياتي: مأساةٌ أطلقتِ الآلهةُ ضدَّها صيحات الاستهجان في المسرح بعد الفصل الأوَّل فحسب.

⁽¹¹¹⁾ من الملاحظ أنَّ جول كوستا قد أغفلت الإشارة لهذا إلى عنوان هذا المقطع بحسب ما أورده يسوًا نفسه. وكان يسوًا قد كتب عبارة «Diario lucido» (التي تعني: يوميّات واضحة) بخط يده، بعد أن كان قد رقن النَّصَّ كنه على الآلة الكاتبة، مع التأشير عليه بحروف مختصرة بأنّه جزء من «كتاب القلّق». ونقد أوردت طبعة بيسارًو والطبعات البرتغالية الرئيسة الأخرى هذا العنوان. وكذلك فعل زيبيث في الطبعة الإنكليزيّة، التي ترجمها بنفسه، ولكنَّه أورد المقطع في الملحق الحاص، لذي وضعه في نهاية الكتاب، للنصوص التي عنونها بِسُوًا بنفسه، لأسباب ذكر ماها في حواشٍ سابقة. (المترجم)

الأصدقاء: لا أحد. بضعة معارف، فحسب، يظنُّون أنَّهم منسجمون معي، وربَّما يأسفون لو صرعني قطار أو أمطرت السياء في يوم جنازي.

ولقد كانت مكافأي الطبيعيّة لانسحابي من الحياة هي عجزُهم، الذي أوجدتُه، عن التَّعاطف معي. ثمَّة هالةٌ من الجَفُوةِ حولي، هالةٌ جليدٍ تَدرأُ الآخرين، لم أَذُقُ أَلمَ عُزلتي بَعْدُ. يصعبُ بلوغ المنزلة الفارقة الواجبة للرُّوح كي تبدو العزلةُ ملاذَ سكينة خِلُوا من كلِّ كَرْب. لم أومن البَّنَة بالصَّداقة التي أظهروها، مثلما لم أكن لأومن البَّنَة بحبِّهِمُ الذي كان مستحيلاً على أيِّ حالٍ. طريقة معاناتي شديدة التَّعقيد والدِّقَة إلى درجة أنَّني، على الرَّغم من أنَّه لم تساورني أوهام بخصوص الذين سمَّوا أنفسَهم أصدقائي، مازلتُ أشعر أنَّهم قد حيَّبوا آمالي.

لم أرتب للحظة أنَّهم سوف يخونونني جميعاً، ولكنَّني كنت أُصعَق على الدَّوام حين يفعلون. كنتُ دائماً لا أتوقّع أن يقع الشَّيءُ الذي أتوقّع أن يقع.

ولأنّني لم أجد قَطُّ في نَفْسي الخصالَ التي قد تكون جذّابةً لشخص آخر، لم أومن البنّة بأنّ أحداً يستطيع أن يشعر بالانجذاب نحوي. ويمكن رفض ذلك، بوصفه الرَّأيَ المُعتبر لتواضع أخرَق، إنْ لم تُثبتِ الحقيقةُ بعد الحقيقة - تلك الحقائق غير المتوقَّعة التي توقَّعتُه بلا تردُّد- أَنَّه صحيح دائماً.

ولا أستطيع حتَّى أن أتخيَّلهم يشعرون بالشَّفقة عليَّ، لافتقاري -رغم بشاعتي الجسديَّة وشعوري أنَّني غير مرغوب- إلى القَدْر اللَّازم من النَّشُوَّه الذي يجعلني مرشَّحاً محتملاً لاستدراج شفقة الآخرين؛ ولا إلى تلك الصفات المثيرة للتَّعاطُف التي تستدرج الشَّفقة حتَّى حين لا تُستحقُّ شفقة قد ترثي لحالي، فأصحابُ حين لا تستحقُّ شفقة قد ترثي لحالي، فأصحابُ الأرواح الكسيحة لا يستحقُّون الرِّثاء. ولهذا انجرفتُ، عوضاً عن ذلك، في الحقل الجاذبيِّ لا زدراء الآخرين، حيث من غير المحتمل أنْ أستدرج شفقة أحد.

أَفنيتُ حياتي كلَّها محاولاً التكيُّف مع ذلك دون أن أشعر في قرارة نَفْسي بوحشيَّة هذا كلِّه وخِسَّته.

يحتاج المرءُ إلى شجاعة عقلانيَّة مُعيَّنة ليُدرك، دونَ تردُّدِ، أنَّه ليس أكثر من حُثَالة إنسانيَّة، إجهاضٍ حيِّ، مجنونٍ لم يُجَنَّ كفايةً بَعْدُ كي يُحبَسَ؛ ولكنَّه يحتاج، كي يُدركَ ذلك، مزيداً من

الشجاعة الرُّوحانيَّة كي يتكيَّف مع قَدَره، كي يقبله بلا تمرُّد، وبلا خضوع، وبلا إيهاءة احتجاج، أو محاولة الإتيان بإيهاءة احتجاج، اللَّعنة الأوَّليَّة التي ألقتها الطَّبيعةُ على عاتقه، عليك أن تطلب الكثير، إذا أردتَ ألَّا تشعر بأيِّ ألم البتَّة، فليس من طبع البشر قبول الشَّرِّ، والاعتراف به مثلها هُوَ، وعَدَّه خيراً؟ بَيْدَ أَنَّكَ لو قبلته بوصفه شراً، فلن تستطيع حينئذ إلَّا أن تعاني.

يكمن شقائي -شقاء سعادي- في تخيُّل نَفْسي من خارجها. رأيتُ نَفْسي مثلها رآني الآخرون، فَرُحتُ أستصغرُ نَفْسي، ليس لأنَّني قد اكتشفتُ فيها خصالاً تستحنَّ الازدراء، وإنَّها لأنَّني رأيتُها على الشَّكلة التي رآني بها الآخرون، فشعرتُ باستخفافهم بي. ولقد كابدتُ ذُلَّ أن أعرف نَفْسي. وبها أنَّ ذلك كان جُلْجُلَةً تفتقر إلى النَّبالة، ولا ينبغي أن تتبعها قيامةٌ في أيَّام لاحقة، فإنَّ ما استطعتُ فعله هُوَ أن أعاني بالسَّفالة التي ينطوي عليها ذلك كلَّه.

أدركتُ، حينئذ، أنَّه ربَّما لن يُحبَّني إلَّا شخص يفتقر إلى الإحساس الجماليِّ، وإنْ أحبَّني فسوف أحتقره على ذلك، فلن يكون مَيْلُهم إليَّ أكثر من مجرَّد نزوة وُلدَتْ من رحم لامبالاة الآخرين.

أنْ نحدِّق في أنفسنا بجلاءٍ وفي الطَّريقة التي يرانا بها الآخرون! أن نرى هذه الحقيقة وجهاً لوجه! فحين رأى المسيح حقيقتَهُ وجهاً لوجهٍ عنى الصَّليب، صاح صرختَهُ الأخيرة: يا إلهي، لِمَ تَخلَّيتَ عنِّي، يا إلهي؟

122

[916]

إعلانُ الاختلافً"

لا سُلطة لأشياء الدَّولة والمدينة علينا، فما يضيرنا لو أساءَ الوزراء وبِطانتهم تصريف شؤون الرَّعيَّة؟ كلَّ ذلك يحدث خارج أنفسنا، كالوحل في الآيَّام الماطرة. لا دخلَ لنا بما يحدث، حتَّى لو كان لَهُ دخلٌ بنا.

ولسنا مُهتمِّين على حدُّ سواءٍ بالاضطِّرابات الكبرى كالحرب والأزمات الاقتصاديَّة. ولا نعباً طالما، أنَّهم لا يزورون بيوتنا، على أيَّ باب يطرقون. وقد يبدو هذا لإظهار قَدْر كبير من الجهل تجاه الآخرين، ولكنَّه في الواقع ليس إلَّا مجرَّد أُسِّ نظرتنا المتشكِّكة تجاه أنفسنا. لسنا طيّبينَ ولا مُحبّين للخير - ليس لأنّنا على النّقيض من ذلك، وإنها لأنّنا لسنا هذا الشّيء ولا ذاك. فالطّيبة كِيَاسَةُ المُتبذلِين. ولا تثير اهتهامنه إلّا كشيء يحدث في أرواح الآخرين، وفي طرائق مختلفة من التّفكير. نواقب، فلا نوافق ولا نوفض. رسالتّنا أن نكون لاشيء.

قد نكون فوضويين لو وُلدنا لأبناء الطَّبقات التي تصف أنفسها بالمحرومة، أو لأبناء أيِّ الطَّبقات الأخرى التي يستطيع أن ينحطَّ منها المرء أو يصعد. فالحقيقة أنَّنا، في العموم، مخلوقات وُلدتُ في الفجوات بين الطَّبقات والتَّقسيهات الاجتهاعيَّة في الفضاء المُنحطِّ بين الارستقراطيَّة والبرجوازيَّة (الرَّفيعة)، دائماً، على وجه التَّقريب؛ الحلبةِ الاجتهاعيَّة للعباقرة والمجانين الذين يستطيع المرء أن يتعاطف معهم.

تُربكنا الأفعال ليس لعجزنا الجسديِّ بعضُ الشَّيء فحسب، وإنَّما لنفورن الأخلاقيِّ بصورة أساسيَّة. تبدو الأفعال، بالنِّسبة إلينا، لا أخلاقيَّة. نشعر بأنَّ الأفكار تنحطُّ حين تصوغها الكلمات، وحين ننقلها، بعد ذلك، إلى النَّاس الآخرين، فنجعلها مفهومةً لأولئك القادرين على الفهم.

يعتمل فينا مَثلٌ عارم إلى التّنجيم والفنون الخَفِيّة، ولكتّنا لسنا مُنجِّمين، فنحن نفتقر إلى الإرادة الفطريَّة والصَّبر على تهذيب إرادتنا بطريقة تجعلها وسيلة مثاليَّة للسَّحرة المجوس والمتوِّمين المغناطيسيِّين، بَيْدَ أنَّ لدينا على الرَّغم من ذلك مَثلٌ إلى التَّنجيم، ولاسيًّا أنَّ له طريقة في التَّعبير عن نفسه، لا يسبر أغوارها أكثر الذين يقرؤونها، حتَّى بالنِّسبة إلى أكثر أولئث الذين يظنُّون أنَّهم يفهمونها. تُظهر هذه المُرواعَة تفوُّقاً بديعاً، وهي أيضاً مصدر زاحر بالأسرار والأحاسيس المثيرة المرعبة: الأرواح النَّجميَّة والكائنات الغريبة ذات الأجساد الأغرب المستحضرة في معابدهم بالطُّقوس السَّحريَّة والحُضورات غير المتجسِّدة من ذلك الصَّعيد الأعلى التي تحوِّم فوق حواسًنا الغافلة في الصَّمت الجسديِّ لصخبنا الجوَّانيُّ تلمسنا هذه الأشياء جميعاً بيدٍ شبحيَّة، لزجة، في لحظات الظُلمة والكرب.

ولكنّنا، من ناحية أخرى، لا نتعاطف مع المُنجِّمين لأنَّهم حواريُّون، أيضاً، ويعشقون البشريَّة، وهذه نظرة تجرِّدهم من هالة الغموض التي تحيط بهم. فالسَّبب الوحيد الذي يدفع المُنجِّم إلى العمل على الصَّعيد النَّجميِّ هُوَ البحث عن الجَاليِّ البعيد، وليس بدافع خبيث لمساعدة أحد الأشخاص.

ويخامرنا تعاطُف خَفِيَّ مُتوارَث، بغير قَصْدِ أو يكادُ، تجاه السِّحر الأسود، تجاه الأشكال اللُحرَّمة من الفلسفة المُتعالِية، تجاه أسياد القوَّة الذين باعوا أنفسهم إلى اللَّعنة وإلى شكل منُحطً من التَّناسُخ. عيوننا الكليلة المُتحيِّرة منجذبةٌ مثل كلبةٍ في النَّزَاء إلى نظريَّة الدَّرجات العكسيَّة، والطُّقوس المقلوبة، ومنحنى الشَّرِّ للهَرميَّة الهابطة.

أمَّا إبليسُ فيجذبنا، شئنا أم أبينا، كانجذاب كلب إلى كلبة. ثعبانُ البصيرة الماديَّة يلفُّ نَفْسه حول قَلبِنا، كما يلتفُّ حول عصا هِرْمِس، الصَّولجانِ (١١٥)، رمزِ الإله الذي يتواصل: عطارد، ربِّ الفِطنة.

أمَّا أُولئك الذين لا يدنسون الصِّغار، فيتمنَّون لو كانت لدينا الشَّجاعة لنكون كذلك. فتمَّة أثرٌ أُنثويٌّ، لا محالة، للنُّفور من الأفعال. افتقدنا مهمَّتنا الحَقَّة كربَّات بيوت وسيِّدات قصور كسولات بسبب شُوء توافقٍ جنسيٌّ في تجشُّدنا الحاليِّ. ولأنَّنا لا نؤمن بهذا تماماً، نتظاهرُ بأنَّنا نتلمَّظُ بدم السُّخرية.

ولا شيء من هذا كلّه قد وُلِدَ من الشّرّ، بل من الضّعف. نعبدُ الشّرّ، في عزلتنا، ليس لاّنّه شرّ، وإنّما لاّنّه أقوى من الخير وأعنفُ منه، والأعصابُ التي توجّب عليها أن تكون أعصاب امرأة منجذبة لل كلّ ما هو عنيف وقويٌّ. لا نستطيع اتّخاذَ مقولة لوثر «خطيئة بلا خوف» (١١٠) شعاراً لنا، لا فتقارنا إلى القوّة الكافية، حتَّى إنّنا لا نمتلك قوّة البصيرة، القوّة الوحيدة التي ربّما نستطيع الادّعاء بامتلاكها. فكّروا كثيراً في اقتراف الخطيئة، فذاك أقصى ما يمكن أن يعني قولٌ سائر بالنّسبة إلينا. ولكن حتَّى ذلك مستحيل في بعض الأحيان: فنهمة حقيقة لحياتنا الجوّانيّة تجرحنا في بعض الأوقات لأنّه مازالت حقيقة واقعة. فوجود فوانين لتداعي الأفكار، مثلها هي الحال مع جميع العمليّات العقليّة الأخرى، تُهِينُ انضباطَنا الفطريَّ.

(113) باللَّاتِنايَّة في الأصل: Pecca Fortiter. (المترجم)

[\$1916]

تريدُ الرُّوح، التي تستحقُّ اسمَها، أن تعيش الحياةَ إلى الحدُّ الأقصى. فقناعة المرء بها منحوه إيَّاهُ تعبيرٌ عن موقف يليق بالعبيد؛ وحدهم الأطفال يطلبون المزيد، ووحدهم المجانينُ يرغبون في مزيد من الفتوحات، فكلُّ فَتْح [...]

فأن تعيش الحياة إلى الحدُّ الأقصى هُوَ أَنْ تعيشَهَا إلى الحدِّ، وثَمَّ طرائقُ ثلاثُ لتحقيق ذلك، ولا بُدَّ لكلِّ روح سامية أن تختار واحدة. أنْ تعيش الحياة إلى الحدِّ الأقصى هُوَ أنْ تملكها تماماً، أن تشرع في رحلة عُوليسيَّة عبر كلِّ خالجة إنسانيَّة، عبر كلِّ تجلِّ للطَّاقة البرَّانيَّة، ولكنَّ قِلَّة استطاعوا، في كلِّ أزمنة تاريخ العالم، إغماض أعينهم وقد هدَّها التَّعبُ الذي هُو خلاصةُ التَّعب كلِّه، وأنْ يمتلكوا كلَّ شيء بكلِّ طريقة ممكنة.

قليلون، فحسبُ، استطاعوا فرضَ تلك المطالب على الحياة، فأجبروها على الاستسلام لهم، جسداً وروحاً، عارفينَ أنّهم في حاجة إلى ألّا يشعروا بالغيرة، لأنّهم يدركون أنهم يمتلكون حبَّها كلَّهُ، ولا بُدَّ أن يكون ذلك، بلا أدنى شكَّ، هُوَ رغبةُ كلِّ روح قويّة وباسقة. فحين تُدرك تلك الرُّوح أنَّ ما ترغب (١١١) فيه مستحيلٌ، وأنّها لا تمتلك القوَّة لهزيمة كلِّ جزء من الكُلِّ شيء (١١١)، يتوجّب عليها حيننذ أن تسلك سبيلينْ آخريْن. الأول؛ نكرانُ الذَّات تماماً، والزُّهد الجوهريُ التّامُّ، ونفيُ ما لا يُمكن امتلاكه تماماً، في حلبة النَّشاط والطَّاقة، إلى فَلَكِ الحساسية. فمن الأفضل عدم القيام بأيِّ فعل بتاتاً على أن يذهب الجهد المبذول عندى، أو يتشظَّى، غير مكتمل، كغالبيَّة أفعال التَّافهين الفائضين عن الحاجة الذين يَجلُون عن الحصر. أمَّا السَّبيل الثَّاني؛ فطريقُ التَّوازن الأكمل، البحث عن حدود السِّسة المُطلَقة، عن الحصر. أمَّا السَّبيل الثَّاني؛ فطريقُ التَّوازن الأكمل، البحث عن حدود السِّسة المُطلَقة، التي ينتقل فيها التَّوقُ إلى الحدِّ الأقصى من الإرادة والمشاعر إلى البصيرة، فيغدو طموحُ الرَّ التي ينتقل فيها التَّوقُ إلى الحدِّ الكهال، ولا أن يشعر بالحياة حدَّ الكهال، وإنَّا فرضُ النَّطام على الحياة، وأن يعيش في انسجام وتوافق فكريُ.

(114) يستخدم بِسُوًّا الرُّوح، هُنَا، يصيغة المذكّر. (المترجم)

⁽¹¹⁵⁾ يكتب يِشُوًّا، هنا، لفظة «كلِّ شيء» بحرَفُ استهلالي كبير، إشارة منه إلى أنَّه الكلُّ الذي يجمع في كينونته الأشياء كلَّها، ولهذا آثرت ترجمتها بـ «الكلِّ شيء»، وليس «كلِّ شيء». (المترجم)

والتَّوق إلى الفهم، الذي يأخذ عند كثير من الأرواح النَّبيلة مكانَ الفِعل، يدخلُ في فَلك الحساسية. فأن يتمكَّن المرءُ من استبدال الطَّاقة بالبصيرة، قاطعاً الصَّلة بين الإرادة والعاطفة، نازعاً المصلحة الشخصيَّة عن كلِّ تجليَّات الحياة الماديَّة، مسألةٌ تستحقُّ ما هو أكثر من الحياة، ولكنَّ امتلاكها تماماً في غاية الصَّعوبة وفي غاية الحُزن إذا امتلك المرءُ بعضها دونَ بعض.

ولقد قال المغامرون الخبيرون (١١٥) إنَّ الرِّحلة هي المُهمَّة، وليست الحياة. أمَّا نحن، مغامري الحساسية العَلِيلة، فنقول: ليسَ العيشُ هو المُهِمُّ، بَلِ الإحساسُ.

124

[1916]

أَنْتِروس (117)- العاشقُ الرَّائي.

لديَّ مفهوم مُنمَّقٌ، ضحلٌ، عن الحُبِّ العميق واستخدامه المقيد. فأنا رهن إشارة الهُيَاماتِ المرتيَّة. أحافظُ على قلبي سالماً من أيِّ سُوءٍ؛ قلبي الذي وهبَ نَفْسه إلى أقدارِ باطلة.

لا أذكرُ قَطُّ أنَّني قد أحببتُ شيئاً، في أحدٍ، أكثرَ من "صورته"، لا الصُّورةُ الشخصيَّة التي يرسمها الرَّسامون، وإنَّما المظهر الخارجي المحضُ الذي تدخل منه الرُّوح لتمنحَ الحركة والحياة.

هكذا أعشقُ: أُركِّزُ على صورة امرأة أو رجل -فحيث تغيب الرَّغبة، تنعدم الجنوسة - جيلَيْن أو جذَّابَيْن أو محبوبَيْن، فتستبدُّ بي تلك الصُّورة، تكبَّلني، وتحكم قبضتها عليَّ. ولكنَّ كلَّ ما أريده أنْ أراها، فلا شيءَ يرعبني أكثر من احتماليَّة أن أعرف شخصاً حقيقياً، وأتكلَّم معه؛ شخصاً تكون تلك الصُّورةُ تجلِّيةُ البرَّانيَّ.

(117) أنتروس Anteros إله حُبِّ العِوْض (أو الحُبِّ مقابل الحُبِّ) في الميثولوجيا الإغريقيَّة، وهو ينتمي إلى طائفة الآلهة المُجنَّحة المرتبطة بالحُبِّ والجماع. (المترجم)

⁽¹¹⁶⁾ ولأن يشوًا يستخدم لفظة argonauts (في البرتغاليَّة؛ argonautas) يحرف ستهلالي صغير، فرنَّه لا يشير إلى الأرجوانيَّتين («أبطال الإغريق الذين أبحروا، قبل الحرب الطُّراوديَّة، رفقة حاسون، على متن سفينة الآرجو، نسبة الأرجوانيَّتين («أبطال الإغريق الذين أبحروا، قبل الحرب الطرب الطرب الطرب الله الماحر أيتيس ملك آيا») وإثمًا هي إلى صانعها آرجوس، لإحضار الصوف الذهبي للكبش الذي فرَّ عليه إينو إلى الساحر أيتيس ملك آيا») وإثمًا هي إشارة إلى كلَّ مغامر يشرع في رحلة، بحثاً عن ضالَة منشودة. (المترجم)

أعشقُ بعينيَّ وليس بخيالي. لا أتخيَّل الصُّورةَ التي تستحوذ على. لا أتصوَّر نَفْسي مرتبطة بها بأيِّ طريقة، لا شيءَ نَفْسياً بصددِ حُبِّي المُنمَّق، فلا رغبةَ لديَّ في أن أعرف ماذا يفعل هذا الكائن -الذي لا يعنيني منه سوى مظهره الخارجي- أو فيمَ يُفكِّر.

الموكبُ اللّانهائيُ للنّاس والأشياء، الذي يصنعُ العالَم، هُوَ، بالنّسبة إليّ، معرض لا مُتناهِ من الصُّور التي تُضجرني حياتُها الجوّانيَّة. إنّها لا تثير اهتهامي، لأنَّ الرُّوح شيء رتيبُ والشَّيء ذاته دائهاً في كلِّ البشر، ولا تختلف إلّا في تجلِّيها الشخصيِّ، وأفضل جزء فيها هو ذاك الذي يفيضُ في الوجه، في السُّلوكات والإيهاءات، ثُمَّ يغدو بعضاً من الصُّورة التي تسترعي انتباهي، فيبُقيني مفتوناً دائهاً، بطرائق مختلفة.

لا رُوحَ، في رأيي، لهذا الكائن. فالرُّوح شأنه/ شأنها الخاصُّ.

هكذا أكابدُ المظاهر الخارجية للأشياء والكائنات برؤية صافية، غير مكترث بهاهيَّتها الرُّوحانيَّة كالهِ من عالمَ آخر. لا أذهبُ عميقاً إلَّا في ظاهر الآخرين؛ فإذا أردتُ ولوجَ الأَعهاق، فلا أبحث عنها إلَّا في نَفْسى وفي مفهومي عن الأشياء.

فياذا سأجني من امتلاك معرفة شخصيَّة عن الكائنة التي أُحبُّ كشيء مُنمَّق؟ ليسَ خية الأمل، فغباؤها المحتمل أو ضحالتها عديمة الصِّلة، فلا أُحبُّ فيها غير مظهرها فحسب، الذي لم أتوقَّع منه شيئاً، وبأنَّ مظهرها الخارجي مازال هُناك. علاوة على ذلك، فالمعرفة الشخصيَّة عن أحد الأشخاص ضارَّةٌ لأنَّها عقيمة، والعقيم في العالم الماديِّ ضرُّ دائماً. فا نفع أن أعرف اسمَ تلك الكائنة؟ ولكنَّه أوَّل شيء أعرفه حين أتعرَّف عليها.

لا بُدَّ أن تعني المعرفةُ الشخصيَّة حريَّةَ التأمُّل التي ترغب فيها فكرتي عن الحُبِّ، على وجه الخصوص. فلا نستطيع أن نتأمَّل بحريَّة شخصاً نعرفه بصورة شخصيَّة أو نأخذه بعين الاعتبار.

المعرفة الفائضة عن الحاجة عقيمة بالنّسبة إلى الفنّان، فهي حين تُكّدره تُخفّفُ حدّة النأثير الذي يسعى إليه.

قدري الطَّبيعيُّ أن أكون مُراقباً حُراً وشغوفاً بمظاهر الأشياء وتجليَّاتها، مراقبَ الأحلام الموضوعيَّ، والعاشقَ الرَّائي لكلِّ أشكال الطَّبيعة ومظاهرها. وهذه ليست الحالة التي يُسمِّيها الأطباء النَّفسيُّون الاستمناء النَّفْسيُّ، أو الهوسَ الشَّبقيُّ. فأنا لا أنغمس في التخيُّلات، على شاكلة الاستمناء النَّفْسيُّ؛ فلا أحلم بأن يكون الكائن الذي أتأمَّله وأتذكَّره عاشقاً أو صديقاً: فلا تخيُّلات عنه أو عنها. كما إنَّني لا أجعل الشَّيءَ المرغوب مثالياً، على شاكلة المهووس الشَّبِق، ولا آخذه أبعدَ من نطاق الجَماليَّة البحتة: فلا أريدُ، لأشبع رغباتي وأفكاري، أكثرَ مَّا كان سانحاً لعينيَّ وللذَّاكرة الصافية المباشرة لما رأته عيناي.

125

[91916]

لم أتعوَّد نسجَ حبكةٍ بديعة حول الأجسام التي أُسلِّي نَفْسي في تأمُّلها. أنا أراها فحسب، فتكمن قيمتها الحَقَّة في حقيقة أنَّني أستطيع أن أراها. وأيُّ شيء قد أُضيفه سوف يحطُّ من قَدْر ما أُسمِّيه «تمظهرَها الواضح».

فلا بُدَّ لأيِّ شيء أتخيَّله حولها أن يكون باطلاً منذ البدء بالنِّسبة إليَّ؛ ثُمَّ على الرَّغم من عشقي للأحلام، فإنَّني أجدُ كلَّ باطل بغيضاً. يُبهجني الحُلم الصَّافي، الحلم الذي لا يمتُ إلى الواقع بصلة، ولا يتواصل معه البَّة. أمَّا الحُلم النَّاقص، الذي يمدُّ جذوره في الواقع، فيُكدِّرني، أو بالأحرى سوف يُكدِّرني لو اكترثتُ به البَّة.

فالبشريَّة بالنِّسبة إلى فكرة منمَّقة، توجَد عبر عيني المرء وأُذُنيه وعبر العواطف النَّفسيَّة. لا أطلبُ المزيد من الحياة أكثر من أن أتفرَّج عليها. ولا أطلبُ المزيد من نَفْسي أكثر من أن أتفرَّج على الحياة.

وَأَنَا كَمَثُلَ كَائِنَ مِن وَجُودٍ آخر يَمِرُّ، بِفَضُولَ أَبِديُّ، عَبْرِ هَذَا الوَجُودَ الذِي أَنَا غُرِيبُ عَنْهُ فِي كُلِّ شِيءً. لُوحُ زَجَاجٍ يَحُولُ بَيْنَةُ وَبِينِي. أَحَاوِلُ دَائهًا إِبْقَاءَ ذَلْكَ الزُّجَاجِ نَظْيَفًا، بِقَدْرِ استطاعتي، حتَّى أَتْمَكُن مِن سَبِّر أَغُوار هذا الوجود الآخر دون أَن تُشوَّه رؤيتي اللَّطَخَاتُ أُو البقع، ولكنَّني أَخْتَارُ إِبْقَاءَ ذَلْكَ الزُّجَاجِ بِيننا.

فرؤيةُ المزيدِ في شيء أكثرَ ممَّا هنالك فعلاً هُوَ في الحقيقة، بالنَّسبة لأيِّ عقل ذي نزعة علميَّة، أنْ ترى أقلَّ. فها تُضيفه في الجوهر تَطرحه في النَّفْس. وأنسبُ إلى حالتي العقليَّة، هذه، نُفوري من معارض الفنون. فالمتحف، بالنِّسبة إليَّ، هُوَ كُلُّ الحِياة، الذي تكون فيه اللَّوحة مُحكمة الصَّنعةِ دائهاً والحطأ الوحيد المحتمَل كامن في عين النَّاظر المُختلَّة. فإمَّا أن أحاول التَّقليل من قَدْر أيِّ نُقصانِ، أو أتقبَّله -إن لم أستطع- مثلم هُو لا أكثر، كما أفعل مع الأشياء جميعاً، فلا طريقة غير ذلك.

126

[بعد يوليو 1916؟]

رائقةً كانتِ السَّاعةُ، يلعبُ فيها الهواءُ، كمثل مذبح للصَّلاة. وكان كشفُ طالعِ لقائنا عكوماً باقترانات خيِّرة، لا ريبَ فيها، وكانت مادَّة الحُلم الغامضة تنزلقُ في وعي مشاعرنا، ناعمةً كالحرير، خفيفةً، لا يَفطن لها أحدُّ أو تكادُ. هدأتُ كصَيفِ فكرتُنا الفظَّةُ بأنَّ الحياة لا تستحتُّ العيش، والرَّبيعُ -الذي ربَّها تخيَّلنا، نُخطئيْن، بأنَّنا قد استمتعنا به - قد وُلِدَ من جديد. وكانت البِرَك، التي تُشبهنا على نحو يدعو للأسى، تُنشِدُ أناشيدَ الرِّثاء بين الأشجار، وبين الورد في المساطب العارية، يصحبُها -باستهتار مُطلَق - نغمُ الحياة الغامضُ.

لا جدوى من التَّفكير في أنَّك تعرفُ، أو حتَّى في أنَّك تعرف لا محالة، ما الذي سوف يحدث. المستقبل سديمٌ يطوِّقنا، وحين تلمحُ الغدَ، في طرفة عين، فكأنَّهُ اليومَ تماماً. أقداري هي المهرِّجونَ الذين تركهم السِّيركُ وراءه، والقمرُ ليس أسطعٌ من نُورِ قمر فوق الطُّرُق، ولا يحفُّ أوراقَ الأشجار إلَّا النَّسيمُ وريبةُ السَّاعة، وقناعتُن بأنَّنا نستطيع لا محالةَ أن نسمع الحفيف. ألوانُ أُرجوانِ بعيدة، وظلال هاربةٌ، لا نؤمن بأنَّ الحلم الذي لم يكتمل البتَّ يستطيع حتَّى الموت أن يُكمله، أشعَّةُ شمس باهتة، الضَّوء في المنزل على التَّلَّ، اللَّيلُ المُضني، والحيةُ المؤتب، والحياةُ داثرةٌ في الخارج، والأشجار لها رائحةُ الحُضرة في اللَّيلُ المُضني، الشَّاسع المرصَّع بالنَّجوم في الطّرف الآخر من التَّلِ. هكذا جابهَتْ أحزانُك لقاءها العذب، وباركَتْ كماتُكِ القليلةُ الرَّحلةَ مباركةً مَلكيَّةً، فلا سفائنَ عادتُ، ولا حتَّى الملكيَّة، فطوَّقَ دخانُ الأحياء كلَّ شيء، تاركاً ظلالاً وخواءً فحسبُ، والماءُ المجروح لبحيراتٍ مشؤومة، وُربَ دروبِ سيَّجتها وشائعُ الشَّمشير، ملموحاً في البعيد عبر الأبواب كرسمة من تصاوير وَاتُو، ثُمَّ الكُرْبُ ولا شيءَ أكثر. ولقد أفنيتُ أَلفيًّاتٍ في انتظار أن تأتي، ولكنَّكِ لن تأتي أبداً، واتَّق أبداً،

فالطَّريقُ لا تنعطِفُ. أَزِيجَتِ الأقداحُ من أجل الشُّوْ كُرَانِ الذي لا مَفرَّ مِنهُ -ليستْ أقداحُكِ، بَلِ الأقداحُ جميعاً، ثُمَّ حتَّى الفوانيسُ، والمطارحُ الخَفِيَّة، وخبطُ الأجنحةِ الغامضُ - ولقد سُمعَتْ، ثُمَّ في العقل وحدَهُ - في اللَّيل الحارِّ، المضطَّرب، الذي يصعدُ بُرهةَ بَعْدَ أُحرى، فيخترقُ قَلَقَهُ. الأصفرُ، والأخضرُ الدَّاكنُ، والأزرقُ -الحُبُّ - الكُلُّ ميَّتُ، ب خليلةُ، وكلُّ السَّفائن تلكَ السَّفينةُ التي لن تُبحر البَّقة اصلي مِن أجلي، لعلَّ الله يُوجَد حين تُصلِّينَ من أجلي. بهدوع، الينبوعُ البعيد، الحياة الحاثرة، الدُّخان المتلاشي فوق القرية حيث يهبط اللَّيلُ، الذَّاكرة الغامضة، والنَّهر البعيدُ... دَعِيني أنامُ، فَلْأَنْسَ نَفْسي، يا سيَّدةَ النَّوايا المُلتبِسة، ويا أُمَّ العِناقات والبَرَكات التي تتنافَرُ مع وجودي...

127

[\$1916]

جنازة لودڤيغ الثَّاني، ملك باڤاريا

حرَّرتني رُويداً من القيود التي أبقتني مربوطاً بموطني الصَّارم. ثُمَّ قالت: «لا نارَ في موقدك، فلهاذا لديك مائدةً؟». ثُمَّ موقدك، فلهاذا لديك مائدةً؟». ثُمَّ قالت: «لا صاحبة لك، فلهاذا تتشبَّتُ بالحياة؟».

⁽¹¹⁸⁾ ولأنَّ لفطة الموت (Morte) سواة في نص بِسُوّا، هذا، أو في البرنعائية عموماً هي مفظة مونَّئة، فقد آثرتُ استعمال المِيْنَة، بخلاف التدكير الشَّائع في العربيَّة، ولاسيَّما أنَّ بِسُوّا «يُوْسَن» الموت، هُذَ، بوصفه العشيقة التي طال انتظاره. (ولا تشاطرها النَّفظة داتها، «Morte»، ومونَّثة، إلَّا اللَّغة الإيطانيَّة). أمَّ في المطارح الأخرى التي يتحدَّث فيه بِسُوُ عن الموت بُحرُّداً من أيَّ «أنسنةٍ»، فسوف استخدم الكلمة بصيغة المُذكَّر، كما هي الحال في العربيَّة. (المترجم)

ثُمَّ قالت: «أنا». «أنا النَّارُ في المواقد الباردة، والخبرُ على الموائد الفارغة، وصاحبةُ الوحيدينَ والمُهمَلين الغيورةُ. ولسوف تجد في أراضيَّ العظيمة المجدَ الدُّنيويِّ الذي أضلَّكُ هُنَا. فالحُبُ في إمبراطوريَّتي لا يُضنِي، فهو لا يتوق إلى أن يَملك ولا يُعاني، فلقد أخفق في أن يَملك. أضعُ يدي برقَّةٍ على رؤوس أولئك الذين يفكّرون، فينسَوْن؛ أولئك الذين انتظروا عبثاً أن يُريحوا رؤوسهم في حضني، يغمرهم إحساسٌ بالطَّمأنينة والثَّقة.

ثُمَّ قَالْتَ: ﴿ الْحُبُّ الذِي يُكِنُّونَهُ لِي مُجَرَّدٌ مِن الشَّغف الدَّنِفِ والغيرة المجنونة، ولا يُفسده التَّجاهُل. حُبُّهم لِي مثل ليلة صيف، حين ينام الشَّحاذون في الهواء الطَّلق فيشبهون ظلالاً عدَّدة على قارعة الطَّريق. لن تَسمع من شفتيَّ الصامتتيْن أناشيدَ عرائس البحر، ولا حفيف أشجارٍ شجياً أو خريرَ ينابيع؛ صمتي حَفِيٌّ كموسيقى خافتة، وسَكينتي تداعبُ كأدنى فكرة عن النَّسيم.

ثمَّ قالت: «لمَاذا تميلُ إلى الحياة؟ فالحُبُّ لا يبحثُ عنك، ولا المجدُ، ولن يعثر عليك الجاهُ أبداً. فالمنزل الذي ورثتَه أطلالُ منزل، والغِلال في الحقول التي مُنِحتَ قد سفعها الصَّقيعُ، والحصَادُ قد حرَّقته الشَّمسُ، والزَّنابقُ في بركتك قد تعفَّنتْ قبل أن تراها، والأعشابُ قد ملأتِ الدُّروبَ والجادَّات التي لم تطأها قدماك بَعْدُ.

«ولكنَّك سوف تجدُ السُّلُوانُ في أراضيَّ، حيث يُهيمِنُ اللَّيلِ الأبديُّ، لأَنَّكَ لن تذون الأمل هُناك البَّنَّة، ستذوق النِّسيانَ وحدَهُ، ولن تتوقَ إلى شيءٍ، بَيَّدَ أَنَّك سوف تجدُ الرَّاحة، لأَنَّكَ لن تحظى بحياةٍ هُناك أبداً».

ثُمَّ أُرتني كيف يكون الأمل عبثياً، حين يأمل المرء في أيَّام أفضل وهو لم يُولَد بروح قادرة على إيجاد أيَّام أفضل. ولقد أرتني كيف أنَّ الأحلام لا تؤاسي فالحياة لا تؤلم ألم شديداً إلَّا حين يستيقظ المرء. ثُمَّ أرتني كيف أنَّ النَّوم لا يجلب الرَّاحة فهو مسكون بالأشباح، بظلال الأشياء، وبالآثار التي خلفتها في الهواء الإيهاءات، وبالأجنَّة الميِّتة للرَّغبات، وبالحطام العائم لسفينة العيش المتحطّمة.

ثُمَّ، وهي تتحدَّث على تلك الشَّاكلة، لفَّتِ السجاد الذي وجدتُه مغرياً جداً، والأقمشةُ الحريرَ التي تشهَّنها روحي، والإستبرقَ المجلوب من مذابح المعابد، الذي كانت تسَّالْهُ عليه دموعي.

لماذا تحاول أن تكون كالآخرين، إنْ كان محكومٌ عليك بأنْ تكون نَفْسك؟ ولماذا تضحك، إنْ كان فرحُك الحَقُّ، حين تضحك، باطلاً، لأنَّه قد وُلِدَ من نِسيانك من أنت؟ ولماذا تبكي إنْ كنت تشعر بأنَّه لن يُجدي، حين تبكي أكثر لأنَّ دموعك تُخفق في أن تواسيك أكثر ممَّا تفعلُ؟

فإذا كنتَ سعيداً حين تضحك، فلقد فزتُ؛ وإذا كنتَ سعيداً لأنّك قد نسيتَ من أنت، فكم ستكون أسعد حين تكون معي، حيث لن تتذكّر شيئاً أبداً. وإذا كنتَ قد حقّقت الرّاحة الكاملة، لو نمتَ ربّا نوماً بلا أحلام، فكيف سترتاح راحة عميقة على سريري، حيث كلُّ النّوم بلا أحلام؟ وإذا كنتَ نهضْتَ لبرهةٍ لأنّك قد رأيت شيئاً جميلاً، فتنسى نفسك وتنسى الحياة، فكيفَ عالياً سوف تصعد في قصري الذي لا يَنشِزُ جمالُهُ اللّيليُّ ولا يَشيخُ ولا يَفسدُ؛ في حجراتي حيث لا ريحَ تُكدِّرُ السّتائر، ولا غبارَ يسترُ ظهورَ المقاعد، ولا نورَ يُبهِتُ ألوانَ قطائفِ المُخمَل والفُرُشِ المُنجَدة، ولا زمنَ يُصفَّرُ البياضَ الأبيضَ للجدارِن البيضاء؟

فهَيًا، تنعَّم بحنانيَ الذي لا يتبدَّلُ، وبحُبِّيَ الذي لا يموتُ! واشربِ الرَّحيقَ الأسمى من كأسيَ التي لا تَنضبُ؛ الرَّحيقَ الذي لا يُتعِبُ ولا يَمرَرُ ولا يُغثِي ولا يُسكِرُ.

وَتَأْمَّلُ مِن نَافِذَة قَلَعْتِي، لا ضَوْءَ القمر ولا البحرَ، فَتَامُ جَمَافِهَا نُقْصَانُ (١١٥)، وإنَّمَا اللَّيلَ الأموميَّ الشَّاسِعَ، والبهاءَ التَّمَامَ للهاوية السَّحيقة!

ستنسى، بين ذراعيَّ، الدَّربَ المؤلم الذي أوصلكَ إليهم. ولن تذوقَ في عناقيَ الحُبَّ الذي حضَّكَ على أن تُفتِّشَ عنه! إجلسُ على عرشيَ قُربي، فسوف تكون إمبراطورَ السِّرِّ والكُلْسِ اللَّقَدَّسة، الذي لن يُنزَع التَّاجُ مِنهُ إلى أبد الآبدين، ستشاركُ الآلهةَ والأقدارَ وجودَها العَدَمَ، فلا يكون لك هُنَا (120) ولا آخرةً، فلا تحتاجُ حتَّى إلى تلك الأشياء الفائضة لديك أو التي تفتقر إليها أو التي اكتفيتَ منها.

سَأَكُونُ زُوجِتُكَ الأُمَّ، وشقيقتكَ التَّوأَمَ التي وُجدَتْ بعد أن كانت مفقودةً منذ زمن

⁽¹¹⁹⁾ كَانَّ بِسُوَّا يَنشَد مع السَّاعر الأندلسيِّ أبي البقاء الرَّندي: «لِكُلُّ شيءِ إِذَا مَا ثُمَّ نُقَصَانُ». (المترجم) (121) كَلْمَةُ وَهُنَا here (وفي البرتعاليَّة aquém) هي بالمعنى الضَّديُّ من لقظة «الآخرة hereafter» (وفي البرتغاليَّة abem) التي يعدها. (المترجم)

بعيد. وحين أتزوَّجُ قلَقك (الله) كلَّهُ، حين يعودُ إليَّ كلَّ شيء كنتَ تبحث عنه ولم تجده، فسوفَ تضيعُ في جوهري الحَفِيِّ، في عَدَمي، في صدري حيث كلُّ الأشياء تتداعى، في صدري حيث كلُّ الأشياء تتداعى، في صدري حيث كلُّ الأرواح خامدةٌ، في صدري حيث حتَّى الألهةُ تتلاشى.

128

[1916]

يا عاهلَ التَّجرُّد والزُّهدِ، يا إمبراطورَ الموت وحطامِ السَّفائن، أيَّها الحُلمُ الحيُّ الذي يطوفُ، تُجلَّلاً بالأُبَّهة، بين أطلال العالمَ ومنافيه!

يا عاهلَ اليأس والخُيَلاءِ الأجوف، أيُّها السَّيِّدُ الحزينُ للقُصور التي لا تجلبُ الرِّضي، يا سيِّدَ المواكب والاحتفالات التي أحفقتْ في أن تمحو الحياة!

أَيُّهَا العاهلُ المبعوثُ من القبور، يا مَن جئتَ في ضوء القمر كي تَقُصَّ على الأحياء حياتَك؛ أَيُّها السَّاعِي الملكيُّ الذي يحملُ الزَّنابق التي فقدتْ بتلاتها؛ أيُّها الرَّسولُ الإمبر اطوريُّ للعاجِ البارد!

أيُّها العاهلُ، يا راعي اللَّيالِي التي طارَ النُّومُ من أجفانها، يا فارسَ القلَقِ الشَّاردَ، بلا مجدٍ ولا صبيَّةٍ تصحبها على امتداد الطُّرُق المقمرة؛ يا سيِّدَ غابات سُفوح التِّلال، الذي امتطى صهوة جواده، في صورة جانبيَّة صامتة، عبر الوديان، وحافَّةُ القُبَّعة نازلةٌ، فأسيءَ فهمه في القُرى، وسُخِرَ منه في البلدات، وازدُرِيَ في المُدن.

أيُّها العاهلُ الذي كرَّسته المِيْتَةُ (22) عَاهِلَها، أيُّها الشَّاحبُ العبثيُّ المنسيُّ الذي لا يُعرَفُ، يا مَن تَشُودُ بين الجواهر وقطائف المُخمَل الباهتة فوق عرشك في أقصى المُمكِن، تُعاطاً بحاشية ظلالِ وهميَّة، وتحرسك ميليشيا خياليَّة، غامضة وفارغة.

هَاتُوا الْكؤوسَ، أيُّها الشَّعاةُ، العذراوات، الغِلمانُ والجواري، هَاتُوا الأطباقَ والأكاليل من أجل الوليمة التي تدعونا إليها الموتُ! نعم، هاتوها كلَّها، وتعالَوْا مُرتدين الأسودَ، مُكلَّلينَ بالآس.

⁽¹²¹⁾ ترد كلمة القلِّق، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

⁽¹²²⁾ الموت، هنا، بصيعة المؤنث، لللك استعملت «مِيْنَة». راجع الحاشية السابقة المتعلقة بالمقطع السابق. (المترحم)

وَامْلُؤوا الكؤوسَ بِبَيضِ الجِنِّ (123)، وَامْلُؤوا الأطباقَ بـ [...]، وانسجوا الأكاليلَ من قطائف المُخمَل [...]، من الأزهار الحزينة التي تنضوَّعُ منها رائحةُ الحزن.

فالملكُ ذاهب لتناول العشاء رفقةَ الموت اللَّيلةَ في قصره العتيق قُربَ البحيرة، بين الجبال، بعيداً عن الحياة، بعيداً عن العالم.

فَلْتَتَأَلَّفِ الأوركسترا الني تتمرَّنُ لإحياء الوليمة من آلاتٍ غريبة، صوتُها في حدِّ ذاتهِ يُبكينا. ولا بُدَّ أن يرتدي الغلمانُ أزياء داكنة ذات ألوان غريبة، باذخة وبسيطة مثل حَمَّالات نعوش المنتحرين.

وَلْيَعَبُر موكبُ الحاشية القروسطيُّ المَهيبُ، قبل بدء الوليمة، عبر جادًات من حدائق واسعة، في مراسمَ جليلة، مثيرة، وصامتة، كجَمالٍ في كابوس.

الموتُ انتصارُ الحياة!

نعيشُ في الموت، لأنّنا نُوجَد اليومَ فحسب، لأنّنا قد مِتنا بالأمس. ننتظرُ الموت، لأنّنا لا نستطيع إلّا أن نؤمن بالغد، بمعرفة أنّ اليومَ سوف يموتُ. نعيش في الموت حين نحلم، لأنّ الحُلم إنكارُ الحياة. ونموتُ في الموت حتّى حين نعيشُ، فالعيشُ إنكارُ الأبديّة! الموت يقودنا، الموت يبحث عنّا، الموت يرافقنا. فكلُّ ما نملكه هو الموت، وكلُّ ما نريده هو الموت، وكلُّ ما نريده هو الموت، وكلُّ ما نرغبُ فيه هو الموتُ.

نسيمٌ مُنذِرٌ ينفشُ ريشَ أجنحةٍ.

هَا هُو يأتي، كالموت الذي لا يراه أحدٌ والـ[...] الذي لا يَصِلُ.

فَانَفْخُوا فِي الأَبُواقِ، أَيُّهَا الْمُنَادُونَ! شَيِّعُوهُ!

عشقُكَ للأشياء المحلوم بها كان احتقارَك للأشياء الحيّة.

أَيُّهَا اللَّلِكُ-البِتولُ الذي احتقرَ الحُبُّ، أَيُّهَا المُلكُ-الظلُّ الذي ازدرى الضِّياء،

Mandrake (123)، ويعرّف أيضاً باسم تُقَاح المحانين، واليّبروح: بباتٌ يسبب الهلوسة، كان يستخدم في العصور العابرة كمخدّر، وزيادة الرغبة الجنسيّة. (المترحم)

أَيُّهَا المُلكُ - الحُلمُ الذي رِفضَ الحياة! العتمةُ تُنادي بِكَ إمبر اطوراً، وسطَ الصَّخب المكتومِ للصَّنوجِ والطُّبولِ!

129

[1916]

ولكِ، أيَّتها المِيتَةُ، أرواحُنا وإيهانُنا، وأملُنا وتوقيرُنا!

يا سيِّدةَ الأشياء الأخيرة، يا اسماً شهوانياً؛ يا اسمَ السِّرِّ ويا اسمَ الجحيمِ - أَثلجِي نفوسَ أولئكَ الذينَ بحثوا عنكِ دونَ أن يجرؤوا على ذلك حقاً، واشرَحِي صدورَهم! يا سيَّدة السُّلوانِ [...]

فَابْذُرِي، أَيَّتِهَا الأُمُّ البتولُ؛ يَا أُمَّ العالَمِ العبثيِّ، يَا شَوَاشاً لا يُسبَرُ غَورُهُ، وانثُرِي ملكوتَكِ على كلِّ شيءٍ - فوقَ الأزهار التي تشعرُ بأنَّها تذوي، وعلى الحيوانات البرَّيَّة التي قد بلغتُ منَ الكِبَرِ عِبِيًّا كي تسيرَ، وعلى الأرواح التي وُلدتْ كي تَضنى بين الضَّلالة ووهم الحياة! أيَّتِها البحيرةُ التي بين الصُّخور في ضوء القمر الأبلج، بعيداً عن وحل الحياة ودَنسِها! أيَّتِها الحياةُ التي تصَّاعدُ في العَدَم، وتتوقَّ إلى ما لا تستطيع أن تملكه، إلى الأبد.

130

[91916]

سيمفوثيَّة اللَّيل المضْطُرب

مساءاتٌ في مدن عتيقة، ذات أعراف مجهولة كُتِبَتْ على الأحجار السّوداءَ لأبنية شاسعة؛ السّاعاتُ المرتجفة قبل الفجر، في حقولٍ سَبِخَةٍ أغرقها الطُّوفان، نديَّةٌ كالهواء قبل شروق السّاعاتُ المرتجفة قبل الفَّرس؛ الأزقَّةُ الضَّيِّقة حيث كلُّ شيء ممكنٌ؛ الصّناديقُ المتروكة في قاعات عتيقة؛ الشّمس؛ الأزقَّةُ الضّيئة في ضوء القمر؛ أولى رسائل الحُبِّ المكتوبة للجدَّة التي لم نعرفها قطُّ؛ البئرُ في قاع الحديقة في ضوء القمر؛ أولى رسائل الحُبِّ المكتوبة للجدَّة التي لم نعرفها قطُّ؛ رائحةُ عفونة حجراتِ خُزِّنَ فيها الماضي؛ البندقيَّةُ التي لم يَعُدُّ أحدٌ يعرف كيف تُستخدَم؛ مُمَّى رائحةُ عفونة حجراتِ خُزِّنَ فيها الماضي؛ البندقيَّةُ التي لم يَعُدُّ أحدٌ يعرف كيف تُستخدَم؛ مُمَّى المنتشرة بين الكروم؛ الأجراسُ؛ ألمُ الأحياء الرُّهبانيُّ... ساعةُ البَركات، يداكِ المُرهفتاذ...

العِناقُ الذي لا يأتي أبداً، الحجرُ في خاتمكِ ينزفُ في العتمة التي تقتربُ... احتفالاتُ الكنائس ولا إيمانَ في الوُّوح: الجمالَ الجسديَّ للقدِّيسين القُساة، البشعين؛ الصَّباباتُ الرُّومانسيَّة التي لا تُحَسُّ إلَّا في العقل؛ مذاقُ البحر الملحيُّ واللَّيلُ يهبط على خلجان المدينة التي تزدادُ ندي في الهواء الباردِ...

تُجَنَّحَتْ يداكِ النَّحيلتانِ فحامتْ فوقَ الذي تسرقة الحياة. أروقة طويلة ونوافذُ ضيِّقة نظلُّ مفتوحة حتَّى حين تُعَلَقُ، الأرضُ باردة كالقبر، توقٌ إلى الحُبِّ كرحلة لم تُجْرَ بَعْدُ إلى أراضٍ لم تكتمل بَعْدُ... أسهاءُ مَلكاتٍ قديهات... نوافذُ زجاج مُعشَّقٍ تُصوِّرُ أعداداً قويَّة ومتينة... ضوءُ النَّهار مبعثرٌ كبخور بارد في هواء الكنيسة، مُقطَّرٌ في عتمة الأرض المنيعة... وأيدِ ناشفةٌ تشابكتْ في الصَّلاة.

وساوسُ الرَّاهب الذي يجد تعاليمَ تكتنفها الأسرارُ في الرُّموز العبثيَّة لكتاب قديم وخطوات التَّكريس في لوحات مُلوَّنة.

شاطئ في الشَّمسُ ومُحَّى فِيَّ... البحر يدمعُ في الغصَّة المُتلهِّفة في حلقي... الشُّموع البعيدة، كيف تومضُ في مُحَّايَ... في مُحَّاي، الخطوات إلى الشَّاطئ... الدِّفءُ في نسيم الأقيانوس البارد، بحرِ الظُّلهات، البحرِ الهائج الذي يتوعَّدُ (124) - ليلِ المغامرينَ البهيمِ في مكان بعيد، ورأسي يحترقُ [ويشعل النِّيران؟] في تلك المراكب الشراعيَّة الصغيرة البدائيَّة... كلُّ شيء ينتمي إلى شخص آخر، إلَّا ألم عدم امتلاكه.

فهلًا أُعطيتني الإبرة؟ ثمَّة اليومَ شيءٌ مفقود في قلب المنزل، خطوانها الصغيرة وجهلي أين هي، وما الشّيء الذي سوف تُطرِّزهُ، بالطَّيَّات والألوان والدَّبابيس... اليومَ، أُغلقَ جوشنُ الأدراج على تطريزِ إبرتها الفئضِ – إلى الأبد، وتلاشى دفءُ ذراعَيْن تَحلومٍ بهما يلتفًّان حول عنق أُمِّي.

18 يوليو 1916

لا مشكلة قابلة للحلّ. ولا أحدَ منّا يحلُّ المشكلة العويصة؛ فإمّّا أن نستسلم وإمّّا أن نحلَّها بالقوَّة. نحلُّ مشاكل الفِكر عبرَ مشاعرنا، بفظاظة، فلقد سئمنا التّفكيرَ أو بِتنا هيّابين من استخلاص النّتائج، جرَّاءَ حاجتِنا العبثيّة إلى طلب العَوْنِ أو غريزتِنا القَطِيعيَّة التي نحفُّنا على الانضام إلى الأخرين ثانيةً، والانضام إلى الحياة من جديد.

ولاَّنَنا لا نستطيع أن نعرف بتاتاً العواملَ التي تنطوي عليها كلُّ مسألة، فلن نستطيع حلَّها أبداً.

نحن نفتقرُ، كي نبلغ الحقيقة، إلى الحقائق الضروريَّة والشَّيرورات الفكريَّة، عبى حدًّ سواء، التي تستطيع أن تستنفد جميعَ التَّأويلات الممكنة لتلك الحقائق.

132

[91916]

لا مَرَاسِيَ لأولئك الذين لا يترجَّلُونَ من السَّفائن. فألَّا تصل أبداً يعني ألَّا تصل أبداً.

133

[1916]

وبعدَ أن رأيتُ الوضوحَ والنَّرابطَ المنطقيَّ الذي يُبرِّرُ بهما بعضُ المجانين (بوتيرة منهجيًّة في جنونهم) أفكارَهم المجنونة لأنفسهم وللآخرين، فقدتُ إلى الأبد التَّقة الحَقَّة بِوُضوحِ وُضوحي.

134

[\$1917]

أنتمي إلى جيل توارث كُفرَهُ بالدِّين المسيحيِّ فأوجدَ في نَفْسه كُفْراً بالدِّيانات كلِّها، مازالت تعتمل في نفوس أسلافنا غريزةٌ عارمة إلى الإيهان، فنقلوه من المسيحيَّة إلى أشكال الوهم الأخرى. ولقد كان بعضُهم من المتحمِّسين إلى المساواة الاجتماعيَّة، في حين كان

بعضهم الآخر واقعاً في غرام الجَهال فحسب، ووضع آخرون ثقتهم في العلم ومنافعه، في حين ضربَ آخرون، حتى من أولئك الأكثر مسيحيَّة، في مشارق الأرض ومغاربها، بحثً عن ديانات أخرى يستطيعون بها إشباع وعيهم عبر العيش المتقشف، وقد بدا ذلك على النقيض خاوياً.

لقد فقدن هذا كلَّهُ، فَتَيتَّمنا عند و لادة كلِّ تلك السُّلوانات. تتشبَّثُ كلُّ حضارة بالملامح الحميمية للدِّيانة التي تمثِّلها: فالبحث عن دِين آخر يعني خسارةَ الدِّيانة الأولى ومِن ثَمَّ الأديان كلَّها في نهاية المطاف.

وخسرنا دينَنا والدِّيانات الأخرى على حدٌّ سواء.

إذ تُرِكْنَا لأَنفُسِنا، مهجورين، وسط خرابِ معرفة أنّنا على قيد الحياة فحسب. قد يبدو القارب مجرَّدَ شيء غايتُه الوحيدة التِّرحال، ولكنَّ غايته الحَقَّة ليستُ كامنة في التَّرحال، وإنَّما في الوصول إلى الميناء. وجدنا أنفسنا في أعالي البحار، ولا فكرة لدينا أيَّ ميناء يتوجَّب علينا أن نقصده. هكذا، نُمثُل صيغة مؤلمة لشعار المغامرين الجريء: الرَّحلة هي المُهمَّة، وليستُ الحاة!

أعبر وين من الأوهام، نعيشُ على الأحلام التي هي أوهامُ أولئك الذين لا يستطيعون امتلاك أوهام. نعيشُ خارج أنفسنا وحيدين، نحط من قَدْر أنفسنا، فالإنسان الكامل هُوَ الذي يَجهلُ نَفْسه. فمن دون إيهانِ لا نمتلك الأمل، ومن دون أملٍ لا نمتلك حياةً حقاً. ومن دون أدنى فكرة عن المستقبل، لا نستطيع امتلاك فكرة حقيقيَّة عن الحاضر، فالحاضر بالنسبة إلى الإنسان الفاعل ليس أكثر من توطئة للمستقبل. وُلدت الرُّوح المقاتلة ميَّتةً فِينَا، فلقد وُلدنا بلا حماسة للقتال.

ولقد ركد بعضُنا في الغزو السَّخيف الذي تشنُّه الكائنات اليوميَّة، المنحطَّة والمبتذلة، باحثةً عن خبزنا اليوميِّ، راغبةً نيله دون أن تعمل للحصول عليه، ودون أن تشعر بالجهد المبذول في صنعه، ودون نبالة الإنجاز.

وثمَّة آخرون، من سُلالة أفضل، قد اعتزلوا الحياة العامَّة، لا يرغبون في شيءٍ ولا يشتهون أيَّ شيء، محاولين أن نحمل إلى جُلْجُلةِ النِّسيان صليبَ الوجود، لا أكثر. سَعيٌ عبثيُّ لدى البشر الذين يفتقر وعيهم، بخلاف ذلك الذي لحامل الصَّليب الأصيل، إلى أيُّ شرارةٍ إلهيَّة.

وانهمك آخرون خارج أرواحهم، فوهبوا أنفسهم لعبادة الحيرة والجلّبة، ظانّين أنّهم أحياءٌ لأنّهم يُسمَعُون، ظانّين أنّهم قد أحبُّوا حين ارتطموا بجدران الحُبِّ الخارجية فحسب. تؤلمنا الحياة، فلقد عرفنا أنّنا كُنّا على قيد الحياة؛ لا نُخيفنا المِيتَةُ، فلقد فقدنا كلّ فكرة عاديّة عن الموت.

ولكنَّ آخرينَ، شعبَ النَّهايةِ، الحدِّ الرُّوحاليِّ لِـ السَّاعة الميِّتة، لم يمتلكوا الشَّجاعة كي يتخلُّوا عن ذلك كلَّه والبحث عن ملاذٍ في أنفسهم. عاشوا في النُّكران، والسُّخط، والخراب. ولكنَّا عشناه داخلَ أنفسنا، دون أن نأتي بأدنى إيهاءة، محبوسينَ بِقَدْر ما عشنا في حدود جدران غرفتنا الأربعة وفي داخل الجدران الأربعة لقدرتنا على الفِعل.

135

[1917]

كلّما تأمَّلتُ منظرَ العالمَ ومَدَّ التَّغيَّر في الأشياء وجَزْرَة ، ازدادتْ قناعتي بالطَّبيعة الخياليَّة الفطريَّة لكلِّ ذلك ، وبالوجاهة الباطلة الممنوحة لأُبَّهة الواقع. وفي هذا التَّأمُّل ، الذي سوف يكون قد جرَّبه أيُّ مُتأمِّل في وقت من الأوقات، فإنَّ العرض المتنوِّع للملابس والأزياء ، والمسار المُعقَّد للتطوُّر والحضارات، والتَّداخُل البديع للإمبراطوريَّات والثَّقافات؛ تبدو لي كلُّها كأنَّها أسطورة وخيال، محلوم بها وسط الظِّلال والنِّسيان. ولكنِّي لا أعرفُ إنْ كانت الحلاصة الأسمى لكلِّ هذه المقاصد، العبثيَّة حتَّى عندما تتحقَّق، تكمنُ في التَّبرُّ و النَّشوان من بوذا، الذي، حين أحاط بِكُنْهِ خواء هذا كُلِّه، فق من نشوة وَجُدِه قائلاً: "أعرفُ الآن كلَّ شيء"، أو في لامبالاة الإمبراطور سيفيروس التي سئمتِ الحياة: "كنتُ كلَّ شيء؛ وكان كلُّ شيء باطلاً" (25).

⁽¹²⁵⁾ قيل إنَّ هذا الإمبراطور الروماني قال هذه العبارة وهو على فراش الموت. وردت في شذرة بِشُوَّا الأصليَّة بصغنه اللَّاتينيَّة: «omnia fui, nihil expedit». (المترجم)

وُلِدَ الجِيلُ الذي أنتمي إليه في عالمَ جُرِّد من اليقين تُجاه أيِّ شخص يمتلك فكراً وقلباً على حدِّ سواء. فلقد سعى التَّهديم الذِّي مارسته الأجيال السَّالفة إلى أن يغدو العالم، الذي وُلدنا فيه، عاجزاً عن توفير الطُّمأنينة لنا على الصَّعيد الدِّينيِّ، وتوفير الملاذ على الصَّعيد الأخلاقيِّ، وتوفير الاستقرار على الصَّعيد السِّياسيِّ. ولذلك، فقد وُلِدنا في حالة من الكّرب الغَيبِيِّ والأخلاقيِّ على حدٍّ سواء، وفي حالة من القلَق السِّياسيِّ. وكانت الأجيال السَّالفة، بعد أن أثملتهما الصِّيَغُ الظَّاهريَّة، وسيرورات العلم والمنطق، في حدِّ ذاتها، قد هدمتْ أركان الإيمان المسيحيّ، فتأويلاتها الكِتَابيَّة (126)، التي تحوَّلتْ من النَّصيِّ إلى الأسطوريّ، قد حصر تِ الأناجيلَ وأسفارَ اليهود الأولى(٢٥) في مجموعة من الخرافات والأساطير الافتراضيَّة، وحوَّلتها إلى أدب محض. واكتشف نقدهم العلميُّ، شيئاً فشيئاً، جميع الزَّلَات والبراعات الجامحة التي اكتنفَتْ «علم» الأناجيل البدائي، في حين أدَّتْ حريَّةُ الجدال، في الوقت ذاته، إلى مناقشة المسائل الغيبيَّة الإشكاليَّة كافَّة، ومن ضمنها المسائل الدِّينيَّة. وانتقدت تلك الأجيالُ، تحت تأثير نظريَّةِ غامضة سمُّوها «المذهب الوضعيَّ»، جميعَ النَّظريات الأخلاقيَّة وأمعنتِ النَّظر في قواعد العيش كافَّة. ولم يبقَ من كلِّ صراع العقائد، هذا، إلَّا الشُّ وألمُّ ذلك الشكِّ. فلا يمكن، بالطُّبِع، للمجتمع الذي تعمُّ الفوضي أركانَهُ الثَّقافيَّة أن يكون، على الصَّعيد السِّياسيِّ، ضمحيةَ افتقاره إلى النُّظام، ولهذا فقد صحونا على عالم شديد التَّوق إلى التَّغيير الاجتماعيِّ، فتقدُّم مُبتهجاً ليدحرَ حريَّةً لم نفهم معناها، وفكرةً عن التَّقدُّم لم نُعرِّفها بوضوح قَطَّ.

ولقد أورثنا النَّقدُ الفجُّ، الذي مارسه أسلافُنا، استحالةً أن نكون مسيحيِّين، ولكنَّه حرمنا من كلِّ إمكاناتِ الرِّضي. أورثونا الشُخطَ على الأعراف الأخلاقيَّة الرَّاسخة، ولكنَّهم لم

⁽¹²⁶⁾ التأويلات الكِتابيَّة biblical exegesis (وفي الأصل البرتغاليُّ: critica biblica): التَّفسيرات والتأويلات النَّقديَّة التي تتناول الكتاب المقدَّس. (المترجم)

ن حول المحلم المحلم المحلم المحلم (العهد القديم) أو (التقوراة)، وإنّما عبارة (anterior hierographia dos judeus)، المحلمة (العهد القديم) أو (التقوراة)، وإنّما عبارة (المحلمة الأولى من التقوراة) فكلمة التي تعني (السفار اليهود الأولى)، ربّما إشارة منه إلى أسفار موسى؛ الأسفار الخمسة الأولى من التقوراة؛ فكلمة التي تعني (المنهود الأولى) المونائية (hierography) ماخوذة من كلمة (هيروغرافيا) اليونائية (hierography) ماخوذة من كلمة (هيروغرافيا) اليونائية القليمة، التي تعني، حرفياً: الكتابة المقلسة. (المترجم)

يورثونا لامبالاة تجاه المبادئ الأخلاقيّة وقواعد العيش. وفي حين أنّهم قد تركوا المسائل السّياسيّة في حالة من الشّلُ، فإنّهم لم يتركوا أرواحنا لامبالية تجاه الطّريقة التي قد تُحَلُّ بها تلك المسائل. هدم أسلافُنا كلَّ شيء، دون الشُّعور بالذَّنب وتأنيب الضّمير، فلقد عاشوا في عصر مازال بإمكانه الاعتهاد على أجزاء مُتفرِّقة من صلابة الماضي. كان الذي هدموه هو الشَّيء ذاته الذي منح المجتمع قوَّته، وسمح لهم بهدمه دون ملاحظة الشُّقوق التي في الجدران. قلقد ورثنا الدَّمار وعواقبه.

ينتمي العالَمُ، في الحياة المعاصرة، إلى الحمقى والبَلِيدين والمُشوَّشين. يستطيع المرُّ أن ينتزع اليومَ حقَّةً في العيش والنَّجاح بالمؤهِّلات ذاتها التي يحتاجها المرُّ كي يُحبَس في مستشفى للمجانين: الفسادِ الأخلاقيِّ، والهَوَس الخفيف، والعجزِ عن التَّفكير.

137

[1917]

لا محلة أنّ الرُّوح الإنسانيَّة ضحيَّة ألم الدَّهشة المبرحة التي تُشيرها حتَّى الأحداثُ غير المتوقَّعة بتاتاً. ولهذا، فإنّ الرَّجل الذي تحدَّث طيلة حياته عن تقلُّب المرأة وتبدُّلها، بوصفها أمرين طبيعيَّيْن ونموذجيَّيْن، سوف يشعرُ بكلِّ كَرْبِ الدَّهشةِ الحزينة حين يعرفُ أنَّه قد تعرَّض للخيانة في الحُبِّ - كها لو كانت عقيدته هي إخلاصُ المرأة الأبديُّ وولاؤها. أسوة برجل آخر، يعتقد أنَّ كلَّ شيء خاو وفارغ، سوف يُذهَل، كأنَّ صاعقة قد ضربته من السَّها، برجل آخر، يعتقد أنَّ كلَّ شيء خاو وفارغ، سوف يُذهَل، كأنَّ صاعقة قد ضربته من السَّها، حين يكتشف فجأةً أنَّ كتاباته قد استخفَّ بها الآخرون، وأنَّ كلَّ الجهود التي بذلها في تثقيف النَّاس قد تَبُتَ عقمها، وأنَّه قد أخفق تماماً في توصيل مشاعره.

وهذا لا يعني أنَّ جميع الرِّجال الذين حلَّتْ بهم هذه الكوارث أو تلك كانواغير صادقين فيها قالوه أو كتبوه، حتَّى لو كانت تلك الكوارث حتميَّة، في كلماتهم، أو متوقَّعة. فلا علاقة للصّدق في التَّعبير الفكريِّ بعفويَّة الاسترسال العاطفيِّ. ويبدو أنَّ الرُّوح تكابد تلك النَّهسات حتَّى لا تفتقر البتَّة إلى الألم أو العار؛ حتَّى تتلقَّى دائهاً نصيبَها الأوفرَ من المعاناة في الحياة. فنحن متساوون في قدرتنا على ارتكاب الأخطاء والمعاناة. وحدهم أولئك الذين لا يشعرون بشيء هم المستثنون. أمَّا أولئك الأسمى، والأنبل، والأبعدُ نظراً، فسوف يعانون ويكابدون ما توقَّعوه وما ازدروه. هذا ما نُسمِّيه الحياة.

[\$1917]

لا بُدَّ أَن أَخْتَارَ مَا أَكْرِهُهُ - إمَّا الحُلم الذي تمقته بصيرتي، وإمَّا الفِعل الذي تبغضه حساسيتي؛ إمَّا الفِعل الذي لم أُولد لَهُ، وإمَّا الحُلم الذي لم يُولَد أحدٌ لاجلهِ.

ولأنَّي أكرهُ الاثنَيْن، فلن أختارَ أحداً منهما، لكنْ حبن يتوجَّب عليَّ أن أختار في بعض الأحيان الحُلم أو الفِعل، فإنَّني أمزجُ الأوَّل بالثَّاني.

139

[18] مىپتمبر 1917]

طالمًا عدُّوني دخيلاً أو غريباً على الأقلِّ أينها وُجدتُ في الحياة، ومهها كانت الظُّروف، وأينها عشتُ قرب الآخرين وعملت معهم. دائهاً ما يُنظَر إليَّ، بين أقاربي ومعارفي على حدًّ سواء، على أنَّني دخيلٌ. بَيْدَ أنَّني لم أشعر مرَّةً أنَّهم عاملوني على تلك الشَّاكلة، ولكنَّ ردَّة فعل الآخرين العفويَّة تجاهى أكدت لي ذلك.

لطالما عاملني الجميع بلُطف في كلِّ مكان، وأظنُّ أنَّ قلَّة قد رفعوا أصواتهم عليَّ، أو تجهيم الله في أوقات محدودة، ونادراً ما طالتني غطرسة أحدٍ أو نَزَقُه. ولكنَّ الله في المقتور دائهاً إلى المودَّة. ولطالما كنتُ ضيفاً، بالنِّسبة إلى أولئك الذين سوف يكونون بطبيعة الحال مُقرَّبين إليَّ؛ ضيفاً يُحسِنون معاملته، ولكنَّهم يجاملونه مجاملة الغريب، ويودُّونه مودَّة الدَّحيل التي تفتقر إلى المحبَّة.

ولا يساورني شكَّ بأنَّ مصدر هذا كلِّه -أقصدُ تصرُّ فات الآخرين تجاهي- نابعٌ في المقام الأوَّل من عِلَّةٍ غامضة مُتأصِّلة في طَبعي. لعلِّي أتصرَّفُ ببرود يجبر الآخرين، دون قصد، على أن يبادلوني المشاعر ذاتها.

أتعرَّفُ إلى النَّاس بسرعة، ولا يستغرقون وقتاً طويلاً كي يُعجَبوا بِيَّ، ولكنَّني لا أنال مودَّتهم البَّنَة. لم أختبر الإخلاص قطَّ. طالما بدت مسألةُ أن أُحَبَّ مستحيلةً، فمن غير المحتمل أن يخاطبني غريبٌ تماماً باسمي الأوَّل بأَلفةٍ.

لا أعرف إنْ كان هذا يجعلني أعاني أمْ أنَّني أتقبَّلُه ببساطة على أنَّه قدَري اللَّامبالي الذي لا أعرف إنْ كان هذا يجعلني أعاني أمْ أنَّني أتقبَّلُه ببساطة على أنَّه قدَري اللَّامبالي الذي لا تندرج فيه أسئلة المعاناة والقبول.

أردتُ دائماً إرضاءَ الآخرين ولكنَّ لامبالاتهم أوجعتني. أحتاجُ، أنا يتيمُ البَخت، كما الأيتام جميعاً، إلى أن يُسبغَ أحدٌ عليَّ مودَّتَه. فلطالما تضوَّرتُ جُوعاً إلى تلك المودَّة. كبرتُ وقد أَلِفتُ ذلك الجوع المحتومَ حتَّى إنَّني أرتابُ، في بعض الأحيان، إن كنتُ ماأزال أشعرُ بالحاجة إلى تناول الطّعام.

بالمودَّة أو دونها، مازالت تؤلمني الحياةً.

لدى الآخرين شخصٌ مخلصٌ. لم أحظَ يوماً بأحدٍ فكّر حتّى في أن يخلص لي. هكذا هي الخال بالنّسبة إلى الآخرين: أنا، إنّهم يعاملونني باحترام فحسب.

أعرف في نَفْسي القُدرة على اكتساب الاحترام لا المودَّة. لم أفعل شيئاً لسوء الحظَّ يُبِّررُ في حدَّ ذاته ذلك الاحترام المبدئيَّ، ولذلك لم يُفلح أحدٌ في أن يجترمني تماماً.

وأظنُّ أحياناً أنني أستمتع بالمعاناة، لكنَّ الحقيقة أنَّني أُفضِّ شيئاً آخر،

لا أمتلك الصِّفات المناسبة لأكون قائداً أو تابعاً، حتَّى إنَّني لا أمتلك ميزة أن أقنع؛ تلك التي تبقى حين يُخفق كلُّ شيء.

ثُمَّة مَن هُم أقلُّ ذَكاءً منِّي ولكنَّهم في الواقع أشدُّ قوَّة. إنَّهم أفضل منِّي في نحت حيواتهم بين الآخرين، وأكثر مهارة في إدارة ذكائهم. أمتلك جميع الصِّفات الضَّروريَّة كي أُؤثَّر في الآخرين، وليس فنَّ فعل ذلك، ولا حتَّى الرَّغبة في فعل ذلك.

فلو قُدِّرَ لِي أَن أُحبُّ شخصاً ذات يوم، فَلن يُقدَّرَ أَنْ أُحَبُّ في المقابل.

يكفي أن أرغب في شيء حتَّى يموت. ولكنَّ قدَري ليس قادراً بها يكفي كي يُمِيت. عِلَّتهُ المشؤومةُ أنَّه ليس قادراً إلَّا على إماتةِ الأشياء التي أُريدُ.

140

[\$1917]

لطالما ذقتُ تلك الأحاسيس المثيرة الحَقّةِ بشدَّة أقلَّ من الإحساس المثير بتلك الأحاسيس المثيرة، فلقد وجدتُ دائهاً أنَّ وعيي بالمعاناة أكثر إيلاماً من المعاناة ذاتها.

ولقد انتقلت حياةً مشاعري في وقت مُبكِّر إلى مركز الفِكر، فاستمتعتُ هُناك بمعرفة عاطفيَّة أوسع عن الحياة.

وبها أنَّ الفِكر يغدو، حين يمنح العاطفة ملاذاً، أكثر تطلَّبً من العاطفة ذاتها، فإنَّ نظامُ الوعي، الذي اختبرتُ فيه ما كنت أشعرُ به، جعلَ طريقةَ الشُّعور يوميَّةً أكثرَ، وأكثرَ ظاهريَّةً، وأكثر دغدغةً للمشاعر.

جعلتُ نَفْسي، بالتَّفكير، صدى وهاويةً على حدِّ سواء. ثُمَّ تعدَّدتُ، بالذَّهاب عميقاً في نَفْسي. فأدنى حادثة -تغيُّرُ في الضَّوء، السُّقوط اللَّولبيُّ لورقة شجر ناشفة، بتلةً مُصفرَّة تنزعُ نَفْسَها، صوتُ ينبعث من الطرف الآخر للجدار، أو وقع خطى شخص يتكلَّمُ قربَ وقع خطى الشَّخص الذي يُنصت، الباب المفضي إلى الحديقة القديمة وقد تُرِكَ مُوارباً، الباحةُ التي تنفتحُ عبر قوس على البيوت المحتشد في ضوء القمر - كلُّ تلك الأشياء، التي لا تتمي إليَّ، تشدُّ وثاقي بتأمُّلاتي المرهفة بأواصر القُرْب والحنين. فأنا، في كلِّ واحد من تلك الأحاسيس المثيرة، «أنا» مختلفةٌ؛ أُجدِّدُ نَفْسي، يجتاحني الألمُ، في كلِّ انطباع لا يُعرَفُ. أعيشُ على الدَّوام في طريقةِ أن أكونَ نَفْسي، مختلفٌ على الدَّوام في طريقةِ أن أكونَ نَفْسي.

141

[\$1917]

أَنْ نتكلَّم يعني أَنْ نُبدِي اهتهاماً بالغاً بالآخرين. فلقد ماتتِ السَّمكةُ وأوسكار وايلدٍ، كلاهما، عن طريق الفَم.

142

[917]

حتَّى الكتابة فقدتْ عذوبتها. أضحتْ فعلاً مُبتذَلاً، ليستْ سيرورة التَّعبير عن مشاعري فحسب، وإنَّما مُتعة تقليب عبارة بديعة في رأسي؛ أكتب الآن بالطَّريقة التي يأكل فيها الآخرون أو يشربون ذاهلاً يجتاحني السَّأم، ولا أعيرُ الأشياء إلَّا قليلَ بالِ، بلا حماسةٍ، بلا شرارة إلهام.

[?1917]

إنَّ غريزة البشر الطُّفوليَّة تجعلُ حتَّى الأشدَّ فخراً بيننا -لو كانوا رجالاً عُقلاءً غير عانين - يَصبون، أيَّها الآبُ الأقدس، إلى يد أبويَّة تقودهم على نحو ما، مهما كانت الطَّريقة، عبر سرِّ العالمَ وفوضاه. فكلُّ واحد منَّا ذرَّة غبار تذروها ريحُ الحياة. لا بُدَّ أن نجد العَوْن، أن نضع يدنا الصَّغيرة في يدٍ أخرى كبيرة، فالسَّاعةُ مُلتبِسة دائماً، والسَّماوات بعيدة، والحية شيءٌ غريب،

ُ أُمَّا أُولئك الذين ارتقوا إلى الأعالي فلا يعرفون حقَّ المعرفة كيف أنَّ كلَّ شيء خاوِ ومُلتبس.

قَدَ يقودنا وهمٌ، ولكنَّ الذي لا ريبَ فيه هُوَ أَنَّ وعيَنا لا يقودُنا.

144

[917]

كانتِ الفكرةُ الوثنيَّة عن الإنسان الكامل هي كمالُ الإنسان الموجود؛ والفكرة المسيحيَّةُ عن الإنسان الكامل هي كمالُ الإنسان غير الموجود؛ والفكرة البوذيَّةُ عن الإنسان الكامل هي الكمالُ المفارق للإنسان تماماً.

الطَّبيعةُ هي الفارق بين الرُّوح والله.

كلُّ ما يلفظه الإنسانُ أو يُعبِّرُ عنه حاشيةٌ هامشيَّة في مَننِ نُحِيَ تماماً. نستطيعُ من معنى الحاشية أن نستنبطَ، بعضَ الشَّيء، معنى ذلك المتنِ الذي تلاشى، بَيْدَ أَنْ ثمَّةَ شكُّ دائماً ومعانِ كثيرة محتملة.

(128) 145

[\$1918]

حين عبرتِ المسيحيَّةُ فوق أرواحنا كعاصفة هاجتْ في اهزيع الأخير من اللَّيل، أحسَّ

(128) لم تُشر جول كوستا، هُنا، إلى وجود عبارة «prefacio» (= مُقدِّمة) تنصدّر هذا المقطع؛ فالقصاصة التي كتب عليها

النَّاسُ بالخراب الحَفِيِّ الذي أحدثته، ولكنَّ الأطلال التي خلَّفتها لم تُرَكاملةً إلَّا حين عبرتْ تماماً. ظنَّ بعضُهم أنَّ رحيلَها هو الذي أوجدَ الأطلال، ولكنَّ الخراب لم يتجلَّ إلَّا حين انقشعَتْ فحسبُ،

ولكنَّ الذي نُحلَّفَ حينئذٍ في عالم الأرواح هذا، كانت تلك الأطلالُ المرتيَّة، تلك الكارثةُ الواضحة، دونَ العتمة التي غمرتها ذات مرَّة بمودَّة مُفتعَلة. رأْتِ الأرواحُ أنفسَها على حقيقةٍ ما كانت عليه تماماً.

تفشّى مرضٌ في تلك الأرواح المكشوفة حديثاً، مرضٌ يُسمَّى الرُّومانسيَّة، وهي مسيحيَّةُ افتقرت إلى الأوهام والأساطير، على حدِّسواء، وتجرَّدتُ حتَّى في جوهرها المريض الصَّارخ. معضلة الرُّومانسيَّة أنَّها تُشوِّش ما نحتاجه وما نرغب فيه. فكلُّنا بحتاجُ إلى تلك الأشياء الحيويَّة للحياة، وصَونها وديمومتها؛ وكلُّنا يرغبُ في حياةٍ أكمل، وسعادةٍ أكمل، وتحقيقِ أحلامه و[...]

فالطَّبيعة البشريَّة أن نرغب فيها نحتاج، والطَّبيعة البشريَّة أن نرغب فيها لا نحتاجه حقاً، ولكنَّنا نرغبه. والشَّيء غير السَّويِّ هُوَ أَنْ نرغب في الضَّرورِيِّ وفي المُشتهَى بشدَّة متساوية، وأن نعاني بالشِّدَّة ذاتها، لأنَّ حياتنا ليست كاملة كها نشاء لو لم يكُن ثمَّة خبز. عِلَّةُ الرُّومانسيَّة: الرَّغبةُ في القمر كها لو تُوجَد طريق حقيقيَّة للحصول عليه.

«لا يمكنك الإبقاء على كعكتك وأكلها [في الوقت نفسه]»

ويمكن العثور على العِلَّة ذاتها في الأطياف الدُّنيا للسِّياسة، مثلها الأمر في الحلَبة الخاصَّة للرُّوح.

لم يعرف الوثنيُّ شيئاً من هذا الإحساس غير السَّويِّ بالأشياء والنَّفْس، فلقد رغب هُوَ أيضاً في المستحيل حين أراد أن يكون إنساناً، ولكنْ ليس على حساب كلِّ شيء آخر. كانت ديانته [...] والأفكار المتسامية التي بصَّرتْ بها الأديان؛ تلك التي تملأ الرُّوح بخواء العالم، ولا تُوجَد إلَّا في قرارة أعهاق السِّر، ولم يُبصرها إلَّا المُكرَّسون، بعيداً عن النَّاس العاديِّين والد [...]

146

[91918]

بؤسُ الإنسان، الذي يشعر بسأم الحياة وهو جانس على شرفة دارته الفارهة، شيءٌ، وبؤسُ واحدٍ مثلي، يتأمَّلُ المشهد من غرفته بالطَّابق الرَّابع في بَايْشَا (21)، عاجزاً عن نسيان أنَّه عُاسِبٌ مساعدٌ، شيءٌ آخر. «يحلمُ كلُّ كاتبِ عَدْلٍ بالسُّلطانات المشرقيَّات»...(130).

وَفِي الاجتهاعاتُ الرَّسميَّة، حين يتوجَّبُ عليَّ أَن أقوم بواجباتي كموظَّف إداريٍّ، أستمتعُ دونَ سواي بمفارقة تلك السُّخرية غير المستحقَّة التي تمرُّ دون أن يلاحظها أحد. لا أعرف تماماً كيف أو لماذا، ولكنَّ اسمي يظهر في السِّجلِّ التِّجاريِّ على هذا النَّحو:

غِيْدِش (ڤسنته)، موظف إداريٌّ، خُوَا دُوش رِيثُرُوچِيرُوش^(١٥١)، 17، الطَّابق الرَّابع، السِّجلُّ التِّجاريُّ للبرتغال.

وما هذا الهوسُ بالعبثيِّ والمُتناقِض إلَّا فرح الحُزناء الحيوانيُّ، فالرَّجال العاديُّون يُنكِّتون و ويَصفقُ بعضُهم ظهورَ بعض تملؤهم الحماسة المطلقة للحياة. أمَّا أولئك العاجزون عن

⁽IZ9) Baixa (المعنى الحرفيُّ للكيمة هو: وسط البلد؛ قاع المدينة) حيٌّ تاريخيٌّ في وسط لشبونة، يُعَدُّ قلب المدينة ومركزها التبجاريُّ. (المترجم)

⁽¹³⁰⁾ العبارة بالفرنسيّة في الأصل: «Tout notaire a rêvé des sultanes»، وقد أور دنها جول كوست كم هي، دون ترجمة. وأصل هذا القول هو للرّوائي الفرنسي غوستاف فنوبير «Tout notaire a rêvé des»، ويعي الفرنسي غوستاف فنوبير «sultanes, chaque notaire porte en soi les débris d'un poète (علم أرداً الحُلعاء بالسّلطانات المشرقيّات، وكلّ كاتب عَدُل يحملُ في داخله حطام شاعر»، ولكنّ بِسُوا يحرّف مقولة فلربير، لتغدو بالصورة التي ظهرت عليها، لتناغم مع إشرته إلى عيدش على أنّه محاسب مساعد. (المترجم) (المترجم) وهو شارع في منطقة بايشا. (المترجم)

الحماسة أو الفرح فيستطيعون الانهماك في انقلاباتٍ فكريَّة (١٥٤)، فيحلُّ سلوكهم البارد محلَّ كلِّ إيهاءة دافئة ودودة.

والعيَّاتُ (أنه الكَهلاتُ، لأولئك الذين لديهم عيَّاتُ كَهلاتُ، يُبدُدنَ الوقتَ في المساءات المضاءة بمصابيح الزَّيت، في بيوت ريفيَّة كبيرة وخاوية، والحادماتُ ينعسنَ والغلَّاياتُ تغلي، وهُنَّ يلعبنَ السُّوليتير بانتظام وعقلانيَّة، يغمرهنَّ الحنينُ. ويشعرُ شخصٌ، يأخذُ مكانيَ فِيَّ، بحنينِ عارم إلى تلك السَّكينة العبنيَّة. يُقدَّم الشَّايُ، ومجموعة أوراق اللعب القديمة موضوعة بعناية مفرطة على طرف الطَّاولة. وخزانة آنية الحزف الكبيرة تجعل العتمة أعتمَ في حجرة الطَّاعم التي ادلهمَّتُ للتوِّ، والحادمة النَّعسانة تعرق آنَ تُسرع لإنهاء عملها. أرى هذا كُلَّه فِيَ بِكُرْبِ وتوق لا صلة لها بأيِّ شيء آخر، ثُمَّ أَجِدُ نَفْسي تتأمَّلُ، بغير قَصْدٍ، الحَالةَ الذَّهنيَّة لشخص يلعبُ الشُوليتير.

147

[\$1918]

حتَّى لو أردتُ أن أُبدع...

الْفَنُّ الْحَقُّ الوحيد هُوَ فَنُّ البِنَاء، ولكنَّ العالَم المعاصر يجعل من المستحيل أن تظهر السِّهاتُ البِنَاءة في النَّفْس.

ولهذا طُوِّر العِلم. الشَّيُّ الوحيد الذي يؤدِّي فيه البناءُ دوراً اليومَ هو الآلة؛ فالحُجَّة المنطقيَّة الوحيدة هي برهانُ رياضيُّ.

(132) Intellectual summersaults (وفي البرتغاليَّة: cambalhotas na intelligencia) والمقصود بها تبدُّل الأمكار وانتقال المرء من موقف إلى آخر علتلف العاماً. (المترجم)

(133) هذه الشّذرة معنونة في الأصل من لدن بشوًا نفسه: «Paciencias»؛ التي تعني «لعبة السَّوليتبر»؛ على الرغم من أنَّه قد خطّها رفقة الشَّلرات الأخرى عبى الورقة داتها؛ بعضها وراء بعض. ولهذا عمدت سوبراو كونيا في طبعتها (المقطع 600) وزينيث في طبعته (المقطع 151) إلى إدراج هذه الشَّلرة في مقطع صفصل وحدها، بهذا العنوان ذاته؛ أمَّا يبسارُ و فقد أدرج جميع هذه الشَّلرات في مقطع واحد (المقطع 152)، في حين نرى أنَّ طبعة برادو كويلو قد خلت البَّة من هذه الشَّلرة. (لمترجم)

تحتاجُ قوَّةُ الخلق إلى عَوْنٍ ، إلى ركيزة الواقع.

الفنُّ عِلمُ... إنَّهُ يعاني يقودُهُ الإيقاعُ.

لا أستطيع قراءة أيِّ شيء، فمداركي النَّقَّادَةُ لا ترى إلَّا المثالب والنَّقائص والتَّجويدات المحتملة. ولا أستطيع أن أحلم، فالحلم يتجلَّى فِيَّ شديداً حتَّى أُقارنه بالواقع، فأشعرُ إذَّاك على الفور بأنَّه ليس حقيقيّاً؛ فيفقدُ قيمته كلَّها. لا أستطيع نسيان نَفْسي في التَّأْمُّل البريء للأشياء والبشر، لأنَّني أشعر لا محالة برغبة في الذَّهاب أعمق. ولأنَّ شغفي لا يمكن أن يُوجَد دون تلك الرغبة؛ فَإِمَّا أن يموتُ على يَدَي تلك الرَّغبة، وإمَّا أن يَدُوي [...]

لا أقدرُ على التَّرويحِ عن نَفْسي بالتَّبصُّرات الغيبيَّة، فأنا أعرف حقَّ المعرفة، من تجربتي الحياتيَّة، أنَّ جميع المنظومات يمكن تبريرها، وتُحتمَلة على الصَّعيد الفكريِّ؛ ولكي أستمتع بالفنِّ الفكريِّ لبناء المنظومات، فإنَّني أفتقر إلى القُدرة على نسيان أنَّ مقصدَ جميع التَّبصُر الغيبيِّ البحثُ عن الحقيقة.

ماض سعيدٌ سوف تجعلني ذاكرتُهُ سعيداً مرَّةُ أخرى، فلا شيء في الحاضر قد يجلب لي المسرَّة أو يثير اهتمامي، ولا حلم أو مستقبلَ مُفترَضاً يمكن أن يكون مختلفاً عن هذا الحاضر، أو يمكن أن يمتلك ماضياً آخر غير ذلك الماضي - هُنَا تكمنُ حياتي، طيفاً واعباً لفردوسٍ لم أعرفه قطَّ، الجُثَّة حديثة الولادة لآمالي المستقبليَّة.

طُوبى لمن يعانون مُتَّحدين! أولئك الذين يُكدِّرهم القلَقُ ولكنَّه لا يُفرِّقهم، الذين يؤمنون، حتَّى لو كانوا يؤمنون بالكُفْرِ، الذين لا يعارضون الجلوس في الشَّمس.

148

[?1918]

أبسط حاجات الإنسان حاجتُه إلى أن يَثِق، إلى أن يعتر ف. إنَّها حاجة الرُّوح إلى أن تذهب خارج نَفْسها.

لا بأس! اعتَرِفْ، ولكن لا تعترف إلَّا بها لا تشعر به. حرِّر روحك من وطأة أسرارك كلِّها، بالبوح بها بصوت عال؛ فمن الأفضل ألَّا تحتفظ البَّنَة بالأسرار التي تبوح بها. اكذب على نَفْسَتُ بدلاً من أن تتفوَّه بتلك الحقيقة. فمن الخطأ أن يُعبِّر المرء عن نَفْسه دائهاً. احترس من ذلك، واجعل التَّعبير عن النَّفس توأمَ الكذب.

149

[1918]

أنا إحدى تلك الأرواح التي تزعمُ النِّساءُ بِأَنَّهُنَّ يُحْبِبُنَهَا، ولكنَّهُنَّ لا يَعْرِفْنَها حين يلتقين بها؛ أنا إحدى تلك الأرواح التي حين تريدُ امرأةٌ أن تعرفها، تظلُّ عاجزة عن أن تعرفني. انكفأتُ على رِقَّة مشاعري مُزدرياً. أمتلكُ جميعَ الصِّفات المُقدَّرةِ في الشِّعراء الرُّومانسيِّن، حتَّى الافتقارَ إلى تلك الصِّفات بعينها التي تجعل المرء شاعراً رومانسياً أصيلاً. أجدُ نَفْسي (بعضَ الشَّيء) موصوفة في عدَّة روايات بكونها بطلة حبكات مختلفة، ولكنَّ كُنْهُ حياتي وكُنْهُ روحي هما ألَّا أكون البطل.

لا فكرة واضحةً لديَّ عن نَفْسي، ولا حتَّى فكرة تنطوي على عدم وجود فكرةٍ عن نَفْسي. فأنا رحَّالةُ وعيي بِنَفْسي. تناثرتْ قطعانُ غِنَايَ الجُوَّانيِّ في أثناء الحَفارة الأولى.

المأساة الوحيدة أن نكون عاجزين عن تصوِّر أنفسنا بوصفها مأساويَّة. امتلكتُ دائماً · تلك الرَّوية الواضحة لتعايُشي مع العالَم، فلم أشعر قَطُّ بافتقارٍ إلى تعايشي معه، ولهذا، لم أكُن شخصاً عاديًا بتاتاً.

أنْ تفعلَ يعني أنْ تستريح.

كلُّ المعضلات غير قابلة للحلُّ، فجوهر أيُّ مشكلة غيابُ الحلِّ. والذَّهابُ بحثاً عن الحقيقة يعني عدم وجود حقيقة، والتَّفكيرُ هُوَ ألَّا تعرف كيف تُوجَد.

أقضي ساعات في بعض الأحيان قرب النّهر في الثّقائرُو دُو پَاشُو (134) أَتَأَمَّلُ بعبثِ. لا يَكفُّ تبرُّمي عن سعيه إلى انتزاعي من ذلك المزاج الهادئ، ولا يكفُّ كسلي عن إبقائي هناك ساكناً لا أتحرَّك. فأتأمَّل حينئذ، بِسُبَاتِ فيزيقيٍّ لا يُشبه إلَّا الشَّهوانيَّة على الشَّاكلة التي تشبه فيها الرِّيحُ الهامسة الأصوات، في النَّهَم الأبديِّ لرغباتي الغامضة، في تقلقُل أشواقي المستحيلة الذي لا يكفُّ. أعاني، في المقام الأوَّل، من القُدرة على المعاناة. أفتقرُ إلى شيء لا أريده، والمعاناة جرَّاء الافتقار ليستُ معاناة حقاً.

رصيفُ الميناء والأصيلُ وهواءُ البحر بعضٌ من قلقي. وناياتُ الرُّعاة المستحيلين ليسنَ أعذبَ من غياب النَّايات التي تُذكِّرني بهم هُنَا. تَطعنُني، في هذه السَّاعة التي تُشبه نَفْسَه. أناشيدُ الغزل العُذريِّ البعيدة التي يُبدِّدها الرُّعاةُ قرب الجداول [...]

150

[91918]

أيُّ ملكةٍ غامضة تنتظرني قرب بحيرتها، ولا تسأمُ من السَّهر على ذاكرة حياتي المُحطَّمة؟ كنتُ السَّاعي، حاملَ الرَّسائل إلى الجادَّات التي تحقُّها الأشجارُ والتي تكشَّف أنَّها عاديَّة جداً ولا تليقُ بالسَّاعات الطَّيْريَّة لِسَكِينتي الزَّرقاء. سفنٌ بعيدة أكملتِ البحرَ الذي راقبتُ أمواجَه من الشُّر فات، فضيَّعتُ في الشُّحُبِ الجنوبيَّة روحي كمجذافٍ مرميٍّ بِطَيْش.

151

[91918]

تُدهشني قُدري على تحمُّل الكَرْب. ولأنَّني لم أكُن بِطَبْعي غيبياً، فقد بدَّدتُ أيَّاماً بأكملها في كَرْب شديد عاجزاً، حتَّى جسدياً، عن الوصول إلى حلَّ لبعض المسائل الغيبيَّة والدِّبنيَّة الإشكاليَّة...

Praça do وتلفظ، أيضاً: تِحِيِّرٌ فَي باشوة وتعني حرفيًا: ساحة القصر) وتعرف، أيصاً، باسم Praça do (134) Comércio (و تعني حرفيًا: ساحة التِّجارة): ساحة في لشبولة تضمُّ مجموعة من المباني و الأروقة تعود إلى القرن الثامر عشر مقابل نهر تيجو. (المترجم)

ثُمَّ سرعان ما تنبَّهتُ إلى أنَّ حلَّ المسائل الدِّينيَّة الإشكاليَّة كان يعني، بالنِّسبة إليَّ، العثور على حلِّ منطقيًّ لمشكلتي العاطفيَّة،

(135) 152

[1918]

نهز الحيازة

من البداهة أن نكون مختلفين جميعاً على الصَّعيد الإنسانيِّ. لا نبدو منشابهين إلَّا من بعيدٍ، أي حين لا نكون أنفسننا حَقاً. تُفضَّلُ الحياةُ، حينئذٍ، غيرَ المُعرَّف؛ فلا يمكن أن يتعايشَ إلَّا أولئك الذي يفتقرون إلى التَّعريف، وأولئك الذين هُم جميعاً لا أحدَ على حدً

كُلُّ واحدٍ مِنَّا اثنان، وكلَّما التقى شخصان أو تقاربا أو توجَّدتْ قوَّتها، فإنَّ من النَّادر أن يتَّفق هؤلاء الأربعة. وإذا تشاجرَ الحالمُ الذي في كلا الشَّخصَيْن الفاعلَيْن كثيراً مع الشَّخص الفاعل الذي هُو داخله، فلا بُدَّ أن يتشاجرَ مع الحالم الذي في الشخص الآخر ومع الشَّخص الفاعل الآخر نَفْسه.

كلَّ حياةٍ قوَّةٌ في ذاتها، ويميلُ كلُّ واحدِ مِنَّا نحو نَفْسه عن طريق الآخرين. لو كان لدينا ما يكفي من احترام الذَّات لنجد أنفسنا مرغوبين [...] كلُّ لقاءات الصُّدفة، التي يدنو فيها بعضُنا من بعض، صراعاتٌ محتمَلةٌ. فالشَّخص الآخر عقبةٌ دائمةٌ بالنِّسبة إلى أولئك الباحثين عن شيء أو شخص ما. وحدهم الذين لا يبحثون هم الشَّعداء، لأنَّ الذين لا

⁽¹³⁵⁾ توجد على الأوراق الثّلاث، التّبارية الى الزُرقة، التي كتب عليها بِسُوًا هذا المقطع، يحير أسود، ثلاث قصائد؛ Nesta hora tu liberta e tu consolar/ Filha»: 1918/11/14 الأولى، قصيدة قصيرة في بيتين، مؤرّحة بتاريخ 1918/11/14: «virgem de Deus» (= التُحرّرينَ في هذي الشاعة وتواسين، / يا ابنة الإله البتول»). نُشرت لاحقاً في مجلّد أعماله الشّعرية الكمنة الصادر بالبرتغالية Obra poética de Fernando Pessoa في جير جي جانيرو بالبرازيل عن دار الشّعرية الكمنة الصادر بالبرتغالية Obra poética de Fernando Pessoa في العام 2016). والقصيدة الثّانية بعنوان «Juilano em Antiochia» (~ جوليانو في أنطاكيّة)، كتبتُ بتاريخ Nova Fronteira وهي في سنّة أبيات، مطلعها: «No azul da tarde o hymno christão se mexe» وتحمل عنو نًا بالإنكليزية: (= تهترُ في رُرقة المساء ترنيمة كريشةو). أمّا القصيدة النّالئة، فموارُ خة بتاريخ 1918/11/14، وتحمل عنو نًا بالإنكليزية: (Poem on the War)»

يبحثون سوف يجدون وحدهم -نظراً إلى أنَّ الذين لا يبحثون قد نالوا ما أرادوه فعلاً- أنَّ الذي يمتلكونه بالفعل، مهما كانَ، هو السَّعادة، وأنَّ الجزء الأسعدَ في كون المرء غنياً هو ألَّا يُفكُر.

أنظرُ إليكِ داخل نَفْسي يا عروسي المُتخيَّلة، ولقد تشاجرنا في الحال حتَّى قبل أن تُوجَدي. عندني عادتي في الحُلم الجليِّ البصيرةِ فكرة شديدة الوضوح عن الواقع. فمَن يحلم كثيرا يعتج إلى أن يمنح أحلامه حقيقة واقعيَّة أن يُضفي على أن يمنح أحلامه حقيقة واقعيَّة أن يُضفي على تلك الأحلام توازنَ الواقع. ويتوجَّب على الذي يُضفي على أحلامه توازنَ الواقع أن يعاني من واقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من واقعيَّة الحياة ومن الواقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من واقعيَّة الحياة ومن الواقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من واقعيَّة الحياة ومن الواقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من واقعيَّة الحياة ومن الواقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من واقعيَّة الحياة ومن الواقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من واقعيَّة الحياة ومن الواقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من إحساسه بالحياة بوصفها الواقعيَّة.

إِنَّنِي أَحَلَمُ أَحلامَ يقظةٍ وأنتظرُكِ في مُجرتنا ذاتِ البَابَيْن، أَحلَمُ بِأَنَّكِ وصلتِ، وأَنَّكِ قد دخلتِ في مُحلمي ثُمَّ تقدَّمتِ نحوي عبر الباب الأيمن، بَيْدَ أَنَّكِ لو دخلتِ حين دخلتِ، من الباب الأيسر، لأضحى ثمَّة فارقُ بينكِ وبين مُلمي. يكمن كلُّ ما تنطوي عليه المآسي الإنسانيَّةُ في ذلك المثال الصَّغير؛ أنَّ أولئك الذين نُفكِّر بهم ليسوا البتَّة الأشخاصَ الذين نُفكِر أَنَّهم كذلك.

يتطلّب الحُبُّ مِنّا أن نكون متشابهين تماماً ومختلفين، وهذه مسألة غير ممكنة في المنطق، ولكنّها ماتزال قليلة في الحياة. يريدُ الحُبُّ أن يجوز، أن يصنع شيئةُ الخاصَّ الذي يتوجَّب أن يظلّ في الخارج حتَّى يكون قادراً على التَّفريق بين الشَّيء الذي صنعه لِنَفْسه وبين نَفْسه ذاتِها. أنْ نُحِبَّ يعني أنْ نُسلِمَ أنْفُسَنا للحُبِّ. فكلَّما تعاظمَ الاستسلامُ، تعاظمَ الحُبُّ. ولكنَّ الاستسلام الكليَّ أنْ يُسلِمَ المرءُ وعيَهُ إلى الشَّخص الآخر. قالحُبُّ الأعظمُ هُوَ الموتُ أو النِّسيانُ أو الزُّهدُ - فكلُّ حُبُّ هُوَ رجسُ الحُبِّ.

كُنَّا على شُرفة القصر العتيق، عالياً فوق البحر، نتأمَّلُ صامتَيْن الاختلافات التي بيننا. كنتُ الأمير، على الشُّرفة قرب البحر، وأنتِ الأميرة. وُلِدَ حُبُّنا في لقائنا الأوَّل، كالجَهال الذي انبثقَ حين التقى القمر بالماء. يُريد الحُبُّ أن يجوزَ، ولكنَّهُ لا يفهمُ ما الحِيازةُ؟ فإنْ لم أكُن مُلكِي، فكيف سأكون لكِ أو تكونين لِي؟ وإنْ لم أحُزْ كينونتي، فكيف سأحوز كينونة شخص آخر؟ وإن كنتُ مختلفاً بالفعل عن الشَّخص الذي أُشبهه تماماً، فكيف سأشبه الشَّخص الذي أنا مختلف عنه تماماً؟

الحُبُّ تصوُّفٌ يرغبُ في أن يُطبَّق، واستحالةٌ لا بُدَّ أن تكون، وفقَ أحلامنا، مُمكنة.

غيبيًّاتٌ محضةٌ. ولكنَّ الحياة غيبيًّاتُ في العتمة، والآلهةُ الثَّرثارون، في الخلفيَّة، وجهلُنا المُطلَق بالطَّريق الوحيدة الممكنة إلى الأمام.

أسوأ خدعة يهارسها انحطاطي (١٥٥) عبي هي حُبِّي للصِّحة الجيَّدة والوضوح. فلطالما شعرتُ بأنَّ الجسد الجميل والمشية المَرحة لشخص فتيٍّ لهما الحقُّ في أن يكونا في العالم أكثر من أي حُلم من أحلامي. أحياناً، في الآصال -بِفَرَح المُسِنِّ في الرُّوح، ولكنْ بلا أي رجفة أو حسد أو رغبة – أشاهدُ الأزواج يتمشَّون، وقد تأبَّط بعضُهم أذرع بعض، صوب وعيهم الطَّافح بكونهم يافعين. أتمتَّعُ برؤيتهم تمتُّعي بحقيقة ما، غافلاً إنْ كان الأمر يخصُّني أم غير ذلك. وحتَّى لو قارنتهم بِنَفْسي، فهاأزالُ أتمتَّع برؤيتهم، ولكن كشخص يتمتَّع بحقيقة مؤلمة، عزج ألم الجرح ببلسم فهم الآلهة.

أنا نقيضُ أو لئك الأفلاطونيِّين الرَّمزيِّين الذين ينظرون إلى الكينونة كلِّها، والفعل كلَّه، على أنَّها ظلُّ حقيقة واقعة هي في حدِّ ذاتها مجرَّد ظلِّ ليس إلَّا. فكلُّ شيء، بالنِّسبة إلى، نقطةُ انطلاق لا نقطة وصول. وكلُّ شيء، بالنِّسبة إلى المُنجِّم، ينتهي في كلِّ شيء؛ أمَّا بالنِّسبة إلى، فكلُّ شيء يبدأ في كلِّ شيء.

ولكنّني مثلهم؛ تقودني اللّهَاثلَةُ والإيحاء، بيد أن الحديقة الصّغيرة التي تشي عندهم بنظام الرُّوح والجَهال، هي عندي نجرّد تذكرة بالحديقة الأكبر حيث، بعيداً عن البشريّة، يمكن لهذه

⁽¹³⁶⁾ الإنحطاط، هُنَا، بمعنى الـ decadence، الذي سبق الإشارة إليه في حاشية سابقة، وليس بمعنى الانحطاط الأخلاقي. (المُترجم)

الحياة التَّعيسة أن تكون سعيدة. فلا شيءً، بالنِّسبة إلى، يَشي بحقيقته التي هي الظُّلُ، وإنَّما بالحقيقة التي هي الظُّلُ، وإنَّما بالحقيقة التي هي الطَّريقُ إليه.

. تتراءى لي حديقة إِشْترِيلا (١٥٦) في الآصال حديقة قديمة تعود إلى القرن الذي سبق خية أمل الرُّوح.

153

[\$1918]

كلَّمَا سافرتُ أسافرُ بعيداً. أشعرُ أنَّ التَّعب قد هدَّني بعد رحلة بالقطار إلى كَشْكَايْش (قا) كَمْ كَايْش (قا) كَمْ كَايْش (قا) كَمْ كَايْش (قا) كَمْ كَايْش (قا) كَمْ لَمَا لُو عَبِرتُ في وقت قصير المناظرَ الطَّبيعيَّة والمدن لأربع دول مختلفة أو خمسٍ.

أَتَخْتَلُنِي أَعِيشَ فِي كلِّ بِيتَ أَعبره، وكلِّ دارة، وكلِّ كوخ صغير منعزل مُبيَّض وصامن؟ أَخْتَلُني سعيداً في البداية، ثُمَّ ضجراً، ثُمَّ مُتعباً، ثُمَّ حاملاً معي، وقد هجرته، الخنبنَ الهائل إلى الوقت الذي قضيته هُناك. هكذا، كلُّ رحلة حصادٌ سعيد مؤلم لمسرَّاتٍ عظيمة، وسأمٍ عميم، وحنينِ ((130) باطل لا حَدَّ لَهُ.

ثُمَّ وأنا أعبر البيوت والدَّارات والشَّاليهات، أعيش داخل نَفْسي كلَّ حيوات النَّاس الذين عاشوا هُناك. أعيش كلَّ تلك الحيوات المنزليَّة في وقت واحدٍ فأكون، في الوقت نَفْسه الأب، والأمَّ، والأطفال، وأبناء العمومة، والخادمة وابن عمِّ الخادمة. والفضل يعود إلى موهبتي الخاصّة في أن أشعر بعدَّة أحاسيس مختلفة في الوقت نفسه، وأن أختبر حيوات أشخاص مختلفين في آنٍ معاً، في حين أراهم خارجي، طيلة الوقت، وأشعرُ ١٣٠ في .

أَخْلَقُ شَخْصِيًّات مُخْتَلَفَة دَاخِل نَفْسِي وَلا أَكُفُّ، ثُمَّ سرعان ما يتجسَّدُ كلُّ حُلم أَحلم به، لحظة الحُلم، في شِخْص آخر يواصل الحلم بذلك الحلم، عوضاً عنِّي.

ولكي أُبدع أُدمِّرُ نَفْسي، فلقد جعلتُ نَفْسي بَرَّانيَّةً، شديدةَ البرَّانيَّةِ، داخل نَفْسي خَتَّى إِنَّانِيَ لا أُوجَدُ داخل نَفْسي إِلَّا خارجَ نَفْسي. أنا خشبةُ المسرح الحالية التي يُؤدِّي عليها ممثّلون مختلفون مسرحيَّاتٍ مُختلفة.

154

[\$1918]

ذات يوم

ذهبتُ عِوضاً عن تناول طعام الغداء -وهي رغبة لديَّ لأُجبر نَفْسي على أن تشعر بكلِّ يوم- لرؤية نهر تيچو، ثُمَّ عدتُ أدراجي هائهاً في الشَّوارع دون أن أتخيَّل أنَّني قد أجدُ من المفيد لروحي أن تكون قد رأتِ النَّهر. بَيَّدَ أنَّ...

العيشُ عَبثٌ. وحده النَّظرُ يستحقُّ العناء، فإنِ استطعتُ النَّظرَ دون أن أظلَّ على قيد الحياةِ فسوف أبلغُ السَّعادة، ولكنَّ ذلك مستحيل مثل كلِّ شيء نحلم به. كم نشوانة النَّشوةُ التي لا تتورَّطُ فيها الحياةُ! ...

وَلَوِ استطعنا على الأقلِّ إيجادَ تشاؤم جديد، نَفْيِ جديد للحياة، لاستطعنا امتلاكَ وهمِ أنَّ شيئاً مِنَّا، حتَّى لو كان سيِّتاً، سوفَ يَظلُّ!

(140) 155

[5 أكتوبر 1919]

لا شيءَ يكشفُ بحميميَّةٍ، ويُفسِّرُ تفسيراً كاملاً، ماهيَّةَ سوءِ بختي الفطريِّ مثلُ أحلامِ يقظتي المفضَّلة، البلسمِ الذي أختاره غيرَ مرَّةٍ لقىقي الوجوديِّ الشخصيِّ. كُنْهُ ما أُحبُّ: أن

⁽¹⁴⁰⁾ أغست جول كوستا، هُنَا، الإشارة إلى أنَّ هذا المقطع معنون في الأصل من لدن يِسُوَّا نفسه بعبارة «الرَّائد O Major». ولم تعفن الطبعات البرتعالية المختلفة الإشارة إلى العنوان. وثمَّة قصيدة «غير مكتملة»، دوِّنها يِسُوَّا على ظهر الصَّفحة المُسطَّرة، التي خطَّ عليها هذا المقطع، مؤرَّحة بتاريخ 10/8/19/1، وموزَّعة في عمودَيْن. القصيدة بعنوان «Sonitus Disilientes aquae»، الذي يمكن ترجمته بـ «صوت الماء المُقطَّر». (المترحم)

أَنَامَ حياتي. أُحبُّ الحياة كثيراً حتَّى إنَّني أرغبُ في أَن تنتهي؛ احبُ الا اعيشها كثيراً حتَّى أشعر برغبةٍ مُلحَّة، أكثرُ مَّا ينبغي، في أن أعيشها.

وهذا يغدو حينئذ حلمي المُفضَّل بين جميع أحلامي. أحياناً، في اللَّين، حين لا تكون ثمَّة نأمةٌ في البيت، لأنَّ أصحابه قد خرجوا أو غرقوا في الصَّمت، أُغلَّ نوافذ غرفة نومي، وأُوصد مصاريع الأبواب الثَّقيلة، ثمَّ وأنا أرتدي بذلة عتيقة بالية أغرقُ في أريكتي الأعمق، وأنطلق في حُلم أنَّني رائدٌ متقاعد في فندق ريفيٍّ، ظلَّ بعد انصراف الآخرين، رفقة زوجَبْن لم يشملا مثل بقيَّة النُّزلاء.

أَتَخَيَّلُ أَنَّنِي قد وُلدتُ على تلك الشَّاكلة. لستُ مكترثاً بفتوَّة ذلك الرَّائد المتفاعد، ولا كيف ترقَّى ليصل إلى تلك الرُّتبة العسكريَّة التي أتوق إليها. بمعزلٍ عن الوقت والحياة، لا حياة ماضية، ولا والدَيْن، للرَّائد الذي أتخيَّلُ أَنْ أكونَهُ؛ إنَّهُ موجودٌ إلى الأبد في ذلك الفندق الرِّيفيِّ، ولقد هدَّه التَّعبُ في هذه الأثناء من الحكايات التي قصَّها عليه نُزلاء آخرون م يبرحوا أماكنهم بعد انصراف الآخرين.

156

[\$1919]

يخطر في بالي أحياناً، وقد غمرني فرخ حزين، أنَّ هذه الجُمَل التي أخطُها لا بُدَّ أن تحظى بالمديح ذات يوم في المستقبل الذي لن أنتمي إليه، سوف أكون على الأقلِّ قد عثرت على ناس «يفهمونني»، على شعبي، عائلتي الحَقَّة التي سوف أُولَد لها، التي سوف تُحبُّني. ولكنْ بعيداً عن ولادتي في تلك العائلة، سيكون قد مرَّ على موتي حينتذ أمدٌ مديد. لن أُفْهَم إلاّ وأن في شكل صورة أو تمثال، ولن تتمكن المودَّة حينها أن تُعوِّض الشَّخص الميت عن نقص الحُبُّ الذي شعر به وهو على قيد الحياة.

ربّم اسيفهمون ذات يوم أنّني قد أكملت، كما لم يفعل أحدٌ قطّ، واجبي الفطريّ كشارح لحقبة معيّنة من قرننا؛ وحين يفهمون سيكتبون أنّه قد أُسيءَ فهمي في زماني؛ سيكتبون أنّني عشتُ إلى المحسرة! - مُحاطاً ببرودة المشاعر واللّامبالاة، ويا لها من خسارة آنني نه كنتُ كذلك. ولسوف يحار الشّخص الذي يكتب بصرف النّظر عن الحقبة المستقبليّة النبي

يكتب أو تكتب فيها - مِن نِدِّي في ذلك الزمن المستقبليِّ، مثلها سيحار أولئك الذين مِن حولي الآن. لأنَّ البشر لا يتعلَّمون إلَّا كي يُعلِّموا أسلافهم الذين ماتوا منذ زمن بعيد، ولن نكون قادرين إلَّا على تعليم قواعد الحياة الحقَّة لأولئك الذين قد ماتوا فعلاً.

لقد توقّف المطر أخيراً في هذا الأصيل الذي أكتبُ فيه. ثمّة مرَحٌ في الهواء يسري رعشةً في بدني. والنّهارُ لا ينقشعُ رمادياً بل أزرقَ شاحباً. حتّى الحصى في الشّوارع تعكسُ هذه الزُّرقة الغامضة. من المؤلم أن يكون المرء على قيد الحياة، ولكنّه وجع بعيد. الشُّعور غير مُهمَّ. أُضيئَت الأنوار في قترينة حانوت أو حانوتَيْن.

أستطيع أن أرى، عالياً في نافذة أخرى، أنَّ النَّاس هُنَاك قد أنهوا أعمالهم. والشَّحاذُ الذي لمسنى حين مرَّ مسرعاً سيدبُّ في قلبه الخوف لو عرفني.

والأزرقُ، الذي يزدادُ على مَهْلِ، أقلَّ شحوبًا وأقلَّ زُرقةً، منعكسٌ على المباني مثلها تهبطُ هذي السَّاعةُ الغامضة أبعدَ في المساء.

إنَّها تسقطُ بخفّة نهايةُ هذا النّهار الأكيدةُ، حيث أولئك الذين يؤمنون ويرتكبون الأخطاء الفاحشة مستغرقون في أعالهم العاديّة، الذين يتنعّمون في غمرة آلامهم بنعيم اللّاوعي. إنّها تسقطُ بخفّة، موجةُ الضوء المُحتضر، كآبة المساء المُبدّد، السّديم الرَّفيع الذي يدخل قلبي. إنّه يسقطُ بخفّة ورقّة، هذا الشُّحوبُ الأزرق الشَّفاف الغامض للمساء المائيُ؛ خفيفاً، ورقيقاً، وحزيناً، يسقطُ على الأرض البسيطة، الباردة. إنّه يسقط بخفّةٍ، كرمادٍ محجوب، كرتابةٍ مُعذّبة، كسأم نشيط.

(HI) 157

[نحو 12 يناير 1920]

[جنازة؟]

كم مرَّةً، في تاريخ جميع العوالم المختلفة، يتوجَّب على مُذنَّب شاردٍ أن يُدمِّر واحداً منها!

⁽¹⁴¹⁾ ثمَّة قصيدة قصيرة «عير مكتملة» بعنوان «Limitations» (تقييدات) كان يِسُوًا قد نظمها، بالإسكليزيَّة، بثاريخ 2./1/1920، على طهر الورقة الأولى من هاتَيْن الورقتَيْن الضاربنَيْن إلى الزُرقة اللَّتَيْنَ خطَّ عليهما هذه الشَّذرات. مطلع القصيدة: «لا خياز لديُّ سوى الأحلام I have no choice but dreams». وثمَّة أيضاً مقطع بالإنگليزيَّة مرقون على الآلة الكاتبة، بتاريخ 1920/1/21، يبدأ بعبارة «شقيقها الشَّابُ Her young brother». (المترجم)

مثل تلك الكارثة الفيزيقيَّة مرتبطة بمصير كثير من المشاريع الفكريَّة. المِيْتة تراقب (١٠٠٠)، مثل شقيقةِ مُفكِّرٍ، والقدَّرُ [...]

الموتُ يعني الخضوع لبعض حقيقةٍ خارجية، ونحنُ، في كلِّ لحظة من حيواتنا، انعكاسٌ وأثرٌ لما يحيط بنا على حدُّ سواء.

الموتُ خلفَ كلِّ إيهاءة حيَّةٍ. نُولَد موتى، ونعيش موتى، وندخل الموتّ موتى.

ومَا نحنُ إِلَّا من خلايا حيَّةٍ وفي حالة من الفناء الدَّائم، مخلوقينَ من الموت.

(143) 158

[\$1920]

جنازة

ماذا يفعل أيَّ مِنَّا في هذا العالَم ليزعجَهُ أو يُغيِّره؟ أليسَ لكلِّ امرئِ جديرِ شخصٌ آخر على قَدْرِ الجدارةِ ذاتها؟ فالمرءُ العاديُّ جديرٌ جدارةَ امرئِ عاديٍّ آخر؟ والمرءُ الفاعل جديرٌ بالطَّاقة التي يَمنحها؛ والمفكِّرون جديرون بكلِّ ما يُبدعون.

كلُّ ما يُبدع المرُّ من أجل البشريَّة هُوَ تحت رحمة الأرض الباردة. وكلُّ ما يتركه المُّ خلفَه من أجل الأجيال القادمة فهو إمَّا طافح بأفكاره الخاصَّة التي لن يفهمها أحد، وإمَّا أنَّه يعبِّر تعبيراً نموذجياً عن العصر الذي يعيش فيه المرء إلى درجة أنَّ العصور الأخرى لن

⁽¹⁴²⁾ سبقت الإشارة بالتُقصيل في حاشية سبقة إلى أنَّ لفظة الموت عند يِسُوَّا تأتي مواتثة في سياقات معينة؛ لذَا فَإِنَّي أستعمل «مِيتة» عوضاً عنها (المترجم).

⁽¹⁴³⁾ ثمة قصيدة نظمها بشوًا نظهر في هذه الصَّفحات التي دون عليها هذا المقطع، تعود لتاريخ 12/1917، وحسب ما يذكر بيسارًو في طبعته البر تغالية (2010: 738). مطلع القصيدة: «السَّكينةُ الحيراً يا قلبي الهجور 1902. و1907، الني يذكر بيسارًو في طبعته البر تغالية (2010: 1908). مطلع القصيدة كاملة في الطبعة البر تغالية الأشعار يشوًا المكتوبة بين عامي 1902 و1917، الني حرّرها مانويلا باريرا دا سيف وآن ماريا فريتاش و مادلينا دايي في العام 2005. وثمّة قصيدة اخرى، في سنة ايات مُقتضبة، دوّنها يشوًا على ورقة منفصلة، ضمل حزمة الأوراق التي كتب عليها هذا المقطع، بحبر أسود، تبدأت «شيأ صغيرٌ جداً! ولكن ثمّة و احاتٌ صعيرة واحاتٌ صعيرة (المترجم). (المترجم)

تفهمه، وإمَّا أنَّه سوف يروق لجميع العصور، ولكن لن تفهمه الهاوية الأخيرة التي سوف تندفع إليها في نهاية المطاف العصور كلُها.

نوميُّ في العتمةِ، نحن الذين لسنا إلَّا ظلالاً فحسبُ، خلفنا، السَّرُّ [...]

كُلُّنَا فَانِ، خُلِقنا لندومَ بعضَ الوقت ليسَ إلَّا، لا أكثرَ أو أقلَّ. فبعضهم يموتُ حينَ يموت، ويعضُهم يعيش قليلاً من الوقت في ذكريات أولئك الذين رَأَوْهُ وسمعوه؛ في حين يظلُّ بعضٌ في ذاكرة الأُمَّة التي وُلد فيها؛ وبعضٌ يملاً ذاكرة الحضارة التي امتلكته؛ ولكنَّ يظلُّ بعضٌ ألدَّوافع المتناقضة للحضارات المختلفة... بَيْدَ أَنَّ هاوية الزَّمن تحيد بِنَا جميعاً، ولسوف تلهمنا في النَّهاية؛ نعم، سوف تسقطُ بين فَكِيُّ الهاوية التي [...]

أَنْ تعيشَ إلى الأبدِ رغبةً، وأنْ تكون أبدياً وهم.

نحنُ الموتُ ونعيشُ الموت. وُلِدنا موتى، ونُوجَدُ في الموتِ، وندخلُ في الموتِ موتى. فكلُّ شيءٍ يعيشُ، يعيشُ لأنَّهُ يتغيَّرُ الأنَّ كلَّ شيءٍ يمرُّ ولأنَّ كلَّ شيءٍ يمرُّ، فإنَّهُ يموتُ. وكلُّ شيءٍ يعيشُ أبدَ الدَّهرِ يُصبِحُ غيرَهُ الذي يُنكِرُ الحياةَ ولا يكفُّ ويراوغُ الحياةَ ولا يكفُّ.

إِذَّاكَ تغدو الحياةُ برزخاً، آصرةً، صِلةً، ولكنَّها الصِّلةُ بين ما حدثَ وما سوف يحدثُ، برزخاً ميِّناً بين الموتِ والموتِ.

... بصيرةٌ، خيالٌ منسوجٌ من الظَّاهريِّ والخطأِ فحسب.

ليست الحياةُ الماديَّة إلَّا تُحلمًا صافياً أو تُجرَّدَ فوضي ذرَّاتٍ لا تعرفُ شيئاً عمَّا استخلصته بصيرتُنا(١٩٠١) أو عن بواعث مشاعرنا. ولهذا، فإنَّ كُنْهَ الحياةِ وهمٌ، مظهرٌ، فلا وجودَ إلَّا

⁽¹⁴⁴⁾ استخدم كلمة البصيرة، سواء هُنَا، أو في المواضع الأخرى من الكتاب، كمقابل لكلمة intelligence (وفي البرتغالية: (144) استخدم كلمة البصيرة، سواء هُنَا، أو في المواضع الأخرى من الكتاب، كمقابل لكلمة عتصر في معناها الظاهري على المواضة والمعلمة والمعلمة الله المناه على الفراسة والفطنة والمطرة التّافذة إلى خفايا الأشياء فحسب، وإنما تتعداه، أيضاً، لتشمل الدّكاء، في حدّ ذاته، والعقل الثّقب والإدراك والدّهن المتوقّد والعلم والخبرة والعقيدة والرأي... إلخ. (المترجم)

للوجودِ أو العَدَم؛ أي أنَّ الحياةَ هي الموتُ.

كم عبثيَّة، مُطلقَ العبثِ، تلك الجهودُ التي نبلها في البناء والإنشاء وعيونُنا مُسمَّرةُ على وهم أنّنا لن نموت! نقول: "قصيدةٌ أبديَّةٌ، كلماتٌ لن تموتَ أبداً". ولكنَّ برودة المادَّة الأرضيَّة لن تجرفَ الأحياءَ الذين يعيشون فوق سطحها فحسب، وإنها [...]

قصيدةً لهوميروس أو قصيدة لميلتون (١٥٥) ليست أكثر من مُذنَّبٍ يرتطمُ بالأرض.

(146) 159

[\$1920]

القبر الأجوف

لم تضع الأرملةُ ولا الابن على لسانهِ قطعةَ النُّقود المسكوكة التي دفعها إلى خارون (١٥٠٠). محجوبتان عنَّا إلى الأبدِ العينانِ اللَّتان عبرَ بهما نهرَ أخيرون (١٠٥٥)، فرأى انعكاسَ الوجه الذي لا نعرفُ، تسعَ مرَّات، في المياه الجهنَّميَّة. ولا اسمَ للظلِّ الذي يطوفُ الآن ضفافَ أنهار العالم الشَّفليِّ، لا اسمَ لَهُ بينَنا؛ فاسمُهُ هُوَ أيضاً ظِلُّ.

ماتَ فداءَ وطنه، دون أن يعرف كيف أو لماذا. لتضحيته مجدُ ألَّا تُعرف. بذلَ حياتَهُ بروحه كلّها: بالفطرة، وليس بدافع الواجب؛ لحُبِّه لوطنه، وليس بدافع الوعي. دافع عنه كها ندافع عن أُمِّ نحن أولادها بحكم الولادة لا بالمنطق. لم يُفكِّر ولم يرغب، مُخلصاً للسِّرِّ البَدْئيِّ، ماتَ موتَهُ بالفطرة مثلها عاش بالفطرة حياتَهُ. والظلُّ الذي يرتديهِ الآنَ يجعلُهُ أُماً لأولئك الذبن

⁽¹⁴⁵⁾ الشاعر الإنگليزي جون ميئون، صاحب الفردوس المفقود. (المترجم)

⁽¹⁴⁶⁾ يذكر زينيث، في حواشي طبعته الإنگليزيَّة، وجود شبه حُملتَيْن غير مكتملتين، بعد الفقرة السَّادسة، يُفترض أنَّ بِسُوَّا قد فكر في دبجهما في نسخة مُنقَّحة من هذا النَّص الأولى: «عن البصولة الخالصة، بلا جنَّة يغوز بها بالشَّهادة، ولا بشريَّة يصونها بالكفاح؛ عن الجنس الوثنيِّ القديم الذي ينتمي إلى المدينة التي ليس خارجها إلَّا البرابرة و الأعداء». امًا الثانية، فهي: «ولكن بعواطف ابنِ يُحبُّ أُمُّه الأنَّها أُمَّه ولأنَّه ابنها» (المترجم)

⁽¹⁴⁷⁾ Charon (بالبرتغائية: Charonte)؛ وأجبُ خارون، في الميثولوجيا الإغريقيَّة، أن يعبر بقاربه نهر أحيرون (ستبكس) ناقلاً أرواح الذين ماتوا، مقابل أن يحصل على قطعة النقود المعدييَّة التي توضع على لسان المَيِّت عند دفته. (المُرحم) Styx (بالبرتغائية: Styge)؛ ويعرف أيضاً باسم نهر ستبكس، وهو نهر عالم الأموات في الميثولوجيا الإغريقيَّة، (المُرجم)

سقطوا في ثيرمو پيلاي (١٩٥٠)، مُخلصينَ في قرارة أنفسهم للعهد الذي وُلِدوا من أجله.

لاريبَ أنَّه قد مات فداءَ وطنه، مثلها تُشرق الشَّمس في كلِّ يوم. فلقد كان في أصل نَفْسهِ ما سوف يصنع منه الموتُ.

لم يمن عبداً لعقيدة حماسيَّة، ولم يُقتَل محارباً من أجل ذلك الشَّيء الشَّرير، من أجل فكرة عظيمة. ودون أن يحدوه أدنى أمل بأيَّام أفضل للبشريَّة، لم يسقط دفاعاً عن فكرة سياسيَّة، أو عن مستقبل البشريَّة، أو عن ديانة جديدة. وبعيداً عن الإيهان بعالم آخر يخدعُ فيه المؤمنون بالمسيح، أو أتباع روما، أنفسَهم، رأى الموت يصلُ بلا أمل يأتي بحياة جديدة، ورأى الحياة تعبرُ بلا أمل إلى حياة أفضل بعدها.

ماتَ مِيتةً طبيعيَّة، كما تموتُ الرِّيحُ أو يموتُ النَّهارُ، آخذاً معه الرُّوحِ التي كانت روحَهُ وحدَهُ. اقتحم العتمة، كمَن يمرُّ عبر باب، فبلغَ وُجهته. مات فداءَ وطنهِ، الشَّيءِ الوحيد الأسمى الذي لا يُدانيه شيءٌ عندنا، الذي نستطيع معرفته وفهمه على هذا النَّحو. لا جنَّةُ المسيحيِّين انعكستْ في عينيهِ، حين انطفأتْ فيهما شعلةُ الحياة الأرضيَّة، ولا جنَّةُ المسلمين ولا نِسيانُ البوذيِّين المتسامى.

لم يعرف مَن كانَ، مثلها لا نعرفُ من هُو. أدَّى واجبَه دونَ أن يعرف أنَّه قد كانَ. قادَهُ الشُّيءُ ذاتُه الذي يجعلُ الوردَ يتفتَّح وسقوطَ الأوراقِ يَجزنُ. لا سببَ أعظم لدى الحياة، ولا مَثُوبةَ أعظم لدى الموت.

الآن، لو سمحت الآلهة، سوف يزور تلك الأقاليم حيث لا نُورَ، عابراً كُوسيتوس، نهرَ الرِّثاء، ونهرَ فليغيثون الملتهب، ولسوف يسمع في اللَّيل الوُلُوغَ النَّاعم لمياه نهر النِّسيان الشَّاحة.

إِنَّهُ بِجِهُولٌ كَالْخُرِيزَةِ التي قتلته. لم يُفكِّر بأنَّه سيموت فداءَ وطنه، ولكنَّه قد فعل فحسب. ولم يشرع في القيام بواجبه، ولكنَّه قد فعل فحسب. حريُّ ألَّا نسأل شخصاً لا اسمَ لَهُ ولا روحَ أيَّ اسم مُنحَ لِحسده. كان برتغاليًا، ولم يكن برتغاليًا بعينه، كان البرتغاليِّين جميعاً.

⁽¹⁴⁹⁾ Thermopylae: مُمرَّ ساحليَّ ضيّق في اليونان، يعرف باسم اليوابات الحارَّة، والمعركة دارت بين إسبرطة والفُرس. (المترجم)

ليس مكانّه قُربَ من أوجدوا البرتغال، الذين تمتّعوا بمكانة مختلفة ووعي مختلف. ولا ينتمي إلى زمرة أشباه الآلهة الذين شقّت جُرأتُهم دروباً طويلة أكثرَ عبر البحر واكتشفوا أراضي أكثرَ عمَّ نستطيعُ استيعابَه.

لا تمثالَ ولا شاهدةَ قبر تُخبرنا مَن كانَ، هذا الرَّجل الذي كان نحن جميعاً؛ ولأنَّهُ البشريَّة جمعاء، فلا بُدَّ أن تكونَ الأرضُ كُلُّها قبرَه. ولا بُدَّ أن ندفنه في ذاكرته، ولا شاهدةَ قبرِ إلَّا مِثالُهُ.

(150) 160

[نحو 13 يناير 1920]

أتعمَّدُ تجنَّب الأشياء، عارفاً مقدارَ العذاب الذي أجده حتَّى في أصغرها. أتخيُّل كيف لواحد مثلي يعاني حتَّى حين تحجبُ غيمةٌ الشَّمسَ، أن يكابد مجبوراً اليومَ المُظلم الذي كانَ على الدوام حياتَهُ!

عزلتي ليستْ بحثاً عن السَّعادة التي ليس لديَّ ما يكفي من الرُّوح كي أظفر بها؛ أو بحثاً عن السَّكينة التي لن يصل إليها أحدٌ إلَّا حين يفقدها في المقام الأول؛ إنَّها بحثٌ عن النَّوم، والفناء، والزُّهد المتواضع.

جدرانُ غرفتي الأربعة هي، على التّوالي، زنزانةٌ وبُعْدٌ وسريرٌ وتابوت. وأَسعدُ ساعاتي تلك التي لا أُفكِّرُ فيها بشيءٍ ولا أرغبُ في شيء، حين لا أحلمُ حتَّى، ضائعاً في سُباتٍ خضَريِّ للطَّحالبِ التي تنمو على سطح حياتي. ألتذُّ دونَ مرارةٍ بوعيي العبثيِّ أنَّني لا شيءَ، بهذا الطَّعم المُسبقِ للموت والفناء.

لم يسبق أن كان لديَّ أحدُّ أُناديه «سيِّدي». ولم يمت المسيحُ من أجلي. ولم يُشر بوذا إلى الدَّربَ الذي سوف أسلكه. ولم يتجلَّ أپولُّو في أحلامي ولا حتَّى أثينا كي تنير روحي.

⁽¹⁵⁰⁾ ثمّة قصدة ((غير مكتملة) خطّها يشوّا في النصف السّفيّ (مقلوباً) من الورقة الثّانية من أصل الورقة التّب دوّن عليهما هذه الشّذرة بالحبر الأسود. تتكوّن القصيدة من مقطعين و13 بيتاً، مورَّخة بتاريخ 1920/1/13 ويُشير بيسارُّو في ملحق طبعته (2010) إلى أنّه ليس بالضرورة أن تكون مسوبة إلى برناردو سوارش. مطلع المقطع الأوَّل من القصيدة: ((شيءٌ واحدٌ أشكرُ الآلهةَ عليه: / النَّوم. إنسَ الحياةً/ فهي لن تكون هائعة أبداً ... Aos deuses uma cousa معلى المقطع الأوَّل من القصيدة: ((شيءٌ واحدٌ أشكرُ الآلهةَ عليه: / النَّوم. إنسَ الحياةً/ فهي لن تكون هائعة أبداً ... معلى مناه من الله مناه المناه ال

[\$1920]

كلَّ الرِّجال المعاصرين، أولئك الذين مكانتُهم الأخلاقيَّة والفكريَّة تبزُّ على الأقلِّ مكانةً الأقزام والفلَّاحين، يعشقون، حين يعشقون، عشقاً رومانسياً. فالعشق الرُّومانسيُّ هو الحصيلة المتطرِّفة للتأثير المسيحيِّ قَرْناً بَعْدَ قرن؛ ويمكن تفسير ماهيَّته وتطوُّره لكلِّ مَن لا يفهمه بمقارنته بِصُدريَّة أو بذلة صنعتها الرُّوحُ أو المخيِّلة، لتكسو بها المخلوقات التي قد تظهر صُدفة، ويعتقد العقلُ أنَّها سوف تكون على مقاس تلك المخلوقات.

ولأنَّ كلَّ البذلات ليست أبديَّة، فالبذلة لا تدومُ إلَّا بمقدار ما تدومُ؛ ثُمَّ سرعان ما يبرزُ، من تحت تلك البذلة المثاليَّة الرَّثَة التي لا تنفكُّ تبلى، جسدٌ حَقُّ للكائن الآدميِّ الذي نرتديه. ومِن ثُمَّ، فإنَّ العشق الرُّومانسيَّ طريقُ خِذلانِ لا ريب فيها، مَا لَمْ يُحتوِ ذلك الجِذلانُ منذ البداية، ويُسمَح لَهُ ألَّا يكفَّ عن تبديل مِثَالِه، في ورشاتِ الرُّوح، وألَّا يكفَّ عن إنتاج بذلاتِ جديدة، فيُجدِّد بذلك مظهرَ المخلوق الذي يَكسوه.

162

[920]

فلسفة طُمأنينة (١٥١) جماليَّة تصدُّ الإهانات التي تكيلها إلينا الحياة، والإذلالات التي تُذيقنا إليّاها، رفقة العَيْش الذي غدا منذ البداية أكثر من مجرَّد حدِّ خارجي مَهينٍ يُحيطُ بحساسيَّتنا، خلفَ الجدار الخارجي للرُّوح الواعية.

⁽¹⁵¹⁾ استخدم هُمَا عبارة «الطُّمانينة» (وليس السُّكينة أو الهدوء، على سبيل لمثال) مقابلاً لكلمة quietism (بالبرتغالية: quietismo)، ذلك أنَّها عند پسُوًا حالة صُوفيَّة تكاد تقترب من مفهوم «نعيم الطُّمانينة» كما هو عبد المصوَّفة المسلمين، ولاسيَّما ابن عطاء السُّكندري. وثمَّة مذهب يعرف بالإنگليزية باسم Quietism، ظهر في سبعينيًّات المسلمين، ولاسيَّما ابن عطاء السُّكندري، وثمَّة مذهب يعرف بالإنگليزية باسم عشر وثمانينيًّاته، قائم على تعاليم المتصوَّف الإسهاني ميغيل دي مولينوس، حيث يصل « لمريد»، عبر القاف المانية ، فتفنى إرادته، ويتُحد مع المقدس (المترجم)

L. do D - Phefacio

the meditain - a' misperied que mais finis a' centre de algunes come mande lucas on even der's quanter. Condensis - de ham, prender, prender, alle for onni estapeter. Il fapeter, algérir alle for onni es crearie men entire par onni es crearie men entire par onni es crearie men entire par onni es crearie men entire para de de te dis ho quanto a' anoderna o testri torra- er descompetes, pragoa plays ca.

hade a shigain ware a force force in last ware can force for an auto of force force for an auto of force force for an auto of force force for force of force of the fo

"ولقد أنَّتَ مُحجرتَيه - غير مكثرتِ بتكاليف بعض الحاجات الأساسيَّة - بأشياءَ شيبه فخمة". [توطئة]

am tout - que u sal, cours I been, 21 cm tota ? - 11 da', de as animotames ouring do ma vida on term talasto à major e sembrance da ducina de sur instrute, I'de inner town, e de of-Sarlament. Mune ter de a defen. Eto um as experience do es-Tado en de serverdade. as I have de anniger were an autes. Fui o series que, de alguna manerie artic na notuendada Vela then - a jour de to mide an men i de emporter que menos perch' amin que elle agreen

قولم يتوجّب عليه البُّنّة التعامل مع منطلّبات الدُّولة أو المجتمع. حتّى إنّه قد تحبّنب مُنطَّبات غرائزه مُوّ. [توطئة]

rendo tudo ationer, the main surface enterni digno de men pryelio.

logo, que figuri do menus

munto anni fini fara que ella

me approximan d'orte ten biso.

Ali i into - e' comuni do.

Celuit-o - a; seato ceicumbi;

punto ante ella quem, do

men conacto, the fundame

cerrir, the fundame

"وبِقيتُ صديقَهُ، الصَّديقَ المنذورَ للسَّبب ذاته الذي جذبني إليه في المقام الأوَّل: نشرِ كتابه هذاه. [توطئة]

Manuel de ben Embon. - adia todo, terma de dese fazer legio o que se pode deser de fazer tambamanta. La que se prode fa je amanta ? - I cered weres no que case pages brain o faças with a war into the eyes winte for me , and the me are so give a ma mal estar, de o les herturis es, a Dorpreza tredo, unas do ausas que o chem the same intermediate. Her to begin and intermediate to desproy well and property well and the property well and the property well and the property of the pro to est the an idea incomme a recording you in a to may insenter. more Estationers o vanho a vida a constant There me you down our consideration of the com perfection , Some wayer at many Em tion or too action da water made. doids a de vores ale on de anne. the saw of . I aprile frate men of wills forma. to para or onthe , many exployed Charle. Tules to, ones new valer com as porto, na tra time de manjoni to an this time do encuelan es to profesion.

«البَّهِل كلَّ شيء. ولا تفعل اليوم ما تستطيع تأجيله إلى الغد. لا يتوجّب عليك أن تفعل أيّ شيء، غداً أو اليوم». [39]

Land un rie Big-my faite on to have in haven! In four time I am for me afril s'ost de fin o son , vinte par i pied l'aire. a anni inserial e moment. Cylin - - your in print & invaders new June 17 the more 10.1 hora vers promote promote.

Li & D. 433

Tudo it vale para o estella pela seuseasia, que ha suria man suria con seuseasia con seuseasia de entre en seuseasia de entre con seuseasia de entre entre conservante de entre entr

to an consequent personance and go of here has a formation from the manufacture from the second of the sec

107

« تهذيبُ الحياة يحول دون تهذيب المخيّلة». [96]

Ethetrea do Daralent.

وأن تُنشَر المشاركةُ الاجتماعيَّة للأنا. فيا لها من ضرورة أساسيَّة ١٩٠]. [98]

L. n. d.

Come in the infrance pearly on fit to see topic of mention of the see to program of the see to the

ه أتَّى ملكة عامضة تنتظرني قرب بحيرتها، ولا تسأمُ من السَّهر على ذاكرة حياتي المُحطَّمة؟ ١٥٠]

كتاب القلق

الطُّوْرِ الثَّانِي

من (152) كتاب القلق تأليف برناردو سوارش، المحاسب المساعد بمدينة لشبونة

DO «LIVRO) العنوان في أصله البرتعالي واردٌ بـ «الصّيغة»، هذه، أعلاه، على النّحو الذي وضعه بِسُوًا بنفسه (152) DO DESASOCEGO», COMPOSTO POR BERNARDO SOARES, AJUDANTE GUARDA-LIVROS NA DESASOCEGO», COMPOSTO POR BERNARDO SOARES, AJUDANTE GUARDA-LIVROS NA (CIDADE DEL LISBOA)، حين نشر أُولى الشّدرات عن برناردو سوارش، ولكن باسمه الصّريح، وليس عزواً إلى سوارش، في بحلة Revista (العدد الثّاني، الصّفحة الحامسة والعشرون، 1929). ولدلك، فإنّ عبارة «من» (من» (من» السّندرات النسوية بالبرتغالية) الواردة في مُفتتح العنوان لا تعني أنّ شدرات «الطّور لتّأني»، هذه، هي «مختارة» من الشّذرات المنسوية إلى سوارش، وإنّما «تأكيد» أنّها -في مجمعها- جزء «من» كتاب القبق؛ فالجرء الأوّل (بشذراته الـ 162) يُنسب إلى فسنته غيدش، وثمّة، من بين المُتضلّعين في أحمال بِسُوّا وأطوار حياته، من يضيف جرءاً ثالثاً، هو تلك الشّذرات المنسوبة إلى بالون تيف عدن ألله النّاقدة البرازيليّة الدَّاتعة الصّبت، بالون تيف أصدرتها بعنوان Barão de Teive (كتاب/تُتُب القلق) في العم 2017. (المترجم)

[29 مارس 1930] (153)

وُلدتُ في الزّمن الذي فقد فيه معظم الشّباب إيانهم بالله، للسّبب ذاته الذي دفع كُبراءَهم إلى المحافظة على إيانهم - دون أن يعرفوا لماذا. وهكذا، ولأنّ الرُّوح البشريَّة نزَّاعة إلى النّقد بالفطرة، فهي تشعر أكثر ممَّا تُفكِّر، فلقد اختار معظم الشّباب الإنسانيَّة بديلاً عن الله. ولكنّني أنتمي إلى سلالة الإنسان الذي يظلُّ دائماً على شَفَا الشَّيء الذي ينتمي إليه؛ الإنسان الذي لا يرى الحشد الذي هو جزء منه فحسب، وإنَّما الفضاءات العظيمة التي في كلِّ مكان أيضاً. ولهذا السّبب لم أجحد الله، في أعماق قلبي، مثلما فعلوا، ولم أتَّغذِ الإنسانيَّة بديلاً البتَّة. ولأنَّ الإله غير موجود على الأرجح، فقد اعتقدتُ بأنَّه قد يكون موجوداً، ولذلك فهو يستحقُّ أن يُعبَد، بَيْدَ أنَّ الإنسانيَّة، لكونها مجرَّد فكرة بيولوجيَّة لا تدلُّ إلَّا على الجنس البشريِّ في حدً أن يُعبَد، بَيْدَ أنَّ الإنسانيَّة، لكونها مجرَّد فكرة بيولوجيَّة لا تدلُّ إلَّا على الجنس البشريِّ في حدً ذاته، فإنَّها لم تستحقُّ العبادة أكثرَ من السُّلالات الحيوانيَّة الأخرى. فلطالما صعقتني عبادة الإنسانيَّة، هذه، بطقوسها الدَّاعية إلى الحُريَّة والمساواة، بوصفها إحياءً للعقائد القديمة، ويث كانت الحيواناتُ آلمة أو الآلهة ذات رؤوس حيوانيَّة.

هكذا، دونَ أن أعرف كيف أومن بالله، ولكوني عاجزاً عن الإيمان بقطيع من الحيوانات، فقد حافظت، مثل كلِّ الذين يُقيمون في الهوامش، على تلك الشُّقَةِ البعيدة التي تفصلني عن كلِّ شيء؛ تلك التي تُسمَّى «الانحطاط» (151) عموماً. فالانحطاط غيابُ اللَّاوعيِ التَّامُّ، ذلك أن اللَّاوعيَ أُسُّ الحياة المُطلَقُ. فلو فكَّرَ القلبُ، لتوقَّفتْ دقًاتُهُ.

⁽¹⁵³⁾ على الرَّغم من أنَّ تاريخ هذا المقطع يعود إلى العام 1930 (أي بعد تاريح المقاطع التي تليه، العائدة إلى العام 1929)، فإنَّ الطبعات البرتغاليَّة المنتلفة قد درجت على البدء به، كمقطع أوَّل (بعد مقدِّمة بِسُوَّا نفسه، التي يذكر فيها كيف التقى برتاردو سوارش) في افتتاح الجزء الحناص بسوارش من «كتاب القلق»، ذلك أنه بمثابة تقدمة تعريفيَّة بالبيئة الفكرية والديمية التي وُلد فيها سوارش نفسه والأفكار التي يحملها. والنُص، في الأصل، مرقون على الآلة الكاتبة (ملحق به صفحتان مكتوبتان بخط اليد)، والتاريخ مرقون من لدن بِسُوًّا نفسه بالحبر الأحمر على هذه الشَّاكلة (1930/3/29)، ولا يذكر اسم الشَّهر، شهر مارس، كما يرد هُنَا. (المترجم)

⁽¹⁵⁴⁾ الا تحطُّ ط هُنَا بمعنى Decadence الذي سبقب الإشارة إليه في حواش سابقة. (المترجم)

ما الذي سيبقى -لواحد مثلي، وللقِلّة التي تُشبهني، الذين يعيشون دون معرفة أنّهم على قيد الحياة - سوى الزَّهدِ طريقة للحياة والتَّأمُّلِ قَدَراً؟ فكلَّ مَا يبقى لنا، لتبرير وجود روحنا، هُوَ التَّأمُّل الجَاليُّ في الحياة، فنحن غير قادرين على معرفة معنى وجود حياةٍ دينيّةٍ، وعاجزين عن اكتشافه بالمنطق، وعاجزين عن الإيبان بالمفهوم المُجرَّد للإنسان، وعاجزين حتَّى عن معرفة ماذا نفعل به. وهكذا -وقد تبلّدت أحاسيسُنا تجاهَ وقار العالم، غير مكترثبن بالإلهيّ، مُحتقرين الجنسَ البشريَّ - نُسلِمُ أنفسَنا، عبثاً، إلى حِسيَّةٍ جُزافيَّة ممزوجةٍ بأبيقوريَّة ساميةِ تُناسب أعصابَنا الدِّماغيَّة.

لم نَاخذ من العلم إلَّا قانونَهُ المركزيَّ بأنَّ كلَّ شيء خاضعٌ لنواميس القَدَر التي لا يستطيع أيُّ فعل مستقلِّ أن يكون ضدَّها، فكلُّ الأفعال مجرَّد أفعال فحسب. لاحظنا أنَّ هذ النَّاموس قد توافق جيِّداً مع ذلك النَّاموس الأقدم القائل بالقَدريَّة الإلهيَّة للأشياء، فتخلَّين عن النِّضال، مثلها يتخلَّى الرِّياضيُّون الضَّعفاء عن تدريباتهم، ثُمَّ بكلِّ الاهتهام النَّيِّق الذي ينطوي عليه التَّبَحُر في العلوم الحَقَّة، ركَّزنا على كتاب الأحاسيس المثيرة.

ولكنّنا لا نلوذَ إلّا بمشاعرنا، فنرتادها كأنّها أراض عظيمة غير مستكشفة، فإنّنا عاجزون عنر أخذ الأشياء على محمل الجِدّ، وعن الإيهان بأنّنا قد مُنجِنَا حقيقةً واقعيّةً أُخرى غير مشاعرنا. وحين ننكبُّ جاهدينَ، لا على التّأمُّل الجَهاليِّ فحسب، وإنّها على محاولة إيجاد تعبير لأفانينه ومآلاته، فذاكَ لأنَّ النَّثرَ والشِّعرَ، اللَّذَيْن نكتبها مُجرَّدَيْن من رغبةِ التَّاثير في تصوُّرات الآخر أو تغيير أفكاره، قد أضحيا كمثل شخص يقرأ بصوت عالي ليُضفي موضوعيَّةً بالغةً على مُتعة القراءة الشَّخضيَّة.

فلا نعرفُ، حقَّ المعرفةِ، إلَّا أنَّ كلَّ عمل محكومٌ بالنَّقص، وألَّا تأمُّلَ بَماليّاً أقل يقيناً من التَّأمُّل الجَاليِّ في كلِّ ما نكتبُ. ولكنَّ كلَّ شيء ناقصٌ؛ فلا مغيبَ شمس مها كان بهياً يمكن ألَّا يكون أكثرَ من مغيب، ولا نسيمَ عليلاً يُهدهدنا للنَّوم يمكن ألَّا يهدهدنا لنوم هادئ أعمق. هكذا، حينَ نقرُّ عيناً بتأمُّل الجبال أو التَّهاثيل على حدِّ سواء، مُتدبِّرين الآيَّامَ كأَنَّا كُتُب، حالمينَ بكلِّ شيءٍ، قبلَ كلِّ شيءٍ، كي نُحوِّله إلى شيءٍ يخصُّنا على نحو حميم، فإنَّنا، أيضاً، سوف نكتبُ أوصافاً وتحليلاتٍ سوف تغدو، آنَ تُكتَب، موضوعاتٍ غريبةً نستطيع أيضاً، سوف نكتاب أوصافاً وتحليلاتٍ سوف تغدو، آنَ تُكتَب، موضوعاتٍ غريبةً نستطيع الاستمتاع بها كما لو أنَّها جاءتْ، ببساطة، مع الغسق.

وهذا ليس تفكير متشائمين على شاكلة فيني (١٥٠)، الذي كانت الحياة بالنّسبة إليه سجناً حاك فيه القشّ (١٥٥) تزجية للوقت. فلكي يكون المرء متشائه، لا بُدّ أن ينظر إلى الحياة بوصفها مأساة، وهذه مُغالاةٌ غير مُريحة. صحيحٌ أنّنا لا نمتلكُ مفهوم قيمة نستطيع تطبيقه على العمل الذي ننتجه، وصحيحٌ أنّنا نُنتج ذلك العمل تزجية للوقت، ولكنّنا لا نفعل ذلك كالسّجين الذي يجوك القشّ لِيُشغل نَفْسه عن قَدَره، وإنّها كالفتاة الصّغيرة التي تُطرِّزُ أغطية وسائد لتسلية نَفْسها ولا شيء أكثر.

الحياة بالنّسبة إلى خانٌ لا بُدّ أن أنزلَ فيه حتّى تأتي العربة القادمة من الجحيم كي تُقلّني. ولا أعرف إلى أين سوف تأخذني تلك العربة، فأنا لا أعرف شيئاً. أستطيعُ أن أَعُدَّ هذا الحانَ منجناً، فأنا مُجبَرٌ على أن أظلَّ هُنا، ويمكنني أن أَعُدَّه نادياً، لأنّني أقابل أشخاصاً آخرين فيه. ولكنّني، على النّقيض من الآخرين، لستُ جزوعاً أو ألُوفاً. أترك أولئك الذين يجبسون أنفسهم في غرفهم وينتظرون، مُسترخين في أسرَّتهم، عاجزين عن النّوم؛ وأترك أولئك أنفس الذين يثرثرون في الرُّدهات، حيث يترامى إليَّ الصَّوتُ النَّاعمُ للموسيقى والأصوات. أجلسُ عند الباب لأملاً عينيَّ وأُذُنيَّ بالوان المناظر الطبيعيَّة وأصواتها، ثُمَّ أُغنِّي لِنَفْسي وحدَها، أُغنِّي على مَهْلي أغنياتٍ غامضة أُلِّنَها وأنا أنتظرُ.

سيُرخي اللَّيلُ سُدُولَهُ علينًا والعربةُ سوف تصلُ. أستمتعُ بالنَّسيم الذي هبَّ عليًّ والرُّوح التي وُهِبَتْ لي، فلا أسأل المزيد من الأسئلة، ولا أنظرُ أبعدَ مَّا أنظرُ. لا بأسَ لو قرأَ الآخرون، ذات يوم، ما تركتُهُ مكتوباً في سجلِّ النُّزلاء، فسلَّاهم في رحلتهم، ولا بأسَ، أيضاً، لو لم يقرأَهُ أحدٌ ولم يَتعلَّل به أحدُ.

(157) 164

[بعد 15 يناير 1929]

أُحبُ، في مساءات الصَّيف الْمُتوانية هذهِ هدوءَ هذهِ [اللَّحظة]، الجزءَ التَّجاريُّ من

(155) Vigny: الكونت ألفريد دي إليني، روائيٌّ وشاعر فرنسيٌّ. (المترجم)

(156) مُنا إشارة إلى العبارة التي خطُّها فيني في يوميَّاته بعد أن انسحب من الحياة واعترل النَّاس: «أكابدُ سجني. أحوك القبش، أحياناً، كي أنسى». (المترجم)

(157) نشر يِسُوًا الفقرتَيْن الأولى و النَّانية من هذا المقطع، في الأصل، باسمه الصَّريح، بمجلَّة Revista (العدد الثاني، 1929)، وتحت عنوان: (مقطع. من «كتاب القلق» تأليف برناردو سوارش، المحاسب المساعد بمدينة لشبونة». أمَّا باقي النَّص فقد دوَّنه بخط يده لاحقاً على النسخة المطبوعة من الأصل. (المترجم)

البلدة، أكثرَ من ذي قَبل، فهو على النَّقيض من الهرج والمرج الصَّاحب الذي يملؤه في أثناء النَّهار. خُوا ذُو أرسينال، وخُوا ذَا أَلْفَانْدِغَا السَّارِعان الحزينان الذَّاهبان شرقاً حيث تتهي أَلْفَانْدِغَا - وصفُّ الأرصفة البحريَّة الطَّويل المُتوحِّدُ: إنَّها تشرحُ صدري بالحُزن في تلك المساءات حين أختار أن أقاسمها عزلتها. يعودُ بي الزَّمنُ إلى الوراء، إلى ما قبل في تلك المساءات حين أختار أن أقاسمها عزلتها. يعودُ بي الزَّمنُ إلى الوراء، إلى ما قبل الزَّمن الذي أعيش فيه الآن بفترة طويلة. يروقُ في أن أتخيّل نَفْسي معاصراً لسيزاريو فيرده في النَّمن والمعاره. لا تختلف فأشعر داخل نَفْسي، ألَّا مزيد من الأشعار كتلك التي كتبها، وإنَّا جوهر أشعاره. لا تختلف الحياة التي أجرُّها خلفي حتَّى يهبط اللَّيلُ عن حياة الشَّوارع ذاتها. تضجُّ في النَّهار، وفي اللَّيلِ أنا عبيق، وتضجُّ في اللَّيل بفقدان الصَّخب، على حدُّ سواء. أنا لا شيءَ في النَّهار، وفي اللَّيلِ أنا عشي، لا فرقَ بيني وبين الشَّوارع حول أَلْفَانْدِغَا سوى أنَّها شوارع وأنا روح آدميَّة، وقد لا يكون لهذا الشَّيء أهميَّة يُعتدُّ بها كثيراً، حين يُقارَن بجوهر الأشياء جميعاً. فالبشر والأشياء يكون فذا الشَّيء أهميَّة يُعتدُّ بها كثيراً، حين يُقارَن بجوهر الأشياء جميعاً. فالبشر والأشياء يتشاركون قَدَراً جماعياً مُجرَّداً: ألَّا يكون لهم قَدْرُ الأهميَّة ذاتُهُ في جَبْر سرَّ الحياة.

ولكن ثمّة شيء آخر... في تلك السّاعات البطيئة، الفارغة، ينهضُ من روحي إلى عقلي شعورُ حُزنِ الوجود كُلّه، الشّعور المريرُ بأنّ كلَّ شيء قد ضجَّ فِيَّ بقوَّة، ولكنَّهُ مازال، في الوقت ذاته، برَّانياً عني، وبأنّني مَهيضُ الجناح غيرُ قادرٍ على أن أُغيَّره. فكم مرَّةً شاهدتُ أحلامي تتجسَّدُ حَيَّة، فتهاجمني من الخارج في هيئة حافلة كهربائيَّة عند زاوية الطَّرف القصيِّ من الشَّارع، أو صوتِ بائع جوَّال في اللَّيل (لا أحد يعرف ماذا يبيع) يُغنِّي لحناً عربياً، الصَّوتِ الذي انبجس فجأةً كي يكسر رتابة المساء، لا لتمنحني [تلك الأحلام] حقيقةً واقعيَّة بديلة، وإنَّا لتعلن أنفُسَها سواسيةً في استقلالها عن إرادتي.

165

[\$1929]

سأمُ الأوهامِ كلِّها، وسأمُ كلِّ ما تنطوي عليهِ الأوهامُ: خسارتِها، وعبثِ امتلاكها، والسَّأمِ اللهبرة اللهبرة الفكريِّ النَّاجم والسَّأمِ اللهبرة لوجوب امتلاكها كي نفقدها، وألمِ أنَّنا قد امتلكناها، والعارِ الفكريِّ النَّاجم عن امتلاكنا إيَّاها على الرَّغم من معرفتنا بالنِّهاية التي سوف تؤول إليها.

⁽¹⁵⁸⁾ Rua do Arsenal (وتعني حرفياً: شارع التُرسانة البحريَّة) و Rua da Alfândega (وتعني حرفياً: شارع الجمارك): شارعان في وسط لشبونة. (المترجم)

إنَّ وعيَ لاوعيِ الحياةِ هُوَ الشَّهادة ((59) العُظمى المفروضةُ على البصيرة. ثمَّة بصائرُ واعيةٌ – ومضاتُ أَلمعيَّةٍ، ودفقاتُ فَهْمٍ، وأسرارٌ، وفلسفاتٌ – تتصرَّفُ عفوياً كردودِ أفعال جسديَّة، مثلها يتصرَّفُ الكبد والكلى مع إفرازاتهما.

166

[22 مارس 1929]

في الخليج، بين الغابات والمروج، تقلَّبتِ الرَّغبةُ المحتدمة حين تملَّكتنا الرِّيبةُ في الهاوية الحاوية. الحنوية عكن ثمَّة حاجةٌ للاختيار بين الحنطة والآس، فأكمَلَتِ المسافةُ انسحابَها بين السَّرُوات.

قوّةُ الكلياتِ السِّحريَّةُ، سواءٌ أكانت معزولةً أمْ محتشدة لتصنعَ توليفة موسيقيَّةً، طافحةٌ برنينِ حيم ومعانِ تتباعدُ حتَّى حين تقتربُ، وفخامةِ الجُمَل الموضوعة بين معاني الجُمَل الأخرى، والأطلالِ الخبيثة، والغابات المفعمة بالأمل، ولا شيء سوى البِرك الهادئة في حدائق طفولة ذرائعي... هكذا، بين الجدران العالية للجُرأة العبثيَّة، بين صفوف الأشجار والرِّعشات الجافلة لأشياءَ تذبلُ، سوف يسمعُ شخصٌ غيري من شفاه حزينة الاعتراف المنكرَ لتضرُّعاته المُلحَّة. وحتَّى لو عاد الفرسانُ على صهوات جيادهم في الطَّريق المرتبَّة من أعلى جدار القلعة، فلن يكون ثمَّة مزيد من السَّلام في "قلعة آخر الرِّجال المفقودين"، حيث أعلى جدار القلعة، فلن يكون ثمَّة مزيد من السَّلام في "قلعة آخر الرِّجال المفقودين"، حيث تناجزتِ الرِّماحُ ذات مرَّة وتقارشَتُ (١٠٠٠) في الباحة؛ ولن يتذكّر أحدُ اسها آخر في هذا الجانب من الطّريق، باستثناء الاسم الذي اعتاد أن يسحرنا ليلاً، مثل حكاية السيِّدات المغربيَّات، والطِّفل الذي مات، فيها بَعْدُ، من الحياة والتَّعجُب.

وعلى طُول الأخاديد في العُشب، حيث تُركَتِ الخُطَى جوفاءَ في الخُضرةِ المُلوِّحة، تردِّدت أصداءُ عبورِ آخرِ الرِّجال المفقودينَ خافتةً، على مهلها، كذكريات عن المستقبل. سيكون أولئك الذين سوف يأتون طاعنينَ في السِّنِّ، أمَّا اليافعون فلن يأتوا البَّة. كان دويَّ طبولِ بجانب الطَّريق، والأبواق تتدلَّى صامتةً في أيدٍ متعبة كانت ستُسقطها لو امتلكت القوَّة لإسقاط أيِّ شيء.

⁽¹⁵⁹⁾ الشهادة هنا بمعنى الاستشهاد في سبيل فكرة ما. (المترجم)

⁽¹⁶⁰⁾ تقول العرب: «اقْتُرُشُ/تقارشُ الرَّماح: «صَكَّ بعضُها يَعْضاً فسُمع لها صوتٌ». (المترجم)

ثُمَّ رنَّتْ، مرَّة أخرى، جرَّاءَ السِّحر صرخاتُ الموتى ثانيةً، فَرُتِيَتِ الكلابُ تحوم في ممرَّات الحديقة. كانت كأنَّها يقظة عبثيَّةً، وأميراتُ أحلام الآخرين قد تمشَّينَ خليَّاتِ البالِ إلى الأبد.

167

[91929]

أشعر بالأسى تجاه أولئك الذين يحلمون بالمُحتمَل، والمُباح، والذي في متناول الأيدي، أكثرَ من أسايَ على أولئك الذين يحلمون أحلام يقظة بالبعيد والغريب؛ أولئك الذين يحلمون على نطاق واسع أو المجانين الشُّعداء الذين يؤمنون بأحلامهم، أو الحالمين البسيطين الذين يحلمون أحلام يقظة هي بالنِّسبة إليهم موسيقى للرُّوح، بلسمٌ عبثيُّ. ولكن ثمَّة احتماليَّةٌ حقيقيَّة، وقد لا يُثقل كاهلي احتماليَّةٌ حقيقيَّة، وقد لا يُثقل كاهلي احتماليَّةٌ الله أَكلَم الخيَّاطة البيَّة التي تظهر في تخيراً أنَّني لم أَعَدُ إمبراطوراً رومانياً، ولكنَّني قد أتألَّم إنْ لم أُكلَم الخيَّاطة البيَّة التي تظهر في نحو السَّاعة التَّاسعة من كلِّ صباح عند الزَّاوية يمينَ نافذي. فالحلم الذي يعدنا بالمستحيل قد حرمنا سلفاً من تحقيقه، ولكنَّ الحلم الذي يعدنا بالمُمكن يتدخَّلُ في الحياة الحَقَّة ويترك الأمر للحياة كي تجد حلاً. تعيش الفئة الأولى حصرياً وعلى نحو مُستقل، وتخضع الثَّانيةُ إلى الأحداث الطَّارئة لما قد يحدث.

ولهذا أُحبُّ المناظر الطَّبيعية المستحيلة والمساحات الشَّاسعة الخالية العظيمة للسُّهول التي لم أزرها قطُّ. والعصور التاريخيَّة السَّابقة معجزةٌ أيضاً، فليستُ ثمَّة فرصة لأكون جزءاً منها بتاتاً. أنامُ حين أحلم بها لا يُوجَد، وأستيقظُ حين أحلم بالموجود.

أنظرُ من نافذة شرفة المكتب المهجور عند الظّهيرة إلى الشَّارع في الأسفل، فأغرق حين أحسُّ حركة النَّاس بعينيَّ، عميقاً في أفكاري كي أراهم رأي العين. أنام مع الدَّرابزين وهو يحفر مؤلماً في مرفقيَّ فلا أُدرك شيئاً سوى الإحساس العظيم بالوعد. أستطيعُ، بعزلةٍ غريبة تبيُّن تفاصيل الشَّارع المتوقّف الطَّافح بالمارَّة: الصَّناديق المكدَّسة على عربة يجرُّها حصان، والأكياس خارج المخزن المجاور، وألمح في قترينة البقالة في الزَّاوية البعيدة زجاجات نبيذ والأكياس خارج المخزن المجاور، وألمح في قترينة البقالة في الزَّاوية البعيدة زجاجات نبيذ يُورتو ((١٥١)) التي أتخيَّل ألَّا أحدَ يستطيع شراءها. تفصل روحي نَفْسها عن الماديِّ المحضن

⁽¹⁶¹⁾ نبيذ پورتو vinho do Porto (أو نبيذ پورت port wine بالإنگليزيَّة): نبيذ أحمر فاخر، حلو المذال، يصنع في وادي داورو بشمال البرتغال. (المترجم)

أسبرُ الأغوار عميقاً بمخيِّلتي، فالنَّاس الذين يمشون في الشَّارع هم دائماً الذين عبروا قبل قليل، الهيئات المتقلِّبة ذاتها، والحركات الغائمة، والأصوات المتردِّدة، والأشياء التي تمرُّ ولا تحدُث.

ألاحظُ هذا كُلَّهُ بوعيي بحواسي أكثرَ من أحاسيسي ذاتها... احتماليَّة الأشياء الأخرى... ثُمَّ أسمعُ فجأةً خلفي الحضورَ الغيبي المُباغتَ لساعي المكتب. كنتُ أودٌ قتلَهُ لتكديره صَفْوَ السمعُ فجأةً خلفي الحضورَ الغيبي المُباغتَ لساعي المكتب. كنتُ أودٌ قتلَهُ لتكديره صَفْوَ السمئزازِ صامتة السرانا»، فأنا لم أكُن حتَّى أُفكِّر كي لا أكدِّرها. درتُ حوله ثُمَّ رميتُهُ بنظرةِ اشمئزازِ صامتة مشحونة بميول إجراميَّة كامنة. أستطيع سماع الصَّوت الذي سوف يستخدمه حين يتكلَّم. تسسم من الطَّرف القصيِّ من المكتب، وقال: «عمتَ مساءً». أكرهه كُرهي الكونَ كُلَّه، عيناي مثقلتان بالتخيُّل.

168

[91928]

يرفض التَّاريخُ اليقين. ثمَّة أزمنة هادئة حين يكون كلُّ شيء بائساً، وأزمنة مضطَّرية حين يكون كلُّ شيء بائساً، وأزمنة مضطَّرية حين يكون كلُّ شيء سامياً. ويمكن لأزمنة الانحطاط أن تكون خصبة فكرياً، والأزمنة الاستبداديَّة لا تكون خصبة إلَّا في البلاهة وخفَّة العقل. فكلُّ شيء يتداخل ويتقاطع، والحقيقة الوحيدة الموجودة موجودة في مخيَّلة المرء.

سقط كثير من الأفكار النَّبيلة في كومة الرَّوث، وضاع كثير من الرَّغبات الأصيلة في الوحل!

جميع الآلهة وجميع البشر متساوون، بِقَدْر ما أستطيع أن أرى، في الارتباك الطّويل للقَدَر اللّبس. ولقد تقاطروا أرتالاً في أحلام متعاقبة، في الغرفة الغامضة في الطّابق الرَّابع حيث أعيش، فلم يكونوا بالنّسبة إلى أكثر عمَّا كانوا بالنّسبة إلى أولئك الذين آمنوا بهم. أوثان الزُّنوج ذوي العيون الذَّاهلة والخائفة، وآلهة الهمج الحيوانات القادمون من بريَّات متواشجة، والأجسام التي حوَّلها المصريُّون رموزاً، وأرباب الإغريق المُشرقون، وآلهة الرُّومان الصّارمون، وميثرا، ربُّ الشَّمس والمشاعر كلِّها، ويسوع سيُّد الاستقامة والإحسان، التَّأويلات المختلفة لذلك المسيح بعينه، القدِّيسون الجُدد، آلهة البلدات الجديدة، تقاطروا كلُّهم أرتالاً إلى المسير

البطيء (أحبُّ هُوَ أم جنازةٌ؟) للأخطاء والأوهام. يسيرون جميعاً، وجاءت خلفهم الظّلالُ المناوية، والأحلام التي يؤمن أشدُّ الحالمين سخافة بأنّها لا بُدَّ قد هبطت لتعيش على الأرض، لأنّها تطرح ظلالاً، ليس إلّا. مفاهيم مثيرة للشّفقة بلا روح أو وجه الحريّةُ، والإنسانيّة، والسّعادة، والمستقبل الأفضل، والعلوم الاجتهاعيّة - تزحف في عزلة العتمة كأوراق أشجار تتجرجر على طول حاشية عباءة ملكيّة، في منفى الملوك الأبديّ، عباءة سرقها الشحّاذون الذين احتلُوا حدائق آلِ المهزومين.

169

[1929]

...

يمكن أن تكون الأفكار نبيلة من دون أن تكون مُنمَّقة، ولكنَّ أكثرَها تنميقاً أقلُّها تأثيراً. فالقوَّة بلا دهاءٍ مُجرَّدُ مادَّةٍ لا تُسمِن ولا تُغني من جُوع.

170

[?1929]

قراءة الصَّحف على الصَّعيد الجَهاليِّ مؤلمة دائهاً، ولكنَّها ليستُ أقلَّ إيلاماً على الصَّعيد الأخلاقيَّة من وقته إلَّا القليل الأخلاقيَّة من وقته إلَّا القليل فحين يقرأ المرء عن الحروب والنَّورات -فثمة حرب دائرةٌ على الدَّوام أو ثورةٌ - لا يشعر بالرُّعب وإنَّها بالسَّأم. فليس القَدَرُ الوحشيُّ؛ قدَرُ أولئك الموتى والمجروحين جميعاً، هُوَ الذي تشتدُّ وطأته ثقيلةً على القلب، ولا النَّضحيةُ التي بذلها أولئك الذين ماتوا محارين أو مُتفرِّجين، بَل الغباءُ الذي يُضحِّى بالحيوات والأملاك في سبيل أيِّ شيء عبثيِّ يَجِلُّ عن الوصف. ليستِ النُّئل العُليا والطُّموحات جميعاً إلَّا هذيانات بشر يشرثرون، فلا إمبراطوريَّة الوصف. ليستِ النُّئل العُليا والطُّموحات جميعاً إلَّا هذيانات بشر يشرثرون، فلا إمبراطوريَّة تستحتُّ حتَّى النَّضحية بلعبة -قطار واحدة، واليُّ منال أعلى يستحتُّ حتَّى النَّضحية بلعبة -قطار واحدة، فأيُّ إمبراطوريَّة مفيدة حقاً، وأيُّ مثال أعلى يستحتُّ حتَّى النَّضحية بلعبة عأين من البشريَّة هي ذاتها دائهاً: متغيَّرةٌ ولكنَّها عاجزة عن الكَهال، مُتردِّدةٌ ولكنَّها عاجزة عن الكَهال، مُتردِّدةٌ ولكنَّها عاجزة عن الكَهال، مُتردِّدةٌ ولكنَّها عاجزة عن

التَّقدُّم. بَيْدَ أَنَّنا، بِالنَّظرِ إِلَى هذي الحال السَّادرة في غَيِّها؛ وإلى الحياةِ التي مُنِحْنَاهَا، لا نعرف كيف سنفقدُ الحياة ولا متى سنفقدها، ولا نعرفُ أينَ، بالنَّظر إلى مباريات الشَّطرنج العشرة آلاف التي هي نضالات الحياة المُعاشَة في المجتمع، بالنَّظر إلى سأم التَّأمُّل العبثيِّ في الذي لن يتحقَّق البتَّة [...] - في الذي يستطيع الحصيفُ فعله إلَّا أن يتوسَّل، كي يأخذ قسطاً من الرَّاحة، كي يستريح من التَّفكير في العيش (كأنَّ ضرورة العيش ليستُ كافية)، كي يحظى بمكان صغير في الشَّمس، والرِّيف المُترامِي بلا حَدِّ، وحُلمِ أن تكون ثمَّة سكينةٌ في مكان ما خلف الجبال على الأقلِّ.

171

[\$1929]

الفارق الذي يرسمه الشَّوريُّون بين البرجوازيِّين والشَّعب، بين النَّبلاء والشَّعب، أو بين الخَّام والمحكومين، خطأً فادح وجسيم. فالفارق الحَقُّ الوحيد الذي يستطيع المرء أن يرسمه هُوَ بين أولئك الذين يتكيَّفون مع المجتمع أو يخضعون له وبين أولئك الذي لا يتكيَّفون أو يخضعون؛ البقيَّةُ أدبيَّاتُ، وأدبيَّاتُ رديئة علاوة على ذلك. يستطيع الشَّحاذ إذا تكيَّف مع المجتمع أن يغدو ملكاً في الغد، ولكنَّه سوف يفقد بذلك مكانته كشحَّاذ. فلقد عبر الحدود وفقد جنسيَّته.

أتسلَّى بهذه الفكرة هُنَا في هذا المكتب الضيِّق الذي تُطلُّ نوافذه المُتَسخة على شارع طافح بالمرح. يُسلِّيني التَّفكير في أنَّ صُنَّاعَ الوعي في العالَم هُم أخوي - المسرحيَّ الجامح وليام شكسبير، ومديرَ المدرسة جون ملتون، والصعلوكَ دانته أليغيري [...] وحتَّى يسوعَ المسيح نفسه، لو سُمح لي بأن أذكره، الذي كان شديد التَّواضع في هذا العالم إلى درجة أنَّ بعضهم يشكُّ في وجوده التَّاريخيِّ. أمَّا الآخرون جميعاً فسلالةٌ مختلفة - مستشار الدَّولة يوهان فولفانغ غوته، والسِّيناتور فكتور هوغو، ورأسا دولتيها لينين وموسوليني.

إنَّهم نحن الذين في الظِّلال، بين السُّعاة والحلَّاقين، الذين يُشكِّلون الإنسانيَّة.

يجلس الملوكُ بهيبتهم في هذي الزَّاوية، والأباطرة بمجدهم، والعباقرة بهالتهم، والقدِّيسون بهالاتهم، وقادة الشَّعب بقوَّتهم، والمومسات، والأنبياء، والأغنياء... وفي الزَّاوية الأخرى نجلسُ نحن – السَّاعي القادم من حول الزَّاوية، والمسرحيُّ الجامح وليام شكسبير، و لحلَّق الذي يقصُّ الحكايا، ومدير المدرسة جون ملتون، وصبيُّ الدُّكَان، والصَّعلوك دانته أليغيري، أولئك الذين نسيهم الموت أو كرَّسهم، اللين نسيتهم الحياة أو لم تكرِّسهمُ البَّة.

172

[?1929]

شعرَ جسدي اليومَ بأنَّ الكَرْب القديم الذي يتورَّمُ فيَّ أحياناً قد تغشَّاهُ، لا آكلُ كما ينبغي ولا أشرب قَدْرَ ما أشربُ في العادة، حين أكون في المطعم أو المحلِّ الذي يُقدِّم الطَّعام بأثهان زهيدة، الذي تمدُّني حجرته العلويَّة ببعض أساسيَّات استمرار وجودي. يستديرُ النَّادل نحوي حين أُغادر، وقد لاحظ أنَّ زجاجة النَّبيذ مازالت نصف مملوءة، ثُم يقول: «طابتْ ليلتُك، يا سيِّد سوارش. أمّنَى أن تكون غداً على خير ما يرام».

وكان الصَّوت العالى والواضح لتلك العبارة البسيطة يُريح روحي، كما لو أنَّ الرَّيح قد بعثرت فجأة الغيمَ الذي يحجبُ السَّماء. ثُمَّ أُدرك حينئذ شيئًا لم أُدركه، تمامَ الإدراك، مِن قَبْل البَّنَة: أنَّني أُكنُّ تعاطفًا عفويًا لا تكلُّف فيه لندلاء المقاهي والمطاعم هؤلاء، رفقة الحَلاقين والسُّعاة الواقفين عند الزَّاوية، ولا أستطيع القول صراحة إنَّني أشعر بهذا التَّعاطف تجاه أولئك الذين تربطني بهم علاقات أكثر حميميَّة، لو كانت «حميميَّة» هي الكلمة المناسبة... فالإخاءُ شيءٌ سَام، في غاية الشُّمُّو.

يحكمُ بعضُهم العُّالمَ، أما الآخرونَ فهُم العالم. لا فرقَ نوعياً بين مليونير أمريكيَّ، قيصر أو نابليون، أو لينين وزعيم القرية الاشتراكي، بل فرقٌ كَميُّ فحسب. ثُمَّ نأي بعدهم، نحن الذين أشكالُنا عَدَمٌ، والمسرحيُّ الجامح وليام شكسبير، ومدير المدرسة جون ملتون، والصَّعلوك دانته أليغيري، والصَّبيُّ الذي حمل إليَّ رسالةً بالأمس، والحلَّق الذي يقصُّ عليَّ القصص دائماً، والنَّادل الذي، لمجرَّد أنَّني لم أشرب إلَّا نصف زجاجة النَّبيذ فحسب، قلا منحني أملاً أخوياً بأنَّني سأكون غداً على خير ما يرام.

[91929]

كلّما ارتفعتْ طموحاتي تحت تأثير أحلامي فوق مستوى حياتي اليوميّ، أشعر بأنّني أُحلّقُ عالياً لبرهةٍ كطفل في أُرجوحةٍ، بَيْدَ أنّه في كلّ مرّة بتوجّب عليّ، كمثل ذلك الطّفل تماماً، أن أهبطَ إلى الحدائق البلديّة، فأُدرك هزيمتي بلا رايات مرفرفة أحملها إلى المعركة وبلا سيف تكون لديّ القُدرة على أن أُجرّده من غِمده.

ولسوف أحزر - كي أحكم من خلال الحركات الصّامتة لشفاههم والحيرة الغامضة في عيونهم أو الطّريقة التي يرفعون بها أصواتهم حين يصلُّون معاً - أنَّ معظم النَّاس، الذين أمرُّ بهم في الشَّوارع، كيفها اتَّفق، حاملون في دواخلهم الطُّموحات ذاتها لشنِّ حرب عبثيّة بجيش لا راية لَهُ. ولسوف يذوقون، كلُّهم، مِثلي - أستديرُ كي أتأمَّل ظهورهم المتلاشية - طعمَ هزيمة مُطلَقة ومذلَّة، بؤساء ومجهولين بين الوحل والبُوْص، بلا ضوء قمر يشعُ على الضَّفاف ولا شِعْر يُوجَدُ بين الأهوار.

لهم جميعاً قلوب حزينة ونشوانة، مثلي. أعرفهم حقَّ المعرفة على بكرة أبيهم: يعمل بعضهم في الحوانيت، ويعمل آخرون في المكاتب، ويمتلك بعضٌ مشاريع تجاريَّة صغيرة، وآخرون أبطالُ المقاهي والبارات، مَهيبون من غير قصد في نشوة أحاديثهم المتبجِّحة أو مُكتفُونَ بأن يظلُّوا صامتين على نحو مُتبجِّح، فلا شيءَ يقولونه على أيِّ حال. ولكنَّهم شعراء جميعاً، هؤلاء المساكين الذين يبدو أنَّهم يجرُّون أمام عينيَّ (مثلها لا بُدَّ أَنَّني أجرُّ أمام أعينهم) البؤسَ ذاته لتناقضنا المشترك. إنَّ مستقبلهم، مثل مستقبلي، قد باتَ في الماضي سلفاً.

في هذه اللَّحظة، وحيداً وكسلانَ في المكتب، بعد أن ذهب الجميع لتناول طعام الغداء، أمعن النَّظر عبر النَّافذة المُتَسخة في الكهل الذي يتهادى هَوْناً على الرَّصيف في الجانب الآخر من الطَّريق. ليس ثَمِلًا، بل حالمٌ فحسبُ. إنَّه متنبهٌ لما هُوَ غير موجود؛ ربَّيا مازالت لديه آمال. فلو كانت الآلهة عادلة في ظُلمها، لحفظت أحلامنا مها كانت مستحيلة، ومنحتنا أحلاماً طيِّة مها كانت مثيرة للشَّفقة. أستطيع اليوم، حين لم أطعن في العُمْر بَعْدُ، أن أحلم بجُزر بحر الجنوب وبلاد هند مستحيلة؛ ربَّيا غداً ستمنحني الآلهة ذاتها حُلمَ امتلاكِ متجر صغير لبيع التَّبغ، أو التَّقاعد بمنزل في الضَّواحي. فالأحلام كلَّها متشابهة، لأنَّها أحلام.

فَلْتُغيّر الآلهةُ أحلامي، ولكنْ ليس موهبتي في أن أحلم.

ولكنّني أنسى الكهل، وأنا أُفكّر في ذلك. لا أستطيع أن أراه في هذه الأثناء. أفتح النّافذة كي أطلّ عليه، ولكنّه قد توارى عن النّظر. لقد مضى. كان قد أدّى، بالنّسبة إليّ، وظيفة رمزٍ بصريّ؛ وما إن أدّاها حتّى انعطف عند الزّاوية. ولو أخبرني أحد أنّه قد انعطف عند زاوية المُطلّق وأنّه لم يكن هُناك قطّ، لقبلت ذلك بالإياءة ذاتها التي أغلق بها النّافذة الآن... ولكي تَصِل؟ ...

أنصافُ الآلهة المساكين الأغرار، الذين يستطيعون دحر الإمبراطوريًّات بالكلمان والنَّوايا الطَّيبة، ولكنَّهم مازالوا يحتاجون إلى المال كي يدفعوا أُجرة المسكن وثمن المأكل! إنَّهم مثل قُوَّاتِ جيشٍ مُنحَلِّ حلم قوَّادُها بالمجد الذي لم يبق منه لهؤلاء الجنود الضَّائعين في طمي الأهوار إلَّا فكرة العظَمة، ومعرفة أنَّهم كانوا جيشاً ذات مرَّة، وخواء عدم معرفة ما الذي فعله حقّاً القائد الذي لم يروه قطَّ.

وَهكذا يحلم كلَّ امرئ في بعض الأحيان بأنَّه قائد الجيش الذي فرَّت مؤخِّرتُه. وهكذا، يُحيِّي كلُّ امرئ، وسط الطَّمي على الضِّفاف، تحيَّة النَّصر الذي لن يستطيع أحدٌ الاستمناع به؛ النَّصر الذي لم يبقَ منه إلَّا الفتاتُ على مفرش الطَّاولة المُبقَّع الذي لا يكترثُ بأن ينفضَهُ أحدٌ.

إنَّهم يملؤون شقوق الحياة اليوميَّة مثلها يملأ الغبارُ شقوق الأثاث الذي لا يُنفَض عنه كها يجب. وينهضون كلَّ يوم، في ضوء النّهار العاديّ، ضدَّ خشب الماهوغانيّ الأحمر أو ضدًّ المُسمّع مثل ديدان رماديّة، تُستطيعُ أن تكشطهم بمسهار صغير، بَيْدَ أنْ لا أحدَ لديه الصَّبر كي يفعل ذلك.

كم أحسدُ رفاقي المساكين، أصحاب الأحلام السَّامية، ولكم أحتقرهم! أنا في صفَّ الآخرين، الأشدِّ مَسْكَنَةً، الذين لا يمتلكون إلَّا أنفسَهم كي يقصُّوا أحلامهم عليها، ويصنعوا من تلك الأحلام ما سوف يكون قصائدَ لو كتبوها؛ يا للمساكين الذين لا شيءً لديهم إلَّا الأدبُ الذي تكتبه الرُّوحُ [...] الذين يموتون وقد غَصُّوا بحقيقة الوجود المُجرِّدة، دونَ حتَّى أن يكابدوا ذلك الامتحان الغريب المُتسامِي الذي يؤهِّلُ المرءَ كي يعيش.

بعضُهم أبطالٌ بطحوا خمسة رجال دفعة واحدة في زاوية شارع الأمس. وبعضُهم مُغوِ لا تستطيع مقاومتهم حتَّى النِّساء اللَّواتي لم يُوجَدن بَعْدُ. يؤمنون بهذا الشَّيء حين يقولونَهُ، ويقولونَهُ جميعاً لاَنَّهم يؤمنون به. وآخرون أصحاب أحلام عاديَّة أصاخوا السَّمع فقبلوا ما سمعوه. وآخرون [...] لا يكتر ثون بالمنتصرين في هذا العالم، فهم مُجرَّد بشر مثلهم.

ولقد تشابك بعضُهم في بعض، كأسماكٍ ثعابينَ في طاس، حتَّى لا يهربوا البَّنَة. وقد يردُّ ذكرهم في الصُّحف من حين إلَّى آخر. فالصُّحف تتحدَّث عن الآخرين مراراً - ولكنَّ صيتَهم لن يطبق الآفاق البَّنَة.

إنَّهم سعداء لأنَّهم قد مُنِحوا [...] خُلم الحهاقة. أمَّا بالنِّسبة إلى أولئك الذين على شاكلتي، الذين يحلمون أحلاماً بلا أوهام [...]

174

[1929]

يبدأً كضجيج يُحدِثُ ضجيجاً آخرَ في الهاوية المظلمة للأشياء. ثُمَّ يغدو عويلاً غامضاً يصحبه بالتَّناوُب صريرُ لافتات حوانيت تتأرجح في الشَّارع، ثُمَّ الصَّوتُ المزمجر للفضاءِ يهوي في الصَّمت فجأةً. كلُّ شيء يرتعدُ، ثُمَّ يتوقَّف، فيعمُ هدوء في غمرة هذا الخوف كُلُه كخوفٍ صامت يرى خوفاً أخرس يمرُّ.

ثُمَّ لا شيءَ سوى الرِّيح، الرِّيح فحسب، فأرى وقد أخذتني سِنَةٌ من النَّوم كيف تشدُّ الأبواب على المفصلات وكيف يقاوم الزُّجاج في النَّوافذ وهُوَ يئنُّ.

لا أنامُ؛ فأنا نصفُ موجود. تطفو جذاذاتُ وعي إلى السَّطح. مُثقَلُ بالنَّوم ولكنَّ اللَّاوعي يَروغُ. لا أعرف شيئاً. الرِّيحُ... أستيقظُ ثمَّ أنجرفُ في النَّوم ثانية دون أن أكون قد نمتُ بَغدُ. ثمَّة منظر طبيعيٌّ من ضجيج رهيب عالي لا أعرف أبعدَ مِنهُ نَفْسي. أستمتعُ خائفاً باحتياليَّة النَّوم. ولكنَّني أنامُ في الحقيقة دون أن أعرف أنني نائم. وفي كل شيء أظنَّه النَّومَ يكون ثمَّة ضجيج آخر يُعلِن نهاية كلِّ شيء، الرِّيح في الظَّلام، وصوت رئتيَّ وقلبي، لو أصحتُ السَّمع أكثر.

[929]

يصعدُ في الشَّرقِ الضَّومُ الأشقرُ للقمرِ الذَّهبِ. كأنَّ الوميضَ المتلاَّليَّ فوقَ النَّهرِ العريضِ حيَّاتٍ على البحرِ،

176

[\$1929]

إصرار الحياة الغريزيُّ الذي يفوق طاقة أيِّ بصيرة شيءٌ يوفِّر مادَّةً لبعض أكثر تأمُّلاتِ مثابرةً وحميميَّةً. فلا يخدم القناعُ الباطل للوعي إلَّا لكي يؤكِّد لي وجودَ لاوعي بلا قناع. يعيش الإنسان، منذ الولادة حتَّى الموت، عبداً للمفهوم الخارجي ذاته عن النَّفْس كها تعيش الحيوانات. فهو لا يعيش حياتَهُ، وإنَّها ينمو نباتياً في مستوى أعلى وأعقد. يتبع معاير لا يعرف أنَّها موجودة ولا يعرف أنَّ نَفْسه تسير على هديها، فتغدو أفكاره ومشاعره وأفعاله كلها غير واعية - لا لأنَّها تفتقر إلى الوعي، وإنها لأنَّها لا تحوي وعيَيْن.

فقد تكون التَّلميحات العَرَضيَّة خدَّاعةٌ في حدٍّ ذواتها - وهذا، هذا وحدَّهُ، هُو ما يختبره البشر جميعاً.

أُلاحقُ بأفكاري الجُزافيَّة الحكاية العاديَّة للحيوات العاديَّة. أرى كيف أنَّ البشر عبيدٌ في كلِّ شيء لحالتهم المزاجيَّة غير الواعية وللظُّروف الخارجية وللدَّوافع التي تحثُّهم على أن يكونوا رفقة النَّاس أو وحيدين؛ الدَّوافع التي ترتطم في تلك الحالة المزاجيَّة وتتصادم معها كما لو كانت عدماً.

فكم مرَّة كنتُ قد سمعتهم يخرجون جميعاً من عِبارةٍ ترمز إلى عبث حيواتهم، وإلى عدميَّة تلك الحيوات وجهلها المُطبق. إنَّها العبارة التي يستخدمونها للحديث عن المُتعة الماديَّة: «إذا هبّت رياح المُتعة فاغتنمها». يغتنمها ويأخذها إلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟ سيكون حزيناً أن أو قظهم من الظّلال التي يسكنون فيها بطرح مثل تلك الأسئلة عليهم... فالماديُّ وحله من يستطيع التَّلفظ بمثل تلك العبارة، فلا بُدَّ لمن يتكلم على تلك الشَّاكلة أن يكون مادباً. ما الذي يتوقع أن ينتزعه من الحياة وكيف؟ وأين سيأخذ ريتش لحم الحنزير والنَّبيذ الأهر

وصاحبته المُغتنَمة في تلك اللَّحظة؟ أَإِلى جنَّةٍ لا يؤمن حتَّى بها؟ إِلَى أَيِّ أَرض غير هذي الأرض التي تفضي، لا عالة، إِلى التَّعفَّن البطيء الذي كان حياتَهُ دوماً؟ لا أعرف عبارة الخرى أكثر مأسويَّة وأوضح في الكشف عن الطبيعة البشريَّة. إنَّها ما سوف تقوله النَّباتات لو كانت واعية في الاستمتاع بالشَّمس، وإنَّها ما سوف تقوله عن رغباتها السَّائرة في نومها الحيواناتُ الأدنى منزلة من الإنسان في قُدرتها على التَّعبير عن أنْفُسها. ولكنْ من يعرفُ سوى أنَّني في هذه الأثناء؛ في أثناء كتابة هذه الكلمات، محملاً بالفكرة المخاتلة أنَّ الكلمات قد تظلُّ، لا أُفكِّرُ أيضاً في أنَّ ذكرى كتابتها هي ما «أنتزعهُ من الحياة». ومثل الجثمان العبثيّ للنَّش الذي كتبتُه وأنا المنطرُ قد أُنزلَ كي يُدفَن في الأرض المشاع، فإنَّ الجثمان العبثيّ للنَّش الذي كتبتُه وأنا انتظرُ قد أُنزلَ كي يُدفَن في النَّسيان المَشاع. فأيُّ حقِّ لديَّ كي أسخر من ريَش لحم الخنزير التي تخصُّ شخصاً آخر ومن نبيذه الأحرَ وصاحبته؟

أيُّها الأخوة في جهلنا، الأوعية المختلفة للدَّم ذاته، والأشكال المختلفة للميراث ذاته – مَن مِنَّا يُنكِرُ الآخَر؟ أنكروا زوجاتكم لا أمَّهاتكم، أو آباءكم، أو إخوانكم.

177

[91929]

... كبؤس المقاصد التي نعيش من أجلها، المقاصد التي لا نختارها.

يعيش معظم البشر، إنْ لم يكُن كلَّهم أجمعون، حياة بائسة، حتَّى أفراحهم بائسة، كمعظم أحزانهم، إلَّا أحزان الموت، فالسَّرُّ يُقلِّبها بين أصابعهِ كيفها يشاءً.

تأي من الخارج أصواتٌ متقطَّعة، مُنخَّلة عبر غفلتي، سيَّالة ومتناثرة كأمواج متواشجة، كأنها قادمة من عالم آخر؛ صيحات الباعة الجوَّالين الذين يبيعون أشياء طبيعيَّة كالملفوف أو أشياء اجتهاعيَّة كتذاكر اليانصيب؛ دمدمة العجَلات -عربات بدواليب وأُخرى تجرُّها الخيول؛ سيَّارات تُسمَع حين تقتربُ أكثر عمَّا حين تمرُّ؛ نَفْضُ شيء كسجَّادة خارج نافذة؛ صبيًّ يصفر؛ ضحك عال من الطَّوابق العلويَّة؛ الصَّرير المعدنيُّ للترام في الشارع المجاور؛ بلبلةُ أصوات تنبعث من مفارق الطَّرق؛ طائفة من أصوات عالية وأصوات ناعمة وصمت (عمد)

⁽¹⁶²⁾ وردت كلمة الصَّمت، هُنا، بصيغة الجمع. (المترجم)

دويٌّ زحمة السَّير المُتلجلج؛ بضع خطوات؛ بدايات الأصوات ومُنتصفاتها ونهاياتها- وكلُّ هذا موجود من أجلي، حين أَنامُهُ-مُفكِّراً فيه، كحجر مخبوء بين العشب، يُمعن النَّظر من مخبئه، بطريقة أو أخرى.

ثُمَّ بِأْتِ عبر الجدران طوفانٌ من أصوات تختلطُ مع الأخرى: خطوات، قرقعة آنية فخّارية، مِقشَّة تكنس، نُتفةُ أغنية (لعلَّها أغنيةُ فَاذُوْ ؟ (قان)؛ مُواعدةٌ غراميَّة مسائيَّة تحت الشُّرفة؛ صرخة غضب حين يُفقَد شيء من طاولة الطَّعام؛ وشخص يسأل أن تُحضَر له السكائر التي نسيها على منضدة الزِّينة - هذي هي الحقيقة الواقعيَّة، الحقيقة المُجفِرة (164) التي تُخفق في النَّفاذ إلى مُخيَّلتي.

الخطواتُ الخفيفة للخادمة الشَّابَة الجديدة، وخُفَّاها اللَّذان أَتَخيَّلهما مُزيَّنَيْن بشريطَيْن قرمزيَّيْن وأسودَيْن، وخطوات الجزمة الثَّابتة الواثقة التي يرتديها ابن أصحاب المنزل، وهو يهمُّ بالحروج قائلاً: «إلى اللِّقاء» بصوت عالى، وخبطة الباب تقطع صدى «إلى» التي تعقبُ «اللِّقاء» (105)؛ هدوء، كأنَّ العالَم قد انتهى في الحجرة الواقعة في الطَّابق الرَّابع هذا؛ صوت الأَطباق تُوضَع في المغسلة؛ ماءٌ يجري؛ «لقد أخبرتُك من قَبُل...» ومن النَّهر يتعالى صفيرُ الصَّمت.

ثُمَّ تأخذني سِنَةٌ من النَّوم، مُستوعباً ومُتخيِّلاً، بين الأحاسيس المُواكِبة. ومن المدهش التَّفكير في أنَّني -لو سُئِلتُ الآن- لن أرغب في المزيد لحياتي القصيرة أكثر من هذه اللَّحظات المديدة، وغيابِ التَّفكير والعاطفة والفعل وحتَّى الإحساس، هذا، وهذا المَغيبِ الجُوَّالِةِ للرَّغبة المتغيِّرة. ثُمَّ أُفكر حينتذ، دون إعمال نظر أو أكادُ، أنَّ كلَّ البشر، إنْ لم يكونوا جميعاً، بصورة أو أخرى، يعيشون على هذا النَّحو، سواءً ظلُّوا في أماكنهم لم يبرحوها أو مضوا قُدُماً،

⁽¹⁶³⁾ الفَاذُوْ fado (والكلمة تعني حرفيًا: القَدَر /النَّصيب): موسيقى «شَجَن» برتغاليَّة ظهرت في مطلع القرن التاسع عشر في لشبونة، وثمَّة من يقول إنَّها «مزيج من الألحان الإفريقيَّة والبرتغالية وتأثيرات عربيَّة». هي مرتبطة، ارتباطاً وثبغاً، بالد «Saudade»: «حالة شعوريَّة من الأثم والمرارة والكآبة يصعب وصفها تنتاب المرء جرَّاء الحنين/التَّوق إلى شيَّا شخص قد لا يلتقيه المرء في حياته ثانية البتَّة». (المترجم)

⁽¹⁶⁴⁾ اللَّجفِر anaphrodisiac (وفي البرتغاليَّة: anaphrodisiaca): كل ما يفطع المرءعن الجماع أو يُقلُل الباه. (الترجم) (164) أي بين اله «bye» واله «good» في كلمة «goodbye»، كما في الصنعة الإنگليزيَّة، هذه. ولهذا، فقد استخدت عبارة «إلى اللَّقاء» (وليس «وداعاً»، على سبيل المثال) مقابلاً لـ goodbye (أو despede في البرتغاليَّة) من أجل تحفيق هذه الغاية في الفصل بين جرّئيٌ العبارة. (المترجم)

شاعرينَ بالخمول الوسنان ذاته حين يتعلّق الأمر بالمقاصد النّهائيّة، وباللّامبالاة ذاتها تجاه المخطَّطات المستقبليّة، وبالوهن ذاته تجاه الحياة. فكلَّما رأيتُ قطَّة في الشَّمس، فإنَّها تذكّرني بشر يستلقي في الشَّمس. وكلَّما رأيتُ أحداً ينام، فإنَّهُ يذكّرني بأنَّ كلَّ شيء ينام. وكلَّما أخبرني أحدهم أنَّه قد رأى مُحلماً، فإنَّني أتعجّب إنْ كان مُدركاً أنَّه لم يفعل شيئاً آخر البتَّة سوى أن يحلم. يتعالى الضَّجيج القادم من الشَّارع، كأنَّ باباً قد فُتح، فرنَّ الجرس.

لم يكُن شيئًا، لأنَّ الباب قد أُغلق على الفور ثانيةً. توقَّفت الخطى في نهاية المرِّ. والأطباق المغسولة قد رفعتْ أصواتها المائيَّة، الفخَّاريَّة. فهل ارتجفَ الهواءُ؟ تمرُّ شاحنة، فيهتزُّ المنزل كُلُّه، ويها أنَّ كلَّ شيء لا بُدَّ أن ينتهي، أنهضُ من تفكيري.

178

[?1929]

يعيش معظم البشر -بداهةً - حياةً خياليَّة وغريبة. ولقد كان أوسكار وايلد على حقِّ عاماً، حين قال إنَّ معظم النَّاس ناسٌ آخرون (١٥٥). فبعضهم يقضي حياته باحثاً عن شيء لا يريده؛ في حين يَجِدُّ بعضٌ في البحث عن شيء يريدونه، ولكنَّ سعيهم يذهب هباءً منثوراً؛ بيَّدَ أنَّ آخرين مازالوا يفقدون أنفسَهم [...]

ولكنَّ معظم البشر سعداء ويستمتعون بالحياة على أيِّ حال. يبكي البشر قليلاً، في العموم، وحين يتذهَّرون، فإنَّهم يصنعون أدباً من شكواهم، ذلك أنَّ التشَّاؤم ليس صالحاً في الحقيقة كصيغة ديمقراطيَّة. أولئك الذين يتفجَّعون من شرور العالم قلَّة منعزلة - إنَّهم لا يتفجَّعون إلَّا من شرور أنفسهم. فلو لم يحظَ شخص على شاكلة ليوپاردي أو أنتيرو دي كوينتال بمحبوبة أو معشوقة، لكان الكون مكاناً رهيباً ". ولو شعر فيني بأنَّه غير محبوب وغير مرغوب فيه، لكان العالم سجناً. ولو تاق شاتوبريان إلى المستحيل، لكانت الحياة الأدميَّة مُضجرة. ولو غطَّت القُروح أيُّوبَ، لغطَّت القُروح الأرض كلَّها. ولو دُستَ ثاليلَ

⁽¹⁶⁶⁾ إشارة إلى قول أوسكار وايلد في رسالته الشَّهبرة، «من الأعماق De Profundis»، الني كتبها في سجنه إلى اللورد الفريد دوغلاس: «معظم النَّاس ناسٌ اخرون. أفكارهم آراء أشخاص آخرين، وحوالهم محاكاة، وعواطعهم مجرُّد اقتباس», (المترجم)

قدمَي شخص حزين (١٥٦)، فالويلُ، إذن، لأقدام الشَّمس والنُّجوم.

ولكنَّ البشريَّة تواصل هضم الطَّعام ومطارحة الغرام، غير مكترثة بهذا كلَّه، فلا تبنِ إلَّا على ما ينبغي البكاء عليه، وبأقصر وقت ممكن؛ مثل بكاء المرء على موت ابنه الذي سرعان ما ينساه على مرِّ السِّنين، إلَّا في عيد ميلاده؛ وبكاء المرء على خسارة المال الذي يظل يبكي عليه حتَّى يحصل على المزيد أو يتعوَّد خسارتَه. الحياة تتعافى وتستمر في الحياة. الموتى مدفونون. والخسارات منسيَّة.

179

[929]

لا بُدَّ لأيِّ جهد نبذله، بصرف النَّظر عن الهدف الذي يلوح في الأفق، أن يتكيّف مع التَّغيُّرات التي تفرضها عليه الحياة؛ إنه يغدو حينئذ نوعاً آخر من الجهد، بأهداف مختلفة، وقد يُحقِّق بالضَّبطِ عكسَ ما بُذِلَ لتحقيقه في الأصل. وحده الهدف التَّافه يستحقُّ السَّعي إلى تحقيقه، فالهدف التَّافه هو الوحيد الذي لديه الفرصة ليتحقق. لو بذلت جهودي كُلَّه في سبيل الحصول على ثروة، فسوف أُحقق ذلك إلى حدِّ ما، فمثل تلك الأهداف الكميَّة في سبيل الحصول على ثروة، فسوف أُحقق ذلك إلى حدِّ ما، فمثل تلك الأهداف الكميَّة التَّافهة، سواء أكانت شخصيَّة أم غير ذلك، هي في متناول اليد ويمكن تحقيقها. ولكن كيف سأشرع في تحقيق مسعاي في خدمة بلادي أو إثراء الثَّقافة الإنسانيَّة، أو المساهمة في تقدِّم البشريَّة برمَّتها؟ لن أستطيع أبداً التَّأَكُّدَ من أنَّ ما أفعله صحيحٌ، ولا أنَّ هدفي قد تحقَّق؛ [...]

⁽¹⁶⁷⁾ آثرت، هُنا، الإبقاء على المعنى الحرفي للعبارة، ولم أستخدم المعنى المجازي لها، للعلاقة الخاصة التي ينسجها يدوًا بين القدمي الشخص الحزين وأقدام الشمس و لنجوم: فكأنّ المرء حين يدوس تآليل قدمي الشخص الحزين فإنه في الواقع يدوس أقدام الشمس والنجوم. فالعبارة عند يسوًا، في الأصل ((Pisam os callos do triste)) (وي صنعة جول كوستا الإنكليزيّة، هده: If you tread on a sad man's corns) وهي عبارة لا تستخدم عادة بمعاها الحرفي الظاهريّ، وإنما هي كناية عن جرح مشاعر المرء بالضّرب على وتر حسّاس أو التّعدي على خصوصيته أو امنياذات فكأن المرء حين يجرح مشاعر شخص حزين، فإنه في الواقع - بحسب يِسُوًا - يجرح مشاعر الشّمس والنجوم (المترجم)

[9292]

ثُمَّ هَا هُمُ الأصدقاء، الفِتيَةُ العظامُ الذين يسرُّنِ الحديث إليهم، وتناول الغداء معهم وتناول الغداء معهم وتناول العشاء، ولكنَّهم مُنحطُّون، بطريقة أو أخرى، وأنذالٌ ومثيرون للشَّفقة، ومازالوا مغلولين إلى مكاتبهم حتَّى حين يخرجون إلى الشَّارع، ومازالت أنوفهم محشورة في سجلَّات الحسابات حتَّى حين يشرعون في مغامرة خارجَ البلاد، ومازال رؤساؤهم في العمل واقفين فوق رؤوسهم حتَّى في المُطلَق.

مفتوحاً كلُّ شيء ومُزداناً بالزِّينة، ينتظرُ الملك الذي سوف يأتي؛ الذي على وشك الوصول، فالغبارُ المُسَّاقط من حاشية ثوبه تُشكِّلُ سديهاً جديداً في الشَّرق الذي يُشرق على مهله، وفي المسافة الرِّماحُ التي تُنير فجرَها السَّاطع.

181

[\$1929]

التَّفاهات الطَّبيعيَّة للحياة، تفاهاتُ العاديِّ والمُبتذَل، ترتمي كطبقة غبار، راسمة خطاً غائهاً وغريباً أسفل بؤس وجودي الإنسانيِّ وسفالته.

⁽¹⁶⁸⁾ ونعة، هُنا، دليل آخر على «تعدُّد» قراءات شذرات «كتاب القلق» و «احتلاف» ترتيبها، حتى في الطبعات البرتغالية الرئيسة نفسها؛ فهذا المقطع (الذي كُتبَتْ شذراته بقلم رصاص، على وجهي صفحة واحدة طُويَتْ من المنتصف، إلَّا التغيِّن ضُربتا بالحبر الأسود على الآلة الكاتبة) يطهر في طبعة برادو كويلو كمقطع واحد (124، المجلّد الأول، 129 الثنيِّن ضُربتا بالحبر الأسود على الآلة الكاتبة) يطهر في طبعة برادو كويلو كمقطع واحد (124، المجلّد الأول، 139 المجلّد الأول، 130)، ولكنه ظهر كمقطعين، سواء في طبعة سوبراو كونيا (172 و173) 131–138) أو في طبعة زينيث (139 -137) و130 وتقابعها و130 -138 الله الله المحلّم والله وتقابعها المقاطع (180 -137) في صنعة جول كوستا الإنگليزيّة، هذه، التي تُترجم عنها، والتي استندت في الأساس إلى طبعة بيسارُو. وسبب «الاختلاف» في «التَّرتب» عائدٌ، من وحهة نظري، إلى «العشوائيّة» لتي انتهجها بِسُوّا في كتابة هذه الشَّدرات، فهي متناثرة، بعضها لصق بعض، في أرجاء الصّفحة كافة و في جميع الانجاهات! كانّه كان يسعى، في قرارة كنبها الشَّدرات، فهي متناثرة، بعضها لصق بعض، في أرجاء الصّفحة كافة و في جميع الانجاهات! كانّه كان يسعى، في قرارة كنبها فسمه، إلى «الكتاب المتاهة» الذي كان يحم به حور حي لوبس بور خيس! و تحتري الصّفحة أيضاً على عبارة كنبها فسمه، إلى «الكتاب المتاهة» الذي كان يحم به حور حي لوبس بور خيس! وتحتري الصّفحة أيضاً على عبارة كنبها أعلى بحدث / Alvaro de Campos. / Ode á Realidade das Coisas. (?) / A realidade anaphrodisiaca حين يحدث / نهاية الكتاب (2010: 757). (المترجم)

يرتمي سجل الحسابات مفتوحاً أمام عينيَّ اللَّتَيْن حياتُهما تحلم بكلِّ عوالم الشَّرق؛ نُكتة مدير المكتب غير المُسيئة التي تُسيء إلى الكون كلِّه؛ رئيس العمل وقد أخبروه أنَّ صاحبته الأنسة فُلانه الفُلانيَّة على الهاتف، في غمرة تأمُّلي في الجزء اللَّاجنسيِّ من نظريَّة جَماليَّة ومعرفيَّة محضة على حدَّ سواء.

ولكنَّ الحالمين كلَّهم، حتَّى لولم يحلموا أحلامهم في مكتب يقع في البَايْشَا (وسط البلد)، أو أمام كشف الميزانيَّة العمو ميَّة لشركة نسيج، فإنَّ لدى واحد منهم سجلَّ حسابات مفتوحاً أمام ناظريه بصرف النَّظر علَّا يحتويه؛ سواء أكان المرأة التي تزوَّجها أم التَّخطيط لمستقبل ورثه، بصرف النَّظر علَّا يكون ذلك المستقبل مادام واضحاً لديه.

لكلِّ امرئ رئيسٌ عملِ فقدتْ روحُه الاتِّصال بالكون، ولديه دائهاً نُكتة غير مناسبة. لكلِّ امرئ رئيسٌ وصاحبة رئيسٍ ومكالمة هاتفيَّة تَرِدُ دائهاً في لحظة غير مناسبة على شفير المساء الرَّائع الذي يهبط فتتجلَّى العشيقاتُ عشيقاتٍ يتكلَّمن في هاتف تلك الصَّاحبة قائلاتٍ إنَّهنَّ في حفلة شاي باذخة مثل جميع السيِّدات الأُخريات.

وما نحن جميعاً -نحن الذين نحلم ونفكِّر- إلَّا مساعدو محاسبين في شركة نسيج، أو نتاجر ببعض بضائع أُخرى في بَايْشَا أُخرى. نُجرى الحسابات فنخسر؛ نجمع الأرقام ونُرحِّلها؛ نُغلق الحساب فيكون الرَّصيد المحجوب ليس في صالحنا البَّة.

ولكنّني أبتسمُ، على الرَّغم من ذلك، وأنا أخطُّ هذه الكلمات، في حين أنَّ قلبي يشعر بأنَّه سوف ينفطر، سوف ينكسر كما تنكسر الأشياء، إلى شظايا، إلى كِسَر، وإلى نُفاية كثيرة سوف تُلقَى في سلَّة المهملات، وتُحمَل فوق الكتفَيْن إلى عربة القهامة الأبديَّة التي تطوف على جميع المجالس البلديَّة.

[91929]

أُحدِّقُ من غرفتي بالطَّابق الرَّابع في المُطلَق، في الحميميَّة الظَّاهريَّة للمساء الذي عبط، عندَ نافذي المفتوحة على بداية النُّجوم، تشرع أحلامي -بتوافُق إيفاعيِّ مع المسافة الممتدَّة أمامي- في رحلات إلى بلاد مجهولة أو مُتخيَّلة أو مستحيلة، ليس إلَّا.

183

[بعد 31 مايو 1929]

جنازة

تصطَّف أجسامٌ هيراطيقيَّة (170) تعودُ لهرميَّاتٍ مجهولة في انتظارك في المرَّات سعاةٌ ذوو وجوه نضرة وشعور شقراء، وفتيانٌ في [...] تناثرُ أنصالٍ لامعة وخُوذٌ وحليٌّ باذخة، وبريقٌ داكن لذهب باهت وحريرٌ أَكمَدُ.

فكلُّ ما تلوِّثه المخيِّلة يُضفي على جميع المراسم مهابةً جنائزيَّةً تُثقِل كواهلنا حتَّى في النَّصر، وباطنيَّةُ الخواء، وتقشُّف الزُّهد المُطلَق.

وينبع نهر الغانج، أيضًا، من «خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ»(١٦١). وتوجّد جميع العصور في هذه الغرفة الضيّقة – الخليط

> تحوُّلات آداب السُّلوك اللَّبر قَشة، المسافات بين البشر المختلفين،

> > وطائفة الشُّعوب المتنوِّعة.

(171) Rua dos Douradores (وتعني حرفياً: شارع الصَّاغة): شارع في وسط لشونة. (المترحم)

⁽¹⁶⁹⁾ تتصدّر عبارة «A Viagem na Cabeça» (- رحبةً في العقل) هذه الشَّذرة، في الأصل. وقد أوردتها الطبعات البرتغاليَّة المختلفة عنواناً لهذا المقطع. أنظر الحاشية السَّابقة لمزيد من التَّفصيل. (المترجم)

⁽¹⁷⁰⁾ Hieratic (وفي البرتغاليّة: hieraticas): مشتقّة من الكلمة اليونائيّة «عراماتا هيراتيكا Hieratic (وفي البرتغاليّة: (المترجم) (وتعني: الكتابات الكهنوئيّة) وهي نوع من الكتابة المصريّة القديمة المبسّطة للرموز الهبروعليفيّة. (المترجم)

وهُنَاك، مُنتشياً، في شارع وحيدٍ، أنتظرُ الموتّ بين الشّيوف وشُرفات البُروجِ المُشيّدة.

وليست سِتَّ الأقدام من الأرض الباردة التي تُغمَضُ على العينَيْن المُغمضتَيُّن تحتَ الشَّمس الحارقة قُربَ العشب الأخضر، وإنها الموتُ الذي يمضي أبعدَ من حياتنا؛ الموتُ الذي هُوَ نَفْسه حياةٌ - حضورٌ ميِّتُ في شخصٍ، إلهٌ مجهول قد تذكره الآلهة.

184

[\$1929]

نهضتُ من مقعدي بَعْدَ جهدٍ جهيد لأجدَ كأنّني مازلتُ أهمله معي أنَّى ذهبتُ، إلّا أنَّهُ الآن أثقل، فقد غدا مقعدَ ذاتيّتي.

185

[91929]

عقلى الواعي طافح بنعاس لا أستطيع تفسيره ولكنّه يهجم عليّ مرّات ومرّات، لو جاز لي القول إنّ شيئاً غامضاً، شديد الغموض، يمكن أن يهجم عيّ. أمشي في أحد الشّوارع كما لو كنتُ في الحقيقة جالساً في أريكة وعقلي اليقظ، المتحفّز لكلّ شيء، مازال طافحاً بكسل جسد يرقد. سأعجز عن تجنّب عابر سبيل يقترب. سأكون غير قادر على الرّد بالكلمات، أو عاجزاً حتّى عن صياغة جواب في وأسي على سؤال طرحه عابر سبيل عابر يستغلُّ فرصة وجودي الفجائيّ في الشّارع. سأكون عاجزاً عن إخفاء أيّ رغبة، أو أمل، أو أيّ شيء يمكن أن يُفسّر على أنّه حركة ليست بالضّر ورة نابعة من إرادة كينونتي كلّها، وإنّها، لو جازلي القول، من الإرادة الجزئيّة والفرديّة لكلً عنصر من العناصر التي يمكن أن أتكوَّن منها. سأكون غير قادر على التّفكير، والشّعور، والرَّغبة. ولكنّني مازلت أسير، وأتحرَّك، وأنجرف. ولا شيء في حركاتي (أعلم هذا لعدم وجود شخص آخر يبدو أنّه يلاحظ) يخون حالتي الجامدة. وهذا الافتقارُ إلى الحيويّة، الذي يمكن أن يكون مريحاً وحتَّى سَوِياً لدى شخص يستلقي أو يرقد، شيءٌ مزعج في حدد ذاته، وحتَّى مؤلم لدى رجل يمشي في الشّارع.

كَأَنَّ الْكَسَل قد أَثْمَلني، كَأَنَّهُ قَصْفُ سُكْرٍ طَافِح بِالْكَآبِة، في حدِّ ذاته، وفي العلَّة التي جرَّتني إليه. إنَّه مرضٌ لا أمل في شفائه. إنَّه موتٌ بَشوشُ.

186

[\$1929]

وحين أرفع رأسي التَّقيل في بعض الأحيان عن السِّجلَّات التي لا أكفُّ فيها عن تقصِّي حسابات الآخرين وتغييب حياتي الخاصَّة، أشعر بغثيان يسري في جسدي. قد يكون ناجماً عن الجلوس منحنياً، شديد الانحناء، فوق السِّجلَّات، ولكنَّ الأمر يتعدَّى مسألة الأرقام وخيبة الأمل فحسب. تصيبني الحياة بالغثيان كجرعة دواء فاسد. ثُمَّ أرى، حينئذ، بوضوح الرؤية الهائل، كم من السَّهل انتزاعَ نَفْسي من السَّام لو امتلكتُ قوَّة الرَّغبة لفعل ذلك حقاً.

نعيشُ بالأفعال، أقصدُ بالإرادة. أمّّا أولئك الذين لا يعرفون كيف يرغبون -سواء أكانوا عباقرة أم شحّاذين - هم أخوتنا في العُنّة المشتركة. فها جدوى أن أعدَّ نَفْسي عبقرياً حين لا أكون في الحقيقة إلّا مجرّد محاسب مساعد؟ حين عرّف سيزاريو فيرد نَفْسه للطّبيب بأنّهُ فيرد الشّاعر، وليس السيّد فيردي الكاتب التّجاري، فقد كان يستخدم إحدى تلك العبارات التي تُعبّر عن الكبرياء العقيم الذي يغرق في الغرور. ولكنَّ المسكين لم يكن قَطُّ سوى السيّد فيرد، الكاتب التّجاري، فشعره لم يُقدّر حقَّ قدره سوى السيّد فيرد، الكاتب التّجاريّ. الشّاعر لم يُولَد إلّا بعد وفاته، فشعره لم يُقدّر حقَّ قدره إلّا بعد موته فحسب (١٣٥).

الأفعال هي البصيرة الحَقَّة. سأكونُ ما أريدُ. ولكنْ يتوجَّب عليَّ أنْ أُريد أيَّ شيء أوَّلاً. فالنَّجاح يعني أن تكون ناجحاً، وليس أن تكون لديك إمكانيَّة النَّجاح فحسب. فثمَّة إمكانيَّة أن تغدو أيُّ أرض كبيرة قصراً، ولكنْ أين القصر إنْ لم يبنه أحدُّ هُنَاك؟

⁽¹⁷²⁾ لم يحطّ سيزاريو فيرد (على شاكلة يِسُوًا نفسه!) بالشَّهرة إلا بعد وفاته، فهو لم ينشر في حياته القصيرة (31 عاماً) سوى نحو أربعين قصدة في الصَّحف والدَّوريَّات الأدبيَّة المختلفة، وبعد وفاته جمع صديقه النَّاقد أنطونيو ذَا سيلقا ينتو أشعاره في ديوان أسماه «كتاب سيزاريو فيرد D Livro De Cesário Verde» في العام 1887، ونشره على نفقته الحاصّة. فهل استوحى پشوًا عنوان كتابه، «كتاب القلق»، من هذا العنوان، والاسيَّما أنَّه لا يكفُّ، هو وأنداده «ألبيرتو كآيرو، وبرناردو سوارش، وألفَر دُو كاميوش» عن ذكر فيرد البَّة ؟! (المترحم)

يرجمُ العميانُ كبريائي والمُتسوِّلُونَ يدوسونَ خِذلاني.

أمَّا الذين لا يجرؤون على قول أيَّ شيء لمحبوباتهم، فإنَّهم يقولون في القصائد التي لا يرسلونها البتَّة: «لا أُريدُ إلَّاكِ حتَّى أستطيع أن أحلم بكِ». وهذا البيت «لا أُريدُ إلَّاكِ حتَّى أستطيع أن أحلم بكِ». وهذا البيت «لا أُريدُ إلَّاكِ حتَّى أستطيع أن أحلم بكِ» مُستلُّ من إحدى قصائدي القديمة. أُدوِّن هذه الذِّكرى بابتسامةٍ، ولا أُعلَق على الابتسامة حتَّى.

(173) 187

[ربيع 1929؟]

تقابلني على المنضدة المائلة صفحتان كبيرتان من دفتر الحسابات الثَّقيل؛ أرفعُ بصري بعينَيْن مُتعبتَيْن، ولكنَّ روحي أكثر تعباً من عينيَّ. ووراءَ هذا العَدَم الذي يُمثِّله هذا يقعُ المستودع الكائن في «خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ»، بصفوف رفوفه العاديَّة وموظَّفيه العاديِّن، ونظامه البشريِّ وسكينة المُبتَذل وهدوئه. تأتي عبر النَّافذة أصوات مختلفة، وتلك الأصوات المختلفة مُبتذلةٌ ابتذالَ سكينة الرُّفوف وهدوئها.

أنظرُ بعينيْن جديدتيْن إلى الصَّفحتيْن البيضاوَيْن، حيث تُسجِّلُ أرقامي الدَّقيقة نتائجَ أعهال الشَّركة، فأبتسم في نَفْسي حين أُفكِّر بأنَّ الحياة التي تتضمَّن هاتَيْن الصَّفحتَيْن المحتويتيْن أسهاءَ أقمشة ومبالغ إجماليَّة مختلفة، ومساحات فارغة، وأحرفاً، وأسطراً مُسطَّرة، تحوي أيضاً أسهاء الملَّاحين العظهاء، والقدِّيسين العظام، والشُّعراء من كلِّ عصر، الذين لا تظهر أسهاؤهم في هذا الكتاب، ذُريَّة هائلة بأكملها أُقصِيَتُ من لدن أولئك الذين يُعرِّفون مَا هُوَ القَيِّمُ في هذا الكتاب، ذُريَّة هائلة بأكملها أُقصِيَتُ من لدن أولئك الذين يُعرِّفون مَا هُوَ القَيِّمُ في هذا العالمَ.

⁽¹⁷³⁾ بشر يِسُوَّا هذا النَّص، موقَّعا باسمه الصَّريح، في لعدد الرَّابع من محلَّة Revista A في العام 1929، بعنوان: (مقطع آخر Outro Trecho من «كتاب القلق» تأليف برناردو سوارش، المحاسب المساعد بمدينة لشبونة)، وفي الصفحة داتها (الصَّفحة لثَّانية والأربعين) التي ضمَّت قصيدة «طَفق» للشَّاعر البرتغاني كارلوش كيروش Queirós Carlos، وكان يسُوًّا قد خطَّ هذا النَّص، في الأصل، عنى ظهر بيان صحفيٌ بعنوان «حول بيان طُلَّري Sobre um Manifesto de يشبونة سنة 1923. (المترجم)

وفي حين أكتبُ اسم القياش الذي لا أعرفه، تنفتحُ أبواب السّند وسمر قند أمامي، ثُمَّ ينجلًى شِعرُ بلاد فارس (الذي لا ينتمي إلى أيَّ من المكانَيْن) برباعيَّاته التي تختلف قافية بيتها الثَّالث (١٠٠٠)، فيكون بمثابة عزاء بعيد يواسي قلقي. ولكنَّني لا أغلط بتاتاً، على الرَّغم من ذلك، فأُدوِّنُ، وأجع، وتُواصِل الحسابات حياتها محفوظةً ومحمولة، كها هي العادة دوماً، من طرف موظف يعمل في هذا المكتب.

188

[\$1929]

اليوم، في أثناء نوبة من نوبات أحلام اليقظة التي مازالت تُشكِّلُ، على الرَّغم من افتقارها لأيِّ مَرامٍ أو كرامة، الجزء الأكبرَ من الجوهر الرُّوحيَّ لحياتِ، تخيَّلتُ نَفْسي وقد تحرَّرتْ إلى الأبد من «خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ»، ومن فاسْكِش، ربِّ عملي، ومن مُوْرِيرا، المحاسب، ومن جميع الموظفين الآخرين، صبيِّ المهيَّات، وساعي البريد، وحتَّى القطَّة. ففي الأحلام، تلك الحريَّة التي تُشعرني كأنَّ البحار الجنوبيَّة قد وهبتني هديَّة من جُزرِ خلَّابة لم تُكتشف بَعْدُ. فالحريَّة تعني راحة كينونتي، وإنجازها الفنيَّ، وتحقُّقها الفكري.

ثُمَّ فجأةً، حتَّى وأنا في غمرة التَّخيُّل (في أثناء الفُرصة القصيرة التي أتاحتها استراحة الغداء في المقهى)، يتسرَّب إلى الحلم شعور من الاستياء: فيجتاحني الحزن. نعم، أقول ذلك بكلِّ جدِّيَّةٍ: يجتاحني الحزن. وذلك لأنَّ فاسْكِش، ربَّ عملي، وموريرا المحاسب، وبُورجيش، أمين الصَّندوق، وجميع الصِّبية، الصَّبيَ المرح الذي ينقل الرَّسائل إلى مكتب البريد، وصبيًّ المهيَّات، والقطَّة الودودة، سوف يغدون جميعاً بلا استثناء جزءاً من حياتي. لن أترك كلَّ ذلك ورائي دون أن أبكي، دون أن أدرك، مها كانت الفكرة مزعجة، أنَّ ذلك الجزء سوف يظلُّ معي، وأنَّ فقدَهم سوف يكون أقربَ للموت.

ثُمَّ لو تركتهم غداً جميعاً وخلعتُ عنِّي بذلةَ «خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ»، فها عساي أن أفعل؟ لا بُدَّ أن أفعل شيئاً. وأيَّ بذلة سوف أرتدي؟ فلا بُدَّ أن أرتدي بذلةً.

يُوجَد السيِّد ڤاسْكِش لدينا جميعاً، وقد يكون في بعض الأحيان كائناً آدمياً حقيقياً، ولا

(174) يُعرف هذا النّوع من الرُّباعيّات (أو الدُّوبيس) بالخَصيُّ أو الأعرج تمييزاً له عن الرُّباعيُّ الكامل. (المترجم)

يكون كذلك في أحايين أخرى. إنّه يُدعَى قاسْكِش، حَقاً، بالنّسبة إلى، وهو رجل لطيف ويتمتّع بصحّة جيّدة، فظ في بعض الأحيان، ولكنّه ليس أَفّاك على الإطلاق. إنّه أنانيُّ ولكنّه عادلٌ بطبعه، أعدل من أكثريَّة العباقرة العظهاء وأكثريَّة فَلْتَاتِ الزَّمان الذين جادت بهم الحضارة ذات اليمين وذات الشّهال على حدِّ سواء. يأخذ قاشكِش، لدى الكثيرين، شكل الغرور، والرَّغبة في ثروة أعظم، والتَّوق إلى المجد أو الخلود... ولكنّني أفضًل، شخصياً، أن يكون قاسْكِش ربَّ عملي في حياتي الواقعيّة، فمن السّهل التّعامُل معه في أوقات الشّدَة أكثر من أيّ رئيس مُبهم يتوجِّب أن يجود به العالم.

وبالأمس، قال في صديق؛ أحد الشَّركاء في شركة مزدهرة تُدير أعمالاً في أنحاء البلاد كافَّة، وهو يَعُدُّ راتبي قليلاً إلى حدُّ بعيد: "إنَّهم يستغلُّونك، يا سوارش (٢٥٥٠). جعلتني هذه العبارة أُدرك أنَّني كذلك فعلاً. وبها أنَّ قدر المرء أن يُستغل في حياته، فإنَّ تساؤلي سوف يكون على هذه الشَّاكلة: هل استغلالُ السيِّد قاسْكِش، وشركة النَّسيج التي يمتلكها، سيكون أسوأ من استغلال الغرور، أو المجد، أو الحقد، أو الحسد، أو المستحيل؟ فبعضُ سيكون أسوأ من الذي يذرعون هذا العالم التَّافه، قد استُغلوا كذلك.

وأعود، كمن يعود إلى بيتِ غيره، إلى المكتب الفسيح في «خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ»، على الشَّاكلة التي يعود بها بعضهم إلى بيونهم. أقترب من مكتبي كها لو كان حصناً ضدَّ الحياة. أشعرُ كأنَّ حتاناً يغمرني فتطفح بالدَّمع عيناي شوقاً إلى كُتُبي التي هي في الحقيقة كتب أشخاص آخرين أحتفظ بحساباتهم لديَّ، وإلى المَحبرة التي أستخدمها، وإلى كتفي سيرج (٢٥٠) المُنحنيتين، ليس بعيداً عنِّي، يجلسُ مُحبِّراً بوالص الشَّحن. أشعر بالحُبِّ تُجاه هذا كُلُه، ربَّها لأنَّه على الرَّغم من عدم وجود شيء كُلُه، ربَّها لأنَّه ليس لديَّ شيء آخر أُحبُّه، أو ربَّها أيضاً لأنَّه على الرَّغم من عدم وجود شيء يستحقُّ في الحقيقة حُبَّ أيِّ روح، لو توجَّب علينا منحَهُ بدافع العاطفة، فقد ينبغي لي أن أغدقهُ على ضَالَة تحبرتي مثلها أُغدقه على لامبالاة النَّجوم.

⁽¹⁷⁵⁾ نظهر هذه العبارة في طبعة سوبراو كونيا (المقطع 351، 351—353)، وفي طبعة برادو كويلو (المقطع 81، المجلّد الأوّل، 351—83): «إنّهم يستغلُّونك، يا بُورجيش Você é explorado, Borges»؛ في حير نرى الاسم الوارد هُو «سوارش»، وليس «بورجيش»، في طبعته المادرة وليس «بورجيش»، في طبعته المادرة في العام وليس «بورجيش» في طبعته الصادرة في العام في العام 2010، (المقطع 93، 191—192)، ثُمَّ عدل عن ذلك، واستعاض عنه يه «سوارش» في طبعته الصادرة في العام 2017 (وهي الطبعة التي اعتمدت جول كوستا عليها في صنعتها الإنگليزيَّة هذه). (المترجم) (المترجم) (عمل المعلّة الأخيران في البرتعاليَّة الأوروبيَّة (المقدم)

[\$1929]

سألتُ الحياة أقلَّ القليل فحرمتني حتَّى من ذلك؛ بعضَ شعاعِ شمس، وحقلاً مجاوراً، وبعضَ سكينةٍ وهدوءٍ ولقمة خُبزٍ، وألَّا أشعرَ أنَّ معرفتي بوجودي شديدة الوطأة عليَّ، وألَّا أطلب شيئاً من الاَّحرين وألَّا يطبوا شيئاً مني. ولقد حُرمتُ من ذلك، كشخص يَحرم الشَّخاذ، لا بدافع الضَّغينة، وإنَّما كي لا يُضطرَّ إلى فك أزرار شُترته فحسب.

حزينٌ، في غرفتي الهادئة، ووحيدٌ مثلها كنتُ دائهاً ومثلها سأكون، أجلس فأكتب. أتساءل إنْ كان ذلك الشَّيء الذي يبدو واهناً صوتي، ربَّها لا يُجسِّد كُنْهَ آلاف الأصوات، والتَّحرُّقَ إلى المجاهرة بآلاف الحيوات، وصبرَ ملايين الأرواح التي استسلمت مثلي في حيواتها اليوميَّة إلى الأحلام العبثيَّة والآمال البائدة. يدقُّ قلبي أسرع، في مثل هذي اللَّحظات، لأَنني واع به، لا أكثر. أعيشُ الحياة بحلَّة بكلِّ ما تعنيه الحياةُ. أشعر بأنَّ في نَفْسي عنفواناً دينياً، شكلَ صلاة، شيئاً كمثل عجيجِ أصواتٍ. ولكنَّ ردَّة الفعل ضدَّ نَفْسي تبدأ في عنفواناً دينياً، شكلَ صلاة، شيئاً كمثل عجيجِ أصواتٍ. ولكنَّ ردَّة الفعل ضدَّ نَفْسي تبدأ في عقلي... فأرى نَفْسي في غرفة بالطابق الرابع في *خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ» فينتابني النُّعاس. عقلي... فأرى نَفْسي في غرفة بالطابق الرابع في *خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ» فينتابني النُّعاس. الاحظُ على الصفحة نصفِ المكتوبة كتابةً بشعة، والسَّيكارة الرَّخيصة في يدي اليسرى حين السرى حين السريح على سجلِّ اليوميَّة القديم. هَأَنَذَا في غرفة الطَّابق الرَّابع هذه، أطلبُ الإجابات من الحياة! أفصح عبًا تشعر به الأرواح الأخرى! وأكتبُ النَّثر كأنَّني عبقريُّ حقيقيُّ، كاتب ذائع الصِّيت! وإنَّني، هُنَا، على هذا النَّحو!

190

[91929]

البحث عن الحقيقة - سواء الحقيقة الذَّاتيَّة لمعتقدات المرء، حقيقة الواقع الموضوعيَّة، أو الحقيقة الاجتهاعيَّة للهال والسُّلطة - يجلب معه دائها، إنْ كان الباحث يستحقُّ الجائزة، المعرفة المُطلَقة بأنَّ الحقيقة ليست موجودة. فجائزة يانصيب الحياة الأكبر لا تذهب إلَّا إلى أولئك الذين يصدف أنَّهم قد اشتروا البطاقات.

تكمنُ قيمة الفنِّ في أنَّه يأخذنا بعيداً عن هُنَا.

[\$1929]

كأنَّ الابتذالَ بيتُنا واليوميَّ أُمُّنا. فبعد توغَّل طويل في الشَّعر العظيم، واقتحام جبال الإله م السَّامي، وارتياد منحدرات المُتعالي والباطنيِّ، لا ألذَّ مذاقاً ولا أعذب شعوراً يجمع في ثنياه دفء الحياة كلَّه من العودة إلى الخان الذي يضحك فيه الحمقى السُّعداء ويُنكِّتون، ومشاركتهم الشَّراب، بالحهاقة التي جبلهم الله عليها، قانعين بالكون الذي مُنحناه، تاركين البقيَّة لأولئك الذين يتسلَّقون الجبال، ولا يفعلون شيئاً حين يبلغون القمَّة.

ولا أُدهَش البتّة حين يقول النّاس عن شخص أَعُدّه مجنونا أو غبياً إنّه أفضل من بعض الأشخاص الذين حياتهم وإنجازاتهم عاديّة ليس إلّا. فحين تستبدّ الصّرعة بالمصروعين تشتد قوّتهم على نحو خارق للعادة، ويمتلك المصابون بجنون العظمة قوى عقلانيّة تفوق تلك التي لدى معظم البشر العاديّين؛ ويجتذبُ المهووسون المُتديّنون في هذيانهم حشودا من المؤمنين أكبر من (معظم) الغوغائيين، ويمدُّون مُريدهم بقوّة جوَّانيَّة لا يقدر عليها الغوغائيُون. ولكنَّ هذا كُلّه لا يُثبت إلّا أنَّ الجنون هُوَ الجنون. أَفضًل هزيمة تعرف أسراد جمال الأزهار على نصر في فَلاةٍ، فالنَّصر عمى الرُّوح التي تُركَتْ وحيدة مع تفاهتها.

فكم مرَّةٌ خلَّاني حُلَمٌ عقيم ممتلناً برعب الحياة الجوَّانيَّة، وقد جاشَتْ نَفْسي إلى الرُّوحانيَّات والتَّامُّلات. أُهرع من بيتي الذي حلمت فيه بهذه الأشياء، ذاهباً إلى المكتب، حيث أُحدِّق في وجه مُوريرا مثل مسافر يصل إلى الميناء أخيراً. أُفضَّل مُوريرا، بعد أخذ كلِّ الأشياء في الحسبان، على العالم النجميِّ؛ أَفضًل الواقع على الحقيقة، ولكنِّي أُفضِّل الحياة، في الحقيقة، على صانعها. هكذا قدَّمها لي، وهكذا سوف أعيشها. أحلم لأنَّني أحلم، ولكنَّني لا أهين نفسي حين أمنح الأحلام قيمة لا تنطوي عليها، باستثناء كونها مسرح نَفْسي الشَّخصي، مثلاً لا أُسمِّي النَّبيذ (الذي لم أمتنع عنه بَعْدُ) «طعاماً»، أو أعدُّه «أحد ضروريَّات الحياة».

192

[91929]

لو لم تكُن لديَّ أيُّ فضيلة أخرى، فثمَّة في داخلي على الأقلِّ جِدَّةُ الإحساس المتحرِّد.

لاحظتُ اليومَ، فجأةً، وأنا أمشي في "خُوا نُوفا ذُو أَلماذا" ((١٣٥٠)، ظهرَ الرَّجل الذي يمشي أمامي: الظَّهرَ العاديَّ لرجل عاديِّ، سُترةَ بذلة متواضعة على ظهر عابر سبيل صُدفة. كان يتأبَّطُ حقيبةً قديمة تحت ذراعه الأيسر، وينقرُ الرَّصيف، في كلِّ خطوة يخطوها، بطرف الشَّمسيَّة المطويَّة التي يحملها في يده اليمني.

ثُمَّ انتابني، فجأة، شعور يقترب من الرِّقَة تجاه ذلك الرَّجل. شعرتُ أنَّ في داخله تلك الرِّقَة التي يشعر بها المرء تجاه الأشياء الإنسائيَّة العاديَّة، والحياة اليومية المبتذلة لربِّ أسرة في طريقه إلى العمل، ومنزله المتواضع الذي يضجُّ سعادةً، وملذَّاته الحزينة والمبهجة التي لا شكَّ أنَّها تُشكِّل حياته، وبراءة العيش بلا تفكير، والطبيعة الحيوانيَّة لذلك الظهر الذي تكسوه الثياب.

نظرتُ ثانيةً إلى ظهرِ الرَّجل، النَّافذةِ التي رأيتُ من خلالها هذه الأفكار.

شعرتُ بالإحساس ذاته الذي ينتاب المرء حين يكون في حضرة شخص نائم. فحين ينام المرء يعود طفلاً مرَّة أخرى، ربَّما لأنَّ المرء لا يستطيع القيام بأفعال شرِّيرة في أثناء النَّوم، والا يكون حتَّى واعياً بوجوده.

ويستطيع أشدُّ الأنانيِّن انشغالاً بذاته، وأشدُّ المجرمين فتكاً، أن يغدو مُقدَّساً ببعض هذا السِّحر الطَّبيعي الذي نُسمِّيه النَّوم. فلا أرى فارقاً واضحاً بين قتل طفل وقت شخص نائم. ظُهْرُ الرَّجل نائمٌ، وكلُّ جزء من الرَّجل الذي يمشي أمامي، بالسُّرعة التي أمشي بها، نائمٌ. إنَّه يتحرَّك لا شعورياً، وهو يعيش لا شعورياً، وينام مثلها ننام جميعاً. فكلُّ ما تنطوي عليه الحياة حُلمٌ. لا أحد يعرف ماذا يفعل، ولا أحد يعرف ماذا يريد، ولا أحد يعرف ماذا يريد، ولا أحد يعرف ماذا يعرف. نحنُ -أبناءَ القدر الأبديِّن- ننامُ حيواتنا بعيداً. ولهذا، حين أفكر مستخدماً ذلك يعرف. نحنُ -أبناءَ القدر الأبديِّن- ننامُ حيواتنا بعيداً. ولهذا، حين أفكر مستخدماً ذلك الشُعور تنتابني رقَّةُ هائلة، لا نهائيَّة، تجاه جميع ما تنطوي عليه الإنسانيَّة الطُّفوليَّة، وحيوات البشر السَّائرة في نومها، وتجاه كلِّ واحد وكلِّ شيء.

بَسِر السار في قال اللَّحظات إنسانويَّةٌ خالصة لا تستخلص شيئاً ولا تعرف أيَّ دوافع تجتاحني في تلك اللَّحظات إنسانويَّةٌ خالصة لا تستخلص شيئاً ولا تعرف أيَّ دوافع خفيَّة. وتغمرني رقَّة كأنَّني رأيت هذا كلَّه بعيني إله. أرى كلَّ واحد بعاطفة الكائن الواعي الحيِّة المسكينة. ما الذي يفعله هذا كلَّه هُنَا؟ الحيِّ الوحيد: يا للنَّاس المساكين، يا للبشريَّة المسكينة. ما الذي يفعله هذا كلَّه هُنَا؟

أعدُّ كلُّ حركة وكلُّ قوَّة مُحفِّزة في الحياة، من تمدُّد رئاتنا البسيط وانقباضها إلى بنايات المُدن ورسم الحدود الإمبراطوريَّة، شكلاً من أشكال النَّوم أو أحلاماً أو فترات تحدث تلقائياً في الفواصل بين حقيقة واقعة وأخرى، بين يوم من أيَّام المُطلَق والذي يليه. أنحني في اللَّيل كجسم أُموميٌّ تُجرَّد فوق أسرَّة الأطفال الطيِّبين والأشرار على حدٌّ سواء، فأساوي بينهم في النَّوم الذي يجعلهم أطفالي، لرقَّة مشاعري تجاههم كَرَمُ كائن مُطلَق. أشيح بصرى بعيداً عن ظهر الرَّجل الماثل أمامي مباشرة كي أنظر إلى الآخرين، إلى كلِّ من يمشي في هذا الشَّارع، فأشملهم جميعاً، عن وعي، بالرِّقَّة الباردة والعبثيَّة ذاتها التي أثارها فيَّ ظهرُ الكائن اللَّاواعي الذي ألحقُ خَطوه. إنَّهُم جميعاً على شاكلته: الفتيات اللَّواتي يتجاذبن أطراف الحديث في طريقهنَّ إلى المشغل، والكُّتبة الشَّباب الذين يضحكون في طريقهم إلى المكتب، والخادمات العائدات إلى المنزل مُحمَّلات بالمشتريات، والصِّبية الخارجون في أولى مهامهم اليوميَّة - وهذا كُلُّه مجرَّد لا شُعورِ يرتدي وجوهاً وأجساداً مختلفة، دُمي تتحرَّك بخيوط تجذبها أصابع الكائن المحتجب ذاته. إنَّهم يمنحون كلُّ مظهر وعياً، ولكنْ لأنَّهم غير واعين بأنَّهم واعون، فإنَّهم غير واعين بشيء. وسواء أكانوا أذكياء أمْ أغبياء، فإنَّهم في الحقيقة أغبياء على حدٌّ سواء. وسواء أكانوا شِيباً أمْ شُبَّاناً، فإنَّهم في العُمْر ذاته على حدٌّ سواء. وسواء أكانوا رجالاً أمْ نساءً، فإنَّهم ينتمون إلى الجنس غير الموجود ذاته.

193

[929]

حاولتُ كثيراً الحلم بأن أكون ذلك النّوع الفرديَّ المَهيب الذي تخيَّل الرُّومانسيُّون أنْ يكونوا هُم أنفسُهم عليه، وكلَّها حاولتُ ينتهي بي الأمر دائهاً بالضَّحك على نَفْسي عالياً لمجرَّد أنَّني قد أفسحت المجال لأن تعنَّ تلك الفكرة على بالي. ومع ذلك، لا وجود لزبر النساء الفتَّاكِ (370) في أحلام البشر العاديِّين، فليستُ الرُّومانسيَّة إلَّا شقلبة أَنْفُسِنا اليوميَّة العاديَّة بطناً لِظَهر. فجميع الرِّجال العاديِّين يجلمون، في أشدُ أجزاء كينونتهم سريَّة، بحكم

إمبراطوريَّة عظيمة، فيكون جميع الرِّجال رعايا، وجميع النِّساء جواري يذوقون عسيلتَهُنَّ أنَّى شاؤوا، ويعبدهم النَّاس جميعاً و(إنَّ كانوا رجالاً أدنى منزلةً) من مختلف الأعمار... قلَّةً تعوُّدوا الأحلام، مثلها قد تعوَّدتُ، ولهذا فهم ليسوا شفَّافين بها يكفي لأنْ يضحكوا على الاحتماليَّة الجماليَّة لتعهُّد تلك الأحلام بالرِّعاية والتَّحليق بها.

لم يظهر بَعْدُ النَّقدُ الأشدُّ رصانةً للرُّومانسيَّة، أقصدُ مِن حيثُ إنَّها تُمَثِّل الحقيقةَ الجوَّانيَّة للطَّبيعة البشريَّة وتجسيداً لما هُوَ ثاوِ عميقاً في الرُّوح الإنسانيَّة، ولكنَّ هذا التَّجشُدَ الماديَّ والمُرثيَّ وحتَّى المُمكنَ، إنْ كان ذلك ممكناً، يعتمدُ على شيءٍ غير القَدَر؛ شيءٍ تنبعُ منه فَيُوضَاتُها وعبثيَّاتُها وتعدُّداتُها المختلفة اللَّازمة لتحريك البشر وإغوائهم.

وحتَّى أنا، الذي يضحك على كمائن الإغواء التي نصبتها المخيِّلة، كثيراً ما أجدُ نَفْسي وقد تخيَّلتُ روعةَ أن يطيرَ صِيتي، ومُتعةَ أن أُحبَّ، وإثارةَ أن أنجح! ولكنَّني مازلتُ غير قادر بتاتاً على رؤية نَفْسي في أدوار المسرَّة تلك، دونَ أن أسمع قهقهةَ الـ «أنا» الأخرى التي أُبقيها دائهاً قريبةً منِّي، بقَدْر ما أستطيعُ، قُربَ شارع في بَايْشًا. فهل أتخيَّل نَفْسي ذائع الصِّيت؟ محاسباً ذائع الصِّيت فحسبُ. وهل أسرحُ بخيالِ نَفْسي فأراها وقد ارتقَتْ عالياً حتَّى عروش الشُّهرة؟ ولا يهبطُ عليَّ هذا الخيال الجامحُ إلَّا وأنا في المكتب في «خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرشْ»، وزملائي، لا محالةً، يُفسدون تأثير ذلك فيَّ. فهل أسمع تصفيقَ الحشود التي جاءت من كلِّ حدب وصوب؟ يتعالى التَّصفيق من الغرَّفة الرَّخيصة في الطَّابق الرَّابع حيث أعيش، ويتصارع بعنف مع الأثاث البالي، والابتذال المحيط بكلِّ شيء يذلُّني والحُلمَ على حدٌّ سواء. لم يسبق حتَّى أن امتلكتُ قلعةً في إسپانيا، مثل أولئك الإسپانيِّين الذين كُنَّا نخشاهم دائهاً نحن البرتغاليِّين. كانت قلاعي مُشيَّدة من مجموعة غير مكتملة من أوراق الشَّدَّة المُتَّسخة؛ لم تسقط من تلقاء أنفسها، وإنَّها كان لا بُدَّ أن تدكُّها حركةُ اليد الكاسحة، الحركة التي عِيلَ صبرها للخادمة العجوز التي ترغب في استعادة مفرش الطَّاولة وتجهيز المائدة، لأنَّ وقت شرب الشَّاي قد أَزِفَ مثل لعنة قدريَّة. حتَّى تلك الرؤيَّة ضئيلة القيمة، فأنا لا أمتلك بيتاً في الأقاليم أو عيَّات عجائز أجلس إلى موائدهنَّ في نهاية لَمُّ شمل عائليٌّ أحتسي كوب شاي لمذاقه طعمُ الرَّاحة والسَّكينة بالنَّسبة إليَّ. ولقد أخفقَتْ أحلامي حتَّى في استعاراتها وتصوُّراتها. ولم تمتدَّ إمبراطوريَّتي حتَّى أبعدَ من مجموعة أوراق لعبِ قديمة. ولم يَغنم نصري حتَّى إبريقَ

شاي أو قطَّة قديمة. سأموتُ مثلها عشتُ بين خردوات غرفتي، المباعة بالوزن بأسعار بخسة، بين ملاحق الأشياء المفقودة.

فهل لي على الأقلِّ أن آخذ معي، في الاحتمالات الهائلة التي تُوجَد في هاوية كلِّ شيء، بحد خذلاني كما لو كان مجد حُلم عظيم، وبهاءَ كُفري راية هزيمة - راية رَفَعَتْها عالياً الأيدي النَّحيلة، ولكنَّها كانت قد تمرَّغتْ، مجرورة، في وحل الضَّعفاء ودمائهم، فرفعت عاليً ونحن نغرق في الرِّمال المتحرَّكة، ولا أحد يعرف إن كُنَّا قد رفعناها احتجاجاً أم عصياناً أم يأساً... ولا أحد يعرف فلا أحد يعرف شيئاً، والرِّمال تبلع رافعي الرَّايات وأولئك الذين لا يرفعون... والرِّمال تغطي كلَّ شيء، حياتي، ونثري، وأبديَّتي.

194

[\$1929]

كلُّ شيء مكسورٌ هُنَاك، ومجهول، ويتيم. شهدتُّ هُنَاك إياءات رقَّة سخيَّة بدت كأنَّا تكشف لي أعماق الأرواح المسكينة الحزينة؛ فاكتشفتُ أنَّ تلك الإيماءات لم تَدُم إلَّا دوامَ الكلمات التي أفصحتْ عنها، ثُمَّ لاحظتُ -مثلما غالباً م ألحظُ بحكمةِ الصَّامتين - أنَّها قلا تجذَّرتُ في شيء يُشبه الشَّفقة، ولكنَّ ذلك الشَّيء سرعان ما تلاشي كالدَّهشة التي اعترتني حين لاحظتُ وجوده أوَّل مرَّة، أو تلاشي مع النَّبيذ المُحتسى في أثناء عشاء ذلك الشَّخص العَرضيِّ رقيق الفؤاد. كانت ثمَّة آصرة واضحة على الدَّوام بين ذلك الدَّافع الإنسانويِّ ومقدار البراندي المُحتسى، ولقد عانت إيماءات عظيمة كثيرة من تلك الكأس الواحدة كثيراً جداً أو من فَيْض العَطش.

ولقد باعت جميع تلك المخلوقات أرواحها إلى شيطان من عامَّة أهل الجحيم، شيطان لا يشبع من الأشياء الدَّنيئة والفاحشة. عاشوا على نَقيع مُسكرٍ من نُحيلاء وكسَل، وماتوا مُسترخين بين وسائد الكلمات وبلبلة عقارب تبصق شياً.

وكان أغرب شيء يحيط بهؤلاء النَّاس خواؤهم المُطلَق. كتب بعضهم في صحف مُهمَّة ولكنَّهم عجزوا عن الوجود؛ وشغل بعضهم الآخر مناصب عموميَّة مذكورة في السجلَّات المهنيَّة ولكنَّهم عجزوا عن فعل أيِّ شيء في الحياة، وكان بعضهم شعراء طارَ صيتُهم، ولكنَّ الشَّرى المُترمَّد ذاتَهُ قد لطَّخ وجهوهم المُضحكة بالرَّماديِّ كأنَّهم في ضريح جثامينَ مُحنَّطة، وأيديهم، كما في الحياة، وراء ظهورهم.

أتذكَّرُ من الوقت القصير الذي إثَّاقلتُ فيه إلى ذلك المنفى الفكريِّ بعضَ اللَّحظات المضحكة والممتعة حقاً، والعديدَ من اللَّحظات الحزينة والمُضجرة، وبعض الصُّور الجانبيَّة التي انعكستُ ظلالها على الحواء، وبعض الإيهاءات التي أشرنا بها إلى أيًها نادل صَدَفَ آنَه كان يخدمنا في تلك اللَّحظة؛ قصارى القول، يجتاح جسدي سأمٌ مُغثِ وذكرى بعض الحكايات المليحة.

وكان بعضُ كُهول يتناثرونَ مثل مساحات خالية بين الآخرين، حيث كان بعضهم يلقون نُكَتاً مبتذلةً، ولكَنَهم كانوا على قَدْرِ سُوْءِ الآخرين حين ذكروا الآخرين بِسُوءٍ؛ أجل، لقد ذكروا بسوء الأشخاصَ ذاتهم الذين دائهاً ما يذكرونَهم بسوء.

لم أشعر قَطُّ بالتَّعاطُف تجاه أولئك الأشخاص الذين ينتمون إلى الطَّبقات الدُّنيا، وقد ذاع صيتُهم، بالقَدْر الذي شعرتُ به حين حطَّ من قَدْرهم أولئك النَّكرات، على الرَّغم من أنَّهم لم يسعَوا بتاتاً إلى ذلك الصِّيت المثير للشَّفقة. أدركتُ أنَّ سببَ انتصارِ منبوذي العظمة كامنٌ في أنَّهم قد انتصروا على أولئك النَّكرات لا على البشريَّة جمعاء.

يا للأشقياء المساكين، الجائعين دائماً؛ إمّّا إلى طعام الغداء وإمّّا إلى الشُّهرة وإمّّا إلى ملذّات الحياة، فأيُّ غريب يسمع حديثهم يظنُّ أنَّه يستمع إلى أساتذة نابليون أو مُعلِّمي شكسبير. ثمّة أولئك الذين ينتصرون في السِّياسة، وأولئك الذين ينتصرون في السِّياسة، وأولئك الذي ينتصرون في الفنِّ. يحظى الأوَّلون بميزة القُدرة على نسج روايتهم الخاصّة للانتصارات الغراميَّة التي حقَّقوها من دون أن يعرف أحدٌ ما الذي قد حدث فعلاً. ولكنَّنا، حين نسمع أحد هؤلاء الأفراد يقصُّ سيرة فتوحاته الجنسيَّة الطَّويلة، فإنَّ ريبة تخامر المرء حبن يصل إلى وصف فضِّ بكارة المراة السَّابعة. أمَّا عشَّاق السَّيدات النَّبيلات صاحبات الألقاب، أو المشهورات (وتبدو هذه حالة معظم هؤلاء العشَّاق) فيحظُونَ بسيِّداتٍ من الأشراف كثيرات، إلى درجة أنَّ قائمة فتوحاتهم سوف تزعزعُ وقارَ جدَّاتٍ أُمَّهاتَ أولئك النَّسوة النَّبيلات صاحبات الألقاب، وتهزُّ رباطة جأشهنَّ.

أمَّا المتخصِّصون بالنّزالات الجسديّة، فيزعمون أنَّهم ذبحوا جميع أبطال أوروبا في الملاكمة ذات ليلة شُكْرٍ في زاوية شِيَاذُوْ(٢٥). وأمَّا الذين يزعمون أنَّ لهم تأثيراً على جميع الوزراء في جميع الوزارات، فإنَّ مزاعمهم أكثر وجاهة بعضَ الشِّيء، لأنَّهم أقلُّ تنفيراً، ليس إلّاً.

وبعضهم ساديُّون عظهاء، وبعضهم الآخر لوطيُّون عظهاء، وآخرون يعترفون، بصوت عال، ونبرات حزينة، بأنَّهم يضربون النِّساء اللَّواتي جلدوهنَّ بالسِّياط على طول دروب الحياة، ودائهاً ما يدعون شخصاً آخر يدفع ثمن مشروباتهم.

ثُمَّ هُنَالِكِ الشَّعراء، الـ[...]

لا أعرف علاجاً لسيل قاذورات الظّلال العَرِم هذا أفضلَ من أن أكون على اتّصال مباشر بالحياة البشريّة العاديّة بكلّ واقعيّتها التجاريّة؛ كالحياة بالمكتب في «خُوا دُش دُوْرَادُوْرِش»، على سبيل المثال. فيا للرّاحة التي شعرتُ بها حين تركت مستشفى المجانين الدُّمى ذاك من أجل الحضور الأصيل لموريرا، تُحاسبي الأسمى، والعارف الأصيل الذي يُعَدُّ، رغم ثيابه البالية الملبوسة على نحو رديء، شيئاً لا يمكن أن يكون عليه الآخرون البتّة، ما نُسمّيه رجلاً...

195

[91929]

يجلسون أمام المرآة كلَّما استطاعوا، ثُمَّ يرمقونَ أنفسَهم، في أثناء حديثهم إلينا، بعينَيْن شغو فتَيْن. ولكنَّ تلك التَّولُّمات تجعلهم شاردي الذِّهن أحياناً. شعرت بالشَّفقة دائماً عليهم، فلقد علَّمني نفوري من مظهري الرَّاشد أنْ أجلس دائماً وظهري إلى المرايا. ولقد أدركوا ذلك بالفطرة فكانوا لطيفين معي؛ كنتُ المُنصتَ الجيَّد الذي تركهم أحراراً في إطلاق العنان . لغرورهم وولعهم بالخطابة.

Chiado (179) (وتعني حرفيًا: أزيز/صرير؛ وهو اللّقب الذي كان يُطلَق على الشّاعر البرتغالي أنطونيو خيبرو Ribelro الذي عاش في القرن السادس عشر): حي في وسط لشبونة مشهور بمقاهبه ومطاعمه وحاناته التي كان يرنادها الكتاب والمثقفون في زمن بِسُوًّا. (المترجم)

لم يكونوا فِتية سيّئين، بعضهم جيد، وآخر رديء. حتّى إنّهم أدهشوني أحياناً -أنا الذي يراقب البشر العاديّين من كثب بإظهار كرم ورقّة لا ريب فيها، ولكنّهم يغدون خسيسين ومُنحطّين أيضاً بطرائق لن يلحظها النّاس العاديّون إطلاقاً. خلاصة القول إنّهم لئيمون وحسودون ومُوسوسون، ويمكن أن تنطبق الكلمات ذاتها على أيّ جزء من هذا المحيط الذي تسرّب إلى أعمال البشر المُوقرين الذين غرقوا في تيّار الأمواج السّفليّة لبحر خداع الذّات ذاك. (إنّه موجود في أعمال فيَاليُوالله: الحسد السّافر، والابتذال المُطلَق، وافتقار الأناقة الصّارخ...)

بعضهم خفيف الظلِّ، وبعضهم خفيف الظلِّ فحسب، وبعضهم لم يُوجَد بَعْدُ. وخفَّةُ الظلِّ السَّائدة في المقاهي تُقسِّم نَفْسَها إلى تعليقات ظريفة بشأن أولئك الذين ليسوا هُنَاك، وتعليقات وقحة بشأن الذين هُنَاك. وهذا النَّوع من الدُّعابة صفاقة محضة فحسب. ولا يوجد مؤشِّر على فقر الرُّوح أوضح من عجز شخص عن أن يكون خفيف الظلِّ إلَّا على حساب الآخرين.

ولقد جثتُ ورأيت، ثُمَّ بخلافهم انتصرت، لأنَّ نصري متوقّف على الرُّؤية. رأيتُ تلك الكائنات الدُّني غير مختلفة عن أيَّ مجموعة كائنات دُنيا: وجدتُ هُنَا في المنزل الذي استأجرتُ فيه غرفة، الرُّوحَ الحسيسة ذاتها التي وجدتها في المقاهي، ما عدا -حمداً للآلهة جميعاً - تلك الفكرة الدَّاعية إلى دخول پاريس عنوة. وقد تحلم مالكة المنزل، في أشدِّ لحظاتها طموحاً، في الانتقال إلى منطقة راقية من البلدة، ولكن لا مطامح لديها في غزو پاريس، وهذا يمسُّ شغاف قلبي.

ولا أحتفظ، من الوقت الذي قضيته في هذا الجزء القريب من مقبرة الإرادة، إلَّا على ذلك الإحساس بالسَّأم المُطلَق وبضع حكايات مُسليَّة فحسب.

إنَّهم في طريقهم إلى المقبرة، ويبدو أنَّهم قد تركوا الماضي وراءهم في المقهى، فقد توقَّفوا عن ذكره البتَّة في الوقت الحاضر.

... ولن تعرف الأجيالُ القادمة أيَّ شيء عنهم، مطمورين إلى الأبد تحت الكومة المتعفَّنة للرَّايات المُغتنمَة في انتصارات لم تحدث قط.

[1929]

أكثر الأشياء المتعلّقة بالأحلام جدارة بالازدراء هو أنّها متاحة للجميع. تأخذ صبيً المهيّات سِنةٌ من النّوم في العتمة، طيلة اليوم، مُستنداً إلى عامود الإنارة في الفواصل بين المهيّات الرّتيبة، غارقاً في أفكاره حول شيء أو آخر، أعرفُ أحلام يقظته: الأحلام ذاتها التي استغرقت فيها بين القيود المحاسبيّة في سأم الصّيف الذي يعتمُ المكتب الصّامت صمت القيور.

197

[\$1929]

يا للأشياء العبثيّة، المرعبة، العاجزة عن الكلام، التي تستطيع الرُّوح إيجادها في الزَّوايا الخبيئة بقليل من الجهد، بعيداً عن تلك الأحلام المُبتذَلة التي تتدفَّق مُجلَّلةً بالعار إلى مجاري الرُّوح، ولا يجرؤ أحدٌ على الاعتراف بها؛ الأحلام التي تطاردنا في ليالي الشهاد كأشباح قذرة؛ النُّفايات القذرة، اللَّزجة، لحساسيتنا المكبوتة!

الرُّوح الإنسانيَّة مستشفى مجانين شخوص هَزْليَّة. لَوِ استطاعت الرُّوح أن تكشف نَفْسَها مُّاماً، لو كانت حاجتُها إلى الاحتجابِ لم تذهب أعمق من كلِّ أفعالها المعروفة والمُسبَّة الجالبة للعار، لكانت بلا ريب، كما يقول النَّاس عن الحقيقة، بئراً سحيقة، بئراً منحوسة طافحة بأصداء غامضة تسكنها حيواتُ سافلة وحَمَّاةُ هاجعة وبُزَّاقاتٌ عديمة الحياة ومخاطُ النَّزعة الذاتيَّة.

198

[91929]

نعرفُ أنَّ الكتاب الذي لن نكتبه أبداً سيكون رديئاً، ولكنَّ الأرداَ التَّوقُف عن الكتابة، فالكُتب التي كُتِبَتْ موجودة على الأقلِّ، قد لا تكون جيَّدةً بها يكفي، ولكنَّها موجودة، كالنَّبتة الصَّغيرة البائسة في الأصيص الوحيد العائد إلى جارتي الكسيحة. تلك النَّبتةُ كبرياؤُها

وقرَّةُ عينها، وتغدو نبتَتِي في بعض الأحيان أيضاً. فقد يُتيح ما أكتُبُه، عارفاً بأنَّه رديء، بضعَ لحظاتٍ تصرفُ الذَّهن عن الانشغال بالأشياء الرَّديئة إلى التَّفكير في رُوحٍ أخرى حزينة أو مجروحة. وهذا يكفي، أو، بالأحرى، ليس يكفي، ولكنَّه يساعد، رغم ذلك، بطريقة أو أخرى، وهكذا هي الحال مع الحياة.

سأمٌ ليسٌ فيهِ إلَّا احتمالُ مزيدٍ من السَّأَم؛ الحزنُ المُنتظَرُ لشعوريَّ بالحزنِ لأنَّني قد شعرتُ بالحزنِ اليوم – تواشجاتٌ عظيمة من مشاعر تفتقرُ إلى الجدوى أو الحقيقة، تواشجاتٌ عظيمة...

... حيثُ، وقد جلستُ مُحدودباً على مقعدٍ في محطَّةٍ للقطارات، يغفو عاري تحتَ جُبَّةِ كَسَلِي...

... عالمُ الصُّور المحلوم بها الذي يُشكِّلُ، بأجزاءَ متساويةٍ، معرفتي وحياتي...

وعيٌّ باللَّحظة الرَّاهنة ليسَ شيئاً يزعجني حقاً. أتوقُ إلى الزَّمن بكلِّ ديمومته الطَّويلة، وإلى أنْ أكون نَفْسي بلا قَيْدٍ أو شرط.

199

[91929]

... في التَّشَعُّثِ الحزين لعواطفي الحيرانة...

حزنٌ شفقيٌ من تعب وتخلّيات باطلة، بعضُ ضجرٍ لا يشعرُ بأي شيء البتّة، ألمٌ كنشيج مكبوت أو حقيقةٍ أُدركَتْ فجأةً، وينتشرُ أمامي في روحي السّاهية منظرُ التّخليّاتِ الطّبيعيّ هذا - جادَّاتُ إياءات مهجورة، وحدودٌ طويلة من أحلام لمَ تُعلَم على أكمل وجه، وتناقضاتٌ مثل وشائع الشّمشير التي تفصل بين عرّات مُقفرة، وطُنونٌ مثل بِرَكٍ قديمة لم تُجدّد مياهها الينابيعُ، وكلَّ شيء يبدو متواشجاً ومثيراً للشّفقة في التّشَعُّثِ الحزين لعواطفي الحيرانة.

[\$1929]

أَجِدُ سعادة هؤلاء البشر، الغافلين عن تعاستهم، مثيرة للشخط. فحياتهم الآدميّة طافحة بكلِّ ما يُمكن أن يُشكِّل متوالية من القلق بالنِّسبة إلى أيِّ روح حسَّاسة حقاً. ولكنْ، ولأنَّ حياتهم الحَقَّة خاملة عاماً، فإنَّ كلَّ ألم يشعرون به يزولُ دونَ حتَّى أن يلمس روحهم، فيعيشون حياة لا يُمكن أن تُقارَن إلَّا بحياة شخص ثريً لا يعاني إلَّا من وجع في الأسنان، بين حين وآخر، ولكنّه يتناول الكثير من أقراص الأسپرين - الحظ السَّعيد الحق للبقاء على قيد الحياة دون إدراك ذلك؛ الحظ الذي هُوَ النَّعمة العظمى التي يمكن أن تجود بها الآلهة، فهي النَّعمة العرائي تجعل المرء شبيها بهؤلاء البشر، وتجعله يسمو، مثلهم (وإنْ بطريقة مختلفة) فوق تلك الحوادث التي تُسمَّى الفرح والألم.

ولهذا أُحبُّهم جميعاً، على الرَّغم من كلِّ شيء. آهِ يا خُضَرِي المحبوبة!

201

[\$1929]

جعلتني العُزلة على صورتها، فحضور شخص آخر -ولا تقتضي الحال أكثر من ذلك البَّة - يُبطئ وتيرة تفكيري فوراً، ومثلها يكون اتَّصالُ الشَّخص العاديِّ بالآخرين بمثابة مُحفِّز للتَّعبير والكلام، فإنَّ ذلك الاتِّصال يكون بالنِّسبة إليَّ بمثابة مُحفِّز مُضادِّ، إنْ وُجِدَتْ عبارةٌ من هذا النَّوع، فحين أكون وحيداً يتفتَّقُ ذهني عن مُلَح وأقوال بارعة لا نهائيّة، وأجوية سريعة لاذعة ضدَّ ملحوظات لم يُدلِ بها أحدٌ، وومضاتِ كياسة اجتهاعيَّة لا أتبادها مع أحد؛ ولكنَّ كلَّ ذلك يتلاشى حين أُقابل كائناً آدمياً آخر. أفقد بصيرتي كلَّها، وأفقد قوَّة الكلام، ثُمَّ أشعر بعد برهة بأنَّ كلَّ ما أفعله هو النَّوم. نعم، يجعلني الحديث إلى الآخرين أشعر برغبة في النَّوم. ولا تُوجد حقيقة واقعيَّةُ وجوهر إلَّا لأصدقائي الطَّيفيِّين والمُتخيَّلين، والمُتخيَّلين، والمُتخيَّلين، والمُتخيَّلين، والمُتخيَّلين، والمُتحدثات التي أجريها في الأحلام حيث تكون الرُّوح حاضرة كصورة في مرآة.

فَفِكرة أَن أكون مُجبراً على التَّواصل مع أحدٍ تجعلني، في حدِّ ذاتها، أشعر بالاضطِهاد. ودعوة بسيطة إلى العشاء يوجِّهها صديقٌ تُثير فِيَّ كآبةٌ يصعب وصفها بالكلمات. ففكرة

الواجب الاجتماعيِّ -حضور جنازة، أو مناقشة مسألة مع شخص في المكتب، أو الذَّهاب للاقاة أحدهم في المحطَّة (سواء أكان معروفاً لديَّ أم مجهولاً) - فكرةٌ تُعيق أفكار ذلك اليوم بأكمله، فأقلق بشأن ذلك أحياناً منذ اللَّيلة السَّابقة، فيسوءُ نومي. ولكنَّ الحقيقة حين تأتي تكون تافهة تماماً، لا تُبرِّر تلك الضجَّة الكبيرة، فلا أعباً بها البتَّة، ولكنَّها، رغم ذلك، تحدث مرَّاتٍ ومرَّات، ولا أتعلَّمُ أبداً.

ولا أعرف إنْ كان روسُّو أمْ سِينانكور (اقا) هُوَ الذي قال: «عاداتي عاداتُ العُزلة وليست عادات البشر »، ولكنَّ القائل روحٌ تنتمي إلى النَّوع ذاته الذي أنتمي إليه، على الرَّغم من أنَّني ربَّها لا أستطيع القول إنَّها تنتمي إلى العِرق ذاته.

202

[\$1929]

... وهَأَنَذَا عالقٌ بين الحياة التي أُحبُّها بازدراء والموتِ الذي أجدهُ مرعباً وفاتناً على حدًّ سواء. خائفٌ من العَدَم الذي قد يغدو شيئاً آخر، خائفٌ منه بوصفه عدَماً وبوصفه شيئاً آخر في الوقت ذاته، كما لو أنّه يُمكن أن يجمع بين اللَّاوجود والمجهول المُرعِب في آنِ معاً، كما لو أنّم قد يُوقِفُون، في التّابوت، الأنفاسَ الأبديّةَ للرُّوح الجُمُانيَّة؛ كما لو أنّم سوف يصفقون الغطاء على غير الشّخصيّ. تبدو لي فكرة الجحيم، التي لا تقدر على اختراعها إلّا روحٌ شيطانيَّة، مُشتقّةً من ذلك الارتباك، ذلك الخلط بين خوفَيْن مُدنَّسَيْن متناقضَيْن.

203

[91929]

ثمّة أيّامٌ يكتسبُ فيها كلَّ شخص ألتقيه، ولاسيَّما النَّاس الذين يتوجَّب عليَّ مخالطتهم يومياً، دلالة رموز، سواء أكانت معزولة أم مترابطة، تحتشد لتكوِّن كتابات باطنيَّة أو نبوئيَّة، وأوصافاً غامضة لحياتي. يغدو المكتب صفحة يكون النَّاسُ فيها كلماتٍ، ويغدو الشَّارعُ كتاباً؛ أمَّا الكلماتُ المتبادلة مع المعارف واللِّقاءات التي نجريها مع الغرباء، فَمقولاتٌ لا

⁽¹⁸¹⁾ إتيان سينانكور Senancour (1870)، فيلسوف وروائي فرنسي. (المترجم)

تظهر في أيَّ قاموس ولكنَّ فهمي يستطيع أن يحلَّ رموزها أو يكادُ. إنَّهم يتكلَّمون، وإنَّهم يتواصلون، ولكنَّهم لا يتكلَّمون عن أنفسهم، ولا يتواصلون حتَّى معها؛ ومثلها قلتُ، إنَّهم كلهات لا تكشفُ شيئاً مباشرة، ولكنَّها تسمح للمعنى أنْ يُكشَف من خلالها. ولكنَّني لا أستطيع، برؤيتي الغَسقيَّة، سوى أن أتبيَّن على نحو غامض أياً كان الذي تُظهِره فجأة ألوائح زجاج النَّوافذ على سطح الأشياء التي تختار أن تُظهرها من الدَّواخل التي تحرسها وتكشفها على حدَّ سواء. أفهمُ، بلا معرفةٍ، كرجل أعمى يُكلِّمه النَّاسُ عن الألوان.

وأسمعُ، أحياناً، وأنا أمشي في الشَّارع، نُتَفاً من أحاديث شخصيَّة تكون في الغالب عن امرأة أخرى، ورجل آخر، وابن شخص ثالث أو عشيقة شخص آخر [...]

وبمجرَّد سماع تلك النُّتُف الغامضة من الخطاب البشريِّ التي ليستْ، بعد كلِّ شيءٍ، إلَّا ما تخوض فيه معظم الحيوات الواعية، أحملُ معي سأماً تمخض عن قَرَف، رُعبَ نَفْيي بين الأوهام (182) والإدراكِ الفجائيِّ لمدى العَطَب الذي أصابني به الآخرون؛ فلقد حكم عليًّ المالكُ والسَّاكنون الآخرون بأنْ أظلَّ بُحرَّد ساكن آخر بين كثيرين، أسترقُ النَّظر، وقد مُلِئتُ المالكُ والسَّاكنون الآخرون بأنْ أظلَّ بُحرَّد ساكن آخر بين كثيرين، أسترقُ النَّظر، وقد مُلِئتُ قَرَفاً، عبر قضبان النَّافذة خلفَ المستودع، إلى قيامة الآخرين التي تتراكم في المطر بالفناء الجوَّانِّ الذي هُوَ حياتٍ.

(183) 204

[1929]

خلقني الله لأكون طفلاً وتركني لأكون طفلاً إلى الأبد. ولكنْ لماذا ترك الحياةَ تضربني،

⁽¹⁸²⁾ الكلمة في الأصل البرتعالي هي «aranhas»، والتي تعني «العناكب»، وقد آثرت جول كوستا، هُذَا، أن ترجمها بد «الأوهام illusions»، ذاهبة أبعد ئما يحمله المعنى الظّاهري للكلمة؛ إذ كيف سيكون المرء منفياً بين العناكب! في حين اختار زينيث، في طبعته الإنكليزيَّة، على سبيل المثال، أن يترجمها ترجمة حرفيَّة. ونرى أيضاً أنَّ أمخل كربسهد قد نزع، في طبعته الإسهانيَّة، على سبيل مثال آخر، إلى أن يترجمها حرفياً كذلك، فأوردها بلفظة «arañas» التي تعنى العناكب. (المترجم)

⁽¹⁸³⁾ لم تُشر جول كوستا، هُنَا، إلى وحود عبارة «chuva» (= مطر/ الهمار المطر) التي أوردها بِسُوًا بين قوسَيْن كبيرينا مرقونة على الآلة الكاتبة، في رأس الصَّقحة الأولى من هذا النَّصِّ الطَّويل، تسبقها عبارة (Li do D.) التي تعني الله المقطع جزء من كتاب القلق. وقد اختلفت الطبعات البرنغاليَّة الرئيسة في التَّعامل مع هذه العبارة عنواناً لهذا المقطع ففي حين اكتفَت طبعة برادو كويلو (المقطع 365، ص 305) وطبعة بيسارُّو (المقطع 210، ص 206) بإدراحها وفق ما أوردها بشوًا نفسه، دون زيادة شارحة، لجات تبريزا سواراو في طبعتها (المقطع 365، ص 305) إلى عنونة المقطع أوردها بشوًا نفسه، دون زيادة شارحة، لجات تبريزا سواراو في طبعتها (المقطع 365، ص 305) إلى عنونة المقطع

وتاخذ العابي، فتتركني وحيداً في وقت اللَّعب، ومَريُولي الأزرق المُعروق بالدُّموع يتجعَّد في يديَّ النَّحيلتَيْن؟ ولأنَّني لا أستطيعُ العيش بلا عاطفة، فلهاذا أُخذَتْ تلك العاطفةُ منِّي؟ فكلَّما رأيتُ طفلاً في الشَّارع يبكي، طفلاً نفاهُ الآخرون، يجتاحني ألمُّ أعظمُ من حزن الطفل الذي رأيتُه في الرُّعب الذي لا ريب فيه؛ رعبِ قلبي الذي أضناهُ التَّعَب. أتألمُّ في كُلِّ سَمِّ من مَسامٌ حياتي المَعيشَة، واليدانِ اللَّتان تُجعِّدان حاشيةَ المَريُول، والفمُ الذي لَوَّتْ قَسَاتُه دموعٌ مَسامٌ حياتي المُعيشَة، واليدانِ اللَّتان تُجعِّدان حاشيةَ المَريُول، والفمُ الذي لَوَّتْ قَسَاتُه دموعٌ حَقَّة، والضَّعفُ والعُزلة، كُلُّها في، وضحكُ الرَّاشدين العابرين مثل لهيب عود ثقابٍ قُدحَ على رقّةٍ قلبي المُرهَفة.

205

[?1929]

وأخيراً -أراهُ بعين عقلي (١١٨) - فوق عتمة الأسطح السّاطعة، الضّوءُ الباردُ للصّباح اللّافئ ينبلجُ كعذابِ صاعد من سِفْر الرُّويا. اللّيلُ الماثلُ للبريقِ الذي يشتدُّ، مرَّةً أخرى. والرُّعبُ ذاتُهُ، مرَّةً أخرى - يومٌ آخر، الحياةُ وجدواها الباطلة والحيويَّةُ العبثيَّة؛ شخصيتي الجسديَّة، مرتيَّة، واجتهاعيَّة، وقابلة للتَّواصل عبر كلهات لا تعني شيئاً، تستخدمها أفكارُ الآخرين وإيهاءاتُهم، وأنا أنا مرَّةً أخرى، تماماً مثلها أنّني لستُ أنا. وحين يأتي الضّوء المعتم الذي يملأُ شقوقَ المصاريع (البعيدة، كلَّ البُعد، عن أن تكون كتيمة، مُحكمةَ السّد!) بريب رماديَّة، ينتابني شعور أنّني لن أكون قادراً على أن أظلَّ طويلاً في مأواي، مستلقياً بريب رماديَّة، ينتابني شعور أنّني لن أكون قادراً على أن أظلَّ طويلاً في مأواي، مستلقياً الأحلام. لا أعرفُ إنْ كانت الحقيقة هي الموجودة أم الواقع، مُمدَّداً بين الدِّفء العذب الملاءات النّظيفة، غير مُدرك، بعيداً عن الإحساس بالرَّاحة، وجودَ جسدي نفسه.

عبى هذه الشَّاكلة: PAISAGEM DE CHUVA (= منظر طبيعيٌّ ماطر)؛ وعلى منوالها سار زينيث في طبعته، ولكن يوضع كلمة «منظر طبيعي» بين معقوفتين، وعلى هذا النُّحو «PAISAGEM DE [CHUVA]» (المقطع 436، ص 398). (المترجم)

⁽¹⁸⁴⁾ تستحدم جول كوستا، هُنَا، عبارة «عين العقل mind's eye» مقابلاً لكلمة الذَّاكرة memoria التي يستخدمها يستخدمها يستخدمها يستخدمها يستخدمها يستخدمها يستوا في الأصل، و «عين العقل»، وفق التُعريف الفلسفي الشَّائع، إشارة إلى «قدرة الفرد على التُصوُّر/التُخيُّل: قدرته على رؤية الأشياء بو سطة العقل»، ولذا فهي لا تبتعد عن المعنى العميق الذي أراده بِسُوَّا، حين يقول في الأصل، حرفياً: «أراه بالدَّاكرة/أراة لأنني أتذكَّر vejo-o por memoria». (المترجم)

أشعرُ بانحسار الافتقارِ البَّهيج للوعي الذي يستمتع به وعيي، الطريفةِ الحيوانيَّة الكسولة التي أنظرُ بها من بين عينين نصف مغمضتين، مثل قطٌّ في الشَّمس، إلى الحركات المنطقيَّة لمخيِّلتي المُطلقَة السَّراح. أشعر بالانزلاق بعيداً عن امتيازات هالة الظلِّ، الأنهار البطيئة التي تجري أسفل أشجار رموشي المَلمُوحة شَزْراً، وهمس الشَّلَّالات المفقودة بين صوت الدَّم المتواني الذي يدقُّ في أُذُنيَّ والمطر الخافت الذي لا يكفُّ. أفقدُ نَفْسي في الحياة على مَهلي. لا أعرفُ إنْ كنتُ نائهاً أمْ أنَّني أشعرُ بأنَّني قد كنتُ. لا أحلم بهذا البرزخ الزمنيُّ بعينه، ولكنَّني أَلاحظ، كما لو كنتُ قد شرعت في الاستيقاظ من حُلم يقظةٍ، أوَّلَ حركاتُ الحياة في المدينة، تصعدُ كَمَدِّ كلهاتٍ من تلك البئر الغامضة في الأسفل، من الشُّوارع التي خلقها الله. كانت أصوات بهيجة، صفًّاها المطر الحزين المنهمر، أو الذي كان ينهمر، فأنا لا أسمعه في هذه الأثناء... أعرفُ ذلك من فيض الرَّمادي في الضوء المُتشظِّي في المسافة البعيدة، في الظَّلال التي طرحها بريقٌ مُتردِّد، وهُو معتمٌّ على غير عادته في هذا الوقت من الصَّباح، مهما كان الوقتُ. الصَّوت الذي أسمعه بهيجٌ منثورٌ. إنَّها تجعلُ قلبي يتوجَّعُ كأنَّها قد تعالَتْ كي تناديني لأذهب معها إلى استجواب أو إعدام. ويبدو كلِّ يوم أسمع فيه الفجرَ، من السَّرير الذي أستلقي فيه فارغاً من المعرفة، يومَ حَدثٍ عظيم في حياتي سوف أفتقر شجاعةً مواجهته. كلُّ يوم أشعرُ بأنَّه يصعد من سريره الظِّلال، ناثراً الملاءات عبر الشُّوارع والأزقَّة في الأسفل كي يستدعيني إلى محاكمةٍ. سيُحكَم عليَّ في كلِّ يوم ينبلج. والرَّجل المُدَانُ الأبديُّ الذي فِيَّ يتشبَّثُ بالسَّرير كأنَّه يتعلَّق بأطراف أُمَّه المفقودة، ويخبط الوسادة كأنَّ مُربِّيتي ستحميه من الأولاد الآخرين.

قيلولةُ الوحش العظيم المُطمئنَّةُ في ظلِّ الأشجار، تعبُ قُنفذ الشَّارع وسط برودة الأعشاب الطَّويلة، ونعاسُ الزِّنجيِّ الثَّقيلُ في ظهيرة حارَّةٍ بعيدة، ولذَّةُ التَّثاؤب الذي يُغمِضُ العيون المُجهَدة، والرَّاحة الهادئة لرؤوسنا المرتاحة: كلُّ شيء يهزُّنا مِن النِّسيان إلى النَّوم يُغلِقُ نوافذَ الرُّوح، على مهله، في مُداعَبة النَّوم المجهولة.

فَأَنْ يِنَامِ المَرَء، يعني أَنْ يكون بعيداً دون أَن يُدركُ ذلك، أَنْ يُمدِّدَ نَفْسه، أَنْ ينسى جسدَه، وأَنْ يلتذَّ بحُريَّة اللَّاشعور، وذاك المأوى قرب بحيرة منسيَّة راكدةٍ بين الأشجار المُورقة لغابات شاسعة نائية.

عَدَّمٌ يبدو بِأَنَّه يتنفَّس، وموتٌ خفيفٌ يستيقظُ منه المرء شاعراً بالانتعاش وبأنَّه قد عاد إلى الحياة من جديد، حصادُ جوهر الرُّوح التي مَرَّخَها النِّسيان.

ولكن، كصيحات احتجاج أطلقها ثانية مُنصِتُ لم يقتنع بَعْدُ، أسمعُ مرَّة أخرى جلبة المطر الفجائيَّة وهو يغمر الكون الذي يُشرِقُ على مهله. أشعر بالبرد ينخر عظامي المُتخيَّلة، كما لو أنَّني كنتُ قد خِفْتُ. أقعي مُستوحشاً وإنسانياً، وحيداً تماماً في العتمة القليلة التي بَقيَتْ لي، أبكي، نعم، أبكي عزلتي وحياتي وألمي المُسجَّى مهجوراً على قارعة طريق الحقيقة الواقعة رفقة الرَّوث، عقيهاً كعربة بلا دواليب. أبكي كلَّ شيء، فقدانَ الحضنِ الذي تعوَّدتُ الجلوس فيه، وموتَ اليد التي كانت تُمَدُّ إليَّ، والذّراعَيْن اللَّتَيْن لم تستطيعا حملي، والكتف الذي أبكي عليه ولم يكن هُنَاك البتَّة... والنّهار الذي لاحَ أخيراً، والألمَ الذي ينبلج فِيَّ مثل حقيقة النّهار العارية، وكلَّ شيء حلمتُ به، وفكَّرتُ فيه، ونسيتُه في نَفْسي - وهذا كله، في مزيج من الظّلال والتخيُّلات والنَّدَم، قد انهارَ في أعقاب عوالم عابرة، ثُمَّ سقط بين أنقاض مزيج من الظّلال والتخيُّلات والنَّدَم، قد انهارَ في أعقاب عوالم عابرة، ثُمَّ سقط بين أنقاض الحياة، مثل شِمراخ (185) عنقود عنبِ أكله في زاوية الشَّارِع الفِتيةُ الذين سرقوه.

صوتُ نهارِ البَشرِ الذي يتعالى، فجأةً، كصوتِ الجرسِ الذي ينادي النّاسِ للصّلاة. أسمعُ في الدَّاخل كانفجار صوتَ شخص يُغلِقُ بهدو وَ أوّلَ الأبواب التي سوف تُفتَح اليومَ على الحياة. أسمعُ صوتَ خُفَيْن يمشيان في رواق عبثي يُفضي مباشرة إلى قلبي. ثُمَّ، بحركة مفاجأة، كشخص عقدَ العزم أخيراً على الانتحار، ألقيتُ الملاءات النَّقيلة التي تحضنُ جسدي القاسي. إنّني مستيقظٌ. وصوتُ المطر، في مكان في الخارج، يتحرَّكُ مُبتعداً. أشعر أني أسعدُ. فلقد أدَّيتُ واجباً لا أعرفُه، ثُمَّ نهضتُ وقد عقدتُ العزم بجرأة مفاجئة، وذهبتُ إلى النَّافذة وفتحتُ المصراعَيْنِ على يوم من المطر الصَّافي الذي غمر عينيَّ بضوءِ خافت. أفتحُ النَّوافذ. أهواء البارد رطبٌ على يوم من المطر الصَّافي الذي غمر عينيَّ بضوءِ خافت. أفتحُ النَّوافذ. في نفعُ ذلك في النَّهاية! أريدُ أن أشعر بالانتعاش، أريدُ أن أعيش وأميلَ خارجَ النَّافذة كَمَن يحني رقبتَه إلى الحياة، كَمَن يحمل يُقلَ نِيْرِ الله المُجرَّدِ.

⁽¹⁸⁵⁾ لشَّمْرَاخ: العنقود عليه العسب. للَّمْطَة عند يِسُوَّا هي «esqueleto» (وفي الترجمة الإنگليريَّة skeleton) التي تعني حرفياً: هيكل عظمي. تُستخدم في علم تشريح النِّبات لفظة rachis لندلُّ على هذا «الهيكل» وتعني، من ضمن ما تعني: السَّيساه/سلسلة الظَّهر، وساق النَّبتة، وسهم النَّوْرة، ومحور السَّنبلة، إلخ. (المترجم)

لا أستطيعُ أن أَفْقَهَ إِلَّا الكَسَلَ المُعمِّرَ الذي أسمحُ فيه لحياتي التي تسير بلا أحداثٍ، على وتيرة واحدةٍ، أن تستلقي، كطبقة من غبارٍ أو تراب على سطح ثَبَاتٍ لا يتغيَّر، كافتقارٍ إلى النَّظافة الشخصيَّة.

لا بُدَّ أَن نُحمِّمَ أقدارَنا كما نُحمِّم أجسادَنا، وأن نُغيِّر حيواتنا كما نُغيِّر ثيابنا - لا لكي نُبقي أنفسَنا على قيد الحياة فنأكل وننام، وإنَّما بدافع الاحترام اللَّامُبالي لأنفسنا؛ الاحترام الذي يمكن أن ندعوه النَّظافة إلى حدُّ بعيد.

وَثُمَّة كثير من النَّاس لا يكون الافتقار إلى النَّظافة لديهم فعلاً إرادياً، وإنَّما هزَّة كتفَين ذهنيَّة. وثمة كثير من النَّاس لا يعدُّون كآبة حيواتهم ورتابتها الخيارَ الذي كانوا سيختارونه لأنفسهم، ولا توافقاً طبيعياً مع الافتقار إلى القدرة على الاختيار، وإنَّما، بالأحرى، تَنَشُّقاً لمعرفةِ الذَّات، سخريةً آليَّةً للفَهْم.

وثمَّة خنازير تُخفِق في انتزاع أنفسها من قذارتها، بصرف النَّظر عن الاشمئزاز الذي تشعر به تجاه هذه القذارة، وتبقى أسيرة تطرُّف الشُّعور الذي يمنع المرعوبين أن ينتزعوا أنفسهم من درب الخطر. وثمَّة أولئك الذين، مثلي، قد جعلهم القدَرُ خنازيرَ، فلا يحاولون الهروب من التَّفاهة اليوميَّة للحياة، مُتيَّمين بعجزهم. وثمَّة طيور مفتونة بغياب الأفعى؛ وذباب يحوم فوق الأغصان، غافلاً، حتَّى يغدو في المدى اللَّزج للسان الحرباء.

وهكذا أُنزِّه لاشعوري الواعي كلَّ يوم على طول غصني المُعيَّن من شجرة الرَّتابة. أُنزَّه قدري الذي يتقدَّم حتَّى حين لا أتقدَّم. والشَّيء قدري الذي يتقدَّم حتَّى حين لا أتقدَّم. والشَّيء الوحيد الذي ينقذني من الملل هي هذه الملحوظات الموجزة التي أُبديها عنه. وأشعر بالغبطة لمجرَّد وجود ألواح زجاج في هذا الجانب من قضبان زنزانتي، فأخطُّ، بحروف كبيرة، في غبار الضَّرورة توقيعيَ اليوميَّ على العقد الذي أبرمتُه مع الموت.

هل قلتُ العقد الذي أبرمته مع الموت؟ كلَّا، ليس حتَّى مع الموت. فَمَن يَعِش مثلي لا يموتُ: سيصل إلى نهايةٍ، يذبل، يكفُّ عن الحياة، ليس إلَّا (186). سيواصل الفضاء، الذي

⁽¹⁸⁶⁾ هو لم يُمنت، ولكنَّه كفُّ عن وحوده الشَّابق. حالة تكاد تقترب ثمَّا يُعرَف بالوجود السَّلبي الذي لا يبذل فيه أيَّ بحهوه جسديٌّ أو عقليٌّ. كأنَّه في حالة سُباتٍ مُطنق. (المترجم)

كان يشغلُه، الوجود دونه، ويظلُّ الشَّارع الذي كان يمشي فيه على الرَّغم من أنَّه لم يَعُد يُرى هُناك، ويسكنُ غيرُه المنزلَ الذي كان يعيش فيه. ذاك كلَّ شيءٍ وما ندعوه لا شيء؛ ولكن متى وضعناه، فلن تضمن حتَّى مأساةُ الإنكار هذه حصولَها على التَّصفيق، فنحن لا نعرف، على وجه اليقين، أنَّه لا شيء، نحن الذين خُضَر الحقيقة بِقَدْر ما نحن خُضَر الحياة، والغبار الذي يغطِّي زجاج النَّوافذ في الدَّاخل والخارج على حدٍّ سواء، وأحفاد القَدَر، وأَربَّاء الرَّبِّ الذي تزوَّج اللَّيلة الأبدية بعد أن مات عنها زوجُها الشَّواشُ (187)، أبونا الحَقُ.

أَنْ أَتْرِكَ «خُوّا دُشْ دُوْرَادُوْرِش» إلى المستحيل... وأنهض من مكتبي وأشرع في رحلةٍ إلى المجهول... رحلةٍ يتداخلُ فيها المنطق - ما يُسمِّيه الفرنسيُّون الكتاب الأعظم.

207

[91929]

مأساة حياتي الحَقّة ، مثل كلّ المآسي، سخرية القدر، ليس إلّا. أرفض الحياة لأنّها عقوبة سبحن، وأرفض الأحلام بوصفها شكلاً من أشكال الهروب المبتذل. ولكنّني أعيش الحياة الأشدَّ انحطاطاً وعاديَّة من كلِّ الحيوات الحَقّة، وحياة الأحلام الأشدَّ حدَّة واستمراريَّة من كلِّ حيوات الأحلام. فأنا مثل عبد يسكرُ في وقت راحته - بؤسان يسكنان جسداً واحداً. بالصّفاء الذي توفّره الومضات العقليَّة السّاطعة التي تلتقطُ من سواد الحياة الكثيف الأشياء المباشرة التي تُكوِّنها، أرى بشفافية مُطلَقة كلَّ ما هُوَ أساسيٌّ، ورخوٌ، ومُهمَل، وعُتلق، في الحُوا دُش دُوْرَادُوْرِش، هذا الذي يُشكِّل حياتي كلَّها: المكتبُ البائس الذي تسرَّبُ أوساخه إلى نخاع عظام قاطنيه، والغرفة المستأجرة بالشَّهر، التي لا يحدث فيها شيء سوى الموتِ الحيِّ للذي يسكنُ فيها، والبقالةُ في زاوية الشَّارع التي لا أعرف صاحبها للَّ على النَّحو العاديِّ العابر الذي أعرف فيه الآخرين جميعاً، والصّبيةُ الواقفون بباب الحانة القديمة، والعبثُ الشَّاقُ لكلِّ يوم لا يختلفُ عن غيره، والشُّخوص ذاتهم الذين يواصلون القديمة، والعبثُ الشَّاقُ لكلِّ يوم لا يختلفُ عن غيره، والشُّخوص ذاتهم الذين يواصلون

⁽¹⁸⁷⁾ استحدم، هُنا، كلمة الشُّواش مقابلاً لكلمة Chaos التي يستخدمها يِسُوًا بصيغة المذكّر، وبحرف استهلالي كبير. (المترجم)

التَّدرُّبَ على أدوارهم، كمسرحيَّة دراميَّة لا تتكوَّن إلَّا من مشهدِ واحد، وحتَّى هذا المشهد الواحد تدور أحداثه بالطَّريقة الخطأ...

ولكنَّني أرى أيضاً أنَّه يتوجَّبُ عليَّ، إِنْ أردتُّ الهروب من هذا كُلِّه، أنْ أتغلَّب عليه أو أُنْكِرَه. ولا أتغلَّبُ عليه لأنَّني لا أستطيع الذَّهابَ أبعد من الواقع، ولا أُنكرهُ لأنَّني، مهما كان الشّيء الذي قد أحلم به، فسوف أظلُّ حيث أنا بالضَّبط.

وماذاً عن أحلامي؟ تلك التَّحليقةِ المخزية في نَفْسي، خشية أن نغلط فنظنَّ الحياة طرف نُفايةِ الرُّوحِ التي لا يزورها الآخرون إلَّا في نومهم، في شَبَهِ الموتِ، ذاك الذي يشخرون من خلاله، في حالة السَّكينة، تلك التي يبدون فيها، أكثر من أيِّ شيء آخر، مثل خُضَرٍ مُطوَّرة إلى حدُّ بعيد.

عاجزٌ عن الإتيان بإيهاءةٍ نبيلة غير ما أُومئ به لِنَفْسي، أو أن تكون لديَّ رغبةٌ عبثيَّة لا تكون عبثاً تماماً!

وضعَ قيصرُ التَّعريف النهائيَّ للطُّموح حين قال: «من الأفضل أن تكون زعيم قرية من أن تكون تابعاً لروما». ولكنَّني لا أَنعَمُ بأيِّ المكانتَيْن، لا في قرية ولا في روما، يستحقُّ البقَّال، في الحيِّ القابع بين «خُوّا ذَا أَشُنسَو» و «خُوّا ذَا فكتوريا» (١٥٤١)، بعض الاحترام على الأقلُّ؛ إنَّه قيصر الحيِّ كُلِّه. فهل أنا متفوِّق عليه؟ بأيِّ صَدَدٍ، حين لا يَنعَمُ العَدَمُ بأيِّ تفوُّق، أيِّ دُونيَّةٍ، ولا يسمح بأيِّ مُقارنة؟

البقّالُ قيصرُ حيِّ بأكمله، وجميع النِّساء يعشقنه، وهذا هُوَ الشَّيء الحَقُّ الوحيد. ولهذا أجرُّ نَفْسي، قائماً بأعمالِ لا أريدُ القيام بها، حالماً بها لا أستطيعُ أن أملكه [...]، بلا أيِّ جدوى كساعةٍ عموميَّة توقَّفتْ...

وهذه الحساسيةُ الطَّفيفة الثَّابتة، وهذا الحلم الطَّويل الواعي [. . .]، هما اللَّذان يُشكِّلان، معاً، مكانتي المُتميِّزة هُنَا في الظُّلال.

⁽¹⁸⁸⁾ Rua da Assumpção و Rua da Victoria شارعان في لشبونة. اعتقد أنَّ الأوَّل سُمَّي تِبَعَنُ باسم الأمبرة ماريا ذي أَسُنسَوَ، والثَّاني على اسم الأمبرة ماريانا فكتوريا (أو فيتوربا)، وقد ورد لفظ اسم هذين الشَّارعَيْن في طبعة زينيث وطبعة سوبراو كونيا على حدَّ سواء، باللَّعظَيْن الشَّائعَيْن الآخرين: Rua da Assunção وRua da Vitoria و Rua da Vitoria (المَدْ حم)

رفرفَ الصَّباحُ نصف البارد ونصف الدَّافئ بجناحيه مُحلِّقاً فوق البيوت القليلة في منحدرات التِّلال عند الحافَّة الحارجيَّة للمدينة. كان ثمَّة سديمٌ خفيف، طافح بضوء مستبقظ، في تلك المنحدرات النَّعسانة، يتلاشى شيئاً فشيئاً، إلى أشلاء ضبابيَّة. (لم يُكن ثمَّة بردٌ، لولا البرد النَّاجم عن ضرورة مواصلة الحياة). وكانت كلُّ تلك -كلُّ تلك البرودة الصَّباحيَّة، الحفيفة، المتوانية - مثل بهجة لم يكن قادراً على الشُّعور بها بتاتاً.

كان الترام في طريقه البطيء إلى الجادَّات. وحين اقترب من المناطق المأهولة أكثر بالبنايات، تملَّكُهُ إحساسٌ غامض بالحسارة. وكانت الحقيقة البشريَّة اليوميَّة قد بدأت في الظُّهور.

وفي ساعات الصَّباح تلك، حين تكون الظَّلال قد غابَتْ، ولكنَّ ثِقَلَها الحَفيفَ لم يغبُ بَعْدُ، تتوقَ إلى الوصول الرُّوحُ التي تسمح لنَفْسها بالانجراف في تيَّار اللَّحظة، تتوق إلى الوصول إلى الميناء القديم المُشمس. وما يُبهِجُ المرءَ حينئذٍ؛ ليسَ أن تظلَّ هذه اللَّحظة باقيةً مثلها هي إلى الأبد، كمثل البهجة التي تغمره حين يُحدِّق في منظر طبيعيٍّ مَهيب أو في أشعَّة القمر تسطع صافية فوق النَّهر، وإنَّها أن تكون الحياة شيئاً آخر، حتَّى تكون هذه اللَّحظة مختلفة، بالنِّسبة إليه، وذات مذاق يسهل التعرُّف عليه.

رقَّ السَّديم الغامض أكثرَ فأكثر، وأشرقت الشَّمس، وتعالت أصوات الحياة.

ومن الأفضل ألّا نصل أبداً، في تلك السّاعة، إلى الحقيقة البشريَّة الواقعيَّة المُقدَّرة لحياتنا. أن يظلَّ المرءُ مُعلَّقاً، بلا وزن، بين السَّديم والصَّباح، مُحوِّماً فوق الحياة الواقعيَّة، لا بروحه، وإنَّها بجسده الرُّوحانيِّ، وهذا من شأنه أن يُرضِي توقّه إلى إيجاد ملاذٍ، أكثر من أيِّ شيءٍ آخر،

⁽¹⁸⁹⁾ لا توجد إشارة، هُنَا، في طبعة جول كوستا هذه، إلى أنَّ بِسُوّا كان قد عبون، في الأصل، هذا المقطع بعبارة «trecho.» (= مقطع.). والطبعة البرتغاليَّة الوحيدة التي أوردت هذا النَّص بعبوانه، هذا، هي طبعة بيسارُّو (المقطع 213)، في حين نلحظ أنَّ طبعة برادو كويلو لم نُورد النصُّ برمَّته أساساً. ومردَّ ذلك ربَّما عائد إلى «الطبيعة العربية» التي كتب بها بِسُوًا هذا النَّص بالتُّحديد، فهو ليس على شاكلة الشذرات الأخرى المكتوبة بضمير الأنا، مثما يشير بيسارُّو في ملحق طبعته (2010: 781) داكراً أنَّه لو قُيِّض لِبِسُوًّا مراجعة «الأسلوب» لحذف هذا المقطع برمَّته من الكتاب. ناهيك عن أنَّ بِسُوًا قد أغفل الإشارة إلى أنَّ هذا النَّصُ حرة من كتاب القلق، كما كان يفعل مع شذراته الأخرى المرقوبة على الآلة الكاتبة، بإيراد عبارته المحتصرة الشَّهيرة (LdoD). (المرجم)

حتَّى وإنَّ لم يكن لديه سبب يدفعه إلى البحث عن ملاذ.

وأنْ نبرع في الشَّعور بكلِّ شيء يجعلنا غير مبالين، إلَّا تجاه تلك الأشياء التي لا نستطيع امتلاكها – الأحاسيس المثيرة بأنَّ روحنا ماتزال في شكل جَنينيٍّ جداً كي نشعر بها، والأنشطة البشريَّة التي تتوافق مع المشاعر العميقة، مع الشَّغف والعواطف المفقودة بين الأنواع الأخرى من الإنجازات.

ولا علاقة للأشجار المرصوفة على طول الجادَّات بهذا كلُّه.

ولقد توقّفت تلك اللَّحظة فجأة، كما تفعل الضّفة الأخرى من النّهر حين يلمس القاربُ الرَّصيف. ولكنّها كانت، قبل ذلك، قد حملت المنظر الطّبيعيَّ مطبوعاً على بَدَنها إلى الشَّاطئ الآحيف. والرَّجل الذي رفع سرواله إلى الآخر الذي تلاشى مع صوت البدن يكشط طرف الرَّصيف. والرَّجل الذي رفع سرواله إلى ركبتيه قد أمسك الحبل، فكانت تلك الحركة الطّبيعيَّة حاسمة لا تقبل الجدل. ولقد أضفت خاتمة غيبيَّة على استحالة أن تواصل روحنا التمثُّع بلذَّة قلق مُتردِّد. نظر الصِّبيةُ الواقفون على الرَّصيف إلى مثلها ينظرون إلى أيِّ أحد، إلى شخص لا يشعر بمثل هذه العواطف غير المناسبة في أثناء مشاهدة الأحداث الواقعيَّة لسيرورة رسوً القارب.

209

[91929]

إنَّهَا تُجَرِّد مطبوعة حجريَّة عاديَّة. أُحدُّق فيها دون أن أعرف إنْ كنتُ أراها في الحقيقة. ثمَّة أُخرياتٌ في ڤترينة الحانوت وثمَّة هذه. إنَّها في المنتصف، في النُّقطة التي تحجب رؤيني للدَّرَج.

المرأة تشبك زهرة الربيع بصدرها، والعينان اللّان تُحدّقان في حزينتان. لابتسامتها بعض بريق الورقة الصّقيلة [المطبوعة عليه] ووجنتُها مَشوبة بالأحمر، والسّماء خلفَها زرقاء صافية لها فم صغير منحوت وفوق قسماته المُعبّرة، التي كأنّها في بطاقة بريديّة مُصوَّرة، عيناها اللّنان تنفرّسان في بنظرة حزن رهيب. والذّراع التي تضغط أزهاراً على صدرها تذكّرني بذراع شخص آخر، الثّوب أو البلوزة مقوَّرة حول العُنُق وتميل إلى الجانب قليلاً. عيناها حزبتان جداً: تنظران إلى من خلفيّة وجودهما في الواقع المطبوع على الحجر، فتفصحان عن شيء كأنّه جداً: تنظران إلى من خلفيّة وجودهما في الواقع المطبوع على الحجر، فتفصحان عن شيء كأنّه

الحقيقة. وصلتُ مع الرَّبيع. لها عينان واسعتان حزينتان، لكنُّها لا تبدو حزينة بسبب ذلك. أجرُّ قدميَّ بعيداً عن الفترينة. أعبرُ الطُّريق ثُمَّ أستديرُ بحركة تمرُّد عقيمة. مازالتْ تحمل زهرةَ الرَّبيع التي أعطوها إيَّاها، وعينها تعكسان حزن كلِّ شيء أفتقرُ إليه في الحياة. المطبوعة الحجريَّة زاخرة بالألوان، حين تُرَى من بعيد. فثمَّة شريط قرمزيٌّ معقود حول شعر الجسم الذي أراه؛ لم ألحظ ذلك مِن قَبْل. ثمَّة شيءٌ رهيب بشأن عيون البشر حتَّى في المطبوعات الحجريَّة: الدَّليل الحتميُّ على وجود اللَّاشعور، والصَّرخة الخَفِيَّةُ بأنَّ للعيون روحاً أيضاً. أُجرُّ نَفْسي، بعد جهد جهيدٍ، خارجَ حلم اليقظة (١٥٥) الذي غرقتُ فيه، مثل كلب، أنفضُ عنِّي عتمة الضَّباب الرَّطبة. وفوقَ يقظتي، في تلويحة وداع لشيءٍ آخر تماماً، كانت تلك العينان، اللَّتان تُفصحان عن حزن الحياة كُلُّه، وعن المطبوعة الحجريَّة الغيبيَّة التي نتأمُّلها من بعيد، وقد ظنَّتَا أنَّ لديَّ فكرة حقيقيَّة عن الله. وثمَّة رزنامة موصولة بقعر النَّقْش. إنَّها مؤطَّرة، من الأعلى والأسفل، بخطُّين أسودَيْن، مُحدَّبَيْن، عريضَيْن، مرسومَيْن على نحو رديء. وبينَ الحدَّيْن الأعلى والأدني، فوقَ الورقة الخضراء التي تحمل الخطوط القديمة التي تُغطِّي أوَّلَ يناير المحتوم، تتبسَّمُ العينان الحزينتان بنهكم في وجهي.

وممَّا يدعو إلى الغرابة أنَّني أعرف ذلك الشَّكل من قَبْل، فثمَّة رزنامة مطابقة، أراها غالباً في المكتب، بزاوية في الخلف. ولكنُ لسببِ غامض، له علاقة بالمطبوعة الحجريَّة وبي على حدٍّ سواء، فإنَّ الرُّزنامة التي في المكتب ليس لديها عينان حزينتان. إنَّها مجرُّد مطبوعة حجريَّة، (إنَّها مطبوعة على ورقة لامعة وتنام بعيداً، حياتُها المملَّة فوق رأس ألفِيْش، الموظَّف الإداريِّ

الأعسر).

أودُّ أن أضحك على هذا كلُّه فحسب، ولكنَّ قلَقاً رهيباً يجتاحني. أشعر بقشعريرة مرض فجائيَّة تسري في روحي. لا أقوى على التمرُّد ضدَّ هذا العبث. فأيُّ نافذةٍ مفتوحةٍ على الأسرار الإلهية اقتربتُ منها بلا قصدٍ؟ وما الذي تطلُّ عليه النافذة القابعة أسفلَ الدَّرَج في الحقيقة؟ وعينا مَنْ قد نظرتا إليَّ مِن تلك المطبوعة الحجريَّة؟ إنَّني أرتعش أو أكادُ، فأنظرُ دون أن أدري إلى زاوية المكتب البعيدة، إلى المطبوعة الحجريَّة الحَقَّة، وأرفع عينيَّ كي أنظر مرَّات و مرَّات.

⁽¹⁹⁰⁾ تستخدم جول كوستا، هُنَا، لفظة trance (حدم اليقظة/الغَيّية عن الواقع) مقابلاً لكلمة «somno» (= النّوم) التي استخدمها بِسُوًّا، في الأصل، ذاهبة أبعد عُمَّا تنطوي عليه الكلمة في معناها الظَّاهريُّ، ولاسيَّما أنَّ «أحلام اليقظة» هي عالم سوارش الحقيقي، في حين بري أنَّ رينيث يلجأ في طبعته إلى ترجمة هذه الكلمة ترجمة حرفيَّة: النُّوم. (المترجم)

أكرة القراءة. أشعرُ بنوع من السّام الاستباقيِّ لمنظر تلك الصَّفحات غير المقروءة. لا أستطيع قراءة سوى الكُتُب التي أعرفها مِن قَبْل. على منضدة القراءة قرب سريري كتاب الأب فِغريدُو عن الخَطابة الذي أقرأ فيه كلَّ ليلة للمرَّة الألف، ببرتغاليَّة واضحة ورَهْبانيَّة، وصفَ الصِّيغ البلاغيَّة المختلفة التي لم أحفظ أسهاءها بَعْدُ، على الرَّغم من قراءتها آلاف المرَّات اللَّه تُهدِّئني [...] فيضطرب نومي إنْ لم أقرأ تلك الكلمات الدَّقيقة بتهجئاتها المكتوبة بالطَّريقة القديمة (191).

ولكنَّني مدينٌ إلى كتاب الأب فِغِريدُو، بصفائيَّته اللُّغويَّة المُبالغة، بالحرص النِّسبيِّ الذي أتنكَّبُه -بِقَدْر ما أستطيع- في كتابة اللُّغة التي أُعبِّر بها عن نَفْسي باللَّياقة التي [...] وأقرأ:

(فقرة من كتاب الأب فِغريدُو)

-البداية، والوسط، والنِّهاية،

وهذا يعزِّيني لأنَّني مازلتُ على قيد الحياة.

أو هذه

(فقرة عن الصِّيغ البلاغيَّة) فتجعلني أعودُ إلى المُقدِّمة.

أنا لا أبالغُ مثقالَ ذَرَّةٍ في الألفاظ: أشعرُ بهذا كلُّه حقيقةً.

أقرأ كتابَهُ عن الخطابة، مثلما يقرأُ الآخرون آياتٍ من الإنجيل. أستمتعُ بفضيلة السَّكينة والافتقار إلى التَّقوَى.

⁽¹⁹¹⁾ العبارة في الأصل: «as palavras justas escriptas com C» (= الكدمات المكتوبة بدقة بحرف c) في إشارة من بسُوًّا إلى أنَّ فغريدو مازال يستخدم حرف c في رسم مختلف الكلمات، وهو الحرف الذي أُسقط لاحقاً في الإملاء البرتعاليُّ إمَّا لأنَّه حرف صامت وإمَّا لاستبداله بحرف s أو حرفي ss. ولعلَّ هدا يُفسِّر لجوء بِسُوًّا إلى رسم كلمة «القلق» التي في عنو ن كتابه عنى هذا النَّحو: Desassocego وليس Desassocego (المتحم)

لطالما انزعجتُ، في لحظات العزلة تلك التي ندرك فيها أنفسن كأفراد ينظر إليهم الآخرون بوصفهم آخرين، من تَخيُّل نوع الشخصيَّة الأخلاقيَّة والجسديَّة التي يتوجَّب أن أكونها أمام أولئك الذين يرونني ويتكلَّمون معي سواء بشكل يوميَّ أو من حين إلى آخر.

لقد تعوَّدنا جميعاً على التَّفكير في أنفسنا بوصفها حقائق واقعيَّة ذهنيَّة وفي الآخرين بوصفهم مجرَّد حقائق واقعيَّة جسديَّة؛ فالطريقة التي يستجيب بها الآخرون إلينا، تجعلنا نفكر في أنفسنا بغموض على أنَّها كائنات جسديَّة، ونفكر في الآخرين بغموض على أنَّهم كائنات ذهنيَّة، ولكنَّنا لا نتقبَّل في الواقع حقيقة أنَّ الآخر يمتلك روحاً، مثلها نمتلك نحنُ، إلَّا حين نجد أنفسنا واقعين في غرام الآخر أو في صراع معه.

وهذا السّبُ الذي يدفعني في بعض الأحيان إلى أن أفقد نَفْسي في تخيُّلات عقيمة حول نوع الشَّخص الذي أنا عليه بالنّسبة إلى أولئك الذين يرونني، وكيف يبدو صوي، وأيُّ انظباع أتركه في ذاكرة الآخرين اللَّاإراديَّة، وكيف تطبعُ إيهاءاي وكلهايي وحيايي البرَّانيَّة أنفسها عميقاً على شبكيَّة تأويلات الآخرين. لم أتمكن قَطَّ من رؤية نَفْسي من خارجها. فلا مرآة تستطيع أن تُريَنا أنفسنا كأنْفُس برَّانيَّة، لأنَّه لا توجد مرآة تستطيع أن تأخذنا إلى برَّانيَّة أنفسنا. نحتاج إلى روح أخرى، وإلى طريقة أخرى في النَّظر والتَّفكير، وحتَّى لو استطعتُ التَّمثيل في أحد الأفلام، أو تمكنتُ من تسجيل صوت كلامي على قُرص، فأنا على يقين بانني سأظلُّ بعيداً، كلَّ البُعْد، عن معرفة كيف أبدو من برَّانيَّتي، لأنَّني سوف أظلُ، حين أسجّل عن نَفْسي ما أريدُ، عالقاً داخلَ الحديقة العالية الأسوار لوعيي بنَفْسي، سواءً أعجبني ذلك أمْ لم يعجبني.

ولا أعرف إنْ كان الآخرون يشعرون بالشَّيء ذاته، أو إنْ كان عدم الحياة يقومُ أساساً على كون المرء يعيش في غُربة شديدة عن نَفْسه حتَّى يصل بالفطرة إلى الاغتراب الذي يُمكِّنه بالفَّرورة من المشاركة في الحياة كأنَّه غائب عن وعيهِ نَفْسه؛ أو إنْ كان الآخرون، الذين هم أشدُّ منِّي تبصُّراً بأنفسهم، لم يستسلموا كُليَّةً إلى وحشيَّة أن يكونوا أنفسَهم، ليس إلَّا، عائشينَ برَّانيَّين تماماً عبر تلك المعجزة، في حين أنَّ النَّحل يُكوِّن مجتمعات أكثر تنظيماً من أيً

أُمَّةٍ بشريَّة، والنَّمل يتواصل بلغةٍ قُرون استشعارٍ مرتعشة أشد تفوُّقاً من قابليَّتنا المُعقَّدة لأنْ يسئ بعضُنا فهم بعض.

جغرافيَّةُ وعينا بالحقيقة الواقعيَّة ذاتُ تضاريس مُعقَّدة من السَّواحل والبحيرات والجبال الوعرة. ولكنَّي إنْ فكَّرتُ فيها كثيراً، فسوف تبدأ بالظُّهور كأنَّها خريطةٌ تشبه «الخرائط التي تقود إلى أرض الحُبِّ» من أو تلك التي يجدها المرء في «رحلات غوليڤر»، وهي دُعابة صيغَتْ بدقَّةٍ في بعض الكتب العجائبيَّة أو السَّاخرة للتَّرويح عن الكائنات المتفوِّقة التي تعرف أين تكون البلاد بلاداً حقاً.

فكلُّ شيءٍ، بالنِّسبة إلى أولئك الذين يُفكَّرون، مُعقَّدٌ. والتَّفكيرُ، في حدِّ مُتعته المحضة، يزيدُ تعقيدَ الأشياء دون شكِّ. ولكنَّ الشَّخص المُفكِّر يحتاج إلى تبرير زُهده ببيانِ إحاطة طويل مُنمَّق، على شاكلة الأعذار التي يقدِّمها الكذَّابون، مُفرطٍ في تفاصيله التي ما إن تُكشَف، كما يُنفَضُ الغبار عن نبتةٍ، حتَّى يتبدَّى جذرُ الكذبة.

كلُّ شيء مُعقَّدُ أو ربَّها أنا المُعقَّدُ فحسب. ولكنَّ ذلك لا يعنيني في نهاية المطاف، فلا شيء يعنيني في الواقع بناتاً. فهذا كُلُّه، وجميع تلك التَّبصُّرات التي انحرفتْ عن الصِّراط الرَّئيس، تنمو في حداثق الآلهة المنفيَّة، مثل نباتات متسلَّقة تنمو بعيداً عن الجدران التي يتوجَّب أن تتسلَّقها. بَيْدَ أَنَّني، في هذه اللَّيلة التي ترى نهاية أفكاري المهلهلة وليس خلاصتَها، أتبسَّمُ ضاحكاً من المُفارقة الجوهريَّة التي تجعلها تصعد في روح إنسانيَّةٍ تَيتَّمَتْ قبل أن تُخلَق التُجوم من بواعث القَدر الكُبرى.

212

[929]

دمَّرتُ نَفْسي كي أفهم، فلا بُدَّ، كي تفهمَ، أنْ تنسى أنْ تُحَبَّ. ولا أعرف شيئاً ينطوي على خطأٍ فادح، ولكنَّه في الوقت ذاته طافحٌ بالمعنى، أكثرَ من مقولة ليوناردو داڤنشي إنَّ المرء لا يستطيع حُبَّ شيءٍ أو تُكرْهَهُ إلَّا حين يفهمَه.

تُعذِّبني العُزلة؛ وتضطهدني الصَّحبة. فحضور شخص آخر يُلهيني عن أفكاري؛ أحلمُ بحضورهم بطريقة مُجرَّدة غريبةٍ لا تستطعُ تعريفَها أيُّ فكرة تحليليَّة من أفكاري. أَجدُ فكرةَ السَّفر مغريةً بصورة غير مباشرة، كما لو كان من المحتمل أن تغري شخصاً غيري. مشهد العالم الشَّام البهيُّ؛ فأخطُّ غيري. مشهد العالم الشَّام البهيُّ؛ فأخطُّ رغبة على عُجَالةٍ، مثل شخص ملَّ الإيماءات كلَّها، والرَّتابةُ المُنتظرة للمناظر الطَّبيعيَّة المُحتملة تُعكِّرُ سطح قلبي الرَّاكد (192 مثل ربح عاتية.

ومثلها هي الحال مع الرَّحلات هي الحال مع الكُتُب، ومثلها هي الحال مع الكُتُب هي الحال مع كلِّ شيء آخر... أحلم بحياة متبحِّرة في المعرفة عن طريق الصَّحبة الصَّامتة للقدماء والحديثين، مُجدِّداً مشاعري عبر مشاعر الآخرين، ومالئاً نَفْسي بأفكار متناقضة نابعة من تناقضات المفكِّرين الحقيقيَّين وأولئك الذين لا يمعنون التَّفكير كثيراً؛ بعبارة أخرى: غالبيَّة أولئك الذين يكتبون. بَيْدَ أَنَني في اللَّحظة التي ألتقطُ فيها كتاباً من على المنضدة، تتلاشى رغبتي في القراءة؛ فالحقيقة الفيزيقيَّة لضرورة قراءته تُبطل الرَّغبة في القراءة... وفكرة السَّفر تضمُر بالطريقة ذاتها حين يصدف أنَّني ذاهب إلى أيِّ مكان قُربَ مكان يمكنني في الواقع أن أنطلق منه. فأعودُ، حين أكون عَدَما أنا نَفْسي، إلى النَّقيضَيْن اللَّذَيْن لا ريب فيهها: حياتي البوميّة كعابر سبيل لا يعرفه أحدٌ، وسُهادِ أحلامي اليَقظان.

ومثلها هي الحال مع الكُتُب، فإنها الحال مع كلِّ شيء آخر... ولأنَّ كلَّ شيء يمكن أن يُحلِّم به ليغدو بمثابة انقطاع حقيقيٍّ لتدفُّق أيامي الصّامت، أرفعُ عينيَّ باحتجاج مُتعَبِ إلى

⁽¹⁹²⁾ وهُنَا مثالٌ آحر، جديرٌ بالملاحظة، على تعدُّد «نأويل/نرجمة» المعاني النّاوية عميقاً في الصُّور « لمُحلّفة» التي ينسجها بسرّوا، فأصل هذه العبارة في صيغتها البر تفاليّة «a flor do coração que estagnou» وهي تعني حرفياً. «رهرة قلبي الرّاكد». نرى جول كوستا، في صعته الإنگليزيّة هده، قد ذهبت إلى المعنى «العميق» الذي تنظوي عليه كلمة «زهرة flor»، فترجمتها إلى «سطح surface»، مستندة إلى التّعيرات البلاغيّة التي يأتي فيها «معنى» هذه الكسمة مجارياً على نحو ما آثر ت الدَّهاب إليه (ولاسيّما أنَّ عبارة بسُوّا، في حدِّ داتها، تنطوي على صورة غامضة غموض عثينته الجاعة) مثل عبارة « flor d'agua »، أو عبارة « flor d'agua »، أو عبارة « flor da pele »)، التي تعني حرفياً «زهرة الجند»، ولكنّ معناها المجازي يعني «على الحاقّة» (أن يكون المراعية قد أنه الله المناعية على حافّة الانفجار العاطفيّ، كأنَّ مشاعره عرق يتصبّ من حلده). نرى في هذّين المتاليّن أنْ كلمة « الدي اختارته حول كوستا في ترجمتها هذه. بينذ أثنا نرى ريتشارد زنبث قد آثر، في طبعته الإنگليزيّة، الذّهب إلى المناه المعازي الختارته حول كوستا في ترجمتها هذه. بينذ أثنا نرى ريتشارد زنبث قد آثر، في طبعته الإنگليزيّة، الذّهب إلى تبنّي المعنى الطاهري، فترجم العبارة: «زهرة قلبي التُدليّ للمعاها المجازي، في طبعته الإنگليزيّة، الذّهب إلى تبني المعنى الطّاهري، فترجم العبارة: «زهرة قلبي التُدليّ للعنى الطّاهري، فترجم العبارة « السّارة المنه المُتربة على المنه المُتربة على المُتربة و المُتربة على المُتربة و السّارة المنه المنه المنه المنه المنه المناه المن

الفتاة الهيفاءِ التي لي أنا وحدي، إلى الفتاة المسكينة التي، لو تعلَّمت الغناء، لربَّما كانت من عرائس البحر (193)،

214

[1929]

أيُّ تغيُّر في الجدول الزَّمنيِّ الذي تعوَّد عليه المرءُ يملأ الرُّوح بجدَّة باردة، لذَّة مُفلِقة بعض الشَّيء فالشَّخص الذي يغادر المكتب في السَّاعة السَّادسة عادةً، ثُمَّ يصدف أن يغادر في السَّاعة الخامسة، يشعر على الفور بعطلة ذهنيَّة، ثُمَّ يغتمُّ على الفور أو يكاد، لأنَّهُ لا يعرف ماذا يفعل بنَفْسه.

غادرت المكتب، أمس، في لسّاعة الرّابعة، لوجود عمل لا بُدّ أن أقضيه في الخارج، وبحدود السّاعة الخامسة أنجزتُ مهمّتي. لم أعتد الوجود في الشّوارع في تلك السّاعة فوجدت نَفْسي في مدينة أخرى. كانت ثمّة عذوبة عقيمة للضوء المتواني على واجهات الحوانيت المألوفة، وكان العابرون المعتادون يمشون في مذينة موازية لمدينتي، كبحّارة غادروا الشّاطئ في اللّيلة السّابقة.

ولأنَّ المكتب مازال مفتوحاً منذ تلك السَّاعة، هُرعتُ عائداً، فاعترتِ الدَّهشة الواضحة وجوه الموظَّفين الآخرين الذين ودَّعتهم حين هممت بالمغادرة في ذلك النَّهار. هل عُدتَ بالله عليك؟ نعم، لقد عدتُ. كنتُ مُتحرِّراً من أن أشعرَ ثانيةً، وحيداً مع أولئك الأشخاص الذين رافقوني في كلَّ شيء إلَّا الرُّوح... كان ذلك أشبه بأنْ يكون المرء في المنزل، أقصدُ في المكان الذي لا تنتابه فيه أيُّ مشاعر على الإطلاق.

⁽¹⁹³⁾ تختلف عروسة البحر (السُّيِّرَامة siren) عن حوريَّة البحر mermaid في أنَّ للأولى رأس امرأة فاتقة الحمال وجسا طائر، وللقَّانية رأس امرأة فائقة الجمال وجسد سمكة, وتصوَّر الأولى عادة على أنَّها شريرة. تغوي البحارة، كي تقتمهم؛ فيما تُصوَّر الثَّانية على أنَّها مسالمة تحول عيش حياتها بهدوء بعيد عن البشر، وأطبقت العرب اسم «خَيلات» على ذلك الوحش البحريُّ الحَرافيُّ اللّذي لصفه إنسان ونصعه سمكة. (المترجم)

استيقظتُ مُبكُراً جداً في هذا الصّباح وقد اعتراني ارتباك فجائيٌّ مُضْطَرِبٌ، فجلستُ في السّرير على مهلي شاعراً بالاختناق من سأم لا أستطيع أن أسبر غورَهُ. لم يُثِر هذا الشّعورَ حلمٌ ولا حقيقةٌ واقعة. لقد كان شعوراً بالسَّام المُطلَق والكُّليِّ الذي تمتدُّ جذوره في شيء أو آخر، كانت قوى محجوبة ومجهولة تخوض معركة، في الأعماق المعتمة لروحي، فأضحت كينونتي ساحة الحرب، واهتزَّ كياني كُلَّهُ جرَّاء هذا الصِّراع الحَفِيِّ. وحين استيقظتُ، كان غيانٌ من كلِّ شيء في الحياة يجتاح جسدي. استيقظ رعبُ اضْطِراري إلى العيش وجلسَ بجانبي على السّرير، فَلاحَ لي كلُّ شيء عقياً، وتملّكني انطباعٌ بارد بأنَّ كلَّ معضلة، مها كانتُ، لن تكون قابلة للحلِّ على نحو أكيد.

أَخذَ قَلَقٌ رهيبٌ بأدنى إيهاءاتي ورجَّها، فشعرتُ بالخوف من أنَّني قد أُجنُّ؛ ليس من الجنون، وإنَّها من كوني هُنَاك لا أكثر. كان جسدي كلَّه صرخةً مكبوتة، وقلبي يخفقُ كأنَّه بنشخُ.

أُمَّ خطوتُ بقدميَّ الحافيتَيْن خطوات واسعة وطويلة ومتر نُحة، محاولاً عبثاً أن تكون غير ما كانت عليه، ذارعاً غرفتي الصَّغيرة، مقتفياً أثر خطِّ مائل فارغ عبر الغرفة التي بجانب غرفتي؛ تلك التي لها بابٌ في الزَّاوية المفتوحة على الرِّواق، وحين أضحتُ حركاتي أكثر ترنُّحاً وأقلَّ دقَّة، خبطتُ صُدفة بالفُرش الموجودة على منضدة الزِّينة، وارتطمت بكرسيًّ، ثُمَّ خَبَطَتْ يدي المترنِّحة، دفعة واحدة، الحديد الصُّلب لهيكل السَّرير، أشعلتُ سيكارة دخَّنتُها من دون تفكير، ولم أدرك إلَّا حين رأيتُ ذلك الرَّماد وقد سقط على الوسادة -ولكنُ أنَّى لَهُ ذلك وأنا لم أستلق حتَّى هُناك؟ - أنِّ قد مُسِسْتُ (أو في حالة شبيهة على الأقلِّ في التَّاثير إنْ لم تكنُ في الاسم) وأنَّ وعيي بنَفْسي الذي لم يبرحني في العادة قَطُّ قد باتَ مصهوراً التَّاثير إنْ لم تكنُ في الاسم) وأنَّ وعيي بنَفْسي الذي لم يبرحني في العادة قَطُّ قد باتَ مصهوراً

استقبلتُ قدوم الصَّباح، الضَّوَّ الطَّفيف الهارد الذي يُضفي بياضاً مُزرقاً غامضاً على الأفق الذي ينبلجُ، مثل قُبلةِ امتنانٍ من العالم. ولأنَّ ذلك الضَّوَّ، ذلك النَّهار الحَقَّ، قد حرَّرني، حرَّرني من شيءٍ، ومدَّ يداً حانيةً، تشدُّ أزرَ كهولتي التي لم أَصِل إليها بَعْدُ، وتُربِّتُ

على جبين طفولتي الباطلة، وتُؤوي هجعة البؤس والشَّقاء لحساسيتي التي تفيضُ.

فَيَا لَهُ من صباحٍ هذا الذي يُوقظني على وحشيَّة (١٥٠١) الحياة ورقَّتها المُفرطة على حدَّ سواء!
أكادُ أبكي كي أرى الضَّوء يكبر أمامي وتحتي في الشارع الضيَّق العتيق، وحين تتَسخُ المصارع المؤصدة على حانوت البقَّال في الزَّاوية فتغدو خضراء في الضَّوء الذي يكاد يسطعُ، تغمرُ قلبي سكينةُ حكايةٍ خرافيَّة، وتنسر بُ طمأنينة عدم الشَّعور بشيءٍ عائدةً إليَّ.

فَيَا لَهُ مَن صَباحِ هِذَا الذّي يَجلبُه مَعَهُ الأَلْمُا وَأَيُّ ظَلَالَ تَرَتَّدُ عَلَى أَعَقَابُهَا أَمَامَهُ؟ وَأَيُّ أَسَر أَرِ كَانَت تَتَكَشَّفُ؟ لا شيء: إنَّه صوتُ الترام الأول، فحسبُ، الذي يشبه عود ثقاب ينبر عَتمة روحي، والخُطى الثَّابِنة لأوَّل العابرينَ، والصَّوت الودودُ للواقع الماديِّ الذي يخبرني بألَّا أقلق.

216

[25 دیسمبر 1929] (۱۹۵

وما إن غِيضَ المطر الأخيرُ، فلَم تسقط إلَّا قطرات متقطَّعة من أفاريز السُّطوح، تراءتُ زُرقة السَّماء المنعكسة على طول منتصف الشَّارع المرصوف بالحصى، حتَّى تنكَّبتْ حركة السَّير أغنية مختلفة، أعلى وأبهجَ، فتعالى صوت النَّوافذ وقد فُتحتْ كي تُحيِّي عودة الشَّمس النَّسَّاية. ثُمَّ، أسفلَ الشَّارع الضَّيِّق، على طول الزَّاوية المجاورة، تعالتْ صيحة بائع اليانصيب، ودوَّى صوتُ المسامير، التي تُدقُّ بالصَّناديق في الحانوت المجاور، حولَ المكان المشرق.

كانت الأجواء كعُطلة اختياريَّة، قانونيَّة تماماً، ولكنْ لم يلحظها أحد. عاشت الرَّاحة والعمل، بعضها قرب بعض، فلم يكن لديَّ شيءٌ أقوم به البَّة. نهضتُ باكراً ولكنَّني توانيتُ في تحضيرات وجودي. مشيتُ من طرف الغرفة إلى الآخر، حالماً بصوت عال بأشياء مستحيلة وغير مترابطة - إيهاءات نسبتُ أن آتي بها، طموحات مستحيلة لم تتحقَّق إلَّا عشوائياً فحسب، محادثات طويلة وثابتة كانت ستحدث لو قمتُ بها. وفي حلم اليقظة، هذا، المتجرِّد

⁽¹⁹⁴⁾ يستخدم بِشُوا، هُنَا، كلمة «estupidez»، التي تعني، حرفياً: التَّفاهة/الغباء؛ ولكنَّ جول كوستا تنتعد هما عن الحَرْفَيَّة، فتفضَّل تترجمها بـ «الوحشيَّة/الهمجيَّة brutishness» كي تتناغم مع الشقّ الثاني من العبارة الذي يتحدث عن «رقّة» الحياة. (المترجم)

⁽¹⁹⁵⁾ خطُّ بِسُوًّا هذا التاريخ في الأصل على هذه الشَّاكلة: 1929/XII/25، مستخدماً الصَّيغة الرُّومانيَّة للرَّقم 12. (المترجم)

من الأُبَّة والسَّكينة، في التَّسكُّع اليائس السَّرمديِّ، بدَّدَتْ قدمي الماشيتان صباحيَ الحُرَّ، وكلها المنطوقةُ عالياً بصوت خفيض تضاعفتْ حين دوَّتْ حول صومعة عُزلتي البسيطة. ثُمَّ، منظوراً مِن خارجه، تراءى شكلي الآدميُّ سخيفاً على الشَّاكلة التي يتراءى فيها كلُّ إنسان حين يُرَى منعز لا وحده. فارتديتُ، فوقَ النَّياب البسيطة للنَّوم المهجور، معطفاً عتيقاً أرتديه في تلك اليقظات الصَّباحيَّة. كانت فردتا خُفِي القديمتان، ولاسيِّم الفردة اليُسرى، متشقِّقتَيْن كثيراً. ثُمَّ، بخطى طويلة حاسمة، ويداي في جيبَي معطفي الذي سأرتديه بعد وفاتي، سرتُ في جادَّة غرفتي الصَّغيرة مستمتعاً، في تلك الأفكار العبثيَّة، بحلم على شاكلة أحلام الآخرين تماماً.

ويستطيع المرءُ أن يسمع، في البرودة التي تدخل عبر النّافذة، القطرات الرّيّانة تسقطُ من الأسطح، وقد غيضَتْ في هذه الأثناء مياهُ الأمطار التي تجمّعتْ. وكانت ماتزال ثمّة إشارة خفيّةٌ من الأجواء العذبة التي خلّفتها وراءها. ولكنّ السّماء كانت زُرقة تستحوذُ على كلّ شيء، والغيومُ التي خلّفها المطرُ المدحور المُتعَبُ انسحبَتْ فوق جدران القلعة، متنازلةً عن جميع الدُّروب الشرعيّة التي تقود إلى السّماء.

كان وقتاً للسّعادة، ولكنَّ شيئاً قد اشتدَّتْ وطأَتُه عليَّ، حنيناً غامضاً، رغبة مجهولة ولكنَّها ليستْ وضيعة تماماً. ربَّها استغرقتُ وقتاً كي أُعوِّد نَفْسي على إحساسِ أن أكون على قيد الحياة. وحين مِلتُ خارج النَّافذة العالية فوق الشَّارع الذي نظرتُ إليه دون أن أراهُ، شعرتُ فجأةً كأنِّ إحدى تلك الخِرَق الرَّطبة التي تستخدم عادةً لتنظيف أشياء المنزل المُتَسخة فتُنشَر على النَّافذة كي تجفّ، ولكنَّها تُركتُ هُنَاك، هذه المرَّة، مُكوَّمةً على حافَّة النَّافذة التي تُبقّعها على مهلها.

217

[?1929]

أحسدُ -على الرَّغم من انَّني لستُ متأكِّداً إن كان احسد الكلمةَ المناسبة- أولئك الذين يستطيع المرء كتابة سيرتهم الغَيْريَّة، أو الذين يستطيعون كتابة سيرتهم الشخصيَّة. ولكنَّني، عبر تلك الانطباعات غير المترابطة قصداً، الرَّاوي اللَّامبالي لسيرتي الشخصيَّة الخالية من الأحداث، ولتاريخي الذي لا حياةً فيه. هذه اعترافاتي، وإذا كنتُ لا أقول فيها شيئاً، فذاك لأنّني لا أملكُ شيئاً لأقوله.

ما الذي يستحقُّ أن يكون جديراً بالاعتراف أو يكون ذا غاية نافعة؟ فيا حدث لنا: إمَّا أنه حدث للجميع، وإمَّا لنا وحدنا؛ فإنْ كان للجميع، فلن يكون ذا قيمة جديدة؛ وإنْ كان لنا، فسوف يكون عصياً على الفهم. أخطُّ ما أشعر به كي أخفض حُمَّى الشُّعور. لا قيمة لما أعترف به، لأنَّة لا قيمة في الأصل لأيِّ شيء. أُوجِدُ مناظرَ طبيعيَّة بها أشعر به. أقضي عُطلةً من الأحاسيس. أفهم النِّساء اللَّواتي يُطرِّزن بدافع الحزن واللَّواتي يَحكن بالسِّنارة لأنَّ الحياة هي ما عليه الحية. بدَّدت عمَّتي الكهلةُ مساءاتها اللَّانهائيَّة تلعبُ السُّوليتير، اعترافاتُ مشاعري تلك هي لعبتي السُّوليتير، ولكنَّني لا أُفسَّرُ أوراق اللعب مثلها يفعل بعضُهم كي مشاعري تلك هي لعبتي السُّوليتير، ولكنَّني لا أُفسَّرُ أوراق اللعب مثلها يفعل بعضُهم كي أعرف المستقبل. ولا أتفرَّسُ فيها، كها في لعب السُّوليتير، فلا قيمةَ للأوراق في ذاتها. أحلُّ نَفْسي كشِلَّة غَزْل مُلوَّنة، أو أصنعُ من نَفْسي أمهدةَ قِطَط (196) كتلك التي ينسجها الأطفال حول أصابعهم المُتيبِّسة ويمرِّرونها من واحد إلى آخر. وأحرصُ على ألَّا يُفلِتَ إبهامي الحلقة الحيويَّة، ثُمَّ أقلبُها لأكشف عن شكل مختلف، وأبدأً من جديد.

وليس العيش إلا كمثل حياكة أشكال بالسّنارة وفق تصميم وضعه شخص آخر. ولكنَّ المرء حين يبدأ في العمل، تتحرَّرُ أفكارُه، ويصبح جميع الأمراء المسحورين الذين وجدوا في الحياة أبداً، حين تغوص السِّنارة العاجيّة في الصُّوف ثُمَّ تخرج منه، أحراراً بالتنزُّه في مُتنزَّها تهم. حياكة الأشياء بالسِّنَارة ... فاصلٌ ... لا شيء...

فأيُّ صفاتٍ فِيَّ أستطيعُ الاعتباد عليها، فضلاً عن ذلك؟ إدراكُ أحاسيس رهيبٌ، ثاقبُ النَّظر، ووعيُ مشاعر عميقٌ... بصيرة ثاقبةٌ تُدمِّرُ نَفْسَها بِنَفْسها وموهبةٌ استثنائيَّة للحُلم فأُسلِي بالأحلام نَفْسي... وإرادةٌ فانية وروحٌ تأمُّليَّة تُهدهدها مثل طفلة حيِّ... خلاصة القول، حياكةٌ بالسِّنَارة...

⁽¹⁹⁶⁾ تستخدم جول كوستا، لهنا، التُعبر cat's cradles مقابلاً لعبارة بِسُوّا «ou faço comigo figuras de cordel» (* أصنع من نَفْسي أشكالُ خيوط)، وهو التعبير الإنگليزيُّ الشَّائع للعبة الخيطان التي يلعبها الأطفال وفق ما يشرح بِسُوّا نفسه في الجملة التي تليها. (لمترجم)

ولا شيء من حولي إلّا الكونُ المُجرَّد، العاري، الذي لا يتكوَّنُ إلّا همَّا هُوَ نقيضُ اللَّيل. وبقيتُ مُفرَّقاً بين الإعياء والقلق حتَّى قاربتُ، بجسدي، علماً غيبيًا عن سرِّ الأشياء. وتَرِقُ روحي في بعض الأحيان فتطفو التَّفاصيل عديمة الشَّكل للحياة اليوميَّة على سطح وعيي وأخطُّ ميزانيَّة عموميَّة (١٩٥١) على ظهر أرقي. أستيقظُ، في أوقات أخرى، وقد رانَ الكرَى عليَّ (١٩٥١) فأستلقى خاملاً، وصورٌ غامضة بألوان شعريَّة عشوائيَّة تتركُ عرضَها المسرحيَّ الصَّامت أن يمرَّ أمام ذهني السَّاهي. عيناي ليستا معمضتيُّن تماماً. ونظري الضَّعيف مُهدَّبٌ بضوء بعيد ينبعث من مصابيح الشَّارع التي مازالت مضاءةً في الأسفل، في مناطق الشَّارع المهجورة. ليتني أكفُّ، فأنام، فأبدِّلُ هذا الوعي المتقطّع بأشياء أفضلَ، أشدَّ كآبة، قِيلَتُ في ليتني أكفُّ، فأنام، فأبدِّلُ هذا الوعي المتقطّع بأشياء أفضلَ، أشدَّ كآبة، قِيلَتُ في ليتني أكفُّ، فأنام، فأبدِّلُ هذا الوعي المتقطّع بأشياء أفضلَ، أشدَّ كآبة، قِيلَتُ في

ليتني أكفّ، فأنام، فأبدًل هذا الوعي المتقطع بأشياء أفضل، أشد كآبة، قيلت في السرِّ إلى أحد الغرباء!... أكفُّ، فأتدفَّقُ مثل نهر، كمدِّ بحر شاسع وجَزْرهِ على طول سواحل تُرَى في ليل يستطيع حَقَّا أن ينام فيه المرءُ!... أكفُّ، فأكون مجهولاً وبرَّانياً، رعشةَ الأغصان في جادًّاتِ قصيَّة، وسقوطَ أوراق الأشجار الهشَّ الذي يشعر به المرءُ دون أن يسمع الأوراق وهي تسقط، والبحر الماكر؛ بحر الينابيع البعيدة، وعالم الحدائق الغامض برمَّته في اللَّيل، الضَّائعَ في تعقيدات لا نهائيَّة، والمتاهات الطبيعيَّة التي للظّلام!... أكفُّ،

⁽¹⁹⁷⁾ الدي تضاعف أربعة أمثال حجمه الأصليّ. (المترجم)

⁽¹⁹⁸⁾ العبارة التي يستخدمها بِسُوًّا في الأصل هي «lançamentos» و تعني: ترحيل القيود المحاسبيَّة في دفتر الحسابات. (المترجم)

⁽¹⁹⁹⁾ أُستخدُم، هُنَا، عبارة «وقد رانَ الكَرَى عليّ» مقابلاً لعبارة «the half-sleep» (تعني حرفيّ: نصف النّوم؛ وهي عبارة تصنق عبدما لا يكون المرء قد استيقظ تماماً أو استيقظ وهو يشعر بتعب شديد) التي وضعتها جول كوست مقابلاً لعبارة يشوًا «meio-somno» (= نصف النّوم). والكّرَى في العربيّة هي تمك الحالة بس البقظة والنّوم. (المترجم)

فأنتهي مرَّة واحدة وإلى الأبد، كي أُوجَد في شكل آخر: صفحة في كتاب، خُصلة شعر مرخيَّة، كرمة تعترشُ متهايلة خارج نافذة نصف مفتوحة، خطى متواضعة على الحصى الأملس في عَطْفَة درب، لقَّة الدُّخان الأخيرة عالياً فوق قرية آنَ تغرق في النَّوم، السَّوط الخامل لسائق العربة اللَّتوقة عند حافَّة الطَّريق في الصَّباح... العبث، الحيرة، الفناء - أيُّ شيء إلَّا الحياة...

ولكنّني أنامُ في حياة الرَّجم بالغيب الخاملة هذه، بطريقتي الخاصَّة، التي هي بلا نوم أو راحة، وفوقَ جفنيَّ المضطربين يُحوِّمُ، كالزَّبد الصَّامت لبحرٍ وضيع، الوميض البعيدُ لمصابيح الشَّارع الأخرس في الأسفل.

أنام، وأنام والكرى قدران في عينيّ.

وخلفي، خلف المكان الذي أستلقي فيه، صمتُ المنزل يلمسُ المُطلَق. أسمع الزَّمن يسقط، قطرة قطرة، ولكنَّني لا أسمعُ القطراتِ أنفسَها تسقط. قلبي يضطهدُ ذاكرتي جسدياً؛ ذاكرتي حالتي صارتُ عدَماً عن كلِّ شيء كانَ وكلِّ ما كنتُهُ. أشعرُ برأسي يستريح على الوسادة التي جعلتُ فيها وَهُدَةً. ولمسُ غطاء الوسادة كمثل جِلْدٍ يلامسُ جِلْداً في الظّلال. والأُذُن التي أستلقي عليها تطبعُ نَفْسَها رياضياً على عقلي. وأجفاني تتللَّ من التَّعب ورموشي تُحدِثُ نَأْمَةً خافتة أو تكدُ فوق البياض الحساس للوسادة الريَّانة. أزفرُ أنفاسي، وأتنهَّدُ، وأنفاسي التي ختلُ مكاناً مُحدَّداً أزفرُ ها ليستْ أنفاسي. أُعاني بلا شعور أو تفكير. وفي المنزل، السَّاعةُ، التي تحتلُ مكاناً مُحدَّداً في قلب الأشياء، تدقُّ نصف السَّاعةِ، حادَّة، وعقيمةً. كلُّ شيء كثيرٌ جدّاً، وعميقٌ جداً أسودُ وباردُ!

أمرُّ عبر الزَّمن، عبر الصَّمت (200)، مثلها تمرُّ العوالم عديمة الشَّكل من خِلالي.

فجأة، كطفلِ السِّرِ المتبرئ من وجودِ اللَّيل، ديكُ يصيحُ. أستطيع النَّومَ الآن فالصَّباحُ قد أشرقَ فِيَ. ثم أشعرُ بشفتيَ تبتسان، تنضغطان برقَّةٍ في الطَّيَّات الوثيرة للوسادة الني تخضنُ وجهي. أستطيع هجرَ نَفْسي من أجل الحياة، أستطيع النَّوم، وأستطيع نسيانِ... ثمَّ عبر النَّوم الجديد الذي يكتسحني غامضاً، أتذكَّرُ الدِّيكَ الذي صاحَ؛ فَإِمَّا ذَاكَ وإمَّا أَنَّهُ هُوَ الذي، في الحقيقة، يصيحُ للمرَّة الثَّانية.

في الأيّام القليلة الأولى من هذا الخريف الفجائيّ، حين تبدو العتمة قد حلّت قبل أوانها بطريقة ما، تتبدى الحياة وكأنّنا توانينا كثيراً في أعمالنا اليوميّة. وحتّى في غمرة جولتي اليوميّة، أتمتّع مُسبقاً بلذّة العطالة عن العمل التي تجلبها العتمة معها، فالعتمة تعني اللّيلَ واللّيلُ يعني النّوم والمنزل والحريّة. وحين تُضاء الأنوار في المكتب الكبير، طاردة العتمة، فنتقل بلا مشقّة من النّوبة النّهاريّة إلى الورديّة المسائيّة، ينقضٌ عليّ إحساسٌ عبثيٌ بالرّاحة، مثل ذكرى من زمن آخر، فأشعر بالرّضى عمّا أكتبُ، كما لو كنتُ جالساً أقر أُ لِنَفْسي كي تنام في السّرير.

ونحن، جميعاً، عبيدُ ظَرفِ خارجيِّ: يستطيعُ نهار مشمسٌ أَن يُجلِّي أمامنا، حتَّى على طاولة بمقهى في شارع خلفيِّ، رؤى حقول واسعة؛ ويستطيعُ ظلُّ يخيِّم على الرِّيف أن يجعلنا ننكمش في أنفسنا، باحثين عن ملاذ غير مريح في منزل أنفسنا الذي بلا أبواب؛ وحتَّى هبوطُ العتمة في غمرة الأشياء النهاريَّة يستطيعُ أن يُوسِّع، كمروحة تنتشرُ على مهل، حدود وعينا العميق بحاجتنا إلى الرَّاحة.

ولكنَّ ذلك لا يعيقُ أع النا، بل إنَّه، بالأحرى، يُبهجنا. لم نَعُد نعمل بتاتاً؛ إنَّنا نستمتع بالعمل المحكوم علينا تأديته. ثُمَّ، فجأةً، على الصَّفحة المُسطَّرة الشاسعة لِقَدَري كمحاسب، ينتصبُ منزل عَ إِنِ الكهلات، مغلقاً على العالم عماماً، في حين مايزال الشَّاي يُقدَّم في السَّاعة العاشرة الطَّاوفحة بالنُّعاس، ومصباحُ الزَّيت، مصباح طفولتي المفقودة، وبركةُ نوره التي لا تضيء سوى مفرش الطَّاولة، تغمرُ عتمةَ رؤيتي لمُوريرا، البعيد عنِّي بُعْدَا لا حَدَّ لَهُ، تُنيره في هذه اللَّحظة كهرباء سوداء. تُقدِّم الشَّاي الخادمة التي هي أكبرُ سِناً من عبَّاتي، جالبة إيَّاه، وقد ران النَّعاس الخفيف في عينيها، بالرُّقَة الصَّبورة، حادَّة الطَّبع، التي تتمتَّع بها الخادمات الكهلات – ولكنَّني لم أغلط مرَّة في تدوين رقم أو مجموع طيلة ماضيَّ الميت. ولقد استغرقتُ في نفسي في تلك اللَّيالي البعيدة، لا يُلوِّتني الواجبُ ولا العالمُ، نقياً من الأسرار والمستقب، نقاءً بلا دَنس.

في لشدَّة رقَّة هذا الشُّعور الذي يُشتَّنني عن خانات المدين والدَّائن إلى درجة أنَّني أُجيب عن أيِّ سؤال قد يسأله أحدٌ برقَّة مماثلة، كما لو كانت كينونتي جوفاء في حدِّ ذاتها، كأنَّني لستُ إلا آلة كاتبة أهملها معي، نسخة منقولة من نَفْسيَ المكشوفة. وانقطاع أحلامي على تلك الشَّاكلة لا يضايقني، فهي في غاية الرَّقة إلى درجة أنَّني أواصل الحلم بها حتَّى وأنا أتكلَّم، وأكتب، وأُجيب، وأُواصل المحادثة. وأخيراً، يقترب وقت الشَّاي الضَّائع من أبيته وقد أزف وقت إغلاق المكتب. أغلق الكتاب على مهلي وأرفع عينيَّ المنهكتين من الدُّموع غير المسفوحة، ثُمَّ، من بين جميع المشاعر المتخيَّلة التي يثيرها هذا كلُّه، يعتريني، أكثر من أيَّ شيء آخر، شيءٌ من الحزن بأنَّ إغلاق المكتب قد يعني نهاية حُلمي؛ وأنَّ إيهاءة أكثر من أيَّ شيء آخر، شيءٌ من الحزن بأنَّ إغلاق المكتب قد يعني نهاية حُلمي؛ وأنَّ إيهاء يدي وهي تغلق الكتاب قد تعني حجبَ ماضيَّ الذي لا يُعوَّض؛ وأنَّني سوف أذهب إلى مرير الحياة، لا يمسسني تعبُّ البتَّة، وإنَّ بلا صاحبة، ينهشني القلقُ، عالقاً في مَدِّ وعي المشوَّسِ وجَزْره، كأنَّ مَدَّيْن توأمين يجريان في اللَّيل البهيم، عند الحدود الخارجية للحنين والوحشة.

220

[5 فبرابر 30] (201

ليستِ الجدرانُ المتصدِّعة لغرفتي العاديَّة، ولا مكاتبُ الكتابة القديمة في المكتب، ولا حتَّى بؤسُ شوارع بَايْشَا اليوميَّة التي تفصل بين الغرفة والمكتب (الشَّوارع التي مشيت فيها كثيراً حتَّى بدت كأنّها قد استقرَّتْ ثابتةً في موضعها على نحو يتعذَّر تغييره) هُوَ ما يُثير فِيً مشاعرَ الغثيان المتكرِّرة جرَّاء روتين الحياة اليوميَّة الوضيع. إنَّهم النَّاس من حولي الذين يتركون عُقدة الغثيان الفيزيقيِّ هذه في روحي، الأرواح التي لا تعرفُ شيئاً عني، ولكنَّها يتعاملني، في تواصلها اليوميِّ وأحاديثها معي، كأنَّها لا تعرفُ. وإنَّه رجسُ هذه الحيوات الرَّتيب الذي ينتشرُ إزاءَ حياتي البرانية، وإنَّه يقينُهم الجوَّانيُّ في أنَّهم أندادي هُوَ الذي يلسعني بالسِّياط على ظهر سُترتي الضَّيقة التي تُقيِّدُني (202)، ويحبسني في الزِّنزانة، ويجعلني أشعرُ بأنَّن بالسِّياط على ظهر سُترتي الضَّيقة التي تُقيِّدُني (202)، ويحبسني في الزِّنزانة، ويجعلني أشعرُ بأنَّن ووضيع.

⁽²⁰¹⁾ تُورد جول كوستا رقم السُّنة، لهُمَا، على هذا لتَّحو: 30 وليس 1930، سيراً عنى نهج بيسارُّو في طبعته. بيَّدُ انَّ بِسُؤًا كتب التَّريخ برمَّته، في الأصل، على هذه الشَّاكلة: 30/2/5. (المُترجم)

⁽zoz) Straitjacket (وفي البرتغاليّة: traje de forçado): تشبه السترة التي يسسونها لسمجاس كي تمنعهم من تحريث أياديهم. (المترحم)

وثمّة لحظات تثير فيها اهتهامي كلَّ تفصيلة من تفاصيل العاديِّ، في حدِّ ذاتها، فأشعرُ بالعاطفة تجاه كلِّ شيء، لأنّني أستطيع قراءته بكلِّ وضوح. فأرى، حينتذ حمثلها يقول ڤيرا إنَّ شُوزا، في صوره الوصفيَّة، قد رأى – فردانيَّة العاديِّ، فأغدو شاعراً بمتلك روحاً على شاكلة تلك التي أوجدَت، بين الإغريق، العصرَ الفكريَّ للشّعراسة. ولكنْ، ثمّة لحظات أخرى، كهذه اللَّحظة، حين أشعرُ باضطهاد نَفْسيَ الشَّديدِ ووعيها الشَّديدِ الرَّاغب في أن تكون واعية بالأشياء الخارجية، فيغدو كلُّ شيء، حينتذ، بالنِّسبة إليَّ، ليلةً ماطرةً مُوحلة، وأنا وحيد وضائع في محطَّة قطارات مهجورة، وقطارُ الدَّرجة الثَّالثة الأخير قد غادر منذ ساعات والقطار التَّالي لم يصل بَعْدُ.

أمّا فضيلتي الجوّانيَّةُ - قُدرتي على التَّفكير بموضوعيَّة التي تمنعني من التَّفكير في نَفْسي - فإنّها تعاني من أزمة ثقة، على شاكلة جميع الفضائل والرَّذائل على حدِّ سواء. ثُمَّ أتساءل بشأن قُدرتي على النَّجاة، وحضوري الجبان هُنَا بين هؤلاء البشر، على أسس المساواة التَّامَّة، في انسجام حقيقيً مع أوهامهم السَّخيفة كلِّها. وجميع الحلول التي تفتَّقتْ عنها محيَّلتي تومضُ على عقلي مثل أشعَّة تلوح من منارة بعيدة: انتحارٌ، طيرانٌ، زُهدٌ؛ خلاصة القول: الإيهاءات الأرستقراطيَّة الكبرى لفردانيَّتنا، العباءة - و الخنجر للوجود (203) الذي على شاكلة وجودي، حيث لا شُرفات نصعد إليها.

ولكنَّ جولييت المثاليَّة الموجودة في الواقع الأمثل قد أغلقت النَّوافذ العالية للخطاب الأدبيِّ على روميو المُتخيَّل في دمي. تطيعُ والدها، وهو يطيع والده. والمبارزة التي دارت بالشَّيوف بين عائلة مونتاغو وعائلة كاپوليت مازالت دائرة؛ تُسدل السِّتارة على الذي لم يحدُث؛ وياقةُ زميلي في المكتب قد ظهرتْ بعفويَّةٍ فجأةً حول رقبة شاعرٍ، وحذائي الذي دائماً ما أشتريه من المتجر ذاته يتفادى بالفطرة بركَ مياه المطر الباردة، فأعود إلى المنزل (إلى تلك

⁽²⁰³⁾ تستخدم جول كوستا، هُذَ، عبارة cloak and-dagger (العباءة والخنجر: وهي عبارة تستخدم للإشارة إلى الحكايات/الأحداث المليئة بالمغامرات والسُّحر وقصص الغدر والخيانة والتآمر) أو ما يعرف، أيضاً، باسم اله (Swashbuckler» (حكايات المغامرين الصَّائشين)، في مقابل عبارة بسُوّا «في مهالل عبارة بسُوّا « (العباءة والسَّيف»، ولكنها ننسحب في استخدامها على المعى أعلاه. وقد آثرت استخدام العبارة مثما هي في الأصل، دون أيّ تأويل، سير على نهج جول كوسنا، وبِسُوّا نفسه، ولا بُدّ من الإشارة إلى أنّ بِسُوّا يستحدم كلمة (الوجود» بصيغة ، لجمع في إشارة مه إلى أنّ لكل شي، وحوداً مستقلاً بذاته. (المترجم)

الغرفة حيث مالكةُ المنزل الغائبة الخسيسةُ في الواقع خِسَّةَ الأطفال الذين يُشاهَدون لماماً وزملاء المكتب الذين سوف أقابلهم ثانيةً في الغد)، مُوجساً خِيفةً بأنَّني قد أفقدُ شمسيَّتي وجلالَ روحي على حدُّ سواء.

221

[21 فبراير 1930]

فجأةً، كأنَّ القدر قد بات جرَّاحاً، ثُمَّ أجرى بنجاح ساحق عمليَّة لعمى قديم، رفعتُ عينيَّ من حياتي المجهولة إلى المعرفة الواضحة لطريقة وجودي. أرى أنَّ كلَّ شيء فعلته، وكلَّ شيء فكتُتُه، ضربٌ من الوهم والجنون. أتعجَّبُ من أنَّني لم أرَّ ذلك من قَبْل. يدهشني كلُّ شيء كُنْتُهُ ويدهشني أنَّني أرى في هذه الأثناء أنَّني لم أكنه.

أنظرُ إلى حياتي الماضية كما لو كانت سهلاً ممتداً تحت شمس تشرقُ للتوِّ عبر السَّحاب، فأرى، تعتريني صدمةٌ غيبيَّة، كيف أنَّ جميع إيهاءاتي الأشدَّ خَقُقاً، وجميع أفكاري الأشدَّ وضوحاً ومقاصدي الأشدَّ منطقيَّة، لم تكن بعد كلِّ شيء إلَّا سُكْراً فطرياً، وجنوناً طبيعياً، وجهلاً هاثلاً. فلقد كنتُ الإيهاءاتِ فحسبُ، وليس المُمثَّل.

كلُّ شيء فعلته، أو فكَّرتُ فيه أو كانَ، بدا متواليةً من خُضُوعٍ إمَّا إلى كيانِ باطل اتَّخذتُه ليكون نَفْسي، لأنَّ جميع أفعاني قد صدرت عنه؛ وإمَّا إلى قوَّةِ ظَرْفِ اتَّخذتُه ليكون الهواء الذي تنفَّستُه. ثُمَّ أغدو، فجأةً، في لحظة الرُّؤيا هذه، شخصاً متوحّداً يُدرك أنَّه قد نُفيَ من البلد التي طالما عَدَّ نَفْسه مواطنًا فيها. فَلَمْ أَكُنِّي في جوهر كلِّ شيء فكَّرتُ فيه.

يستبدُّ بِي رعبُ الحياة المُتهكِّمُ؛ الكآبةُ التي تفيضُ عن حدود كينونتي الواعية. أعرفُ النّبي لم أكُنِ قَطُّ إلَّا بمعنى أنَّني قد ملأتُ النّبي لم أكُنِ قَطُّ إلَّا بمعنى أنَّني قد ملأتُ الوقتَ بالوعي والفكر. وإنِّي أحشُ نَفْسي إحساسَ شخص يمشي بعد نوم طافح بأحلام حَقَّة، أو مثل شخص حرَّرته هزَّةٌ أرضيَّة من الضَّوء الكليل للسِّجن الذي تعوَّد عليه.

شديدةُ الوطأة عليَّ هذي الفكرةُ الفجائيَّة عن الطَّبيعة الحَقَّة لكَينونتي الفردانيَّة التي لمٍ تفعل شيئاً إلَّا الشُّروع في رحلات وسنانةِ بين ما شعرتُ به وما قد رأيتُه، شديدةُ الوطأة علي كأنَّها حُكمٌ ليس بالإعدام وإنها بالمعرفة. من الصّعب جداً وصف الشُّعور الذي ينتاب المرء حين يشعر المرءُ بأنَّه غير موجودٍ وأنَّ الرُّوح كينونة حَقَّة، وأنَّني لا أعرف أيَّ الكلمات البشريَّة أستطيع استخدامها لتعريف هذه الكينونة. لا أعرف إنْ كانت الحُمَّى تنتابني حين أشعرُ أمْ أنَّني شُفِيتُ أخيراً من مُمَّى سِنَةِ النَّوم التي تأخذُ في عبر الحياة. نعم، إنَّني أُشْبِهُ رحَّالةً يجد نَفْسه فجأة في بلدة غريبة ولا فكرة لديه كيف وصل إلى هُنَاك، فأتذكَّرُ بعض حالات فقدان الذَّاكرة؛ أولئك الذين، حين فقدوا ذاكرة حيواتهم السَّابقة كلَّها لوقت مديد، عاشوا مثلها يعيش الآخرون. ولقد كنتُ شخصاً آخر، سنينَ عدَّةً –منذ الوقت الذي ولدتُ فيه وبتُ كينونةً واعية - والآنَ أستيقظُ فجأةً لأجد نَفْسي واقفةً في منتصف الجسر، ناظرةً إلى النَّهر، عارفة بإيجابيةٍ أكثرَ من أيِّ وقت مضى أنَّني موجودٌ. ولكنّني لا أعرف المدينة، الشَّوارع جديدة عليَّ والغثيانُ عضالُ. أنتظرُ، مُتَكِناً عل الجسر، أن تمرَّ الحقيقة كي أستطيع استعادة نَفْسي العَدَم، الخيَّاليَّة، البصرة، الطَّبيعيَّة.

لم يَدُم ذلك إلّا لحظة وهَا قَدِ انقضَتِ الآن. أرى الأثاث من حولي، والرَّسمَ على ورق الجدران العتيق، والشَّمسَ عبر زجاج النَّوافذ المُغبرِّ. رأيتُ الحقيقة بُرهة. فكنتُ، لبرهة واعية، ما يكونُه البشر العِظَمُ طيلة حيواتهم. أتذكَّرُ أفعالهم وكلماتهم، فأتساءلُ إنْ كان أيضاً قد أغواهُمُ الواقعُ الشَّيطانُ فاستسلموا له. لا بُدَّ ألَّا يعرف المرءُ شيئاً عن نَفْسه كي يعيش. ولا بُدَّ أن يُفكِّر كي يعرفَ القليل عن نَفْسه. فالتعجُّل في معرفة النَّفْس، مثلها فعلتُ في لحظة الإشراق الصَّافي تلك، هُوَ القبضُ على فكرة لايبتس (200) الدَّائرة حول الجوهر الفَرد للسيطر، الكلمة السّحريَّة للروح. ضوءٌ فجائيٌّ يسفع كلَّ شيء ويُبدِّده، يُجرِّدنا عراةً حتَّى من أنفسنا.

لم تكُن إلّا لحظةً واحدةً، ولكنّني رأيتُ نَفْسي، ولا أستطيع حتّى أن أقول في هذه الأثناء ماذا كنتُ. بَيْدَ أنّني أشعرُ بالنّعاس، بعد كلّ شيء، لأنّني أظنُّ –على الرّغم من أنّني لا أعرف لماذا حقاً– أنّ معنى ذلك كلِّه هُوَ أن أنام، ليس إلّا.

⁽²⁰⁴⁾ غوتقريد فيلهنم لاينتس Leibniz: فينسوف وعالم رياضيًّات ألماني. (لمترجم).

[14 مارس 1930]

الصَّمتُ المنبعث من صوت سقوط المطرينتشرُ في حِدَّة تعاظُم الرَّتابةِ الكئيبة على طول الشَّرع الضَّيِّق الذي أُحدِّقُ في الأسفل إليه. أنامُ على قدميَّ، ماثلاً إلى النَّافذة، كأنْ لا شيء الشَّرع الضَّيِّق الذي قبل هذا السُّقوط المُتنسِّل آخر في العالمَ. أبحثُ عن نَفْسي كي أعرف المشاعرَ التي كانت لديَّ قبل هذا السُّقوط المُتنسِّل لمياهِ داكنة، نيِّرة، تتجلَّى واضحةً على الواجهات المُتَسخة، حتَّى إنَّها أوضح على النَّوافذ لما المفتوحة. لا أعرف بهاذا أشعر، ولا أعرف بهاذا أفكر ولا أعرف ماذا أنا.

وأمامَ عينيَّ القاسيتَيْن، المرارةُ المكبوتة لحياتي برمَّتها تتقشَّرُ من على بذلة الفرح الطبيعيِّ التي ترتديها في العشواتيَّة اليوميَّة المديدة. أُدرك آنَّني دائهاً حزينٌ، مهما شعرتُ في الغالب أنَّني سعيد أو راض. وبعضي الذي يُدرك ذلك يقفُ ورائي قليلاً، كأنَّه يميلُ عليَّ وأنا واقفٌ عند النَّافذة، ويُحدِّقُ إلى الخارج، بعينَيْن أكثر نفاذاً من عينيَّ، مِن فوق كتفي، ومن فوق رأسي، على المطر المتموِّج خفيفاً على مهله، الذي يُخرِّمُ الهواءَ البنيَّ الشَّرير.

لا بُدَّ للمرء أن يتخلَّى عن الواجبات جميعاً، حتَّى تلك التي لم تُطلَب منَّا، وأن يرفض جميع البيوت الدَّافئة المريحة، حتَّى تلك التي ليست لنا، وأن يعيش على كلِّ ما هُوَ غامض وأثريُّ، بين أُرجوانيَّات الجنون الباذخة والدَّانتيلَّا الخياليَّة للبَهاءاتِ المُتخيَّلة... أن يكون شيئاً لا يشعرُ بوطأة المطر في الخارج، أو ألم الخواء الجوَّانيِّ... وأن يطوف بلا روح، وبلا أفكار، مُجرَّد إحساس صاف غير شخصيً، على طول طرق جبليَّة ملتوية وعبر أودية مخبوءة بين تلال مُتحدِّرة؛ بعيداً، وشارداً، وقليلَ البخت... وأن يفقدَ نَفْسه في مناظر طبيعيَّة نشبه اللَّوحات. أن يكون عدَماً في المسافة البعيدة وفي الألوان...

آمناً خلف زجاج النّوافذ، لا أشعرُ بهبّة الرّيح الخفيفة التي تُمزّقُ سقوطَ المطرِ العموديَّ وتُشظّيه. وثمّة ناحيةٌ من السَّماء تصفو في مكان ما. أعرفُ ذلك، فخلفَ النّافذة التي نُظّفَ نصفُها في الجهة المقابلة تماماً، أستطيع رؤية الرّزنامة على الجدار التي لم أستطع رؤيتها من قَنامُ.

أَنسى. أَكفُّ عن الرُّؤية، أكفُّ عن التَّفكير.

يكفُّ المطرُ، ولكنَّه يتوانى برهة أطولَ في غيمةٍ من أحجار ماسٍ صغيرة كأنَّها فتات خُبزِ نُفِضَ عن مفرش الطَّاولة الأزرق العظيم في مكان ما في الأعالي هُنَاك. تستطيعُ في هذه الأثناء أن تشعر بأنَّ بعض السَّماء قد بات أزرقَ للتوِّ. أستطيعُ أن أرى الرُّزنامة في النَّافذة المقابلة أوضحَ الآن، إنَّها تحملُ وجه امرأة فأتقرَّاهُ لأعرف أنَّه إعلانٌ عن معجون الأسنان الأشهَر قاطبةً.

ولكن، ما الذي كنتُ أُفكِّرُ فيه قبل أن أفقدَ نَفْسي في النَظَر؟ لا أعرف. الإرادة؟ الجهد؟ الحياة؟ أستطيع القول، من الضوء المنتشر، إنَّ السَّماء لا بُدَّ أن تكون قد عادتْ زرقاءَ تماماً مرَّة أخرى أو تكادُ. بَيْدَ ألَّا سكينة -ولن تكون ثمَّةَ سكينة أبداً! - في أعماق قلبي، البئر العتيقة في الطَّرف القصيِّ من العِزبة التي بِيعَتْ منذ زمانٍ، ذاكرة طفولتي الحبيسة تحت العبار في عُليَّة منزل شخص آخر. لا سكينة ولا حتَّى رغبة -واحسرتاه! - في العثور عليها...

(205) 223

أرى المناظر الطَّبيعيَّة التي حلمتُ بها واضحةً وضوحَ المناظر الطَّبيعيَّة الحَقَّة التي أراها. وأميلُ على شيءٍ حَقِّ، حين أميلُ كي أنظر في أحلامي. وإنَّني أحلمُ بشيءٍ، حين أرى الحياةَ تمرُّ.

ولقد قال شخصٌ عن شخص آخر إنَّ الذين يراهم في أحلامه لا يختلفون عنده البتَّه عن الذين يراهم في الحياة الحَقَّة. أستطيع تفهَّم الشَّخص الذي قد يقول تلك الكلمات بعينها عني، ولكنَّني لن أُوافق. فالنَّاس الذين في أحلامي ليسوا النَّاس ذاتهم الذين في الحياة الحَقَّة؛ إنَّم موازون لهم. فكلُّ حياة حياة الأحلام وحياة العالم على حدِّ سواء - تمتلكُ واقعَها الخاص، الواقع ذاتَه، ولكن بصورة مختلفة. على شاكلة الأشياء التي هي قريبة والأشياء التي هي بعيدة. فالنَّاس الذين في أحلامي أقربُ إليَّ، ولكنَّهم [...]

⁽²⁰⁵⁾ لا ذِكر، هُنَا، لتاريخ تُحدَّد؛ سوا، في طعة جول كوستا هذه، أو في طبعة بيسرُّو. وهذه الشَّذَرة، في الأصل، مضروبة بالخير أبنفسجيَّ عبى الآلة الكاتبة، ما عبا عبارة أصافها بخط يده قبل الجملة الاخيرة. ولم يُدوّن عليها بِسُوًا أيَّ بالحِير أبنفسجيَّ عبى الآلة الكاتبة، مكتفياً فقط بالإشارة إلى أنها جزء من كتاب القلق، تاريخ، على عير عادته في النصوص التي يرقبها على الآلة الكاتبة، مكتفياً فقط بالإشارة إلى أنها جزء من كتاب القلق، فاريخ، على عير عادته في النصوص التي يرقبها على الآلة الكاتبة، مكتفياً فقط بالإشارة إلى أنها جزء من كتاب القلق، ولكنَّ الدَّارسين يرجَّحون أنَّها نعو د إلى العام 1930، (المترجم)

[23 مارس 1930]

ثمَّة شيء يُسمَّى تعبُ الفطنة المُجرَّدة، التَّعب الأفظعُ الذي تقشعِّر له الأبدانُ. لا تشتدُّ وطأته عليكَ كالتَّعب الجسديِّ، ولا يُكدِّرك مثل تعب المشاعر. إنَّه الوعيُ بوطأةِ العالَم كُلِّه، وعجزُ الرُّوح عن التَّنفُس.

إِذَّاكَ، في تلك اللَّحظة، تكون كلُّ فكرة جرَّبنا بها الحياة، وكلُّ طموح وخطَّة بنينا عليها آمالنا في المستقبل، قد مُزَّقَتُ كُلَّ مُمَزَّق، وقُطِّعتْ كُلَّ مُقطَّع، كأنَّها غيماتٌ ذرَّتها الرَّيح، فتُحمَل بعيداً كبقايا السُّدُم الرَّماديَّة، وأطهار الذي لم يكنِ البَّنَة ولا الذي يُمكن أن يكون. ثُمَّ تنهضُ، في أعقاب تلك الهزيمة، العزلةُ السَّوداء العنيدة؛ عزلةُ السَّماء المهجورة المرصَّعة بالنُّجوم، بكلِّ صفائها.

يُوجِعنا سرُّ الحياة ويُخيفنا بطرائق عدَّة. يأتي إلينا في بعض الأحيان وهماً شبحياً، التَّجسيدَ الوحشيَّ للعدَم، فترتعدُ أرواحنا رعدةَ الخوف الرَّهيب. ويكمنُ خلفَنا، في أوقات أخرى، فلا يُرَى إلَّا حين لا نلتفت كي نراةُ - إنَّها الحقيقة الكاملة في رعب عجزنا عن معرفته.

ولكنَّ الرُّعبَ الذي يؤلمني اليوم أقلُّ نُبلاً وأكثرُ تدميراً على حدٍّ سواء. إنَّه توقُ ألَّا أُفكِر، رغبةُ ألَّا أكون أيَّ شيء بتاتاً، القنوطُ الواعي في كلِّ خليَّة من روحي. إنَّه الإحساس الفجائيُّ بأنِّي حبيسُ سجنِ لانهائيِّ. فأين المفرُّ؟ لا يستطيع المرءُ حتَّى التَّفكير في ذلك مادامت الزِّنزانة هي كلُّ ما هُوَ موجود؟

ثُمَّ تستبدُّ بِيَّ رغبة عبثيَّةٌ لا تُقهَرُ ؛ نزعةٌ إبليسيَّةٌ سبقَتْ وجود إبليس نَفْسه، بأنَّنا قد نعثرُ ذات يوم -ذات يوم خارج الزَّمن والمادَّة - على طريق الهروب أبعدَ من الله حتَّى يكفَّ الشَّيءُ الذِي يكوِّن الجزءَ الأعمق من أنفسنا، بصرف النَّظر عمَّا يكونُ، أن يكفَّ تماماً (على الرَّغم من أنني لا أعرف كيف) عن المشاركة في الوجود أو العدَم.

225

[نحق 23 مارس 1930]

ولأني لا شيءَ لديَّ لأفعله، ولا أُفكِّر حتَّى في أن أفعل شيئاً، أخطُّ على هذه القصاصة

وصفاً لمثالي الأعلى: حاشيةٌ (206):

حساسيةُ (207) مالارمي بأسلوب قييرا؛ أن أحلم مثل قرلين في جسد هوراس؛ وأن أكون هوميروس وقتَ ضوء القمر،

أن أشعر بكلِّ شيء بالطرائق الممكنة جميعاً؛ أن أكون قادراً على التَّفكير بالمشاعر والشَّعور بالعقل؛ وألَّا أرغب كثيراً في شيء إلَّا ما ترغب فيه المخيِّلة؛ أن أعاني بدلالي؛ وأن أرى بوضوح كي أكتب على وجه الضَّبط تماماً؛ أن أعرف نَفْسي بالمحاكاة والتَّكتيك؛ أن أغدو حيادياً كشخص مختلف تماماً، وفي حوزته جميع الوثائق الصَّحيحة؛ خلاصة القول: أن أُجرِّب جميع الأحاسيس التي فيي، أن أُجرِّدها من الإله، لكنَّني ألفُها ثانية وأعيدها إلى فترينة المتجر مثل فعل موظف المبيعات المساعد الذي أستطيع رؤيته في هذه الأثناء، مع العلب الصَّغيرة لنوع ورنيش الأحذية الجديد.

ولسوف تذهب هذه النُّل العليا أدراجَ الرِّياح جميعاً، سواء أكانت عكنة أم مستحيلة، وإنْ كانت ثمَّة أُخَرُ، فقد نسيتُها. فها هي الحقيقة الواقعيَّة ماثلة أمامي - وإنَّه ليس حتَّى موظف المبيعات المساعد، وإنَّها المخلوق المنعزل الذي أرى يديه، والمجسُّ العبثيُّ لروحِ عتلكُ عائلةً وقدَراً وهو يقوم بإيهاءات عنكبوت بلا بيت حين تصل إلى الفترينة المقابلة. ثُمَّ سقطتْ إحدى العُلَب، مثل حاشيتي هذه. (208)

(207) رقَّة الشَّعور ورهافة الإحساس. (المترجم) (208) وهُنا، أيضاً، مثال واضح آخر، على «تُعدُّد» قراءات خطَّ بِسُوَّا المتداحل بعضه في بعض، من طرف أولتك الدَّارسين اللين عكفوا طويلاً عن فكَّ «شفرته»، فحد اختلافاً واضحاً في صياعة هذه لجملة في الطبعات البرتغاليَّة الرَّئيسة، حيث وردت، في طبعة برادو كويلو (المفطع 30) وطبعة زينيث (المقصع 131) على حدُّ سواء، على هذه الشَّاكلة: E

⁽²⁰⁶⁾ كَانَّ بِسُوّا، هُنَا، يكتفي بإيراد ((حاشية)) على ((مَثْنِ)) غير موجود أصلاً؛ كَانَّ ((مثاله الأعلى)) محرَّدُ ((حاشية على متن الزَّمن))، ولقد اختلفت الطبعات البرتغاليَّة الرَّبُسة في ((الشَّكر الطَّباعي)) الذي أوردت فيه كلمة «حاشية بنقطتين رأسيتين، الني هي معتاج القول كلَّه لذي يورده بِسُوَّا في هذه الشَّدرة يندرج تحت الحاشية؛ وعلى منوالها سار بنقطتين رأسيتين، للتأكيد أنَّ القول كلَّه الذي يورده بِسُوَّا في هذه الشَّدرة يندرج تحت الحاشية؛ وعلى منوالها سار زيبث في طبعته (المقطع 131) بوصعها في سطر وحدها، ولكن دون نقطتين رأسيتين، في حون ذهب برادو كويلو (المقطع 30) إلى الحاقها بآخر الجملة التي افتتح به بِسُوًّا الشَّذرة، فاصلاً بينها وبين كلمة ((مثالي الأعلى)) بشرطة كبيرة؛ وعلى نهجه سار بيسارُ و (المقطع 230)، ولكنَّ جول كوستا توردها، هنا، خلافاً لنهج بيسارُ و (الذي تعتمد على طبعته في شرجمتها هذه) فوضعتها في سطر وحدها وبعدها نقطة نهائية، ولكنني آثرتُ وضع نقطتين رأسيتين بعد الكلمة، خلافاً لنهج جول كوستا، منعاً لأي غموض. (المترجم)

[نحو 23 مارس 1930]

كان صبيَّ المكتب يحزمُ الطُّرود اليوميَّة في البرودة الغسقيَّة للمكتب الرَّحب، ثُمَّ قال «أَصغِ إلى صوت الرَّعد»، قالها بصوت عالِ طافح بالبهجة، ليسَ إلى أخد بعينه، كأنَّ الأزعرَ الشَّقيَّ كان يقول «صباح الخير». راح قلبي يخفق ثانية، فلقد مرَّت نهايةُ العالمَ. كانت ثمَّة سَكْتَةٌ أكَّدتُ حدوثَها خربشةُ القلم.

فبأيِّ راحة برق ساطع، سَكْتة ، هزيم - أراحنا ممَّا كانَ ذلك الرَّعدُ، الذي باتَ في هذه اللَّحظة قاب قوسَيْن أو أدنى، وهَا هُوَ الآن يبتعدُ. كان الإله ينسحبُ. شعرتُ نَفْسي تملأُ رئتيَّ. فلاحظتُ كم كان المكتب هادئاً. ولاحظتُ أيضاً وجود أشخاص آخرين، بالإضافة إلى صبيً المكتب. كانوا غارقين في الصّمت، ثُمَّ تعالى صوتٌ واضح ومرتعش؛ صوت الصَّفحة الكبيرة والسّميكة من دفتر الحسابات التي قلبها مُوريرا فجأةً وهو يتحقَّقُ من بعض الأرقام.

227

[24] مارس 1930]

أعدتُ، والكسلُ يجتاحني، قراءة تلك الأبيات البسيطة التي نظمها كَآيُرُو (209)، الخلاصة الطّبيعيَّة التي خلص إليها مُتأمِّلاً صِغَر قريته، مُستقياً منها ما شعرتُ أنَّة ملهم ومُحرِّرٌ على حدٍّ سواء. يستطيع المرء، بالنِّسبة إلى كآييرو، أن يرى المزيدَ من العالم، في قريته الصَّغيرة، أكثر مَّ يستطيع أن يراه في المدينة، وبذلك المعنى تكون قريته أكبر من المدينة...

لأنّني بحجم ما أراهُ وليسَ بحجم قامتي، (210)

(209) يقصد البيرتو كَايْرُو Caeiro، أحد الأنداد الشُّعراء الذين أو جدهم يِسُوًّا. (المترجم)

(210) هذان البيتان مستلّان من الفصيدة الشّابعة من ديوان كَآيَرُو «راّعي القطيع guardador de Rebanhos

سسم المعارة الأخيرة تحتمل القراءتَيْن، «مثل للدُرِنا جميعاً» و «مثل حاشيتي هذه»)؛ على حدّ العلب، مثل قدّرنا جميعاً)؛ في المستم المقاطع و المقطع و المقطعة المقطعة المقطعة و المقطعة و المقطعة المقطعة و المقطعة و

ولقد خلَّصتني أمثال تلك الأبيات، التي تبدو أنَّها قد ظهرت إلى الوجود عَفْوَ الخاطر الى كأنَّ إملاءَها لم يتطلَّب أيَّ إرادة بشريَّة، من جميع الغيبيَّات التي أضفتُها عَفْوَ الخاطر إلى الحياة. أذهب، بعد قراءتها، إلى النَّافذة التي تطلُّ على الشَّارع الضيِّق. أنظرُ إلى السَّاء العظيمة والنَّجوم الكثيرة والأجنحة الخفَّاقة لحريَّة بهيَّة ترجُّ جسدي كُلَّه.

وكلَّما فكَّرتُ في عبارة «أنا بحجم ما أراه ا»، بأعصاب كينونتي كلِّها، تملأني إيهاناً راسخاً بقدرتها على إعادة تنظيم السَّهاوات في بُروج جديدة. «أنا بحجم ما أراه ا». فأيَّ طاقة ذهنية تنبجسُ من بئر المشاعر العميقة صاعدةً إلى النُّجوم العاليات التي تعكس صورتَها وتسكنُ فيها على نحو ما.

أنظرُ، في هذه الأثناء تماماً، واعياً بقدرت على الرُّؤية، إلى الغيبيَّات الموضوعيَّة الشاسعة للسَّهاوات بيقين يجعلني راغباً في الموت مُنشداً: «أنا بحجم ما أراهُ!». وضوءُ القمرِ الغامضُ، الذي لي أنا وحدِي تماماً، يبدأُ بغموضه في تشويه زُرقة الأفق التي قتَّمَتْ أو تكادُ.

أَشْعُرُ كَأَنّنِي أُطُوِّحُ ذراعيَّ، صارخاً بعبارات همجيَّة لم يُسمَع بَها من قَبْلُ، أُطارحُ الأسرارَ العلويَّة الكلامَ، مُعلناً للفضاءات الشاسعة من المادَّة الفارغة وجودَ شخصيَّة جديدة مترامية الأطراف.

ولكنَّني أتمالكُ نَفْسي فأُهدِّئ من روعها. «أنا بحجم ما أراهُ!». مازالت العبارة تملأً روحي كلَّها، فأُريحُ عليها مشاعري كلَّها، والسَّكينةُ الطِّلسمُ لضوء القمر القاسي الذي بدأ بالانتشار حين حلَّ اللَّيلُ، قد نزلتْ عليَّ وفِيَّ، مثلها على المدينة الأبعد.

228

[29 مارس 1930]

كانت السّماء المعتمة، جنوبيّ نهر تيجو، سوداء تُنذِر بشرّ، على النّقيض من الأجنحة البيضاء الزّاهية لطيران النّوارس القلق. ولم تكُن، رغم ذلك، أيُّ عاصفة بَعْدُ. انتقل التّهديد الخطير للمطر إلى الضّفة المقابلة، وبَايْشَا التي ماتزال نديّة من زخّة مطر قصيرة، قد تبسّمتُ من الأرض لسماء شاحبة كانت تستحيلُ زرقاء ثانية، على مهلها، جهة الشّمال. وكانت ثمّة رعشة بَرُدِ تسري في هواء الرّبيع البارد.

أُحبُّ، في هذه اللَّحظات الفارغة التي لا يُسبَر غورها، أن أُوجِّهَ أفكاري إلى تأمُّلٍ هُوَ لا شيء في حدِّ ذاته، ولكنَّه يحتفظ في شفافيته الفارغة بشيءٍ من البرد المتوحِّد للنَّهار المشرق بخلفيَّته التي من غيوم سوداء بعيدة وبعض المشاعر البديهيَّة التي تستحضر، مثل النَّوارس على سبيل التَّناقُض، سرَّ جميع الأشياء في الدَّيجور،

ثُمَّ، فجأةً، على النَّقيض من مقاصدي الأدبيَّة الشخصيَّة، تستحضر السَّماء السَّوداء التي في الجنوب سياءً أخرى ولا أعرف إنْ كانت تلك ذكرى متخيَّلة أم حقيقيَّة - سياءً ربَّيا تُرَى في حياة أخرى، فوق نُهيْر في الشَّمال طافح بقصب حزين وبعيد عن أيِّ مدينة. ودون أن أعرف كيف و لماذا، ينتشر على مهله منظرٌ طبيعيٌّ من بطِّ بريٌّ عبر مخيَّلتي فأشعرُ، بوضوح حُلم غريب، أنَّني قريب جداً من المشهد المُتخيَّل.

وفي أرض القصب والأَسَل هذه، قُرب ضفاف الأنهار -الأرض التي خُلِقتُ للصيّادين والحوف- تندفعُ الضّفاف المثلَّمةُ إلى الخارج مثل نتوءات صغيرة متَّسخة في المياه الصَّفراء الرَّصاصيّة ثُمَّ تتراجع كي تُشكِّل خلجاناً موحلة لقوارب صغيرة كالدُّمي، وشواطئ تلمعُ فيها المياه على سطح الوحل المطمور بين السَّيقان السَّوداء المُخضَّرة للأَسَل الكثيف كثافةً تحول دون المرور من خلاله.

الخرابُ خرابُ سماء رماديَّة ميِّتة تنهارُ، هُنَا وهُنَاك، غيوماً أشدَّ سواداً من سوادها. وثمة ريحٌ تهبُّ، على الرَّغم من أنَّني لا أُحسُّ بها، فأرى أنَّ مَا ظننتُه الضَّفة الأخرى هُوَ، في الحقيقة، جزيرةٌ طويلة يستطيع المرءُ أن يُبصر خلفَها، في المسافة المُنبسطة عبرَ النَّهر العظيم المُتوجِّد، الضَّفَّة الأخرى؛ الضَّفَة الحَقَّة.

لا أحدَ يذهبُ إلى هُنَاك، ولن يذهب أحدٌ أبداً. ولكنّني أستطيع، عبر طيران عكسيٌ في الزَّمان والمكان، الهروبَ من هذا العالمَ إلى ذلك المنظر الطّبيعيّ، ولن يستطيع أحدٌ سواي الذَّهاب إلى هُنَاك على الإطلاق. سأنتظرُ بلا جدوى شيئاً لا أعرفه ورغم ذلك أنتظره، ولن يكون في النّهاية إلَّا الهبوط البطيء لليل يكتسبُ فيه كلُّ شيء، على مهلٍ، لونَ الغيوم الأشدَّ سواداً، ثُمَّ يفقد نَفْسه رويداً رويداً في النَّعاء السَّاء.

ثُمَّ فجأةً، هُنَا، أشعرُ بالبرد قادماً من هُنَاك. ينزُّ في جسدي مِن عظامي، تنفَّستُ عميقاً ثُمَّ صحوتُ. نظر إليَّ الشَّخصُ، الذي مرَّ بي في الممرِّ المقنطر قُرب البورصة، بريبةٍ مُحبِّرة.

والسَّماء السَّوداء، التي باتتْ أشدَّ سواداً في هذه الأثناء، مازالت تتدلَّى واطئةً فوق الشَّاطئ الجنوبيِّ.

229

[نحو 4 أبريل 1930] (الله

لاأجدُ السَّكينة، مهما انتميتُ في روحي إلى الرُّومانسيِّين، إلَّا في قراءة الأعمال الكلاسيكيَّة. فتعصُّب الكلاسيكيِّين، الذي يعبرون من خلاله عن وضوحهم، يجلب لي نوعاً من الرَّاحة. أخذت عنهم ذلك الإحساس الذي يشرح الصَّدر بوجود حياة هائلة تطلُّ على فضاءات فسيحة دون أن أجازف حتَّى في ارتيادها، فحتَّى آلمةُ الوثنيِّين ترتاحُ هُنَاك من الغموض. تحليلٌ للمشاعر مُفرِطٌ في فضوله - خبِّلةٌ صافية في بعض الأحيان - مماثلةُ القلب بالمنظر الطبيعيِّ، والتَّعريةُ التَّشريكيَّة للأعصاب، واستبدالُ الإرادة بالرَّغبة والفكر بالإلهام - كلُّ هذه الأشياء مألوفةٌ جداً كي تبدو غيرَ مألوفةٍ في كلمات شخص آخر أو كي تجلب لي السَّكينة. أعمال مؤلف مؤلف كلاسيكيِّ يمنحني ذلك الشَّيء الآخر. وقراءة أعمال مؤلف كلاسيكيِّ يمنحني ذلك الشَّيء الآخر.

أعترف بهذا صراحة ودون خجل... فلا توجد فقرة من أعمال شاتوبريان، ولا قصيدة غنائيّة من أشعار لامارتين - فقرات تبدو في الغالب أنّها تُعبّر عن أفكاري، وقصائد غنائيّة تبدو في الغالب أنّها تُعبّر عن أفكاري، وقصائد غنائيّة تبدو في الغالب أنّها قد نُظِمتُ حتَّى أعرف ربّا نَفْسي - تجعلُني أخِفُ طَرَباً، محلّقاً في سماء النّشوة، مثلها تفعلُ قطعة نثر خطّها فيرا أو قصيدة غنائيّة نظمها الكتّابُ البرتغاليُّون الكلاسيكيُّون القلائل الذين كانوا تلامذة هُوراس الخُلَّص.

أقراً فأتحرَّرُ. أتجرَّدُ عن أهوائي. أكفُّ عن أن أكون نَفْسي المتغيِّرة. وبدلاً من أن يغدو الذي أقرأه حُلَّة شِبْهَ مرئيَّة تثقل كاهلي أحياناً، فقد بات الوضوح العظيم للعالم الخارجي حيث كلُّ شيء فيه جديرٌ بالملاحظة، الشَّمس التي نستطيع رؤيتها جميعاً، والقمر الذي يحوك نسيجاً من ظلال على إلارض السَّاكنة، الفضاءات الواسعة التي تنفتح على البحر، الرُّسوخ المعتم للأشجار التي تلوِّحُ عالياً بأغصانها الخضراء، السَّكينة الوطيدة للبِرك في الحدائق، والمرَّات

⁽²¹¹⁾ التَّاريخ المدوَّن بخطِّ يد بِسُوًّا على القصاصة الأصليَّة هو الخامس من إبريل 1930، لا كما يرد هُنَا. (المترجم)

الزاخرة بكروم العنب على السُّفوح المصَطبة للتُّلال.

أقرأً كَمَن تُخلَّى عن عرش الحياة. ولأنَّ التَّاج والعباءة الملكيَّة لم يبدوا بمثل المهابة التي جلَّلَتْهها حين ألقاهما الملكُ الرَّاحل على الأرض، فقد أجلشتُ على الأرض الفسيفساء لحجرات الانتظار جميعَ الانتصارات السَّابقة لسأمي وأحلامي، وصعِدتُ السَّلالمَ لا شيءَ على الرُّوية.

أَقرأُ كَمَن يصدفُ أَنَّهُ قد مَرَّ للتوِّ. ولا أشعرُ أنِّي عابرُ سبيل مُقدَّس، وحاجٌّ مَسِيحٌ (212)، وراءِ بلا غاية يُحدِّقُ في عالمِ بلا غاية، وأميرُ المنفى العظيم الذي يصنع من وحشته، وهو يغادرُ، صَدَقَةً أخيرةً للمتسوِّل الأخير، إلَّا حين أقرأ أعهال الكلاسيكيِّين الذين تغشاهم السَّكينة، ولا يبثُّون لواعجهم حين يعانون.

230

[5 أبريل 1930]

فجأة، تفتّق ذهنُ الشِّريكِ الصَّامت (213)، وهو رجلٌ يعاني كثيراً من أمراض غامضة، عن فكرة (نزوة تتتابه كها يبدو بين البلاء والبلاء) مُفادها أنَّه راغبٌ في الحصول على مجموعة من الصُّور الفوتوغرافيَّة تُلتَقط لكادر العاملين في المكتب. ولذلك، فقد اصطففنا جيعاً، في اليوم الذي قبل الأمس، بناءً على توجيهات المصوِّر الظَّريف، مستندين إلى الحائل الأبيض المُستن الذي يُعدُّ بمثابة فاصل خشييًّ مُتقلقل بين المكتب العموميِّ ومكتب السيِّد قاسْكِش. وقف الذي يُعدُّ بمثابة فاصل خشييًّ مُتقلقل بين المكتب العموميِّ ومكتب السيِّد قاسْكِش. وقف في المنتصف قاسْكِش بنفسه. وعلى جانبينه، وفق تراتُبيَّة بدأت منطقيَّة بها يكفي ثم سرعان ما النهارت، وقفت أرواحٌ آدميَّة أخرى تجتمعُ هُنَا في كلِّ يوم، بقضِّها وقضيضها، لإنجاز المهامِّ الصغيرة التي لا يعرف سرَّ مقصدها النهائيِّ إلَّا الآلهة.

اليوم، حين وصلتُ إلى المكتب متأخّراً قليلاً، وقد نسيتُ في الحقيقة تماماً اللَّحظة السَّاكنة التي التقطها المُصوِّر مرَّتَيْن، وجدتُ مُوريرا الذي حضر مُبكِّراً على غير عادته وأحد الكتبة يمعنان النَّظر في بعض الأشياء الضَّاربة إلى السَّواد، عرفتُ بدايةً أنَّها النُّسخ المطبوعة الأولى من الصُّور، لقد كانت، في الواقع، نسختين من الصُّورة ذاتها التي تبيَّن أنَّها الأفضل.

⁽²¹²⁾ أي مُسِحَ بالطّيب أو الدِّهن المُقدِّس؛ وهو الطُّقس المعروف في المسيحيَّة. (المترجم)

⁽²¹³⁾ الشَّريث الصَّامت (sleeping partner) هو الشَّريث المتضامن غير العامل. والعبارة عند بِسُوًا في الأصل هي «capitalista» وتعني: رأسمالي/ثريّ. (المترجم)

ذقتُ ألم الحقيقة حين رأيتُ نَفْسي هُنَاك، فلا بُدَّ آنني نظرتُ إلى وجهي أوَّلاً. لم يَرُق لي مظهري الجسديُ قطُ، ولكنّني لم أشعر بتفاهتي البتّة مثلها شعرتُ حينند، مقارناً وجهي بالوجوه الأخرى المألوفة لي كثيراً في ذلك الصَّف الذي يضمُّ رفاقي اليوميِّين. بدوتُ يسوعياً مُيلًا. لا يُقصِح وجهي النَّحيل غير المُعبِّر عن أيٍّ فطنة، أو حِدَّة، أو أيِّ شيء آخر يجعله ميزاً ظاهراً للعيان في مَدِّ الوجوه الأخرى الذي لا حياة فيه، وثمَّة في الحقيقة بعض الوجوه المُعبِّر أظاهراً للعيان في مَدِّ السيّد فاسْكِش مثلها هُوَ في الحياة الحَقَّة بالضَّبط – الوجه الصَّارم، الجدير بالمحبّة، والنَّظرة النَّابتة، والشَّاربُ الكثُّ المشدود الذي يضفي عليه رونقه كلَّه. أمَّا حيويَّة الرَّجل وذكاؤه خصيصتن مبتذلتان تماماً، في نهاية الأمر، وتُوجَدان في آلاف الرِّجال الأخرين حول العالم – فمطبوعتان على الصُّورة كها لو كانت جوازَ سفر نفسانياً. يبدو مندوبا الأخرين حول العالم – فمطبوعتان على الصُّورة كها لو كانت جوازَ سفر نفسانياً. يبدو مندوبا المبيعات الحَوَّالان في غاية الرَّوعة؛ وظهر الموظف الإداري بصورة جيَّدة، لكنَّ نصف جسده عتجب خلف موريراً. أمَّا موريراً! رئيسي المباشر موريرا، التَّجسيد الحَيُّ للرُّتابة والرُّوتين، فيبدو أكثر إنسانويَّة عَن أبدو أنا! وحتَّى صبيُّ المكتب – يخامرني شعور، أعجز عن مقاومته، فيبدو أكثر إنسانويَّة عَن أبدو أنا! وحتَّى صبيُّ المكتب – يخامرني شعور، أعجز عن مقاومته، آملاً ألَّا يكون الحسد- فيمتلك ابتسامة واضحة يطغى بريقُها على بلادة وجهي الباهتة وعليًّ أنا؛ أبي هول مستودع القرطاسيَّة.

ماذا يعني هذا كلَّه؟ وهل صحيحٌ أنَّ الكاميرا لا تكذب البِنَّة؟ وما هذه الحقيقة التي وتُقَتَّها عدسةٌ باردة؟ ومن أنا حتَّى أمتلك مثل ذلك الوجه؟ ثُمَّ خاطبني مُوريرا، فجأة، كأنَّهُ يرشُّ الملح على الجرح: ﴿إنَّهَا صورة جميلة لك». ثُمَّ قال، وقد استدار إلى مندوب المبيعات الجوَّال: ﴿إنَّهَا صورة طبق الأصل عنه، أليس كذلك؟». كانت موافقةُ مندوب المبيعات الجوَّال الدَّمثة والبشوشة بمثابة إشارة على نفيي الأخبر إلى كوم النَّفايات.

231

[5 أبريل 1930]

شعرتُ اليوم، وأنا أُفكِّرُ في حياتي، أنَّ مخلوقاً حياً قد مُحِلَ في سلَّة على ذراع شخص ما بين محطَّتَيْن في الضَّواحي. إنَّها صورة غبيَّة، حتَّى إنَّ الحياةَ التي تصفها أغبى. وثمَّة غطاءان في العادة لهذه السِّلال؛ كلُّ منهما نصفُ بيضويٌ، يرتفعان قليلاً ناحيةَ الطَّرفَيْن المُنحنيَيْن حين يضطربُ المخلوق الذي في الدَّاخل. ولكنَّ الذِّراع الحاملةَ السَّلَةَ، المُستريحةَ بخفَّةٍ على المُفصَّلات في المنتصف، تسمحُ لمثل هذا المخلوق الضَّعيف أن يفعل أيَّ شيء أكثر من مُجرِّد أن يرفع ذَيْنك الطَّرفَيْن سُدى، كجناحي فراشة تحتضر،

نسيتُ أنّني كنتُ أتحدّث عنّي حين وصفتُ تلك السّلة. أستطيع رؤيتها بوضوح، والذّراع الرّيّانة المسفوعة للخادمة التي تحملها. لا أستطيع رؤية إلّا ذراع الخادمة وشعرها الزّغب. لا أستطيع أن أستريح - ثُمّ، فجأة، هبّ نسيم عليلٌ من من من شرائط الصّفصاف والقياش تلك التي صنعت منها السّلة، حيث أتلوّى، أنا المخلوق، منقولاً بين المحطّتين، على ما يبدو أنّه مقعد، فأسمعُ النّاس يتحدّثون في الخارج. المكان هادئ فأنام، حتّى يرفعوني ثانية حين نصل إلى المحطّة.

232

[6 أبريل 1930]

البيئةُ المحيطة روحُ الأشياء. لكلِّ شيء أسلوبُ تعبيره الخاصِّ ولا يأتي ذلك التَّعبير إلَّا من الخارج.

كلُّ شيء مكونٌ من تقاطع ثلاثة خطوط تُشكِّلُ سويَّة ذلك الشَّيء: مقيسٌ ماديًّ، الطَّريقة التي نُفسِّر بها الشَّيء والبيئة المحيطة التي يُوجَد فيها. فهذه الطَّاولة التي أكتب عليها قطعةٌ من الخشب، إنَّها طاولة وإحدى قطع الأثاث، الموجودة في هذه الحجرة، على حدً سواء. ولا بُدَّ لانطباعي عن هذه الطَّاولة، لو اردتُ تدوينَه، أن يتكوَّن من أفكار مختلفة: أنَّها مصنوعة من الخشب؛ وأنَّني أُسمِّيها طاولة وأنسبُ إليها بعض الاستعالات والغايات؛ وأنَّ الأشياء، التي تكتسبُ في حضورها روحها البرَّانيَّة، مُنعكسةٌ أو داخلةٌ فيها؛ الأشياء المفروضة عليها، التي تعمل على تحويلها. ولسوف تلاحظ أنَّ اللَّون الذي مُنحَ لها، والطَّريقة التي بهت فيه اللَّون، والعُقد والشُّقوق التي تحتويها، نابعة من الخارجي؛ فهذه الأشياء هي التي تمنحُ الطَّاولة روحها، أكثرَ من طبيعتها الخشبيَّة الفطريَّة. والجوهر الجوَّانيُّ لتلك الزُّوح؛ أن تكون طاولة، أقصدُ شخصيَّتها، تنبعُ من الخارجي أيضاً.

ولذلك فإنّني أعتقد أنّه ليس مجرَّد خطأ بشريٍّ أو أدبيٍّ أن ننسبَ روحاً إلى الأشياء التي نعدُّها جامدةً لا روحَ فيها. فأنْ تكون شيئاً هُوَ أن تكون موضع نسبةٍ. فقد يكون من الخطأ القول إنّ الشَّمس حزينٌ أو إنّ البحر الهادئ القول إنّ الشَّمس حزينٌ أو إنّ البحر الهادئ (الأزرقَ زُرقةَ السَّاء التي لا تحتويه) يتبسمُ (لأنّ الشَّمس فوقَهُ). ومن الخطأ أيضا، بالقَدْر ذاته، نسبةُ الحال إلى شيء، أن ننسب إليه لونا، وشكلاً، وحتَّى كينونة. فالبحر ماء مالح. ومغيب الشَّمس ليس إلّا زوال نور الشَّمس عن خطِّ الطُّول هذا وخطِّ العرض ذاك. وهذا الطِّفل الذي يلعب أمامي حزمة من خلايا عقليَّة، ولكنَّه أيضاً ساعةٌ صُنعتْ من حركاتٍ دُونَ ذَرَيَّةٍ، تكتُّل كهربائيٌّ غريب من ملايين الأنظمة الشَّمسية في مُنَمنَمةٍ ميكروسكوبيَّة. كلُّ شيءٍ ينبع من الخارجي، وربَّها لا تكون الرُّوح البشريَّة إلَّا شعاعَ نور شمس ينيرُ للأرض فيجتبي كومة الرَّوث التي هي الجسد.

وقد تحتوي هذه التأمُّلات المتروِّية بذورَ فلسفة تامَّة لأيِّ شخص يتمتَّع بالقوَّة الكافية لاستنباط الخلاصة منها. ولكنَّني لستُ ذلك الشَّخص. تنتبني أفكارٌ جليَّة، ولكنَّها غامضة، بشأن الاحتماليَّات المنطقيَّة، فيتلاشى كلُّ شيء في رؤية شعاع ذهبيٍّ واحد من الشَّمس التي تشرق على كومة الرَّوث مثل قشَّة معتمة ورطبة ومسحوقة، على الأرض التي تكاد تسودُّ

قرب جدار حجريّ.

كَذَا أنا. فحين أرغبُ في التَّفكير، أرى. وحين أرغبُ في الخروج من روحي، أتوقَّفُ فجأةً، شاردَ الذِّهن، على الدَّرجة الأولى من الدَّرَج اللَّولبيِّ المُنحدِر، ناظراً خارجَ النَّافذة في الطَّابق العلويِّ إلى الشَّمس الغائبة التي تنيرُ بالذَّهب الأغبرِ فوضى الأسطح المنتشرة.

233

[1930 أبريل 1930]

ليست حياةُ الرُّوحِ الآدميَّة برمَّتها إلَّا حركة في الغسَق، نعيشُ في شفقِ من الوعي فلا نعرفُ، حَقَّ اليقين، مَن نحنُ أو مَا نظنُّ أنَّهُ نحنُ. وتُوجَد، حتَّى في داخل أفضلنا، بعضُ مشاعر غرور حول شيء بعينه، وبعض خطأٍ لا نستطيع إحصاءَ أبعاده. نحنُ شيء يحدثُ في أثناء فاصل مسرحيٍّ؛ فنلمحُ، أحياناً، عبر أبواب معيَّنة، ما قد يكون المشهدَ، ليس إلَّا. العالمُ

برمَّته مشوَّشُّ، كأصوات في اللَّيل.

أعدتُ للتَّوِّ قراءةً هذي الصَّفحات التي أكتبُ فيها بوضوح سوف يبقى ما بقيت تلك الصَّفحات، فأسألُ نَفْسي: ما هذا؟ وما جدواهُ؟ ومَن أنا حين أشعرُ؟ وما الذي يموتُ فِيَّ حين أكونُ نَفْسي؟

أنظرُ في الأسفل، مثلَ شخص في أعلى قمَّةٍ يحاول أن يتبيَّن حيوات أولئك الذين يعيشون في الوادي، فأرى نَفْسي، رفقةَ كلِّ شيء آخر، مجرَّدَ منظرِ طبيعيٍّ مُغبَّش ومشوَّش.

تُخزنني أدنى تفصيلة، كما لو كانت رسالة وداع، حين تنغمسُ روحي، إبان أوقات كهذا الوقت، في الهاوية. أشعرُ دائماً كأنّني في عَشِيّة يقطّةٍ. أكافحُ، تحت ركام خانوٍ من خواتيم داخل غطاءٍ خارجي هُوَ أنا. كنتُ سأصرخُ لو خطر ببالي أنَّ أحداً سوف يسمعني. ولكنَّ كلَّ الذي أشعرُ به هُوَ وَسَنَّ عظيمٌ ينقلني من شعورٍ إلى آخر كتعاقُب غيماتٍ؛ التَّعاقُبِ الذي يترك أنهاطاً من ضوء شمس وخُضرةٍ على عشب المروج المديدة الذي يكادُ يَحزنُ.

أنا كمثل شخص منهمًك في بحث عشوائيًّ عن شيء لم يصفه لَهُ أحدٌ بَعْدُ. نلعبُ الغُمَّيضة وحدَنا. وثمَّة في مكان ما علَّةٌ متساميةٌ لهذا كُلِّه؛ بعضُ ألوهيَّةٍ سيَّالةٍ تُسمَع ولا تُرَى.

نعم، أُعيد قراءة صفحات السَّاعات الخاوية هذه، صفحات اللَّحظات البسيطة من السَّكينة أو الوهم، صفحات الأمال العظيمة وقد صارت مناظرَ طبيعيَّة، صفحات الأحزان التي تشبه حجرات لا يدخلها أحدٌ، صفحات الأصوات القليلة، والتَّعب العظيم، صفحات الإنجيل الذي لم يُكتَب بَعْدُ.

كلُّ امرئ مَزْهُوُّ بشيء، وزَهْوُ كلِّ واحد منَّا يكمن في أنَّنا نسى وجودَ آخرين يمتلكون أرواحاً مثل روحنا. زَهْوِي بضعُ صفحات، بضع فقرات، وشكوك معيَّنة...

هل قلتُ أُعيدُ قراءةً هذي الصَّفحات؟ كذّبتُ. فأنا لا أُجروُ على إعادة قراءتها. فما جدوى ذلك بالنّسبة إليَّ؟ فثمَّة شخص آخر هُنَاك [هُوَ الذي يكتبُ]. لم أعُد أفهم أيَّ شيء...

[19 أبريل 1930]

أشعرُ بالغثيان في جسدي من البشر العاديِّين، الذين هم، علاوةً على ذلك، الجنس الوحيد الموجود. وأعملُ أحياناً على إثارة ذلك الغثيان، على نحو ما يفعل المرء حين يجعلُ نَفْسه تَقيء أحياناً لكي يستريح من رغبتها في ذلك.

وحين أتوجّسُ خيفة، في الصّباحات، من تفاهة اليوم القادم، كشخص قد يخاف السّمخ كثيراً، أُفضّلُ المشي مُتوانياً في السَّوارع، قبل أن تُفتَح الحوانيت والمتاجر، مسترقاً السّمخ لل نُتف الأحاديث المتبادلة بين مجموعات من البنات أو الأولاد أو مجموعات من البنات والأولاد التي تسقطُ، مثل صَدقات مُتهكّمة، في صحن الشّحاذة المرئيِّ لتأمُّلاتي الشَّوارعيَّة. وإنَّها متوالية العبارات ذاتها دائماً... «ثُمَّ قالت حينئذ...» والنَّبرة تُلمح إلى المكيدة القادمة. «لم يكُن هُو، إنَّه أنت...» والصَّوتُ الذي يجيب يرتفع محتَّجاً فلا أعودُ أسمع. «كلَّا، أنت فلت ذلك...» وصوتُ الخيَّاطة الأجس يعلن «أُمِّي تقول إنَّها لا تريد...». «أنا؟» والدَّهشةُ التي عبَّر عنها الصَّبيُّ، الذي يحمل غداء ملفوفاً في ورق لا تنزُّ منه الدُّهون، لا تقنعني، ولا تستطيع ربَّها أن تقنع الشّقراء الوضيعة التي يتحدَّث إليها. «ربَّها كان...» والصَّحكةُ التي الطقتها ثلاث بنات، من الأربع الماشيات قُري، تحجبُ الفُحْشَ الذي [...] «أنا لا أمزح، يا جُوْ (الله عن الذي لا أعرفه شخصياً، ولكنْ لا بُدَّ أن يكون هُوَ المعنيَّ، نظراً إلى ما قاله المُجادِل المُحرب المُحرب ميواجه ذلك المُجادل التَّافه في ساحة المكتب. والصَّبيُّ الصَّغير، ببنطاله المُرقع برقع داكنة عند المؤخّرة، يقهقة قائلاً: «ثُمَّ ذهبتُ ودخّنت سيكارة في حمَّام الرُّجال».

وثمَّة آخرون يمرُّون بمفردهم أو بعضهم رفقة بعض، لا يتكلَّمون، وإنْ فعلوا لا أسمعهم، ولكنَّ الأصوات، حين تتناهى إلى مسمعي، تفعلُ ذلك عبر حَدْس جليٍّ ومضْطَرب لديَّ. لا أجرؤ على البوح -ولا أجرؤ حتَّى على البوح بذلك لنَفْسي كتابةً، حتَّى لو كنتُ عازماً على محوه على الفَوْر - بها قد رأيتُه في تلك النَّظرات العجولة العابرة، وتلك الخِسَّة الجاهلة، وتلك

⁽²¹⁴⁾ ولأنَّ بِسُوَّا يستخدم، هُمَا، 26 الذي هو مصغير جُوزيه José في البرتغاليَّة، فقد استخدمتُ «جُوّ» مقابلاً له. (المترجم).

العلاقات الغامضة. لا أجرؤ، فالمرءُ حين يريد أن يُغثِي نَفْسه، فإنَّه لا يريد أن يفعل ذلك إلَّا مرَّة واحدة وحسب.

(كان الرَّجلُ حانقاً حتَّى إنَّه لم يلحظ وجود الدَّرج». رفعت رأسي، كان الصَّبي على الأقلِّ يصف شيئاً ما حين يصف هؤلاء الأشخاص شيئاً، فإنَّهم يفعلون ذلك أفضل بكثير عن يصف شيئاً والم يفعلون حين يصف شيئاً. وال عنا يفعلون حين يعبِّرون عن مشاعرهم وحسب، فالمرءُ ينسى نَفْسَه حين يصف شيئاً. وال غثياني. أرى الرَّجل، أراه على نحو فوتوغرافيًّ. أبهجتني طريقته العاميَّة في الكلام، إنَّه كنسيم عليل يُتعشني، ذلك الرَّجل الذي كان حانقاً حتَّى إنَّه لم يلحظ الدَّرج، ربَّها كان الدَّرجَ الذي عليل يتعشني، ذلك الرَّجل الذي كان حانقاً حتَّى إنَّه لم يلحظ الدَّرج، ربَّها كان الدَّرج الذي تتعشَّر عليه البشريَّة، فتتلمَّس طريقها مُتخبِّطةً، صاعدةً دربَ الباطل المرسوم للمُنحدَر.

تدبيرُ المكائد، والاستغابةُ والتَّبجُّح بشأن الذي لم يجرو أحدٌ على فعله في الحقيقة، ورضا كلِّ بائس مسكين يرتدي وعيَ روحه اللَّاواعيَ، ومطارحات الغرام التي لم تُغسَل بَعْدُ، والنَّكَتُ التي يقصُّونها، مثل قرد بحكُ نَفْسه، وجهلُ وضاعتهم المرعب... هذا كلُّه يتركُ لديَّ انطباعاً بأنَّ حيواناً متوحِّشاً شرِّيراً قد أوجدته الأحلامُ الجاهلة لقشور الرغبة الرَّطبة، بقايا المشاعر المثيرة التي مُضِغَتْ مرَّات ومرَّات.

235

[12] أبريل 1930]

أشعرُ كَأَنّني إنسانٌ، في أغلب الأحيان، حين يفتنني ظاهرُ الأشياء الذي يخلب اللّبّ. فأعيش إذّاك، والمسرّة تغمرني، رفقة أناس آخرين، فيغدو وجودي واضحاً. أطفو على سطح الأشياء. ينشرح صدري حين أقبض راتبي وأذهب إلى البيت. أشعر بالطّقس من دون أن أراه، ويشرني أي شيء عضويّ. وحين أتأملُ، لا أفكرُ. أستمتع، في مثل تلك الايّام، بالحدائق والمتنزّهات.

لا أعرفُ ما هُوَ هذا الشَّيء المسكين، الغريب، الموجود في الجوهر الجوَّانِ لمتنزَّهات المدينة، الذي لا أستطيع أن أشعر به إلَّا حين أشعرُ في قرارة نَفْسي بأنِّي راضٍ عن نَفْسي، الحديقة خُلاصة الحضارة - تحويرٌ مجهول للطَّبيعة. ثمَّة نباتٌ، ولكنْ تُوجَد أيضاً ممرَّات كالشَّوارع. تنمو الأشجار، ولكنْ ثمَّة مقاعد موضوعة في ظلالها. والمقاعد، في المرَّات

الأربعة التي انعطفتْ لتواجه أطراف المدينة الأربعة، أكبرُ وتكون دائهاً مكتظَّة بالنَّاس.

أنا لا أكره دوامَ الأزهار في المساكب، ولكنّني أكره الاستعال العموميّ للأزهار. فلو كانت المساكب في متنزّهات مغلقة، وكانت الأشجار تنمو في عِزَب إقطاعيّة، ولم يكن ثمّة من يجلسُ على المقاعد، لاستطعتُ تعزية نَفْسي بعقم تأمُّلي في الحديقة. كأنَّ حدائق المدينة المنسقة والنّافعة، بالنّسبة إليَّ، أقفاصٌ لا تمتلك فيها العفويّاتُ الملوَّنة للأشجار والأزهار إلاّ مساحة كافيةً التي تتماشى مع الجَال،

ولكن ثمّة أيّامٌ حين يكون ذلك هُوَ المنظر الطّبيعيُّ الذي أنتمي إليه فحسب، فأدخلهُ كأنّني ممثلٌ في مَلهاةٍ مأسويَّة. أشعرُ، في تلك الأيّام، أنَّ خَطْباً ما قد ألم بيّ، ولكنّني أشعرُ، على الأقل، أني أسعدُ، على نحو ما. فإذا نسيتُ نَفْسي لحظة، أتخيّلنُي صاحبَ بيتٍ في الحقيقة أعودُ إليه. وإذا نسيتُ نَفْسي، فأنا طبيعيُّ، منذورٌ لغاية بعينها، فأنفضُ الغبار بالفرشاة عن بذلة أخرى وأقرأُ الجريدة من الأمام إلى الخلف.

لا يدوم ذلك الوهم طويلاً، لأنّه لا يدوم ولأنّ اللّيل يهبط. ولون الأزهار، وظلَّ الأشجار، والمرّات والمساكب، تتلاشى جميعاً وتشرد. وفوق إحساسي بالذّنب وشعوري بأني مجرّد إنسان عاديًّ، تتراءى -كأنّ النّهار كان ستارة مسرح محجوبة رُفعَتْ فجأةً - الخلفيّة العظيمة للنّجوم. ثمّ تنسى عيناي، بكلّ الإثارة التي يشعر بها طفلٌ في السّيرك، الجمهور الذي بلا ملامح، فأنتظر قدوم أوّل المشّلين.

أنا حُرُّ وضائع.

أشعرُ. أرتعشُ محموماً. أنا أنا.

236

[13 أبريل 1930]

أظنُّ أنَّ ما يخلق فِي إحساسيَ العميق بأنَّني على النَّقيض من الآخرين حقيقةً أنَّ معظم البشريفكرون بمشاعرهم في حين أشعرُ بأفكاري.

فالشُّعورُ عند الإنسان العاديِّ هُوَ العيشُ، والتَّفكيرُ معرفةُ أنَّهُ يعيشُ. أمَّا أنا، فالتَّفكير

عندي هُوَ العيشُ، والشُّعور يمدُّني بِقُوت الفِكر فحسبُ.

ولأنَّ قدري على الحماسة قد بلغتُ حدَّها الأدنى، فمن الغريب أنْ يجذبني أولئك الذين يناقضونني في المزاج أكثر من أولئك الذين ينتمون إلى الفصيلة الرُّوحانيَّة التي أنتمي إليها أنا نَفْسي. ولا أحدَ في الأدب يعجبني أكثر من الكتَّاب الكلاسيكيِّين الذين لا أشياء كثيرة مشتركة بيننا. فإنْ خُيِّرتُ في القراءة بين شاتوبريان وفييرا دون غيرهما، فلن أتردَّد البتَّة في اختيار فيبرا.

فكلًا كان الشَّخص مختلفاً عنِي، بدا أكثر واقعيَّة، لأنَّه لا يعتمد كثيراً على نزعتي الذَّاتيَة. ولهذا فإنَّ سبب الغاية المتأصَّلة لقراءي اللَّصيقة هي بالضَّبط تلك البشريَّة المبتذلة التي أرفضها وأبعد نَفْسي عنها. أُحبُّها لأنَّني أكرهها، وأستمتع في مراقبتها لأنَّني أكره في الحقيقة الشُّعور بها. فالمنظر الطبيعيُّ الذي يُعجب به المرء، إعجابَهُ بلوحةٍ، لا يصلح أن يكون سريراً مريحاً إلَّا نادراً.

237

[14 أبريل 1930]

ينتابنا إحساسٌ بالحظوة، حين نبلغُ القممَ العارية لِذُرى الطَّبيعة. فنحنُ، حين يُضَافُ طولُنا، نغدو أعلى من القمَّة الأعلى، فقمَّةُ الطَّبيعة الأعلى، في موضعنا ذلك على الأقلَّ، ترزخ تحت أقدامنا. ونحنُ، إذ نقفُ هُنَاك، ملوكُ العالمَ المرتيِّ؛ فكلُّ شيء من حولنا أدنى: الحباةُ سَفح هابطٌ، سَهل هاجعٌ، ونحن الأوج المُطلَقُ.

لَكُنّنا جَمِيعاً حَدَثٌ عارضٌ وحِيلة بارعةٌ، والعُلوُّ الشَّاهق الذي نستمتع به حين نقف على جبل، ليس عُلوَّنا كي نستمتع به؛ فلسنا أعلى، حين نكون على تلك القمَّة، مَّا نحن عليه في العادة. إنَّ ما نقف عليه هُوَ الذي يرفعنا عالياً، ويجعلنا نبدو أطول.

يتنفَّس المرء بسهولة أكثر حين يكون ثرياً، ويغدو المرءُ أكثر حريَّة حين يديع صيتُه؛ حتَّى إنَّ حصوله على لقب أرستقراطيٍّ يضعه تلقائياً على ربوة صغيرة. كلُّ شيء حيلة بارعة، لكنَّها حيلة بارعة ليست لنا: فإمَّا أن نصعد إلى ذلك التَّلِّ، وإمَّا أن نُحمَل إليه، وإمَّا أن نُولَد في منزل على التَّلِّ.

والإنسانُ العظيم الحَقُّ هُوَ ذاك الذي يؤمن بأنَّ الفرقَ في المسافة بين الوادي والسَّماء، أو بين الجبل والسَّماء، لا يُقدِّم ولا يُؤخِّرُ بتاتاً. سنكون أكثر أمناً فوق التَّلال، حين تصعدُ مياه الطُّوفان، ولكنَّ لعنة الله، حين تأخذ شكل صواعق برق جوبيتر أو رياح أيولوس، فمن الأفضل أن نظلَّ في الوادي، خافضين رؤوسنا.

يمتلك الإنسان الحكيم في جسده القدرة على تسلُّق المرتفعات العظيمة، وفي عقله، القدرة على رفض ذلك. فهو يستطيع، حيثُ يقف، رؤية جميع الجبال وجميع الأودية. وتبدو الشَّمس، التي تُذَهِّبُ الذُّرى، بالنِّسبة إليه أكثرَ ذهبيَّة عمَّا تبدو بالنِّسبة إلى شخص موجود فعلياً فوق النُّروة المكشوفة لذلك الضُّوء السَّاطع؛ ويبدو القصر المشيَّد عالياً في أعماق الغابة أجمل بالنِّسبة إلى شخص ينظر إليه من الوادي عمَّا يبدو بالنِّسبة إلى شخص حبيس حجراته الكبيرة. أعزِّي نَفْسي بهذه الأفكار، فأنا لا أستطيع أن أُعزِّي نَفْسي بالحياة. والرَّمزُ ينصهر في الحقيقة الواقعيَّة حين أرى، أنا عابر السَّبيل في الجسد والرُّوح على طول هذه الشَّوارع الواطئة التي تُفضي إلى نهر تيجو، تلالَ المدينة تتوهَّجُ، كمجد ينتمي إلى شخص آخر، بألوانٍ وأنوار التي تُفضي إلى نهر تيجو، تلالَ المدينة تتوهَّجُ، كمجد ينتمي إلى شخص آخر، بألوانٍ وأنوار علمة خلفة حلَّفتها شمسٌ قد غابتْ في الحال.

238

[21 أبريل 1930]

بعض المشاعر تشبه أحلاماً تنتشر في كلِّ زاوية من روح المرء مثل سديم، فلا تسمح للمرء بالتَّفكير أو العمل أو حتَّى أن يكون. وبعض آثار أحلامنا تظلُّ باقيةً فِينًا، كأنَّنا لم نَنَم كما يجب، فَيدفَّعُ سباتُ نهار سطحَ الأحاسيس الرَّاكد. إنَّهُ شُكْرُ أن يكون المرءُ عدَماً، حين تكون إرادةُ المرء دلوَ ماء قد ركلته في الباحة قدَمٌ طائشةٌ عابرة.

ينظرُ المرء ولكنَّه لا يرى، والشَّارع الطَّويلُ المكتظُّ بمخلوقات آدميَّة يشبه لافتة خانٍ ساقطة لم تَعُدِ الحروفُ المختلطة التي عليها مفهومة البتَّة، والمنازلُ منازلُ لا غير. وعلى الرَّغم من أنَّ المرء يرى الأشياء واضحة، فمن المستحيل أن يُضفي معنىٌ على ما يراه.

ثمَّة غرابة مألوفةٌ تنبعث من ضربات المطرقة المجلجلة التي تتعالى من ورشة صانع الصَّناديق. كلُّ ضربةٍ متباعدة في الزَّمن، ولكلِّ ضربةٍ صداها وعبثها المُطلَق. وتلوح العربات

العابرة مثلما تلوحُ في الأيَّام التي يتوعَّدُ فيها الرَّعدُ. ولا تنبعث الأصوات من حناجر النَّاس، وإنَّما من الهواء نَفْسه. وحتَّى النَّهر يلوحُ مُتعباً، في الخلفيَّة.

ليس السَّأَمَ الذي يعترينا، ولا الحزنَ، ولا حتَّى التَّعب الذي نشعر به. إنَّهُ الرَّغبةُ في أن يذهب المرُّ إلى النَّوم مرتدياً شخصيَّةً أُخرى؛ رغبة أن ينسى، وقد سشم من أن يزيد راتبه. ولستَ تشعرُ إلَّا بنهوضِ ساقيك الآليُّ وهبوطِهما حين تمشيان إلى الأمام غصباً على قدمَيْن واعيتَيْن بفردتي الحذاء اللَّتيُن ترتديانِهما. وربَّها لا تشعرُ إلى ذلك الحدِّ. يشتدُّ شيءٌ في رأسك فيعميك ويسدُّ أُذُنيك.

كأنَّ نزلة بردٍ قد أصابتِ الرُّوح. ويتولَّدُ رفقة تلك الصُّورة الأدبيَّة للمرض حنينُ إلى أن تكون الحياة فترة طويلة من النَّقاهة، مقصورة على البقاء في السَّرير؛ وفكرة النَّقاهة تستحضر صورة دارات كبيرة على أطراف المدينة، ولكنَّها نقاهة في أعهاق تلك الدَّارات، قرب المدفأة، بعيداً عن الشَّوارع وزحمة السَّير. كلَّا، لن تسمع شيئاً. تمرُّ واعياً عبر الباب الذي لا بُدًّ أن تدخل منه، فتذهب من خلاله كأنَّك نائم، غير قادر على جعل جسدك يذهب في اتَّجاه آخر. تمرُّ عبر كلِّ شيء. فأين دُفُّكَ الآن، أيُّها الدُّبُّ النَّائم؟

باهتاً، كشيء بداً السّاعة، حام نسيمُ الملح فوق نهر تيجو، فانسلَّ نَتِنَا إلى أطراف بَايْشَا. هَبَّ بارداً فزنَّخ سُباتَ البحر الدَّافئ. وباتت الحياةُ شيئاً ثاوياً في معدي، فسكنتْ حاسَّةُ الشَّمِّ لديَّ مطرحاً أبعدَ من عينيَّ. وفي الأعالي، لا تجثمُ على شيءٍ، شِلَلُّ رفيعةٌ من سحابِ قد انحلَّت من الرَّماديِّ إلى الأبيض الباطل، كان الجوُّ مثل خيطٍ صنعته سماءٌ مخلوعةُ الفؤاد، مثل رعد خافتٍ، لا يطفحُ بشيءٍ إلَّا بالهواء.

وحنَّى النَّوارس لاحتُ ساكنةً حين طارتْ، أخفَّ من الهواء نَفْسه، كأنَّ شخصاً قد تركها مُعلَّقةً هُنَاك، ليس إلَّا. ولكنَّ الجوَّ لم يكُن عدائياً. فلقد هبطَ المساءُ على قلَقنا؛ وباتَ الهواءُ أبردَ حِيناً بعدَ حِين.

يا لآمالي المسكينة، المولودة من الحياة التي أُجِرِتُ على عَيْشِها! إنَّها كهذي السَّاعة وهذا الهواء، وهذي السُّدُم المتلاشية، والمحاولات السَّخيفة لإثارة عاصفة باطلة. أشعرُ كأنِّ أصرخُ، لأضع حداً لهذا المنظر الطَّبيعيِّ وأُنهي هذا التَّأمُّل. ولكنَّ رائحة البحر المالحة تملأً

نوايايَ الطَّيبة، والجَزْرُ المنخفض قد أماطَ فِيَّ اللَّنَامَ عن الكآبة المُوحلة التي لا تخبرني بأنَّها هُنَاك إلَّا حاسَّةُ الشَّمِّ لديَّ.

فَيَا لَهُ مِن هُراءٍ كثير أُرضي به نَفْسي فحسب! ويا للتَّبصُّرات المُتهكَّمة في العواطف المفترضة المحضة! وهذا كُلُّه مَزيجٌ من الرُّوح والمشاعر، من أفكاري عن الهواء والنَّهر، لكي أقول إنَّ الحياة تؤلم حاسَّة الشَّمِّ لديَّ وتؤلم وعيي، لأنَّني لا أمتلكُ الكياسة كي أستخدم الكلمات البسيطة الجامعة لسِفر أيُّوب: «قَدْ كَرِهَتْ نَفْسي حياتي» (215).

239

[23 أبريل 1930]

نسيم مسائيٌّ حائرٌ يلمسُ جبهتي ووعيي بشيءٍ يشبه مُداعبةٌ غامضة؛ شيءٍ رقيقٍ كلَّ الرِّقة كي يكون مداعبة. ولا أعرف إلَّا أنَّني قد شعرتُ فجأةً، وللحظة لا أكثر، أنَّ سأمي بات أكثر راحة، كقطعة ثيابِ تكفُّ عن حَكَّ دُمَّلِ.

قَيَا لها من حساسية بائسة تعتمدُ على حركة الهواء الخفيفة تلك، كي تنعم بشيءٍ من السّكينة، بين حين وآخر! ولكنَّ تلك طبيعة جميع الحساسيات البشريَّة، ولا أعتقد أنَّ الكائنات الآدميَّة الأخرى تُقيم وزناً لذلك النَّسيم القصير، العابر، أكثرَ من حصولها على ربح ماديٍّ مفاجئ أو ابتسامة دافئة غير متوقَّعة. أستطيع أن أُفكِّر بالنَّوم، وأستطيع أن أحلم بأنَّني أحلم. وأستطيع أن أرى بوضوح أكثرَ موضوعيَّة كلِّ شيء. وينشرحُ صدري أكثرَ موضوعيَّة كلِّ شيء. وينشرحُ صدري أكثرَ حين يخامرني شعورٌ بأنَّ الحياة كامنةٌ خارجي. وهذا كلُّه لأنَّ هبَّة ريح خفيفة جعلت بدني يقشعرُ من الفرح حين كنت في زاوية الشَّارع أو أكادُ أكون.

فكلُّ مَا نحبُّ أَو نفقد الأشياء، والنَّاس، والمعاني- يمسُّ أبداننا، مساً خفيفاً، فينفذ إلى أرواحنا، وهذا، بعينِ الله، ليسَ أكثرَ أو أقلَّ من نسيمٍ لم يجلب لي سوى الرَّاحة المُتخيَّلة، اللَّحظةِ المواتية، والقُدرةِ على فقدان كلِّ شيء على نحوِ بهيِّ.

⁽²¹⁵⁾ أوردتُ العبارة مثلما وردت في الترجمة العربيَّة للآية الأولى من لإصحاح لعاشر من سفر أيُّوب. (المترجم)

[25 أبريل 1930]

دوَّامَاتُ رِيَاحِ وِدوَّامَاتُ مِيَاهٍ فِي عَبِثِ الحَيَاةِ السَّيَّالِ! تَدَفُّقُ الْمَارَّةِ الرَّصِينُ الْمُلُوّنُ يُغَيِّرُ مَسَارَةً فِي السَّاحةِ الْكبيرة بوسط المدينة، فيغدو بِرَكا وينفجرُ شلَّالاتِ ليعانقُ الغُدران. عينايَ ترقبان وقد رائتُ عليهما الحيرةُ، فتنثالُ فِيَّ تلك الصُّورة المَاتيَّةُ التي تناسبُ هذي الحركات الحائرة؛ لأنَّها أفضل من غيرها، ولأنني ظننتُ أنَّها ستمطر.

وحين كتبتُ الجُملة الأخيرة، التي تصف ما رأيتُه بالضَّبط، ظننتُ أنَّه قد يكون مفيداً أن أخطاً في نهاية كتابي، حين يُنشَر، تحت «قائمة الأخطاء المطبعيَّة» بضع «أخطاء غير مطبعيَّة» أخطاً في نهاية كتابي، حين يُنشَر، تحت «قائمة الأخطاء المطبعيَّة» بضع «أخطاء غير مطبعيَّة ثم أقول: عبارة «هذه الحركات الحائرة» الموجودة في الصَّفحة الفُلانيَّة صحيحة، على الرَّغم من أنَّ الضَّميرَ بصيغة الجَمْع واسمَ الإشارة بصيغة المُفرَد. ولكنْ، ما علاقة ذلك بها كنتُ أفكر فيه؟ لا شيء البتَّة، ولهذا أسمحُ لنَفْسي بالتَّفكير فيه.

الترامات تهدرُ وتُقرقع حول أطرف السّاحة، كعُلب ثقابٍ كبيرة، صفراء، متحرِّكة، حيثُ غَرز طفلٌ عودَ ثقاب مُستهلَكاً في إحدى الزَّوايا كأنَّهُ سارية؛ تُطلِق، حين تنطلق، صفيراً عالياً صارّاً كالحديد. والحمام الذي يتجوَّل حول التَّمثال المركزيِّ يشبه فُتاتاً مُعتاً يتبدَّل دائهاً تحت رحمة ريح مُبعشِرة، والطُّيور الرَّيَّانةُ تَدرجُ على أقدامها الصَّغيرة.

يبدو الجميع، لو نظرنا إليهم من كثب، مختلفين على نحو رتيب. قال فييرا إنَّ الأب لويش ذي سوزا قد كتب عن العاديِّ بطريقة فريدة، وهؤلاء النَّاس فريدون بطريقة عاديَّة، على النَّقيض من أسلوب «حياة المُطران» (216). وهذا كلُّه باعثٌ على الحُزن واللَّامبالاة المُطلقة في آن معاً. أتيتُ إلى هُنَا بلا سبب، مثلها هي الحال مع كلِّ شيءٍ في الحياة.

والجزء الذي أستطيع رؤيته من المدينة، جهة الشَّرق، يتراءى صاعداً عمودياً كأنَّهُ يشنُّ هجوماً ساكناً على القلعة. والشَّمس الشَّاحبة تَغيبُ هالةً نديَّةً غامضة حول كومة المنازل الفجائيَّة التي تحجبُها من المشهد. السَّماء زرقاءً مبيضَّةٌ رطبة، وقد يعود مطر الأمس اليومَ ، لكنَّه سيكون ألطف. كأنَّ الرِّيح سوف تهتُ من الشَّرق، ربَّها لأنَّ رائحةً غامضة تنبعث

⁽²¹⁶⁾ إشارة إلى كتاب سوز، «Vida do Arcebispo D. Frei Bartolomeu dos Mártires» (= حياة المطران الدُّومينيكانيِّ الأب بارتولوميو دوش مارتيرش) الصَّادر في العام 1619، الدي يُعَدُّ تحقة نثرية. (المترجم)

منها هُنَا، فجأة، كأنّها رائحة الخُضرة النّاضجة للسُّوق المخفيّ. وثمّة مزيد من الأجانب في الطّرف الشرقيّ من السَّاحة أكثر من الطّرف الغربيّ. السّتاثرُ المعدنيّة مطوية إلى أعلى، وهي مثل طلقات رصاص مكتومة؛ لا أعرف لماذا، لكنّ ذلك ما يُوحي به إليّ الصّوت. ربّها لأنّها تُعدِث مزيداً من الضّجيج حين تُسدَل، على الرّغم من أنّها قد رُفعَتْ في هذه اللّحظة. ثمّة تفسير لكلّ شيء.

فجأة، أنا وحيد في العالم. أرى هذا كلّه وأنا أنظر من السّقف المعدنيّ. أنا وحيد في هذا العالم. فأن ترى هُوَ أَنْ تتوقّف، وأن تُحَلّل هُوَ أَنْ تكون العالم. فأن ترى هوضوح هُوَ أَنْ تتوقّف، وأن تُحَلّل هُوَ أنْ تكون أجنبياً. يعبر النّاس دون حتّى أن يمسّوني. لا شيء من حولي إلّا الهواء. أشعرُ بالعزلة الشّديدة إلى درجة أنّني أُدرك المسافة التي بين بذلتي وبيني. أنا طفل يحمل شمعة راعشة ثُم يجوب، بقميصه اللّيني، المنزلَ الكبير المهجور. ظلال حيّة تحيط بي - ظلال فحسب، بنات الأشياء الميّتة والضُّوء يرافقنني. وتحيط بي هُنَا في الشّمس أيضاً، لكنّها بشرٌ. مع أن البشر ظلالٌ أيضاً، ظلالٌ...

241

[25 أبريل 1930]

تأمُّلتُ، اليوم، وقد تحرَّرتُ قليلاً من مشاعري، شكلَ النَّر الذي أتبنَّاه، قُصارى القول: كيف أكتب. لديَّ، مثل كثيرين، الرَّغبة النَّزقة لإرساءِ قواعد منهج وسَنِّ سُنَّةٍ، على الرَّغم من أنَّني قد كتبتُ، حتى هذه اللَّحظة، دونَ الحاجة إلى مثل تلك الشَّنَة وذلك المنهج؛ فلا أختلفُ، في ذلك، عن أيَّ شخص آخر،

ولكنّني اكتشفت، حين كنتُ أُحلِّلُ نَفْسي هذه الظّهيرة، أنَّ منهجي الأسلوبيَّ يقوم على مبدئين اثنين، جعلتهما على الفور، مُقتفياً أثرَ المؤلّفين الكلاسيكيِّين، الأساسَيْن العامّين للأساليب كلّها: الأوَّل، أن تُفصح علَّا تشعر به مثلما تشعر به تماماً - بوضوح، إن كان واضحاً؛ وبغموض، إن كان غامضاً؛ وبارتباك، إن كان مُرتبكاً. أمَّا الثَّاني، فأن تُدرك أنَّ للنَّحو أداةً وليس قانوناً.

فَلْنفترض أنَّ ما أراه أمامي فتاة صغيرة صبيانيَّة. قد يصفها شخص عاديٌّ قائلاً: «تبدو تلك

الفتاة مثل صبيً "، وقد يصوغ العبارة بطريقة مختلفة شخصٌ عاديٌ آخر أكثر وعياً بالفارق بين الكلام والقول: «تلك الفتاة صبيً ". وقد يقول شخصٌ يعي قواعدَ التَّعبير، بالقَدْر ذاته، ولكنَّه أكثر شغفاً بالمَيْل إلى الإيجاز الذي هو بذخ الفكر: «ذلك الصَّبيُ "، ولكنَّني، من جهة أخرى، سوف أقول: «إنَّها صبيً "، منتهكاً بذلك أبسط قواعد النَّحو التي تتطلّب الموافقة بين الاسم والضَّمير العائد عليه، من حيث التَّذكير والتَّأنيث. ولسوف أكون مُصيباً؛ فلقد كنتُ أتكلّم بالمُطلَق، بصورة فوتوغرافيَّة، متجاوزاً كلَّ الأعراف المتبذلة الدَّارجة، ومُتخطياً المالوف. لن ألفظ الكلمات فحسب: سوف أتكلم.

فالنّحوُ، حين يُحدُّد طريقة استخدام الألفاظ، يجعل التّقسيات التي تكون صحيحة في بعض الأحيان خاطئة في أحايين أُخر. فهو يُقسِّم الأفعال، على سبيل المثال، إلى متعدًّ ولازم؛ ولا بُدَّ للشَّخص، الذي يفهم مدارَ القول، أن يعمد في العادة إلى جعل الفعل المتعدِّي لازماً، والعكس صحيحٌ إنْ كان يُعبِّر عيَّا يشعر به تماماً، وليس لمجرَّد الإلماح الغامض إليه، مثل معظم الحيوانات البشريَّة، لو رغبتُ في الحديث عن وجودي البسيط، فسوف أقول: "أنا موجودٌ". ولو رغبتُ في الحديث عن وجودي بوصفه روحاً مستقلَّة، فسوف أقول: "أنا أنا". لكنني لو رغبت في الحديث عن وجودي بوصفه كينونة تتحكَّم بتفسها وتشكّلها على حدًّ سواء، وتمارس في نَفْسها الفعلَ الإلهيَّ في خلق النَّفْس، فلا بُدَّ أن أبتكر صيغةَ فعل مُتعدً فأقول، مبتهجاً بالظَّفر، متفوِّقاً على نحو غير نَحْوي: "أنا أوجدتُنِي" ولقد عبَّرتُ عن فلسفة كملة بكلمتين بسيطتَيْن في الفلسفة واللَّغة؟

وحدهم العاجزون عن التَّفكير فيما يشعرون يُطيعون قواعدَ النَّخو. فمن يعرف كيف يُعبِّر عن نَفْسه قادرٌ على استخدام تلك القواعد كيفها يشاء ويرضى. وثمَّة حكاية يقصُّونها عن سيغيسموند، ملك روما، الذي قال للشَّخص الذي أشار إلى الخطأ النَّحُوي الذي

⁽²¹⁷⁾ يتحدث بشؤا في الأصل عن تحويل فعن الكينونة «ser» إلى مُتعدِّ، فيصوغ العبارة الأولى «أنا موجود» على هذه الشاكلة: «Sou eu» (وعند جول كوستا: «l am me» (وعند حول كوستا: «Sou eu» (وعبارة «أنا أنا»; «Sou eu») (وعند حول كوستا: «Sou-me» وعبارة «أنا أوحدتُني»: «Sou-me» (وعند جول كوسنا: l exist me). (المترجم)

⁽²¹⁸⁾ كذا في الأصل، لأنَّ يِسُوًا يستخدم عبارة مكوَّنة من كيمنَيْن «Sou-me»، وكذلك جاءت عبارة «أن أو بَعَدْتَي ال التي استحدمتُها، ولكنَّ جول كوستا اضطرَّت، هما، إلى القول «ولقد أو حَدْت فلسفة كاملة بثلاث كلمات بسيطة الأنه قد استخدمت في ترجمتها عبارة مكوَّنة من ثلاث كلمات «l exist me». (المترجم)

ارتكبه في أثناء إلقائه خطاباً عمومياً: «أنا ملك روما، أن أكبر من النَّحُو». وتخبرنا المدوَّنات التَّارِيخيَّة بأنَّه قد بات يُعرَف باسم سيغيسموند «الأكبر من النَّحوْ» (219). يا لَهُ من شعارِ بديع! فكلُّ من يعرف كيف يقول ما يرغب في قوله هُوَ ملكُ روما، بطريقته الحاصَّة. اللَّقبُ ملكيُّ وعلَّتُه مستحيلة.

242

[نحو 1930/4] [نحو

غالباً ما أتساءل: أيَّ شخص سأكون لو كنتُ قد احتميتُ من ريح القدر الباردة بستار الشَّروة، وأنَّ يد عمِّي البارَّةَ لم تقدني قَطُّ إلى مكتب في لشبونة، وأنَّني لم أنتقل البتَّة من هُنَاك إلى مكاتب أخرى، بالغاً الأعالي المُبهرجَة لأنَّني محاسبٌ مساعد جيَّدٌ في وظيفة تشبه قيلولة في الظَّهيرة، وتُوفِّر راتباً يمنحني ما يكفي لأعيش فحسب؟

أعرف لو أنَّ ذلك الماضي لم يكُن مُوجوداً، لما استطعتُ في هذه الأثناء كتابة هذي الصَّفحات، التي رغم قلَّتها، هي على الأقلِّ أفضل من جميع الصَّفحات التي كنتُ بلا شكَّ سأحلم بها في أحلام يقظتي في ظلِّ ظروف أكثر راحة. فالابتذال شكل من أشكال الفطنة، والحقيقةُ الواقعيَّة، لاسيَّها إذا كانت وحشيَّة وقاسية، تُشكِّلُ تَكملةً طبيعيَّةً للرُّوح.

أدين بكثير ثمَّا أشعر به وأُفكِّر فيه إلى عملي كمحاسب مساعد، فالشُّعور موجود كنفي للفِكر وتحليقة بعيدة عنه.

ولو توجَّبُ عليَّ أن أملاً المساحة التي يوفِّرها استبيانٌ يستطلع قائمة التأثيرات الأدبيَّة التَّكوينيَّة التي أثَّرت في المرء، لكتبتُ في السَّطر المُنقَّط الأوَّل اسم سيزاريو فِيرد، ولكنَّ القائمة ستكون ناقصة من دون أسهاء السيِّد قاسْكِش، ومُوريرا المحاسب، وفييرا مندوب المبيعات الجوَّال، وأنطونيو صبيِّ المكتب. ثُمَّ أكتب، بعد كل اسم، بحروف كبيرة، الكلمة المفتاحيَّة: لشبونة.

⁽²¹⁹⁾ super-grammaticam: العبارة التي قالها سيغيسموند باللّاتينيَّة، وتعني: أكبر من النُّخُو. وتذكر المصادر التاريخيَّة بأنَّ سيغيسموند كان عالي الثقافة، ويجيد التّحدث بمغات عدَّة. (المترجم)

⁽²²⁰⁾ نُورَد جُول كُوستا التَّاريخ، هُنَا، على هذه الشَّاكلة، بخلاف الصَّبغة التي اعتمدتُها في تأرخة الشَّذرات التي قبلها. (المترجم).

لقد كانوا جميعاً، في الحقيقة، على قَدْر أهميَّة سيزاريو فيرد في توفير عوامل تصحيح لرؤيتي عن العالم. أعتقدُ أنَّ «عوامل التَّصحيح» هُوَ المصطلح (على الرَّغم من أنَّني لست متأكِّداً، بالطَّبع، من معناه الدَّقيق) الذي يستخدمه المهندسون في منهجيَّة تطبيق الرِّياضيَّات على الحياة. فإذا كان المصطلح الصَّحيح، فلقد كانوا كذلك بالنِّسبة إليَّ، وإذا كان غير ذلك، فليَّدُن ما كان يمكن أن يكون، ويكون قصدي بمثابة استعارة مُخفِقة.

وحين أتأمّل ما كانت عليه حياتي في الظَّاهر، بكلِّ الوضوح الذي أستطيع حشده، فأتخيَّلها كقصاصة ملوَّنة، وبرَّاقة -لفافة قطعة شوكولاتة أو سوار سيگار- تنفضُها النَّادلة، التي تسترق السَّمع، بخفَّة من فوق مفرش الطَّاولة المُتَسخ إلى سلَّة المهملات، بين فتات الواقع وقشوره. إنَّها تبرز من بين تلك الأشياء التي تشاركها قدرها بفضل حظوة مُقدَّرة أيضاً لسلَّة المهملات، تواصل الآلهة أحاديثها فوق الكُناسة، غير آبهةٍ تماماً بتلك الحوادث في العالم الذي في الأسفل.

نعم، لو كنتُ ثرياً، ومُدلَّلاً، وأنيقاً ومزداناً بعناية، لما عرفتُ البتَّة تلك اللَّحظة القصيرة كقصاصة جميلة بين فتات الخبز؛ لكنتُ قد تُركتُ فوق إحدى صواني الحظِ - «ليس من أجلي، شكراً» - فأعود إلى صواني الشَّفرة، كي أهرم ويطول عليَّ الأمد. وما إنْ يُؤكل جوهري المفيد، حتَّى أُنبذَ، فأبعد إلى سلَّة المهملات، رفقة رفات ما تبقَّى من جسد المسيح، عاجزاً حتَّى عن تخيُّل ما سيحدث لاحقاً، تحت النَّجوم؛ لكنَّي أعرف أنَّه سيكون ثمَّة «بَعْدُ».

243

[نحق 4/1930]

عباءً الشُّعور! عباء وجوب أنْ نشعر!

244

[نحو 4/1930]

لم أرغبِ قَطُّ في أن يفهمني الآخرون. كأنَّ المرء يُعهِّر نَفْسه حين يُفهَم. أُفضِّلُ أن أؤخذَ على محمل الجدِّ خلافاً لما أن عليه، وأن أظلَّ مجهولاً، كشخص، بكلِّ لياقة وبساطة.

لاشيء يزعجني أكثر من أن يظن زملائي في العمل أنّني مختلف. أرغبُ في تذوّق طعم سخرية أنّهم لن يفعلوا ذلك. أريد التّكفير عن خطيئة جعلهم يظنُّون أنّني مثلهم. أريد أن يصلبونني بعدم تفكير هم أنّني مختلف، فثمّة استشهادات غامضة أكثر من تلك المدوَّنة بين القدِّيسين والنَّسَاك. وثمَّة عذابات للعقل لا تختلف عن تلك التي للجسد والرَّغبة. ولهذه العذابات، مثل العذابات الأخرى، شهوانيَّتها الخاصَّة [...]

245

[نحو 4/1930]

غابة

ولكن، آه، لم تكُن حقيقيَّة حتَّى حجرة النَّوم (الله) – لقد كانت حجرة النَّوم العتيقة لطفولتي الضَّائعة القد تحرَّكت، مثل سديم، فمرَّت بالفعل عبر الجدران البيضاء لحجرتي الحَقَّة التي برزت من الظِّلال أصغرَ ولكنَّها في غاية الوضوح، مثل الحياة والنَّهار، مثل عبور العربة والصَّوت الخفيض للسَّوط الذي يوقظ عضلات النَّهوض في الجسد الرابض للحصان النَّاعس.

246

[6 مايو 1930]

ولطالما فكَّرتُ في الغيبيَّات بوصفها شكلاً مديداً من جنون خَفِيٍّ. فلو عرفنا الحقيقة، لرأيناها؛ كلَّ شيء آخر مجرَّد منظومات خاوية وبهارج عبثيَّة. ولا بُدَّ، حين نفكِّر في الحقيقة، أن نقنع بغموض الكون وعجزنا على سبر أغواره؛ فالرَّغبة في الفهم تجعلنا أقلَّ إنسانويَّةً، ولا بُدَّ أن تَعرف، كي تغدو إنساناً، أنَّ الإنسانَ لا يَفهم.

⁽²²¹⁾ الكلمة التي يستخدمها بِشُوّا في الأصل هي alcova، وهي تنطوي على معنيُّن: «حجرة النَّوم» (كما في ترجمة حول كوستا هذه) أو «الكوَّة/قُرنة في حجرة عادة ما تحيطها الجدران وتحتوي على سرير أو أريكة كبيرة» (كما في ترجمة زينيث، على سبيل المثال). وكدمة هادها عربية، مستمدة من كلمة «القُبَّة»، عبر الإسپائيّة alcoba. والقُبَّة في العربيّة: «بناءٌ مستدير مجوَّف يُعقَدُ بالآجُرُ ونحوه» أو «خيمة صعيرة أعلاها مستدير». (المترجم)

أحضر وا إلى الإيهانَ ملفوفاً مثل طَرْدٍ، ومحمولاً على صينيَّة شخص آخر. رغبواً في أن أقبله من دون أن أفتحه. وأحضر وا إلى العلم، مثل سكِّين على طبَق، سأقطع بها صفحت كتابٍ صفحاته بيضاء. وأحضر وا إلى الشَّكُ، كغبار في صندوق، لكن لماذا أحضر وا إلى الصَّندوق إذا كان ما فيه ليس سوى غبار؟

أكتبُ لأنّني أفتقرُ إلى المعرفة؛ واستخدم عبارات الآخرين الطنّانة بشأن الحقيقة، وفقَ ضرورات عاطفة معيّنة. فإذا كانت العاطفة واضحة وقطعيّة، فإنّني أتحدّث عن الآلهة، ومِن ثُمّ أُشكّلها في داخل وعيي بالعالم المُتعدّد. وإذا كانت العاطفة عميقة، فإنّني أتحدّث عن الله، بطبيعة الحال، فأرسّخها في وعيي بوحدائيّة العالم. وإذا كانت العاطفة فكرة، فإنّني أتحدّث عن الله عن القدر، بطبيعة الحال مرّة أخرى، فأجعلها تتدفّق مثل نهر عبدٍ لمجراه.

ويتطلّب إيقاعُ العبارةِ الفعليُّ، في بعض الأحيان، استخدامَ كلمة «الله» بدلاً من كلمة «الآلهة»؛ ويفرض المقطعان، اللّذان يُكوِّنان كلمة «الآلهة»، نَفْسَيْها، بكلِّ بساطة، على العبارة، في أحايين أُخرى، فأُغيِّرُ من النَّاحية اللَّفظيَّة الكون الذي أتصوَّره (222) حينتَذِ؛ بيد أنَّ الحاجة في بعض الأوقات، وعلى النَّقيض من ذلك، إلى قافية داخليَّة، أو تحوُّل في الإيقاع، أو صدمة عاطفيَّة، سوف تقلبُ التَّوازُن، فيغدو الأنسبَ لوصف تلك اللَّحظة إمَّا الشَّرْك أو التَّوحيد (223). فالآلهة صنعةُ الأسلوب، لا أكثر.

247

[14 مايو 1930]

معرفةُ أنَّ الواقع ضرب من الوهم، وأنَّ الوهم ضرب من الواقع، مسألةٌ ضروريَّة وعبثيَّة على حدًّ سواء. فلا بُدَّ للحياة التَّامُّليَّة لكي تُوجَد أن تُفكِّر ملياً في الحوادث الموضوعيَّة بوصفها مُقدِّمات متباينة لخُلاصة يتعذَّر الوصول إليها؛ بَيْد أنَّها لا بُدَّ، في الوقت ذاته، أن تُفكِّر ملياً في جوهر الأحلام الجُزافي بوصفه جديراً، إلى حدِّ ما، بالاهتهام الذي نوليه إلى الأحلام، فنغدو متأمَّلين بفضل وجوده.

⁽²²²⁾ يقصد أنَّه يُغيّرُ الألفاط المستخدمة وفقُ الكون الذي يتصوّره؛ فهو إمَّا كون يقتصر على إله واحد أو آلهة مُتعدّدين. (المترجم)

⁽²²³⁾ إِنْ كَانَ كُونًا يقتصر على إله و حد فيختار الألفاظ التي تماسب التّوحيد، وإِنْ كَانَ مقتصراً على آلهة متعدّدين، فيختار الألفاظ التي تماسي ، الشّد إلى (المدّحم)

ويمكن لأي شيء، وفق الكيفيّة التي ننظر فيها إليه، أن يغدو شيئاً مُدهشاً وعقبة على حدِّ سواء؛ كلَّ شيء ولا شيء على حدِّ سواء، طريقاً إلى الأمام أو باعثاً على القلق. والنَّظرُ إلى شيء، بطريقة مختلفة في كلِّ مرّة، يعني تجديده ومضاعفته. وهذا مناطُ أنَّ الرُّوحَ المُتأمِّلَ (224) الذي لا يترك قريته البتّة يكون الكونُ كلَّه تحت تصرُّ فه على الرَّغم من ذلك. يكمن المُطلق في زنزانة أو صحراء، ويستطيع المرء أن ينام نَوْمة كونيَّة مُتوِّسداً حجراً.

بَيْدَ أَنَّ ثُمَّة أو قاتاً -وهذا يحدث لكلِّ الذين يتأمَّدون بيدو فيها كلَّ شيء، مهما كان جديداً، قديم ويالياً ومبتذلاً، فنحن لا نستطيع البتَّة، مهما تأمَّلنا الشَّيء بقوَّة -فنحوِّله، بالتَّأَمُّل - إلَّا أن نحوِّله إلى شيء يمكن أن يستخدم كهادَّة إضافيَّة للتَّامُّل، ثُمَّ تتكالبُ علينا رغبة في العيش، ومعرفة الأشياء دون أن نعرفها، وألَّا نتأمَّل إلَّا بالحواسِّ، وألَّا نُفكر إلَّا بطريقة محسوسة أو حسَّاسة، من داخل الشَّيء الذي نُفِّكر فيه، كها لو كان إسفنجة ونحن الماء. سيكون لنا ليلنا، حينئذ، ويغدو تعبُ العواطف كلِّها بعيدَ الغوْر، فهي عواطف الفِكر العميقة في حدِّ ذاتها. ولكنَّه ليلٌ بلا سكينة، بلا ضوء قمر، وبلا نجوم؛ ليلٌ كأنَّ كلَّ شيء فيه قد قُلبَ بطناً إلى ظهْر - المُطلَقُ وقد تحوَّل إلى جوَّانيةٍ ضيَّقة وكتيمة، والنَّهارُ وقد باتَ البطانة السَّوداء لبذلة لم نهاً من قَبْل.

نعم، من الأفضل، إلى حدِّ بعيد، أن نكون البزَّاقة البشريَّة التي تعشق في جَهالة مرحة، والعَلَقة التي تجهل خِلقتها القبيحة. الجهل بوصفه طريقاً للعَيْش ا والإحساس المثير بوصفه طريقاً للنَّسيان! فكم من المغامرات قد ضاعت في اليقظة البيضاء المُخضرَّة لتلك السَّفائن المتلاشية، مثل قطرة بصاق باردة سقطت من على الدَّفَة الطَّويلة التي كانت بمثابة أَنْفٍ تحت أعين الكبائن العتيقة!

248

[1930 مايو 1930]

تمنحني نظرة خاطفة إلى منظر ريفي فوق حائط في الضُّواحي إحساساً عارماً بالحريَّة أكثر

⁽²²⁴⁾ ترد مفظة الزُّوح (soul) هُنَا اسماً مُذَكِّراً، سيراً على منو ل للغة البرتغالبَّة التي تُذَكِّر لفطه الرُّوح (espirto). والرُّوح في العربيَّة تُذكِّر وتوَّتْ، والتَّانيث على معنى التُفْس. (المُترجم)

مًّا قد تمنحه إلى شخص آخَر رحلةً برمَّتها [في الرِّيف]. فنقطة الرَّصْد التي ننظر من خلالها إلى شيء بعينه هي التي تُشكَّل قمَّةَ الهرم المقلوب الذي يتعذَّر تحديد قاعدته. (225)

وثمّة وقت كانت فيه الأشياء، التي تجعلني أبتسم اليوم، تثير حنقي إلى حدّ بعيد. ومن بين تلك الأشياء، التي لا تكاد تغيب عن بالي في كلّ يوم، الطريقة التي لا يكفّ فيها البشر العاديّون، الفاعلون، عن السُّخرية من الشَّعراء والفنّانين. ولكنَّ البشر العاديّين لا يُديمون السُّخرية مِنَّ السُّخرية مِنَ النَّ فلاسفة الجرائد يريدوننا الاعتقاد بخلاف السُّخرية مِنَّا بمسحة من التفوُّق، على الرَّغم من أنَّ فلاسفة الجرائد يريدوننا الاعتقاد بخلاف ذلك. إنَّهم يسخرون بمودَّة في الغالب الأعمّ، ولكنَّها السُّخرية التي دائها ما تشبه تربيتة يقوم جا أحد الرَّاشدين على رأس طفل، شخص غير مقتنع بيقين الحياة وصحَّتها.

وكان ذلك يثير في العادة حنقي، لاعتقادي السّاذج -فلقد كنتُ ساذجاً حينئذ أنَّ الابتسامة التي يطلقونها ضدَّ انهماك الآخرين في أحلامهم، وفي وصف تلك الأحلام، كانت بمثابة رائحة كريهة تنبعث من إحساس عميق بالتفوَّق. إنَّها، في الواقع، مجرَّد اعتراف صريح بالاختلاف. وفي حين كنت أعدُّ تلك الابتسامة إهانةً، لأنَّها تنطوي على نوع من التفوُّق، فإنَّني أُعدُّها الآن تعبيراً عن ريبة غير واعية؛ فمثلها بستشفُّ الرَّاشدون في العادة تمتُّعَ الأطفال بفطنة أمضى من تلك التي يتمتَّعون بها، فإنَّ المبتسمين السَّاخرين يستشقُّون فينا -نحن الذين نحلم و نفصح عن أحلامنا - اختلافاً يرتابون فيه لأنَّه غريب. أودُّ الاعتقاد بأنَّ الأكثر فطنة من بينهم يلمحون تفوَّقنا فيبتسمون ساخرين كي يحجبوا تلك الحقيقة.

ولكنَّ تفوُّقنا ليس مثلما ينظر إليه كثير من الحالمين؛ فالحالم ليس أسمى من الإنسان العمليِّ، لأنَّ الحلم أسمى في جوهره من الواقع. يكمن تفوُّق الحالم في حقيقة أنَّ الحلم عمليًّ أكثر من العيش، وفي حقيقة أنَّ الحالم بجني من الحياة لذَّة أعظم وأكثر تنوُّعاً من الإنسان العمليِّ. المختصر المفيد: الحالم هو الإنسان العمليُّ الحَقُ.

ولاَّنَّ الحياة بالضرورة حالة ذهنيَّة، وكلُّ شيء نفعله أو نفكِّر فيه لا يكون قيِّماً إلَّا حين نفكِّر في أنَّه كذلك، فإنَّها تعتمد علينا في أيِّ قيمة قد تمتلكها. إن الحالم هو مَن يُوزِّع الأوراق

⁽²²⁵⁾ وثمّة، هُمَا، مثال آخر على «تعدُّد» النَّظرة التي تعامل بها محرَّرو الطَّبعات البرتغاليَّة المختلفة مع شذرات بِسُوًا هـــه. فنرى برادو كويلو يورد الفقرة الأولى من هذا المقطع كشذرة مستقلَّة بذاتها في طبعته (المقطع 136) نظر القيام بِسُوًا في الأصل يوضع خطَّ طويل متقطَّع يعصل هذه الفقرة عن بقيَّة الفقرات، في حين أوردت الطَّبعات الأخرى هذه الفقرة كجزء من لنَّص الكبيَّ المرفون أصلاً على الآلة الكاتبة، بالحبر الأزرق، في صفحة واحدة. (المترجم)

النّقدية، وتُمرَّر هذه الأوراق حول مدينة روحه مثلها يحدث في الحقيقة بالضّبط. ما يهمُّني إمكانية ألّا تتحوَّل الورقة النَّقديَّة لروحي إلى ذهب البثّة، فلا ذهب هناك البثّة في الخيمياء المُختلَقة للحياة. نحنُ وبعدنا الطُّوفان، ولكنْ ليس إلّا بعدنا جميعاً. فالبشر المتفوِّقون الحقيقيُّون (والأسعد) هُم أولئك الذين يؤلَّفون روايتهم الخاصَّة، مدركين أنَّ كلَّ شيء خياليَّ، قبل أن يؤلِّفها شخص آخر نيابة عنهم، ثُمَّ يرتدون أردية الحاشية الملكيَّة، على شاكلة ميكاڤيلي، كي يكتبوا في السِّرِّ.

249

[1930 مايو 1930]

أَنْ تعيشَ يعني أَنْ تكونَ غيرَك. فحتًى الشُّعور مستحيل لو شعر المرءُ اليومَ بها شعر به بالأمس، لأنَّ ذلك ليس شعوراً، وإنَّها تذكُّر ما شعر به المرء بالأمس لا غير، أن يكون الجثَّة الحيَّةَ لحياة الأمس المفقودة.

أَنْ تَمحو كلَّ شيء على السَّبُّورة من يوم إلى آخر، أن تكون جديداً كلَّ فجر جديد، في حالة من البتولة العاطفية المتجدِّدة أبدَ الدَّهر - ذاك، وذاك وحده، ما يستحقُّ أن نكونه أو نملكه، لو كُنَّا سنكون، أو نملك، أنفسَنا المنقوصة.

وهذا الفجرُ أوَّل فجرِ رآهُ العالمَ. ولم يسبق لهذا الضَّوء البنفسجيِّ أن تضاءل أصفرَ ثُمَّ أبيضَ وهَّاجاً فاسَّاقطَ هادئاً بهذي الطَّريقة على الوجوه فاستدارتِ العيونُ المحجوبة خلف زجاج النَّوافذ غرباً إلى الصَّمت الذي يأتي مع الضُّوء المتعاظم. ولم يسبق لكينونتي أن وُجدَتْ قبل هذي السَّاعة وهذا الضَّوء. سيكون مختلفاً ما سيأتي غداً، وما أراه سوف يُرى بعينَيْن مختلفتَيْن، طافحتَيْن برؤيا جديدة.

أَيَّتُهَا الجِبَالُ العاليَاتُ؛ يا جبالَ المدينةِ! أَيَّتُهَا العاراتُ العظيمة التي تجذرت في الشُفوح المُنصَبَّةِ، ثُمَّ صعدَتْ فوقَها سَيْلاً من بيوتٍ تكوَّمتْ خَبْطَ عشواءٍ، ثُمَّ حَبَكَ بعضها ببعض الضَّوءُ المنبعث من الظُّلال والنَّارِ - أنتِ النَّهارُ، وأنا أنتِ لأنَّني أراكِ، وأنتِ ما [لن تَكُونِيهِ] غداً، وإنِّي، إذ أميلُ مَيْلَ المُستندِ إلى السِّياج الذي يُطوِّق سطحَ السَّفينة، أُحبُّكِ حُبَّ السَّفائن حين يمرُّ بعضُها ببعض، يعتريها في العبور حنينٌ لا يُفسَّرُ.

[12] يونيو 1930]

ثمّة أوقاتُ يُرهق فيها كلَّ شيء، حتَّى تلك الأشياء التي تجلب لنا الرَّاحة في العادة. فمن الواضح أنَّ المُرهِق يُرهقنا لأنَّه مُتعَبُّ؛ ويُتعبنا المُريحُ لأنَّ فكرة ضرورة الحصول عليه مُتعبةٌ. يكمن وراء الكَرْب كُلِّه والألم كُلَّه بعضُ أَوْهَانِ الرُّوح، وأظنُّ أنَّ الذين يظلُّون غير مدركين هذه الأَوْهَان هُم أولئك الذين يتفادون الكَرْب والألم، فيحجبون سأمهم بمهارة عن أنفسهم. ولأنَّهم يُدرِّعون أنفسهم بهذه الطَّريقة ضدَّ العالم، فلا عجبَ أن يشعروا فجأة، في مرحلة معيَّنة من وعيهم بأنفسهم، أنَّهم مسحوقون تحت ثِقَل ذلك الدِّرع برمَّته، فتتكشَّف الحياة لهم كَرْباً معكوماً وألماً غائباً.

هكذا أشعر في هذه اللَّحظة، فأكتب هذي السُّطور كشخص يكافح ليعرف أنَّه على الأقلِّ يعيشُ. عملتُ طيلة النَّهار حتى هذه اللَّحظة وأنا نصف نائم، حالماً بطريقي عبر الحسابات التي أُدوِّنها على أكمل وجه في أثناء سُباتي. فلقد شعرتُ طيلة اليوم وكأنَّ الحياة تُثقِل جفوني وصدغيَّ - عيناي مُثقلتان بالنَّوم، وضغطٌ متواصل على صدغيَّ، وعيُّ بهذا كُلِّه في هاوية معدي، ومشاعر غثيان ويأس.

يبدو العيش، بالنّسبة إليّ، غلطة غيبيّة على صعيد المادّة، وزلّة على صعيد الكسَل. لا أنظر حتّى لأرى أيّ نهار اليوم؛ لأرى إن كان ثمّة شيء قد يلهيني عن نَفْسي، فأغطّي بالكلمات، حين أُدوِّن وصفه هُنَا، الكأسَ الفارغة لعشقي ذاتي. ولا أنظر حتّى إلى النّهار، وإنّا أجلسُ محدودب الكتفيّن، دون أن أعرف إنْ كانت ثمّة شمس هُناك في الشّارع الحزين حُزناً شخصياً، في الشّارع المهجور حيث لا أسمع رغم ذلك أصوات المارّة. لا أعرف شيئاً وقلبي يوجعني. أنهيتُ العمل، ولكنّني لا أريد أن أتحرّك من هُنا. أنظرُ إلى المدى الأبيض الضّارب للصُّفرة في دفتر تسجيل المبيعات المُعرَّى عند أطرافه بالسّطح العتيق للمنضدة المائلة. أحدَّقُ في غبش الخربشات، نتيجة الاستغراق في الذّات أو تشتُّت الفكر المحض. يظهر توقيعي عدَّة مرَّات العبثيَّة، إبداعات ذهني المُشتَّت. أنظر إلى هذا كلّه مثل فلّاح لم يَرَ دفتر تسجيل مبيعات من العبثيَّة، إبداعات ذهني المُشتَّت. أنظر إلى هذا كلّه مثل فلّاح لم يَرَ دفتر تسجيل مبيعات من قبّل، مثل شخص يُحدِّق في آخر التّقليعات، وذهني مشلول بأكمله (إلّا المناطق المعنيّة بالنّظر).

أشعرُ بنعاس جوَّانيًّ عظيم حتَّى إنَّه يفيض عن حدود النَّفْس. لا أريد شيئاً، ولا أفضًل شيئاً، فلا شيءَ أستطيع الهروب إليه.

251

[13 يونيو 1930]

أعيشُ دوماً في الحاضر. لا أعرف شيئاً عن المستقبل ولم يَعُد لديَّ ماض البَّة. فالمستقبل يرهق كاهلي بحقيقة العَدَم. لا آمال لديَّ في يرهق كاهلي بحقيقة العَدَم. لا آمال لديَّ في المستقبل ولا تَوْقاً حرَّاقاً (200) إلى ما قد كان. فأيُّ افتراضات يمكن أن أفترضها بشأن حياتي، حين أعرفُ ما كانت عليه حتَّى هذه اللَّحظة وهي حياة كانت على النَّقيض تماماً عمَّا تمنيَّتُه في كثير من الأحيان - سوى أنَّها لن تكون ما أفترضه أو ما أرغب في أن تكون، وأثَّها ستكون شيئاً حدث لي من الخارج، ضدَّ رغبتي حتَّى ؟ لا شيء في حياتي الماضية يملؤني برغبة عبثيَّة كي أُكرِّرها. فلم أكن قط أكثر من مجرَّد أثر وصورة زائفة لنفسي. ماضيَّ كلُّ شيء لم أستطع كي أُكرِّرها. فلم أكن قط أكثر من مجرَّد أثر وصورة زائفة لنفسي. ماضيَّ كلُّ شيء لم أستطع أن أكُونَه. ولا حتَّى المشاعر المرتبطة باللَّحظات الماضية تجعلني أشعر بالحنين؛ فما يشعر به المرء هو شعوره باللَّحظة. ويمجرَّد أن يغدو ذلك ماضياً تُقلَب الصَّفحة وتستمرُّ الحكاية، ولكنَّ النَّص يختلف.

يا أيّها الظّلُّ القصيرُ المعتمُ لشجرةٍ في المدينة، أيّها الصَّوتُ الحَفيفُ للهاء المسَّاقط في بركة حزينةٍ، يا أخضرَ العشب الوثيرِ -أيّتها الحديقة المَشاعُ على شفير الغسق - أنتِ لي الكونُ كُلُهُ، في هذه اللَّحظة، لأنك تملئينَ شعوريَ الواعي كُلَّهُ. لا أريدُ من الحياة إلّا أن أشعرَ بأنّها تَغِيضُ بعيداً في تلك المساءات المُباغتة، على أصوات أناسِ آخرين يلعبون في الحدائق التي سيَّجتها كابة الشوارع المحيطة، وضربت السَّاءُ قُبَتها التي راحتْ تلوحُ فيها النَّجومُ مرَّةً أخرى فوقَ أغصان الشَّجر العالية.

[نحو 13 يونيو 1930] عاصفةُ رعديَّة

سهاءٌ واطنةٌ من غيوم ساكنةٍ. كانت زراقةُ السَّماء قد دنَّسَها بياضٌ شَفِيفُ.

وكان صبيُّ المكتب قد توقَّفَ في طرف الغرفة القصيِّ لحظةً عن رَزْمِهِ الأبديِّ للطُّرود... قائلاً بامتنان: «أَصِخ السَّمعَ إلى ذلك [...]».

صمتٌ بارد. توقَّف الصَّوت المنبعث من الشَّارع كأنَّ سكيناً قد قطعته. شعرنا، في تلك اللَّحظة التي بدتُ كأنَّها دهرٌ، بالضِّيق في كلِّ شيء، بِحَبْس أنفاسٍ كونيٍّ. توقَّف الكونُ كُلُّه. مرَّت هُنيهاتٌ وهنيهات. فادلهمَّت العتمةُ بالصَّمت.

ثُمَّ، فجأةً، بريقٌ فولاذٍ لامع [...].

كم بدا الصَّليلُ المعدنيُّ للترامات إنسانياً! وكم بهيجاً مشهدُ المطر البسيط المنهمر في الشَّوارع وقد جُرَّ من الهاويةِ!

آهِ، لشبونة، يا موطني!

253

[27 يونيو 1930]

الحياة، بالنّسبة إلينا، هي ما نتخيّلُ أن تكون. فالحقل الوحيد بالنّسبة إلى الفلّاح هو كلُّ شيء؛ إنَّه إمبراطوريَّة، والإمبراطوريَّة الشَّاسعة، التي مازال قيصر يشعر أنَّها ضيَّقة، هي حقل بالنّسبة إليه. للفقير إمبراطوريَّة، وللرَّجل العظيم حقلٌ فحسب. الحقيقةُ أنَّنا لا نملك شيئاً سوى أحسيسنا المثيرة، ولذلك لا بُدَّ أن نُشيِّد واقعَ حياتنا عليها هي في حدِّ ذاتها لا على ما تُدركه.

ولكنَّ هذا كلَّه ليس وثيقَ الصَّلة بأيُّ شيء.

لقد حلمتُ كثيراً، وأنا مُتعَبُّ في هذه اللَّحظة لاَنني حلمتُ، لكنّني لستُ متعباً من الحُلم. لا أحد يتعبه الحُلم، فالحُلم أنْ تنسى، والنِّسيان لا يُثقِل كاهل أحد، إنَّه نومٌ بلا أحلام نظلُّ فيه مستيقظين. لقد حقَّقتُ بالأحلام كلَّ شيء. واستيقظتُ أيضاً، فها جدوى ذلك؟ كم قياصرة يُعدُّون ولا يُحصَوْنَ كنتُ اولكنْ، يا لخسَّة العظهاء الماجدين ا فلقد بحث قيصرُ طويلاً وحثيثاً عن القرصان الرَّحيم الذي نجَّاه من الموت، فاعتقله، ثمَّ صلبه. وحين خطَّ نابليون وصبيته الأخيرة في جزيرة القديسة هيلانة، أوصى بتركته إلى مجرم حاول اغتيال ويلتغتون (٢٢٠). لا فرق بين عظمة الرُّوح تلك وعظمة روح الجار الأحول! أيّها العظهاء المولودون لطبًّاخِ عالمَ آخر! كم قياصرة يُعدُّون ولا يُحصَون قد كنتُ ومازلت أحلم بأنْ أكون!

كم قياصرة يُعدُّون ولا يُحصَون كنتُ، ولكنَّني لم أكن قطُّ مثل القياصرة الحقيقين. كنتُ إمبراطورياً عَاماً في أحلامي، ولهذا لم أُحقِّق أيَّ شيء. هُزمَت جيوشي، ولكنَّ الهزيمة ليست ذات شأن، فلم يمت أحد. ولم تسقط رايةٌ قطُّ، فلم يسبق لي أن حلمتُ بجيش إلى الدَّرجة التي خفقَتْ فيها تلك الرَّاياتُ عند طرف تحديقة أحلامي. وكم قياصرة يُعدُّون لا يُحصَون كنتُ هُنَا، في خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ. مازال أولئك القياصرة أحياء في مخيَّلتي، ولكنَّ القياصرة الحياء في مخيَّلتي، ولكنَّ القياصرة الحياء في مخيَّلتي، ولكنَّ القياصرة الحقيقيِّن ماتوا منذ أمدِ بعيد، ولن تعرفهم خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ (أقصدُ: الحقيقة الواقعيَّة) في هذه اللَّحظة.

أقذفُ علبة ثقاب فارغة في الهاوية التي هي الشَّارع خلف عتبة نافذتي العالية. أجلسُ في كرسيِّي وأُنصِت. كأنَّ الحقيقة كانت مهمَّة، فتقذفُ علبةُ الثِّقاب الفارغة صدى واضحاً إليَّ لتخبرني بأنَّ الشَّارع مهجور. لا صوت بمعزل عن الأصوات التي تضجُّ بها المدينة برمَّتها، نعم، أصوات المدينة برمَّتها - أصوات كثيرة غير مفهومة، ولكنَّ كلَّ صوت في محله تماماً. يا لقلَّة ما يحتاجه المرء من العالمَ الحقيِّ مُنطلَقاً لأفضل تأمُّلاته؛ وصلتُ متأخّراً لتناول طعام الغداء، نفدت أعواد الثِّقاب فرميتُ العلبة الفارغة إلى الشَّارع، واعتراني بعضُ الضيق لتناولي الغداء متأخّراً. ولأنَّه يوم الأحد، لا شيء يلوح في الأفق إلَّا ما يتوعَد بمغيب شمس

⁽²²⁷⁾ يقصد الدُّوق ويلنعتون الذي هزم نابليون في معركة واترلو التي نفي بعدها إلى جزيرة الفلَّيسة هيلانة. (المترجم)

بائس، وبأنَّني لا أحدَ في هذا العالَم، وبعض المسائل الغيبيَّة التي من هذا القَبيل. ولكن، كم قيصراً كنتُ!

254

[يونيو/يوليو 1930]

كانت مناعات غريبة، لحظات متوالية غير مترابطة، بدَّدَتُها سائراً في اللَّيل قُربَ الشَّاطئ المُتوحِّد للبحر. مُرَّتْ في ذهني، وأنا أتأمَّل ماشياً، جميعُ الأفكار التي جعلت البشر أحباء، وجميع المشاعر التي سمحت للبشر بالوجود، كأنَّها تلخيصٌ غامضٌ للتَّاريخ.

ولقد كابدتُ في نَفْسي، ومع نَفْسي، طموحات كلِّ حقبة، وتجوَّلتْ قلاقلُ الأزمنة كلُّها بجانبي على امتداد الشاطئ الصَّاخب الهدَّار، وكانت بعض أشياء الرُّوح الحسَّاسة التي صاحبتني على طول الشَّاطئ اللَّيلِِّ: ما رغبَ البشرُ في فعله ولم يفعلوه، وما دمَّروه في أثناء قيامهم بذلك، وما حدث لأرواحهم ولم يُحكَ عنه قَطُّ. ولقد سار معي، وعاد معي، والأمواجُ الهائلة تسحقُ الصُّحبة التي هدهدتني كي أنام: ما وجدَه العُشَّاق ناقصاً لدى الذين يحبُّونهم، وحقيقةُ الزَّوجة التي أخفَتُها عن زوجها دائها، والأفكار التي خطرت ببال الأُمِّ عن الطَّفل الذي لم تُنجبه على الإطلاق، والأشياء التي لم تجد طريقاً للتَّعبير عن نفسها إلَّا في ابتسامة أو في عاطفة مفقودة.

نحنُ ما لسنا عليه، والحياة سريعة وحزينة، وصوت الأمواج في اللّيل صوت لينيّ، فكم هُم الذين سمعوه في أرواحهم كالأمل الرّاسخ الذي يتفشّى عند العتمة في الصّوت الكتيم لارتطام الزّبد العميم! وأيَّ دموع ذرفها المُخفِقون، وأيُّ دموع سفحها النّاجحون! جاء هذا كلّه إليّ، في نزهتي قُربَ البحر، كأسرار اللّيل، الأسرار المهموسة؛ أسرار الهاوية. كم واحداً نحنُ، وكم ذاتاً خدعنا من تلك الذوات! وأيُّ بحارٍ تتكسَّرُ فِينَا، في ليل كينونتنا، على طول شواطئ لا نشعر بها إلّا في طوفان مشاعرنا العميم!

إنه ما فقدناهُ، ما توجّب أن نُحبّهُ، ما جنيناهُ وقرّتُ أُعيُننا سَهواً بهِ، فَرَأَيْنَا، حينَ فقدناهُ، أَنّنا لم نُحبّهُ ولكنّنا مانزالُ نُحبُّهُ لأنّنا فقدناهُ؛ ما ظننا أنّه قد عَنّ على بالنا حين شعرنا بشيءٌ ما ظنناهُ عاطفةً فكان في الحقيقة مجرّدَ ذكرى؛ ثُمّ، وأنا أمشي، جاءَ البحرُ يتهاوجُ كُلُّهُ، بارداً،

صخَّاباً، من أعمقِ أعماق الظَّلام، كي ينقشَ نَفْسَهُ برقَّةٍ فوق الرِّمال...

مَن منا يعرفُ الشيءَ الذي يُفكِّر فيه أو يرغبُه؟ ومَن يعرف، حقَّ المعرفة، أيَّ معنى يحمله لِنَفْسه؟ كم مِن الأشياء اقترحتها علينا الموسيقى، وكم من المريح معرفة أنَّ تلك الأشياء لن تكون أبداً! كم هي الأشياء التي يتذكَّرها اللَّيل وكم نبكي عليها على الرَّغم من أنَّها لم تكُن قطُّ! تتقوَّسُ الموجةُ، مثل صوت أُطلِقَ لَهُ العِنَانُ من الخطَّ السَّاكن الطَّويل للبحر، فتتكسَّرُ وعموتُ، تاركة خلفَها صوتَ مياهها يلعقُ الشَّاطئ المحجوب.

كيف سأموت لو سمحتُ لنَفْسي أن تشعر بتلك الأشياء كلِّها! وكم سأشعر لو سمحتُ لنَفْسي بأن تنجرف، روحياً وجسدياً، وقلبي هادئ كشاطئ. وفي اللَّيل الذي نعيش فيه، في نزهتي اللَّيليَّة الأزليَّة على امتداد شاطئه، يهدرُ بحرُ الأشياء كلِّها عالياً مُتهكًا، ثُمَّ يهدأُ.

255

[16 يوليو 1930]

كَأَنَّ الحياةَ مرضٌ في هاوية المعدة، كأنَّ وجودَ روحك تشنَّجُ عضليٍّ. فخراب الرُّوح، حين يُحَسُّ بحدَّة، يخلقُ أمداءَ بعيدةً في الجسد فيُوجِعُ بالإنابة.

أعي في نَفْسي اليومَ أَنَّ أَلَمَ الوعي هُوَ، كما يقول الشَّاعر (228): وَهَنُّ، وغثيانٌ وشوقٌ رهيبُ.

256

[20 يوليو 1930]

كلَّها حلمتُ كثيراً، أخرجُ إلى الشَّارع وعيناي مفتوحتان، ولكنَّ طمأنينة تلك الأحلام مازالت تُدتَّرني. تعجَّبتُ كيف أَخفق كثير من النَّاس في إدراك عَفويَّتي، فأنا أسير في الحياة

اليوميَّة ممسكاً بيد مُربِّيتي النَّجميَّة، وقدماي في الشَّرع متوافقتان ومتناغمتان مع المُخطَّطات الغامضة التي وضعتها تُخيِّلتي النَّائمة. غير أني أسير، رغم ذلك، في الاتِّجاه الصَّحيح في الشَّرع. أنا لا أتعثَّر، وأتصرَّف مثلها ينبغي لي؛ إنَّني موجودٌ.

ولكن، كلَّما كان فاصلَّ زمنيٌ لا يتوجَّب عليَّ فيهِ أن أنظرَ إلى حيث أذهبُ كي أتفادى السيَّارات أو المارَّة، حين لا ينبغي أن أُكلِّم أحداً أو أتفادى الدُّخول إلى مدخل قريب، أترك نَفْسي تنجرف مرَّة أخرى مثل قارب ورقيٍّ على ماء الأحلام، فأعودُ ثانيةً إلى الوهم المحتضر الذي احتضن وعيي الغامض بالصَّباح الضاجِّ بالحياة في غمرة أصوات السيَّارات التي تحمل الخَفَر إلى السُّوق.

إنه هُنَاك، في غمرة الحياة، حيث يصير الحلم مثل شاشة سينها شاسعة. أذهب في شارع خُلميًّ في بَايْشًا والحقيقة الواقعيَّة للحيوات المحلوم بها التي تقطن فيه تعصبُ برقَّة عصابة بيضاء من ذكريات باطلة حول عينيَّ. أصيرُ ملَّاحاً يستكشفُ أن مجهولةً (229). أهزمُ الجميع حتَّى في الأماكن التي لم أزرها البتَّة. وكأنَّها نسيم عليلٌ، حالة السَّكينة، هذه، التي أمشي فيها، مائلاً إلى الأمام، في مسيرتي فوق المستحيل.

تُسْكِرُ كلَّ واحد مِنَّا أشياءُ مختلفة. ثمَّة سُكُرٌ يكفيني في وجودي فحسب. تُسكِرني مشاعري، أترَّنحُ، لكنِّي لا أَضِلُّ. إذا كانَ وقتُ العودة إلى العمل، أعودُ إلى المكتب مثل أيِّ مشاعري، أترَّنحُ، لكنِّي لا أَضِلُّ. إذا كانَ وقتُ العودة إلى العمل، أعودُ إلى المكتب مثل أيِّ شخص آخر تماماً. وإذا لم يكُن، أذهبُ إلى النَّهر كي أُحدِّق في المياه، مرَّة أخرى، مثل أيِّ شخص آخر. أنا ذاتي، لا غير. لكنَّني، خلفَ هذه الرَّتابة التي لا تتبدَّلُ، أنثرُ سمائيَ بالنَّجوم سراً، فأخلقُ أبديَّتي.

(230) 257

[تحو 24 يوليو 1930]

أكتبُ وإحساسٌ غريب بالحُزن يعتريني، أستفيدُ من اختناقٍ فكريٍّ مُعيَّن ينتابُني جرًّا ۚ

(229) الأنا، هَا، نكرةً؛ إشارة إلى الأنوات الكثيرة التي تعيش في داخل نفس بِسُوًّا. (المترجم)

كَمَال المساء. وهذي السَّماء الزَّرقاء البديعة تتلاشى ورديَّة شاحبة فوق نسيم عليل وطيد يملأُ وعيي بنَفْسي برغبةٍ مُلحَّة في الصُّراخ. فأنا، بعد كلِّ شيء، أكتبُ لأهربُ وأهربَ من جديد. أجتنبُ المُثُل العُليا. أنسى تعبيرات معيَّنة، فتتجلَّى لي في أثناء الحركات الفيزيقيَّة للكتابة، كأنَّ القلمَ كان يقوم بتلك الحركات.

ولم ينجُ عَمَّا فكُّرتُ فيه، وعمَّا شعرتُ به، إلَّا رغبة غامضة وعقيمة في البكاء.

258

[25] يوليو 1930]

لا نُحبُّ أحداً بتاتاً. لا نُحبُّ إلَّا فكرتَنا عمَّا يبدو عليه شخصٌ ما. نحبُّ فكرةً من أفكارنا؛ بيتُ القصيد: إنَّنا نحبُّ أنفسَنا.

وينطبق هذا على كلِّ أنواع الحُبِّ. لبحثُ، في الحُبِّ الجنسيِّ، عن لذَّتنا عبر وسيط جسدِ الآخر. ونبحثُ، في الحُبِّ عن لذَّتنا عبر وسيطِ الفكرة التي لدينا. فقد يكون المُستمنِي مخلوقاً وضيعاً، لكنَّه، في الحقيقة، التَّعبيرُ المنطقيُّ عن العاشق. إنَّه الوحيد الذي لا يقرف من نَفْسه ولا يغويها.

إن العلاقات بين روح وأخرى، المُعبَّر عنها عبر تلك الأشياء المتباينة غير المؤكَّدة كالكلمات المتبادلة والإيهاءات الصَّادرة، لهي علاقاتُّ ذات تعقيد غريب. فالطريقة التي نستخدمها كي يعرف بعضُنا بعضاً هي ذاتها شكل من أشكال الجهل. وحين يقول شخصان لبعضها «أحبُّك» (أو ربَّها يفكِّران أو يتبادلان العاطفة) فإن كلَّ واحد منهما يقصدُ بذلك شيئاً غتلفاً، حياة مختلفة، أو حتَّى لوناً ورائحة مختلفين في الخُلاصة المجرَّدة للانطباعات التي بتكوَّن منها نشاط الرُّوح ربها.

إنَّني شفَّافٌ اليومَ كَأَنّني قد أحجمتُ تماماً عن الوجود. تتمدَّدُ أفكاري عاريةً مثل هيكل عظميّ، وقد تجرَّدت من الأسمال البالية لوهم التَّواصُل. وهذه الأفكار، التي أُشكُلها في البَدْءِ عظميّ، وقد تجرَّدت من الأسمال البالية لوهم التَّواصُل. وهذه الأفكار، التي أُشكُلها في البَدْءِ تُمَّمُ أنبذُها، مولودةٌ من العَدَم، مِن لا شيءَ بتاتاً، ليس من شيءٍ موجود في هاوية وعيي على الكاذب/يا هواء الشمس المشرقة/ لم تقولُ للقلب الذي يستجدي المرخ: / لدا نبكي). وثمّة بعض عبارات فضفاضة الكاذب/يا هواء الشمس المشرقة/ لم تقولُ للقلب الذي يستجدي المرخ: / لدا نبكي). وثمّة بعض عبارات فضفاضة أخرى في طرف القصاصة: «لا شيء في السباح/ إنها بحرد برهة/ إنها نجرد «هه/ إنها نجرد وها في المرة». (المترجم)

الأقلِّ. ربَّما من الخيبة في الحُبِّ التي ذاقَها مندوبُ مبيعاتنا الجوَّال، في علاقته مع الفتاة التي كان يُواعدها، وربَّما من عبارة أُخذتُ من حكاية علاقة غراميَّة أعادت نشرها الصَّحف المحليَّة نقلاً عن الصحافة الأجنبيَّة، وربَّما من غثيان غامض أحمله فِيَّ ولم أستطع طرده من جسدي... ولقد أخطأ شارحُ قرجيل، فنحن ندرك تماماً أنَّ الشعور الذي نحس به أكثر من أي شيء آخر لا بُدَّ أن يكون التَّعَب. فأنُ نعيش يعنى ألَّا نُفكِّر.

259

[تحو 27 يوليو 1930]

الإحساس بالرَّائحة يشبه طريقة غريبة في النَّظُر. إنَّها تستثيرُ المناظر العاطفيَّة من مُجرَّدرسم خُطَّ في عقولنا اللَّواعية. لطالما شعرتُ بذلك. أسيرُ في شارع. لا أرى شيئاً، أو بالأحرى: على الرَّغم من أنَّني أنظرُ إلى كلِّ شيء، فإنني لا أرى سوى ما يراه الجميع. أعرفُ أنَّي أمشي في شارع، لكنَّني غير واع أنَّ لهُ جانبيْن يتكوَّنان من بيوت مختلفة شيَّدتها كائنات بشريَّة. أسير في شارع. تفوح من الفُرن رائحة الخبز الشَّهيَّة التي تكاد تُغيني، فتنهض طفولتي من حارة في الطرف الآخر من المدينة، ويتجلَّى أمامي فرنُّ آخر من تلك المملكة الخرافيَّة التي هي كلُّ شيء فقدناه. أسير في شارع. فيفوحُ فجأة برائحة الفاكهة على المنصب خارج دكَّان صغيرة ضيِّقة، ووقتي القصيرُ في الرَّيف الم أعُد أعرفُ متى كانَ أو أينَ - يزرعُ أشجاراً في قلبي وسلوى هادئةً، للحظة هي بالتَّأكيد لحظة الطُفل الذي كُنتُه. أسير في شارع. فتجتاحني، على نحو فجائيٌ تماماً، رائحةُ صناديق الحشب التي سوَّاها صانع الصَّناديق: آه، يا سيزاريُو (153)، مَا أنتَ تظهرُ الآنَ أمامي، فتغمرني السَّعادة أخيراً. لقد عدتُ، عبر ذاكرتي، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب.

260

[تحو 27 يوليو 1930]

سببُ معاناة معظم النَّاس عجزُهم عن قول ما يرونه أو يُفكِّرون فيه. يقولون إنَّه لا

⁽²³¹⁾ يقصد الشَّعر سيزاريو فيرد، الذي سبقت الإشارة إليه في شذرات سابقة. (المترجم)

يُوجَد شيءٌ أصعبُ من تعريف لولبِ بالكلمات؛ يقولون إنّه لا بُدّ، لوصفه في الهواء، بيدي المرء الأُمّيّيَيْن، من استخدام إيهاءات تصعد لولوبيّة على مهدها إلى الأعالي، لإظهار كيف ترى العين ذلك الشّكل اللّولبيّ المُجرّد، الخاصّ بالزُّنبركات المُلتفّة وبعض السّلالم. ولكن، طالما نتذكّر أنَّ الكلام يعني تجديد اللّغة، فلن نواجه صعوبة مهما كانت في وصف اللّولب: إنّه دائرةٌ تصعد عالياً لكنّها لا تنغلق على نَفْسها أبداً (أعرف، حقّ المعرفة، أنَّ معظم النّاس لن يجرؤوا على تعريفه على هذا النّحو، لأنّهم يظنّون أنّه لا بُدّ للمرء، إذا أراد تعريف شيء، أن يقول ما يرغب فيه الآخرون لا ما يحتاج إلى قوله كي يضع تعريفاً معيّنا لذلك الشّيء). وقد أذهب أبعد: اللّولبُ دائرة افتراضيّة تُكرّرُ نَفْسها حين تصعد، لكنّها لا تكتملُ أبداً. ولكن، كلّا، مازال ذلك مجرّداً. فلو جعلته ملموساً، سيغدو واضحاً تماماً: اللّولب أفعى، ليست في الحقيقة أفعى، تلتف عمودياً حول لا شيء.

ينطوي الأدب كلّه على محاولة جعل الحياة واقعيّة. فالحياة، في واقعيّتها الملموسة، غير حقيقيّة البيّة، والجميع يعرف ذلك، حتّى حين يتصرَّفون وكأنهم لا يعرفون؛ فالحقول، والمدن، والأفكار محضُ خيال، نسلُ تجربتنا المعقّدة عن أنفسنا. والانطباعات عصيّةٌ على التّعبير إلَّا بعد تحويلها إلى أدب. الأطفال أدباء بالفطرة لأنّهم يقولون ما يشعرون به ولا يتحدَّثون مثل شخص يشعرُ وفق مشاعر شخص آخر. سمعتُ طفلاً على وشك الانفجار باكياً، إنه لا يقول: «أشعرُ برغبة في البكاء»، على شاكلة ما سيقوله شخص راشد، شخص أحمى، وإنّها: لأشعر برغبة في البكاء»، على شاكلة ما سيقوله شخص راشد، شخص أحمى، وإنّها لأشعر برغبة في الدّموع». وهذه العبارة -الأدبيّة بكلّ ما في الكلمة من معنى، إلى الحدّ الذي تعدل فيه حذلقة لو نطقتُ بها شفتا شاعر ذائع الصّيت (إن كان قادراً على اختلاقها أصلاً) - تشيرُ، بصورة قطعيّة، إلى الوجود الحارِّ للدُّموع خلف الجفون التي تضطرم بسائل لاذع مرير. «أشعر برغبة في الدُّموع»، ولقد صاغ ذلك الطفل تعريفاً بديعاً للولبه الحاصّ.

أن نقول الأشياء! أن نعرف كيف نقول الأشياء أن نعرف كيف تُوجَد عبر الصَّوت المُكتوب والصُّور الدِّهنيَّة؛ هذا هُوَ جوهر الحياة. والبقيَّة مجرَّدُ رجال ونساء، وعشَّاق متخيَّلون وأباطيل متخيَّلة، وأعدار ناجمة عن سوء الهضم والنِّسيان، وبشر يتلوُّون تحت جلمود الصَّخر العظيم المُجرَّد لسهاءٍ زرقاء عقيمة، كها تتلوَّى الحشرات حين نرفعُ عليها حجراً.

تنتابني فترات خول عميم. لا أقصدُ بهذا أنّني أستغرق، مثل معظم البشر، أيّاماً وأيّاماً للرّدّ ببطاقة بريديّة على رسالة عاجلة أرسلها إليّ شخص ما. ولا أقصدُ أنّني أُوجّلُ إلى أجلٍ غير مسمّى، مثل معظم البشر مرّة أخرى، شيئاً بسيطاً قد يكون مفيداً لي، أو شيئاً مفيداً قد يجلب لي المسرّة. فسوءُ فهمي مع نَفْسي أدق من هذا. أنا أتأسّن داخل روحي. أعاني من يحلب لي المسرّة. فسوءُ فهمي مع نَفْسي أدق من هذا. أنا أتأسّن داخل روحي. أعاني من تعطيل الإرادة والعاطفة والفكر الذي يستمرُّ أيّاماً في كلِّ مرّة؛ فلا أستطيع التّعبير عن نَفْسي إلّا إلى الآخرين الذين أستطيع التّعبير من خلالهم عن نَفْسي إليّ، في الحياة الخاملة المحضة للرّوح، بالكلمات، والإيهاءات، والعادات.

أكون، في هذه الأوقات الغامضة، عاجزاً عن التَّفكير، أو الشَّعور، أو الرَّغبة. ولا أستطيع كتابة شيء إلَّا أرقاماً أو مجرَّد خربشات بالقلم. لا أشعر بشيء، فلا يعنيني حتَّى موت شخص أحبُّه، كأنَّ موتَهُ قد حدث في لغة أجنبيَّة. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً، كأنَّني قد نمت فكانت إيهاءاتي وكلماتي وأفعالي مجرَّد سطحٍ خارجي يتنفَّس؛ غريزة إيقاعيَّة لكائن حيِّ.

هكذا تمرُّ الآيَّام والآيَّام؛ فكم كنتُ سأضيف من حياتي إلى تلك الآيَّام، لا أعرف. أفكَّرُ أحياناً بأنَّني حين أخلع عنِّي في نهاية المطاف ثيابَ الخمول هذه، قد لا أقف عارياً مثلها أتخيَّل، فربَّها تظلُّ بعض الثِّياب الغامضة تكسو الغياب الأبديَّ لروحي الحَقَّة. يخطر ببالي أن التَّفكير أو الشَّعور أو الرَّغبة قد تكون أشكالاً خاملة لطريقة في التَّفكير أكثر ذاتيةً، ومشاعر أكثر حميميَّة، وإرادة ضاعت في مكان ما، في متاهة من أكون حقاً.

سأترك الحقيقة مثلها هي، بصرف النّظر عمَّا تكون، وسوف أُسلِمُ ما سوف أكون عليه إلى الآلهة أو الإلهات التي قد تُوجَد بصرف النّظر عمَّا تكون، مستسلمًا لأيّ قدرٍ قد تجود به، وأيّ فرصة قد تُتيحها، مخلصاً لوعد منسيِّ.

⁽²³²⁾ كتب بِسُوًّا هذا التاريخ في الأصل عنى هذه الشَّاكلة: 1930/XII/10 مستخدماً الأرقام الرَّومانية XII في الإشارة

لا أومن، حَقَّ الإيمان، بسعادة الحيوانات، إلَّا حين أريد استخدامها إطاراً لبعض المشاعر التي تدعم تلك الفرضيَّة. فلكي يكون المرء سعيداً لا بُدَّ أن يعرف أنَّه سعيد. فالسَّعادة الوحيدة التي ينالها المرء من تمتُّعه بنوم بلا أحلام هي اليقظة ومعرفة أنَّه قد نام دون أن يحلم. السَّعادة تُوجَد خارج نَفْسِها.

لا سعادة دون معرفة، ولكنَّ معرفة السَّعادة تجلب التَّعاسة، فلا بُدَّ للمرء كي يعرف أنَّه سعيد أن يعرف أنَّه يمرُّ بحالة من السَّعادة، وسوف يضْطَرُّ قريباً إلى تركها خلفه. فالمعرفة قتَّالةٌ، سواء في السَّعادة، أو في أيِّ شيء آخر، ولكنَّ عدم المعرفة يعني انعدام الوجود.

ولم يتمكَّن إلَّا مُطلَقُ هيغل، عبر عَدَّة صفحات، من أن يكون شيئَيْن في آنِ معاً. لم يندمج الوجود والعَدَم، في المشاعر وقوى الحياة المُحفِّزة، أو يختلطا سويَّة البتَّة؛ فقد ظلَّ أحدُّهما يُقصي الآخَر، عبر سيرورةِ تخليقِ ضِدِّيُّ.

فَما عسى المرء أن يفعل؟ أن يعزل اللَّحظة كأنَّها شيء ماديٌّ ويكون سعيداً في هذه الأثناء. ففي اللَّحظة التي يشعر فيها المرء بأنَّه سعيد، من دون حتَّى التَّفكير فيها يشعر به، فإنَّه يستبعدُ ببساطةٍ كلَّ شيء آخر. أنْ يحبسَ الفِكر في الشُّعور [...]

الابتسامةُ الأُموميَّة المشرقة للأرض السَّخيَّة، والبهاءُ الكثيف للعتمة التي فوق [...](قق)

هذا ما أومن به في هذا الأصيل، ولكنَّ الأمر سيكون مختلفاً صباحَ الغد، لأَنَني سأكون مختلفاً صباحَ الغد، لأَنَني سأكون مختلفاً صباحَ الغد. فأيَّ نوع من المؤمنين سأكونُ غداً ؟ لا أعرف، ولا بُدَّ، كي أعرف، أن أبلغَ الغدَ فعلاً. ولا حتَّى الإله الذي أومن به في هذه اللَّحظة يستطيع أن يعرف ذلك، لا اليوم ولا غداً. فأنا اليوم أنا، وقد لا يكون هُوَ موجوداً البَّة في الغد.

⁽²³³⁾ تظهر هذه الحملة في الأصل معزولة بين سطرين كبيرين متقطّعين مرقونين على الآلة الكابة. (المترجم)

تنتابني الدَّهشة كلَّما انتهيت من شيء. أَدْهَشُ فاكتثب، لا بُدَّ لرغبتي في الكَمال أن تمنعني الانتهاء من أيِّ شيء أبداً؛ ولا بُدَّ حتَّى أن أمنع نَفْسي أن تهداً، لكنَّني أنسى ذلك فأبداً. وما أحقَّقه ليس نتاج التَّطبيق وإنَّما نتاج استسلام الإرادة. أبدأُ لأنَّني لا أمتلك القوَّة لأفكر، وأنتهي لأَنْني لا أمتلك الجرأة كي أتخلَّى عنه؛ فهذا الكتاب جُبني،

وسببُ انقطاعي عادةً عن فكرةٍ ما لإدخال وصف لمنظر طبيعيٍّ يكون متناغاً بطريقة حقيقيَّة أو مُتخيَّلة مع المخطط الإجماليِّ لطموحاتي، كامنٌ في أنَّ المنظر الطبيعيَّ بابُ أستطيع عبره الهروبَ من معرفة عُقمي الإبداعيِّ. فغالباً ما أشعر، في غمرة أحاديثي مع نَفْسي التي تكوِّن هذا الكتاب، برغبةٍ فجائيَّة في الحديث مع شخص آخر، فأخاطب الضَّوء المُحوِّم، مثلها يفعل في هذه الأثناء، فوق أسطح البيوت التي تلمع كأنَّها مُخضَّلةٌ بالنَّدى، أو كأنَّ الأشجار العالية التي تبدو قريبةً تتايلُ بخفَّة فوق سفح تلِّ المدينة، تتمرَّنُ على احتماليَّة سقوطها الصَّامت، أو المُلصقات الدَّعاتيَّة المُلصقة، بعضُها فوق بعض، على جدران البيوت المنحدرة بنوافذ تغطيها الكلمات، حيث تجعلُ الشَّمس الميِّتة الغراءَ الذي مازال رطباً يبدو ذهبياً.

لماذا أكتبُ إنْ لم أستطع الكتابة أفضل؟ وماذا سأصيرُ إنْ لم أكتب ما أعمَّن من كتابته، مهما انحططتُ إلى ما دون مستوى معاييري؟ فأنا مُبتذَلٌ في طموحاتي لأنَّني أحاول أن أبدع؛ أخاف الصَّمتَ مثلها يخاف الآخرون الدُّخول إلى غرفة معتمة وحيدين. أنا مثل أولئك البشر الذين يُقدِّرون الميداليَّة أكثر من الجهد المبذول للفوز بها؛ الذين يرون المجد في الشَّر ائط الذهبيَّة المجدولة (234) التي تُزِّينُ البزَّات الرسميَّة.

الكتابة عِنْدي احتقارُ نَفْسي، ولكنّني لا أكفُّ عن الكتابة، فالكتابة مثل مُخدِّر أشمئزُ منه بيد أني لا أكفُّ عن تناوله، رذيلة أحتقرها لكنّني أعيش من أجلها. فثمّة سموم ضروريَّة وأخرى في غاية البراعة، مصنوعة من مكوِّنات الرُّوح، وأعشاب جُمعَتْ في زوايا أحلام يَبَاب، والأوراق الطَّويلة لأشجار فاحشة تلوِّح بأغصانها على الضَّفاف الصَّاخبة للأنهاد الجهنميَّة للرُّوح.

⁽²³⁴⁾ كتلك التي تُزيّن البزّات العسكريّة الرّسميّة. (المترجم)

نعم، أَنْ تَكتَبَ أَنْ تُضيِّع نَفْسك، ولكنَّ الجميع يضيعون، لأَنَّ كلَّ شيء في الحياة ضائعٌ. ولكنِّي، بخلاف النَّهر المتدفِّق في المُصبِّ الذي يجهل أنَّه قد وُلِدَ من أجله، لا أشعرُ بالبهجة حين أُضيِّع نَفْسي، ولكنَّني أستلقي مثل البركة التي تُركث على الشَّاطئ في المدِّ العالي، بركة لن تعود مياهُها، التي بلعتها الرِّمال، إلى البحر أبداً.

264

[1930]

تنتشرُ المدينة الحائرة الصّامتة تحت تحديقتي التي يغمرها الحنين. والمنازل، المختلفة جميعاً، تنتصب معاً في حشد مُكتظً على بكرة أبيه، وضوء القمر الحيران، حيرة المدينة نَفْسها، يُبرِّكُ هذه الفوضى الصّامتة، المتدافعة، بعرق من اللُّولؤ. لا شيء سوى الأسطح واللَّيل والنَّوافذ وهواء خفيف يهبُّ من العصور الوسطى، ولا شيء آخر. نَفَسٌ قادم من بعيد يُخيِّمُ على كلِّ شيء. وما أراه، من مكان وقوفي، يستلقي متأرجحاً في أغصان الأشجار المعتمة. أحمل المدينة النَّائمة كلَّها في قلبي المسكين الكئيب. فَيَا لِلشبونة في ضوء القمر، ويا لتعبي من مشهد يوم آخر!

ويَا لَهُ مَن ليلِ! أَمْنَى أَلَّا يُنعِمَ عليَّ مَن أُوجدَ هذي التَّفاصيل الدَّقيقة، بحالٍ أفضلَ، ولا لحن أعذب، من هذي اللَّحظة القمريَّة الفريدة التي أعرف فيها نَفْسي وأجهلُ فيها نَفْسي على حدِّ سواء.

فلا نسيم، ولا بشر يقطعون الأفكار التي لا تخطر ببالي. الوَسَنُ والعَيْشُ شيءٌ واحدٌ. إلَّا أَنْنِي أستطيع الشَّعورَ بشيء يضغطُ على جفوني. أستطيع سياعَ أنفاسي، أنائمٌ أنا أمْ يقظانُ؟ أمشي إلى المنزل، قدماي ثقيلتان كالرَّصاص، وحواسِّي مُرهَقة. مداعبةُ النَّوم الماحي، زهرةُ العبث المُطلق، اسمي الذي لم يُنطق بتاتاً، وقلقي المطويُّ بين شاطئين، ومتعةُ الواجبات المهجورة، ثُمَّ، في العطفة الأخيرة للممرِّ الذي يشقُّ المتنزَّة العتيق، يطلُّ ذلك القرنُ الأخرُ مثل حديقةٍ من الزُّهور.

[\$1930]

يتمتّع الإنسان العاديُّ، مهم كانت حياته شاقَّة، بلذَّة عدم التَّفكير على الأقلِّ. عيشُ الحياة كما هي، في الظَّاهر، مثل قطَّ أو كلب - وهذا ما يفعله معظم البشر، وهكذا يتوجَّب عليك أن تعيش إذا أردتَ أن تكون قانعاً قناعةَ قطَّ أو كلب.

أَنْ تُفكّر يعني أَنْ تُدمّر، فالتَّفكير في حدِّ ذاته تُدمّرهُ سيرورةُ التَّفكير نَفْسُها؛ التَّفكير أنْ تُعلّف وتُفكِّل. ولو كانوا قادرين على الشَّعور تُعلِف وتُفكِّك. ولو كان البشر قادرين على الشَّعور بالاف التَّعقيدات التي تتجسَّش على الرُّوح في كلِّ تفصيلة من كلِّ فعل، لما أقدموا على فعل شيء البَّة - حتَّى إنَّهم لن يكونوا قادرين على العيش أبداً. سوف يقتلون أنفسهم خوفاً من الخوف نَفْسه، على نحو ما يقتل بعض البشر أنفسهم كي لا يُعدَموا بالمقصلة في اليوم التَّالي.

266

[1930]

باغت روحي بعنفٍ مُذهِل، أكثر من مرَّة، وأنا أتمشَى في الخارج مساءً، حضورُ الأشياء الغريب وطريقة ترتيبها في العالم. ليست الأشياء الطبيعيَّة التي تؤثّر فييَّ كثيراً، والتي تُعبِّرُ عن ذلك الشُّعور بقوَّة، وإنَّما ترتيب الشَّوارع، ويافطات المتاجر، وحديث البشر بعضُهم إلى بعض، وثيابهم، ووظائفهم، وجرائدهم، والفطنة التي تكمُن في كلِّ شيء. أو إنَّها بالأحرى عينُ حقيقةٍ وجود الشَّوارع، ويافطات المتاجر، والوظائف، والبشر، والمجتمع، تتاكفُ معاً، فتتبع مسارات مألوفة، ثُمَّ تندفع على طُول مسارات جديدة.

تفرَّستُ في شخص فرأيتُ أنَّه غير واع مثل قطَّ أو كلب؛ فاللَّاوعي الذي ينطقُ من خلاله، ويحكم حياتَهُ في المجتمع، أحطُّ من اللَّاوعي الذي يوظِّفه النَّمل والنَّحل في حياتهم الاجتهاعية، بكلِّ ما في الكلمة من معنى. بَيْدَ أنَّ ما يتجلَّى لي، حينئذ، في بريق ضوء، أبعدَ من وجود الكائنات الحيَّة، وأبعدَ من وجود قوانين فيزيقيَّة وفِكريَّة صارمة، هُوَ الذَّكاء الذي يخلقُ العالمَ ويُخصِبُه.

وكلَّما شعرتُ بذلك، تقفزُ في ذهني على الفور العبارة القديمة لذلك الشَّكولائيِّ الذي

نسيتُ اسمه: "الله روح الحيوانات الدُّنيا التي لا يرى فيها المرء علامة الرَّائعة تفسير اليقين الذي تقود به الغريزة الحيوانات الدُّنيا التي لا يرى فيها المرء علامة –أو مجرَّد بصيص، في أفضل الأحوال – على تمتُّعها ببصيرة ثاقبة. ولكنَّنا جميعاً حيوانات دُنيا، والنُّطق والتَّفكير مجرَّد غريزتَيْن جديدتَيْن، أقل دقَّة من الغرائز الأخرى، لأنَّها في غاية الجِدَّة. ويمكن توسيع نطاق كلمات ذلك السُّكو لائيِّ السَّديدةِ في صياغتها الجميلة، لِتُقرأ: الله روح كلِّ شيء.

لم أفهم البيَّة كيف يمكن لأيِّ شخص، أدرك ذات مرَّة الحقيقة العظيمة لهذه السَّاعة الكونيَّة، أن يُنكِر وجود السَّاعاتيِّ الذي لم يكفر به حتَّى قولتير. أفهمُ أنَّ المرء، حين ينظر إلى جوانب معيَّنة من خُطَّة (200)، تبدو خاطئة في الظَّاهر (ولا بُدَّ من معرفة ماهيَّة الخُطّة، لمعرفة إن كانت هذه الجوانب خاطئة حقاً) أن ينسبَ إلى تلكَ البصيرة العَلِيَّة بعض النَّقص. أفهم ذلك، على الرَّغم من أنَّني لا أقبله. أفهم أن يشعر المرء، إذ يبصر الشَّرَّ الموجود في العالم، بالعجز عن قبول فكرة الألوهيَّة المُطلَقة لتلك البصيرة التي تخلقُ من العَدَم. أتفهم ذلك، أيضاً، على الرَّغم من أنَّني لا أقبله مرَّة أخرى. ولكنَّ إنكار وجود تلك البصيرة، وجود الله، أيضاً، على الرَّغم من أنَّني لا أقبله مرَّة أخرى. ولكنَّ إنكار وجود تلك البصيرة، وجود الله، يصيرة البشر، المتفوِّقين في المناحي الأهواء البلهاء التي غالباً ما انتابتُ منطقة مُعيَّنة من بصيرة البشر، المتفوِّقين في المناحي الأخرى؛ كمثل أولئك الذين لا يستطيعون الجَمْع والطَّرْح أو البشر، المتفوِّقين في المناحي الأخرى؛ كمثل أولئك الذين لا يستطيعون الجَمْع والطَّرْح أو حتَّى (آخذين في الحُساسية الفنيَّة) أولئك العاجزين عن الشَّعور بالمُوسيقى أو الرَّسم أو الشَّعر.

لا أقبلُ نظريَّة السَّاعاتيِّ النَّاقص ولا حتَّى نظريَّة السَّاعاتِيِّ القاسي. أرفض الأولى لأنَّن، من دون أن نعرف الخُطَّة برمَّتها، لن نكون قادرين على القول إنْ كانت تفاصيل الطَّريقة، التي تحكم العالم وتُنظِّمه، هفواتُ أو أخطء مثلها هي الصُّورة التي تبدو عليها. نرى خُطَّة بوضوحٍ في كلِّ شيء؛ نرى بعض الأشياء تبدو خطأ، ولكن يتوجَّب أن نأخذ في الحسبان بأنَّه إذا كان ثمَّة سبب للأشياء التي تبدو في ظاهرها خطأ.

⁽²³⁵⁾ يُورِد بِسُوّا في الأصل هذه المقولة بصيغتها الدَّتينية (Deus est anima brutorum)، ثم يذكر معاها بالبرتغاليّة، وعنى نهجه سارت جول كوستا في صنعتها الإنگليزيَّة هذه، وسبق لقولتبر أن أشار إلى هذه العبارة بصيغتها هذه في معرض حديثه عن الحيوانات، ناساً يأها إلى أحد الفلاسفة، دون أن يذكر اسمه، ويبدو أنَّ بِسُوَّا قد أَحَدُها عن قولتبر، ولاسيّما أنَّه يأتي على ذكر اسمه في الأسطر اللَّاحقة. (المترجم)
ولاسيّما أنَّه يأتي على ذكر اسمه في الأسطر اللَّاحقة. (المترجم)

نرى السَّبب ولكنْ ليس الخُطَّة؛ فإنْ لم نعرف ما هي الخُطَّة، فكيف سنقول إنَّ أشياء معيَّنة تقع خارجها؟ مثلما يُقدِم شاعرٌ، يجيد الإيقاعات الدَّقيقة، على سبيل المثال، إلى إدخال بيت نشازٍ في قصيدة لأسباب تتعلَّق بالإيقاع، أقصدُ لسبب يبدو متناقضاً تماماً مع طبيعة القصيدة (وهو سبب سوف يشجبه النَّاقد غير الحلرَّق ويعدُّه خطأً)، ولهذا فقد يُقحِم الخالقُ في الدَّفق اللَّهيب لإيقاعاته الغيبيَّة أشياء يظنُّها منطقُنَا الضيِّقُ أخطاءً.

ولا أقبل، مثلها قلتُ، نظريَّة السَّاعاتي القاسي. أقرُّ بأنَّ الإجابة عن هذه المجادلة أصعب لكنَّها تبدو في الظَّاهر كذلك. نستطيع القول إنَّنا نعرف حقَّ المعرفة ماذا تعني كلمة "سيِّئ، ولذلك لا نستطيع الجزم بأنَّ الشَّيء جيِّد أم سيِّئ. فاليقينيُّ أنَّ الألم، حتَّى لو جلب لنا الخير، هو سيِّئٌ في حد ذاته على وجود الشَّرِ في العالمَ. فألمٌ في الأسنان كاف ليجعلنا نكفر بإحسان الخالق. وقد تبدو المثلبة الرَّئيسة لهذه المجادلة كامنة في جهلنا المطبق بحُطة الله، وفي جهلنا المطبق أيَّ نوع من الكائنات الذَّكيَّة قد يكون المُفكِّرُ المُطلق. فوجود الشَّرِ شيءٌ، وسبب وجوده شيءٌ مختلف تماماً. وقد يكون الفارق دقيقاً لدرجة فوجود الشَّرِ شيءٌ، وسبب وجوده شيءٌ مختلف تماماً. وقد يكون الفارق دقيقاً لدرجة السَّفسطة، ولكنَّه دقيق. لا نستطيع أن ننكر وجود الشَّرِ، ولكنَّنا نستطيع رفض فكرة أنَّ المعضلة ستظنُّ قائمةً، وذلك بسبب نقصنا المتواصل وجود الشَّرِ في حدِّ ذاته شرَّ. أُدركُ أنَّ المعضلة ستظنُّ قائمةً، وذلك بسبب نقصنا المتواصل ليس إلَّا.

267

[\$1930]

لا أعرفُ لذةً تَعْدِلُ لذة قراءة الكُتُب، ولكنّني قليلاً ما أقراً. تُعَدُّ الكتب مُقدّمات للاحلام، وتلك المقدِّمات ليست ضروريَّة لشخص يستطيع الدَّخول، بسهوله بالغة وعفويَّة شديدة، في حوار مع الأحلام. لم أكن قادراً قَطُّ على تسليم نَفْسي لكتاب بعينه؛ ففي كلِّ خطوة تُبدي بصيرتي أو مخيَّلتي بعض التَّعليقات التي تعترض طريق السَّرد. ثُمَّ أغدو بعد بضع دقائق الشَّخصَ الكاتب، فلا تعود الكلمات التي في الصَّفحة موجودة في أيِّ مكان. ما أحبُّه، أكثر من غيره، قراءةُ الكتب المبتذلة التي تنام قُربي على المنضدة، بجوار سريري، وإعادة قراءتها مرَّات ومرَّات. وثمَّة كتابان بعينهما لا أملَّ منهما أبداً - الخَطابة للأبِ فِغِريدُو،

وتأمُّلات في اللَّغة البرتغاليَّة للأبِ فريير "v". فإعادة قراءة هذَيْن الكتابَيْن متعةٌ دائياً. وعلى الرَّغم من أنَّني قد قرأتها مرَّات كثيرة، فإنَّني لم أقرأ أياً منها من أوَّله حتَّى آخره البتَّة. أدين لهذَيْن الكتابَيْن بالانضباط الذي ظننتُه مستحيلاً فِيَّ؛ أقصدُ وجوبَ أن يكتب المرء بموضوعيَّة وعقلانيَّة.

فأسلوب الأب فِغِريدو المؤثّر والرَّهبانيِّ والمُحافظ انضباطٌ يُسَرُّ لَهُ فهمي. أمَّا أسلوب الأب فرير الرَّشيق غير المنضبط في الغالب، فَيُروِّحُ عن عقلي دون أن يرهقه، ويوجِّهُ دون إثارةِ إيِّ مشاعر قلق. كلاهما هادئ، وهما عقلان متبحِّران يُقدِّمان الدَّليل على افتقاري المُطلَق لرغبة أن أكون مثلها – أو مثل أيِّ شخص آخر.

أقرأُ فأهجرُ نَفْسي، لا إلى القراءة وإنَّما إلى نَفْسي. أقرأُ فأغرق في النَّوم، وأتبعُ، كما لو أَنَني مازلتُ أحلم، أوصافَ الأب فغريدُو للأساليب البلاغيَّة، وأسمعُ الأب فريير يخبرني، في غابات بديعة، بضرورة أن أقول «ماغدالينا»، لأنَّ البشر العاديِّين يقولون «مادانيلا» (237).

268

[91930]

واحدةٌ من أعظم مآسي حياتي -على الرَّغم من أنَّها واحدة من تلك المآسي التي حدثت وسط الظِّلال والحديعة - عجزي عن الشُّعور على نحو طبيعيِّ. أنا قادر على الحُبِّ والكُرُه والحُوف والحياسة، مثل أيِّ شخص آخر، بَيْدَ أنَّ حُبِّي وكُرُهي وخوفي وحماستي لا تبدو مثلها هي عليه تماماً، فهي إمَّا تفتقر إلى عنصر ما، وإمَّا تمتلك شيئاً مُضَافاً إليها. لكنَّ الشَّيءَ المُؤكَّد أنَّها شيء آخر، وما أشعر به يتناقضُ مع الحياة.

ففي تلك الأنفُس التي نُسمِّيها، على نحو ملائم، «الأنفُس الحريصة»، تكون المشاعرُ محسوبة بعناية، تنتابها وساوس أنانيَّة فتبدو مختلفة. ويمكن أن نرى انفصام الغرائز الطَّبيعيَّة ذاته في تلك الأنفُس التي نُسمِّيها «الأنفُس المُوسوَسة»، ولكنَّني لستُ حريصاً ولا مُوسوَساً، على الرَّغم من أنَّ في داخلي التَّشويش ذاته للمشاعر الواضحة، لا عُذرَ لِشعوري بالأشياء

⁽²³⁷⁾ ربحًا هي إشارة إلى والدة يشوّا «ماريا ماغدالينا» (= مريم المجدليَّة)، واسم «مادانيلا Madanela» صيغة شعبيَّة أخرى للاسم الأصليُّ ماغدالينا Magdalena. (المترجم)

على نحو سقيم، فمسخُ الغرائزِ غريزةٌ فطريَّة مُطلَقةٌ فِيَّ. وحتَّى حين أرغبُ، فإنني أرغبُ بطريقة خاطئة.

269

[?1930]

على شاكلة السَّاعات التي تختمرُ فيها عاصفةٌ فتنطقُ الجُلَبُ (238) في الشَّارِع بصوتِ متوحِّدِ واحد.

تَجَعَّدَ الشَّارِعُ تَحَت وطأة الضَّوء الشَّديد الشَّاحِب، فارتعشتِ العتمةُ المُتَسخة من الشَّرق إلى الغرب كهزيم رعد دوَّى منتشراً مثل قهقهة هائلة تتردَّد أصداؤها... والحزنُ القاسي للمطر الوحشيِّ قد جعل الهواء المُعتم أبشع إلى حدِّ بعيد، لا أكثر. بردُ، دف، محرِّ حكلُها في الوقت ذاته - في كلِّ مكان، بدا الهواء كأنَّ خطباً قد ألمَّ به. ثمَّ حينئذ، في الغرفة الفسيحة، دقَّ إسفيناً في رُقادِ أجسادنا الآدميَّة ضوءٌ معدنيُّ، ثمَّ كخضَّة شديدة البرودة، دقَّنا صوتُ مبحوحٌ، متغلغلاً في كلِّ شيء كي يخلق صمتاً هائلاً لا مَثيل لَهُ. غيض صوتُ المطركانَّة يعتنتُ نغمة صوت أرق. سَكتَ ضجيجُ الشَّوارِع على نحو مُقلِق. وضوءٌ خاطف، جديدُ، أصفرُ، قد حجبَ العتمة الصَّامة، فلم يبق وقتٌ إلَّا كي يلتقط المرء أنفاسَةُ قبل قبضةِ الصَّوت الذي تردَّدت أصداؤه فجأةً من مكان آخر، والعاصفةُ الرَّعديَّة شرعتُ في مغادرة المكان، كأنَّها تلوَّحُ تلويَة وداع غاضبة.

[...] بهمسة مُدغَمة تحتضرُ، مُعتها في الضَّوْءِ الذي يكبرُ، كان هزيمُ الرَّعد يتحرَّكُ في المسافة البعيدة -في مكان قُربَ أَلْمَاذَا (239- [...]

وانشقَّ فجأةً بريقُ ضوءٍ، منفجراً في عقول النَّاس وأفكارهم، فتوقَّف كلُّ شيء. توقَّفتِ الطّورِ النَّاسِ وأفكارهم، فتوقَّف كلُّ شيء. توقَّفتِ الطّورِ المتعالي اللهوبُ كأنَّ موتاً قد حلَّ للتوِّ. وصوت المطر المتعالي يجلبُ شعوراً بالرَّاحة مثل دموعٍ شُحَّتْ مِدراراً. الهواء ثقيلٌ كالرَّصاص.

⁽²³⁸⁾ الجُلَب: جمع جَلَبة. (المترجم)

⁽²³⁹⁾ ألماذا Almada: بلدة قرب لشبونة، على الطرف الآخر من نهر تيحو. واللَّام في «الماذا» تُنفَظ مُفخَّمة. (المترجم)

شيءٌ من ترقُّبِ يلوح في الأفق مُعلَّقاً في الهواء مثل أملِ قاتم: حتَّى المطر لاحَ مفزوعاً، وعتمةٌ مكفهرَّة أثَّقلتْ كواهلنا. ثُمَّ الدلعَ فجأةً، مثل صرَّخةٍ، نهارٌ مُرعِب. فانبعثَ ضوءٌ من جهنَّم باطلة غامراً كلُّ شيء، كلُّ عقل، وكلُّ زاوية. فبُهتَ الجميع، ثُمَّ عَمَّ شهيتٌ عميق فالعَصفةُ قد مرَّتْ. كان المطر الوحشيُّ مبتهجاً في ضجيجه الذي يكاد يشبه ضجيج البشر. استأنفت القلوب إيقاعَها الطبيعيّ، وحتَّى التَّفكير أصابنا بالدُّوار. ملا المكتبَ شعور دينيٌّ غامض. لم يكُن أحدٌ ما هُوَ عليه، فتراءى ڤاسْكِش، ربُّ العمل، في المدخل كي يُفكِّر في قول شيء. تبسَّم مُوريرا، وصُفرة الخوف الفجائيِّ مازالت تعلو أطراف وجهه. كانت ابتسامته تشي باحتماليَّة أن تكون قصفة الرَّعد القادمة بعيدة جداً. ضجيج العربة اليدويَّة المُسرعة طغى على الأصوات المنبعثة من الشَّارع، فاهتزَّ الهاتف من تلقاء نَفْسه. ولكنَّ ڤاسْكِش، ربَّ عملي، توجُّه بدلاً من الرُّجوع إلى غرفته إلى الهاتف في المكتب الكبير. رانت لحظة سكينة وصمت، والمطر ينهمر مدراراً على نحو كابوسيٍّ. ثُمَّ نسي ڤاسْكِش أمر الهاتف الذي توقَّف عن الرَّنين، وفَزَّ إلى الحياة صبيُّ المكتب في الطَّرف القصيِّ من الغرفة، مثل شيء ثقيل. فانتابنا فجأةً فرح عظيم طافح بالسَّكينة والتَّحرُّر. استأنفنا عملنا دائخينَ أو نكادُ، فكُنَّا مبتهجين وبعضُنا يتعامل بمودَّة مع بعض. انطلق صبيُّ المكتب وفتح النَّوافذ من تلقاء نَفْسه. فدخلت الغرفة رائحة نديَّةٌ منعشة. كان المطر ينهمر خفيفاً في هذه اللَّحظة على نحو متواضع أو يكاد. كانت الجُلَبُ المنبعثة من الشَّارع هي ذاتها، ولكنَّها مختلفة. استطعنا سهاع أصوات سائقي العربات اليدويَّة، فكانت أصواتَ البشر الحقيقيِّين. وبدت الأجراس المُجلجة الواضحة فوق الترامات، التي في الشَّارع المجاور، تنضمُّ إلينا في مرحنا الصَّاخب. ثُمَّ تلك الابتسامةُ الخفيفة التي

فرَّت من طفل وحيدٍ قد رفعتْ صوتَها بالغناء مثل كناريٌّ في الهواء النَّظيف. تلاشي المطر الخفيف. كانت السَّاعة السَّادسة، والمكتب يغلق أبوابه. وعبر باب غرفته الموارب، قال قاسْكِش، ربُّ عملي: «تستطيعون العودة إلى بيوتكم جميعاً الآن»، قائلاً ذلك كأنَّه يُغدِق علينا نعمةً تجاريَّة. فنهضت على قدميَّ فوراً، وأغلقت دفتر الحسابات ووضعته بعيداً، ثُمَّ أعدتُ قلمي مزهُواً إلى المحبرة، وذهبت إلى مُوريرا، قائلاً لَهُ، يحدوني التَّفاؤل: «أراك غداً»، مصافحاً إيَّاه

271

[?1930]

خيّمت غيومٌ شعثاء، معتمة، فوق المدينة المضطَّهدة، منذ بداية ذلك اليوم الحارِّ المُخاتِل. واصلت تلك الغيوم المعتمة الاحتشاد، غيمة فوق أخرى، على ما نُسمِّيه مصبَّ النَّهر، فأشاعتُ رفقة الشَّوارع النَّاقمة على نحو غامض -التي تخاصم الشَّمسَ الغاضبة - شعوراً بمأساة وشيكة.

كانت الظَّهيرة، فبدت كأنَّ نذير شؤم يُثقل الهواء الباهت، حين هممنا بالمغادرة لتناول طعام الغداء. اشتدَّ سوادُ جُذاذات من غيوم شعثاء. وكانت السَّهاء قرب القلعة صافيةً زرقاء لكنَّها تُنذِر بسُوءٍ. كانت مُشمسةً لكنَّ شمسها ليست التي قد يستمتع بها المرء.

بدت السّماء أصفى، في السّاعة الواحدة والنّصف، حين عُدنا إلى المكتب بعد الغداء، ولكن فوق المناطق القديمة من المدينة فحسب، بيد أنها غيّمَتْ قليلاً قُرب المصبّ. لكن الغيوم بدتْ، جهة الشّمال، غيمة واحدة سوداء لدودة تتقدّمُ متوانية، مادّة أذر عها السّواء وخالبَها المُثلَمة الرّماديّة، ولم يمض وقت طويل حتّى حجبتِ الشّمس، فتبدت أصوات المدينة خرساء تترقّب. وكانت السّماء أصفى، جهة الشّرق، أو كأنّها كذلك، بَيْدَ أنّ الحرّ كان شديد الوطأة. فكنّا نتصبّبُ عرقاً حتّى في برودة المكتب النّسبيّة. قال مُوريرا: «ثمّة عاصفة هائلة قادمة»، ثُمّ قلب صفحة في دفتر حساباته.

كانت الشَّمس قد حُجِبَتْ بأكملها، بحلول السَّاعة الثَّالثة. فتوجَّب أن نشعل الأضواء وشيء محزنٌ في الصَّيف - أوَّلاً، في المنطقة الخلفيَّة من المكتب الكبير، حيث كانت الطُّرود جاهزة لكي تُرسَل، ثُمَّ في المنتصف، حيثُ كان من الصَّعب الرُّؤية بوضوح يكفي لتعبئة إشعارات المَّاليَّة وتدوين الأرقام الصَّحيحة للقطارات عليها. وأخيراً، في نحو السَّاعة الرَّابعة، لم نستطع الرُّؤية كي نعمل، حتَّى نحن القلّة الذين تمتَّعنا بميزة أن تكون مكاتبنا قرب النَّوافذ. فأشعلَت الأضواء في المكتب برمَّته. دفع قاسْكِش، ربُّ عملي، الباب

المؤدِّي إلى غرفته، ثُمَّ خرج قائلاً: «كان من المفترض أن أذهب إلى بَيْفِيكَا (240) بعد ظُهر هذا اليوم، يا مُوريرَا، لكنّني لا أظنُّ أنَّي سأفعل الآن، فقد تندلعُ العاصفة، في أيِّ لحظة، وينهمر المطر غزيراً». فأجاب مُوريرا، الذي يقطن بالقُرب من أَفْنِيدَا (241): «نعم، وهذا، بالتَّأكيد، المكان الذي سوف تندلع منه». توقَّفتِ الجُلَبُ في الشَّوارع، ثُمَّ تبدَّلتْ ببراعة، فعمَّتْ نغمةٌ كئية جلجلة أجراس الترامات في الشَّارع الذي يُوازي شارعَنا.

272

[930]

... كان المطرُ مايزال يسّاقطُ حزيناً، ولكنْ أقلَّ غزارةً، كأنَّ تعباً كونياً أصابَه. لم يكن نمّة برقٌ في هذي اللّحظة، لكنَّ هزيمَ رعدِ خاطِفاً دَمْدم أحياناً في مكان بعيد، ثُمَّ توقّف، كأنَّه، أيضاً، قد أضناه التّعب. فجأةً، خفَّ المطر أكثر. فتح أحد الكتَبة النّوافذ التي تطلُّ على خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ. فانسلَّ إلى الغرفة نسيم عليلٌ تشوبُه بقيّةُ حَرِّ تتلاشى. فرنَّ صوت فاسْكِش، ربِّ عملي، عالياً في الهاتف: «أتقصدُ إنَّ الخطَّ مازال مشغولاً؟» ثُمَّ رانَ، حينئذ، صوت شيمة مَهموسةٍ – تعقيب نافد الصّبر موجَّة (على الأرجح) ضدَّ المستقبِل في الطَّرف الآخر.

273

[\$1930]

نثرعطلة

كان هذا الشَّاطئ الصَّغير، الذي يُشكِّل خليجاً صغيراً قَدَّهُ من العالَم نتُوءانِ بحريَّان مُنَمْنَانِ، ملاذيَ مِنْ نَفْسي، طيلةَ تلك الأيَّام الثَّلاثة. وصلت إلى الشَّاطئ عبر درَج شاقً بدأ بخطوات خشبيَّة ثُمَّ باتَ، في منتصف الطَّريق نزولاً، مُجرَّد حوافَّ ناتئة قُدَّت من الصَّخر،

⁽²⁴⁰⁾ يُنِمِكُا Benfica (وتلفظ في البرتغاليَّة على هذا النَّحو، وليس بنفيكا): حيٌّ في شمال لشبونة، كان في الماضي ضاحية نائية. (المترجم) (241) يقصدُ أَفْنِيذًا ذَا لِيرِذَاذِه Avenida da liberdade (= جادَّة الحُرُّية) في وسط لشبونة. (المترجم)

وسياج حديديٍّ صدئ للتَّشبُّث به. كنتُ في كلِّ مرَّة أنزلُ فيها على الدَّرَجات العتيقة، ولاسيَّا تلك التي قُدَّت من الصَّخر، أتركُ وجودي خلفي وأعثرُ على نَفْسي.

يقول المُنجِّمون، بعضُهم على الأقلَّ، بوجود لحظات سامية في حياة الرُّوح حين تتذكَّرُ الرُّوح، من خلال عاطفة أو نُتفةِ ذكرى، لحظة أو مظهراً أو مجرَّد ظلَّ شيء تجسَّد في السَّابق. إذَّاكَ، ولأنَّها تعودُ إلى زمن أقرب إلى أصل جميع الأشياء وبدايتها من الزَّمن الحاضر، فهي تشعر بطريقة ما أنَّها عادت طفلةً من جديد، فينتابها شعورٌ بالتَّحرُّر.

وأستطيع القول إنّني حين هبطتُ رويداً رويداً تلك الدَّرَجات، التي يندر أن تطأها قدمٌ إلى الشَّاطئ الصَّغير المهجور دائهاً، فقد كنتُ أستخدم سيرورة سحريَّة كي أُقرِّب نَفْسي إلى الجوهر الفَرْد المُمكِن الذي هو نَفْسي. تلاشت منِّي بعضُ ملامح حياتي اليوميَّة وبعض مظاهرها -التي تمثِّلُها، في ذاتي المتواصلة، الرَّغباتُ والكراهية والمخاوف - كأنَّ دوريَّة ليليَّة قد طاردتها بعيداً، فذابتُ ظلالاً، بكلِّ بساطة، حتَّى لم أستطع تبيان أشكالها، فبلغتُ حالةً من البُعْد الجوَّانيِّ وتعشَرَ عليَّ حتَّى أن أتذكر الأمسَ، أو أن أتعرَّف إلى الكينونة التي تسكنني من يوم إلى آخر. ثُم بَدَتْ مشاعري العاديَّة، وعاداتي غير المتظمة على الدَّوام، ومحادثاتي مع الاَّخرين، وتكيُّفاتي مع الطَّريقة الاجتهاعيَّة السَّارية في العالمَ - بَدَتْ كلُها مثل أشياءٍ قرأتُها في مكان ما، الصَّفحات البائدة لسيرتي شخصيَّة مطبوعة، تفاصيل من روايةٍ، تلك الفصول في مكان ما، الصَّفحات البائدة لسيرتي شخصيَّة مطبوعة، تفاصيل من روايةٍ، تلك الفصول المتداخلة التي نقرأها وذهننا مشغول بشيء آخر، تاركين عُقْدةَ السَّرد تنحلُّ وتسعى خيوطها كالحيَّة على الأرض.

وعلى الشّاطئ، حيث لا صوت إلّا صوت الأمواج أنفسها أو صوت الرِّيح تمرُّ في الأعالي مثل طائرة هائلة محجوبة، هجرتُ نَفْسي إلى أحلام جديدة - أشياء ناعمة، بلا شكل، وبدائع أبهرَتْ من دون صُورٍ أو عواطف، صافيةٍ صفاءَ السّماء والماء، تر تعشُ كالدَّانتيلَّا المُتفتَّة فوق طيّات البحر الصّاعد من أعهاق حقيقة عُظمى، وزُرقة كامدة في البعيد، ثمَّ غَدَتْ شفافيتُها، حين وصَلَت الشّاطئ، مُبقَّعةً بِخُضَرِ باهتة تناثرتْ، فَهَسَّتْ، ونُكَصَتْ ألفَ ذراع مكسورة عبر الرَّمل المعتم، تاركة بَغْشَةً من زبد أبيض، ليس إلَّا، جامعة لِنفسها الأمواج المُتقهقرة كلّها، والعَودة إلى الحُرَّية الأصليَّة، والحنين الإلهيَّ، والذَّكريات -مثل ذاكري الضّبابيَّة والمؤلمة عن وقتٍ أسعد، سعيد إمَّا لأنَّه كان بهياً حقاً وإمَّا لأنَّه كان، وقتاً آخر، ليس إلَّا،

جسداً من حنين لَهُ روحٌ من زبد- السَّكينة، الموت، الكُلُّ أو العَدَمُ المحيطُ، كبحر عظيم، بجزيرة الأرواح المحطَّمة التي هي الحياة.

ثُمَّ نمتُ بلا نومٍ، متجرَّداً مَّمَا رأيتُهُ بحواشِي، في شَفْقِ نَفْسي، صوتِ الماء بين الأشجار، هدوءِ الأنهار العريضة، برودةِ المساءات الحزينة، الشَّهيقِ البطيء للصَّدْر الأبيض وزفيرهِ البطيء؛ صدرِ نوم التَّامُّلات الذي يشبه نوم الأطفال.

> 274 [1930] مزَّةُ كَتَفَيْنِ (242)

غالباً ما نلون أفكارنا عن المجهول بلون تصوُّراتنا عبَّا نعرفُه فِعلاً: فحين نُسمِّي الموت نوماً، فذاك لأنَّ لَهُ هيئة النَّوم؛ وحين نُسمِّي الموت حياة جديدة، فذاك لأنَّه يبدو مختلفاً عن الحياة. نصوغ قناعاتنا وآمالنا من الأفهام الخاطئة الصَّغيرة عن الحقيقة الواقعيَّة، فنعيش على فتات الخيز الذي نُسمِّيه كعكاً، مثلها يتظاهر الأطفال الفقراء بأنَّهم سعداء.

ولكن، هكذا هي الحياة برمَّتها؛ أو هكذا على الأقلِّ طزيقةُ الحياة المعروفة عموماً باسم الحضارة. فالحضارة تقوم على منح اسم غير مناسب إلى شيء ما، ومن ثَمَّ الحُلم بالنَّتائج المرجوَّة من ذلك. ولكنَّ الاسم الباطل والحُلم الحَقَّ يُخلقان، في الواقع، حقيقةً واقعيَّة جديدة. فيغدو الشَّيء في الحقيقة شيئاً آخر، لأنَّنا قد صنعناه على ذلك النَّحو. نحن نصنع الحقائق الواقعيَّة. نستخدم الموادَّ الحام التي استخدمناها دائمًا، ولكنَّ الشَّكل الذي منحَتُه إيَّاها الصَّنعةُ يمنعُها، على نحو فعَّال، من أن تظلَّ نَفْسَها. فالطَّاولة المصنوعة من خشب الصَّنوبر هي شجرة يمنعُها، على نحو فعَّال، من أن تظلَّ نَفْسَها. فالطَّاولة المصنوعة من خشب الصَّنوبر هي شجرة

⁽²⁴²⁾ تُوجَد عبارة «كاملاً/باكمه whole»، كتبها بشوًا بالإنگليزيَّة، بين سطرَيْن صغيريْن بالحبر الأسود، في أقصى الطَّرف الأيمن من القصاصة التي ضرب عليها هذه الشَّذرة بالآلة الكاتبة، إشارة سه إلى إدراج هذا النَّصُ، بأكمله، في كتاب القلق. وقد أوردتها الطَّبعات البرتغاليَّة الرَّئيسة بجانب العنوان الرُّئيس، إلَّا طبعة زينيت وطبعة ريتا لُوس، ونلاحظ، أيضاً، ختلاف الشَّكل الكِتابيِّ لكلمة «كتفين» في الطبعات البرتغاليَّة المحتلمة؛ فقد وردت في طبعة بسارُو (المقطع 280) وفي طبعة برادو كويلو (المقطع 39) على هذا الشَّكل: Hombros (أقرب إلى اللَّفظ الإسهاني)، على الشَّاكلة التي تظهر في القصاصة بخط بشوًا نفسه؛ فهما وردت الكلمة في طبعة سوبراو كونيا (المقطع 391) وطبعة ريتا لُويس (المقطع 265) بلفظها البرتغاليُّ المتعارف عليه: Ombros. (المترجم)

صنوبر، ولكنَّها طاولة أيضاً. نحن نجلس إلى الطَّاولة لا إلى شجرة الصَّنوبر. وعلى الرَّغم من أنَّ الحُبَّ غريزة جنسيَّة، فإنَّنا لا نُحبُّ بتلك الغريزة، وإنها نفترض مُسبقاً وجودَ شعور آخر، وذلك الافتراض المُسبَق، في حدِّ ذاته، شعور آخر على نحو فعَّال.

وهذه الأفكار السَّارحة التي أُدوِّنها بهدوء في هذا المقهى الذي صدف أن جلستُ فيه قد أثار ها شيءٌ، حين كنتُ أمشي في الشَّارع، لا أعرف ما هو تماماً؛ خدعة ضوء فجائيّة بارعة، جلبةٌ غامضة، ذكرى عِطر أو نُتفَةُ موسيقى، فلقد دندنَ كلَّ فكرة إلى الوجود تأثيرٌ مجهول من خارجها. لا أعرف إلى أين كنت أمضي بتلك الأفكار أو إلى أين سأختار أن أمضي بها. ثمّة سديمٌ خفيف اليومَ، رطبٌ ودافئ، حزين بلا وعيد، ورتيبٌ على نحو غريب. شعور لا أعرفه يُوجِعُني؛ أشعرُ كأنّني قد أضعتُ خيط مُحاورة؛ الكلمات التي كتبتُها مسلوبة الإرادة تماماً. الحزنُ تحتَ الوعي يتربّصُ. أكتبُ، أو بالأحرى أخربشُ هذي الشَّطورَ، لا لأقولَ أيَّ شيء بالتَّحديد، وإنَّا لأمنح شرود ذهني شيئاً كي يفعله. وبهذه الخربشات النَّاعمة التي يخطُها قلمي الرَّصاص الكليل الذي لا يطاوعني قلبي أن أبريه، أملاً ورقةَ بيضاء من تلك التي يستخدمها المقهى في لفِّ الشَّطائر (وقد أمدُّوني بها لأنَّني لم أكُن في حاجة إلى أيِّ شيء أفضل، فأيُّ شيء كان سيفي بالغرض، طالما كان أبيض). شعرتُ بالرِّضي. فملتُ إلى أخلف. المساء يُرخي سُدولَهُ، رتيباً، بلا مطر، في شيءٍ من الضَّوءِ قنوط ومُرتاب... فتوقَفتُ عنها، لا أكثر.

275

[91930]

هكذا أنا، الطَّائش، الحسَّاس، القادر على القيام بنزوات يمكن أن تكون عنيفة، مستحوذة عليَّ تماماً، لائقة وشرِّيرة، نبيلة ووضيعة، ولكنَّها لا تنطوي البتَّة على أيِّ شعور دائم، أو أيَّ عاطفة راسخة يمكن أن تنفذ حقاً إلى جوهر روحي. كلُّ شيء فِيَّ نزعةٌ وشيكة إلى أن أغدو شيئاً آخر؛ نفاذٌ صبر الرُّوح على نَفْسها الذي يشبه نفاد الصَّبر على طفل لجوج؛ قلقٌ يشتدُّ دائهاً ولكنَّه يظلُّ ذاتهُ دائهاً. كلُّ شيء يثيرُ اهتمامي ولا شيء يستحوذ على اهتمامي. أنصِتُ إلى كلِّ شيء في حين لا أكفُّ عن الحُلم؛ ألاحظُ أدفَّ الخلجات التي ترتسم على وجوه الذين أتحدَّثُ شيء في حين لا أكفُّ عن الحُلم؛ ألاحظُ أدفَّ الخلجات التي ترتسم على وجوه الذين أتحدَّثُ

إليهم، وألتقط أدنى التّغيّرات التي تطرأ على نبرة حديثهم؛ لكنّني حين أسمع لا أنصت، لأنّني أفكّر في شيء آخر، فأخرج من أيّ محادثة بفكرة بسيطة عبًّا قِيلَ، سواء ما قلته أنا أو ما قاله الشّخص الآخر. لذلك أجد نفسي في كثير من الأحيان أعيد على مسامع أحدهم شيئًا قد أخبرته به مسبقاً، أو أسأله عن الشّيء ذاته الذي أخبرني عنه منذ قليل؛ لكنّني أستطيع أن أصف، بأربع كلمات تصويريَّة، قسمات وجهه حين قال الكلمات التي لم أعُد أذكرها، أو الطّريقة المكترثة التي أصغى بها إليَّ حين أخبرته الحكاية التي لا أتذكّر أنّني قد قصصتها عليه. فأنا شخصان يحافظان، بالقَدْر ذاته، على مسافة بينهما – توأمان سياميان يعيشان حياتين منفصلتين.

276

[930]

لو صدف أن حظيت، ذات يوم، بحياة آمنة طيلة الوقت، وفرصة في العالَم كي أكتب وأنشر، فأنا على يقين بأنَّي سأحنُ إلى هذه الحياة القلِقة التي لا أكتب فيها البتَّة إلَّا نادراً ولا أنشر فيها شيئاً على الإطلاق. أشعر بالحنين، لا لأنَّ هذه الحياة العاديَّة سوف تكون قد ولَّت ولن أحظى بها مرَّة أخرى أبداً، وإنَّما لأنَّ كلَّ نوع من الحياة ينطوي على ميزة معيَّنة ومتعة عجيبة. وحين نمضي إلى حياة أخرى، حتَّى لو كانت حياة أفضل، فإنَّ تلك المتعة العجيبة تخمد، وتلك الميزة تَهِن، فتكفَّان عن الوجود ويفتقدهما المرء.

ولو تمكّنتُ ذَاتَ يوم من حمل صليب نواياي إلى الجُلجُلة المُطلَقة، فأنا على يقين أنّني سأجدُ جُلجُلة المُطلَقة، فأنا على يقين أنّني سأجدُ جُلجُلة أخرى فِيَّ، ولسوف ينتابني الحنينُ إلى الأيّام التي كنتُ فيها عقيهاً، وعاديّاً، وناقصاً. سأكون قد تضاءلتُ بطريقة أو أخرى.

أشعر بالنَّعاس. قضيتُ يوماً مُضجراً منهمكاً في مهمَّة عبثيَّة على وجه الخصوص في مكتب يكاد يكون مهجوراً. فثمَّة موظَّفان مريضان والآخرون ليسوا موجودين، بكلَّ بساطة، اليوم. أن وحيد بمعزل عن صبيِّ المكتب القابع بعيداً في الطرف المقابل من الغرفة. أشعر بالحنين إلى احتياليَّة أن أشعر بالحنين ذات يوم، بصرف النَّظر عن مدى العبثيَّة التي قد يبدو عليها ذلك الحنين.

أكادُ أتضرعُ إلى الآلهة كي تسمح لي بأن أظلَّ هُنَا، كَأَنَّني حبيسٌ خَزنةٍ حديديَّة، محمياً من مرارة الحياة وأفراحها على حدُّ سواء.

277

[?1930]

سأل صوت مُوريرًا بلطف من وراء الرَّفّين اللَّذَيْن يفصلانه عن القمَّة الشَّمَّاء: «ما الذي يُضحكك؟».

فقلتُ، بعد أن تمكّنتُ من كبح ضحكتي: «أوه، لقد أُشكِلَتْ عليّ بعض الأسهاء، فخلطتُ بعضها في بعض».

لم يَقُل مُورِيرًا سوى ﴿ آهُ أَهُ خَيَّمتِ السَّكينةُ الباهنة مرَّةً أخرى على المكتب وعليًّ.

ولا حتى بُورجيه البائس الشَّقي، الذي تصعب قراءة أعاله، فهي مرهقة كصعود بناية شاهقة لا مصعد فيها إلَّا الدَّرَج... استدرتُ، ثُمَّ مِلتُ خارج النَّافذة كي أنظر مرَّة أخرى على جادَّة سان جيرمان (243) جادَّتي الشخصيَّة، في اللَّحظة التي يميل فيها جارنا، المالك الثَّريُّ، من النَّافذة كي يبصق على الشَّارع. الفيكونت شاتوبريان يدوِّن الحسابات! والبروفيسور أَمْيِلْ جالس على مقعد ملكيَّ مرتفع بلا ظهر! والكونت ألفريد دي ڤيني والبروفيسور أَمْيِلْ جالس على مقعد ملكيًّ مرتفع بلا ظهر! والكونت ألفريد دي ڤيني يُقيِّد مبلغاً في الجانب المدين من حساب متجر غرانديلا الكبير (242)! وسينانكور في خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ. وبين التَّفكير في هذا كلَّه، وتدخين سيگارة، دون أن أربط الأحداث بعضها بعض، تصادف ضحكتي اللَّهنيَّة الدُّخانَ، فتختلط في حلقي، حيث تتعاظمُ إلى نوبة خجولة من الضَّحك المسموع الله المسموع الله المسموع المتعدد على المسموع المتعدد المت

278

[*1930]

ستمتُ الشَّارع؛ كلَّا، لم أَسْأَمْهُ - فالحياةُ كلُّها في الشَّارع. الحانةُ قُبالتي، أستطيع رؤيتها إذا

(244) أوُّل المتاجر الكبري التي أنشتت بلشبونة في العام 1907، على غرار المتاحر الكبري في ياريس ولندن. (المترجم)

⁽²⁴³⁾ Boulevard Saint-Germain (ضجادة القديس جيرمان): جادة في باريس. فمن نافذة المكتب يطلَّ بِسُوَّا، في الحلام يقظته، على العالم كلَّه. يتصوَّر المكان لذي يريده، ويطلُّ عليه. (المترجم)

نظرتُ من فوق كتفي الأيس؛ وورشةُ صانع الصَّناديق التي أستطيع رؤيتها إذا نظرتُ من فوق كتفي الأيسر؛ وفي منتصف الشَّارع، الذي لا أستطيع رؤيته إلَّا حين أستديرُ، الإسكافي الذي يحتلُ المدخل المؤدِّي إلى مكتب شركة إفريقيا، بِطَرْقه المُنتظم. لستُ متأكِّداً بخصوص الطَّوابق الأخرى، فثمَّة نُزُلٌ صغير في الطَّابق الثَّالث، يقولون إنَّه مكان غير أخلاقيًّ، ولكنَّ المرء يستطيع قول الشَّيء ذاته عن الحياة.

مشمتُ الشَّارع؟ أَنَا لا أسأم إلَّا حين أُفكِّر. وحين أنظر إلى الشَّارع، أو أشعر به، فإنَّني لا أُفكِّر: أُؤدِّي عملي يغمرني إحساسٌ هائل بالسَّكينة الجوَّانيَّة، مُتبوِّتاً رُكني في المكتب على نحو مفيد، لا أحدَ كتابياً (245) كائنٌ، لا روحَ لي، ولا روحَ لأحد – فكلُّ الذي هُنَا هُوَ العمل، والعمل، والعمل. وثمَّة عملٌ، أيضاً، هُنَاك بعيداً، في مكان أجنبيٌّ من دون شك، حيث يتجوَّل أصحاب الملايين، بَيْدَ أَنْ لا أرواحَ موجودة أيضاً، مثلها هي الحال هُنَا. فكلُّ ما تبقَّى شاعرٌ أو اثنَان. حبَّذا لو أترك خلفي عبارةً أو قولاً مأثوراً يقول عنه الآخرون إنَّهُ «راثع!»، على شاكلة الأرقام التي أدوِّنها، ناسخاً إيَّاها في كتاب حياتي كلّها.

أعتقدُ أنّني لن أكفّ عن كوني محاسباً مساعداً في مستودع للأقمشة. أتمنّى، مخلصاً، من أعماق قلبي، ألّا أُرقّى إلى رُتبة كبير المحاسبين.

279

[91930]

لو ثمَّة في الفنِّ صانعٌ مثاليٌّ، لكانت لي وظيفة في الحياة، فيها يخصُّ فنِّي على الأقلِّ.

أَنْ تُوكِلَ مهمَّة إنجاز العمل إلى شخص آخر، ثُمَّ تبذل قصارى جهدك في تجويد ذلك العمل كي يبلغ حدَّ الكمال، فحسب... ربَّما هكذا كُتبِت الإلياذة...

ألَّا أبذل قصاري جهدي لخلق شيء من العدّم!

⁽²⁴⁵⁾ تصوع جول كُوستا، هُنا، عبارة «a clerical» مفايلاً لعبارة يِسُوُّا «escripturantemente»؛ إذ لجأ يسُوَّا إلى خلق كلمة جليدة منتهكا الاعراف التُحوية السَّائدة بإضافة اللَّرُحمة الظّرفيّة «mente» إلى كلمة «escripturante». (المترجم)

كيف أحسدُ أولئك الذين يكتبون روايات، الذين يبدأُونها فَيكتبونها فَيُنهونها! أستطيع تخيُّل رواية، فصلاً فصلاً، وأتخيُّل في بعض الأحيان الحوارات بأكملها ونُتَف الأحاديث التي بينها، ولكنَّني لن أكون قادراً على أن أدوِّن على الورق أحلامَ الكتابة تلك [...]

280

[?1930]

نعبدُ الكَمَال، لأنّنا لا نستطيع أن نحظى به؛ ولسوف نمقتُهُ لو حظينا به. فالكمال غير إنسانيٌّ، ولا بُدَّ، كي تغدو إنساناً، أن تكون ناقصاً.

نكرةُ الفردوس خِفيةً - فرغبتنا في الوصول إليه تشبه رغبة البائس الفقير الذي يأمل في أن يجد الرِّيف في الجنَّة. وليستِ النَّشواتُ المجردَّة أو بدائع المُطلَق هي التي تفتنُ الرُّوح المُرهفة، وإنَّها البيوت المُريحة الدَّافئة والتَّلال البديعة، والجُزر الخضراء القائمة في البحار الزَّرقاء، والطُرق المصفوفة بالأشجار، والسَّاعات المديدة المُبدَّدة في العِزَب المتوارثة عن الأسلاف، حتَّى تلك التي لم نمتلكها قطَّ. فإنْ لم تكن ثمَّة أرضٌ في الجنَّة، فمن الأفضل ألَّا نقلق بشأن وجود الجنَّة بتاتاً. من الأفضل كثيراً أن يكون كلُّ شيء لا شيءَ في النّهاية، ومن الأفضل لهذي الرِّواية، التي بلا حبكة، أن تنتهي هُنَا. يحتاج الإنسان، كي يبلغ الكَهال، إلى برودة [في المشاعر] غريبة على البشر، ولكنَّه سيفتقر حينئذ إلى القلب الإنسانيِّ الذي يجعله برودة [في المشاعر] غريبة على البشر، ولكنَّه سيفتقر حينئذ إلى القلب الإنسانيِّ الذي يجعله بمُودة كمَّاله.

نشعر بالرَّهبة من رغبة الفنَّانين العظماء في الكَمال. نحبُّ محاولتهم بلوغ الكمال، ولكنَّنا نحبُّ تلك المحاولة لأنَّها محاولة ليس إلَّا.

281

[\$1930]

... وأُحدِّقُ إلى الأسفل من أعالي الحُلم المَهيبة هذه، هَأنذا، المحاسب المساعد في مدينة

لشبونة. ينتابني، بعيداً عن الشَّعور بتلك المقارنة التي تسحقني، شعورٌ بالتَّحرُّر، طبعاً، فالمفارقة الكامنة في ذلك كلَّه هي روح حياتي. فالشَّيء ذاته الذي كان ينبغي عليَّ أن أجده مهيناً أضحى شيئي المعياريَّ الذي أرفع رايته بكلِّ فخر؛ والضَّحكة السَّاخرة التي كان ينبغي عليَّ أن أُحيِّي بها أفكاري باتت بُوقاً أُبوِّقُ فيه كي أخلق الشَّفق القطبيَّ الذي صِرتُهُ، وأُبوِّقُ مُرحِّباً به.

المجد اللَّيليُّ في أن أكون عظيماً في الوقت الذي لا أكون فيه أيَّ شيء! الجلالةُ الحزينة لروعة أن أكون مجهولاً. وفجأةً، أشعر بالحبور الجليل الذي يغمر الرَّاهب في البرِّيَّة، والنَّاسك في مغارته، المنسجمين تماماً مع جوهر المسيح في رمال الصَّحراء وتجاويف التَّماثيل الفارغة في المتزَّه...

وأنا جالس على مكتبي في غرفتي العاديَّة حدَّ العبث، ولستُ إلَّا مجرَّد كاتبٍ في مكتب، أكتبُ هذه الكليات كما لو كانت خلاصَ روحي، فأُزيِّن نَفْسي بغروب الشَّمس المستحيل على قمم شاهقة، شمَّاء، بعيدة، والثَّوب الكهنويُّ مخلوعٌ عليَّ لقاء الملذَّات التي ذقتُها، وخاتمُ الزُّهد في إصبعي الإنجيليَّة؛ الجوهرةُ الوحيدة لازدراءِ نَفْسي الأبديِّ.

282

[91930]

... الحِدَّةُ المؤلمة لأحاسيسي المثيرة، حتَّى تلك التي تجلبُ الفرح؛ الحِدَّةُ المؤلمة لأحاسيسي المثيرة، حتَّى تلك الأحاسيس الحزينة.

أكتبُ في وقت متأخّر من صباح الأحد، في يوم طافح بضوء خافت، حيث زرقةً السَّماء المدهشة، فوق أسطح المدينة المُتقطِّعة، تُسَربِلُ وجودَ النُّجوم الغامضَ بالنِّسيانِ...

وإنَّهُ يومُ الأحد فِيَّ أيضاً... فقلبي سوف يذهبُ إلى الكنيسة أيضاً، على الرَّغم من أنَّه لا يعرف أين تقع الكنيسة تماماً، وإنَّه يرتدي بذلة مخمليَّة صغيرة، وفوقها ياقة كبيرة أضعاف حجمها، ووجنتاهُ اللَّنان ورَّدتها الإثارةُ التي جلبتها الانطباعات الكثيرة الأولى، تتهلَّلانِ بلا ريبٍ، سعيدتين بعزم لا يلين (246).

(246) تبحظ، هُنا، ابتعاد بُحول كوستا عن التَّرحمة الحرفيَّة لعبارة بِسُوَّا، وجنوحها نحو ترجمة أكثر تحليقاً. فالعبارة في

ألَّا يُخضع المرء تفسه إلى شيء -سواء أكان كائناً بشرياً آخر، أم شخصاً نُحبُّه أم فكرة للمحافظة على الاستقلال المنعزل القائم على عدم الإيهان بالحقيقة، وعلى عدم الإيهان بفائدة معرفة ذلك، إنْ وُجِدَ شيءٌ من هذا القبيل: يبدو ذلك، بالنَّسبة إلى، الحالة الأنسب لحياة المفكّرين الفكريَّة. أمَّا أن تنتمي إلى شيء - فذاك هُوَ العاديُّ المُبتذَل. ليست العقيدة، والمثل الأعلى، والزَّوجة، والوظيفة إلَّا زنازين وأصفاد. فأن تكون يعني أنْ تكون حُراً. وحتَّى الطَّموح يكون عبئاً حين يعتمد على الكبرياء الباطل والشَّغف العقيم فحسب؛ فلن نشعر بالفخر إذا أدركنا أنَّه بحرَّد الخيط الذي يجرُّنا. كلَّا، لا روابط، حتَّى مع أنفسنا! ولسوف نحيا، بالفخر إذا أدركنا أنَّه بحرَّد الخيط الذي يجرُّنا. كلَّا، لا روابط، حتَّى مع أنفسنا! ولسوف نحيا، نحن عبيدَ الله المتحرِّرين، الفاصلَ الزَّمنيَّ القصير الذي يحوِّله شُرود أذهان جلَّدينا إلى استراحة موقَّتة تتوقَف فيها الإعدامات، متحرِّرين من أنفسنا تحرُّرنا من الآخرين، متأملين بلا نشوة، مفكّرين بلا خلاصات. سوف نواجه المقصلة غداً أو بعد غد. فَلنُبدَّد هذه المُهلة قبل النَّهاية نمشي في الشَّمس، غاضِّين الطَّرْف، طواعية، عن كلِّ المقاصد والمساعي عستجلو قبل النَّهاية نمشي في الشَّمس، غاضِّين الطَّرْف، طواعية، عن كلِّ المقاصد والمساعي عن الأمال كلِّها.

سأضعُ قلمي، وقبل أن أتمكّن من التقاطه ثانيةً، سوف يتدحرج أسفل مُنحَدر المكتب الذي أكتب عليه. خطر ببالي هذا كلّه على عجالة، فتجسّدتْ سعادي في هذه الإيهاءة التي من غضب لا أشعر به حقاً.

284

[91930]

سيمفونيَّةُ ليلِ مُضْطَرِب

كان كلُّ شيء نائماً، كأنَّ الكون غلطةٌ، وكانت الرِّيح الْمُتردِّدةُ رايةً منشورة تتدلَّى فوق قمَّة

الأصل هي. ووجههُ، الذي ورَّدتهُ الانطباعات الأولى، يبتسمُ بلا عينيَّن حزيتيَّن فوق الباقة الكبيرة حدَّا com a cara corada das primeiras impressões a sorrir sem olhos tristes por cima do colarinho muito . (المترجم)

بنابة (الانه عير موجودة. ولم يكُن ثمَّة شيءٌ قد تمزَّقَ أشلاءً في الرِّيح العاتية العالية، في حين هزَّت إطاراتُ النَّوافذ ألواحِ الزُّجاجِ كي تجعل أنْفُسَها مسموعةً من الدَّاخل. كانت الرُّوح تعاني بصمتٍ، في أعماق كلِّ شيءٍ، شاعرةً بالشَّفقة على الله.

ثُمَّ، فجأةً، فرض نظامٌ جديد من أشياءَ كونيَّةٍ نَفْسَهُ على المدينة؛ صفَّرت الرِّيحُ حين صمتتِ الرِّيحُ، فعمَّ شعورٌ مُنوِّمٌ من جيشانِ عظيم في الأعالي. أطبق اللَّيلُ مثل باب مسحور، فجعلتني السَّكينة التي أعقبَتْ ذلك أتمنَّى لو كنتُ نائهاً.

285

[91930]

نَسَمةُ (248) موسيقى أو حُلُم، أيَّ شيء قد يجعلني أشعرُ أو أكادُ، أيُّ شيء قد يجعلني أتوقَّفُ عن التَّفكير.

286

[\$1930]

اِمنحْ كلَّ حركةٍ شخصيَّةً، وكلَّ حالةٍ ذهنيَّةٍ روحاً.

ظهرت مجموعةٌ من الفتيات عند منعطف في الطَّريق. كُنَّ يتجوَّلن مغنياتٍ، وجرْس أصواتِهنَّ بهيجٌ. لم أعرف مَن هُنَّ أو ماذا كُنَّ. أصغيتُ إليهنَّ بعضَ الوقت من بعيدٍ، دون أن أشعر بشيء على وجه التَّحديد، ثُمَّ قَرَّ في قلبي شيءٌ من الحُزن عليهنَّ.

⁽²⁴⁷⁾ وهُما مثال آحر على «تعدُّد» فكُ «شفرة» حطِّ بِسُوًا المتسارع، المتداخل بعضه في بعض، حتَّى في الطَّبعات البرتغاليَّة أَنفسها؛ فهذه الكلمة بعيبها قُر ثَتْ «بناية edificio» في طبعة بشارو (المقطع 290) وطبعة سوبراو كونيا (المقطع 499) على حدِّ سواه؛ ولكنَّها قُر تَتْ «ثَكنة/سارية عسكريَّة quartel» في طبعة برادو كويلو (المقطع 92) وطبعة زييت (المقطع 32) على حدِّ سواه، حتَّى إنّها نرى، أيضاً، اختلافاً في كتابة كمه «سيمهونيَّة» التي في العنواك؛ ففي طبعة بسارُو وطبعة برادو كويلو وردت «symphonia» في حين وردت «sinfonia» في طبعة سوبراو كويها وطبعة رينيث، ووردت أقرب إلى لفظة «symphonia» في أصل القصاصة التي خطَّ عيها بِسُوًا هذه الشَّذرة. (المترجم)

⁽²⁴⁸⁾ أُترجم كُنَمة (breath) (بالبرتعاليَّة um hálito) به «نسمة» (وليس نَفَس، على سبيل المثال) اقتداءً بالتَّرحمة الثورانيَّة لهذه الكلمة، والاسيَّما في عبارة «نسمة حياة breath of life» التي وردت في الإصحاح الثاني في سفر التَّكوين: «جبلَ الرَّبُ الإلهُ آدمَ تُراباً من الأرض، ونفخَ في أنه نسمة حياة. فصار آدمُ نَفْساً حَيَّةً». ونرى، هُنا، انَّ يُسُوّا يبحث عن «نسمة الحياة»، هذه، في الموسيقى أو الأحلام. (المترجم)

أَعَلَى مستقبلهنَّ؟ أَعَلَى لَمْوِهِنَّ البريءَ؟ كلَّا، ليس عليهنَّ مباشرة، ولكن ربَّها –مَن يدري–عبى نَفْسي، ليسِ إلَّا.

الدَّربُ يُفضِي إلى الطَّاحونة، ولكنَّ الجهد يُفضي إلى اللَّامكان.

كان ذلك في أواخر ما بَعْدَ الظَّهيرة إبان أوائل الخريف، حين سرى في السَّماء شيءٌ من دفء بارد هاجع، فكانت ثمَّة غيوم تُلفِّعُ الضَّوء ببطانيَّاتِ ثقيلة.

الشَّينان اللَّذان أعطانيهما القَدرُ: بعضُ دفاتر حسابات عموميَّة وموهبة أن أحلم.

287

[\$1930]

أصغى إلى وأنا أقرأ شِعرى - و لأنّني كنتُ شارد الذّهن، فقد قرأتُ على نحو جيّد بعض الشّيء - فقال لي ببساطة كما لو كان يُفصِحُ عن أحد قوانين الطّبيعة: "أتعرف، لو كنتَ دائماً على تلك الشّاكلة، ولكنْ بوجه مختلف، لكنتَ فاتنا حَقاً». لقد كانت كلمة "وجه»، أكثر من أيّ شيء آخر قاله، هي التي جذبتني من ياقة عجزنا الفطريِّ عن معرفة أنفسنا. تخيّلتُ المرآة في غرفتي، تعكس وجهي الذي يشبه الوجه البائس لشحّاذٍ غير فقير، فتحرَّكت المرآة، فجأة، مُبتعدة، فانشقَّ طيفُ خُوا دُشْ دُوْرَادُوْرِش أمام ناظريَّ مثل نِيرْڤَانَا (200) من أجل سعاة البريد.

شدَّةُ أحاسيسي المثيرة مثل مرض منفصل عنِّي تماماً. شخص آخر، أنا الجزء المريض منه، يعاني من ذلك المرض، لأنَّني أشعرُ تماماً كما لو كنتُ قد اعتمدتُ على القُدرة الأعظم، التي يتمتَّع بها شخص آخر، كي أشعرَ. فلستُ إلَّا نسيجاً فريداً، أو حتَّى خليَّةً، مسؤولةً عن كائن حيَّ برمَّته.

⁽²⁴⁹⁾ النّيرقَانَا nirvana: السّعادة/الطُّوبَى الأبديّة لتى تجاوز كلّ معاناة، والتي تتحقّق، وفق البوديّة، بكبح الشّهوات وتلاشي الوعي الفردي بالتّأمّل العميق. (المترجم)

فإذا كنتُ أُفكِّر، فذاك لأنِّي غارق في أحلام اليقظة؛ وإذا كنتُ أحلمٌ، فذاك لأنِّي مستيقظٌ. كلُّ شيءٍ فِيَّ يُختلطُ، ولا يعرفُ أيَّ طريق كي يكون.

288

[91930]

فضوليًّ تجاه أيِّ شخص، جشعٌ إلى كلِّ شيء، مَنهُومٌ بالأفكار. تُثقل كاهلي، مثل فقدانِ [...]، فكرةُ أنْ ليسَ كلُّ شيء يمكنُ أن يُرَى أو يُقرأ أو يُفكَّر فيه...

ولكنَّني لا أرى إلَّا سهواً، ولا أقرأ إلَّا شاردَ الذِّهن، ولا أُفكِّرُ إلَّا مُشوَّشاً كذلك. فأنا، في كلِّ شيء، هاو شديدُ الانفعال، غليظٌ إلى حدٍّ ما.

روحي واهنةً حتَّى إنَّما لا تستطيع أن تمتلك قوَّة حماستها. خُلِقتُ من أطلالِ أشياء لم تنتهِ بَعْدُ، والمنظر الطَّبيعيُّ الذي قد يُحدِّد كينونتي هُوَ منظرُ التَّخلِّي والاستغناء.

أغرق في أحلام اليقظة حين أُركِّزُ؛ فكلُّ شيء فِيَّ زُخرفيٌّ وغامض، كمنظر عظيم مُسجَّى بسديم كثيف.

وهذه النَّزَعُة الشَّهوانيَّةُ لتحويل كلِّ شيء إلى تعبير أو، بالأحرى، للتَّفكير في كلِّ شيء بوصفه تعبيراً عن الفِكر كلِّه؛ لرؤية المشاعر كلِّها ملوَّنةً ونُجسَّدةً وحتَّى رؤية النُّكران كلِّه في الإيقاع [...]

أكتبُ بحدَّة مشاعر عظيمة، حتَّى إنَّني لا أعرفُ بهاذا أشعر. نصفي سائرٌ في نومهِ ونصفي عَدَمُ.

أغدو المرأةَ التي أكونُها حين أعرف نَفْسي حقاً.

أُفيونَ الأَشْفاق الملكيَّة والأعجوبةَ الهاجعة في العتمة، واليدَ التي تنبثقُ من الأسمال.

ويكون الدَّفقُ المُركَّز للصُّور والعبارات التي تملأُ عقلي المُجرَّد، في بعض الأحيان، عظيماً جداً، وسريعاً جداً، وغزيراً جداً، فأهذي وأتلوَّى وأبكي لفقدها - لأنَّني أفقدها فعلاً.

فلكلَّ صورة أو عبارة لحظتها الخاصَّة ولا يمكن استعادة تلك اللَّحظة حين تنقضي. ومثل عاشق لم يبق لَهُ سوى حنين إلى وجه محبوب، يلمحه لمحاً، ولا تشخص أبصارُه إليه البتَّة، لم يبق لي سوى ذكرى كينونتي كما لو أنَّها كانت ميِّتة، ذكرى تحديقي في هاوية ماض يتدفَّقُ مسرعاً؛ ماضٍ من صُور وأفكار وأشكال ميِّتة مغمورة في السَّديم ذاته الذي صُنِعتُ منه.

سيَّالاً، غائباً، لا لزومَ لي، أفقدُ نَفْسي كما لو كنتُ أغرقُ في شيءٍ؛ فأنا صيغةُ فعل ماضٍ تماماً، وتلك الكلمةُ، التي تتكلَّمُ ثُمَّ تتوقَّفُ، تقولُ كلَّ شيءٍ وهي كلُّ شيء.

إيقاعُ كلمة، والصُّورة التي تستحضرها، ومعناها بوصفه فكرةً، تتحدُّ لا محالةً في كلمة واحدة، ولكنَّها، بالنِّسبة إليَّ، تتَّحدُ منفصلةً. فمجرَّد التَّفكير في كلمة يجعلني أفهم مفهومَ النَّالوث. أُفكرُ في عبارة «لا حدَّ لَهُ» (250)، فأختارها مثالاً، لأنَّها مُجرَّدة وغامضة. ولكنَّني إذا سمعتها في كينونتي الحَقَّة، تهتاجُ أمواج عظيمة هادرة بصوت لا يتوقَّفُ في البحر اللَّامُتناهِي؛ تتلألا السَّهاوات، بلا نجوم، وإنَّها بموسيقي جميع الأمواج المتلالئة بلا صوتٍ، وفكرة لا تناهِ سيَّالِ ينشقُّ أمامي، مثل راية منشورة، في شكل النُّجوم أو أصوات البحر؛ أمام «أمام «كل النُّجوم أو أصوات البحر؛ أمام «أمام كلَّ النُّجوم.

فلو يظهر «الدُّوْن سِبَشْتِياوْ» *تَ في هذه اللَّحظة من السَّديم الذي لن يتعارض مع التَّاريخ. فالتَّاريخ كلُّه يحدث في السَّديم، والمعارك العظيمة التي أخبرونا عنها، والطُّقوس العظيمة، وجميع إنجازات البشر العظيمة، ليستْ إلَّا مناظر عظيمة مسجَّاة بالسَّديم، ومواكب حاشيات بُحَتْ بعيداً في الشَّفق الخافت.

الرُّوحِ الَّتِي فِيَّ مُعبِّرةٌ وماديَّة. فإمَّا أن أَخمِد في حالة من اللَّاكينونة الاجتهاعيَّة، وإمَّا

⁽²⁵⁰⁾ الكيمة، مُنَا، هي «numberless»، وفي البرتغاليّة « innumero» (= غير معدود/ لا حدٌ له/لا يحضى، إلخ) ويتعذّر صياغتها في العربيَّة في «كلمة واحدة»، تكون «نجُرُدة وغامضة»، على الشّاكلة التي يستخدمها بِسُوّ. (المترجم)

⁽²⁵¹⁾ يستخدم بسُوًا الـ «أنا»، هُنَا، بصيغتها المُجرَّدة، لا لتشير إلى نفسه، في حدَّداتها. المذكورة في العبارة التي قبلها حبن يقول «ينشقُّ أمامي»، وإنَّمَا إلى واحدة من «الأبوات» الكثيرة التي تعيش في داخله. (المترجم)

أستيقظ. وإذا استيقظت، أُظهِرُ نَفْسي بالكلمات كما لو كانت الكلمات طريقة كينونتي في فتح عينيها. وإذا فكّرت، تنهض الأفكار في عقلي على شاكلة مُجَل إيقاعيّة، قصيرة، ولستُ متأكّداً تماماً إنْ كنتُ أُفكّرُ قبل قول تلك الجُمَل أمْ بعد أن أجد نَفْسي تقولُها. وإذا وجدتُ نَفْسي تحلم، تغمرني الكلمات على الفور، كلُّ عاطفة في صورة، وكلُّ حلم لوحة تؤول إلى موسيقى. قد يكون ما أكتبُه رديئاً، ولكنّه يُشبهني أكثر ممّا ظننتُ... أو هكدًا أظنُّ في بعض الأحيان...

لقد كنتُ أسردٌ نَفْسي طيلة حياتي، وإذا ملتُ كي أنظر إلى السَّأم الأقلِّ الذي لديَّ، فإنَّهُ يُورِقُ، بقوَّةِ مغناطيسيَّةِ الـ[...] إلى أزهار بلونِ هاوياتِ موسيقيَّة.

289

[930]

وحين أنظرُ إلى النِّتاج الأدبيِّ الثَّرِّ -فإنْ لم يكُن ثَراً فهو شامل ومكتمل- لكثير من الأشخاص الذين أعرفهم أو أعرف أعمالهم، أشعر بشيء من الحسد، بإعجاب مُزدَرٍ، بمشاعر مختلطة مُتنافِرة.

القُدرة على إكمال شيء، سواء أكان جيِّداً أم رديئاً -على الرغم من أنه لن يكون جيِّدا تماماً، فإنَّه لن يكون جيَّدا تماماً، فإنَّه لن يكون في الغالب رديئاً تماماً أيضاً - نعم، القُدرة على إكمال شيء ربَّما تثبر فِيَّ الحسدَ أكثر من أيِّ شيء آخر. إنَّه مثل طفل، غير كامل مثل جميع الكائنات البشريَّة، ولكنَّه رغم ذلك طفلنا.

لا يسمح لي عقلي، الذي لا يكفُّ عن نقد ذاته، إلَّا أن أرى العيوب والأخطاء في أعماني، فلا أملكُ الجرأة إلَّا لكتابة نُتَفِ وشذرات، حواش قصيرة على موضوعة اللَّاوجود، ولكنَّ القليل الذي أكتبه، على الرَّغم من ذلك، يفتقرُ إلى الكَمَال. بَيْدَ أَنَّهُ من الأفضل إمَّا إنتاجُ شيء مكتمل، حتَّى لو كان رديئاً، ولكنَّه موجودٌ على الرَّغم من ذلك، وإمَّا غيابُ الكلماتِ الكاملُ، الصَّمتُ الأبيضُ (252) لروح تعرفُ أنَّ نَفْسَها عاجزةٌ عن الفِعل.

(252) ارتأيتُ ترجمة كلمة blank بالأبيص (وليس الأجوف/الفارغ، على سبيل المثال) لأنَّ الصُمت الأبيض، هُنَا، عند يسُوّا، هو المقبل للصُفحة البيضاء؛ صفحة الكتابة ذاتها، فهي مَّا علوءة كلاماً وإمَّا صمتُ أبيض هو الغياب الكامل للكلمات. (المترجم)

[1930]

أتساءلُ إِنْ كَانَ كُلُّ شِيء فِي الحِياة ليس شكلاً مُنحطاً من شيءٍ آخَر فحسب، وإنْ كانت كينونتُنا ليستْ مُقارَبةً فحسبُ: عَشِيَّةَ شَيءِ أو ضَواحيهِ...

ومثلها كانت المسيحيَّةُ مُجرَّدَ شكلٍ غير سوي من اللاطونيَّةِ مُحدَثة مُنحطَّةٍ -رَوْمَنةِ التَّقليد الهيلينيِّ عبر اليهوديَّة - فإنَّ عصر نا الهيَّابَ، عديم الملامح، هُوَ مُجرَّد تشوُّهِ مُتعدِّد الأوجه لجميع الفلسفات العظيمة، المُتقاربَة والمُتناقضة على حدَّ سواء، التي مِنْ إخفاقِهَا ظهرتِ النُّكرَاناتُ المتراكمة التي نُعرِّف بها أنْفُسَنا.

نعيشُ بين الفواصل المسرحيَّة رفقةَ موسيقي أوركستراليَّة.

ولكنْ، ماذا يتوجَّب عليَّ أن أفعل بكلِّ تلك الحضارات، أنا الذي يعيش في هذه الغرفة بالطَّابق الرَّابع؟ كلُّ شيء خُلُم، بالنِّسبة إلى، كأميرة بابل (253)، والقلَقُ بشأن البشريَّة عبثٌ مُطلَقٌ – هوسٌ بكُتُب الأُمِّيِّين، أركيولوجيا الحاضر.

سأختفى في السَّديم (٢٥٠)، غريباً على الأشياء كلِّها، جزيرةٌ بشريَّة منفصلةٌ عن حُلم البحر، سفينةً فائضة تطفو على سطح كلِّ شيء.

291

[91930]

لم أُحبَّ، حتَّ المحبَّة، في حبات إلَّا مرَّةً واحدةً فحسب. ولقد عاملني الجميعُ بلُطفِ دائهاً. حتَّى معارفي العاديِّين قد شقَّ عليهم معاملتي بوقاحة أو جلافة أو برودة. ويمكن، في بعض الأحيان، وبمساعدة قليلة منِّي، أن يتطوَّر ذلك اللَّطف -أو قد تتطوَّر على الأقلِّ- إلى محبَّةٍ أو مودَّة. لم يكن لديَّ صبرٌ ولا تركيز ذهنيٌّ كي أرغب في بدل ذلك الجهد.

⁽²⁵³⁾ ربًّما هي إشارة إلى الأميرة في حكاية «أميرة بابل» التي كتبها قولتير. (المترجم)

⁽²⁵⁴⁾ أظلُه، هُذَ، يستحضر أسطورة الملك سِبَشْتِناو الدي اختفى في السَّديم، فيانت العامَّة تبظر إليه على أنَّه «المنشود/ المُشتَهى» الذي سوف ينقذ البرتغال من الضَّلال. فنظالما نظر پِسُوًا إلى نفسه على أنَّه عيقري وعظيم. انظر المقطع رقم 288 لمزيد حول الملك سبشتياو. (المترجم)

وحين لاحظت في نَفْسي هذه المسألة - فنحن لا نعرف عن أنفسنا إلّا أقلَّ القليل - عَزوتُها إلى بعض خجل يصيب الرُّوح، ثُمَّ أدركتُ أنَّ المسألة ليست كذلك، فقد كانت سأماً عاطفياً عنلفاً عن السَّام من الحياة؛ قلَّة صبر على فكرة ربط نَفْسي بشعور واحد متواصل، ولاسيًّا إذا كان ذلك يعني سرقة نَفْسي (250 لبدل بعض جهد لا ينقطع. ولكنَّ الجزءَ غير المفكّر فييًّ قد فكر : لم تتجشَّمُ العناء؟ لديَّ كياسةٌ وحساسيةٌ سيكولوجيَّة كافيتان لمعرفة الكيفيَّة، ولكنَّ السَّب كان يفوتني دائماً. يبدأ ضعف إرادتي دائماً بكونه ضعفاً في الإرادة حتَّى في أن تكون لديها إرادة. والشَّيء ذاته قد حدث لمشاعري، وبصيرتي، وإرادتي نَفْسها، ولكلِّ شيء في حياتي.

ولكنّني، في المناسبة الوحيدة التي جعلني فيها القَدَرُ الحقود أعتقدُ أنّني قد أحببتُ شخصاً ما وأنّه قد أحبّني في المقابل حقاً، شعرتُ بالذُّهول والحيرة، بادئ الأمر، كأنَّ رقمي قد ظهر في سحب اليانصيب ففزتُ بمبلغ كبير من المال بعملة غير قابلة للتَّحويل، ثُمَّ شعرتُ بالإطراء، فأنا لستُ إلا بشراً. ولكنَّ عفويّة المشاعر تلك سرعان ما تلاشت، فطغى علي شعورٌ يصعب تحديده، لكنّهُ من ذلك النَّوع الذي يسوده السَّام والمَذلَّة والتَّعب السَّديدُ. شعورٌ بالسَّام كأنَّ القدرَ قد فرض عليَّ مهمَّة يتوجَّب تنفيذها في أثناء ورديَّة ليليَّة غير مألوفة. كأنَّ واجباً جديداً - واجبَ المعاملة بالمثل البغيضة - قد فُرضَ عليَّ، يا لسخرية القدر، بوصفه امتيازاً يُعتَّمُ عليَّ أن أكدح، شاكراً القدر عليه طيلة الوقت. كأنَّ رتابةَ الحياةِ المتراخية لم تكن كافية كي أحتملها دون أن تجلب معها الرَّتابةَ الإلزاميَّة لشعور بعينه.

والمذلّة أنعم، لقد شعرتُ بالمَذلّة. استغرقتُ بعض الوقت لفهم تبريرِ ذلك الشّعور الذي يبدو غير قابل للتّبرير. حُبُّ أَنْ تكون محبوباً لا شكَّ قد لاحَ لديُّ. وربّها شعرتُ بالإطراء يبدو غير قابل للتّبرير. حُبُّ أَنْ تكون محبوباً لا شكَّ قد لاحَ لديُّ. وربّها شعرتُ بالإطراء لأنَّ أحداً قد بذل وقتاً كافياً مُنتبها إلى وُجودي، خالصاً إلى احتماليّة أن يكون وجود كائن جدير بالحُبّ. ولكن، بمعزل عن لحظة الكبرياء القصيرة تلك على الرَّغم من أنَّني لست متأكِّداً تماماً أنَّ تلك الدَّهشة لم تطغ على الكبرياء وإنَّ الشَّعور الذي جشَ فِيَ كان شعوراً بالمَدلّة. شعرتُ كأنَّني قد مُنجِتُ جائزةً رُصِدَتْ لغيري؛ جائزةً ذات قيمة عظيمة بالنّسبة إلى الشَّخص الذي يستحقُّها حقاً.

⁽²⁵⁵⁾ يقصدُ: سرقة نفسه مِن نفسه. (المترجم).

ثُمَّ شعرتُ بالتَّعب، فوق ذلك كلِّه - تعب يفوقُ السَّامَ كلَّهُ. فلم أفهم، إلَّا حينئذِ، ذلك الشَّيءَ الذي كتبه شاتوبريان؛ الشَّيء الذي طالما حيَّرني، حتَّى تلك اللَّحظة، لافتقاري إلى المعرفة الضَّروريَّة بِنَفْسي. فعن شخصيَّته يقول رينيه: «أتعبني النَّاسُ بحبِّهم»، فأدركتُ ذاهلاً أنَّ ذلك ما مررت به تماماً، الحقيقة التي لا أستطيع إنكارها.

فكم من المتعب أن تُحَبَّ، أن تُحَبَّ حقاً! وكم من المتعب أن تكون موضع باقة مشاعر شخص آخر! أن أتغيَّر من شخص يريد أن يكون حُراً، حراً دائياً، إلى صبيِّ مهيَّاتٍ ميدانيَّة مسؤول عن أن يردَّ بالمثل على تلك المشاعر، أن يتحلَّى بلباقة ألَّا يهرب، حتَّى لا يُفكِّر الشَّخص الآخر أنَّه لا يتصرَّف باز دراء، يشبه از دراء الأمراء، رافضاً الهبة العظمى التي يمكن أن تمنحها الرُّوح الإنسانيَّة. فكم من المتعب أن تترك وجود المرء يتحوَّلُ إلى شيء يعتمد كليَّةً على مشاعر شخص آخر؛ ألَّا يكون لديك إلَّا خيار أن تشعر، وأن تُحِبَّ قليلاً، سواء أكان ذلك معاملة بالمثل أم غير ذلك.

مرَّتْ بِي تلك الفترة، مثلها أتّتْ إليَّ تماماً، في الظّلال. فلا أثرَ منها يبقى، في هذه اللّحظة، سواءٌ في بصيري أو في عواطفي. لم تُكسبني أيَّ خبرةٍ لم أستطع استنباطها من قواعد الحياة البشريَّة، ولم تجلب لي أيَّ معرفة غريزيَّة أستطيع استيعابها فِيَّ بحُكم كوني بشراً فحسب. لم تجلب لي لذَّة أستطيع أن أتذكَّرها بُحزنِ فيها بَعْدُ، ولا أسى يُذكَرُ بحُزنِ مماثل. تبدو كشيءٍ لم تجلب لي لذَّة أستطيع أن أتذكَّرها بُحزنِ فيها بَعْدُ، ولا أسى يُذكَرُ بحُزنِ مماثل. تبدو كشيءٍ قرأته في مكان ما، شيء حدث لشخص آخر في رواية لم أقرأ إلَّا نصفَها، فالنَّصف الآخو مفقودٌ، ولم أكترث بأنه مفقود، لأنَّ الذي قرأته حتى ذلك الحين كان كافياً. وعلى الرَّغم من أنّه بلا معنى، فقد كان واضحاً إذَّاكَ أنَّ الجزء المفقود، بصر ف النَّظر عن تحوُّلات الحبكة، لن يُوضِّح شيئاً.

فكلُّ مَا تَبقَّى عرفانٌ بالجميل تجاه الشَّخص الذي أحبَّني. ولكنَّه عرفانٌ مُجرَّدٌ، مشدوهٌ، عرفانٌ ذهنيٌّ أكثر من كونه عاطفياً. آسفٌ لأنَّ أحداً قد توجَّب عليه أن يعاني بسببي؛ أتندَّم على ذلك، لا أكثر.

من غير المُرجَّح أن تُدبِّر لي الحياةُ لقاءً آخر مع المشاعر الطَّبيعيَّة. أكادُ أتمنَّى أن تفعل، لأرى كيف سأشعر في المرَّة الثَّانية فحسب، بعد أن حلَّلتُ في هذه الأثناء تلك التَّجربة الأولى تحليلاً عميقاً. قد تنتابني مشاعر أقلُّ؛ وقد تنتابني مشاعر أكثرُ. فإنْ قدَّرَ القدَّرُ ضرورةَ أن يحدثَ، فَلْيَكُن! ينتابني فضول تجاه المشاعر. ولا ينتابني الفضولُ، البتَّة، تجاه الحقائق، بصرف النَّظر عهَّا قد تكونُ.

292

[91930]

تستيقظ بَايْشًا مُتثاقلةً، في سديم مُنتصف الرَّبيع الطَّباحيِّ الحفيف، وحتى الشَّمسُ كذلك لا تشرقُ إلَّا على مهلها. بهجةً هادئة تملأُ الهواء البارد، وفي الأنفاس العليلة لنسيم لا يكادُ يُوجَد، ترتجفُ الحياة قليلاً في البرد الذي قد مرَّ، تعتريها ذكرى البرد، أكثرَ من البرد نَفْسه، فترتجفُ، ترتجفُ حين تقارنهُ بالصَّيف القادم لا بالطَّقس الحاضر.

لم يُفتَح شيءٌ بَعْدُ إلَّا المقاهي والمَلابِنُ، ولكنَّ الهدوءَ ليس الهدوءَ المُثَّاقلَ؛ هدوءَ صباحات أيَّام الأحد، إنَّه هدوءٌ فحسبُ. للهواء حافَّةٌ شقراءُ والسَّماء الزَّرقاءُ تحمرُ عبر السَّديم الذي يرقُّ. ويشيرُ وجود بعض المارَّة إلى أنَّ الحركات الأولى المتردِّدة للحياة قد دبَّت في الشَّوارع، وعالياً في النَّافذة التي نادراً ما تُفتَحُ يظهر الوجةُ الذي لا يظهر إلَّا صُدفةً في الصَّباح الباكر. وكلَّما مرَّت الترامات، تقتفي أثرَ ثَلم أصفرَ مُرقَّم عبر الهواء، ثُمَّ تبدأ الشَّوارع، دقيقةً بعد أخرى، تَعْمُرُ أَنْفُسَها بالنَّاس مرَّة أخرى.

أنجرفُ بلا أفكار أو مشاعر، لا أهتمُّ إلَّا بحواسي فحسبُ. استيقظتُ باكراً فخرجتُ هائهًا على وجهيَ في الشَّوارع. أرى الشَّوارع مستغرقاً في التَّأمُّل. أراها بأفكاري، ثُمَّ ينهضُ فِي على وجهيَ في الشَّوارع. أرى الشَّوارع مستغرقاً في التَّأمُّل. أراها بأفكاري، ثُمَّ ينهضُ فِي على نحو عبثي، سديمُ عاطفةٍ خفيف، كأنَّ الضَّبابَ الذي يصَّاعد من العالم الخارجي

ينسربُ فِي على مهلهِ.

أُدركُ ذاهلاً أنّني كنتُ أُفكِّر في حياتي. لم أعرف أنّني كنتُ أفكر على هذا النحو، لكنّها الحقيقة. فكّرتُ في تجوالاتي الكسولة إلّا الحقيقة. فكّرتُ في أنّني كنتُ أرى وأسمع فحسب، وأنّني لم أكُن في تجوالاتي الكسولة إلّا عاكسَ صور مُستقبَلةٍ اشاشة بيضاء أسقطَتْ عليها الحقيقة الواقعيَّة ألواناً ونُوراً بدلَ الظّلال. ولكنْ، على الرّغم من أنّني لم أكن واعياً بذلك، فقد كنتُ أكثر من مجرَّد ذلك فحسب. كنتُ ماأزال روحيَ التي تُنكر نَفْسَها، وكانت رؤيتي الشَّارِعَ نكراناً في حدِّ ذاتها.

وحين ينقشعُ السّديم، يُغطِّي الهواءُ نَفْسَه بضوء شاحب اختلطَ فيه السّديم بطريقة أو أخرى. أُلاحظ وجودَ مزيدٍ من الضَّجيج، مزيدٍ من البشر حولي. تبدو خُطى هذا العدد الكبير من المارَّة أقلَّ عجلةً. ثُمَّ تظهر في الشَّارع، مرَّة أُخرى، وعلى التّقبض الصَّارخ من مشية الآخرين المتمهِّلة، الخطواتُ الرَّشيقة لبائعة السَّمك والخُطى الواسعة المتهايلة للفرَّانين الحاملين السّلال الهائلة. ولا تقطعُ الرَّتابة المتنوِّعة لبائعي المنتجات الأخرى إلَّا ما تحتويه سلاهُم المتفاوتة في اللّون أكثر من المحتوى. يُخشخِشُ بائعو الحليب بالعُلب المعدنيَّة المختلفة لِحرفَتهم الجوَّالة كما لو كانت مجموعة من المفاتيح المُجوَّفة العبثيَّة. وقف رجال الشُّرطة مُتبلَّدي الحِسِّ في المفارق، كأنَّ الحضارة تُنكِر ببزَّات رسميَّةِ اليومَ المُشرق على نحو غير ملحوظ.

ليتني أشعر في هذه اللَّحظة، ليتني أستطيع أن أكون شخصاً قادراً على رؤية هذا كله كأن لا صلة تجمع بينها إلَّا صلة أن يراه؛ شخصاً قادراً على مشاهدة كلِّ شيء كما لو كان رحَّالة راشداً وصل اليوم إلى سطح الحياة! ليت المرء لم يتعلَّم، منذ الولادة فصاعداً، أن يخلع معاني معينة مقبولة على كلِّ شيء، بيئد أنَّهُ كان قادراً، عوض ذلك، على رؤية المعنى الكامن في كلِّ شيء بدل المعنى المفروض عليه مِن خارجه. ليت المرء يعرف الحقيقة الإنسانيَّة للمرأة التي تبيع السَّمك، فيذهب أبعد من وسمها على أنَّها مجرَّد بائعة سمك، وأبعد من الحقيقة الإنسانيَّة للمرأة المعروفة بأنَّها موجودة وتبيع سمكاً. ليت المرء يستطيع أن يرى الشُّرطيَّ مثلها يراهُ الله. ليت المرء يستطيع ملاحظة الأشياء، لأوَّل مرَّة، لا بوصفها تجييًّاتِ السِّر المُروِّعة، وإنَّها بوصفها تجليًّاتِ مباشرة للحقيقة الواقعيّة.

أسمعُ جرساً أو برج أجراس يدقُّ السَّاعة - لا بُدَّ أَنَّها السَّاعة الثَّامنة على الرغم من أَنَي لا أَعُدُّ. الحقيقة المبتذلة لوجود الوقت، القيود التي تفرضها الحياة الاجتهاعيَّة على الوقت المتواصل - تَحْمٌ حول المُجرَّد، وحَدُّ على المجهول - تُعيدني إلى نَفْسي. أفيقُ من غَشيتي، ناظراً من حولي إلى كلِّ شيءٍ طافح، في هذه الأثناء، بالحياة والإنسانيَّة العاديَّة، فأرى أنَّ السَّديم، بمعزل عن بقع الأزرق النَّاقص الذي أطالَ المُقَم، قد انقشعَ من السَّهاء تماماً وانسرب، عوضاً عن ذلك، في روحي وفي الأشياء كلُها، وفي جزء الأشياء، ذلك الذي يلمس دوحي، فقدتُ رؤية ما رأيتُهُ. أبصرُ لكنني أعمى. مشاعري تنتمي في هذه اللَّحظة إلى ملكوت المعرفة المُبتذَل. لم تَعُد هذه الحقيقةُ الواقعيَّة: إنَّها الحياةُ، ليس إلَّا.

... نعم، الحياة التي أنتمي إليها والتي تنتمي إليّ؛ ليست الحقيقة الواقعيّة التي تنتمي إلى الله وحدّهُ أو إلى نَفْسِها فلا تحتوي على السِّرِّ ولا على الحقيقة، وتُوجَد، نظراً إلى أنّها حقيقيّةٌ أو تدّعي ذلك، في مكان آخر، في صورة شكل ثابت، متحرِّرة من الحاجة إلى أن تكون زائلةً أو أبديّة، صورةً مُطلقة، الشّكلَ الأمثل لروح تجلّتْ مرئيّةً.

أشقُّ طريقي ببطء (على الرَّغم من أنَّهُ ليسً بالبطء الذي أتخيَّله) عائداً إلى بابي كي أذهب إلى غرفتي مرَّة أخرى. ولكنَّني لا أدخلُ، أتردَّد، ثُمَّ أُواصل. ساحة براسا ذا فيغايْرًا (62%) الحافلة بالآلهة والألوان المختلفة، تعجُّ بالزَّبائن والبشر وتملأُ أُفقي بالباعة المتجوِّلين من كلِّ نوع. تقدَّمتُ بأناةٍ، رجلاً ميِّتاً، ورؤيتي التي لم تَعُد رؤيتي باتَتْ لا شيء في هذه اللَّحظة: إنَّها مجرَّد رؤية ذلك الحيوان الآدميِّ الذي ورثَ من غير قصدٍ الثَّقافة الإغريقيَّة، والنَّظام الرُّومانيَّ، والأخلاقيَّة المسيحيَّة، وجميع الأوهام الأخرى التي تصنع الحضارة التي أعيش فيها وأشعر.

فها الذي سوف يكونُهُ الأحياءُ؟

293

[930]

بتُ مُدركا أنّني دائها ما أفكر وأنصِتُ إلى شيئين في الوقت ذاته. أظن أنّ كلّ امرئ على ذلك النّحو بعض الشّيء. فبعض الانطباعات في غاية الغموض إلى درجة أنّنا لا نعلمُ أنّها كانت لدينا إلّا بعد أن نتذكّرها لاحقاً. أظن أنّ هذه الانطباعات تُشكّلُ جزءاً (الجزءَ الجوّانيّ ربّا) من هذا الانتباه المزدوج الذي نُولِيه للأشياء. ولكنّ الحقيقتين الواقعيّتين اللّتين أحضرُ فيها بكامل انتباهي متساويتان في القَدْر، بالنّسبة إلى حالتي هذه. ففي ذلك تكمن أصالتي، وفي ذلك، ربّا، تكمن ماساتي وملهاةُ مأساتي على حدّ سواء.

أكتبُ برويَّةٍ، مُنكباً على السِّجل الذي أضبطُ فيه بميزانيَّات عموميَّة التَّاريخَ العبثيَّ للتِّركة مجهولة، في حين تتبع أفكاري، في الوقت ذاته وبالانتباه ذاته، مسارَ سفينةٍ مُتخيَّلة

⁽²⁵⁶⁾ ساحة پَارْسَ يِرَاسَا ذَا فِيغَايْرَا Praça da Figueira: وتعني، حرفياً، «ساحة شجرة الثّين»؛ ساحة كبيرة في وسط

تبحر عبر مناظر طبيعيَّة مشرقيَّة لم تُوجَد مِن قَبْلُ بتاتاً. الشَّيئان واضحن بالقَدْر ذاته، أراهما بالقَدْر ذاته: الصَّفحة المُسطَّرة التي أدوِّن فيها بدقّة بالغة أبيات القصيدة التجاريَّة الملحميَّة التي اسمها «فاسْكِش وشركاؤه» وسطح السَّفينة حيث، قليلاً جهة أحد جوانب الأسطر الذي أوجدتها المسافات المُقيَّرة التي بين الألواح، أراقب، باهتمام شديد، صفوف مقاعد الاستلقاء والسِّيقان الممددة لأناس يستجمُّون في الرِّحلة البحريَّة.

حجرة التَّدخين تحجب الرُّؤية، فلا أستطيع أن أرى سوى السِّيقان.

أغمس قلمي في المحبرة، فيظهر غريبٌ من باب حجرة التَّدخين، التي تكاد تكون بجوار المكان الذي أشعر أنَّني أقف فيه، يدير ظهره لي وينطلق كي ينضم إلى الآخرين. يمشي ببطء شديد فلا يُعبِّرُ وَرِكَاه إلَّا عن أقلِّ القليل. إنَّه إنكليزي. فأدوِّنُ حركةً محاسبيَّة أخرى. ولأنَّني كنتُ منهمكاً في النَّظَر، فقد ارتكبتُ غلطة. لا بُدَّ أن أُدوِّن الحركة في الجانب المدين من حساب مَارْكِش لا في الجانب الدَّائن (أستطيع أن أراه، بديناً وودوداً وصاحب نُكتة، ولكنَّ السَّفينة قد اختفتْ في تلك اللَّحظة تماماً).

(لو صدمتني درَّاجةٌ هوائيَّة لأحد الأطفال، لباتَتْ تلك الدَّراجة جزءاً من حكايتي).

(四) 294

[930]

تمضي العربات اليدويَّة وهي تشخر في الشَّارع، الصَّوتُ بطيءٌ وجليٌّ في انسجامه، على ما يبدو، مع النَّعاس الذي ينتابُني. إنَّه وقت الغداء، لكنَّني بقيتُ في المكتب. النَّهار دافئ ومُلبَّدُ قليلاً بالغيوم، بَيْدَ أنَّ الجُلَبَ المنبعثة من الشَّارع تعكس، لسببٍ ما -ربَّها بسبب النُّعاس الذي ينتابُني - أيَّ نوعٍ من النَّهارات هُوَ.

⁽²⁵⁷⁾ هذه الشَّذَرة مكتوبة بقسم رصاص على ظهر ورقة يوجُد عليها نصُّ بالإنگليزيَّة، رقنه بِسُوّا على الآلة الكاتبة، يتحدَّث بالتُوصيف عن قصَّة بوليسيَّة من تأليفه، بطلها تُحقِّق صينيُّ. (المُترجم)

[\$1930]

يَعِنُّ لِي الأمر، أحياناً، أنَّني لن أغادر خُوا دُش دُوْرَادُوْرِش أبداً. فيا إِنْ كتبتُ هذا، حتَّى بدتْ كأنَّها أبديَّةً.

لالذَّةَ، ولا مجدَ، ولا قوَّة: حرِّيَّةٌ فحسب، حرِّيَّة فحسبُ.

وليس الانتقالُ من أوهام الإيهان إلى أطياف المنطق إلّا مجرَّدَ تغيير الزِّنزانة. وفي حين يحرِّرنا الفنُّ من الأصنام المُجرَّدة للأزمنة الأولى، فإنَّه يُحرِّرنا أيضاً من الأفكار الجزلة والشَّواغل الاجتماعيَّة التي هي أصنامٌ أيضاً.

لا يجد المرُّ شخصيَّته إلَّا بِفَقْدِهَا - الإيهانُ ذاتُه يُقِرُّ هذا الشُّعور بالقدَر.

296

[930]

يبدولي أنّ الأدب، الذي يعني اقتران الفنّ بالفكر والإدراكُ غير المُدّنس للحقيقة الواقعيّة، هو الهدفُ الذي لا بُدّ أن تبذل البشريّةُ جمعاء جهودها من أجل تحقيقه، طالما ذلك الجهد إنسانيٌّ حق وليس مجرَّد أثر للحيوان الذي فينا. أعتقدُ أنّ قولَ أيّ شيءٍ هُوَ المحافظةُ على فضيلة ذلك الشّيء وإزالةُ أيّ خوف قد يُثيره، فالحقولُ، حين تُوصَف، تغدو أكثر اخضراراً من أنفُسِها الخضراء المحضة. فإذا أراد المرء أن يصف الأزهار بالكلمات التي تُعرِّفها في هواء المُخيِّلة، فلا بُدّ أن تكون لها ألوان تدوم أكثرَ من أيّ شيء تُدبّرُ حياتَهُ الحياةُ الخلويَّة المُجرَّدة. أنْ تتحمَّل، فلا شيء واقعياً في المن تتحمَّل، فلا شيء واقعياً في

⁽²⁵⁸⁾ وهُنا، مثال آخر واضح، على «نعدُد» الرؤية «التّحريريّة» لكتاب القبق من طرف الذين عكفوا على فكّ شفرة شدراته طويلاً؛ فهذه الشّذرات، على سبيل المشل، نجدها منشورة، في طبعة برادو كويلو، في ثلاثة مقاطع متفرّقة شدراته طويلاً؛ فهذه الشّذرات، على سبيل المشل، نجدها منشورة، في المبعات الرّئيسة الأخرى. وهي في الأصل مكتوبة على (المقاطع: 35، 90، 503)، في حين نُشرِت مقطعاً واحداً في الطبعات الرّئيسة الأخرى. وهي في الأصل مكتوبة على ظهر رسالة تجاريَّة موجَّهة إلى مدير البنث الوطني لما وراء البحار. (المترجم)

الحياة لا يغدو أكثر واقعيَّة حين يُوصف على نحو جيل. فغالباً ما يُشير النَّقاد ضيَّقو الأفق إلى أنَّ القصيدة الفُلانيَّة، بكلِّ إيقاعاتها الزَّاخرة، لا تقول شيئاً أكثر عُمقاً مِن: إنَّه يوم رائع. ولكنْ، ليس من السَّهل أن نقول إنَّه يوم رائع، فينقضي اليوم الرَّائع نَفْسُه، واجبنا، حينئذ، أن نحفظ ذلك اليوم الرَّائع في ذاكرة مُورِقة، لا نهائيَّة، ونُكلِّل حقولَ العالم الخارجي، الفارغ، الزَّائل -وسهاواتِه- بالأزهار الجديدة والنُّجوم الجديدة.

كلَّ شي يعتمد على ما نحن عليه، وسيدرك أولئك الذين سيأتون بعدنا العالم، مع تغير الوقت، معوَّلين على مدى الشَّدَة التي تخيَّلناهُ بها، أقصدُ مدى الشِّدة التي كُنَّا فيها العالمَ حقاً – نحنُ الذين تجسَّدت تُخيَّلتُنا فِينَا، فكنا الجسدَ والمخيِّلة في نَفْس واحدة. لا أومنُ بأنَّ التَّاريخ، ومَشهديَّته العريضة العظيمة الباهتة، أكثرَ من تدفُّقِ تأويلاتٍ متواصل، وإجماعٍ التَّاريخ، ومَشهديَّته العريضة العظيمة الباهتة، أكثرَ من تدفُّقِ تأويلاتٍ متواصل، وإجماعٍ مشوَّش لشهود عَيانِ شاردي الذِّهن. كُلُّنا روائيُّون، نروي ما نراه، فالرُّؤية، مثل أي شيء آخر، ماهيَّةٌ مُعقَّدة.

تنتابني في هذه اللَّحظة أفكارٌ جوهريَّةٌ كثيرة جداً، كثيرٌ من الأشياء الغيبيَّة الحَقَّة التي أودُّ قولَها، إلى درجة أنَّني أشعر بالتَّعب فجأة، فأقرِّرُ ألَّا أكتب بَعْدُ، ألَّا أُفكِّر بَعْدُ، بل أتركُ حُمَّى القَوْل تُهدهدني للنَّوم، في حين أُربِّتُ، بعينَيْن مُغمضتَيْن، على جميع الأشياء التي قد قلتُها، مثلها أُربِّتُ على قطَّة.

297

[91930]

في إحدى فترات الأرق تلك التي نُسلِّي فيها أنْفُسنا بفطنة كافية دونَ اللَّجوء إلى فطنتنا، أُعيدُ قراءة بعض الصَّفحات التي حين تُوضَع سويَّة ستُكوِّن كتاب انطباعاتي العشوائيَّة، ثُمَّ ينبعث منها، مثل رائحة مألوفة، إحساسٌ عقيم بالزَّتابة. أشعرُ أنَّني أستخدم دائها الكلمات ذاتها، حين أصف حالاتي المزاجيَّة المختلفة كلَّها؛ أشعر أنَّني أُشبه نَفْسي أكثر عمَّا قد أظنُّ؛ أَنَّني، حين تُدوَّن الحسابات الحتاميَّة، لن أذوق فرحة الفوز ولا إثارة الحسارة. فأنا غيابُ التوازن، لاتِّزانٍ لا إراديُّ يعذَّبني ويُوهِنني (25%).

٢٥٥٥١ مُولِدُ أَنْ مُ رحساب ختامه /ميزانيَّة ختاميَّة، حيث كفتا المدين والدَّانن، لنفسه الحَقَّة، غير متوازنتُين؛ والتَّوازُن

كلُّ شيء أكتبُه رماديٌّ. كأنَّ حياتي، حتَّى حياتي العقليَّة، نهارٌ رذَّتْ فيه السَّماءُ فكان كلُّ شيءٍ طيفاً لا حوادثَ فيه، امتيازاً فارغاً وسبباً منسياً. أنوحُ في مُجمعة مُهشَّمةٍ. لا أعرف

نَفْسي في هذا الضُّوء وهذا السَّأم.

وليست محاولتي المتواضعة إلا كي أقول من أنا، كي أُدوِّن، مثل آلةٍ تشعرُ، أدقَّ تفاصيل حياتي النَّزِقة، المغرفة في ذاتيَّتها. ولقد أُفرِغَ ذلك كلَّه مِنِي كأنَّهُ دلوٌ قُلِبَ فغمرَ الأرض مثل ماءٍ عَاماً. ولقد رسمت نَفْسي بألوان باطلة، فانتهيتُ في عُلِيَّةٍ شُيِّدت لتكون إمبراطوريَّة. اليومَ، وأنا أُعيد قراءة ما كتبتُه على هذه الصَّفحات البعيدة بروح مختلفة، يلوح قلبي الذي نشلتُ منه الحوادث العظيمة للنَّر الذي عِشتُهُ، مثل مضخَّة في حديقة ريفيَّة، نُصِبَتْ بالفطرة فراحتْ تعمل بحكم الواجب المفروض عليها. ولقد تحطَّمتُ تحت ساء غير عاصفة في بحر ضحل بها يكفي كي أنهض فيه على قدميً.

ثُمَّ أسألٌ ما تبقَّى من وعيي، في هذه المتوالية المشوَّشة من الفواصل الزَّمنية بين الأشياء التي هي غير موجودة أصلاً: ما الجدوى المحتملة التي كنت سأجنيها حين مَلاَّتُ تلك الصَّفحات الكثيرة بكلمات لا أومن بأنَّها كلماتي، بعواطف شعرت أنَّني قد فكَّرتُ فيها، بأعلام جيوش ورايات ليست في نهاية المطاف إلَّا مجرَّد قُصاصات تلصقُها ببصاقها على الأفارية الشَّحَادُ؟

أَخَاطُبُ مَا تَبَقَّى مَنِّي فَأَسَأَلُ مَا جَدُوى تَلْكُ الصَّفَحَاتِ الْعَبِثَيَّةِ الْتِي قُدِّرَ لَهَا أَن تُلقَى في كومة النَّفية، وأن تبلى مفقودة حتَّى قبل أن تخرج إلى الوجود بين صحائف القَدَر المُمزَّقة. أسألُ ثُمَّ أُواصل. أَدوِّن السُّؤال، أُغشِّيه بِجُمل جديدة، ثُمَّ أكشف عنه ليكوِّن مشاعر جديدة. ولسوف أعود، غداً، إلى كتابي السَّخيف، كي أُدوِّن، بمشاعر باردة، مزيداً من الأفكار عن افتقاري إلى البقين.

فَلْتَنْثَل، مثلها هي. وحين تُلعَب الذُّومينو الأخيرة، فتُكسَب اللَّعبةُ أو تُحْسَر، تُقلَبُ القطع كلُّها فتنتهي اللَّعبة في الظَّلام.

اللَّاإِراديُّ (تساوي كفتي الدَّاش/الفوز، والمدين/الخسارة) الذي يشعر به داخل نفسه، هو توازن غير حقيقيَّ، ولهدا يتعذَّب. (المترجم).

أُدوِّنُ يوماً بعد آخر في روحي العميقة الوضيعة الانطباعاتِ التي تُشكِّل الجوهر الخارجي لوعيي بِنَفْسي. أصوغها بكلمات ضالَّة لا أكادُ أكتبها حتَّى تهجرني فتطوف، مستقلَّة بذواتها، تلال الصُّور ومروجها، وعلى امتداد جادًات مرصوفة بالأوهام وأزقَّة الارتباكات. لا جدوى من هذا كله، فلا جدوى من أيَّ شيء. ولكنَّ السَّكينة تغمرني حين أكتب، على الشَّاكلة التي يتنفَّسُ فيها العليلُ بسهولة أكثرَ مع أنَّه لم يبرأ من سقَمه بَعْدُ.

يُخربشُ بعض النَّاس، حين تشردُ أذها أنهم، بعض الأسطر والأساء العبثيّة على سجلً اليوميّة المساعدة، المُسجّى فوق مكاتبهم، بصفحاته المطويّة من أطرافها. وليست هذه الصّفحات إلّا الخربشات العابثة لوعبي الفكريّ بِنَفْسي. أخطُّها ومشاعري في سُباتٍ، مثل قطًّ في الشّمس، فأعيد قراءتها بين حين وآخر بلوعةٍ كئيبة متأخّرة، كأنّني أتذكّر شيئاً قد نسيتُه في السّابق دوماً.

الكتابة تشبهُ أَنْ أَزُورَ نَفْسي زيارةً رسميَّة. لديَّ حجراتٌ خاصَّة، تذكَّرَها في برازخ المخيِّلة شخصٌ آخر، حيث أُمتِّعُ نَفْسي في تحليل ما لا أشعر به، مسترقاً النَّظر إلى نَفْسي، كأنَّني أسترقُ النَّظر إلى لوحة مُعلَّقة في الظِّلال.

فقدتُ قلعتي القديمة حتَّى قبل أن أُولَد. وبِيغَتِ السَّجاجيدُ الجداريَّة المُزخرفة الموجودة في قصر أسلافي قبل حتَّى أن أظهرَ إلى الوجود. وقصري، الذي شُيِّد قبل أن أعيشَ، قد تهدَّم أطلالاً، وليسَ إلَّا في أوقات معيَّنة، حين يصعدُ القمر فِيَّ فوقَ القصب، أشعر ببردِ الحنين المنبثق من ذلك المكان حيث تنتصبُ البقايا الهَتْاءُ للجدران مُظلَّلةً سوداءَ على صفحة السَّاء التي تشحبُ زرقتُها الدَّاكنة، شيئاً فشيئاً، حتَّى تغدو صفراءَ حليبيَّةً.

أُقسِّم نَفْسي، كأبي الهول. وشلَّةُ خيوطِ روحي المنسيَّةُ تسقطُ من حُضن الملكة التي افتقدها، كمشهد مُستلِّ من سجَّادتها الجداريَّة العقيمة. تتدحرجُ أسفل الصَّندوق المُرصَّع، فيتبعها شيءٌ من نَفْسي، كما لوكان ذلك الشَّيء عينيَّ، حتَّى ضاعت الشَّلَةُ وسط رُعب عميمٍ لقبور ونهايات.

[91930]

وليست كلُّ إثارة في حساسيتنا، مهما كانت ممتعة، إلَّا مجرَّد تأويل لحالة أخرى، لا أعرف ما تكونُ بتاتاً، ولكنَّها تُشكِّل الحياة الجوَّائيَّة لتلك الحساسية ذاتها. ليستْ حالات القلَق الرَّئيسة هي التي تُشتَّتُنا عن أنْفُسنا، وإنَّها حالات الضِّيق البسيطة التي تستطيع تكديرَ راحةِ البال التي نصبو إليها جميعاً، من غير قَصْدِ.

نكادُ نعيش خارجَ أَنْفُسنا تماماً، والحياةُ في حدِّ ذاتها تشتُّتُ أبديٌّ. لكنَّنا نرتدُّ إلى أَنْفُسنا، رغم ذلك، كما لو كُنَّا نرتدُّ إلى مركزٍ ندورُ مِن حوله، كالكواكب، نقتفي أثر أشياء إهْلِيلَجيَّة عبثيَّة بعيدة.

300

[\$1930]

أفترضُ أنّني ما يُسمّيه النّاس مُنحطاً (200)، شخصٌ تُعرِّفُ روحه في الظّاهر تلك الومضاتُ الحزينة لغرابةِ أطوار باطلة تُضفي تعبيراً غير متوقّع على روح بارعة ولكنّها مُتلهّفة. هكذا أشعرُ بِنَفْسي، على الأقلِّ، فأجدها عبثيّة. ولهذا أبحثُ في محاكاة كلاسيكيّة مُفترضة عن رياضيّات تعبيريَّة أصف بها الأحاسيس المبهرجة لروحي المُزيَّفة. ثمّة نقطةٌ، حين أُدوِّنُ أفكاري، أفقدُ فيها دائها مسارَ تركيز انتباهي - سواء أكانت الأحاسيس المُتباينة التي أحاول وصفها كها لو كانت سجاجيد جداريّة مزخرفة وغير مألوفة، أم الكلهات التي أعلتُ في خضمها حين أحاول وصف وَصْفِي نَفْسِه، فأُضيّعُ طريقي وأرى أشياء أُخرى. تخطر ببالي أفكار أُخرى وصُور وكلهات -واضحة ومُستفيضةٌ على حدِّ سواء - فأقول ما أشعر به وما أغيّلُ أنّني أشعر به على حدٍّ سواء، ولا أستطيع التّمييزَ بين ما تُخبرني به روحي وبين تلك الصُّور التي آميزَ بين ما تُخبرني به روحي وبين تلك الصُّور التي آميزَ ايضاً، إنْ كان صوتُ كلمة بربريَّة أو إيقاع عبارة مُقحَمة هُو بُجُرَّد تشتُّتِ استطيع التّمييزَ، أيضاً، إنْ كان صوتُ كلمة بربريَّة أو إيقاع عبارة مُقحَمة هُو بُجُرَّد تشتُّتِ نابع من موضوعي الضَّبابيِّ أو من إحساس مهجور سلفاً، فأحرَّرُ نَفْسي هكذا من التَفكير نابع من موضوعي الضَّبابيِّ أو من إحساس مهجور سلفاً، فأحرَّرُ نَفْسي هكذا من التَفكير نابع من موضوعي الضَّبابيِّ أو من إحساس مهجور سلفاً، فأحرَّرُ نَفْسي هكذا من التَفكير نابع من موضوعي الضَّبابيِّ أو من إحساس مهجور سلفاً، فأحرَّرُ نَفْسي هكذا من التَفكير

⁽²⁶⁰⁾ المُنحطُّ، هُنَا، يمعني decadent الذي سبق الإضارة إليه. (المترجم)

والقول، كما لو كانت هذه الأشياء رحلات بحريّة طويلة هدفت إلى تشتيت الانتباه. ولا بُدّ لهذا كلّه، حتّى وأنا أُردِّه، أن يغمرني بإحساس بالعُقم والإخفاق والمعاناة، بدلاً من أن يمنحني أجنحة من ذهب. فكلّما تكلّمتُ عن الصَّور -ربّما حتّى لشجب الإفراط في استخدامها - تُولَد صورٌ أخرى في على الفور؛ وكلّما واجهتُ نَشْيي -مُنكراً ما أشعرُ به في الحقيقة - أشعرُ على الفور بتلك المشاعر، ويغدو إنكاري شعوراً آخرَ مُوشَى على نحو باذخ؛ وكلّما رغبتُ، بكلّ بساطة، في أن أترك عقلي يطوف حُراً -بعد أن فقدتُ الإيمان بجهودي كلّها - تكشفُ صِيغةٌ تعبريّة بسيطة ورصينة، وصِنفةٌ حسيّة وواقعيّة، أمامَ ناظريّ بجهودي كلّها - تكشفُ صِيغةٌ تعبريّة بسيطة ورصينة، وصِنفةٌ حسيّة وواقعيّة، أمامَ ناظريّ مثل شعاع شمس ساطع، الصّفحة التي كتبتُها وقد أخذني النّعاس، فتغدو الحروف التي مثل شعاع شمس ساطع، الصّفحة التي كتبتُها وقد أخذني النّعاس، فتغدو الحروف التي خطّها قلمي خريطةٌ عبثيّة للافتات سحريّة. وضعتُ نَفْسي وقلمي، ثُمَّ ملتُ إلى الخلف مُدثَّراً نَفْسي برداء التّنافُر، بعيداً، متوسّطاً وخاملاً، كضحيّة سفينة تحطّمت يغرقُ في مرمى الجور من الجُزُر البديعة القائمة في البحار الذهبيّة -الأرجوانيّة ذاتها التي حلمتُ بها حقاً البصر من الجُزُر البديعة القائمة في البحار الذهبيّة -الأرجوانيّة ذاتها التي حلمتُ بها حقاً دات مرّة في سرير يبدو الآن بعيداً.

301

[\$1930]

ثمَّة التَّبَحُّرُ في المعرفة، وهو ما نقصد به «سِعة الاطِّلاع» عادةً، وثمَّة التَّبَحُّر في الفهم، وهو ما نُسمِّيه «الثَّقافة». ولكن ثمَّة، أيضاً، التَّبَحُّرُ في الحساسية.

وهذا ليس له علاقة بتجربة المرء الحياتيَّة. فالتَّجربة الحياتيَّة، على شاكلة التَّاريخ، لا تعلِّمُنا شيئاً البَّة. فالتَّجاربُ الحقَّة تنطوي على تقليص المرء اتَّصالَهُ بالحقيقة الواقعيَّة في حين يعمل في الوقت ذاته على تكثيف تحليله لذلك التَّواصُل. ويمكن لحساسية المرء أن تتوسَّع وتتعمَّق، بتلك الطَّريقة، ولاسيَّا أنَّ كلَّ شيء يكمن داخلنا على أيِّ حال؛ يكفينا أن نبحث عن الشَّيء وأن نعرف كيف نبحث.

ما التَّرحال وما جدواه؟ إنَّ غروبَ شمس يُشبه الغروب الآخَر كثيراً؛ ولا يتوجَّب عليك أن تذهب إلى القسطنطينيَّة كي ترى الشَّمس تغربُ. وماذا عن الإحساس بالحُرِّية التي يجلبها التَّرحال؟ أستطيع التَّمتُّع بذلك لمجرَّد الذَّهاب من لشبونة إلى بَيفِيكا، وأستطيع

الشَّعور بالحرِّيَّة أَشدَّ مَّا يشعر بها شخصٌ يسافر من لشبونة إلى الصِّين، فإنْ لم يكُنِ الإحساسُ بالحرِّيَّة في داخلي، فَلَنْ يكون في أيِّ مكانِ آخر. لقد قال كار لايل (افق): «إنَّ أيَّ طزيق، حتَّى هذه الطَّريق البسيطة إلى إنْتِبْفُول، سوف تقودك إلى نهاية العالم». ولكنَّ الطَّريق إلى إنْتِبْفُول سوف تقود، إذا قُطِعَتْ حتَّى النَّهاية، إلى إنْتِبْفُول ثانية، الأمر الذي يعني أنَّ إنْتِبْفُول، حيث بدأنا، هي «نهاية العالم»؛ تلك التي شرعنا في البحث عنها منذ البداية.

وبدأ كُوندياك (262) كتابَهُ الذَّائع الصِّيت بهذه الكليات: «مهيا صعدنا عالياً، ومهيا هبطنا إلى الحضيض، فلن نستطيع الهرب من مشاعر نا (263) أبداً». لن نستطيع التَّرَجُّل (263) من أَنفُسنا البَّة، ولن نستطيع أن نكون شخصاً آخر البَّة، إلا حين نُتيح لأنفُسنا بأن تكون شخصاً آخر، بالتَّطبيق الحسَّاس لمخيِّلاتنا على أنفُسنا. فالمناظر الطَّبيعيَّة الحَقَّة هي تلك التي نخلقها بأنفُسنا، لأنّنا نراها -بوصفنا من خلقها - كيا هي في الحقيقة، أقصدُ، كيا خُلِقَتْ تماماً. لست مُهتهاً بأن أرى حقاً أيَّ منطقة من مناطق العالمَ السَّبع، ولا أستطيعُ؛ أسافرُ في المنطقة الثَّامنة التي هي منطقتي.

التي هي منطقتي. ليس الشَّخص الذي أبحر في كلِّ بحر إلَّا مُجرَّد شخص أبحرَ في ردّبة نَفْسه. ولقد أبحرتُ

ليس السخص الدي ابحر في دل بحر إلا جرد سخص ابحر في رفايه نفسه. ولفد ابحرت في بحار أكثر من تلك التي تضمُّها الأرضُ. وعبرتُ مُدُناً أكثر من تلك التي تضمُّها الأرضُ. وعبرتُ مُدُناً أكثر من تلك التي تضمُّها الأرضُ. وعبرتُ مُدُناً أكثر من تلك التي وُجدَّتُ أبداً، ولقد تدفَّقت الأنهار العظيمة لعوالم مستحيلة، صافيةً، تُحتَ تحديقتي المتأمِّلة. فإذا رغبتُ في السَّفر، فسوف أختارُ صورةً باهتة عمَّا قد رأيتُهُ دون

سَقَرٍ.

⁽²⁶¹⁾ هو توماس كار لايل Carlyle، الكاتب والمؤرِّخ الأسكتيندي الدي عاش في العصر الفيكتوري. والعبارة مستلة من عمله «Sartor Resartus». أمَّا إِنْيَنِفُول Entepfuhl فهي قرية المائيّة، وتعني حرفياً: بركة البطّ. (المترجم)

⁽²⁶²⁾ هو الفرنسيُّ إتين كوندياك Condillac، أحد فلاسفة عصر التَّنوير. (المترجم)

⁽²⁶³⁾ يذكر زينيث في حاشيت على هذه الشَّلرة أنَّ كونديك لم يفتتح كتابه ((263) يذكر زينيث في حاشيت على هذه الشَّلرة أنَّ كونديك لم يفتتح كتابه ((السَّائية البشريّة) بعبارة (الن نستطيع لهرب من مشاعرنا) وحسب ما يلكر يشوّا وإثما بعبارة ((لن نستطيع الهرب من أنفسنا)) وهي العبارة ذاتها التي يذكرها يسُّوّا في الجملة التي تليه، ويذكر ، أيصاً ، بأنْ يسُوّ قد هضم عدّة أفكار في فكرة واحدة، دون أن يخون الأفكار الأساسيّة لهذا العبلسوف الفرنسيّ. (انظر الحاشية 138 من طبعة زينيث). (المترجم)

⁽²⁶⁴⁾ الكلمة التي يستخدمها بشؤا، هُنّا، هي «desembarcamos» (وفي صنعة حول كوستا: disembark): يترجُّل/ يمرل/يهبط، وليس «يهرب» بحسب العبارة الأصليَّة -كما هي عند كوندياك وفق ما ذكر زينيث في الحسبة أعلاه. (المترجم)

وحين يزور المسافرون الآخرون بلاداً، فإنهم يقومون بذلك كأنهم حُجَّاج مجهولون. ولكنَّني لم أكُن، في البلاد التي زرتها، المُتعة السِّريَّة التي ذاقَها المسافر المجهول فحسب، وإنَّما جلالة الملك الذي يحكم هُنَاك، ولقد كنتُ الشَّعبَ الذي يعيش هُنَاك وأعرافهم، وتاريخَ تلك الأُمَّة والأممَ الأخرى على حدِّ سواء، رأيتُ المناظر الطَّبيعيَّة تلك، وتلك البيوت، لأنَّني كُنْتُهَا، مخلوقة من جوهر مخيِّلتي.

الزُّهد هُوَ الْحُرِّيَّة. وعدم الرَّغبة هُوَ القُوَّة.

فها الذي تستطيع الصِّينُ أن تمنحني إيَّاهُ لَمْ تمنحني إيَّاهُ روحيَ من قَبْلُ؟ وإنْ لم تستطع روحي أن تمنحني ذلك، فكيف تستطيعُ الصِّين، وهل كنتُ سأرى الصِّين أبداً، لو لم أكُن أراها بروحي؟ أستطيع الذَّهاب بحثاً عن الكنوز في الشَّرق، ولكن ليس بحثاً عن كنوز الرُّوح، فأنا كنوز روحي، وأنا حيثُ أنا، سواءٌ مع الشَّرق أو دونه.

أستطيع أن أفهم البشر العاجزين عن الشَّعور كيف يكون السَّفر. ولهذا تفتقر كُتيِّباتُ السَّفر دائياً إلى أن تكون كُتيِّبات تجارب [حقيقيَّة]، فهي لا تكون جيَّدة إلَّا بمقدار ما تكون كذلك مخيِّلةُ الشَّخص الذي يكتبها. فإذا امتلك الشَّخص مخيَّلةُ [خصبة] فإنَّه يستطيع امتاعَنا بوصف فو تو غرافي مُفصَّل للرَّايات والمناظر الطَّبيعيَّة بمقدار ما يُمتعنا بالوصف الذي لا بُدَّ أَنَّه أقلُ تفصيلاً للمناظر الطَّبيعيَّة التي تخيَّل أنَّه قد رآها فحسب. نحن حسيرو البصر جميعاً، إلاّ حين نظر داخل أنْفُسنا، فلا نرى حقاً إلا في الأحلام.

ولا تستطيع أن تمنحنا التَّجربة التي خُضناها في العالَم إلَّا شيئين اثنين، ليس إلَّا: الكونيَّ والشَّخصيَّ. فوصف الكونيِّ يعني وصفَ المُشترَكِ بين كلِّ روح بشريَّة، والمُشترَكِ بين كلِّ تجربة بشريَّة - السَّماءِ الشَّاسعة والأيَّام واللَّيالي التي تنبلجُ منها وتُوجَد فيها؛ الأنهارِ الجارية - التي تجري بالماء البارد ذاته الذي لا يُشبه الرَّاهبات (255)؛ البحارِ والجبال العظيمة المتهاوجة، التي تصونُ جلالَ عُلُّوها العظيم في سرِّ أعاقها؛ والحقولِ، والفصول، والسَّاعات، والوجوه، والإيهاءات، والثَّيابِ والابتسامات؛ والحُبِّ والحرب؛ والآلهةِ، الفانية والأبديَّة، واللَّيلِ الذي لا شكلَ لَهُ، أُمَّ أصلِ العالَم؛ والقدرِ، الوحشِ الفكريُّ الذي هُوَ كلُّ شيء...

⁽²⁶⁵⁾ يستحدم يِسُوّا، هُنَا، لفطة sororal (وفي صنعة جول كوستا nunlike؛ وفي صنعة زينيث nunnish)، وهي كلمة تشير في البرتغالبَّة إلى ما يتعلَّق بالأُخت/الرَّ هبة. (المترجم)

وحين تصف روحي هذا، أو أيَّ شيء كونيٍّ، فإنها تنطقُ بلغة إلهيّة بدائيَّة؛ اللَّغةِ الآدميّة التي يفهمها البشر جميعاً. ولكنّني بأيِّ لغة بابليّة مُتشظّبة سوف أنطقُ حين أصف «إلْقَلُوْر دُو سَانْنَا جُوشْنَا» (200 مع الشَّاكلة التي ينطقُ بها البرتغاليُّون عبارة «ثرَاجُش مُوْنَيْش» (200 وهذه الأشياء حوادث ظاهريَّة يُمكن تجربتها بالمشي لا بالشّعور. فالكونيُ بشأن «إلْفَلُوْر دُو سَانْتَا جُوشْنَا» كامنٌ في المعرفة الميكانيكيّة (200 بالمشي لا بالشّعور. فالكونيُ بشأن «إلْفَلُوْر دُو سَانْتَا جُوشْنَا» كامنٌ في المعرفة الميكانيكيّة (200 بالمشي لا بالشّعور. فالكونيُ بشأن «إلْفَلُوْر دُو سَانْتَا جُوشْنَا» كامنٌ في المعرفة الميكانيكيّة (200 بالمشروب الملكونية غانس في الكاتدرائيّة ولا في غانس، وإنَّما في الجلالة المُقدَّسة للمباني المُكرَّسة لمعرفة أعماق الرُّوح الإنسانيَّة. وما هُو أبديُّ بشأن تلك السّراويل الزَّوَافِيَّة كامنٌ في خيالِ النِّياب المُلوَّن، في لغة بشريَّة تمنح صوتاً لبساطة اجتماعيَّة هي، بطريقتها الخاصَّة، عُريٌ جديد. وما هو كونيٌّ بشأن اللَّكنات المحليَّة كامن في الجماعيَّة هي، بطريقتها الخاصَّة، عُريٌ جديد. وما هو كونيٌّ بشأن اللَّكنات المحليَّة كامن في الجَماعيَّة هي، بطريقتها الخاصَّة، عُريٌ جديد. وما هو كونيٌّ بشأن اللَّكنات المحليَّة كامن في الجَماعيَّة عير المُتكلِّف، لأصوات البشر الذين يعيشون بعفويَّة، وفي التَّنوُع داخل المُؤرس البسيط، غير المُتكلِّف، لأصوات البشر الذين يعيشون بعفويَّة، وفي التَّنوُع داخل عموعات الأفراد، وفي أُبَّهةِ العادات المُتعدِّدة الألوان، والاختلافاتِ بين النَّاس، والتَنوُع داخل المُثل بين الأمم.

نحنُ مسافرون أبديُّونَ في أَنْفُسِنا، والمنظر الطَّبيعيُّ الوحيد الذي يُوجَدهُوَ ما نحنُ عليه. لا نملكُ شيئاً، لأنَّنا لا نملكُ حتَّى أَنْفُسنا. ولا شيءَ لدينا، لأنَّنا لا شيء. وأيُّ يدَيْن سأمدُّهما وإلى أيِّ كَوْنِ؟ فالكونُ ليس كَوْنِي: إنَّهُ أنا.

302

[91930]

بطيئاً في ضوء قمر اللَّيل البطيء، تهزُّ الرِّيحُ في الخارج الأشياءَ التي تطرحُ ظلالاً حين تتحرَّك. قد لا يكون ذلك إلَّا الثِّياب المنشورة كي تجفَّ في الطابق الذي فوق شقَّتي، ولكنَّ

⁽²⁶⁶⁾ اِلْقُدُورَ دُو سَائَنَا جُوْشُنا Elevador de Santa Justa (– مصعد القدَّيسة بُحوسَتا)؛ مصعد يربط منتصف لشمونة بمناطقها العُليا. (المترجم)

⁽²⁶⁷⁾ يقصد كاتدر اثيَّة نوتر دام التي تعرف بهدا الاسم. (المُترجم)

⁽²⁶⁸⁾ نسبة إلى الشراويل الفضفاضة التي كال يرتديها أفراد الكتيبة التي أنشأها الفرنسيُّون في الجز ثر. (المترجم)

⁽²⁶⁹⁾ Trás-os-Montes: وتعني حرفياً: وراه الجبال؛ وهُنَا يقصد بِشُوّا اللَّكنة التي تُلفظ فيها البرتغاليَّة في هذا الإقليم الواقع في شمالي شرق البرتغال، والتي تعرف بالبرتغاليَّة القشتاليَّة. (المترجم)

⁽²⁷⁰⁾ إشارة إلى طبيعة هذا المصعد الميكانيكي الذي يربط أطراف لشبونة بعضها ببعض. (المترجم)

الظِّلَّ نَفْسه لا يعرفُ شيئاً عن القمصان، فيطفو، غيرَ ملموسٍ، في تناغم أخرس مع كلِّ شيء حولَةً.

تركتُ مصراعَي النَّافذة مفتو حَبُن، حتَّى أستطيع الاستيقاظ مُبكِّراً، ولكنَّني لم أتمكَّن من النَّهاب إلى النَّوم أو البقاء مستيقظاً كما ينبغي، لغاية هذه اللَّحظة، والوقتُ قد تأخَّر كثيراً في هذه اللَّحظة حتَّى لا نَأْمَة تُسمَع، وأبعدَ من الظَّلال في غرفتي يتمدَّدُ ضوء القمر ولكنَّه لا يدخل نافذتي. إنَّه هُنَاكُ فحسب، مثل يوم من فضَّة جوفاء، وأسطحُ البناية المقابلة، التي أستطيع رؤيتها من سريري، مائعةٌ ببياض حِبريِّ. ثمَّة سكينةٌ حزينة في ضوء القمر الغزير، شيءٌ يُشبه كلمات تهنئة أُلقِيَتْ على شخص من مكان مرتفع فعجز عن سماعها.

ودونها نَظَرٍ، ودونها تفكير، تُغمضُ عيناي في هذه اللَّحظة جفونها على نوم غائب، فأتأمَّلُ أيَّ كلهات تكون الأفضل لوصف ضوء القمر. كان القدماء يقولون إنَّ القمر أبيضُ أو فضِّيُّ. ولكنَّ بياضَ القمر الباطلَ كثيرُ الألوان. فلو نهضتُ من سريري، ونظرتُ عبر زجاج نافذي البارد، لعرفتُ أنَّ ضوء القمر قد يكون في الهواء الوحيد، في الأعلي، أبيضَ ضارباً إلى الرَّماديِّ تعتريه مسحة مُزرَّقةٌ من أصفر باهت؛ وأنَّه، فوقَ الأسطح المختلفة، التي تُجلِّلها درجاتُ مختلفةٌ من الظلمة، يطلي البنايات الخاضعة في هذه اللَّحظة بأبيضَ داكن، ويغمر في هذه اللَّحظة الأحرَ الكستنائيَّ لقرميد السُّطوح بلونِ شفيف. وفي الأسفل، في ويغمر في هذه اللَّحظة الأحرَ الكستنائيَّ لقرميد السُّطوح بلونِ شفيف. وفي الأسفل، في الرقية الشارع الهادئة، فوقَ الاستدارات غير المنتظمة للحصى العاري، فإنَّ لونَهُ الوحيد أزرقُ ينبعثُ ربَّها من رماديِّ الحجارة أنْفُسِها. ولسوف يكونُ أزرقَ داكناً فوق الأفق البعيد أو يكادُ، ولكنَّه مختلف تماماً عن الأعهاق الزَّرقاء الدَّاكنة التي للسَّهاء، وعن الأصفر الدَّاكن حيث يلمسُ زجاج النَّافذة.

لو فتحتُ، مِن هُنَا، من سريري، عيني الطَّافحتين بنوم لم ألتذَّ بهِ بَعْدُ، لكان الهواءُ مثل ثلج قد صارَ لوناً تعوم فيه شُعيراتٌ من عِرق لُؤلؤ دافئ، وإذاً فكَّرتُ في ضوء القمر بمشاعري، لكان سأماً قد صارَ ظلَّا أبيض يَعْمقُ على مهله كأنَّ عينيَّ تُعْمضان جفنيها، رويداً رويداً، على بياضها الغامض.

[8 يناير 1931]

لم أكتب شيئاً منذ أمدٍ بعيد. مرَّت شهور كاملة لم أعش فيها، ولكنَّني تجمَّلتُ بالصَّبر فحسب، عالقاً بين المكتب والفيسيولوجيا، وحالةٌ من الرُّكود الجُوَّانيِّ تنتاب تفكيري ومشاعري. وهذه -للأسف- ليست حالة مريحة، فلا بُدَّ أن ينطوي العَفَنُ على التَّخمير. وليس أنَّني لم أكتُب أيَّ شيء منذ أمدٍ بعيدٍ فحسب، وإنها لم أكن على قيد الوُجودِ أيضاً. ولستُ متأكِّداً إن كنتُ أحلمُ. فالشَّوارع مجرَّد شوارع بالنِّسبة إليَّ. أُنجز عملي في المكتب، وذهني مُنكَّبٌ على ذلك تماماً، على الرَّغم من أنَّ ذهني باتَ يشردُ أحياناً، دون أن أكون في حالةٍ من التَّامُّل، وإنَّها نائمٌ، لكنَّني دونَ عملي مازلتُ شخصاً آخر.

لم أُوجَد منذ أمد بعيد. أشعر بالسّكينة تغشاني تماماً. لا أحد غيري يستطيع معرفة الفرق بين «الآنوات» (٢٥٠). أشعر نَفْسي تتنفّس في هذه اللّحظة كما لو كنتُ أتدرّب في الآونة الأخيرة على مهارة جديدة. بدأتُ أعي أنّني واع. ربّها أستيقظ غداً على نَفْسي فأستأنفُ مسار وجودي. وإنْ فعلتُ، فلا أعرف إنْ كنتُ سأكون أكثرَ سعادةً أم أقل. لا أعرف شيئاً. أرفع رأسي عابرَ السّبيل، فأرى قُربَ القلعة عشرات النّوافذ مشتعلة بغروب الشّمس المنعكس (٢٦٠)، مثل صدى شاهق لنار باردة. وبمعزل عن بضع العيون النّاريّة المستعرة تلك، فإنَّ ضوءَ المساء النّاعم يغمر بقيّة التّلّ. أستطيع على الأقلّ أن أحزن، مُدركاً أنّ ما يتغلغلُ في خرني -الجُلب التي رأيتها بأُذُني - هي الجلجلة الفجائيّة لعربة كهربائيّة عابرة، والأصواتُ خزني -الجُلب التي رأيتها بأُذُني - هي الجلجلة الفجائيّة لعربة كهربائيّة عابرة، والأصواتُ المالوفة لفتية يتجاذبون أطراف الحديث، والهمسُ المنسيُّ للمدينة الحَيّة.

لم أكُن نَفْسي منذ أمدٍ بعيد.

304

[1 فبراير 1931]

تُعِيدُ السَّماء زُرقَتها، الخفيَّة حتَّى هذه اللَّحظة، بعد أيَّام ماطرة، إلى فضاءات عظيمة في

⁽²⁷¹⁾ يقصد أناة هُوَ و الأُنْوَات الأخرى التي تعيش فيه. (المترجم)

⁽²⁷²⁾ أي أنَّ العكاس حمرة غروب الشَّمس، عبد المغيب، على زجاح تلك النَّوافذ جعمها تبدو كأنَّ النَّار قد شتَّ فيها. (المُترجم)

الأعلى. ثمَّة تَبايُنُ بِين الشَّوارِع، حين تنعسُ بُرَيْكات الماء مثل بِرَكٍ ريفيَّة، والفرحُ الوضَّاء، البارد، الذي فوقها يجعلُ الشَّوارِعَ القذرة تبدو بهيَّةً وسهاءَ الشِّناء الباهنة كأنَّها الرَّبيع، إنَّهُ يوم الأحد ولا شيءَ لديَّ أفعله، إنَّه يوم رائع، فلا أشعر حتَّى بر غبة في الحلم، أستمتع به بمشاعر صادقة أُسلِم بصيري إليها، أتجوَّل مثل مندوب مبيعات جوَّال بلا زوجة يعود إلى البيت من أجلها، أشعرُ بالكِبَر كي ألتذَّ بشعور عودة نفسي فتيَّة مرَّة أخرى، فحسب.

نوعٌ آخر من الأيَّام تدبُّ فيه الحركةُ بهيبةٍ في ساحة يوم الأحد العظيمة. يخرج النَّاس من كنيسة سَوِّ دُوْمِينْغُش (273) بعد انقضاء قُدَّاس وثمَّة آخرُ على وشك أن يبدأ. أراقب أولئك الذين يغادرون، والذين لم يدخلوا بَعْدُ، وأولئك الذين، في أثناء انتظارهم قدوم الآخرين، لا يلحظون حتَّى الذين يخرجون.

لا شيءَ في هذه الأشياء مُهمٌّ إطلاقاً. إنَّها، مثل كلِّ الأشياء العاديَّة في الحياة، مجرَّدَ خُلم بالأسرار والأبراج الحصينة التي أُطلُّ منها على سهل تأمُّلاتي مثل رسول قد سلَّمَ رسالتَه.

تعوّدت، حين كنتُ طفلاً، قبل سنين خلَتْ، أنْ أذهب إلى القُدّاس هُنَا (أظنُّ على الأقلِّ أنّه كان هُنَا، على الرَّغم من أنّه في مكان آخر ربها). كنتُ أرتدي، مُدركا أهميَّة المناسبة، أفضل بذلاتي، مُستمتعاً بكلِّ بساطة بالأجواء كلِّها، حتَّى تلك الأشياء التي لم يكن ثمّة سببٌ كي أستمتع بها. عشتُ مهتماً بالمظاهر حينها، والبذلة التي كانت لديَّ جديدةٌ تماماً وغير مُبقَّعة. فها الذي يمكن أن يرتجيه شخصٌ سيموت حتماً ذات يوم، بيد أنه وهُوَ يتشبّت بيد أُمّه لم يكن يعرف أيَّ شيء عن الموت بَعْدُ؟!

اعتدتُ التمتَّع قبل سنينَ بهذا كلَّه، وربَّها هذا سبب أنَّني لم أُدرك إلَّا في هذه اللَّحظة كم كنتُ أستمتع به، كان الذَّهاب إلى القُدَّاس، بالنِّسبة إليَّ، يشبه النَّفاذ إلى سرِّ عظيم، وكان الخروج منه يشبه الخروج إلى أرض مقطوعة الأشجار في الغابة. هكذا كان كلُّ شيء، ومازال كذلك. وحدَهُ الرَّاشدُ الكافر الذي مازالت روحه تتذكَّر وتبكي، لكنَّه ليس إلَّا خيالاً، واهتياجاً، وارتباكاً، والقبرَ البارد.

نعم، لَنْ أُطَاقَ إِنْ لَمْ أَسْتَطِع تَذَكَّرَ الشَّخْصِ الذي كُنتُهُ. وحشدُ الغرباء، هذا، الذي مازال يخرج من القُدَّاس، والنَّاس الذين يحتشدون لحضور القُدَّاس التَّالي، يشبهون سُفُناً تمرُّ بِي، نهراً

⁽²⁷³⁾ São Domingos: اللَّفظ البرتغاليُّ لاسم القدّيس دومينغو/ دومينيث. (المترجم)

بطيئاً يجري تحت نوافذ بيتيَ الْمُشيَّد فوق ضفَّتَيْه.

الذّكريات، وأيّام الأحد، والقُدّاس، ومتعة الحضور، ومعجزة الوقت الذي مازال حاضراً لأنّه الماضي، لن يَنسى البتّة، فقد كان لي... وعبر مُفارقة أُموميّة (270) للزّمن، صامداً بطريقة ما في الزّمن الحاضر على طُول الخطّ المائل العبثيّ للأحاسيس الممكنة، خلف صمت السيّارات الصّاخب، صوتُ عجلات سيّارة الأُجرة يُجلجلُ في هذه اللّحظة دونَ غيرها، بين ما أنا عليه وما فقدتُهُ، في برزخ نَفْسي الزَّمنيِّ الذي أسمّيه أنا...

305

[2 فيراير 1931]

كلَّما ارتقى الإنسانُ، ازدادَ عددُ الأشياء التي لا بُدَّ أن يتخلَّى عنها. لا مكانَ على قمَّة الجبل إلَّا لذلك الإنسان، وحدَّهُ، فحسب. وكلَّما كان أكثر كَالاً، كان أكثرَ اكتمالاً؛ وكلَّما كان أكثرَ اكتمالاً، قَلَّ أَنْ يكون غير نَفْسه.

خطرت ببالي هذه الأفكار بعد قراءة مقالة في الجريدة عن الحياة الطَّويلة، والمُتعدِّدة الأُوجُه، لرجل ذائع الصِّيت. كان مليونيراً أمريكياً وكان كلَّ شيء. لقد حصل على كلِّ شيء رغب فيه - المال، والعلاقات الغراميَّة، والمودَّة، والإخلاص، والسَّفَر، والمجموعات الفنيَّة الخاصَّة. لا يمكن للمال أن يشتري كلَّ شيء، لكنَّ الجاذبيَّة الشَّخصية التي تُرافِقُ الثَّروةَ الطَّائلة يمكن أن تُحقِّق أيَّ شيء أو تكادُ.

وكنتُ، حين وضعت الجريدة على الطَّاولة في المقهى، قد شرعتُ في التَّفكير أنَّ الشَّيء ذاته قد ينطبق، في حدود عالمه الخاصِّ، على مندوب المبيعات الجوَّال -أحد معارفي - الذي يتناول الغداء كلَّ يوم، مثلها يفعل اليوم، على الطَّاولة في الزَّاوية في الخلف. فكلُّ شيء امتلكه ذلك المليونير امتلكه هُوَ أيضاً بدرجة أقلَّ، طبعاً، ولكن على نحو يليقُ بمكانته إلى حدَّ بعيد. لقد حقَّق الاثنان الشَّيء ذاته بالضَّبط، حتَّى لا ذرَّة فَرقِ بينها في ذيوع الصِّيت، فكلُّ شيء يعتمد

⁽²⁷⁴⁾ لفت انتباهي، هُمَا، أنَّ هذه الكلمة وردت «material» (= مادي) في طبعة پيسارُّو (2010)، وكذلك في طبعة زييث (2012)، وبهذا تكون العبارة (المفارقة الماديَّة لنزُّمن)، ولكن يبدو أنَّهما قد تراحعا عنها في الطبعات الأُرحقة لصالح كلمة «maternal» (= أمومي) ولاسيَّم أن الكلمة وردت بلفظ «أمومي» في طبعة سوبراو كونيا (2008) وفي طبعة برادو كويلو (1982) على حدٌّ سواء. (المترجم)

على القرينة. كلُّ شخص في هذا العالم يعرف اسم المليونير الأمريكيِّ، بَيْدَ أنَّ كلَّ شخص في هذا الجزء من لشبونة يعرف اسم الرَّجل الذي يأكل في الوقت الحاليِّ طعامَ غدائه هُنَاك.

ولقد انتزعَ هذان الرَّجلان كلَّ شيء كان في متناول يديها. قد يكون طول ذراعيها مختلفاً، ولكنَّها، بخلاف ذلك، متشابهَيْن. لم أكُن قادراً على الشُّعور بالحسد تجاه أُناس على تلك الشَّاكلة، فلطالما شعرتُ أنَّ الفضيلة تكمن في حصول المرء على الأشياء التي لا تكون في متناول يديه، في العيش حيث لم يكُن قَطُّ، وفي أن يكون مُفعاً بالحياة حين يموت أكثرَ عَلَّ كان حين كان على قيد الحياة؛ قُصارى القول، تحقيق شيء صعب، شيءٍ عبثيٍّ، مُتخطِّباً - كَمَن يتخطَّى عقبة - حقيقة العالم الواقعيَّة، صعبة المِرَاس.

فَلُو قِيل لِي: لا مُتعة يذوقها المرء في المحابدة بعد أن كفّ عن الوجود، لأجبت، أوَّلاً، أنّي لا أعرف إنْ كان ذلك صحيحاً أم غير ذلك، فأنا لا أعرف ما يحدث بعد الموت؛ ثُمَّ أقول، حيتئذ، إنَّ مُتعة الشُّهرة مُتعة حاضرة - إنَّها الشُّهرة التي هي المُستقبَل، وإنَّها الكبرياء التي لا تقلُّ متعة عن أيِّ شيء ماديِّ قد يحصل عليه المرء. وقد تكون تُخاتِلة، لكنَّها، حتَّى إن بدت كذلك، أكثر ديمومة من متعة الاستمتاع بها هُوَ موجود هناك فحسب. لا يستطيع المليونير الأمريكي توقُّع أن تُقدِّر قصائده الأجيال القادمة، فهو لم يكتُب أيَّ قصائد البتَّة؛ ولا يستطيع مندوب المبيعات الجوَّال أن يُسرَّ المُستقبَلُ بلوحاته، فهو لم يرسم أيَّ لوحات وَلا يستطيع مندوب المبيعات الجوَّال أن يُسرَّ المُستقبَلُ بلوحاته، فهو لم يرسم أيَّ لوحات وَلَّا أَنْ يُسرَّ المُستقبَلُ بلوحاته، فهو لم يرسم أيَّ لوحات

لكنّني، أنا الذي لا شيء في هذه الحياة الزّائلة، أستطيعُ الاستمتاعَ برؤيةِ أنَّ المستقبل سيقرأُ هذي الصّفحة، لأنّني عاكف على كتابتها. سأفخر بنفْسي، كها لو كنتُ طفلاً، جرّاء الشُّهرة التي سوف أتمتّع بها، فلديَّ على الأقلّ الوسيلة لتحقيق تلك الشُّهرة. وحين أُفكر بهذا الأمر، أنهض من على الطّاولة، ثُمّ، بجلالةٍ جوّانيّة محجوبةٍ، أنهضُ أيضاً فوق ديترويت وميشيغان والحيِّ التجاريِّ في لشهونة كُلِّهِ.

لكنّني ألاحظُ أنَّ هذه الأفكار لم تكن الأفكار التي خطرت ببالي بادئ ذِي بَدْء. فها خطر ببالي هُوَ كم يتوجّب علينا أن نكون صغاراً كي نصمد في هذا العالم. ولكنَّ فكرة واحدة جيّدة مثل الأخرى، لأنّها الشّيء ذاته في حقيقة الأمر. المجد ليس ميدالية، ولكنَّهُ عملةٌ معدنيّة: فثمّة نقشُ الرأس على أحد الجانبيْن، وقيمة العملة على الجانب الآخر. وليس ثمّة

عَمَلة معدنيَّةً للقِيَم الأعلى، وإنِّما الورق فحسب، والورق في حدَّ ذاته لا يساوي الكثير. يعزِّي المتواضعون مثلي أنَّفُسَهم بمثل هذه السَّيكولوجيَّات الغيبيَّة.

306

[1931 مارس 1931]

أكتب في بعض الأحيان، حين لا يكون لدي شيء أقوله، مثلها يعمل بعض النّاس لأنّهم ضجرون. كتابتي مثل حلم يقظة يستطيع شخصٌ يتجنّبُ التّفكير أن يغمس نَفْسَه فيه على نحو طبيعي، مع فارق أنّني قادرٌ على الحُلم في النّشر، وأستطيع، حين أتوقّف عن الشُّعور، استخلاصَ الكثير من المشاعر الصَّادقة والكثير من العاطفة الحَقّة.

وثمّة لحظات يتّخذ فيها الخواء، النّاجم عن شعور المرء بأنّه على قيد الحياة، شكل كثافة شيء ماديّ. وهذا الإحساس بعدميّة الحياة الذي يشعر به القدِّيسون، الذين هم في الواقع أعظم البشر أعها لا بنعضها فحسب، يُفضي بهم إلى اللّامُتنَاهِي. إنّهم يُكلِّلُون انْفُسَهم باللّيل والنُّجوم، ويُمرِّخون أنْفُسَهم بالصَّمت والعزلة. لكنّ هذا الشّعور ذاته، بين عظهاء البشريّة الكسولين الذين أنتمي إليهم بكلِّ تواضع، يُفضي إلى المُتناهِي في الصِّغر؛ فكلم كانت المشاعر مشدودة، مثل أربطة مطَّاطيّة، كانَ من الأفضل مراقبة مسامٌ استمراريّتها الباطلة الرَّخوة.

يتوق كلا النَّوعين من البشر إلى النَّوم، في تينك اللَّحظتَيْن، مثل معظم البشر العاديِّين الذين هُم مُجرَّد انعكاس لوجود الجنس البشري العموميِّ الذي يفعل ولا يفعل. فالنَّوم اتِّحادٌ بالله، نير فانا، أو أيِّ شيء تختار أن تعرِّفَهُ به؛ النَّومُ تحليل الأحاسيس البطيءُ، سواء طُبِّق كعلمِ ذريٍّ للرُّوح أو جُرِّبَ عبر النَّوم مثل موسيقي الإرادة، جِنَاساً تصحيفياً للرَّتابة.

أكتبُ وأتواني مستمتعاً بالكلمات كأنّني أمام معروضاتِ قترينات متاجر لا أستطيع أن أراها، لم يبق لي إلّا أنصاف المعاني وأشباه التّعابير التي تشبه ألوان الأقمشة التي لا أستطيع تحديدها؛ معروضات تتكوّن من أشياء مجهولة. أهزُّ رأسي وأنا أكتبُ، كالأمِّ التي جُنّت لموت ابنها.

وجدتُ نَفْسي في هذا العالَم ذات يوم، لا أعرف متى، ولقد عشتُ بلا مشاعر منذ ذلك

الحين، منذ الولادة أظنُّ. فإذا سألتُ أين كنتُ، يخدعني الجميع ويناقضون كلّ شيء آخر. وإذا سألتهم أن يخبروني ماذا أفعل، يكذب الجميع ويخبروني بشيء مختلف. وإذا ضعتُ فتوقَّفت في الطَّريق، يُدْهش الجميع لأنّني لم أكمل المسير إلى ما تُفضي إليه الطَّريق (لا أحدَ يعلمُ ما الذي تُفضي إليه، رغم ذلك)، أو لماذا لم أقتف بكلِّ بساطة آثار خطواتي - وأنا، الذي لا يعرف حتى من أين جاء، لا أستيقظ إلّا عند مَفرق الطُّرق. فأدرك أنّني كنتُ على خشبة مسرح ولا أعرف الكلمات التي ردَّدها الجميع على الفور على الرَّغم من أنَّهم لم يعرفوها من قبل. وأيتُ أنني قد ارتديتُ زيَّ سَاع، لكنَّهم لم يمنحوني مَلِكة أنتظرها، وألقوا علي اللَّوم نعدم وجودها. وأيتُ أنّ بين يديَّ رسالةً لا بُدَّ أنْ أسلِّمها، وحين أخبرتهم أنَّ الورقة خالية، ضحكوا منِّي. ولم أعرف، حتى هذه اللَّحظة، أضحكوا لأنَّ جميع القصاصات تلك كانت فارغة أم لأنَّ جميع الوَّسائل كانت افتراضيَّة فحسب.

ثُمَّ جلستُ، أخيراً، على الصُّوَّة (275)، عندَ مفرق الطُّرق، كمَن يجلس أمام مدفأة لم يمتلكها، ثُمَّ رحتُ أصنع وحدي قوارب ورقيَّة من الكذبة التي منحوني إيَّاها. لم يأخذني أحدٌ على محمل الجدِّ، ولا حتَّى بوصفي كاذباً، ولم تكن ثمَّة بِركَةٌ حتَّى أختبر حقيقتي.

كُلْمَاتُ كسولة، ضائعة، واستعارات عشوائيَّة، قَيَدها بالظّلال قلقٌ غامض... آثارُ أوقات سعيدة، عيشَتْ في جادَّة في مكانِ ما... مصباح مطفاً يشعُ ذهبُهُ في العتمة، ذكرى ضوء ضائع... كلماتُ لم تُنْشَر في الرِّيح وإنَّما على الأرضِ، سقطتْ من أصابع لم تَعُد قادرة على أن تضُمَّ أَنْفُسَها عليها، كأوراق ناشفة سقطت من شجرة لانهائيّة محجوبة... حنينُ يَحِنُّ إلى النَّوافير التي تمرحُ في حدائق أناس آخرين... شعورٌ من الرُّقَة تجاه الذي لم يحدث قطُ... أنْ اعيش ا ويعتريني شكٌ في أنّني ربَّما سأنام قريرَ العَين في حديقة پيرسيفونه (276) فحسبُ.

⁽²⁷⁵⁾ الصُّوّة: «الحجر الذي يُتَّحدُّ علامةً في الطّريق للاسترشاد». (المترجم)

⁽²⁷⁶⁾ شارة إلى قصيدة الشّاعر الإنكليزي آلجرين سوينيون «في حديقة بروسرييني قصيدة الشّاعر الإنكليزي آلجرين سوينيون «في حديقة بروسرييني أعماق لين أبدي». وثمّة عبارة (1866)، وبخاصة أنَّ القصيدة مختومة بالبيتين التّاليين: «لا شيء سوى النّوم الأبديّ/ في أعماق لين أبديّ». وثمّة عبارة أخرى خطّها بِسُوًا بقلم رصاص عبى ظهر القصاصة التي رقن عليها هذه الشّذرة بالآلة لكاتبة، ثمّ شطبها: «لا بُدُ أن تدم، لو كنتَ في حديقة بروشريينا» (Se acaso no horto de Prosérpina, haverla deveras que dormir). و «بروشريينا» هي المعابل المرتفل لاسم «بروسرييني/بروسريينا» الذي هو اللّفظ اللّاتيمي لاسم «برسفونه Persephone». (المترجم).

[8 أبريل 1931]

كان النّهار المُوحِش برمّته، الطّافح بالضّوء والغيوم الدّافئة، قد اكتسحته الأخبار التي تقول إنّ ثورةً قد اندلعَتْ. وسواء أكانت صحيحةً أم مغلوطة، فإنّ مثل تلك الأخبار تملؤني دائهاً بقلَق غريب، بمزيج من الازدراء والغثيان الجسدي. تتوجّع بصيري حين يظنُّ المرء أنّه قادر على تغيير أيّ شيء بإثارة القلاقل السّياسيّة. لقد آمنتُ دائهاً بأنَّ العنف، من أيّ نوع، مثالٌ صارخ على الغباء البشريّ. فالنَّوريُّون أغبياء، جميعاً، على شاكلة جميع الإصلاحيّين، وإنْ بدرجة أقلَّ، لأنّهم أقلُّ إزعاجاً.

يرتكبُ جميع النَّوريِّين والإصلاحيِّين الغلطة ذاتها، ويفتقرونَ إلى القوَّة اللَّازمة لضبط موقفهم تجاه الحياة وإصلاحه، الذي هُوَ كلُّ شيء، أو كينونتهم ذاتها التي تكاد تكون كلَّ شيء، فيهربون إلى الرغبة في تغيير الآخرين والعالم الحارجيِّ. كلُّ ثوريِّ، وكلُّ إصلاحيِّ، هاربٌ. والتَّحريض على القتال دليلٌ على عجز المرء عن مجاهدة نَفْسه. والدَّعوة إلى الإصلاح دليلٌ على أنَّ نَفْسَ المرء قد استعصَتْ على الإصلاح.

إذا شعر الإنسان، صاحبُ الحساسيَّة الحَقَّة والمنطق السَّليم، بالقلَق تجاه شرِّ العالَم وظُلمه، فسوف يسعى بالفطرة إلى مكافحة الشَّرِّ والظُّلم حيث يتجلَّيان، أوَّلاً، في المكان الأقرب إلى منزله، وهُوَ المكان الذي سوف يجد أنَّه قابع في نَفْسه. وهذه المُهمَّة ستستغرقه حياتَه كلَّها.

فكلُّ شيء، بالنِّسبة إلينا، كامنٌ في مفهومنا عن العالم؛ وتغيير مفهومنا عن العالم يعني تغيير عالمنا الذي هُوَ العالم نفسه، فهو لن يكون أبداً أيَّ شيء غيرَ الطَّريقة التي نتصوَّره بها، وما الإحساسُ الجوَّانيُّ بالعدالة الذي يسمح لن بكتابة صفحة واحدة فصيحة وجميلة، والإصلاحُ الحَقِيقةُ، حقيقتُنا، الحقيقة الوحيدةُ، وكلُّ ما عدا ذلك منظرٌ طبيعيُّ، وإطاراتُ صُور لمشاعرنا، وأغلفةُ لأفكارنا. وهذه هي الحال، سواء أكان المنظر الطبيعيُّ زاخراً بالأشياء الملوَّنة والبشر الحقول، البيوت، والمُلصَقات، والنَّياب- أمْ كان منظرًا طبيعياً شاحباً تسكنه أرواح رتيبة تنهض على السَّطح للحظة كي تقول عباراتها المُبتذَلة المُكرَّرة أو ترسم إياءات مُتعبَة، ليس إلَّا، كي تغرق ثانية في قاع الغباء المتأصِّل للتَّعبير البشريُّ كله.

النَّورة؟ التَّغيير؟ ما أتحرَّقُ شوقاً إليه، بكلِّ ذرَّة من ذرَّات روحي، هُوَ أَنْ تنقشعَ الغيومُ الله النَّورة التي تملأ السَّماء بزبدٍ وسخ؛ أريد أن أرى البداية الزَّرقاء تتبدَّى بين تلك الغيوم، حقيقةً ساطعة وواضحة، لأنَّها لا شيء ولا تريد أيَّ شيء.

308

[تحو 27 مايو 1931]

كان صبي المكتب، وقد عمل في شركة كنتُ أعمل بها سابقاً، الرَّحَالةَ الوحيد الذي يمتلك روحاً حَقَّةً بمن قابلتُ في حياتي كلهاً. جمع هذا الغلام النشرات الدَّعاتيَّة التي تروِّج للمدن والبلدان وشركات السَّفر المختلفة، وكانت لديه خرائط، قصَّ بعضها من الجرائد، في حين حصل على الأخريات متوسِّلاً إياها من مكان إلى آخر، ولقد قصَّ صور مناظر طبيعيَّة، وتصويرات أزياء غريبة، ولوحات قوارب وسفن، من عدَّة دوريَّات ومجلَّات. كان يزور وكالات السَّفر نيابة عن شركة حقيقيَّة أو مفترضَة، ربَّها عن الشركة التي كان يعمل بها، ويسألهم أن يعطوه النَّشرات الصَّادرة عن إيطائيا أو الهند؛ نشراتٍ تُقدِّم تفاصيل عن الملاحة بين البرتغال وأسترائيا.

لم يكن أعظم رحّالة عرفته في حياتي فحسب (لأنّه كان الأصدق)، وإنها كان أيضاً أحدَ أسعدِ البشر الذين حظيت بلقائهم، أشعر بالأسف لأنّني لم أعرف ماذا حلّ به، ولكنّني، كي أكون صادقاً، لا أشعر بالأسف حقاً، بل أشعر بضرورة أن أشعر بذلك. لستُ آسفاً لأنّه لا بُدّ أن يكون اليوم، وقد مرّت عشر سنوات أو أكثر على تلك الفترة القصيرة التي عرفته فيها، رجلاً ناضجاً يؤدّي واجباته بمشاعر باردة وعلى نحو موثوق، وربّها يكون متزوجاً ويكسب قوت يومه لإعالة شخص ما - بعبارة أخرى، أحد الموتى الأحياء. ربّها يكون قد سافر بجسده، هُوَ الذي عرف حقّ المعرفة كيف يسافر بروحه.

تستبدُّ بي ذكرى فجائيَّةُ: لقد عرف بالضَّبط أيَّ قطار يتوجَّب أن يستقلَّه المرء كي يذهب من پاريس إلى بوخاريست، وأيَّ قطارات يستقلُّها المرء كي يجوب إنگلترا، ولاح في نُطقِه المُسوَّه للأسهاء الغريبة اليقينُ السَّاطع لعظمة روحه. ولعله يعيش في هذه الأثناء كرجل ميِّت، لكنَّه ربَّها سيتذكَّرُ ذات يوم، حين يهرم، أنَّ الحُلم ببوردو لم يكُن أفضلَ من الوصول إلى بوردو في الواقع فحسب، وإنها أصدق.

ولكنْ ربَّما، مرَّة أخرى، لهذا كلَّه تفسيرٌ آخَر. ربَّما كان يُقلَّدُ شخصاً آخر. أو ربَّما... نعم، أحياناً، حين أتأمَّل تلك اهوَّة الهائلة بين فطنة الأطفال وحماقة البالغين، أَظنُّ أنَّه لا بُدَّ أن يكون لدينا، حين نكون أطفالاً، ملاكِّ حارش يُقرضنا بصيرتَهُ النَّجميَّة ثُمَّ يتخلَّى عنَّا، ربَّما بحُزنِ، ولكن وفقَ قانونِ عُلوي، مثلها تتخلَّى إناث الحيوانات عن صغارها النَّاضجين، فقدرُنا أن نكون الخنازير المُسمَّنة.

309

[نحو 27 مايو 1931]

أحلمُ يقظانَ بالرِّحلة بين كِشْكَايْش (٢٦٠) ولشبونة. ذهبتُ إلى كِشْكَايْش لدفع الضَّريبة عن المنزل الذي يملكه فاسْكِش، ربُّ عملي، في إشْتُوْرِيل (٢٥٥). دبَّت فِيَ الحماسة للرِّحلة، ساعة ذهاباً وساعة إياباً، فهي فرصةٌ لرؤية وجه النَّهر العظيم دائم التَّغيُّر ومصبّه الأطلنطيِّ. انكبيتُ وأنا في الطَّريق إلى هُنَاك على تأمُّلات مُجرَّدة، ناظراً، دون أن أرى حقاً، إلى المناظر البحريَّة التي أتطلَّعُ لرؤيتها، ثُمَّ استغرقتُ وأنا عائد في تحليل تلك المشاعر. سأكون عاجزاً عن وصف أدق تفاصيل تلك الرِّحلة؛ أقلِّ ذرَّةٍ في كلِّ ما رأيتُ. فقد انتزعتُ هذه الصَّفحات من النِّسيان والتَّناقُض. ولا أعرفُ إنْ كان ذلك أفضل أمْ أسوأ مَّا قد يكون عليه نقيضُ ذلك.

يخفِّف القطار سرعته، لقد وصلنا إلى كَايْش دُو سُوذْرِي (٢٦٥). وصلتُ إلى لشبونة لكنَّني لم أصل إلى أيِّ نتيجة.

310

[1931 يونيو 1931]

لو نظرتُ من كثبٍ على الحيوات التي يعيشها البشر، لوجدتُها لا تختلف البتَّة عن الحيوات

⁽²⁷⁷⁾ كِشَكَاتِش Cascais: بلدة ساحليَّة تبعد نحو 30 كيلومتراً عرب لشبونة. (المترجم)

⁽²⁷⁸⁾ إِشْتُوْرِيل Estoril: بلدة سياحيَّة في كِشْكَايْش. (الْمُترجم)

⁽²⁷⁹⁾ كَايْشُ دُو سُوذُرِي Cais do Sodré: محطَّة سكَّة خديد في لشبونة. لمريد من التفاصيل، انظر الحاشية رقم 45.

التي تعيشها الحيوانات. فلقد قُذِفَ الإنسان والحيوان، من غير وعي، وسطَ الأشياء وفي العالم، وكلُّ واحد منهما يُمتِّع نَفْسه بين حين وآخر؛ يسلكان يومياً الدَّرب الماديَّ ذاتَه، ولا يفكِّر أفرادُ أيَّ من الفصيلتَيْن أبعدَ من الأفكار التي تخطر ببالهم على نحو عفويِّ، ولا يُحرِّبون أيَّ شيء أبعدَ عَاقد تُوفِّره حيواتُهم. ثمَّة قِطُّ يرقد متكاسلاً في الشَّمس ثُمَّ يذهب إلى النَّوم. وثمَّة شخص، على شاكلة القطَّ، يرقد متكاسلاً في الحياة بكلِّ تعقيداتها، ثمَّ يذهب إلى النَّوم. ولا يستطيع أيُّ منهما تحرير نَفْسه من قَدَر كونه ما هُوَ عليه بالضَّبط. ولا يحاول أيُّ منهما الهروب من وطأة الكينونة. يعشقُ المجدَ عظهاءُ البشر، ولكنَّهم يعشقون المجدَ الذي لا يعني خلودَهم، وإنَّها مجدَ الخلود المُجرَّد الذي قد لا يشاركون في صُنعه.

تُثير فِيَّ هذه الأفكار، التي تنتابني كثيراً، شعوراً بالإعجاب المفاجئ تُجاه ذلك النّوع من الأفراد الذين أرفضهم بالفطرة؛ أقصد المتصوّفة والزُّهّاد، أي جميع أولئك البشر المنعزلين الذي يعيشون في هضاب التّبت (فقه) في أنحاء العالم كافّة، وجميع مريدي سَمعانَ المعموديِّ (فقه) المُتنسّكين فوق أعمدة الحَجر. يحاول أولئك البشر وإنْ بأكثر الطرائق عبثيّة باتُفاق الجميع - تحرير أنفسهم على الأقل من قانون الحيوانات. إنّهم، في الحقيقة، بصر ف النّظر عن مدى الجنون الذي يكتنفُ طرائقهم، يعارضون قانون الحياة الذي يخبرهم بالرُّقود متكاسلين في الشّمس وانتظار الموت دون تفكير. وحتّى حين يمكثون فوق عامود الحجر، فإنّهم يسعون إلى شيء ما؛ وحتّى حين يجبسون أنفسهم في صومعة خالية من النّوافذ، فإنّهم يتوقون إلى شيء ما؛ وحتّى لو كان ذلك يعني الشّهادة أو الألم، فإنّهم يرغبون فيها لا يعرفون. وأمّا بقيّثنا، الذين يعيشون حيوات حيوانيّة أكثر تعقيداً أو أقلَّ، فإنّهم يعبرون خشبة وأمر مثل كومبارس ليس لديهم ما يقولونه، قانعين بالجِلّية العبئيّة التي تنطوي عليها المسرح مثل كومبارس ليس لديهم ما يقولونه، قانعين والعباقرة، يلعبون لعبة الوجود الرّحلة. فالكلاب والبراء والبراغيث والعباقرة، يلعبون لعبة الوجود جيعاً حتّى دون التّفكير فيها (ولا يُفكّر الصَّفوة إلّا في التَّفكير نَفْسه) نحت هدوء النَّجوم جيعاً حتّى دون التَّفكير فيها (ولا يُفكّر الصَّفوة إلّا في التَّفكير نَفْسه) نحت هدوء النَّجوم جيعاً حتّى دون التَّفكير فيها (ولا يُفكّر الصَّفوة إلّا في التَّفكير نَفْسه) تحت هدوء النَّجوم جيعاً حتّى دون التَّفكير فيها (ولا يُفكّر الصَّفوة إلّا في التَّفكير نَفْسه) تحت هدوء النَّجوم

⁽²⁸⁰⁾ هُنا يستخدم بِسُوَّا لَفظة النِّبِت Tibet بصيغة الجمع، في إشارة منه إلى أنَّ كل مكان حول العالم يعيش فيه هوالاء المتصوِّفة والزُّهاد هو تِبِتْ في حدِّ داته، ولهذا فقد أشرتُ إليها به «هصاب النِّبِت» كبديل لصيغة الجمع هذه، كأتَّها هضاب متعزلة متناثرة في العالم كافّة، والاسبُّما أنَّ كلمة Tibet في الأصل تعني «هضبة النَّبِتُ». (المترحم)

⁽²⁸¹⁾ Simon Stylites (وفي البرتغاليَّة: Simões Stylitas): مريدو النَّاسَتُ لشُوري السَّرياني سمعان العموديِّ الذي كان يتنسُّك جالساً موق عمود حجري بارتفاع 15 متراً، وبهذا شُمِّي بالعموديُّ. وثمة دير باسمه، دير القديس سمعان، في شمائي حبب (المترجم)

العظيم الذي يشرح الصَّدر. ولكنَّ الآخرين -المتصوِّفة بكلِّ عذاباتهم وتضحياتهم-يشعرون على الأقلِّ بالحضور السِّحريِّ للسِّرِّ في أجسادهم وفي حيواتهم اليوميَّة. إنَّهم أحرارٌ لأنَّهم أنكروا الشَّمسَ المرتيَّة، ولقد باتوا ممتلئين لأنَّهم أفرغوا أنْفُسَهم من عَدَم العالمَ.

حتى إنّني أشعر كأنّني صوفي حين أتحدّث عنهم، ولكنّني عاجز عن أن أكون أكثر من هذه الكلمات المكتوبة تحت تأثير حالة مزاجيّة عارضة. سأنتمي دائماً، مثل البشريّة جمعاء، إلى خُوا دُش دُوْرَادُوْرِش. ولسوف أبقى، في الشّعر أو النّشر، مجرَّد موظّف آخر جالس إلى مكتبه. وسوف أظلُّ دائماً، بالتّصوُّف أو من دونه، محلّياً وخاضعاً، عبداً لمشاعري وللمخطة التي أشعر بها فيها. ولسوف أبقى، تحت الظُلَّة الزَّرقاء العظيمة للسَّاء الصّامتة، صبياً ساعياً، عالقاً في طقس لا يُسبَر غوره، مُتسربلاً بالحياة كي أشارك فيها، ذاهباً، كيفها اتّفق، عبر مختلف عالقاً في طقس لا يُسبَر غوره، مُتسربلاً بالحياة كي أشارك فيها، ذاهباً، كيفها اتّفق، عبر مختلف الإيهاءات والحقوات، والهيئات والتّكلُّفات، حتّى تنتهي الحفلة أو ينتهي دوري، فأستطيع الذّهاب لالتهام الطّعام الفاخر من المقصورات العظيمة التي أخبروني أنّها قد نُصِبَتْ في قاع الحديقة.

311

[20 يونيو 1931]

عادتْ بهجةُ شمس مُعيَّنةٍ إلى حشود البيوت العشوائيَّة في المدينة بعد هطول الأمطار الأخيرة وذهابها جنوباً، فلم يبقَ إلَّا الرِّيحُ التي جرفتها بعيداً، وتجلَّتْ فجأةً ملاءات بيضاء تتدلَّى على حبال ممدودةٍ بين أعمدة نُصِبَتْ خارج النَّوافذ العالية، راقصةً فوقَها.

ولقد شعرتُ بالبهجة أيضاً، لأنّني مازلتُ على قيد الحياة، لا أكثر. غادرت شقّتي، عازماً على تحقيق هدف عظيم: الوصول إلى المكتب في الوقت المُحدّد. ولكنَّ دافعي الحيويِّ قد وحَد جهودَه في ذلك اليوم مع جهود ذلك الدَّافع الجدير الآخَر، بِحُكم الشَّمس التي تشرق في الوقت الذي يُحدِّده خطُّ عرض أو طُول فوق سطح الأرض. شعرتُ بالسَّعادة لعجزي عن الشُّعور بالتَّعاسة. تمشيَّتُ في الشَّارع يملؤني اليقين تماماً، لأنَّ المكتب المألوف والأشخاص المالوفين الموجودين فيه كانوا هُم أنفُسهم يقينيَّات. فلم يكن من المستغرب أن أشعر بالحريَّة، حينئذ، على الرَّغم من أنّني لم أعرف من أيِّ شيءٍ قد تحرَّدتُ. كانت قطوف الموز المعروضة

للبيع في سلال موضوعة، تحت الشَّمس، على جانب الرَّصيف في خُوَا ذَا پُرَاتَا(²⁸²⁾، صفراءَ فاقعة.

أحتاجُ إلى أقلِّ القليل، حقاً، كي أشعر بالرِّضَا: توقُف المطر، والشَّمس البهيَّة للجنوب السَّعيد، وبعض قرون موز صفراء، تلك التي تبدو أشد صفرة من غيرها لوجود بقع سوداء، والنَّاس الذين يثر ثرون في أثناء بيعها، وأرصفة خُوا ذَا پُرَاتَا، وزرقة نهر تِيْجُو المشوبة بمسحة من الأخضر والذَّهب، خلف زاوية الكون المحليَّة.

سيأتي يومٌ لا أعود أرى فيه هذا كلَّهُ، حين تواصل قرون الموز على جانب الرَّصيف وجودَها دوني، وكذلك أصواتُ باعة الموز الماكرين، والجرائد اليوميَّة التي صفَّها الصبيُّ الصَّغير، بعضَها قُرب بعض، في زاوية الرَّصيف المقابل. أعرف أنَّها لن تكون قرونَ الموز ذاتَها، ولا البائعين أنفسهم؛ ولسوف تكون الجرائد، بالنِّسبة إلى الشَّخص الذي ينحني للنَّظر إليها، ذاتَ تاريخ محتلف عن تاريخ اليوم، لكنَّها ستظلُّ مثلها هي، لأَنَّها جامدةٌ لا روحَ فيها، على الرَّغم من أنَّ شكلها قد يتغيَّر؛ بَيْدَ أنَّي سأموتُ لأنَّني أعيشُ، لكنَّني سأظلُّ نَفْسي.

أستطيع تكريس هذه اللَّحظة، دونَ شكَّ، بشراء بعض قرون الموز، فيبدو أنَّ الضوء الطَّبيعيَّ الغامر لشمس النَّهار قد أفرغَ نَفْسَهُ كلَّها فيها. لكنَّني سأشعر بالخجل من الطُّقوس والرُّموز؛ من شراء الأشياء في الشَّارع. ربما لن يغلفوا قرون الموز مثلما ينبغي، وقد لا يبيعوني إيَّاها على النَّحو الذي لا بُدَّ أن تُباعَ فيه، لأنَّني لا أعرف كيف أشتريها على النَّحو الذي لا بُدَّ أن تُستري فيه. وقد يبدو صوتي غريباً حين أسأل عن السِّعر. الكتابة أفضل بكثير من أن يجرؤ المرء على العَيش، حتَّى لو لم يَعنِ العيش أكثر من شراء بعض الموز تحت ضوء الشَّمس، موجودة وظلَّ موز يُبتاع.

مادامت الشَّمس موجودة وظلَّ موز يُبَاع. لاحقاً، ربَّها... نعم، لاحقاً... آخَر، لعلَّ... ربَّها...

⁽²⁸²⁾ خُوا ذًا يُرَانًا Rua da Prata (حرفيًّا: شارع صاغة الفضَّة): شارع في لشبونة. (المترجم)

اليومَ واحد من تلك الأيّام التي تُطبِقُ فيها رتابةُ كلِّ شيء عليَّ مثل سجن. ولكنَّ رتابةً كلِّ شيء هي رتابةُ أن أكون نَفْسي، ليس إلًا. فكلُّ وجه، حتَّى لو كان وجه شخص رأيناه بالأمس فحسب، هُوَ مختلفُ اليومَ لأنَّ اليوم، بكلِّ بساطة، ليس الأمس. فكلُّ يوم هُوَ اليوم الذي هُوَ، ولن يكون ثمَّة يوم آخر مثله في العالمَ. ولا تُوجَد إلَّا في الرُّوح الهويَّةُ المُطلَقة (وإن كانتُ باطلة) التي يُشبِهُ فيها كلُّ شيءٍ كلَّ شيءٍ آخر، وكلُّ شيء فيها مُبسَّطٌ. يتكون العالمَ من نتوءاتٍ وقِمم، بَيّدَ أنَّ كلَّ ما تسمح لنا رؤيتُنا حسيرةُ النَّظر في أن نراهُ هُوَ سديمٌ رفيع يتغلغلُ في كلِّ شيء.

أودُّ أن أبتعد، أن أهربَ ممَّا أعرف، ممَّا هُوَ لِي، ممَّا أُحِبُ. أريدُ أن أنطلق، لا إلى جُزرٍ هنديَّة مستحيلةٍ أو إلى جُزرِ عظيمة تقع بعيداً جنوبَ الجُزرِ الأخرى كلِّها، وإنَّما إلى أيِّ مكان –أكان قريةً أم صحراء – يمتاز بأنَّه ليس هُنَا. كلُّ ما أريده ألَّا أرى هذه الوجوه، وجولة الأيَّام اليوميَّة هذه. أريدُ أن أرتاح من تظاهري المعهود وأن أكون شيئاً مختلفاً عنه. أريد أن أشعر باقتراب النَّوم كأنَّه وعدٌ بالحياة، وليس راحة. سأكتفي بكوخ قُرب البحر، أو حتَّى مغارة عند الحاقَّة النَّاتئة لجبل وعر. ولكنَّ إرادتي، لسوء الحظ، لا تستطيع أن تمنحني ذلك وحدها.

العبوديَّة القانون الوحيد في الحياة، لا قانونَ آخر، لأنَّه لا بُدَّ أن يُطاع هذا القانون؛ لا مهربَ منه، ولا تمرُّد ممكنٌ ضِدَّه. يُولد بعضهم عبيداً، ويغدو بعضهم عبيداً، ويُجبَر بعضهم على أن يكونوا عبيداً. فالحُبُّ الجهان الذي نُكنَّه جميعاً للحرِّيَّة التي لو مُنِحَتُ لنا، لتبرَّأنا منها بوصفها جديدة جداً وغريبة - هُو الدَّليل الذي لا يقبل الدَّحض على الكيفيَّة التي تشتدُّ فيها وطأةُ عبوديَّتنا علينا. وحتَّى أنا، الذي عبَّرتُ آنفاً عن رغبتي في الحصول على كوخ أو مغارة حيث يمكن أن أكون خُراً من رتابة كلِّ شيء، أقصد من رتابة أن أكون نَفْسي، هل أجرؤ حقاً

⁽²⁸³⁾ يبدو أنَّ جول كوستا قدسَهَتْ هُنَا، فالتَّاريخ الصَّحيح، بحسب الطبعات البرنغائيَّة المُختلفة، هو 20 يونيو 1931. النَّص في أصنه مطبوع، وقد أثبت بِسُوًا التَّاريخ في أعنى الزاوية اليُمنَى بقيم حبر أسود، عنى هذه الشاكلة: 1931/6/20. (المترجم)

على الذَّهاب إلى هذا الكوخ أو هذه المغارة، عارفاً ومُدركاً أنَّني لن أكون حُراً أبداً، مادامت الرَّتابة لا تُوجَد إلَّا فِيَّ، أنا وحدي، فحسب؟ وبها أنَّني أختنقُ حيث أنا، ولأنَّني حيث أنا، فهل سأتنَّفس على نحو أفضل هُنَاك حين تكون رئتاي هما العليلتان لا الهواء المحيط بي؟ مَن يقول إنَّني، أنا الذي يجهر بالتَّوق إلى الشمس الصَّافية والحقول المفتوحة، والبحر السَّاطع والأفق الواسع، لن أشتاق إلى سريري، وإلى وجباتي، أو إلى اضطَّراري الهبوط ثماني طبقات من السَّلالم كي أخرج إلى الشَّارع، أو إلى الدَّهاب إلى متجر بيع التَّبغ في الزَّاوية، أو إلى أن أصبِّحَ الحلَّدة والواقف شاردَ الذَّهن خارج دكَّانه؟

يغدو كلُّ شيء يحيط بنا جزءاً منّا، ينسر ب فِينَا مع كلِّ تجربة جسديّة أو حياتيّة، ثُمَّ يشدُّ وثاقَنا ببراعة، مثل شبكة العنكبوت العظيمة، بها هو قريب، ويُوقعنا في مهد هش من موت بطيء، حيث نستلقي مُتأرجعين في الرِّيح. كلُّ شيء نحن، ونحن كلُّ شيء، ولكنْ ما جدوى ذلك إذا كان كلُّ شيء هو لا شيء؟ شعاع شمس، وغيمة يُنذر ظلُّها الفجائيُّ بقدومها، ونسيم يصعدُ، والصّمت الذي يعقب حين يهبطُ، وجوه معيَّنة، وأصوات قليلة، والابتسامات البسيطة حين تتكلَّم، ثمَّ يهبط اللَّيل الذي تتجلَّى فيه، بلا معنى، الهيروغليفيَّة المهشَّمة للنُّجوم.

313

[1 يوليو 1931]

لا أحدَ يميل إلينا حين يسوءُ نومنا. أخذ النّوم الذي فاتنا معه ذلك الشّيء الذي جعلنا آدميّين. يبدو أنّ سُخطاً كامنٌ فِينَا، في الهواء الفارغ الذي يحيط بنا. إننا نحن مَن نتخاصم مع أنْفُسنا، في نهاية المطاف، ولا تنهار الدّبلوماسيّة في الحرب السّريّة [بين أنْفُسنا وأنْفُسنا] إلّا داخل أنْفُسنا.

جرجرتُ قدميَّ طيلة اليوم وهذا التَّعبَ العظيم طائفاً في الشَّوارع. تضاءلتُ روحي حتَّى باتَتْ في حجم كرة صوف متشابكة، فنسيَ مَا أنا عليه الآنَ وما كُنتُهُ، الذي هُوَ أنا، اسمَهُ. هل سيكون ثمَّة غدُّ؟ لا أعرف، لا أعرف إلَّا أنَّني لم أنم، وبلبلةُ الفواصل التي قضيتُها بين النَّوم واليقظة تملأُ بصمتِ طويل المحادثةَ التي أُجريها مع نَفْسي.

آهِ، المُسَزَّهات العظيمة التي يستمتع بها الآخرون، والحدائق التي يستخفُّ بوجودها الكثيرون، والجادَّات البديعة التي تنتمي إلى بشر لن يعرفونني أبداً! أخمد بين لياني الأرَق كشخص لم يجرؤ البتَّة على أن يكون فائضاً عن الحاجة، فتستيقظُ تأمُّلاتي مفزوعةً على هذا الحُلم الختاميِّ:

أنا منزلُ أرملة، منعزلٌ على نَفْسه، مُظلمٌ بأشباح خجولة وماكرة. أكون دائماً في الحجرة التي بجانب الباب، أو يكونون هُم، وليس من حولي إلّا الأشجار الهائلة التي يتعالى حفيفُها. أنجوّل في الأرجاء فأجد أشياء، ولا أجد الأشياء إلّا لأنّني أتجوّل. تقف أيّامُ طفولتي أمامي ترتدي مَريُولاً!

ثُمَّ، في غمرة هذا كلِّه، وقد أنعسني التَّجوال، أنجرفُ في الشَّارع، مثل ورقةِ شجر. فلقد جرفتني الرِّياح الأرقُ من على الأرض فَطُفْتُ كالشَّفق الدَّاني عبر كلِّ ما وقَره لي المنظر الطَّبيعيُّ. ثَقُلتْ جفوني، وقدماي تتجرجران. أودُّ أن أنام لأَنَّني أمشي. أبقي فمي مُحكم الإغلاق كأنَّني أسدُّ شفتيَّ. أنا حطام سفينة تجوالاتي.

كلّا، لم أنم، ولكنّني أكون أفضل حالاً حين لا أنام ولا أستطيع النّوم. أكون نَفْسي حقاً في هذه الأبديّة العشوائيّة، التي ترمز إلى الحالة شبه الرُّوحانيَّة التي أعيش فيها خادعاً نَفْسي. ثمَّة مَن ينظرُ إليَّ كأنَّهم عرفوني أو يظنُّون أنَّهم عرفوني. أشعرُ بنَفْسي تنظرُ إليهم بعينَيْن مُوجِعتَيْن تحت جفون ملتهبة؛ لا أريد أن أعرف أيَّ شيء عن العالم الذي هُنَاك.

لقد ران عليَّ النُّعاس، وران عليَّ النَّومُ!

314

[13 يوليو 1931]

أستمتع بالتَّجوال والتَّفكير، عبر ما سوف تغدو عليه المدينة، في الظَّلال الغامضة التي يطرحها الضوء المحتضر قبل أن يغدو المساءُ العتمةَ المُبكِّرة، فأمشي كأنَّ كلَّ شيء قد ضاع. والحزن الذي يرافقني يُبهِجُ مخيِّلتي أكثرَ هَا يُبهِج حواسِّي. أنجرفُ فأتصفَّحُ في نَفْسي، دون أن أقرأة حقاً، ذلك الكتابَ الذي تتخلَّلُ متنَة صُورً سريعة، فأكوِّن منها، متكاسلاً، فكرة لن تكتمل أبداً.

ثمَّة مَن يقرأ بالشَّرعة التي ينظر بها، فلا يستطيع حتماً استيعابَ كلِّ شيء، أستلُّ من الكتاب الذي أتصفَّحه في روحي حكاية، أيَّ حكاية، يوميَّات جوَّال آخَر، أوصافاً موجزة للكتاب الذي أتصفَّحه في روحي حكاية، أيَّ حكاية، يوميَّات جوَّال آخر، أوصافاً موجزة للساءات شفقيَّة وليالي مقمرة، تتخلّلها محرَّات مرصوفة بالأشجار وأشكالُ حريريَّة مختلفة مَرُّ عابرةً، وتمرُّ.

لا أُفرِّقُ بين سَام وسام. أو اصل السَّير في الشَّارع في الوقت ذاته عبر المساء وتلك القراءة التي حلمت بها، فأسافرُ حقاً في تلك المرَّات. أهاجر وأرتاح كما لو كنتُ واقفاً على ظهر السَّفينة التي أبحرتُ فوراً إلى أعالي البحار،

مُسَدِّدُ مَنْ فَجَأَةً، دَبِّ الضَّوءُ في مصابيح الشَّوارع المُيِّتَة على جانبَي الشَّارع الطَّويل الُمنحني. يشتدُّ حُزني فأرتجُّ. لقد أنهيتُ الكتاب. وليس في رطوبة الهواء لذلك الشَّارع المُجرَّد إلَّا خيط شعورِ برَّانيَّ، مثل لعاب قَدَرِ أحمق يقطر في وعي روحي.

حياةً أخرى، حياة المدينة حين يهبطُ اللّيل. وروحٌ أخرى، روح شخص ينظرُ إلى اللّيل. أظلُّ مُرتاباً ومجازياً وشديد الإحساس على نحو غير واقعيِّ. أنا مثل حكاية قصَّها شخصٌ آخر بشكل جيِّد حتَّى تجسَّدت بعض الشَّي، في هذا العالمَ-الرِّواية، عند مفتتح أحد الفصول: «تستطيع، في تلك السَّاعة، رؤية رجل يمشي على مهله في شارع... (284)».

ماذا عساي أن أفعل بالحياة؟

315

[22 أغسطس 1931]

تميلُ الأصائل إلى أن ترتدي حُلَّة مجدِ باطل عابقةً بالعطر قبل أن ينتهي الصَّيف ويحلُّ الشِّتاء، في ذلك البرزخ الدَّافئ الذي يثقل فيه الهواءُ وترقُّ الألوان. نستطيع مقارنتها بتلك الحيل البارعة التي تلجأ إليها المخيِّلة كي يشعر المرء بالحنين إلى شيء ما، فتمرُّ بطيئةً مثل يقظات السُّفُن التي كأنَّها حيَّاتٍ تسعى إلى الأبد.

يغمرني في تلك الأصائل، مثل بحر في المدِّ العالى، شعورٌ أسوأ من السَّأم. ولكنْ لا تُوجَد كلمةٌ أخرى لوصفه غير السَّأم؛ شعورٌ بالوحشة المُوحِشة، كأنَّ روحيَ كلَّها كانت حطامً

⁽²⁸⁴⁾ آثرتُ، هُنَا، وضع كلمة «شارع» بدلاً من كلمة «خُوّا» (ولم أذكرها بنفظها، عنى غرار أسماء الشوارع الأخرى التي أثبتناها بلفظها)، لأنّه لا يذكر هُنا اسم الشّارع كاملاً وإنّما اكتفى بوضع عبارة «...Rua de...». (المترجم)

سفينةٍ. شعرتُ كأنِّيَ قد ضيَّعتُ إلهاً قادراً على كلِّ شيء، وأنَّ جوهرَ كلِّ شيء قد مات. وليس الكون الماديُّ عِندي إلَّا جثَّة أحببتُها حين كانت هي الحياة، ولكنَّ كلَّ شيء قد صار عَدَماً في الوهج الذي ما يزال دافئاً للغيوم الملوَّنة الأخيرة.

يتَّخذُ سأمي هيئةً مرعبة، فيغدو ضجَري خوفاً. لم أتصبَّب عرقاً بارداً، ولكنَّني شعرتُ بالبرد يسري في عروقي. لا أشعرُ بأيِّ ضغينة في جسدي، ولكنَّ الضَّغينة شديدة في روحي فتنسر بُ عبر مسامٌّ جسدي وأقشعر من البرد.

عظيمٌ سأمي، شديدُ العظمة، وكاسخٌ رعبُ أن أكون على قيد الحياة، فلا أستطيعُ تخيُّل ما الذي يُمكن أن يُسكِّن الألمَ، أن يكون ترياقاً، بلسهاً، منبعاً للنِّسيان. فكرة النَّوم ترعبني أيضاً. مثلها ترعبني فكرةُ الموت. فالرَّحيل أو البقاء هما الشَّيء المستحيل ذاته. والأمل والشَّكُّ باردان ورماديَّان على حدُّ سواء. أنا رَفَّ طافحٌ بالقناني الفارغة.

فيا للحنين الذي سوف يغمرني حين أشعر بأنّني لن أكون إلّا نَفْسي، لو سمحتُ لعينيًّ الفاحشتَيْن أن تستقبلا التّحيَّة المحتضرة لنهاية النّهار السّاطع! ويا لها من جنازة مهيبة تُقَامُ للأمل في الصّمتِ الله لا حياة فيها، ويا لها من حاشيةِ أُخوِيةٍ ومواكب فضاءات فارغة عَرُّ بالألوان الزَّرقاء الضَّارية إلى الحُمرة التي تزدادُ شحوباً في السُّهول الشَّاسعة لفضاء أبيضَ فارغ!

لا أعرف ما أريدُ وما لا أريدُ. لم أَعُد أعرف ما الذي أريدُه، أو كيف أريدُه، أو كيف اعرف المشاعرَ أو الأفكار التي نعرف من خلالها عادةً أنّنا نرغبُ في شيءٍ أو نرغبُ في أن نرغبَ في شيءٍ ولا أعرف مَن أنا ولا ما أنا. أستلقي تحت الخواء السّاقط للكون كلّه، كشخص مدفون تحت أنقاض جدار. وأظلُّ على تلك الشّاكلة، في يقظتي، حتّى يُرخِي اللّيلُ سُدُولَهُ، فتنبعثُ أدنى مداعبة مُهدِّئة، لكوني مختلفاً، كأنّا نسيمٌ، عبر بداية وعبي بِنَفْسي.

أَهِ، أَيِهَا القمر العالى المستدير لهذي اللَّيالي الرَّائقة، الدَّافئة بالقَلَق والهدوء! السَّكينة المنحوسة للجَهَال السَّهاويِّ، والسُّخرية الباردة للهواء الدَّافئ، والزُّرقة الكُحليَّة المُغشَّاةُ بنور القمر التي باتَتْ مُرصَّعة بالنُّجوم على نحو خجول.

to do B. (treme tot bat).

3 14

/priends pois dever ter scorede, man

commo Antin, não publica arer em Deve, a são podendo erar em trema de metimo de minas para para, fiques, como tutras da oria das grates, Esquella distancia de tude a que consumente se chema a pecadenda. A De-adenda é a perde hodal de incussiancia; porque a maximiza incomotivacia findam fi a fundamente da rida. O caração, se puderse per-

A quem, como su, secim, vivendo, pilo cabo ber vida, que recta senda, como a mova percen pou os pares, a ranuncia por moto a a contemplação por destino. (?) Mão sactordo o que d a vida religiosa, non protendo ambulet, you tama por la poincia ten fo do ma realaj não poincia tenfo tar fo na malaj não poincia tenfo tar fo na malaj não poincia tenfo de vida perante de la fida perante das, fidavamenta, como metivo de tar elma a contemplação estrotica da vida. E, areim, aliging, d salmandado de tudos se mundos, indifferentes ac Mão despresadores descanada de tudos se mundos, indifferentes ac Mão despresadores descanada de tudos se mundos, indifferentes de Mão despresadores descanada de tudos as mundos, indifferentes se Mão de despresadores descanada de tudos as mundos, indifferentes ac Mão de despresadores descanada de tudos as mundos, indifferentes ac Mão de despresadores de conventos de conventos por perces nos conventos acuadas de conventos por perces necesados de conventos por perces necesados de conventos de conventos percesados de conventos de conventos percesados de conventos de con

Ratendo, da sciencia, efecta equella esu preceita central. Se que tudo é sujeito a leie fataes, centra ma quase se não fempa independentemente, per que reegir é ellas termi reita que regimentement e verificando como em se proceita se agusta mo estro, maio autiga, da fatalim dade das reisas. Addemne de errore como e fiveia de cirrotropio dos abiteias, a queramento sobre o livro das sensações com um granda escrapulo de arudição sentia.

«الإنعطاط غيابُ اللَّاوعي النَّامُ، فاللَّاوعيُ أُسُّ الحياة الْمُطلَقُ. فلو فكَّرَ القلبُ، لتوقَّفتُ دَقَّاتُهُ». [163].

finse dada, por certa, eutra realidade que não as nosase sensações, nellas nos abrigamos, e a clias explorames como grandes países desconhecidos. E, se nos expregamos assiduemente, não só na contemplação esthetica, mas tambem na expressão dos seus medos e resultados, é que a presa ou e verse que escrevemos, destituidos de ventade de querer escala cobre e alheis entendimento ou mever a alheia vontade, é apenas como o fallar alto de quem 18, feito para dar plena objectividade ao prazer subjectivo da leitura.

Sabence bem que toda a obra tem que ser imperfeita, e m que a menos segura das nossas contemplações satheticas será a de aquille que escrevemos. Mas imperfeite á tudo, nem ha poente tam belle que o mão pudense ser mais, axaxima ou brisa leve que nos de sommo que não pudense dar-nos um somme mais calmo ainda. E assim, contemplado-res eguass das montanhas e das estatuas, gosando os dias como os livros, sonhando tudo, sobretudo, para e convertor na nossa intima substancia, faremos tambem descripeções e analyses, que, uma vez feitas, passarão a ser coissas alheias, que podemos gosar como se viessem na tarde.

Who so conceite dos pessimistas, como aquelle de Vigny, que a vida é uma éadeia, a elle tecia allé palha para se distrahir. Ber pessimista é tomar qualquer coisa come tragico, a essa attitude é um exaggere e um incommedo. Hão temos, é certe, um conceito de valia que appliquemos á obra que produzimos. Producipol-a, é certe, para mos distrahir, porém não como e preso que tece a palha, municommentamentamentamenta para se distrahir de Destino, senão da menina que borda almofadas, para se distrahir, sem mais mada.

Considero a vida uma estalagem onde tenhe que me demorar até que chegue a diligencia do abyeso. Não sei ella me levará, porque não sei nada. Poderia considerar esta estalagem uma prisão, porque estou compolítido a aguardar nella; poderia consideral-e um logar de socia-veis, porque aqui me encentro com outros. Não sou, porém, nem impaciente nem commum. Deixo ac que são es que se fecham no quarte, deitades molles na cama onde esperam; deixo ao que fazem es que conversam nas salas, de ende as musicas e as veres chegam commedas até mim. Cento-me á porta e embeto meus elhos e cuvidos nas cores e nos sons da paisagem, e canto lento, para mim só, vagos cam-tos que componhe esquente espero.

Para todos nos descerá a noite e minguiá chegará a diligencia. Goso a trisa que me dão e a alme que me de-ram para gosal-a, e não interrege mais nem procure. Se o que deixar escripto ne livre dos viajantes puder, relido um dia per outres, entrebel-ce lambez na passagen, será bem. Se não e leren, nom se entretiverem, será hem tambem.

me the property

و أرى المناظر الطَّبيعيَّة التي حلمتُ جا واضحةً وضوحَ الناظر الطَّبيعيَّة الحَقَّة التي أراها؟. [223].



لاتُحادث، عبر ذاكرتي، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب، [259].

CODES! A B C STH, STH EDITIONS A SENTLEY

To

F. & E. STONEHAM, LTD.,

THE CITY BOOKSELLERS.

79 CHEAPSIDE, LONDON, E.C.2,

:

ENGLAND

Please send the following books and charge to my account, for which I enclose remittance

Name

Address

arma Las	
- in other of punches a	Price
Adamstonnes on . posses	
Entition of month of law.	24
i micro de como pero la	da_
alin on one	-
5 cm/ (1)	1
I have the come a stranger	
Ede milano	
Travel !!	
3. China de la contraction de	. Auren
And the state of t	
Carried Forward	- 1

rioresco alto ar solitão posturas um sindeiro incognito por traz de uma janeila. Tuis mais na procidade que vejo está escuro, saivo onte reflexos freuxos in lus das ruas sobo vagamente e faz um luar inverso, muito pullido. En negrura la noite a propria casaria destaca pouco, entre si, as sons diversas ceres, ou tons da poros: só diffrenças vagas, dir-pe-hia abstractas, irregularisam o conjuncto atropoliado.

candistro. Mo é « corrum circumstancia de estarnos arbos accordados: não ha misso una reciprocidade possivel, pots, estante en à janella no escuro, elle nunca poderia verme. A outra cousa, minha có, que se prende un pouce com a sensação de isola ento, que participa da noite e do silencia, que esconide aquelle candiciro para ponto de appeio porque à o unico ponto de appeio qua ha. Parece que é por elle estar ilimitada acceso que a noite à tem escura. Parece que é por eu estar disperto, sonhando na treva, que elle está aliumiando.

Tudo que existo existo talvez porque outra coisa existo. Nado é, tudo coexiste: talvez essim soja certo. Sinto que cu não existiria nesta hora que não existiria, ao menos, do modo em que estou existindo, com esta consciencia presente de mim, que por ser consciencia e presente é nesto momento inteiramente ou - se aqualis candiciro não estivesse accesso além, algures, pharol não indicando nado num falso privilegio de altura. Sinto isto perque não sinto nada. Pense isto porque isto é nada. Nada, nada, parte da noite e do silencio é do que can ellos en sou de nulle, de negativo, de intervallar, espaço entre mim e mim, esquecimento do qualquer deus...

12 8/9/1933.

[2 سپتمبر 1931]

كنتُ، دون أن يشعر بي أحدُّ (الشَّاهدَ على تبدُّد حياي الوثيدِ، وعلى التَّحطُّم البطيء لكلِّ شيء رغبتُ في أن أكونَهُ أبداً. أستطيع القول، بالحقيقة التي لا تتطلَّبُ أكاليل زهورٍ تُذكِّرُها بزوالها، إنَّه لا يُوجَد شيء واحدٌ رغبتُ فيه، أو وضعتُ فيه لبرهة حلميَ الآنيَّ، لم يتهاوَ ويتهشَّم تحت نافذي، ثُمَّ يتسجَّى مثل البقايا المُغبرَّة لِكُتلة من تُرابِ سقطتْ من أصيص زهورٍ على شرفة عالية فوق الشَّارع. ويبدو أنَّ القَدَر كذلك قد حاول دائها، أوَّلاً وقبل أيِّ شيء، أن يجعلني أُحبُّ أو أرغب في شيء بعينه، ثُمَّ يُقدِّرُ عليَّ أنْ أرى، في اليوم التَّالي، أنَّني لم أُحبَّ ذلك الشَّيءَ ولم أرغب فيه، وأنَّني لن أُحبَّه ولن أرغب فيه بتاتاً.

ولكنّني لم أفقد قَطَّ -أنا رَائِيَ نَفْسي المُتهكِّم - الاهتاع بمراقبة الحياة. ولأنني أعرف سلفاً في هذه الأثناء أنَّ كلَّ أملٍ مُتردِّد سوف يُسحَق، فإنّني أكابدُ لذَّة الاستمتاع بالوهم المصحوبة بالألم، وهي لذَّة حلوة ومُرَّة تغلب عليها الحلاوة. أنا مُخطِّطٌ استراتيجيُّ كثيب خسرَ كلَّ معركة، وهَا هُوَ يضعُ، في هذه اللَّحظة، عشيَّة كلِّ مَوقعةٍ جديدة، تفاصيلَ الانسحاب المُميت، مستمتعاً بالخطَّة وهو يقوم بذلك.

ونقد طاردني مثل مخلوق شرِّير ذلك القدرُ المحتوم بأنْ أظلَّ عاجزاً عن الرَّغبة، دون أن أعرف سلفاً أنَّ رغبتي لن تتحقَّق أَبداً. فكلَّما شاهدتُ جسمَ صَبيَّة في الشَّارع، أتساءل لحظةً، مهما كنتُ شاردَ الذَّهن، كيف ستكون حياتي لو كانت لي؟ ولكنَّ تلك الصَّبيَّة، في كلِّ مرَّة، وعلى بُعْد عشر خطوات من حلم يقظتي، تلتقي رجُلاً من الواضح أنَّه زوجها أو عشيقها. قد يصنع شخص رومانسيُّ من هذه الحادثة مأساةً، وقد يصنعُ منها ملهاةً شخصٌ غريب، ولكنَّني أخلطُ الاثنتين معاً، فأنا رومانسيُّ وغريب عن نَفْسي على حدِّ سواء، ثُمَّ أقلبُ الصَّفحة بكل بساطة كي أستمتع بالمُفارّقة السَّاخرة التَّالية.

يقول بعضُهم لا حياةً بلا أمل، ويقول بعض آخر إنَّ الأمل يجعل الحياة عبثيَّة. بَيْدَ أنَّ الحياة، بالنِّسبة إليَّ، أنا المحروم من الأمل واليأس، ليستُ إلَّا صورةً أنا موجودٌ فيها ولكنَّني

⁽²⁸⁵⁾ الكلمة التي يستخدمها بِسُوَّا في الأصل هي incognito (مستتر/ مُتخفٌ)، كأنَّه كان يشهد تدهور حياته دون أن يشعر به شيءٌ حتَّى حياته ذاتها، مستتراً حتَّى عن نَفْسه؛ وهي كلمة تذكرنا بمصطلح «الشَّاهد المُستتر/ المتخفِّي» الذي يسرد الأحداث دون أن يعرف اسمه أحدُّ أو يراه البتَّة. (المترجم)

أنظر إليها كما لو كانت مسرحيَّة بلا حبكة، لا تُمَثَّلُ إلَّا كي تُسَرَّ بها العين - رقصة بَالِيه متنافرة، حفيف أوراقٍ على شجرة، غيوم تُبدُّل ألوانها بالضُّوء الذي يتغيَّر، شبكات عشوائيَّة من شوارع عتيقة في أجزاء غريبة من المدينة.

وأنا، إلى حدِّ بعيد، عَيْنُ النَّر الذي أكتبُهُ. أصوغُ نَفْسي في جُمَلِ وفقرات، أُرَقِّمُ نَفْسي، ثمَّ أُتوِّجُنِي مَلِكاً، في متوالية الصُّور المُطلَقة العنان، كما يفعل الأطفال بتاج قُدَّ من صفحة جريدة، أو أُكلِّلْنِي، كما يفعل المجانين، بأزهار ذابلة لكنَّها مازالتْ حيَّة في أحلامي، حين أعثر على إيقاعات في متوالية من الكلمات، ليس إلَّا. وأنا، فوق ذلك كلّه، هادئُ هدوء دُمية حُشِيَتْ نشارة خشب، تغدو واعية بِنَفْسها، فتومئُ برأسها، بين حين وآخر، حتَّى يرنَّ الجرسُ المُعلَّق في أعلى القُبَّعة المُدبَّبة المخيطة فوق رأسها: رئينَ الحياةِ في رجل ميِّتِ، تحذيراً بسيطاً للقَدر.

ولكن، كم مرّة قد تسرَّب ببطء إلى مشاعري الواعية، في غمرة تبرُّمي الهادئ، إحساسٌ بالخواء والسَّأم من طريقة التَّفكير هذه! وكم مرَّة شعرتُ، مثل شخص يسمع أصواتاً تنبلج من بين جُلَبٍ متقطَّعة أُخرى، بالمرارة الضَّر وريَّة لهذه الحياة الشَّديدة الغرابة عن الحياة البشريَّة؛ حياة لا شيء يحدثُ فيها إلَّا وعيُها بِنَفْسها. وكم مرَّة لمحتُ من المنفى الذي هُو أنا، حين أستيقظُ من نَفْسي، كم من الأفضل كثيراً أن أكون اللَّا أحدَ الأخير، الرَّجلَ المحظوظ الذي يشعر بالتَّعب وليس بالسَّام، والذي يشعر بمرارة حَقَّة على الأقلِّ، الرَّجلَ القانع الذي يشعر بالتَّعب وليس بالسَّام، والذي يُعاني بدلاً من أنْ يتخيَّل أنَّه يُعاني، ليس إلَّا، والذي يقتل نَفْسه حقاً عوضاً عن أن بموت على مهله، لا أكثر.

بِتُّ شخصيَّةً في كتاب، حياةً قُرِئَتْ في السَّابق. وما أشعرُ به، ضدَّ رغباتي تماماً، قد شعرتُ به من قَبْلُ، كي أُدوِّنَهُ. وما أُفكَرُ فيه يظهرُ لاحقاً وقد صِيغَ كلماتٍ، مُختلطاً بصُورٍ تَبطِلُ التَّفكير كلَّه، مسبوكاً في إيقاعاتٍ تعني شيئاً آخَر تماماً. ولقد دمَّرتُ نَفْسي بإعادة الكتابة هذه كلِّها. وأنا، بهذا التَّفكير كلِّه، وفي هذه اللَّحظة، مجرَّد أفكاري وليس نَفْسي. سبرتُ غَوْدَ أعاق نَفْسي ولكنَّني أسقطتُ خيطَ الشَّاقُول؛ قضيتُ حياتي متسائلاً إنْ كنتُ عميقاً أم لا ولا شيءَ يسبر أعاقي إلَّا عيناي اللَّتان لم تكشفا لي، على نحو واضح، أمامَ المرآة السَّودا ولا شيءَ يسبر أعاقي إلَّا عيناي اللَّتان لم تكشفا لي، على نحو واضح، أمامَ المرآة السَّودا ولا أنظرُ إليهِ.

أنا مثل ورقة لعب تنتمي إلى مجموعة أوراق لعب عتيقة ومجهولة؛ المجموعة الوحيدة الباقية من مجموعة ضائعة. لا معنى لي، ولا أعرف قيمتي، ولا شيء أقارن نَفْسي به كي أعثر على نَفْسي، لا هدف لديّ في الحياة أعرف به نَفْسي. وهكذا، في الصُّور المتتابعة التي استخدمها لوصف نَفْسي - صُور ليستْ كاذبة لكنها ليستْ صادقة أيضاً - أغدو صورة أكثر من كوني نَفْسي، مُتحدِّدًا إلى نَفْسي حتَّى تكفّ عن الوجود، كاتباً بروحي التي هي الحبرُ الذي لا غاية لَهُ إلّا أن يكتب، ولكنّ ردَّة الفعل تلك تتلاشي فأخلى عن نَفْسي ثانية أعود للى نَفْسي مثلها أن، حتَّى لو كان ذلك لا شيء. ثُمَّ شيءٌ كالدُّموع الجافَة تلتهبُ في عيني المُحدِّقتَيْن؛ شيء مثل قلق، لم أشعر به من قَبْلُ، يعلقُ في حَلْقي. ولكنْ، يا للحسرة، لا أعرف الحيل قريباً مِنِي عليه إنْ كنتُ قد بكيتُ، ولا ما الذي قد كانَ حتَّى إنَّني لم أبكِ عليه. ينشقُ ما الذي بكيتُ عليه إنْ كنتُ قد بكيتُ، ولا ما الذي قد كانَ حتَّى إنَّني لم أبكِ عليه. ينشقُ الخيالُ قريباً مِنِّي قُرْبَ ظلّى، وكلُّ الذي أحلمُ به هُوَ التَّوم.

317

[3 سپتمبر 1931]

أشدُّ المشاعر إيلاماً، وأشدُّ العواطف حُرقةً، هي أيضاً أشدُّها عبثيَّةً - التَّوق إلى الأشياء الستحيلة لأنَّها مستحيلة فحسب، والحنين إلى ما لم يكُن قَطُّ، والرَّغبة في الذي كان يمكن أن يكون، مرارة المرء لأنَّهُ ليس شخصاً آخَر، أو تبرُّم المرء من وجود العالم ذاته. تخلقُ هذه الصُّور الظِلِّيَّة لوعي الرُّوح منظراً طبيعياً بكراً داخلنا، شمساً تغرب أبداً على ما نحن عليه. فيغدو إحساسنا بأنْفُسنا حقلاً مهجوراً عندما يهبطُ اللَّيل، بقصبِ حزين يحيط بنهر لا قواربَ فيه، يلمع في العتمة التي تكبرُ بين ضفَّتين بعيدتين.

لا أعرف إنْ كانت هذه المشاعر بعض جنون بطيء ناجم عن فقدان الأمل، إنْ كانت ذكريات عالمَ آخر عشنا فيه - ذكريات مشوَّشة ومختلطة، كأشياء لُمِحَتْ في الأحلام، عبثيَّة مثلما نراها في هذه اللَّحظة، على الرَّغم من أنَّها ليستْ في شكلها الأصليِّ لو كنَّا نعرف ما هُوَ هذا الأصل. لا أعرف إنْ كُنَّا ذات مرَّة مخلوقات أخرى لا نُحسُّ بِكَمَاها الأعظم إلَّا على نحو ناقص اليوم، مجرَّد ظلالِ ما كانت عليه، مخلوقاتٍ فقدت صلابتها في تخيُّلاتنا الواهية، ثنائيَّة البُغد، عنها بين الظُلال التي نسكنُ فيها.

أعرفُ أنَّ هذه الأفكار قد ولَّدتها عاطفةٌ تَمَيَّزُ من الغيظ في الرُّوح. استحالةُ تخيُّل شيء قد تنسجم معه، استحالة العثور على بديلٍ عمَّا تنطوي عليه في الرُّؤى، وهذا كلَّه شديد الوطأة على المرء مثل حُكم صادر ضدَّه، ولا يعرفُ أين، ولا يمَّن، ولا لماذا.

بَيْدَ أَنَّ كُلَّ ما يبقى من هذا كلَّه نفورٌ من الحياة وكلِّ تجليًاتها، سأمٌ ذو بصيرة بكلِّ رغباته وطرائقه، نفورٌ مجهول من كلِّ المشاعر. يغدو مستحيلاً بالنِّسبة إلينا، في لحظات الألم المُبرِّح هذه، أن نكون حتَّى في الأحلام عُشَاقاً أو أبطالاً أو حتَّى سعداء. ولقد قِيلَ هذا كلَّه بلغة أخرى، فلا نستطيع أن نستوعبه، وبات مجرَّد أصوات ومقاطع لا تجد صدى في فهمنا. الحياة جوفاء والرُّوح جوفاء والعالم أجوف. والآلهة تموت موتاً أعظم من الموت نَفْسه. كلُّ شيء أشدُّ خَواءً من الحوت نَفْسه. كلُّ شيء أشدُّ خَواءً من الحَواء، وكلُّ شيء فوضى عَدَم.

إذا فكرتُ في هذا فنظرتُ من حولي لأرى إنْ كانت الحقيقة سوف تُطفئ ظمئي، فسأرى بيوتاً خالية من المعنى، ووجوها خالية من المعنى، وإيهاءات خالية من المعنى، أحجارٌ، وأجساد، وأفكار - كلَّ شيء ميِّت. كلُّ حركة ضربٌ من الشّكون، وكلُّ شيء في قبضة الجُّمود. لا شيء يعني أيَّ شيء لي. كلُّ شيء يبدو غير مألوف، ليس لأنَّني أجده غريباً، وإنَّها لأنَّني لا أعرف ما هُوَ. العالمُ ضائعٌ. وثمَّة، في أعهاق روحي -الحقيقة الواقعيَّة الوحيدة لهذه اللَّحظة - ألمٌ مُبرِّحُ محجوبٌ، وحزنٌ كصوت شخص يبكي في غرفة معتمة.

(286) 318

[10 و 11 سپتمبر 1931]

منذُ الصَّباح الباكر، خلافاً لهذه العادة المُشمسة للمدينة المُشرقة، وصفوفُ البيوت المتتابعة، والأراضي الفارغة، والكِفَاف الوعر للطُّرُق والمباني، قد لفَّتُها بطَّانيةُ سديم خفيفة موَّهتها الشَّمس على مهلها بلون الذَّهب. ثُمَّ بدأ الضَّباب الرَّقيق عند اقتراب الظَّهيرة ينحلُّ ويتلاشى واهياً، في هبَّاتِ ظلالِ كإماطةِ اللَّهُم. وكان الدَّليل الوحيد المتبقِّي على تلاشي

⁽²⁸⁶⁾ ثمَّة عبارة خطَّها يِسُوًّا بقلم رصاص في رأس القصاصة دوَّن عليها هذه الشَّذرة (بالآلة الكاتبة وقلم الرَّصاص): «مقاطع بديلة مثل هذه رفقة المقاطع الأطول؟ a alternação de trecnos assim com os maiores? وهي مذكورة في مفتّتح هذه الشَّذرة في الطبعات البرتغاليَّة كافَّة، ما عدا طبعة سوبراو كونيا، وفي طبعة زينيث نجدها

السَّديم، بحلول السَّاعة العاشرة، زرقةَ السَّماء الباهتة على نحو طفيف.

ولمّا أُميطَ لثامُ الحُجُب، وُلِدتْ ملامح المدينة من جديد. والصَّبْحُ الذي كان قد تنفّسَ، تنفّسَ ثانية، كأنّ نافذة قد انشقَتْ فجآة مفتوحة على مصراعيها، ثُمّ تعالتِ الجُلَبُ في الشّوارع على نحو مختلف قليلاً، كأنّها هي أيضاً قد ظهرت فوراً. كانت زرقةٌ قد اندسّتْ حتّى في الحصى المرصوف وفي الهالات المجهولة للعابرين، وكانت الشّمس حامية، ولكنّهُ حرّ رطب كأنّ السّديم الذي باتَ مُحتجِباً، في هذه اللّحظة، قد صَفّاهُ.

طالما وجدتُ في يقظة المدينة، سواء أكانتْ مُكلَّلةً بالسُّدُم أمْ غيرَ مُكلَّلةٍ، إثارة أكثرَ من شروق الشَّمس في الرِّيف. ثمَّة إحساسُ أعمقُ بالولادة من جديد، بالتَّسُوُف إلى المَزيد؛ عوضاً عن مُجرَّد إنارة الحقول، والصُّور الظُّلِيَّة للشَّجر، وراحات أيدي أوراق الأشجار المفتوحة بالعتمة أوَّلاً، ثُمَّ بالضَّوء السَّيَّال، ثُمَّ أخيراً بالذَّهب الخالص البرَّاقِ، تُضاعِفُ المفتوحة بالعتمة أوَّلاً، ثُمَّ بالضَّوء السَّيَّال، ثُمَّ أخيراً بالذَّهب الخالص البرَّاقِ، تُضاعِفُ الشَّمس تأثيرها في النَّوافذ، وعلى الجدران، وفوق أسطح البيوت [...] -نوافذ كثيرة، وجدران كثيرة مختلفة، وأسطح متنوِّعة كثيرة جداً كي تُشرِق صباحاً بهياً، مُتعدِّد الأشكال في تلك الحقائق الواقعيَّة المتعدِّدة. تسرُّني رؤية الفجر في الرِّيف، ورؤيةُ الفجر في المدينة تُوثَر في السَّرَّاء والضَّرَّاء على حدَّ سواء، ولهذا فإنَّها تغمرني بالمسرَّة وأكثر. فالأمل الأكبر في، في السَّرَّاء والضَّرَّاء على حدَّ سواء، ولهذا فإنَّها تغمرني بالمسرَّة وأكثر. فالأمل الأكبر الذي تُثيره فِي ينطوي، مثل كلِّ أملٍ، على المذاقِ المُتبقي البعيد الذي يحنُّ إلى الماضي؛ مذاقِ اللَّدي تُشيره فِي ينطوي، مثل كلِّ أملٍ، على المذاقِ المُتبقي المعنى بالمسرَّة وأكثر. الأوَّل يجعلك تُفكّر . لكنني آمنتُ دائهً، مثل كلِّ العظهاء السَّيئي الحظّ، بأنَّ من الأفضل أنْ أُفكّر بدلاً من أن أعيش.

319

[14] سپٽمبر 1931]

أعلَنتُ عن قدوم الخريف في المساءات العشوائيَّة نعومةُ ألوانٍ معيَّنة في السَّماء الفسيحة، ونفحات نسيم بارد هبَّت في أعقاب الأيَّام الباردة الأولى للصَّيف المحتضر. لم تفقد الأشجار خضرتها أو أوراقها بَعْدُ، ولم يَأْتِ بَعدُ ذلك الكَربُ الغامض الذي يصاحب وعيَنا بأيِّ موت في العالم الخارجي، لأنَّه يعكس بكلِّ بساطة موتنا المستقبليَّ. كأنَّ الطَّاقة المُتبقية قد

تعبَتْ، فَرَانَ وَسَنٌ على المحاولات الأخيرة للإتيان بأيِّ حركة. آوٍ، هذه المساءات طافحة بتلك اللَّامبالاة المؤلمة كأنَّ الخريف قد حلَّ فِينَا عوضاً عن العالَم.

وكلُّ خريفٍ يحلُّ يُقرِّبنا أكثرَ إلى ما سوف يكون خريفنا الأخير، والشَّيءُ ذاتُه قد يُقال عن الرَّبيع الفائت أو الصَّيف المنصرم، ولكنَّ الحريف - بطبيعته - يُذكِّرنا بنهاية كلِّ شيء؛ النَّهايةِ التي من السَّهل نسيائها في الفصول التي هي ألطفُ منه. لكنَّ الحريف لم يحلَّ تماماً بعدُ، والهواء لم يطفح بالأوراق الصَّفراء السَّاقطة بَعْدُ، ولم يأتِ أيضاً ذلك الطَّقس الرَّطب الحزين الذي سوف يستحيل شتاءً في النِّهاية. بَيْدَ أَنْ ثمَّة تشوُّفاً إلى الحُزن، إلى لوعةٍ حميمة قد ارتدتْ ثيابَها واستعدَّتْ للرِّحلة في وعي المرء مها كان غامضاً، بألوان الأشياء التي تتفشَّى، بنغمة مختلفة في الرِّيح، مهدوء عتيق يهجمُ على مهله، حين يهبط اللَّيل على الحضرة الكونية التي لا مندوحة عنها.

نعم، سنمرُّ، وكلُّ شيء سوف يمرُّ. ولن يبقى شيء من الشَّخص الذي يرتدي مشاعرَ وقُفَّازات، ذاك الذي يتحدَّث عن الموت والسِّياسة المحليَّة. الضُّوء ذاتُه يسقط على وجوه القدِّيسين وعلى الجَرَامِين (حقي الحَرَيها المارَّة، واحتضار ذلك الضَّوء نفسه سوف يتركُ في العتمة التعدَّم المُطلَق الذي سيكون كلَّ ما تبقَّى من حقيقة أنَّ بعضهم كانوا قدِّيسين وبعضهم الاخرَ ارتدوا جراميق. وتمتلك النيَّاب التي تخيطها الحيَّاطات القيمة ذاتها التي تمتلكها عالك بأكملها، في الدوَّامة الشَّاسعة التي يتمرَّغ فيها العالم كلُّه، متراخياً، كأنَّه في دوَّامة من أوراق الأشجار الجافَّة؛ وضفائر الأطفال الشَّقراء منجرفة في الدَّوَّامة المُميتة ذاتها التي تجرف الصَّو لجانات الرامزة ذات مرَّة إلى الإمبراطوريَّات. لا شيءَ مهم، وفي ردهة المرئيِّ الذي لا الصَّو لجانات الرامزة ذات مرَّة إلى الإمبراطوريَّات. لا شيء يرقصُ، كبيراً كان أو صغيراً، ينفتح بابُهُ إلَّا ليكشف عن باب مُوصَد آخر خلفه، كلُّ شيء يرقصُ، كبيراً كان أو صغيراً، كلُّ شيء يرقصُ عبداً للرِّيح التي تترف حين تجرفُ وتكتسح، وليس ثمَّة صمتُ إلَّا حين تسمح حتَّى صوتٌ، ليس إلَّا صوت الرِّيح حين تجرفُ وتكتسح، وليس ثمَّة صمتُ إلَّا حين تسمح حتَّى صوتٌ، ليس إلَّا صوت الرِّيح حين تجرفُ وتكتسح، وليس ثمَّة صمتُ إلَّا حين تسمح حتَّى صوتٌ، ليس إلَّا صوت الرِّيح حين الشيء المُقيلة. وبعضهم الآخر، الذي لا يمكن تمييزه بالأرض، لذا يسقطون خارج داثرة الأشياء النَّقيلة. وبعضهم الآخر، الذي لا يمكن تمييزه بالأرض، لذا يسقطون خارج داثرة الأشياء النَّقيلة. وبعضهم الآخر، الذي لا يمكن تمييزه بالأرض، لذا يسقطون خارج داثرة الأشياء الثَّقيلة. وبعضهم الآخر، الذي لا يمكن تمييزه

⁽²⁸⁷⁾ الجُرْمُوق: ما يُرتَدى فوق الحذاء وقاية له من الماء أو غيره. (المترجم)

إِلّا عن قُربٍ، يشكِّلُ طيَّةً واحدة في داخل الدوَّامة، لا تكاد تُرَى، مثل الغبار. وثمَّة، مرَّة أخرى، أولئك الذين كأنَّهم جذوع أشجار مُنمنَمة، لا يُجرُّون إلى الدَّائرة إلَّا كي يُهجَروا في زوايا مختلفة من الأرض. وذات يوم، حين تنتهي المعرفة كلُّها، سينفتح الباب الذي خلف الباب فَيُكْنَس من البيتِ كلُّ شيء كُنَّاهُ -نحن الذين لم نكن إلَّا مُجرَّد حطام نجوم وأرواح - ويبدأ ثانيةً ربها أيَّ شيء تبقَّى.

قلبي يوجعني كأنَّه ليس قلبي. وعقلي يُهدهِدُ للنَّوم أيَّ شيء أشعر به. نعم، إنَّها بداية الخريف الذي يلمس الهواءَ وروحي على حدِّ سواء بالضُّوء العابس ذاته الذي يحدُّ بالأصفر الباهت الحوافُّ الضَّبابيَّة لبِضْع غيماتٍ عند المغيب. نعم، إنَّها بداية الخريف وبداية فهم صافٍ، في هذه السَّاعة الصَّافيةُ، للقُصور المجهول الذي يكتنف الأشياء كلُّها. الخريف، نعم، الخريف، مثلها هُوَ الآن وما سوف يظلُّ تشوُّفاً إلى تَعَبِ في كلِّ إيهاءة، وإلى خيبةِ أمل في كلِّ حُلم. فأيُّ آمال محتملة يمكن أن أرتجيها؟ لقد مشيتٌ، في أفكاري، بين أوراق أشجار الرَّدهة وغبارها، عالقاً في هذا المدار عديم الإحساس الذي يدور على لا شيء، وخطواتي الصُّوت البشريُّ الوحيد فوق الحجارة النَّظيفة التي ترصف الطَّريق؛ الحجارةِ التي تجلوها بالموتِ شمسٌ عموديَّةٌ لا أعرفُ من أين تشرقُ. سيأخذ الخريف كلَّ شيء، كلَّ شيء فكَّرتُ فيه أو حلمتُ به أبداً، كلُّ شيء فعلته أو لم أفعله، أعواد النُّقاب المُستهلكة متناثرة خبط عشواء على الأرض، قصاصات مهملة، إمبراطوريَّات عظيمة، جميع الدِّيانات والفلسفات التي اخترعها أطفال الهاوية النَّاعسون كي يتسلُّوا بها. سيأخذ الخريف كلَّ شيء، كلُّ شيء، أقصدُ، كلُّ شيء كوَّن روحي، من الطُّموحات النَّبيلة حتَّى المنزل العاديِّ الذي أعيش فيه، من الآلهة التي عبدتها ذات مرَّة حتَّى ڤاسْكِش، ربِّ عملي. سيأخذ الخريف كلُّ شيء، سيكنسُ كلُّ شيء بلامبالاةٍ رقيقة. سيأخذ الخريف كلُّ شيء.

320

[15 سپتمبر 1931]

نحن لا نعرف حتَّى إنْ كان النَّهار، الذي ينتهي في هذه اللَّحظة، يقتربُ حقاً من نهايته فِينَا كَحُونٍ عَبْثِيِّ، أو إنْ كانَ ما كُنَّا عليه هُوَ الآنَ مجرَّد وهم في العتمة التي تَكْبُر، حيث لا شيء إلَّا الصّمت العظيم -حتّى دون صرخات البطّ البريّ - الذي يسقطُ على البحيرات حيث يرفعُ القصبُ أنصالَهُ القاسية المُنتشية بالحُبُور. لا نعرفُ شيئاً، ولا نمتلك حتّى ذاكرة حكايات الطُّفولة التي باتت مجرّد طحالب، في هذه التّحظة، أو المداعبة المتأخّرة لساوات مستقبليّة، نسيم ينفتحُ غموضُه في النُّجوم على مهله. المصباح النَّدريُّ يرتعش متردِّداً في المعبد الذي لا يزوره أحدٌ، والبرك تركدُ في شمس الحداثق المهجورة، لم نَعُدْ نتبيَّنُ الاسمَ الذي نقشَه شخصٌ على جذع شجرة، وامتيازات الجهلة كُنَّسَتْ، مثل ورق مُمزَّق، على امتداد طُرُق تببُ فيها الرَّيحُ، حتَّى اعترض طريقها ما سَدَّها. سيميلُ بعضهم من النَّوافذ ذاتها، فأولئك الذين نسوا المخاوفَ الغامضة نائمون، يغمرهم حنينٌ إلى الشّمس التي لم يعرفوها قطُّ؛ وأنا نَفْسي، نسوا المخاوفَ الغامضة نائمون، يغمرهم حنينٌ إلى الشّمس التي لم يعرفوها قطُّ؛ وأنا نَفْسي، أن الذي يجرؤُ لكنَّهُ لا يفعلُ، سوف أنتهي، بلا أيِّ ندَم، بين ذلك القصَب المُخضل الذي أو حَلَه الماكن أنهو القريبُ وأو حَلَته عطالتي الواهنة، تحت سياوات المساء الشّاسعة، في الأماكن القصيّة على نحو مستحيل. لكنّني، عبر ذلك كلِّه، ومثل الصّفير المُجلجل للقلق العاري، سوف أشعر بروحي في أحلامي: عواءٌ خالصاً، عميقاً، وعبثياً في عتمة العالمَ.

321

[1931 سپتمبر 1931]

يموتُ النّهار الرّاحلُ، سيّالاً، بين الأرجوائيّات المُبدّدة. لا أحدَ سيخبُرني مَن أنا، ولا أحدَ يعرفُ مَن كنتُ. جئتُ من جبَل مجهول إلى الوادي المجهول مِثْلِه، فكانت خطواتي في المساء البطيء مجرّد آثار خلّفتُها في أراضي الغابات التي اجتثّتُ أشجارُها. كلُّ مَن أحببتُهُ قلا هجرني إلى الظّلال. لم يعرف أحدٌ موعدَ القارب الأخير. ولم تكُن ثمّة لافتة في مكتب البريل عن الرّسالة التي لن يكتبها أحدٌ أبداً، نعم، كان كلُّ شيء باطلاً. ولم تُرُو حكاياتُ قد رواها الآخرون من قَبْلُ، ولم تكُن لدى أحدٍ معلومة أكيدةٌ عن الشّخص الذي غادر مبكّراً على أمل الإبحار بقارب وهميٌّ؛ طفلِ الضّباب القادم والحيرة المستقبليّة. في اسمٌ بين المتأخرين ولكنّه مجرّد ظلَّ، كأيُ شيء آخر.

[7 أكتوبر 1931]

الغروب منثورٌ بغيوم ضالَّةٍ تملاُ السَّماء كلَّها. أضواءٌ ناعمة منعكسةٌ لكلِّ لون يملاُ الهواء المُتعدِّدَ العُلويَّ، ثُمَّ تطفو، جاهلة، بين القلق العظيم الذي في الأعلى. وفوق قمَّة كلِّ سطح بيت، نصفُ لونٍ، ونصفُ ظلِّ، والأشعَّةُ الأخيرة المتوانيةُ للشَّمس الغاربة تتَّخذُ شكلَ ظلالِ الألوان التي لا تنتمي إليها ولا حتَّى إلى الأشياء التي تضيئها. سكينةٌ شاسعة تحوِّم فوق سطح المدينة الصَّاخب؛ المدينة التي تستقرُّ هادئةً على مهلها. وخلفَ كلِّ لون وصوتٍ يَشهقُ كلُّ شيءٍ شهيقاً عميقاً أخرس.

وتكتسبُ الألوانُ التي فوق البيوت المُجصَّصة، التي لا تنالها أبصارُ الشَّمس، درجاتها اللَّونيَّةَ الرَّماديَّة التي بلون الحجر، رويداً رويداً. ثمَّة شيءٌ بار دبشأن تنوُّع الألوان الرَّماديَّة. قلَقُ خفيف تأخذهُ سِنَةٌ من النَّوم في الأخاديد الباطلة في الشَّوارع. تأخذه سِنَةٌ من النَّوم فتغشاهُ السَّكينةُ، ثُمَّ يستحيلُ ظلاً، على مهله، ذلك الضَّوءُ المرفرفُ فوقَ أدنى الغيات العاليات، بيد أنَّ الشَّمس ما تزال تبتسمُ، ذهبيَّة، وبعيدة، فوقَ غيمةٍ صغيرة، تحوِّم فوق كلِّ شيء مثل نسر أبيض.

تخليّتُ عن كلّ شيء بحثت عنه في الحياة، على وجه التّحديد، لأنّه قد توجّب عليّ أن أبحث عنه. أنا مثل شخص يبحث، شاردَ الذّهن، عن شيء في أحلامه بَعُدَ أن نسيَ ما هُوَ أبحث عنه. أنا مثل شخص يبحث، شاردَ الذّهن، عن شيء في أحلامه بَعُدَ أن نسيَ ما هُوَ ذلك الشّيء حقاً. الإيهاءةُ الحاصرة لأيدٍ جليّة -تلك التي تُوجَد حقاً، كلُّ واحدةٍ بأصابعها الحمسة الطّويلة البيضاء - تبحثُ فتقلبُ الأشياءَ، ثُمَّ تلتقطُها وتضعها على الأرض، فتغدو حقيقيّةً أكثر من الشَّيء الذي أبحثُ عنه.

وكلُّ شيء مَلكتُهُ في حياتي على الإطلاق يُشبِهُ هذي السَّماء العالية، المتشابهة في تنويعات الوانها، الطَّافحة بجُذَاذاتِ العدم وقد مسَّها الضَّوء البعيدُ، وشظايا حياة باطلة مسَّها الموتُ، مِن بعيدٍ، بالذَّهبِ، بالابتسامةِ الحزينة للحقيقة برمَّتها. نعم، كلُّ شيءٍ كُنْتُهُ جاءَ من عجزي عن البحثِ وإيجادِ: السَّيِّدِ الإقطاعيِّ لسبخات الشَّفق، الأميرِ المنبوذ لمدينة من قبور فارغة. فكلُّ شيء كُنْتُهُ، أو ما ظننتُ انَّنِي هُوَ، أو ما ظننتُ انَّني قد كُنْتُهُ -في أفكاري هذه، وفي السُّقوط المباغت من ضوءِ تلك الغيمة العالبة - يُرخِي قبضتَهُ فجأةً عن السِّر، والحقيقة،

وربّم حتّى عن الخطر الذي قد يكون في أيّما شيء يستخدم الحياة سريراً. إن هذا، كمثل شمس غائبة، كلُّ ما تبقّى لي؛ والضّوء المُتراوح يسمح ليديه أن تنزلقا من الأسطح العالية فيتجلَّى الظَّلُّ الجوَّانيُّ للأشياء كلِّها، على مهله، فوق الشّطوح.

وبعيداً عن النَّجم البعيد المُتناهِي في الصِّغَر-قطرةُ فضَّةٍ، مُثردِّدة، مُرتَجفةٍ- راحتُ تلمعُ.

323

[16أكتوبر 1931]

لطالما كنتُ حالماً مُتهكّماً، غير مخلص للوعود التي قطعتها على نَفْسي. ولطالما تلذّذتُ بحطام أحلام يقظتي كأنّني شخص آخر غريب، كأنّني كنتُ شريكاً بالصَّدفة فيها فكّرتُ أنّني كُنتُهُ. لم أثق كثيراً في أيّ من معتقداتي. ملأتُ يديّ بالرَّمل وسمَّيته ذهباً، ثُمّ تركتُهُ ينسلُ من بين أصابعي. الجُملة هي الحقيقة الوحيدة. فحين تُصَاغُ الجُملة، ينتهي كلَّ شيء والبقيّةُ الرَّملُ الذي كانّتُهُ دوماً.

لولا حقيقةُ أنّني دائهاً ما أحلمُ وأعيش في حالة من الغُربة الدَّائمة عن نَفْسي، لقلتُ إنّني واقعيٍّ، بكلِّ سعادة، أقصدُ فرداً يعدُّ العالَم الخارجيَّ أُمَّةً مستقلَّة بذاتها. لكنَّني أُفضًل ألَّا أَسِمَ نَفْسي إلَّا أَن أكون نَفْسي، لفترة وجيزة، وعلى نحو غامضٍ، مستمتعاً بالمذاق اللَّاذع لكوني عصياً على التَّنبُّؤ حتَّى بالنِّسبة إلى نَفْسي.

واجبي أن أحلم دوماً، ولأنّني لستُ أكثر من مُجرَّد مُتفرِّج على نَفْسي، ولا أشتهي أن أكون أيَّ شيء آخر، فلا بُدَّ أن أُقدِّمَ أفضل عرضِ أستطيع تقديمه. ولهذا، أتَّشح بالذَّهب والحرائر واضعاً نَفْسي في غرف متخيَّلةٍ على مسرح وهميٍّ بمشاهد قديمة، حلم حلمتُ بهِ أسفلَ الأضواء النَّاعمة التي ترفرفُ، وعلى وقع صوت موسيقى مُحتجبة.

أُقدِّرُ، مثل تذكُّر قُبلةٍ عذبة، ذكرى الطُّفولة عن مسرحٍ كان فيه المشهد القمريُّ الأزرق شرفة قصر مستحيل، وكان قد رُسِمَ من حوله متنزَّة شاسع، فكرَّستُ قلبي كلَّهُ لعيش ذلك كلِّهِ كها لو كان حقيقياً. الموسيقى التي عزفت بهدوء في تلك المناسبة المتخيَّلة في تجربتي الحياتيَّة أضفَتْ على المشهد المجَّانيُّ واقعيَّةً محمومة.

كان المشهد أزرقَ وقمرياً بلا ريبٍ. لا أذكر من ظهرَ على خشبة المسرح، ولكنَّ المسرحيَّة

الني اخرت متيلها، في دلك المنظر الطبيعي الذي تذكّرتُه، تخطر ببالي في هذه اللّحظة على هيئة أبيات من أشعار قرلين أو بِسَّانْيَا على ولم تكن المسرحيَّة، التي طواها النّسيانُ في هذه اللّحظة منذ أمد بعيد، هي التي مُثلّتُ على خشبة المسرح الحَقَّةِ خلف الحقيقة الواقعيَّة لتلك الموسيقى الزّرقاء. إنّها مسرحيَّتي الحاصَّة: حفلةٌ تنكُّريَّة قمريَّة متدفّقةٌ وطويلة، فاصل موسيقيُّ بالفضَّة والأزرق المتلاشي.

ثُمَّ تدخَّلت الحياة. أخذوني في تلك اللَّيلة لتناول العشاء في «لِيَاوْ» (188). مازلتُ أتذكَّر طعم شرائح اللَّحم في ذائقة حنيني - شرائح لحم، أعرفها أو أتخيَّلها، على شاكلة تلك التي لا يطبخها أحدٌ اليوم، وعلى شاكلة تلك التي لا أتناولها بتاتاً. فتختلطُ تلك الأشياء فِيَّ - طفولتي المَعيشَة في مكان بعيد، والوجبة الشَّهيَّة في تلك اللَّيلة، والمشهد القمريُّ، وقرلين المستقبلُ وأنا الحاضرُ - في انكسار ضوءٍ مُنتشر، في فضاء وهميُّ بين ما كُنْتُهُ وما أنا عليه الآن.

(289) 324

[بعد 18 أكتوبر 1931]

أَفضًل النَّرَ على الشَّعر (((الله على الشَّعر)) بوصفه ضرباً من ضروب الفنَّ لسببَيْن؛ الأوَّل يخصني أنا وحدي، أقصدُ لا خيارَ لديَّ، فأنا عاجزٌ عن نظم الشَّعر. والسَّب الثَّاني ينطبقُ على الجميع، وأظنَّه ليس مجرَّد ظلِّ لذلك السَّب الأوَّل أو للسَّب ذاته مُوَّهاً. وربَّما يستحقُّ هذا السَّب الثَّن الوقتَ الذي كرَّستُه كي أُشرَّحه هُنَا، فهو يلمس المعنى الجوَّانيَّ لكلِّ شيء ذي قيمة في الفنِّ.

(288) بقصد: لِبَاوْ ذَا أُوْرُوْ Leão d'Ouro (= الأسد الذَّهبي)، وهو مطعم يقع في لشبونة افتتح في العام 1885، كانت تنتقي في الوَّدهة المخصصة لتقديم البيرة مجموعة من الفتَّانين عرفت لاحقاً باسم اجماعة الأسد Grupo do Leão. (المترجم)

(269) هذا النَّصُ، في الأصل، جزءٌ من متوالية شذرات رقَّمها بِسُوَّا من 1-5، نشرها، باسمه الطَّريح، في العدد النَّالث من Descobrimento. Revista de Cultura» (= استكشاف. مجلَّة ثقافيَّة)، الصادر في العام 1931 (ص 405-405) معنوناً إيَّاها من كتاب القلَق، لبرناردو سوارش المحاسب المساعد في مدينة لشبونة، تأليف فرناندر بِسُوَّاً». (المترجم)

(290) الكلمة التي يستخدمها يشوًا، في الأصل، هي verso وليس poesia، لذا فهو بقصد النَّظم؛ نظم الشُّعر الذي يحضع للقواعد، وليس الشَّعر بمعهومه المطلق. ولكنَّ جول كوستا قد اختارت، هُنَا، استخدام كلمة poetry وليس يخضع للقواعد، وليس الشَّعر بمعهومه المطلق. ولكنَّ جول كوستا قد اختارت، هُنَا، استخدام كلمة poetry وليس بعضع للقواعد، وليس الشَّعر بعن اللَّفظتَيْن. (المترجم)

أعدُّ الشِّعرَ شيئاً وسيطاً، مرحلة انتقاليَّة بين الموسيقى والنَّش. فالشِّعرُ كالموسيقى محكومُ بقواعد إيقاعيَّة مازالتْ موجودة بوصفها ضوابط ومُحدِّدات وآليَّات تلقائيَّة للتَّعمُ في النَّم والعقاب، على الرَّغم من أنَّها ليستْ القواعد الصَّارمة للوزن النِّظاميِّ. نستطيعُ في النَّر التَّفكير. ونستطيع التَّكدُّم بحريَّة، ونستطيع تضمين إيقاعات موسيقيَّة ولا نتوَّقف عن التَّفكير. ونستطيع تضمين إيقاعات موجودين خارجَها. لا يعترض الإيقاع الشَّعريُّ العَرَضيُّ على الشَّعريُّ طريق النَّر، ولكنَّ الإيقاع النَّثريَّ العَرَضيَّ يجعل الشَّعر يتعشَّر.

ينطوي النَّتُرُ على الفنِّ كلَّه - لأنَّ كلَّ شيء موجودٌ، مَن ناحية، في الكلمة، ولأنَّ الكلمة المُتحرِّرة من القيود تحوي داخلها، من ناحية أُخرى، جميع الطَّراثق الممكنة للقول والتَّفكير. يستطيع النَّشر عبر الإبدال التَّعبيرَ عن كلِّ شيء: اللَّونِ والشَّكل اللَّذَيْن لا يستطيع الرَّسمُ التَّعبير عنها إلَّا على نحو مباشر ومن دون أيِّ بُعْدٍ جوَّانيًّ؛ الإيقاع الذي لا تستطيع الموسيفي التَّعبير عنه إلَّا على نحو مباشر عبر ذاتها، دون أيِّ جسد فيزيقيٍّ، ولا حتَّى ذلك الجسد الآخر الفكرة؛ أمَّا المعار الذي يتوجَّب على المهندس المعاريِّ تشييدَهُ من أشياء خارجية صلبة، وموجودة سلفاً، فإنَّنا نُشيِّده من الإيقاعات، واللَّعثات، والسَّكتَات، والتَّعات؛ الحقيقة الواقعيَّة، التي يتوجَّب على النَّعات أن يتركها في العالم، بلا هالة أو استحالة؛ وأخيراً، الشَّع الذي يؤدِّي فيه الشَّاعرُ -مثل أيِّ مُريدٍ جديد في طائفة باطنيَّة - دورَ العبد الرَّاغب في تلبة الذي يؤدِّي فيه الشَّاعر من الطُقوس.

أُومنُ حقَّ الإيهان بأنَّ النَّر، في عالمَ مُتحضِّر تماماً، هُوَ الفنُّ الوحيد. نتركُ مَغيباتِ الشَّمس أن تكون مَغيباتِ، فلا نتجشَّمُ إلَّا عناءً فَهمِها مُشافهة، ونقلها عبر موسيقى مُلوَّنة جليَّةٍ. قد لا ننجِتُ أجساداً تستطيع أن تحافظ على حَناياها اللَّيِّنة، الدَّافئة، النَّاعمة، كي تُرى وتُلمَس، سنشيِّدُ بيوتاً كي يُعَاش فيها فحسب؛ بيوتاً ليست، بعد كلِّ شيء، إلَّا ما شُيِّدتْ من أجله. سيظلُّ الشَّعرُ عالمَ الأطفال، تمهيداً لكتابة النَّشر في المستقبل؛ فالشَّعرُ ينطوي على شيء طفولي، شيء يقوِّي الذَّاكرة، شيءٍ إضافيُّ وأوَّليُّ.

وليستِ الفنونُ النَّانويَّة، لو جاز لي أن أُسمِّيها بذلك، إلَّا أصداء النَّثر الهامسة. وثمَّة النَّثر الذي يرقصُ، ويغنِّي، ويلوي شدقيه تفاصُحاً. وثمَّة إيقاعات شفهيَّةٌ تستطيع الرَّقصَ، النَّثر الذي يرقصُ، ويغنِّي، ويلوي شدقيه تفاصُحاً. وثمَّة إيقاعات شفهيَّةٌ تستطيع الرَّقصَ، فتخلعُ الفكرةُ ثيابَها عاريةً على نحو شهوانيُّ شفيفٍ ومثاليٌّ. ويمكن أن نعثر في النَّئر، أيضاً،

على إياءات حاذقة يستطيع الممثّل العظيم، الذي هُوَ الفِعْل في حدٌّ ذاته، أن يحوِّل، على نحو إيقاعيٍّ، سرَّ الكون الغامضَ إلى جوهرٍ ماديٍّ هُوَ جوهره نَفْسه.

(291) 325

[بعد 18 أكتوبر 1931]

غيومٌ... أنا في غاية الوعي بالسّماء اليوم، ولكنْ ثمّة أيّام لا أراها فيها على الرّغم من أنّني أشعر بها، عائشاً مثلها أفعل في المدينة لا في الرّيف حيث السّماء حاضرةٌ دائها، أشد الحضور. غيومٌ... إنّها حقيقة النّهار الواقعيّة الأساسيّة وإنّني مشغول بها كها لو أنّ تغييم السّماء كان أحد الأخطار الكبرى التي ادّخرها القدّرُ لي. غيومٌ... من النّهر حتّى القلعة، من الغرب حتّى الشّرق، تطفو عبر المسافة، مثل جلبة عارية ومتفاوتة. بعضها أبيض، الطّليعة المُمزّقة لجيش مجهول؛ وبعضُها الآخر هو الغيوم الأثقلُ الّتي تكاد تكون سوداء، تسوقُها ببطء الرّيحُ التي نسمعها بوضوح؛ تبدو، وقد دنّسها الأبيض، مائلة إلى التّريثُ وأن تغمسَ في العتمة وهمَ المكان الذي منحته الشّوارعُ الضيّقة لصفوف البيوت المحتشدة، العتمة التي استفزّها اقترابُ الغيوم أكثرَ من الظّلِ الحَقّ الذي تطرحُه.

غيومٌ... أنا موجودٌ دون أن أشعرَ بذلك وسوف أموت رُغمَ أنفي. أنا البرزخُ بينَ ما أنا عليه وما لستُ عليه، بين ما أحلم به وما صنعتني عليه الحياةُ، المنزلُ الأوسط المُجرَّد اللَّنيويُّ بين أشياءٍ، مثل نَفْسي، هي لا شيء. غيومٌ... كم هُوَ مُقلِقٌ أن أشعرَ، وكم هُو مُعلِقٌ أن أشعرَ، وكم هُو مُعلِقٌ أن أشعرَ، وكم هُو مُبعيُّ أن أويد! غيومٌ... إنّها لا تكفُّ عن العبور، بعضها هائل (على الرَّغم من صعوبة معرفة حجمها ذلك بسب وجود المنازل) إنّه تبدو على وشك أن تستولي على السَّماء كلِّها؛ في حين أن بعض الغيوم الأخرى، ذات الأحجام غير المؤكَّدة، التي يمكن أن تكون غيمتَيْن معا أو غيمة على وشك أن تنقسم إلى غيمتَيْن، تطفو هائمة التي يمكن أن تكون غيمتَيْن، تطفو هائمة على وجهها عبر الهواء العالي الذي يعمُّ السَّماء المُتعَبة؛ وثمَّة في جهةٍ غيومٌ أصغر، في عُزلةٍ هائلة وباردة تبدو كأنَّها دُمى مخلوقات قويَّةٍ، كراتٌ بأشكال غير منتظمة كي تُستخدَم في لعبة عشتَة.

⁽²⁹¹⁾ نُشرِ نَ، أصلاً، في العدد الثالث من مجلَّة (Descobrimento). انظر الحاشية رقم 261. (المترحم)

غيومٌ... أسألُ نَفْسِي، ولكنّني لا أعرفُ نَفْسِي. لم أفعل شيئاً ولن أفعل أيَّ شيء مفيد البيّة كي أُبرِّر وجودي. وجزء حياتي الذي لم أبدّده مُفكِّراً في تفسيرات مشوَّشة عن لا شيء أبداً قد بدَّدتُهُ في صُنعِ قصائد نثر من المشاعر الكتومة التي أستخدمها لجعل الكون المجهول كوْنِي. لقد سئمتُ من نَفْسِي، موضوعياً وذاتياً على حدِّ سواء. وسئمتُ كلَّ شيء وكلَّ شيء عن كلِّ شيء. غيومٌ... إنّها اليوم كلُّ شيء، كِسَفٌ من جَنَّة مُفكِّكة، الأشباء الوحيدة احقَّةُ بين الأرض الخاوية والسَّاء غير الموجودة، قصاصاتُ عصيَّةٌ على الوصف للسَّام الذي بين الأرض الخاوية والسَّاء غير الموجودة، قصاصاتُ عصيَّةٌ على الوصف للسَّام الذي بلا جدران. غيومٌ... إنَّها، مِثلِي، طريقٌ خَرِبَةٌ بين السَّاء والأرض، تحت رحمة وغبة عارمة بلا جدران. غيومٌ... إنَّها، مِثلِي، طريقٌ خَرِبَةٌ بين السَّاء والأرض، تحت رحمة وغبة عارمة ولِلدَتْ من برازخ فارغة ومُنعطفاتٍ عشوائيَّة، بعيدة عن الضَّوضاء الأرضيّة، ولكنّها تفتقر ولِلدَتْ من برازخ فارغة ومُنعطفاتٍ عشوائيَّة، بعيدة عن الضَّوضاء الأرضيّة، ولكنَّها تفتقر إلى صمت السَّاء. غيومٌ... لا تكفُّ عن العبور، مرَّات ومرَّات، مثلها سوف تفعل دائهً، مثل اللَّفِ والحَلِّ الدَّائمَيْن المُتقطِّعيْن لِشِلَل غَزْلِ باهتة، والإطالةِ المُنتشرة لساء متشظّية، باطلة. المُنتشرة لساء متشظّية، باطلة.

(292) 326

[بعد 18 أكتوبر 1931]

ألتذُّ حين أنطقُ الكلمات. أو بالأحرى: ألتذُّ حين أصوعُ الكلمات. فالكلمات، بالنُسبة إليَّ، أجسادٌ ملموسة، عرائسُ بحر (203) جَلِيَّةُ، رغبات شهوانيَّةُ متجسَّدة. ربَّما لأنَّ الرَّغبة الشَّهوانيَّة الحَقَّة لا تعنيني بشيءٍ، أيِّ شيءٍ البَّتَة -ولا حتَّى في الأفكار أو الأحلام - فالرَّغبة قد انتقلَتْ إلى ذلك الجزء منِّي الذي يُبدع الإيقاعات اللَّفظية أو يسمعها في كلام الآخرين أرتعشُ حين أسمع شخصاً يتحدَّثُ بفصاحةٍ. فثمَّة صفحات مُعيَّنة عند فيالنُو، أو شاتوبريان تجعلُ الحياة تَتنمَّلُ في شراييني، فَيُجَنُّ جنوني مرتعشاً، في هدوء، تستعرُ فِي لذَّة بعيدةُ المنال ذقتُها على الفور. ثُمَّ إنَّ بعض صفحات خطَّها فِيرا، بكلِّ الكَمال البارد لهندسته النَّحويَّة وتعملني أرجفُ مثل غُصنِ في الرِّيح، في الهذيان الكامن لشيء دبَّتْ فيه الحركة.

⁽²⁹²⁾ مشرت، أصلاً، في مجلَّة «Descobrimento» العدد التَّالث، 1931. لمزيد من التفاصيل، أنظر الحاشية رقع ^{261.} . (لمترجم)

⁽²⁹³⁾ لمزيد من التفصيل حول معنى «السِّيرُالة siren»، انظر الحاشية رقم 126. (المترجم)

أستمنعُ، مثل جميع العشّاق العظام، بلذّة أن أفقد نَفْسي، تلك اللّذّة التي يكابدُ فيها المرءُ، من صميم قلبه، مُتَعَ الاستسلام. ولهذا أكتبُ في أغلب الأحيان من دون الرّغبة في التّفكير، في حلم يقظة خارجي، في أن أترك الكلمات تداعبني كما لو كنتُ فتاةً صغيرة تجلس في حضن الكلمات، إنّها مجرّد مُجَلّ بلا أيّ معنى، تتدفّقُ متكاسلةً مع تدفّق الماء الذي ينسى نفسهُ كما ينسى الجدولُ في الأمواج التي تختلطُ وتتلاشى، ثُمَّ تُولَد ثانيةً إلى الأبد، متدفّقة بلانها بعضها فوق بعض. هكذا تعبرُني الأفكارُ والصّور، المرتعشة بالتّعابير، كأنّها موكبُ حرائر باهتة تحفّ، تُومِضُ في وسطها فضّةُ فكرةٍ، مُوشّاةً وغائمةً في ضوء القمر.

وتستطيع صفحاتُ نثر مُعيَّنةٌ أن تجعلني أجهش بالبكاء، على الرَّغم من أنَّني لا أبكي على شيء قد تجلبه الحياة إلى أو تأخذه مني. أتذكَّر، كما لو أنَّها الأمس، تلك اللَّيلة التي التقطتُ فيها، حين كنتُ طفلاً، كتاب مختارات كي أقرأ للمرَّة الأولى مقطوعة فييرا الذَّائعة الصيت عن الملك سليهان: «شيَّد سليهان قصراً…». قرأت المقطوعة حتَّى النَّهاية، مرتعشاً، شاردَ الذِّهن، ثُمَّ أجهشتُ باكياً بدموع فرح لا تستطيع أيُّ سعادة حَقَّة تهييجها، دموع لا يستطيع أيُّ حزن في حياتي تهييجها أبداً. الإيقاع المَهيب للغتنا الصَّافية الجليلة، التَّعبير عن الأفكار بالكلهات التي تتدفَّقُ لا محالة مثلها يتدفَّقُ الماء أسفلَ مُنحدر التَّلُ، الإثارة الصَّوتيَّة التي يأخذ بها كلُّ صوت لونَهُ المثاليَّ: ولقد أسكرني هذا كلُّه بالفطرة كأنَّه شغفٌ سياسيٌّ عظيم. بكيتُ، مثلها قلتُ؛ ومازلتُ أبكي حين أتذكَّر اليومَ تلك الكلهات. ليس حنيناً إلى طفولتي، التي لا أحنُّ إليها: إنَّه الحنينُ إلى عاطفة تلك اللَّحظة، إنَّه ألمُّ ألَّا أكون قادراً البَّة، مرَّة أخرى، على أراءة ذلك اليقين السَّيمفونيُّ العظيم لأوَّل مرَّة.

لا حِسَّ سياسيًّا أو اجتهاعيًّا لديًّ، لكنَّني أمتلك على الرَّغم من ذلك، بطريقة أو أخرى، حِسًا وطنياً متطوِّراً إلى حدِّ بعيد. وطني اللَّغةُ البرتغاليَّة. لن أحزنَ لو غزا أحدُّ البرتغال واستولى عليها طالما لا يزعجني، بشكل شخصيِّ، أحدٌ. لكنَّني لا أكره، بكلِّ الكراهية التي أستطيع أن أكرهها، الشَّخصَ الذي يكتب برتغاليَّة رديئة، أو الذي لا يعرف قواعد نَحْوِ لغته، أو الذي يكتبُ مستخدماً قواعد الإملاء المُبسَّطة الجديدة؛ وأكره، كما لو كانت بشراً من لحم ودم، الصَّفحة البرتغاليَّة المكتوبة نَفْسَها؛ أكره، كما لو كانت بشراً يستحقُّ الضَّرب، فواعد الإملاء أكره، كما لو كانت بشراً يستحقُّ الضَّرب، فواعد الإملاء المبسَّطة المحتوبة نَفْسَها؛ أكره، كما لو كانت بشراً يستحقُّ الضَّرب، فواعد الإملاء المبساق بمعزل عمَّن بصقَها، قواعد الإملاء

الحديثة التي تُفضَّل حرف الـ «i» على حرف الـ «y» (294).

فقواعد الإملاء حيَّةً بِقَدْر ما نحن أحياء، ولا تكتمل الكلمةُ إلَّا حين نراها ونسمعها. وأُبَّهَةُ النَّقْحَرةِ (205)، وفق التَّقليد اليونانِ -الرُّومانِّ، تكسو الكلمة، بالنِّسبة إلى، برداء ملكيُّ حَقِّ يجعلها سيِّدتَنا ومَليكتنا.

(296) 327

[بعد 18 أكتوبر 1931]

نعم، إنّه المغيث. أمشي على مَهَلِ شار دَالدِّهن، في «خُوَا ذَا أَلْفَانْدِ خَا» (297) صوبَ نهر بِيجُو، فأستطيع، حين تنفتح « تُخَايْرُو دُو پَاشُو» (395) أمامي، أن أرى بوضوح السّماء الغربيّة الغائمة. ثمّة ذات الشّمال، فوقَ تلال ضفّة النّهر البعيدة، ضفّة من سديم قرمزيٍّ باهت، ضارب إلى السُّمرة، يزحفُ في السّماء، وثمّة ظلال الألوان التي تتدرَّج من الأزرق الضّارب الى الخُضرة وحتَّى الأبيض الضّارب إلى الرَّماديِّ. مشهد عظيم من سكينة لا أمتلكها تتناثر في الهواء الحريفيِّ البارد المُجرَّد. ولأنّني لا أمتلكها، فقد تركت نَفْسي تكابد اللَّذَة الغامضة لتخيُّل وجودها. بَيْد أنْ لا سكينة في الواقع على الرَّغم من أنّه لا يفتقر إلى السَّكينة، ليس إلَّا السَّماء، وجودها. بَيْد أنْ لا سكينة في الواقع على الرَّغم من أنّه لا يفتقر إلى السَّكينة، ليس إلَّا السَّماء، سماء خُلِقَتْ من كلِّ لون متلاشٍ – أبيضَ –أزرق، وأخضرَ –أزرق، ورماديُّ شاحب ليس

⁽²⁹⁴⁾ يشير يسُوَّا، هُنا، إلى الإصلاحات الإملائيَّة/ الهجائيَّة (التي باتَثُ تُعرَف بالتَّهجنة الصَّوتيَّة) التي أُدخلَتُ على اللَّعة البر تغالثَة، في العام 1911، بعد سنة من قيام الجمهوريَّة الجديدة، حين حلَّ حرف الـ «ا» عن حرف الـ «وف الـ «ا»، وأسقط معظم الحروف الصَّامتة. ويشير زينيث في حواشيه إلى أنَّ بِسُوَّا كان معرضاً لهذه التَّغييرات، منافحاً قوياً علَّ بعرف بالتَّهجنة الاستقاقيَّة (كتبة الحروف وفق التَّقليد اليوناني-الرُّوماني) سواءً من حيث التَّظريَّة أو المهارسة الفعليَّة. ولا بُدَّ من الإشارة، أيضاً، إلى أنَّ عرَّري مجلَّة (Descobrimento) التي نُشرت فيها هذه الشَّدرة، قد وضعوا الحاشية التَّالية (في نهاية لصَّفحة 140/ العدد النَّالث)، تعقيباً على استخدام بسُوًا قواعد الإملاء القديمة في شذرته هذه، تعبيراً عن مقته للإصلاحات الإملائية الحديدة: involuntariamente في معلوضة في شذرته هذه، تعبيراً عن مقته للإصلاحات الإملائية المولدة، وألاً يحترم طريقته في التَّهجئة، فليكن هذا بمثابة اعتذار إلى فرنائدو بِسُوًّا، وتوضيح إلى القُرَّاء». (المترجم) التَّهجئة، فليكن هذا بمثابة اعتذار إلى فرنائدو بِسُوًّا، وتوضيح إلى القُرَّاء». (المترجم)

⁽²⁹⁵⁾ لنَّقحرة Transliteration: النَّقل الحَرُّفي: كتَابة حروف لغة بحروف لغة أخرى. (المترجم)

⁽²⁹⁶⁾ نشرت، أصلاً، في مجلّة «Descobrimento»، العدد الثّالث، 1931. لمزيد من التفاصيل، أنظر الحاشية ا²⁶¹. (المترجم)

⁽²⁹⁷⁾ انظر الحاشية 133. (المترجم)

⁽²⁹⁸⁾ انظر لحاشية 110. (المترجم)

أخضرَ أو أزرق، والألوانِ المتلاشية البعيدة للغيوم التي ليست غيوماً، والألوانِ الصَّفراء المعتمة بألوان حمراء باهتة. وهذا كلَّه مجرَّد رؤيا تموتُ في اللَّحظة التي تتجلَّى فيها، وبرزخِ عابر بينَ لا شيءَ ولا شيء، عالياً، مُسهَباً وغير مُحدَّد، مرسوماً بألوان السَّماء والحُزن.

أشعرُ وأنسى. يجتاحني إحساسٌ بالحنين، كأنَّه أفيونٌ محمول على أجنحة الهواء البارد، الحنين الذي يشعر به الجميع تجاه كلِّ شيء. طافحٌ أنا بنشوة النَّظَر الحميمةِ، الخدَّاعة.

وعند فم المصبّ، حيث تتريَّثُ اللَّحظات الأخيرة للشَّمس في انتظار النِّهاية، ينحسرُ الضَّوء، أخيراً، أبيضَ شاحباً يستحيلُ أزرقَ حين يختلطُ بالأخضر البارد. ثمَّة سُباتٌ في هواء الأشياء التي لم تتحقَّق بَعْدُ. ثُمَّ يهوي في الصَّمت، عالياً، منظرُ السَّماء الطَّبيعيُّ.

أُودُ أَن أَحظى بِخفَّة الرُّوح، في هذي اللَّحظة، حين أفيضُ بالمشاعر أو أكادُ، كي أنطق، بكلِّ بساطةٍ، وأن تكون قدري حرِّيَّةُ الأسلوب المُتقلِّبة. ولكنْ كلَّا، ليس إلَّا السَّاءُ الشَّاسعة البعيدة التي تلغي نَفْسَها على مهلها، والعاطفةُ التي أشعر بها -مزيجٌ من مشاعر كثيرة مشوَّشة - لا شيءَ إلَّا انعكاس تلك السَّاء الخاوية في بحيرة فِيَّ، صامتة كتحديقة ميَّت، بحيرةٍ خَفِيَّةٍ بين صخور عالية تتأمَّلُ فيها السَّاءُ الغافلة نَفْسَها.

تُعكَّرُ صَفَوي في هذي اللَّحظة، مثل مرَّات عديدةٍ من قَبْلُ، التَّجربةُ التي خضتُها بمشاعري، وكَرْبُ ضرورة أن أشعر بشيء، وقلقي لمجرَّد أن أكون هُنَا، وحنيني لشيءٍ لم أعرفه البَّة، وغروبُ شمس المشاعر كلِّها، وهذا التَّلاشي -في وعيي الخارجي بِنَفْسي - من الأصفر إلى الحُزن الرَّماديُ.

مَن سينقذني من وجودي؟ هَلِ المُوتُ ما أُريدُ، أَمِ الحياةُ: إِنَّهُ الشَّيء الآخَر الذي يلمعُ في قاع التَّوق كلِّهِ كهاسةٍ مستحيلة في مغارة لا يستطيع المرء أن يصل إليها. إنَّها الوطأةُ كلُّها والألمُ كلُّهُ لهذا الكون الحَقِّ المستحيل، لهذي السَّهاء، لهذي الرَّاية التي يحملها جيشٌ مجهول، لهذي الألوان التي تشحبُ على مهلها في هذا الهواء الخيالي الذي ينبثقُ منه، في بياضٍ كهربائيًّ ساكنٍ، هلالُ القمر المُتخيَّل، تُظلِّلُ صورتَهُ المسافةُ البعيدة واللَّامبالاة.

ولقد أضحى غيابُ إله حَقَّ الجُنَّةَ الحَاوية للسَّماء الشَّاسعة والرُّوح المُوصَدة. أيَّما السِّجن الذي لا حَدَّ لَهُ، لا مفرَّ منك، فأنتَ لا تُحَدُّ!

[بعد 18 أكتوبر 1931]

ومثلها أنَّ لدينا فلسفةً غيبيَّة، سواء أعرفنا ذلك أم لم نعرف، فإنَّ لدينا فلسفة أخلاقيَّة، سواء أحببنا ذلك أيضاً أو لم نُحبُّه. فلسفتي الأخلاقيَّة في غاية البساطة: ألَّا أُصِيبَ أحداً بخيرٍ أو بشرٍّ أبداً. لا أصنعُ الشرَّ لأنَّني أعتقدُ أنَّ العدالةَ تقتضي أن يتمتَّع الآخرون بالحَقِّ ذاته الذي أَطَالِبُ بِه لِنَفْسِي -حَقِّ ألَّا يُزعجني أحدٌ- ولأنَّني أعتقدُ أيضاً أنَّ العالم يحوي شروراً طبيعيَّة كافية دونَ الحاجة إلى إضافة شرور أُخرى. فنحن جميعاً مسافرون في هذا العالم على ظهر السَّفينة ذاتها التي أبحرت من ميناء مجهول إلى ميناء غريب عنا بالقَدْر ذاته؛ ولا بُدَّ أن يعامل بعضُنا بعضاً بالمودَّة التي يستحقُّها رفقاء السَّفر. وأختار ألَّا أصنعَ خيراً لأنَّني لا أعرفُ ما الخير، ولا حتَّى إنْ كنتُ أفعل الخير حقاً حين أظنُّ أنَّني أفعل الخير. فكيف لي أن أعرف الشُّرورَ التي قد آتي بها حين أتصدَّقُ، أو حين أحاول التَّثقيفَ أو الإرشاد؟ أُحجمُ حين أرتابُ. لكَّنني أُومن بأنَّ مدَّ يد العَوْن، أو تفسيرَ الأشياء وتجليةَ الحقائق، ليسَ، في حدٍّ ذاته، إلَّا ارتكاب إثْم التَّدنُّول في حياة شخص آخَر، بطريقة أو أخرى. وليستِ الدَّماثةُ إلَّا نزوة عابرة، ولا يحقُّ لنا أن نجعل الآخرين ضحايا نزوتنا، مهم كانت إنسانويَّة أو نابعة من القلب. وليست الأفضالُ إلَّا أشياء مفروضة على الآخرين؛ ولهذا السَّبب أمقتُها مقتاً شديداً. فإذا اخترتُ لأسباب أخلاقيَّة ألَّا أصنع خيراً، فلا أطلبُ من أحدِ أن يصنع لي خيراً بِالضَّر ورة. فيما أَشدَّ كراهيتي أن يضطُّر أحدُّ إلى العناية بي حين أكون طريحَ الفراش من المرض، لأنَّني أكرهُ القيامَ بالشِّيء ذاته تجاه شخص آخَر. لم أَزُرْ صديقاً مريضاً مِن قَبْلُ قَطُّ. وكلُّها مرضتُّ، فزارني أحدٌ، أشعرُ أنَّ كلُّ زيارةٍ إزعاجٌ، إهانةٌ، انتهاكٌ غير مُبرَّر لخصوصيَّتي الْمُختارَة. لا أحبُّ أن يمنحني النَّاسُ أشياء؛ لأنَّهم يجبرونني حينتذٍ على منحهم شيئاً في المقابل - سوامٌ إليهم أو إلى الآخرين، لا يهمُّ لِمَن.

أَنَا كَائَنُّ اجتهاعيُّ إلى حدِّ بعيد، وعلى نحو سلبيٌّ إلى حدٌّ بعيد. أَنَا تَجَسُّدٌ لا يضرُّ. ولكنَّني لستُ أكثرَ من ذلك، ولا أرغبُ في أن أكون أكثرَ، ولا أستطيع أن أكونَ أكثر. أشعرُ تُجاه كلِّ

⁽²⁹⁹⁾ نشرت، أصلاً، في مجلَّة «Descobrimento» العدد الثَّالث، 1931. لمزيد من التفاصيس، أنظر الحاشية 261. (المذجم)

شيء موجود برقّة مرئيّة، عاطفة حصيفة، ولكنّ قلبي لا يشعرُ بشيء. لا أُومنُ بأيّ شيء، ولا أرتجي أيّ شيء، ولا أحسِنُ إلى أيّ شيء. لا أشعرُ إلّا بالبغضاء والقرف تجاه الأتباع الحُلّصِ لكلّ إخلاص وصُوفيّة كلّ تصوّف، أو، بالأحرى، تجاه إخلاصاتِ الحُلّصِ وصُوفيّاتِ جميع المتصوّفين. أشعر بالغثيان يدبُّ في جسدي، أو يكادُ، حين يغدو أولئك المتصوّفة إنجيليّين (بروتستانتيّين) عندما يحاولون إقناع بصيرةٍ أُخرى أو إرادة أُخرى بالعثور على الحقيقة أو تغيير العالمَ.

لم أُحِبَّ أحداً قطُّ. لم أُحبَّ، حقَّ المحبَّةِ، إلَّا الأحاسيس المثيرة -المشاهدَ التي سجَّلتها رؤية وعيي، الانطباعات التي التقطتها أُذُناي المُصغيتان، والعطورَ التي تتحدَّثُ بها إليَّ أشياءُ العالمَ الخارجي المتواضعة وتقصُّ عليَّ قَصَصَ الماضي (التي تثيرها الرَّوائحُ بكلِّ يُشر) - أقصدُ، عطيَّة الحقيقة الواقعيَّة والعاطفة التي منحتني إيَّاها، التي هي أشدُّ حضوراً من حقيقة الرَّغيف الذي يُخبَرُ في أعهاق المخبر، كما كانت الحال في ذلك الأصيل البعيد في طريق عودتي الرَّغيف الذي يُخبَرُ في أحبَّني كثيراً، فكلُّ الذي شعرت به تلك الرقَّةُ الغامضة الانشراح من جنازة عمِّي الذي أحبَّني كثيراً، فكلُّ الذي شعرت به تلك الرقَّةُ الغامضة الانشراح

صدري إزاء ما أجهله. هذه فلسفتي الأخلاقيَّة أو فلسفتي الغيبيَّة أو فلسفتي حول نَفْسي: عابرُ سبيلٍ في كلِّ

⁽³⁰⁰⁾ وردت كلمة حنين، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

شيء، حتى في روحي، أنتمي إلى لا شيء، وأشتهي لا شيء، وأنا لا شيءَ إلّا مركزاً مُجرَّداً لأحاسيس مثيرة مُبهَمة، ومرآة مُرهفة سقطتْ من فوق الجدار، لكنَّها مازالتْ تعمدُ إلى أن تعكس تنوُّع العالم. لا أعرف إنْ كان هذا يجعلني أشعر بالسَّعادة أو بالنَّعاسة، لكنَّني لا أكترثُ كثيراً.

(301) 329

[نحو 21 أكتوبر 1931]

مَسُّ قدمي المسيح لا يمنحك العُذْرَ لارتكاب أخطاءٍ في علامات التَّرقيم. إذا كان المرء لا يكتب بفصاحةٍ إلَّا حين يسكرُ، فسوف أقول لَهُ: إِسْكَر. وإذا كان سيخبرني أنَّ ذلك يضرُّ كَبِدَهُ، فسوف أقولُ: ما كبدُك؟ إنَّهُ شيءٌ ميِّت لا يجيا إلَّا حين تجبا، بَيْدَ أَنَّ القصائد تحيا دون أن تحيا [أنتَ].

البشريَّة؛ أمَّا كَبِدُكُ فَلا. فَاسْكَر حتَّى تكتبَ بفصاحة التي خطَّ عليها هذه الشَّذرة بقلم رصاص: "قصائدُكُ تهمُّ البشريَّة؛ أمَّا كَبِدُكُ فَلا. فَاسْكَر حتَّى تكتبَ بفصاحة ويجتاحُكَ الغثيان. فطُوبي لقصائدُكُ واللَّعنة عليك Your poems are of interest to mankind; your liver isn't. Drink till you write well and feel sick. Bless poems are of interest to mankind; your liver isn't. Drink till you write well and feel sick. Bless your poems and be damned to you "your poems and be damned to you "your poems and be damned to you الطَّبعات البرتغالية الرَّئيسة المحتفة مع شذرات بسُوًا في كتابه التقده الشَّذرة التي تعامل بها محرَّدو (2010) ضمن ملحق خاصِّ ضمَّ، أيضاً، الشَّذرات الثَّلاث الأخرى التي كتبها بسُوًّا بالإنگليزيَّة على ظهر القصاصة ذاتها في حين ظهرت كشذرة مستقلّة بلاتها في طبعة برادو كويلو (511: 1982)، وفي طبعة سوبرار كونو (699: 2008) وفي طبعة يستحمُّ بالشَّمس، أعطو وفي طبعة زينيث (2012: 258). أمَّ الشَّذرات الإنگليزيَّة الثلاث الأخرى، فهي: "لا تجعله يستحمُّ بالشَّمس، أعطو وي طبعة زينيث (2012: 258). أمَّ الشَّذرات الإنگليزيَّة الثلاث الأخرى، فهي: "لا تجعله يستحمُّ بالشَّمس، أعطو وي طبعة زينيث (2013: 2018) والا بُدَّ أن تبذل عنايةُ فائفة في التَّعامل مع الشَّمس، أعطو الفرديَّة السَّد داويَّة. فائفة في التَّعامل مع عبقريًّ. (Do not give him sunbaths, give him whisky والمُحديَّة السَّد داويَّة. فائفة في البُعامل مع عبقريًّ والعاديَّة والمختوب والمُحديَّة أول نافرة والمختوب البشر وأن يبلل كنَّ ما في وسعه كي يكون؛ ولا بُدَّ قُو ديَّة † قَارِن: لا بُدَّ للمرء، إذا كان فرداً عاديًاً، المأل منفرداً بنفسه مقتولاً أو نافراً والنافراً والمختوب والمؤلدة والمؤلدة

تكمن الثَّروة الحَقَّة في أن يغمض المرء عينيه ويدخِّن سيكاراً فاخراً.

أستطيع، بمساعدة سيكارة رخيصة، العودة، مثل شخص يُعيد زيارة المكان الذي قضى نيه شبابه، إلى ذلك الزَّمن من حياتي الذي تعوَّدتُّ أن أُدخِّن فيه سكائر رخيصة. تكفي النَّكهةُ الخفيفة لدخان تلك السِّيكارة كي أعيش حياتي الماضية كلَّها مرَّة أُخرى.

وقد يؤدِّي نوعٌ مُعيَّن من الحلوى، في أوقات أخرى، الغرض ذاته. تستطيع قطعة شوكولاتة بسيطة أن ترهق أعصابي بفيض الذِّكريات التي تستثيرها. الطُّفولة! فحين تقضمُ أستاني الكتلة الدَّاكنة الطَّريَّة، أقضمُ أفراحي المتواضعة، مُلتذاً بها، كرفيق تغمره المسرَّةُ لمناني الكتلة الدَّاكنة الطَّريَّة، أقضمُ أفراحي المتواضعة، مُلتذاً بها، كرفيق تغمره المسرَّة لجنديِّ (1900 رصاصيِّ، أو فارس يُجيد ركوبَ الخيل حصائهُ عصا من خشب. تغرورقُ عيناي بالدُّموع، وطعم الشُّوكولاته يمتزج بطعم سعادتي الماضية وطفولتي الضَّائعة، فأتشبَّتُ تشبُّئاً شديداً بذلك الألم العذب.

ولا تحطُّ بساطة طقوس التَّذوُّق، هذه، مِن قَدْر مَهابةِ المناسبة.

ولكنّه دخانُ السّكائر الذي يُجدِّدُ لحظاتِ الماضية [روحياً] على نحو بارع، إنّه يكاد يلمسُ وعيي بوجود حاسّة التّذوّق لديّ، ولهذا السّبب، وقد لفّ بعضها سديمٌ رقيقٌ، وبعضُها الآخرُ شَفِيفٌ يستحضر السّاعات التي تحرَّقتُ شوقاً إليها في هذي اللَّحظة، ويجعلُ الأوقات البعيدة حاضرة، ويجعلُها أشدَّ سديميَّة كلّما غمرَتْنِي، وأكثر أثيريَّة كلّما جعلتُها تتجسّد. ويمكن لسيكارة بطعم النَّعناع، أو سيكارة رخيصة، أن تغمرني برقّة في أيِّ لحظة مُعيّنة من ماضيَّ. فيا لتلك الإمكانيَّة البارعة التي أستخدم فيها توليفة التذوَّق والشَّم، تلك، لإعادة بناء مشاهد بائدة وأداء ملاهي ماضيَّ، بوصفها بعيدة، وتُملّة، وخبيثة، على شاكلة القرن النّامن عشر، وضائعة، ضياعاً مُعناً في الفَّياء، على شاكلة العصور الوسطى!

⁽³⁰²⁾ يحوي ظهر الورقة المُسطَّرة، التي دوَّن عليها بِسُوَّا هذه الشَّلرة، بقلم رصاص، مقطعاً من «دوق بارما Duke «of Parma» (وهي مسرحيَّة دراميَّة عكف على تأليفها بالإنگليزيَّة ولم يُكملها)، رفقة بعض الأشعار غير المكتملة الأخرى. (المترجم) (303) يقصد الجنود الدُّمَى التي كان يلعب بها في طفولته. (المترجم)

[تحو 21 أكتوبر 1931]

نستطيعُ أن نموت من شدَّة الحُبِّ بيخِشّةِ. (305)

332

[4 نوفير 1931]

لا يحتاجُ الذي يودُّ إعدادَ كتالوج يضمُّ وحوش العالمَ إلا إلى أن يلتقط بالكلمات صُوراً فوتوغرافيَّةً للأشياء التي يجلبُها اللَّيلُ إلى الأرواح التي رانَ النَّعاس في عيونها لكنَّها لا تستطيعُ النَّوم. تحوي هذه الأشياء تنافُر الأحلام كلَّه دون ذريعةِ [غياب] النَّوم غير المعترف بها. إنَّها تحوِّم مثل خففيش فوق كُمُونِ الرُّوح، أو مثل مصَّاصي دماء يمتصُّون دم خضوعنا. وإنَّها يرقاتُ الانحطاط والخراب، والظلال التي تملأ الوادي، وآثارُ القدر الأخيرة. وتكونُ [هذه الأشياء] في بعض الأحيان، ديداناً تطردُ الرُّوح التي تُلاطفها وتغذِّيها؛ وتكونُ أشباحاً، بين تارةٍ وأُخرى، تطاردُ -وقد أضمرتِ الشَّرَ - لا شيءَ البَّنَةَ؛ وتظهرُ بينَ حين وآخر مثل حيَّاتُ الكُوبرا في المغارات الغريبة للمشاعر المفقودة.

وإنَّها حَصَبُ البُّهتان، غايتُها الوحيدة أن تجعلنا عديمي الفئدة. إنَّها الشُّكوك المنبعثة من

(304) ثمَّة على ظهر الورقة المُسطَّرة التي خطَّ عليها پِسُوَّا هذه الشَّذرة، بقلم رصاص، قصيدةٌ تحمل ناريخ هذه الشَّذرة نفسه، وبعض ملحوظات فضفاضة أُخرى، نسبَها إلى نِدَّه ٱلفَر دُو كامپوش. يذكر پيسارُّو هذه القصيدة، وتلك الملحوظات، ضمن ملحق خاصٌ وضعه في آخر لطبعة التي حرَّرها في العام 2010. (المترجم)

⁽³⁰⁵⁾ اختلفت الطبعات البرتغالية الرئيسة في «الشَّكل» الذي أوردت به هذه الشُّذرة المقتضبة: ففي طبعة برادو كويلو (272: 1982) (272: 1982) وردت على هذه الشَّاكلة: «camámos morrer se apenas» [= سنكون قد أخفقنا لو منَّعا أنفسنا فحسب (نستطيع أن نموت لو أنَّ كلَّ ما فعلنا هو أن نُحِبً)]؛ وفي طبعة زينيث (252: 252): «Podemos morrer se apenas amámos. Faltámos se entretivemos» [252: 212) وفي طبعة زينيث الموت لو أنَّ كلَّ ما فعلنه هو أن نُحِبٌ. سنكون قد أخفقنا لو متَّعنا أنفسنا فحسب]؛ في حين خلت طبعة سوبراو كونيا من هذه الشَّذرة؛ واقتصرت طبعة پيسازُّو (2010: 338) -التي تنقل عنها جول كوستا ترجتها هو أن مله عبارة: «Podemos morrer se apenas amámos» [= نستطيع أن نموت لو أنَّ كلَّ ما فعلنا هو أن نُحِبٌ] وهي تختلف عن الصَّبغة التي تُوردها جول كوستا هُنَاه إذ لا ذكر لعبارة «بخسّة به الشَّذرة في الطبعات البرتغالية المختلفة ، جول كوستا بهذه الشَّذرة في الطبعات البرتغالية المختلفة ، من وجهي نظري، إلى أنَّ بِسُوّا كان في الأصل قد فصل بين الجُملتَيْن بخطُّ طويل، بعد أن كتب كلَّ واحدة مها في سطر وحدها. (المترجم)

الأعماق القارَّة في الطيَّات الباردة النعسة التي فوق الرُّوح. إنَّها سريعة الزَّوال كالدُّخان، كآثار خطوات على الأرض، وكلُّ ما يتبقَّى منها هُوَ حقيقة أنَّها وُجدَتْ ذات مرَّة في التُّربة القَحْط لوعينا بها. بعضُها مثل مفرقعات العقل النَّارية؛ العقل الذي يومضُ لوهلة بين الأحلام، والبقيَّةُ مُجرَّد لا وعي الوعي الذي أبصرناها به.

لا توجَد الرُّوح في حدَّ ذَاتها، مثَّل قوس مُّخلَّعة. تنتمي جميع المناظر الطبيعيَّة العظيمة إلى غَدِ عشناهُ سلفاً. أخفقَت المحادثةُ المقطوعة. فمن كان يظنُّ أن الحياة ستكون على هذه الشَّاكلة؟

سأضيعُ لحظة أن أجد نَفْسي. وإنْ آمنتُ، أشكُّ؛ أُمسِكُ شيئاً لكنَّني لا أُمسِكُ أيَّ شيءٍ في يدي. أذهبُ إلى النَّوم كأنَّني ذاهبٌ لأتمشَّى، بيد أني مستيقظٌ. أستيقظُ كأنَّني قد نمتُ، وإنَّني لستُ نَفْسي. فليستِ الحياةُ، بعد كلِّ شيء، إلَّا أَرَقاً عظيماً، وثمَّة شِبْهُ - يقظةٍ مُشرقة حول كلِّ شيء، إلَّا أَرَقاً عظيماً، وثمَّة شِبْهُ - يقظةٍ مُشرقة حول كلِّ شيء نُفكُرُ فيه أو نفعله.

سأكون سعيداً لو استطعتُ النَّوم، ليس إلَّا. فهذا على الأقلِّ ما أُفكِّر فيه في هذه اللَّحظة التي لا أستطيع النَّوم فيها. اللَّيلُ ثِقَلٌ هائلٌ يضغطُ على حُلمي فيخنقُ نَفْسي تحت البطَّانيَّة الصَّامتة. إنني مُتخَمَّ برُّوحي.

سيأتي النَّهَارُ، دائماً، بعد كلِّ شيء، لكنَّهُ سيتاً خَر كالعادة. كلُّ شيء ينامُ قريرَ العينِ إلَّايَ. أرقدُ قليلاً غير أني لا أجرؤُ على النَّوم، ثُمَّ تُطِلُّ، مُرتبكةً مِن أعماق كينونتي، الرُّؤوس الهائلة للوحوش المُتخيَّلة. إنَّها تنانينُ شرقيَّةٌ تصعدُ من الهاوية، ذات ألسنةٍ قرمزيَّة، منافية أيَّ منطق، وعيون شاحبة تحدِّقُ في حياتي الميِّتة التي لا تنظرُ إليها.

بالله عليكم، فَأَيْغُمِضِ أَحَدُّ الجَفنَ على هذا كلِّهِ المعونِ أنتهي من الأوعيي والحياة! ثمَّ أرى، لحسن الحظِّ عبر النَّافذة الباردة التي فُتِّحَ مصر اعاها، بصبصاً باهتاً من ضوء شاحب يُفرِّقُ الظِّلالَ فوق الأفق. وما سوف ينبلجُ عليَّ، لحسن الحظَّ، هُوَ النَّهار الذي سيجلب لي الرَّاحة من تعب هذا القلق أو يكادُ. ثمَّ، يا للغرابة، يصبح ديكٌ في وسط المدينة، فيطلعُ النَّهار الشَّاحب حين أنجرفُ في نوم غامض. سأنامُ في لحظة ما. صوت العجلات يستحضرُ عربةً الشَّاحب حين أنجرفُ في نوم غامض. سأنامُ في الخطة ما. صوت العجلات يستحضرُ عربة مَّرُّ، تنام جفوني، لكنَّي لا أنام. فليس في النَّهاية إلَّا القدَر.

[29 نوفمبر 1931]

إِنْ كَانَ ثُمَّة شِيءٌ تمنحه الحياة، بمعزل عن الحياة نَّفْسِها، ولا بُدَّ أَنْ نشكر الآلهة عليه، فهو نعمةُ ألَّا نعرفَ أنْفُسَنا: ألَّا نعرفَ أنْفُسَنا وألَّا يعرفَ بعضُنا بعضاً. فالرُّوحِ البشريَّة هاويةُ عتمةٍ لزجةٍ، بئرٌ قلَّما تُسبَر أغوارُها من سطح العالم. لن يُحبُّ أحدٌ نَفْسَه لو عرفَ نَفْسَهُ حقَّ المعرفة، ولهذا فإنَّ نَفْسَنا، دون الغُرور الذي هُوَ دمُ حياة الرُّوح (306)، سوف تموتُ من فقر الدُّم. ولا أحدَ يعرفُ أيُّ شخص آخَر، ولا بأس في ذلك أيضاً، فَلَوْ عرفنا الآخَر -سواءً أكان أَماً أو زوجةً أو ابناً- لَوَجدنا عدوَّنا الغيبيَّ الحميمَ (307) كامناً في وليجةِ نَفْسه.

قالسَّبب الوحيد الذي يجعل بعضَنا ينسجمُ مع بعضٍ هُو أنَّ بعضَنا لا يعرف أيَّ شيء عن بعض. فهاذا سيحدث لكلِّ أولئك الأزواج السُّعداء لو استطاع كلُّ واحدٍ التَّحديق في روح الآخَر، لو استطاعَ كلُّ واحد فهمَ الآخَر، كما يقول الرُّومانسيُّون، غافلَيْن عن الخطر (حتَّى لو كان عبثياً) الكامن في كلماتهما؟ كلُّ زوجَيْن في العالَم غيرٌ متوافقَيْن، فثمَّة سُوء مواءمةٍ بين كلِّ زوجَيْن في العالَم، لأنَّ المرأةَ تَحْفِي، في الجزء السِّرِّيِّ من الرُّوحِ التي تنتمي إلى الشَّيطان، الصُّورةَ الغامضة للرَّجل الذي تشتهيه ولكنَّه ليس زوجها، ويخفي الرَّجلَ الشَّكلَ الجنَّابَ جنسيّاً للمرأة الخلَّابة التي لم تَكُنْهَا زوجتُه قطَّ. يجهل الأزواج الأسعد هذه الأشواق الجوَّاثيَّة المُحبطَة. أمَّا الأقلُّ سعادة، فلا يعرفونها ولا يجهلونها البتَّة، ولكنَّ الغريزة الخرقاءَ العابرة، قسوةَ الطَّريقة التي يعامل فيها بعضهم بعضاً، تستثيرُ فوق السَّطح العَرَضيُّ للإيهاءات والكلمات الشَّيطانَ الكامنَ، أو حوَّاءَ القديمة، أو الفارسَ، أو حُوريَّةَ الهواء.

الحياة التي يعيشها المرء سوءٌ فهم طويل، وسيلةٌ سعيدة بين عظَمةٍ غير موجودة وسعادةٍ لا يمكن أن توجَد. نقنعُ لأنَّنا قادروًن على عدم الإيهان بوجود الرُّوح، حتَّى ونحن نفكَّر أو

⁽³⁰⁶⁾ الرُّوح، هُنَا، بمعنى tspirit والنَّفْس في العبارة التي قبلها بمعنى soul. لمزيد حول الفرق بين هاتَيْن الكلمتَيْن، عند بِسُوًّا، أَنظر الحاشية 58. (المترجم)

^{(307)ُ} آثَرِتْ جَول كوستا، هُنَا، أن تذهب إلى ما هُوَ أبعد من المعنى الظَّاهري/ المتعارف عليه لكلمة intimo التي يستخدمها يِشوِّا في الأصل، فاختارت أن تترجمها بـ deep (عميق)، خلافاً لزينيث الذي اختار، على سبيل المثال، أن يترجها «حرِّ فياً» إلى كلمة Intimate (حميم)؛ مع العلم بأنَّ الكلمة في أصنها البرتغاليَّ تفيدُ المعتين، على حدُّ سواء، ير به المرابع المان عمين ... الخ. ولذلك فقد آثرتُ استخدام كلمة «حيم» لأنّها تنطوي في العربيَّة عبي المعنيَّن في ن، ولكونها «تتناغم» أكثر مع كلمة «العدوُّ» التي تصفها. (المترجم)

شعر. فيكفي أن نشعر، في حفلة الرَّقص التَّنكُريَّة التي هي حياتُنا، انّنا نرتدي حُلَّة، وهي النَّيء الأهمُّ الذي نحرص عليه في الرَّقص، نحن عبيدُ الأضواء والألوان، نقذفُ أنْفُسَنا في الرَّقص كها لو كان الحقيقة نَفْسَها، فلا نعرف، إلَّا حين نُترَك وحيدين فنكفُ عن الرَّقص، أنّنا لا نعرفُ أيَّ شيء عن البرد الهائل والشَّاهق للَّيل الذي في الخارج، ولا عن الجسد الفاني القابع تحت الأسهال التي سوف تحيا من بَعْده، ولا عن كلُّ شيء نعتقد، حين نكون وحيدين، أنّه ضروريُّ لنا، لكنّه في النهاية تُجرَّد محاكاة سامحرة شخصيَّة لحقيقة ما نتخبًل أنفُسَنا عليه. كلُّ ما نقوله أو نفعله، وكلُّ ما نفكرُ فيه أو نشعر به، يرتدي القناع ذاتهُ والثَّوب الفاخر كلُّ ما نقرك لا نُترك عرايا البَّة، بصرف النَّظر عن طبقات الثَّياب التي نخلعها، فالعُري عُريُ الرُّوح ولا علاقة لَهُ بخلع المرء ثيابه. نعيشُ، على تلك الشَّاكلة، الوقتَ الوجيز الذي منحتنا الرُّوح ولا علاقة لَهُ بخلع المرء ثيابه. نعيشُ، على تلك الشَّاكلة، الوقتَ الوجيز الذي منحتنا بيَّاه الآهة كي نُمتِّع أنفُسنا تعمرنا السَّعادة أو تجتاحنا التَّعاسة (أو جاهلين بهاهيَّة مشاعرتا بيَّاه الآهة كي نُمتِّع أنفُسنا تعمرنا السَّعادة أو تجتاحنا التَّعاسة (أو جاهلين بهاهيَّة مشاعرتا بناناعمة كل أطفال يلعبون لُعبًا جادَّة، وقد ارتدَيْنا الجسد والرُّوح، وثيابُنا المتعدِّدة تشبَّثُ بناناعمة كالرَّيش.

ثُمَّ، فجأةً، يرى شخصٌ أكثرُ حُريَّةً أو أكثرُ لعنةً من بقيَّة البشر (على الرَّغم من أنَّه لا يراه إلَّا نادراً) أنَّ كلَّ ما نحنُ عليه ليس إلَّا ما نحن لسنا عليه، وأنَّنا نخدع أنفُسنا بشأن ما هُو يقينٌ، وأنَّنا على خطأ بشأن ما نجزمُ بأنَّه حَقٌّ. وهذا الفردُ الذي يرى الكونَ عارياً، لوهلة قصيرة، يبتدعُ فلسفة أو يحلمُ بديانة، فَيُنصِتُ البشر إلى تلك الفلسفة وتروجُ تلك الديانة. أمَّا الذين آمنوا بالفلسفة، فيرتدونها رداءً غير مرثيًّ. وأمَّا الذين آمنوا بالديانة، فيرتدونها قناعاً ينسون حينه أنهم يرتدونه.

وهكذا، جاهلين بأنْفُسنا وبكلِّ البشر الآخرين، نستطيعُ، ونحن تغمرنا السَّعادةُ، أن نسجم، بعضُنا مع بعض، عالقين في ثنايا الرَّقص أو الأحاديثِ التي نتجاذب أطرافها بين الفواصل، آدميِّن وجادِّينَ وعقيمينَ، نرقصُ على صوت أوركسترا النُّجوم العظيمة، أسفلَ التَّحديقة البعيدة المُزدرية؛ تحديقةِ منظمي الحفلة.

لا يعرفون سوى أنّنا سجناء الوهم الذي أوجدوه من أجلنا. ولكنّ، ما سببُ هذا الوهم، ولماذا يُوجَد هذا الوهم أو أيُّ وهم آخر، ولماذا اختاروا، مُضلّلِين مثلما نحنُ، هذا الوهم، ولماذا يُوجَد هذا الوهم بالطّبع، لا يعرفون السّبب.

[ئوفىبر 1931]

تفتّى ذهن كثير من النّاس عن وضع توصيفات يعرّفون بها الإنسان، ولذلك فإنّهم يعتخدمون في الغالب يعرّفونكه في العموم، بتوصيفات تتنقض مع الحيوانات. ولهذا فإنّهم يستخدمون في الغالب تعريفات تستفيد من عبارة «الإنسان هُوَ حيوانّ...»، ثُمّ يضيفون الصّفة المناسبة، أو «الإنسان هُو الحيوانُ الذي يُشبّهون الإنسان به. قال هُو الحيوانُ الذي يُشبّهون الإنسان به. قال روسُّو: «الإنسان حيوانٌ مريض»، وهي مقولة صحيحة في جزء منها. ويقول كارلايل: «الإنسان حيوان الكنيسةُ: «الإنسان حيوان عاقل»، وهي مقولة صحيحة في جزء منها. ولكنَّ هذه التّعريفات، وما يستخدم الأدوات»، وهي مقولة صحيحة أيضاً، في جزء منها. ولكنَّ هذه التّعريفات، وما شابهها من تعريفات أخرى، ناقصة دائماً ومُتحيِّزة. والسّبب في غاية البساطة: ليس من السّهل تقريق الإنسان عن الحيوانات، ولا يُوجَد معيارٌ أكيدٌ للقيام بذلك. فحيوات البشر تنقضي بالطّريقة اللّاواعية العميقة ذاتها التي تنقضي فيها حيوات الحيوانات. والقواتين العميقة الجنور التي تحكم من الخارج غرائز الحيوانات الفطريّة هي ذاتها التي تحكم بصيرة الإنسان، التي تبدو أنّها ليستُ أكثرَ من غريزة فطريّة في طَوْر التّكوين، غير واعيةٍ مثل أيَّ غريزة أخرى، وأقلَّ كَيَالاً لائمًا لم تنشكًل بَعْدُ.

«كلُّ شيء» بالنِّسبة إلى العقلانيِّين اليُّونان (309) «ينبع من اللَّاعقلانيِّ». وكلُّ شيء ينبثقُ من اللَّاعقلانيِّ حقاً. فالعِلم -بمعزل عن الرِّياضيَّات، التي لا علاقة لها بتاتاً بأي شيء سوى الأرقام الجامدة والمعادلات الفارغة، فتكونُ لِذلكَ منطقيَّة تماماً لا شيء سوى لعبة يلعبها الأطفال في الشَّفق، ورغبة في الإصابة بنزلة بَرْدٍ في ظلال الطَّيور، والتَّشبُّثِ بظلال الأعشاب التي تتايلُ في الرِّيح،

(308) نُشر هذا النَّصُّ، في الأصل، باسم بِشُوَّا الصَّريح، منسوباً إلى برناردو سوارش، وأنَّه مقتطف من كتاب الفلَق، في عِلَة «Presença» (المجلَّد الثَّاني، العدد 34، ص 8، نوممبر 1931–فبراير 1932). (المترجم)

⁽³⁰⁹⁾ يشير بِسُوَّا، في الأصل، إلى «الأنثولوجيه اليونانيَّة Antologia Grega». وهي أنثولوجيا ذائعة الصِّيت ضمَّت أكثر 3700 قصيدة ونشيد ومرثيَّة وحكمة، تغطي الفترة التي تمتدُّ من القرن السَّابع قبل الميلاد وحتَّى أواخر الألفيَّة الأولى، وتعرف باليونائيَّة باسم Anthologia Hellenike. (المترجم)

وما يدعو للعَجَب العُجَاب، على الرَّغم من أنَّه ليس سهلاً بأيِّ حال من الأحوال العثور على كلمات تُفرِّقُ حقاً بين الإنسان والحيوانات، فإنَّ من السَّهل العثور على طريقة تُفرِّقُ بين الإنسان المتفوِّق والإنسان العاديِّ.

لم أنس قط عبارة هَكُل (100)، عالم الأحياء، الذي قرأتُ أعمالَهُ، حين بدأت مداركي العقليّة بالتشكُّل (100)، في ذلك العُمر الذي يشرع فيه المرء بقراءة المنشورات العلمية والجدالات ضدً الدّين. كانت العبارة تقول بصورة أو أخرى: المسافة التي تفصل الإنسان المتفوِّق (أظنَّه قال: على شاكلة كانت أو غوته) عن الإنسان العاديِّ أكبرُ من المسافة التي تفصل الإنسان العاديَّ عن القِرد. لم أنسَ العبارة قطُّ لأنَّها صحيحةٌ. فالمسافة الهائلة التي تفصليني، والتي تُعَدُّ قليلة الأهبيّة في زُمرة المُفكِّرين، عن فلَّاح في لُورِش (200) أكبرُ من المسافة التي تفصل ذلك الفلاح عن قِط أو كلب، ولن أقول عن قِرد. فلا أحدَ مِنَّا، من ذلك القط فصاعداً، يعيشُ حقاً الحياة المفروضة عليه أو التي منحه إيَّاها القدَر؛ فنحن، جميعاً، ننحدر من أصول غامضة بالقلْر ذاته، ونحن مُجرَّد ظلال إياءات قام بها شخص آخر، وآثار مُتجسِّدة، ومآلات تشعر. بَيْدَ ذاته، ونحن مُجرَّد ظلال إياءات قام بها شخص آخر، وآثار مُتجسِّدة، ومآلات تشعر. بَيْدَ أَنْ ثمَّة فارقاً نوعياً بيني وبين الفلَّاح، نابعاً من وجود فكر مُجرَّد وعاطفة غير مكترثة في يًا، في حين أنَّ الفارق بين الفلَّاح والقطّ، على مستوى الرُّوح، فارقٌ في الدَّرجة، لا أكثر.

وما يُميِّزُ الإنسانَ المتفوِّق عن الإنسان الأدنى وأشقائه الحيوانات كامنٌ في بساطة التَّهكُّم المؤشِّرُ الأوَّل على أنَّ الوعي قد باتَ واعياً، ويمرُّ ذلك عبر مرحلتَيْن: المرحلة التي وصل إليها سقراط حين قال: «لا أعرف إلَّا أنّني لا أعرف شيئاً»، والمرحلة التي وصل إليها سانشيز عن قال: «لا أعرف حتَّى إنّني لا أعرف شيئاً». المرحلة الأولى هي تلك النُّقطة التي نشكُّ فيها بأنْفُسنا على نحو دوغهائيٌّ وهي مرحلةٌ سيصل إليها كلُّ إنسان متفوَّق. أمَّا المرحلة الثَّانية، فهي النُّقطة التي نشكُّ فيها بأنْفُسنا وفي شكِّنا ذاته على حدُّسواء، وهي مرحلةُ المرحلة الثَّانية، فهي النُّقطة التي نشكُّ فيها بأنْفُسنا وفي شكِّنا ذاته على حدُّسواء، وهي مرحلةُ وصل إليها قلَّة قليلةٌ من بني البشر، في منحنى الزَّمن المديد، على الرَّغم من قصره، الذي رأينا فيه -نحن بني البشر - الشَّمسَ تشرق واللَّيلَ يهبط فوق سطح الأرض المتنوَّع.

⁽³¹⁰⁾ إرنست مَكُل Haeckel: فينسوف وعالم أحياء ألماني. (المترجم) (311) يذكر زينيث في حواشي طبعته أنَّ بِسُوًا قد قرأ في العام 1906 كتابَ هَكُل الحجية الكون» (1888). أيّ أنَّ عمره كان

في ذلك الرقت 18 عاماً فحسب، (المترجم) (312) لُورِش Loures: مدينة تبعد 13 كيلومتراً شهال لشبونة. (المترجم)

فأنُ تعرف نَفْسك هُوَ أَنْ تُخطِئ، ولقد اقترح العرّافُ الذي قال «إعرف نَفْسك»، مُهمّة أصعب من جميع المهامِّ التي قام بها هرقل، وأحجية أكثر غموضاً من أحجية أبي الهول. فالسّراط المستقيم الذي لا بُدَّ أن يسير عليه المرء هُوَ اللّا يعرف نَفْسه واعياً بذلك. وألّا يعرف المرء نَفْسه، واعياً بذلك، وأللا يعرف المرء نَفْسه، واعياً بذلك، مُهمّة التّهكُّم الفعّالة. فلا أعرف مُهمّة، ينجزها الإنسانُ العظيم حقاً، أعظم، ولا أنسب، من مُهمّة التّهحليل الصّبور والمُعبِّر للطّرائق التي لا نعرف فيها أنفُسنا؛ والتّسجيلِ الواعي لِلاوعي وعينا؛ وغيبيًا تِنَا بوصفنا ظلالاً مُستقلّة بذاتها؛ وشِغرِ شَفَق خيبة الأمل.

بَيْدَ أَنَّ شيئاً يتملَّصُ مِنَّا دائهاً، وثمَّة دائهاً بعض التَّحليلات التي تفلت مِنَّا؛ فالحقيقةُ، على الرَّغم من أنَّها باطلة، هي دائهاً على الأبواب(313). ويتعب المرء أكثرَ من الحياة حين تغدو الحياة مُتعِبة، وأكثرَ من أيِّ معرفةٍ عن الحياة، أو أيِّ تأمُّلٍ في الحياة، اللَّذَيْن لا يقلَّان عنها تعباً.

أنهضُ من الكرسيِّ حيث كنتُ، مستنداً إلى الطَّاولة شاردَ الذِّهن، أُسلِّي نَفْسي بسرد هذه الانطباعات الجيَّاشة المُتقلِّبة. أنهضُ، أجعل جسدي ينهض، ثُمَّ أذهب إلى النَّافذة، التي هي أعلى من أسطح البيوت، حيث أستطيع رؤية المدينة تهيِّئ نفسها للنَّوم والصَّمتُ في بدايات الصَّمت المتوانية. والمقر الأبيض الكبير السَّاطع يُشير، حزيناً، إلى الخطَّ المُثلَّم لأسطح البيوت المتجاورة، فيبدو ضوؤه البارد وهو يُنير السِّرَّ كلَّهُ؛ سرَّ العالمَ. ويبدو أنَّه يكشف كلَّ شيء المتحاورة، فيبدو ضوؤه البارد وهو يُنير السِّرَ كلَّهُ؛ سرَّ العالمَ. وعبث ضالً، والهمهات وأنَّ كلَّ شيء مُجرَّد ظلال مختلطة بضوء خافت، وبرازخ باطلة، وعبث ضالً، والهمهات المتنافرة للعالمَ المرئيِّ، ولا يبدو غيابُ أيِّ نسيم إلَّا كي يضاعف من حضور السِّرِّ. سئمتُ الأفكار المُجرَّدة، لن أكتب على الإطلاق صفحة واحدة تكشف نَفُسي أو أيَّ شيء آخر الخفُّ الغيات تحوِّم غامضة فوق القمر كما لو أنَّها غبأ القمر. لا أعرف شيئاً، مثل أسطح البيوت هذه. ولقد أخفقتُ، مثل كلِّ شيء في الطَّبيعة.

está além da outra esquina : يستخدمها بِسُوًا هي القريب العاجل. والعبارة التي يستخدمها بِسُوًا هي (313) أي أنها ستحدث في القريب العاجل. والعبارة التي يستخدمها بِسُوًا هي just around the corner: حول الزَّاوية التَّالية» (وية). (المترجم)

[1 دیسمبر 1931]

كمنُ الفنُّ في جعل الآخرين يشعرون بها نشعر به، وفي تحريرهم من أنْفُسهم، بتقديم شخصيَّتنا لهم سبيلاً للتَّحرُّر. فما أشعرُ به، في الجوهر الحَقِّ الذي أشعر فيه بهِ، ليس صالحاً للنَّقْل بِتَاتًا؛ فَكُلُّهَا كَانَ الَّذِي أَشْعَر بِه عَمِيقًا، بِاتَ غَيْرِ صِالِحِ لَلنَّقْلَ عَلَى نَحُو أكثر. ولكي أكون قادراً على نقل ما أشعرُ به إلى شخص آخر، فلا بُدَّ أن أترجم مشاعري بلغته، أقصدُ، أن أقول تلك الأشياء كما لو أنَّها كانت ما أشعر به، فيشعر، عند قراءتها، بما شعرتُ به تماماً. وبِمَا أَنَّ ذلك الشَّخص، وفقَ منظور الفنِّ، ليس هذا الشَّخصَ أو ذلك، وإنَّما كل شخص، أقصدُ، الشَّخصَ المُشترَك لدى جميع البشر، فلا بُدَّ أن أُحوِّل مشاعري، في نهاية المطاف، إلى مشاعر إنسانيَّة مثاليَّة، حتَّى لو أدَّى ذلك إلى تشويه الطَّبيعة الحَقَّة للأشياء التي شعرتُ بها. جميع الأفكار المُجرَّدة عصيَّة على الفهم، فمن الصَّعب أن تجذب الأفكار المُجرَّدة الشَّخص الذي يقرأ. سأضرب مثلاً بسيطاً يجعل تلك الأفكار اللجرَّدة سهلةَ الاستيعاب. تخيَّل، لسبب أو آخر -ربَّما حين أضيق ذرعاً بالتَّحديق في سجِّل الحسابات أو لا شيء لديَّ أفعله- أن يداهمني حزن غامض بصدد الحياة، قلَقٌ يزعجني ويكدِّر صفوي. إذا أردتُ ترجمة تلك العاطفة إلى كلمات تتوافق تماماً مع ذلك الشُّعور، فلا بُدَّ أن أُحِكم سبك الكلمات، فكلَّما أُحكِمَت الكلمات، عبَّرتُ عن مشاعري أكثر، وقلَّ تواصلي مع الآخرين. وإذا لم أستطع التَّواصِ مع الآخرين، فمن الأفضل والأسهل حينئذ أن أشعر بالعاطفة فحسب، دون تجشّم عناء تدوينها.

وتخيًّل، رغم ذلك، أنَّني راغبٌ في نقل تلك العاطفة إلى الآخرين، أقصدُ أن أحوِّلها إلى فنَّ، لأنَّ الفنَّ يعني نقل إحساس المرء بهوِّيته إلى الآخرين، ولا يمكن أن يكون ثمَّة تواصل ولا حاجة إلى التَّواصل، دون ذلك الإحساس. أحاول اقتفاءَ أثر العاطفة الإنسانيَّة الشَّاثعة التي تمتلك روحَ العاطفة ونوعَها وشكلها؛ العاطفة التي أشعر بها، في هذه اللَّحظة، تجاء الباعث غير الإنسانيِّ المُعيَّن الذي يجعلني أشعر أنَّني عاسب يقتله السَّام أو مواطن ضَجِر من مواطني لشبونه. أكتشفُ أنَّ ذلك النَّوع من العاطفة العاديَّة، التي تُثير تلك العاطفة ذاتها في دوح عاديَّة، هو حنينٌ إلى طفولتنا الضَّائعة.

ثُمَّ أمتلك مفتاح الباب الذي سألج منه إلى الفكرة الرَّئيسة التي يدور عليه حديثي. أكتبُ وأبكي على طفولتي الضَّائعة، خائضاً في تفاصيل مثيرة للشَّجن عن الأثاث والذين قطنوا ذلك البيت العتيق في الرِّيف؛ أستحضرُ فرحةَ الوقت الذي لم تكن لديَّ فيه أيُّ حقوقٍ أو واجبات، فرحةَ الحُرَّيَّة التي شعرتُ بها لأنَّني لم أعرف كيف أُفكِّر أو أشعر. وإذا نجح ذلك الاستحضار في تحويل تلك الفرحة إلى نثر واضح، فسوف يوقظُ في قارئ أعمالي تلك العاطفة التي لا علاقة لها بالطَّفولة.

هل كنتُ أكذبُ؟ كلّا، كنتُ أفهمُ، ليسَ إلّا. فالكذبُ -باستثناءِ الكذب الطَّفوليِّ، العفويِّ، المولود من رغبة في الحُلم- ليسَ إلَّا اعترافاً بوجود الآخرين، وتسليماً بالحاجة إلى تشكيل ذلك الوجود على مقاس وجودنا، الذي لا يُمكن أن يُشكَّل على مقاس وجودهم. فليس الكذبُ، بكل بساطة، إلَّا اللَّغةَ المثاليَّة للرُّوح، مثلها نستخدمُ الكلهات -التي هي أصواتٌ نُطِقَتْ واضحة بطريقة عبثيَّة - كي نُترجِمَ، إلى لغة حَقَّة، أشدَّ حركات العاطفة والفِكر حميميَّة وغموضاً، التي لا تستطيع أن تترجَها الكلهاتُ وحدَها البَّة، فنلجأ إلى الكذب والصُّور المُتخبَّلة لفهم الآخرين والانسجام معهم، وهي مسألة لن نقدر عليها الكذب والصُّور المُتخبَّلة لفهم الآخرين والانسجام معهم، وهي مسألة لن نقدر عليها بستخدام حقيقتنا الشَّخصيَّة العصيَّة على المشاركة والنَّقْل.

يكذبُ الفنُّ لأنَّه شيء اجتاعيُّ. ولا يُوجَد سوى شكلَيْن عظيمَيْن من الفنِّ - الأوَّلُ يَخاطب روحنا العميقة، والآخرُ يخاطب روحنا اليَقِظة. الأوَّلُ الشِّعرُ، والثَّاني الرِّوايةُ. فبنيةُ الأوَّلِ كَذِبُ في حدِّ ذاتها الكَذِبَ أيضاً. يشرع الأوَّلُ في تقديم الأوَّلِ كَذِبُ في حدِّ ذاتها الكَذِبَ أيضاً. يشرع الأوَّلُ في تقديم الحقيقة إلينا عبر أبياتٍ موزونة، وهذا يتعارض مع طبيعة الكلام المتوارَّنة؛ في حين يجنح الثَّاني إلى تقديم الحقيقة عبر حقيقة واقعيَّة نعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّها لم تكُن موجودةً قَطُّ.

أَنْ نتظاهرَ هُو أَنْ نُحِبّ. لم أَرَ قطَّ ابتسامةً عذبة أو نظرةً مُعبِّرة، بصرف النَّظر عمَّن تنتمي إليه هذه الابتسامة أو تلك النَّظرة، دونَ أن أُحدِّق عميقاً في روح الشَّخص المُتبسِّم أو النَّاظر، سابراً أغوار نَفْسه، باحثاً عن السِّياسيِّ الذي يأملُ في أن يشترينا أو المومس التي تأمل في أن نشتريها. بَيْدَ أَنَّ السِّياسيَّ الذي اشترانا قد أحبَّ على الأقلِّ شراءنا؛ والمومس التي اشتريناها قد أحبَّ على الأقلِّ شراءنا؛ والمومس التي اشتريناها قد أحبَّ على الأخوَّة الإنسانيَّة العالميَّة، على الرَّغم من قد أحبَّت على الأقلِّ شراءنا. لا نستطيع الهربَ من الأخوَّة الإنسانيَّة العالميَّة، على الرَّغم من

⁽³¹⁴⁾ تذكرنا بالمقولة العربيَّة الذَّاتعة الصِّيت: «أعذبُ الشُّعر أكدبُه». (المترجم)

336

[1 ديسمبر 1931]

ولأنّني أُعاني من السَّام، فمن الغريب أني أُفكِّر كثيراً حتى اليوم في ماهيَّة السَّام وممَّ يتكوَّن حقاً. تنتابُنِي اليومَ تلك الحالة الذَّهنية البَيْنيَّةُ التي لا أشعر فيها بأيِّ اهتهام بالحياة أو أيِّ شيء آخَر. أستغلُّ الإدراك المفاجئ بأنَّني لم أُفكُّرُ قَطُّ في هذا الشُّعور كي أحلمَ بتحليلٍ أي شيء آخَر. أستغلُّ الإدراك المفاجئ بأنَّني لم أُفكَّرُ قَطُّ في هذا الشُّعور كي أحلمَ بتحليلٍ لم يُد أن يكون مُتكلَّفاً بعض الشَّيء، موظِّفاً الأفكارَ وشِبْهَ الانطباعات التي لديَّ عن هذا الموضوع.

لكنّني لا أعرف، بكلّ أمانة، إنْ كان السّامُ هُوَ المُعادِل اليَقِظ لِنُعاسِ الكَسُولِ الذي أدمنَ الكسلَ أو شيئاً هُوَ بِكُليّته أنس من ذلك النّوع المُعيّن من الخمول. غالباً ما أعاني من السّام، لكنّه لا يتبعُ على حدِّ علمي أيَّ قواعد على الإطلاق، سواءً في الوقت الذي يظهر فيه أو الأسباب التي تدفعه إلى الظهور. أستطيع أن أقضي يومَ أحدٍ مُتبطّلاً دون أن ينتابني السّام البيّنة، بَيْدَ أنّه يُخيّمُ علي فجأةً مثل غيمة، في بعض الأحيان، حين أنهمكُ في العمل انهاكا شديداً. ولا أستطيع أن أربط السّام بأيّ حالٍ من أحوال العافية أو الافتقار إلى العافية؛ ولا أستطيع أن أراه ناجماً عن أسبابِ مُعيّنة في أيّ جزء ظاهرٍ من نَفْسي.

والقولُ إِنَّ السَّامَ كَرْبٌ غيبيٌّ مُحتجِب، وخيبةُ أمل تفوقُ الوصف، وقصيدةٌ سرِّيَةٌ (١٤٥) للرُّوح الضَّجِرة التي تميلُ خارجَ النَّافذة المفتوحةِ على الحياة -أو أشياء من هذا القبيل- قد يضفي لوناً على السَّام، مثلها يرسم الطَّفلُ شيئاً، ثُمَّ يلوِّنه بطريقة غير مُتقنة فيطمس الحواف، بيّدَ أنَّها، بالنِّسبة إليَّ، مجرَّد كلهات تتردَّدُ أصداؤها حول أقبيةِ الفِكر.

السَّامُ... إِنَّهُ التَّفكيرُ دون تفكير، بيد أنه يتطلَّبُ كلَّ الجهد الذي يُبذَل في التَّفكير؛ إنَّه الشَّعورُ بلا شعورٍ، لكنَّهُ يستثير الكَرْب كُلَّهُ الذي ينطوي عليه الشُّعور في العادة؛ إنَّه ليس السَّعورُ بلا شعورٍ، لكنَّهُ يستثير الكَرْب كُلَّهُ الذي ينطوي عليه الشُّعور في العادة؛ إنَّه ليس الرَّغبة في شيءٍ غير أنه الرَّغبة فيه، ومعاناةُ الغثيان كلِّه النَّاجم عن عدم الرَّغبة. وعلى الرَّغم من أنَّ السَّام ينطوي على هذه المشاعر كلِّها، فإنَّها ليستُ في حدِّ ذاتها السَّام، إنَّها مُجرَّد إعادةِ

⁽³¹⁵⁾ الأصل عند بِشُوًّا (poesia surda : شِعرٌ أَبِكم / أخرس. (المترجم)

صياغة، ترجمة، فحسب. ويبدو السّام، حين يُعبَّرُ عنه بوصفه إحساساً مباشراً، كَانَّ الجسرَ المُتحرِّكُ المنصوبَ فوق الحندق المائيِّ حول قلعة الرُّوح قد رُفعَ، تاركاً إيَّانا بلا حَوْلِ أو قوّة إلَّا قوَّة إلَّا قوَّة التَّحديق خارجاً على الأراضي المحيطة، دون أن تطأ أقدامُنا الأرضَ هُنَاكُ مرَّة أخرى. نحنُ معزولونَ داخل أنْفُسِنا عن أنْفُسِنا، عُزلةً يكون فيها ما يفصلُ بعضَنا عن بعضٍ راكدًا مِثلَنا، كَأنَّهُ بِركة مياه آسنةٍ راكدة تحيط بعجزنا عن الفهم.

السّامُ... إنّهُ المعاناةُ بلا معاناةٍ ، والرّغبةُ بلا إرادة ، والتّفكير بلا منطق ... إنّهُ كمثلِ أنْ يتلبّسنا شيطانٌ متشائمٌ ، وألّا يسحرنا شيءٌ البتّة ، يقولون إنّ السّحرة وبعض صغار المشعوذين ، حين يصنعون أوثاناً على هيئتنا ثُمّ يُعذّبونها ، يستطيعون إعادة بعث تلك العذابات فيئنا عبر بعض التّحوُّل النّجميِّ . ينبعثُ السَّام فيي، في الشُّعور المُتحوِّل لتلك الصُّورة ، مثل الانعكاس الحبيث للسّحر الذي ألقاه شيطانٌ خرافيٌّ على ظلِّ الصُّورة وليس على الصُّورة نَفْسها . إنَّه الحبيث للسّحر الذي ألقاه شيطانٌ خرافيٌّ على ظلِّ الصُّورة وليس على الصُّورة الدَّبابيس . أنا على ظلِّ الجوَّانيِّ ، على سطح وليجةِ روحي ، حيث يلصقون الورق أو يغرزون الدَّبابيس . أنا كمثل الرَّجل الذي باع ظلَّهُ (٥٠٤) أو ، بالأحرى ، كمثل ظلِّ الرَّجل الذي باعَهُ .

السَّامُ... أَكِدُّ في عملي كثيراً. أُؤدِّي ما يُسمِّبه الأخلاقيُّون العمليُّون واجبي الاجتهاعيَّ، وأُؤدِّي ذلك الواجب، أو ذلك القَدَر، دون بذل جهد كبير أو مواجهة صعوبة ملحوظة. ولكنَّ روحي تفيضُ بِكَدرِ العجز، في بعض الأحيان، في خضمُّ العمل أو في غمرة أوقات الفراغ (وهو شيء أستحقُّه، وفق أولئك الأخلاقيُين ذاتهم، ولا بُدَّ أن أستمتع به) فَيُضنيني القراغ (وهو شيء أستمتع به) فَيُضنيني

فلهاذا سئمتُ نَفْسي، إنْ لم أكُن أَفكُر حتَّى في نَفْسي؟ أي شيءٍ آخر سأفكّر فيه؟ يهطُ سرُّ الكون عليَّ وأنا أكدحُ في تدوين الحسابات أو أستريح في أحد الكراسي؟ ولقد تبلور ألمُ الحياة الكونيُّ فجأةً في وسيط روحي؟ فلهاذا تسمو الرُّوح بشخص لا يعرف حتَّى مَن هُو؟ إنَّهُ شعورٌ بالحواء المُطلَق، جوعٌ بلا رغبة في الطَّعام، شعورٌ نبيلٌ نبالةَ المشاعر التي تنتابُ ذهن المرء أو معدته حين يُدخِّنُ أو يلتهم كثيراً من الطَّعام.

السَّأَمُ... ربَّها هُوَ فِي الأساس تعبيرٌ عن السُّخط في روحنا العميقة لعدم حصولنا على

⁽³¹⁶⁾ يذكر زينيث في حواشي طبعته إلى أنَّ هذه العبارة إشارة إلى يتير شُلَمِيل بطل وواية الشاعر الألماني أدلبيرت فو^ن تشاميسو، الذي باع ظلَّه إلى الشَّيطان. (المترجم)

شيء نؤمن به، أسى الطُفل (الذي هُوَ نحن في قرارة أنفُسنا) لأنّنا لم نشتر لَهُ الدُّمية المقدسة. إنَّهُ ربَّها عدم الأمان الذي يشعر به شخصٌ يحتاجُ إلى يدٍ تأخذ بيده إلى برِّ الأمان؛ شخصٌ لا يُدرِك أيَّ شيءٍ، في الطَّريق السَّوداء للمشاعر العميقة، إلَّا اللَّيلَ الصَّامت لعجزه عن التَّفكير، والطَّريقَ المهجورة لعجزه عن الشُّعور...

السَّأَمُ... لن يعاني السَّأَمَ مَن يؤمنُ بإلهٍ. فالسَّأَمُ افتقارٌ إلى ميثولوجيا. أمَّا غير المؤمنين، فمحرومون حتَّى من الشَّكُ، حتَّى إنَّ فلسفة الشَّكُ لا تمنحُ القوَّة على الياس. نعم، هذا هُوَ السَّأَم: خسارةُ الرُّوح لقدرتها على أن تخدع نَفْسَها، وافتقارُ الفِكر إلى سُلَّمٍ غير موجود تصعد عليه الرُّوحُ بثباتٍ صوب الحقيقة.

337

[1 ديسمبر 1931]

خلصتُ اليومَ فجأةً إلى نتيجةٍ عبثيَّة، لكنَّها معصومة عن الخطأ. أدركتُ في لحظة إشراقٍ أنَّني لا أحد، لا أحدَ تماماً. رأيتُ حين لمعَ البرقُ أنَّ ما ظننتُ أنَّها مدينةٌ كانت في الحقيقة سهلاً مهجوراً، ورأيتُ في الضَّوء المشؤوم ذاته الذي أطلعني على نَفْسي أنْ لا سهاءَ فوقَهُ. حُرِمتُ من احتماليَّةِ أن أُوجَد قبل العالم. ولو قُدِّرَ أن أتناسخَ أبداً، فلا بُدَّ أن أتناسخَ بلا نَفْسي، بلا نَفْس أتناسخُ.

أَنَا ضُواحيَّ بلدةٍ غير موجودة، والمقدِّمةُ المُسهَبة لكتابٍ لم يُكتَب بَعْدُ. أنا لا أحد، لا أحد. لا أعرف كيف أشعر أو أفكّر أو أُحِبّ. أنا شخصيَّةٌ في روايةٍ لم تُكتَب بَعْدُ، نحوم في الهواء فأتبدَّدُ حتَّى قبل أن أُخلَق، بين أحلام شخص لم يتمكَّن قَطُّ من نفخ نَسَمَةِ الحياة فِيَّ. أُفكرُ دائها، وأشعرُ دائها، ولكنَّ أفكاري تفتقر إلى المنطق كله، وعواطفي تفتقرُ إلى الشُّعور كلَّه، إنّني أسقط عبر باب سحري، عبر فضاءٍ مُطلَق لا يُحَدُّ ولا يَنْفَدُ (١٥٥)، سقطة خاوية خَبْطَ

⁽³¹⁷⁾ الكدمة التي يستخدمها بِسُوَّا، هُنا، هي: infinitupla ويذكر زينيث في حواشي طبعته بأنّها عبارة حديدة نحتها بِسُوَّا من الكلمتَيْن infinito» (ع لا نهائيًّ مُطلَق أزليًّ) وكلمة «multiplo» (مُضاعَف مُتعدُّد مُركَّب). بِسُوَّا من الكلمتَيْن infinito» (= لا نهائيًّ مُطلَق أزليًّ) وكلمة «ous» التي تستخدم عادة لتحويل أرتأت جول كوست، هُنَا، أن نترجها بـ infinitous»، بإضافة اللَّاحقة «ous» التي تستخدم عادة لتحويل الأساء إلى صفات نكون عتلئة بمعنى ذلك الاسم، كأن نُحوِّل danger على سبيل المثال، لتصبح dangerous الأسهاء إلى صفات نكون عتلئة بمعنى ذلك الاسم، كأن نُحوِّل minfinite» على ما للما المناق المناق العدو العبارة خطير الطافح بالخَطر. ولذا فهي إذ آثرت استخدام «infinitous» ثُمَّ أصافَتُ لها كلمة infinite لتغدو العبارة خطير الطافح بالخَطر. ولذا فهي إذ آثرت استخدام القضاء اللَّن الفضاء اللَّن طافح بلا نهائيته، عتليَّ بها. وهذا

عشوام. روحي دوَّامةٌ سوداء، جنونٌ عظيم يدور حول خواءٍ، دورانُ بحرٍ تُحيطٍ شاسع حول ثُقبٍ في الفراغ، وفي المياهِ، التي هي أعاصيرُ أكثر من كونها مياهاً، تطفو صُوَرُ كلِّ ما رأيتُهُ أو سمعتُهُ في العالَم: بيوتٌ، وجوهٌ، كُتُبٌ، صناديقٌ، نُتَفُّ من موسيقي وبقايا أصوات، عالقةٌ جميعُها في دوَّامة مشؤومة لا قرارَ لها.

وأنا، أنا نَفْسِي، البؤرةُ التي لا تُوجَد إلَّا لأنَّ هندسةَ الهاوية تتطلُّبُ ذلك. وأن العَدَمُ الذي يدورُ حولَهُ هذا كُلُّهُ، وأنا موجودٌ كي يدورَ، وأنا بؤرةٌ لا تُوجِد إلَّا لأنَّ كلَّ دائرةٍ لها بؤرةٌ. وأنا، أنا نَفْسي، البئرُ التي سقطتْ فيها جدرائها فَلَمْ تُخلِّف إِلَّا حَمَاً دَبِقاً. أنا بؤرةُ كلِّ

شيء يحيط به العَدَمُ العظيمُ.

كَأَنَّ جِهِنَّمَ نَفْسَها كانت تضحكُ فِيَّ، بَيِّدَ أَنَّهُ، عوضاً عن اللَّمسة الإنسانيَّة للضَّحك الشُّيطانيُّ، ثمَّةَ النَّعيبُ المجنون للكون الميِّت، والجنَّةُ المدوِّمة للفضاء الماديِّ، ونهايةُ العوالم كلُّها تتطايرُ سوداءَ في الرِّيح، ممسوخةً، وسرمديَّةً، من دون الإله الذي خلقها، من دون الإلهُ نَفْسه، الذي يدور في عتمةِ العتمات، مستحيلًا، وفريداً، وكلُّ شيء.

ليتني أفكرا ليتني أشعرا

ماتتْ أُمِّي صبيَّةً؟ لم أعرفها قطُّ...(31)

338

[3 دېسمبر 1931]

اعتدتُ أن أسمع، حينَ جئتُ إلى لشبونة أوَّل مرَّةٍ، صوتَ شخص يعزف نغمات السُّلُّم

فقد آثرتُ أن أترجها: «فضاء مُطلَق لا يُحَدُّ ولا يَنْفَد». في حين مال زينبث، في طبعته الإنگليزيَّة، إلى أن يترجها ب «infinitudinous»، مضيفاً اللَّاحقة إلى «infinitude». وهذا مثال آخر على "المشقَّة" التي واجهت مترجمي كتاب القلَق، سواء إلى الإنگليزيَّة، أو إلى اللُّغات الأخرى؛ ولا بُدَّ من الإشارة، هُنا، على سبيل المثال، إلى اصعوبة؛ ترجمة نثر يشوًا التي تحدُّثتُ عنها قاليريا توكُّو، مترجة كتاب القلق إلى الإيطاليَّة، في مقدِّمتها، نتيجة جنوح بسُوًا المتكرُّر إلى اخْتُلَاقَ أَلْفَاظُ وتعابير جديدة ونحت كلمات لم تكن مستخدمة قبله في اللغة البرتغاليَّة. (المترجم)

(318) تُظهِرُ القصاصة التي دوِّن عليها بِسُوَّ، هذا المقطع أنَّه بعد ان انتهى من كتابة عبارة الميتني أفكَّر، ليتني أشعرا دوَّنَ ٱلتَّارِيخِ (على هذه الشَّاكلة: 1/21/ 1931.) في منتصف نهاية الصَّفحة، ثُمَّ بعد السطر الذِّي دوَّن هيه التَّاريخ، مباشرة، كتب هذه العبارة وحدها. وم يرد النَّصُّ على هذه الشَّاكلة التي وصعها بِسُوًّا بنفسه إلَّا في طبعة بيسازُو فقط، (المترجم)

الموسيقيِّ على البيانو، وهُوَ يتعالى من الشقَّة التي في الأعلى، الصَّوت الرَّتيب للبيانو الذي تتدرَّبُ عليه فتاةٌ صغيرة لم أرها قطُّ. ولقد اكتشفتُ اليومَ، عبر سيرورات الاستيعاب التي أخفقتُ في استيعابها، أنَّني لو فتحتُ الباب المفضي إلى أقبية روحي، فإنَّ نغمات السُّلُّم الموسيقيِّ المتكرِّرة، تلك، مازالتْ مسموعة، تعزفها الفتاة الصَّغيرة التي ربَّها تكون، في هذه الأثناء، حرمَ فلان الفُلاني أو علَّان العلَّاني، أو ربَّما تكون قد ماتت، ودُفنتْ في مكان أبيض أورقَتْ فيه سرواتٌ معتمة.

كنتُ طفلاً، حينئذ، والآنَ لستُ كذلك. ولكنَّ صوت العزف مازال يرنُّ في ذاكرتي على الشَّاكلة التي كان عليها في الواقع، وحين يتعالى الصُّوت من ذلك المكان الذي يكمنُ فيه متظاهراً بالنَّوم، فإنَّ تلك النَّغمات البطيئة ذاته تحضرُ ولا تكفُّ، ويحضر الإيقاع الرَّتيب ذاتُهُ ولا يكفُّ. يجتاحُني، كلَّما شعرتُ به وفكَّرتُ فيه، حزنٌ عميمٌ مُوجعٌ، حُزنٌ لي أنا وحدي. لا أبكي على ضياع طفولتي؛ أبكي لأنَّ كلَّ شيءٍ سوف يضيعُ، وطفولتي سوف تضيعُ. ما يجعلُ عقلي يتألُّم، جرَّاءَ التُّكرار الطُّوعيِّ المُتكرِّر لنغمات الشُّلَّم الموسيقيِّ المعزوفة على البيانو المنبعثة من الطَّابق العلويُّ التي تبدو مجهولةً وقصيَّةً، هي تحليقةُ الزَّمن المُجرَّدة، وليستْ تحليقة الزَّمن الملموسة التي تؤثِّر فِيَّ مباشرةً. إنَّها الحقيقةُ الغامضةُ برمَّتها؟ حقيقةُ ألَّا شيء

يدومُ هي التي تدقُّ النَّغمات مرَّات ومرَّاتٍ، النَّغمات التي ليستُ موسيقي تماماً، وإنَّما مزيجٌ من حنين وتَوْق حرَّاقٍ يكمنُ مُتربِّصاً في الأعماق العبثيَّة لذاكرتي.

ثُمَّ تصعدُ على مَهَل أمامي، هُنَاكَ، حجرةُ الجلوس التي لم أرها قطُّ، حيث ما زالتُ تعزفُ المتدرِّبةُ التي لم أرها قطُّ، بأصابعها المحترسة، إصبعاً وراء آخَر، نغمات السُّلُّم الموسيقيِّ المتكرِّرة ذاتَها لشيء قد مات. أنظرُ فأرى ثُمَّ أعيد، وأنا أرى، بناءَ المشهد ثانيةً. ثُمَّ تنبثقُ من تَأْمُّلِي المشدوه رؤيةٌ للحياة العائليَّة الدَّائرة في الشقَّة الواقعة في الطَّابق العلويِّ؛ رؤيةٌ طافحة

بلوعة شديدة كانت تفتقر إليه في ذلك الحِين.

لِكَنَّنِي أَظَنُّ أَنَّنِي مُجَرَّد وسيلةٍ لهذا كلُّه، وأنَّ التَّوق الحرَّاقَ الذي أشعر بهِ ليسَ تو قي حقاً ولا هُو توقُّ مُجرَّد أيضاً، بيد أن العاطفة التي اعترضها طرفٌ ثالث مجهول يمتلك تلك المشاعر (التي هي داخل نَفْسي مشاعر أدبيَّة)، ستغدو بالنِّسبة إليه -على حدٍّ قول ڤييرا-حرفيَّة. ينبع وجعي وكربي من مشاعري المتخيَّلة، ولا أشعر بهذا الحنين الذي يجعل عينيَّ

تغرورقان بالدُّموع، إلَّا في مخيِّلتي وفي إحساسي بالاختلاف.

لكنَّ صوت شخص يتدرَّبُ على عزف نغات الشَّلَم الموسيقيِّ على البيانو مازالتُ تتردَّد أصداؤه، ثُمَّ تتردَّدُ مرَّة أخرى، صعوداً وهبوطاً، في العمود الفقريِّ الفيزيقيِّ لذاكرتي، بانتظام ثابت ينبع من أعماق العالم، ومثابرة غيبيَّة مدروسة. إنَّه يستحضر الشَّوارع العتيقة المُكتظَّة بالاَخرين، الشَّوارع ذاتها التي هي مختلفة اليوم فقط؛ إنَّهم الموتى بحدَّثونني عن غيابهم عبر بالاَخرين، الشَّوارع ذاتها التي هي مختلفة اليوم فقط؛ إنَّهم الموتى بحدَّثونني عن غيابهم عبر جدران شقَّافة؛ وإنَّها مشاعر النَّدم على ما فعلته أو لم أفعله بَعْدُ، وجيَشانُ الجداول في الليل، والجُلَبُ المتعالية أسفل الدَّرج في البيت الهادئ.

أشعرُ كَأَنَّنِي أَصرِخُ في رأسي. أُريد لهذا الغامض الذي يعذِّبني أن يتوقَّف، أريدُ أن أسحقَهُ، وأن أشقَّهُ نصفَيْن؛ ذلك التَّسجيل المستحيل الذي يدور في رأسي، في منزل شخص آخر. أُريدُ أنْ آمرَ روحي بأنْ تتوقَّف، فأترجَّل، ثُمَّ تمضي من دوني. يجنُّ جنوني حين أسمع ذلك الصَّوت. فتلك النَّغهات، في النِّهاية، هي أنا -بمزاجي المُفرط في حساسيته، وجلدي المُقشعرِّ، وأعصابي التي على وشك أن تنفجر – أعزفُ نغهات السُّلَّم الموسيقيِّ على بيانو ذاكرتي الجوَّانِ الفظيع.

بَيْدَ أَنَّ تلك النَّغهات لا تكفُّ عن العزف والعزف، مرَّات ومرَّات، كها لو كانتْ تُعزَفُ داخل جزء من دماغي أعلن استقلالَهُ عنِّي، صاعدةً إليَّ من الأسفل، وهابطةً عليَّ من الأعلى، منبعثةً من ذلك المنزل الذي كان أوَّل بيت لي في لشبونة.

(319) 339

[16 نيسمبر 1931]

يقولونْ إنَّ الرَّجل الذي نُسمِّيه صبيَّ المكتب قد غادر إلى قريته اليومَ بلا رجعةٍ؛ الرَّجلَ

⁽³¹⁹⁾ يحوي ظهر الورقة التي رقن عليها بِسُوًّا هذه الشَّذرة، بحبر أزرق، على الآلة الكاتبة، قصيدة خطَّها بقلم رصاص ثمَّ شطّب عليها. القصيدة تعود إلى شهر ديسمبر 1931، ومنسوبة إلى نِدَّه ريكاردو خَايِش، مطلعها: «إذا كان ثمَّة إله منَّي / se a cada coisa que ha / um deus compete إله منَّي / Porque não haverá de mim um (D) /de\us طبعته (310) (89). (المترجم)

ذاته الذي كنتُ أعدُّه جزءاً من هذه الشَّركة البشريَّة، ومن ثمَّ فإنَّ جزءاً منِّي ومن عالمي قد رحل. وحين التقيَّنا، صُدفة، في الرِّواق، من أجل المفاجأة الحتميَّة لوداعنا، ردَّ على عناقي بالمِثْل، وقد اعتراه الخَجَل، فاستجمعتُ ما يكفي من ضبط النَّفْس كي لا أبكي، كما لو أنَّ ذلك كان، في أعماق قلبي دون أن يأذن، ما رغبتْ فيه عيناي المتحرِّقتان شوقاً إلى البكاء.

فكلُّ شيء كان لنا، لأنَّه قد كان لنا ذات مرَّة، ليس إلَّا. وحتَّى تلك الأشياء التي عشنا معها صُدفة، أو كُنَّا نراها بصورة يوميَّة، تغدو جزءاً مِنَّا. لم يكُن صبيُّ المكتب هُوَ من غادر اليومَ إلى مكان في جِلِّيْقِيَّةَ (320) لا أعرفه، وإنَّها جزءٌ من جوهر حياتي؛ جزءٌ حيويُّ، لأنَّه إنسانيُّ ومنظورٌ. ولقد تضاءلتُ اليوم، ولم أعُد نَفْسي ثانيةً تماماً. فصبيُّ المكتب قد غادر اليوم.

كلَّ شيء بحدث في العالمَ الذي نعيش فيه بحدثُ فِيْنَا. وكلَّ شيء لا يكفُّ عن الوجود في العالمَ الذي نراه من حولنا، لا يكفُّ عن الوجود فِيْنَا. وكلُّ شيء كان، على افتراض أنَّنا قد لاحظنا وجودَه حين كان هُنَاك، ينشقُّ عنَّا حين يرحلُ. ولقد غادر صبيُّ المكتب اليوم.

وحين أجلسُ إلى المكتب العالي، عائداً إلى حسابات الأمس، أشعرُ أنَّني أثقلُ، وأكبرُ في السَّنِ، وإرادتي أضعف، ولكنَّ تراجيديا اليوم الغامضة تقطعُ ما لا بُدَّ أنَّها السَّيرورة الآليَّةُ لتدوين الحسابات بتأمُّلات لا بُدَّ أن أجاهِدَ كي أردعها. والطَّريقة الوحيدة التي يطاوعني قلبي فيها على العمل هو أن أجعلني، عبر حالة من الخمول النَّشِط، عبداً لِنَفْسي. لقد غادر اليومَ صبيُّ المكتب.

نعم، غداً أو في يوم آخر أو حينها يُقرَعُ الجرسُ الصَّامت للموت أو الرَّحيل مِن أجلي، سيكون أنا مَن لن يعودَ موجوداً هُنَا، كُرَّاسةً عتيقة لا بُدَّ أن تُرتَّب بعيداً في الخزانة الصَّغيرة التي تحت الدَّرَج. نعم، غداً، أو حينها يُقدِّرُ القَدرُ الموتَ عبى الذي من المفترض أنَّهُ قد كانَ أنا، هل سأعود إلى مسقط رأسي في القرية؟ مَن يعرف إلى أين سأذهب. تغدو تراجيديا اليوم مرئيَّة بالغياب ومحسوسة لأنَّها لا تكاد تستحقُّ أن يُشعَر بها. آو، ولكنَّ صبيً المكتب غادر اليوم.

⁽³²⁰⁾ الاسم الذي أطلقه العرب على «عاليثيا Galicia» في شيال غرب إسهانيا. (المترجم)

[20 ديسمبر 1931]

أكادُ أقتنع في هذه اللَّحظة بأنَّني لستُ مستيقظاً حَقاً. ولستُ متأكِّداً إِنْ كنتُ أحلمُ حين أعيشُ، أو لا أعيشُ حين أحلمُ، أو إِنْ كان الحلم والعَيْش يمتزجان فيتشابكان فِيَّ وخارج ذلك التَّداخُل الذي شكَّل كينونتي الواعية.

وحين أرى نَفْسي، أحياناً في خضم حياتي النَّشِطة تماماً، واضحة جليَّة كأيِّ شخص آخَر، ينتابُ مخيِّلتي شعورٌ غريبٌ من الرِّيبة؛ فلا أعرف إنْ كنتُ موجوداً. يُخيَّل إليَّ أنَّني قد أكون حلم شخص آخر؛ الفكرة تخطر ببالي، بواقعيَّة تكاد تكون شهوانيَّة، أنَّني قد أكون شخصيَّة في إحدى الرِّوايات، أتحرَّك عبر الأمواج المديدة للأسلوب الأدبيِّ لشخص آخر، عبر الحقيقة التي ابتدعها سردٌ عظيم.

ولقد لاحظتُ دائماً أنَّ بعض الشُّخوص في الرِّوايات تكتسب أهميَّة لدينا لن يكتسبها أبداً معارفنا وأصدقاؤنا الذين نتحدث معهم وننصت إليهم في العالم المرئيِّ الحَقِّ. تُثير هذه الفكرة الشُّؤالَ المتعلِّق بالحُلم: هل كلُّ شيء في العالم برمَّته مجرَّد سلسلة من الأحلام والرِّوايات المتشابكة مثل صناديق صغيرة موضوعة على نحو مناسب في صناديق كبيرة الواحد في الآخر - حكايات داخل حكاية، مثل ألف ليلة وليلة، تنتشرُ على نحو باطل في العتمة الأبديَّة؟

إذا فكّرتُ، يبدو كلُّ شيء عبثيًا بالنّسبة إليَّ؛ وإذا شعرتُ، يبدو كلُّ شيء غريباً؛ وإذا رغبتُ، فإنَّ الشَّيءَ الذي أرغبُ فيه شيءٌ في نَفْسي. وأُدركُ، كلّما حدث شيءٌ في انّني لستُ الذي حدث له ذلك الشَّيء. وإذا حلمتُ، أشعر كأنَّ شخصاً كان يكتُبُني؛ وإذا شعرتُ، فإنّني أشعرُ كأنَّ شخصاً كان يرسُمُني. وأشعرُ، إذا رغبتُ في شيء، كأنَّني قد وُضِعْتُ في فإنّني أشعرُ كأنَّ شخصاً كان يرسُمُني. وأشعرُ، إذا رغبتُ في شيء، كأنَّني قد وُضِعْتُ في عربة، مثل بضاعةٍ لا بُدَّ أن تُنقَل، فأتركُ نَفْسي بكلِّ بساطة كي تُحمَل على طول الطَّريق، تهزُّها حركةً من الواضح أنّا حركتي، حتى نصل إلى مكان لم أعرف آنَني قد رغبتُ في الذَّهاب إليه حتَّى بعد أن وصلتُ.

كم هُوَ مثيرٌ للحيرة كلُّ شيءٍ! والرُّؤية تتفوَّقُ على التَّفكير، تفوُّقاً شديداً، والقراءةُ تتفوَّق على الكتابة، تفوُّقاً شديداً! قد يخدعني ما أرى، ولكنَّني لا أُفكِّرُ البتَّة، على الأقلِّ، بأنَّه لي. وقد يغمّني ما أقرأ، ولكنّني لا أنزعجُ على الأقلّ من فكرة أنّني قد كتبتُه. وكم هُوَ مؤلمٌ كلُّ شيء حين نُفكِّرُ فيه واعينَ بآننا قد فكّرنا فيه، مثل مخلوقات روحانيّة مرَّت بالتطوُّر النَّالي للوعي الذي نعرف من خلاله أنّنا نعرف. ولا أستطيع إلَّا أن أُفكِّر على هذه الشَّاكلة، مها كان النَّهار جميلاً... أنْ أُفكِّر أو أشعر، أمْ ثمَّة احتماليَّةٌ ثالثة بين ديكورات المشاهد التي نُحّيت إلى طرف خشبة المسرح؟ مشاعرُ السَّام التي أثارها الشَّفقُ والإهمال، مراوح يدويَّة مُطبَقة، والتَّعب النَّاجم عن ضرورة العَيْش...

341

[1931]

كيف يمكنُ لحُبِّ امرأة أرضيَّةٍ ألَّا يكون مُجرَّد حلم، بالنَّسبة إلى شخص اغتصب پيرسفوني، على شاكلة دِيْس⁽¹²¹⁾، حتَّى ولو في الأحلام؟

لكنَّني أحببتُ أنتيغوني، على شاكلة شيلي الناء تهل أن يكون الوقت (323): كنتُ ألتلُّ دائهًا، في كلِّ حُبِّ عابرٍ، بذكري ما قد ضيَّعتُ.

342

[1931]

... حساسيتي المُفرِطة، سواء تجاه الأحاسيس المثيرة أو تجاه التَّعبير عن تلك الأحاسيس فحسب، أو، بالأحرى، تجاه البصيرة التي تُوجَد بينها، والتي تنبع من نيتي في التَّعبير عن الإحساس المثير المُفتَعل الذي لا يُوجَد إلَّا كي يُعبَّر عنه. (ربَّها هذا فِيَ تُجرَّد الآليَّة التي هدفُها الوحيد الكشفُ عمَّن لستُ أنا [هُوَ]).

⁽³²¹⁾ Dis (321: إله العالم السفلي عند الرُّومان. (المترجم)

⁽³²²⁾ الشاعر الإنگليزي ييرمي بش شيلي Shelly. (المترجم)

⁽³²³⁾ يشير زينبت في حواشي طبعته إلى أنَّ عبارة بِسُوَّا هذه إشارة إلى تلك العبارة التي وردت في الرَّسالة التي بعثها شيلي من بيزا إلى جون غيسبورن، في 22 أكتوبر 1821، قائلاً: «أنت تُحقِّ بخصوص أنتيغوني؛ يا لجمال صورة تلك المرأة الحقلاب! (...) ولا بُدَّ أنَّ بعضنا قد أحبَّ أنتيغوني، في وجودٍ سابق، ولهذا لا نعثر على الجوهر الذي يرضينا، تمام الرَّصا، في أيَّ علاقة قانية ٥. (المترجم)

السَّيِّد فاسْكِش. غالباً ما أجد نَفْسي مفتونة بالسَّيِّد فاسْكِش. فها الذي يُمثِّله في هذا الرَّجل، باستثناء الانزعاج العابر الذي يفرضه لكونه سيِّد وقتي، سيِّد ساعات النَّهار من حياتي؟ لكنَّهُ يُحسِن معاملتي، ويتكلَّم معي دائهاً بمودَّة كافية إلَّا في تلك المناسبات الغريبة، التي يغدو فيه فظاً، بسبب قلق يساوره لأمر شخصيِّ، بيد أنه يغدو فظاً مع الجميع حينئذ. لماذا أُفكِّر فيه كثيراً؟ هل هُوَ قدوةٌ؟ قوَّة مُحفِّزة؟ ما الذي يعنيه بالنِّسبة إليَّ؟

السَّيِّد فاسْكِسْ. أنذكَّره في هذه اللَّحظة، مثلها سوف أنذكَّره في المستقبل، بالحنين الذي أعرف أنّني سوف أشعر به تجاهَهُ في ذلك الحين. سأكون على قيد الحياة، أَرْفَلُ في الهدوء بمنزل صغير في مكان بالضَّواحي، مستمتعاً بوجود تغشاه السَّكينة، ولا أكتبُ الكتاب الذي أكتبُه في هذه الأثناء، تُختلقاً الأعذار المختلفة، كي لا أستمرَّ في كتابته، على شاكلة الأعذار التي أختلقها في هذه اللَّحظة كي أتفادى مواجهة نَفْسي حقاً. أو ربَّا سأعيش في تَكِيَّة، قانعاً بإخفاقي في هذه اللَّحظة كي أتفادى مواجهة نَفْسي حقاً. أو ربَّا سأعيش في تَكِيَّة، قانعاً بإخفاقي المُطلق، أعاشر حثالة البشر الذين آمنوا بانَّهم عباقرة في حين كانوا حقيقة عرَّد شحَاذينَ ذوي أحلام، أختلطُ بالعامَّة المجهولين الذين لا يملكون القوَّة التي تمكنهم من تحقيق الانتصار، ولا القوَّة التي تمكنهم من تحقيل هزائمهم إلى انتصارات. سأفكر، حيثها أكونُ، يغمرني الحنينُ تجاه السَّيِّد فاسْكِش، ربِّ عملي، ومكتب الشركة في خُوّا دُشْ دُوْرَادُوْرِش، وسوف تكون رتابة حياتي اليوميَّة، بالنِّسبة إلى، كأنها ذكرى علاقاتٍ غراميَّة لم أَخُضُها قَطُّ وانتصاراتٍ لم تكُن لي في يوم من الأيَّام.

⁽³²⁴⁾ لاحظتُ أنَّ الطبعات البرتغالية الرَّئيسة قد نشرت هذا النَّصَّ بوصفه شذرتَيْن منفصلتَيْن، إلَّا في طبعة ريتا لُوپس، وفي طبعة پيسازُو، هذه، التي تنقل جول كوستا عنها، فقد جاءتُ نصاً واحداً متواصلاً. ولعلَّ ذلك عائد، من وجهي نظري، إلى أنَّ يسُوَّا قد كتب في مفتح الورقة الثانية، التي تبدأ بعبارة اآه، إنَّني أفهمُ الآن! فالسَّيد فالسُكِش هُوَ الحياة، العبارة الثَّالية: العبارة الثَّالية: العبارة الثَّالية: العبارة الثَّالية: العبارة الثَّالية: التعاليق داتماً الله عنه مجزءاً من اكتاب القلق (تتمَّة) المعضهم جزءاً من اكتاب القلق المتعلق، بصفة مطلقة، وأدرجها شذرة مستقلًة بذاتها؛ في حين ذهب يسازُو إلى أثبًا تتمَّة للشَّذرة التي قبلها. ولاحظتُ، أيضاً، أنَّ هذه الطبعات، لم تختلف في القراءة الفحسب، وإنَّما اختلقَتْ أيضاً في طريقة التَّرتيب؛ فعي حين نرى الشَّذرتَيْن في طبعة رينيث بعضها وراء بعض (القطع 8 و9)، نرى في طبعة برادو كويلو أنَّ الشَّذرة الثَّانية هي المقطع رقم 18؛ وجاءت الأولى، في طبعة سوبراو كونيا، المفطع رقم 18؛ والثانية المفطع رقم 18؛ والثانية المفطع رقم 18؛

الشيد فاشكِسْ، أراة من ذلك المنظور المستقبلي واضحاً وضوح الووية التي أراه بها اليوم فمنا: مربوعاً، وبديناً، أجش الفيوت، يعرف حدود مشاعره جيداً، صربحاً وماكراً، فظاً ورقيق الحاشية، وليس المال وحده هو ما يُعيزه كرب عمل، وإنها يمكن روية ذلك في يديه البطينتين، المُسترتين، المُسترتين، المُسترتين، المُسترتين، المُسترة عنه المردينين المسدودتين فوق لحيته الدَّاكنة المُستَّبة القويَّة التي ليستُ غليظة جداً، ووجنتيه المردينين المسدودتين فوق لحيته الدَّاكنة المُستَّبة بعناية فاتقة، أراه، فأرى الإيهامات المنعمة المعمة بالحيويّة، وأرى عينيه اللَّين تعكسان من الأعهاق أفكارة حول العالم الحا، جي. أن عنم إذا نسيقته وتطير روحي من شدَّة الفرح حين أرى ابتسامته، تلك الإيسامة الإنسامة العربيسة، التي تشعُّ دفئاً ومودَّةً كأنّها تصفيقُ حين أرى ابتسامته، تلك الإيسامة الإنسامة العربيسة، التي تشعُّ دفئاً ومودَّةً كأنّها تصفيقُ حشد كبير.

ولعل الشبب الذي دوم الفي مناهم الفي مناهمة الدونة الشخصية الشيد فاشكِش إلى ان تشوّش بصير إلى الشيد الذي يتمتّع تشوّش بصير إلى و تُنشَسي من في إلى ان المائم إلى الشخص الوحيد الذي يتمتّع باهميّة كبيرة في حمال أمال المائم الدائم من من من أو من أو المائم بالله هذا الرّجل قد كان بالنّسبة إلى - في حمال من من من من دوما أمو عليه اليوم.

أو، إنَّني أفهمُ الآن! من فاشخش أنه احداد الحباد، الزنيبة والضَّروريَّة، المُهيمنة والمُجهولة. فهذا الرحل المسلم بالنَّسبة إليَّ، مثلها هي الحياد، على السطح كلُّ شيء بالنَّسبة إليَّ، مثلها هي الحياد، على السطح، لأن شيء بالنَّسبة إلىَّ،

وإذا كان المنت الوامع في حوا دُشَى دُوْرادُوْرَ شَي بِعِثْلُ الحَياة بِالنّسبة إليّ، فإنَّ الشُقَّة الواقعة في الطابق الرَّامِ ""، حبث أحبش، في دلت الشّارع ذاته، تُمثّلُ الفنَّ بالنّسبة إليّ، نعم، الفنَّ، العيش في الشّارع دانه، على شاخلة الحباة، ولكن في غرفة مختلفة؛ الفنَّ، الذي يُريح من الحبا دون أن يُربح المره من العبش في حدَّ ذاته، الذي هُو رتيبٌ رتابة الحياة نَفْسِها، ولكنَ بطريقة مختلفة. نعم، نعلوي حوادُشُ دُوْرَادُوْرِش، بالنّسبة إليّ، على جميع المعاني التي تنطوي عليها الأشياء حبعاً، وعلى الإجابة التي نكشف الأسرار جميعاً، إلا وجودَ الأسرار في حدَّ ذاتها، الذي لا يُمكن الإجابة عنه البنّة.

este meu) مراني طبعه إلى أنّ هذه العبارة وردت في الأصل عند يشؤًا فالطّبيق الثّاني، (١٩٠٠ عند يشؤًا فالطّبيق الثّاني، (١٩٠٤ عند)، منت إلى أنّ هذه بدوران إنّه من لدن يشؤاه إد تشيرٌ حبع الإحالات التي في كتاب الفلق إلى أنّ المناه من يعيش فيها سوا تن هي في العقيق الزّامع وليست في الطّابق الثّاني (المترجم)

لا شيء يدهشني أكثر من الغباء، الذي يعيش به معظم البشر حيواتِهم، إلَّا الفطنة المتوارثة في ذلك الغباء.

فرتابة ألحيوات اليوميّة، بالنّسبة إلى جميع المظاهر، مرعبة أتناول طعام الغداء في هذا المطعم العاديّ وأنظر إلى الطّاهي خلف المنضدة وإلى النّادل العجوز الواقف بجواره، الذي يقوم على خدمتي بالشّاكلة التي أظنُّ أنّه قام بها على خدمة أشخاص آخرين، هُنَا، غيري، طيلة النَّلاثين سنة الماضية. فيا شكل حياتي هذَيْن الرَّجلَيْن؟ لم يأخذ الطّاهي إلَّا بضع إجازات، طيلة الأربعين سنة التي قضى معظم أيّامها في المطبخ؛ فهو لا ينام إلَّا قليلاً؛ ويعود أحياناً إلى قريته حين يعود بلا تردُّد ولا ندم؛ يدَّخر، شيئاً فشيئاً الأموال التي يكسبها، والتي لا ينوي إنفاقها؛ سيمرض لو اضطر إلى مغادرة مطبخه (إلى الأبد) ذاهباً إلى الأرض التي الشراها في جليقيّة؛ لقد عاش في لشبونة أربعين سنة، حتَّى إنَّه لم يذهب إلى دُوَّار الميدان (200) البتّة، ولا إلى السرح، لكنَّه ذهب مرَّة إلى المُدرَّج الرُّومان (201) (الذي مازال مهرِّجوه يعيشون في التَّلافيف الجوَّانيَة لحياته). ولقد تزوَّج، لا أعرف كيف أو لماذا، وأنجب أربعة أبناء وابنة واحدة، وحين كان ينحني من فوق المنضدة صوب طاولتي، تشعُّ ابتسامتُه سعادة هاتلة وقنوعة وطافحة بالشّكينة. هُو لا يتظاهر، ولا سبب لديه يدفعه إلى ذلك. وإنْ بدا سعيداً، فذاك لاَنَهُ كذلك حقاً.

وماذا عن النّادل العجوز القائم على خدمتي الذي وضع في الحال، ربَّها للمرّة المليون في حياته المهنيّة، فنجان قهوة على طاولتي؟ لا تختلف حياته عن حياة الطّاهي إلّا في الياردات الأربع أو الخمس التي تفصل المطبخ، حيث يعمل الطّاهي، عن غرفة تقديم الطّعام للزّبائن حيث يعمل هُوَ. ولكنّه قانعٌ بحياته قناعة الطّاهي تماماً، بعيداً عن الفروقات الثّانويّة الأخرى، كمثل أنّه قد أنجب ولدّين وليس خمسة، ويقوم بزيارات أكثر إلى جليقيّة، ويعرف لشبونة أكثر كمثل الطّاهي (وكذلك أُو بُورْتُو، حيث عاش أربعة أعوام).

(Coliseu (327): المُدرَّج الرُّوماني أو الكولوسيوم. (المترجم)

⁽Rotunda (326): إشارة إلى ادُوَّار ميد ن الماركيز پومبال Praça do Marquês de Pombal)، وهو دوَّار كبير في وسط لشبونة. (المترجم)

أنظرُ ثانيةً، ينتابني رعب حقيقيًّ، إلى الصَّورة الشَّاملة لتَيْنيك الحياتَيْن، فأكتشف، حين كانت على وشك أن تنتابني مشاعر الرُّعب والحزن والاشمئزاز تجاهها، أنَّ البشر الذين لا يشعرون بتاتاً بأيِّ رعب أو حزن أو اشمئزاز هُم ذاتهم الذين لهم الحقُّ في ذلك، أولئك الذين يعيشون مثل تلك الحيوات. وهذا هو الخطأ المركزيُّ الذي وقعت فيه المحيَّلة الأدبيّة: فكرة أنَّ الآخرين هُم مثلنا ولا بُدَّ لذلك أن يشعروا مثلنا. بَيْدَ أنَّه من حسن حظَّ البشريَّة أن يكون كلُّ إنسانٍ نَفْسَهُ وحسب، فلا يُمنح القُدرةَ على أن يكون الآخر أيضاً إلَّا العبقري. يكون كلُّ إنسانٍ نَفْسَهُ وحسب، فلا يُمنح القُدرةَ على أن يكون الآخر أيضاً إلَّا العبقري. وفي النَّهاية، كلُّ شيء نسبيٌّ. فحادثة صغيرة في الشَّارع، تجعل الطَّاهي يخرج إلى باب المطعم، تجلب إليه متعة أكثر من أيِّ متعة قد أحصل عليها من التَّامُّل في أشدًّ الأفكار أصالةً، أو من قراءة أفضل الكتب أو المتعة التي تجلبها إليَّ أعذب الأحلام العبثيّة. فإنْ كانت الحياة رتيبة بالضَّر ورة، فالحقيقة هي أنَّه قد تملَّص من تلك الرَّتبة أفضلَ منِّى وعلى نحو أسهل. لم رتيبة بالضَّر ورة، فالحقيقة هي أنَّه قد تملَّص من تلك الرَّتبة أفضلَ منَّى وعلى نحو أسهل. لم نعد نملك الحقيقة، لا أنا ولا هُوَ، فالحقيقة ليستُ مُلكَ أحد؛ لكنَّه يمتلك السَّعادة.

يجعل الإنسانُ الحكيم حياتَ مُرتيبةً، حتَّى تبدو أصغر الحوادث حينئذ شيئاً بديعاً. فصائدُ الأسود، بعد أن اصطاد الأسد الثَّالث، فقدَ اهتهامهُ بمغامرة الصَّيد. أمَّا بالنِّسبة إلى الطَّاهي الرَّتيب في المطعم الذي أتردَّدُ إليه، فثمَّة شيءٌ نُبوئيٌ على نحو متواضع في كلِّ شجار يشهده في الشَّوارع. فركوب الترام إلى بَيفِيكَا، بالنسبة إلى شخص لم يغادر برشلونة البتَّة، أشبه ما يكون برحلة إلى اللَّنهاية، وإن صدف وقام بزيارة إلى شنْترا (328)، ذات يوم، فسوف يشعر أنَّه ذهب في رحلة إلى المرِّيخ. ولكنَّ الرَّالة الذي جاب المعمورة لا يستطيع أن يجد شيئاً جديداً، في نطاق خسة آلاف ميل من حوله، لأنَّه يرى داثهاً أشياء جديدة؛ فثمَّة جِدَّةٌ وثمَّة ضَجَرُ الجديدِ الأبديّ، والنَّاني يتسبَّبُ في موت الأوَّل.

ويستطيع الحكيم الحَقُّ التمتُّعَ بمشهديَّة العالَم كلَّها وهُوَ جالسٌ في كرسيَّه؛ لا يحتاج إلى أن يُكلِّم أحداً، أو أن يعرف كيف يقرأ، وإنَّما أن يعرف كيف يستفيد من حواسه الخمس وأن تكون لديه روحٌ بريئةٌ من الحُزن.

لا بُدَّ للمرء أن يجعل الوجودَ رتيباً كي يخلِّصهُ من الرَّتابة. ولا بُدَّ أن يجعلَ اليوميَّ مُسكِّنَ الام إلى حدَّ بعيد حتَّى تغدو أدنى حادثةٍ ممتعة. ففي غمرة عملي اليوميِّ، المُمِّل والمُكرَّر

Sintra (328)، وتعني حرفياً: النَّجمة السَّاطعة؛ بلدةٌ عتيقة في شِمال غرب لشبونة. (المترجم)

والعبثيّ، تغمرني رؤى الهروب من هذا كلّه، وبقايا أحلام عن جُزُر بعيدة، وحفلات تقام في مماشي الحدائق في حقبة أخرى، ومناظر طبيعيّة مختلفة، ومشاعر مختلفة، وأنا مختلفة. لكنّى أدرك، بين الميزائيّات العموميّة، أنني لو ملكتُ ذلك كُلّه، فلن يكون أيّ شيء مِنهٌ لِي. الحقيقة أنّ قَدْرَ السَّيِّد فاسْكِش عندي يفوق قَدْرَ أيّ ملكِ من ملوك أحلامي؛ وأنّ قيمة مكتب الشركة الواقع في مُحوا دُش دَوْرَادُوْرِش يفوق قيمة كلّ تلك المهاشي العريضة في الحدائق المستحيلة. لو لم يكن السيّد فاسكِش ربّ عملي، لما استطعتُ التمتُّع بتلك الأحلام عن ملوك أحلامي؛ ولو لم يكن مكتب الشركة في مُحوا دُش دَوْرَادُوْرِش، لما استطعتُ التمتُّع برؤاي المحوانيّة عن تلك المناظر الطبيعيّة غير الموجودة. فأيّ شيء سيبقى كي أحلم به، لو ملكتُ المحوانيّة عن تلك المناظر الطبيعيّة المستحيل، لو ملكتُ تلك المناظر الطبيعيّة المستحيلة؟ ملوك أحلامي؟ وما الذي سيبقى من المستحيل، لو ملكتُ تلك المناظر الطبيعيّة المستحيلة؟ في أستطيع الاستمتاع بكلٌ جوارحي بتلك الذّبابة التي تُشتَّني وهي تطفو عشوائياً عن أستطيع الاستمتاع بكلٌ جوارحي بتلك الذّبابة التي تُشتَّني وهي تطفو عشوائياً أمام عينيّ، وبعاصفة الضّحك التي تهبُّ مدوِّية من الشَّارع الذي في مكان ما في الأسفل، أمام عينيّ، وبعاصفة الضّحك التي تهبُّ مدوِّية من الشَّارع الذي في مكان ما في الأسفل، وبالإحساس بتلك الحريّة العميمة حين يغلقُ المكتب أبوابه ليلاً، وبأوقات الفراغ التي لا تتهي في أيَّام إجازتي.

ولأنّني لا شيء، فإني قادرٌ على أن أتخيّل نَفْسي أيّ شيء. بَيْدَ أنّني لو كنتُ شخصاً ما، لما قدرتُ على فعل ذلك. يستطيعُ المحاسب المساعد أن يتخيّل نَفْسه إمبراطوراً رومانيّاً؛ ولكنّ ملك إنكلترا لا يستطيع أن يفعل ذلك، فملك إنكلترا فقد القدرة في أحلامه على أن يكون ملكاً آخَر غيرَ الملك الذي هُوَ إياه. حقيقته الواقعيّة تمنعه من الوجود.

345

[1931]

يعتملُ فِيَّ، بين الفينة والأخرى، شي ٌ لا يأتي حين يأتي إلَّا بغتة في غالب الأحيان، فيطغى سأمٌ رهيبٌ على المشاعر الأخرى كلِّها، سأمٌ بأشدٌ ما يكون السَّامُ حتَّى إنَّه يستعصي عليَّ فلا أُشفَى منه. يبدو الانتحارُ غير أكيد إلى حدَّ بعيد، وحتَّى لو افترض المرءُ أنَّ الموت يضمن النِّسيان، فلا يعدو أن يكون ذلك بلا معنى. وما يطمح إليه هذا السَّامُ لا أن تكفَّ

بكلُّ بساطة عن الوجود -الذي قد يكون مستحيلاً أو لا يكونُ - وإنَّما يرغب، على نحو أشدًّ رعباً وأعمق، في ألَّا تكون قد وُجِدْتَ البَّقة، وهذا بالطَّبع ليس محناً.

ولقد عثرتُ على بعض التّلميحات العابرة لشيء عائل لهذا الطّموح (الذي يبزُّ في سلبيّته الحواء نَفْسَهُ) في تخمينات الهنود التي غالباً ما تكون مُشوَّشة. ولكنَّهم إمَّا يفتقرون إلى حدَّة الشُّعور التي تمكّنهم من تفسير ما يفكّرون فيه، وإمَّا يفتقرون إلى مَضاء الفكر الذي يمكّنهم من الشُّعور به ولكنَّ الذي ألمحه فيهم لا أستطيع رؤيته في الحقيقة. والأهمُّ من الشُّعور بها يشعرون به ولكنَّ الذي ألمحه فيهم لا أستطيع رؤيته في الحقيقة والأهمُّ من ذلك كلِّه هُوَ إيهاني بأنَّني أوَّلُ من عبَّر بالكلهات عن العبئيَّة الشِّرية لهذا الشُّعور المُزمِن لكنَّني أتعوَّذُ من شَرِّه بالكتابة عنه أن فلا يُوجَد بلاء مُزمِن حقاً لا ينقاد للاستشفاء المُتهكِّم الماثل في الكتابة عنه ، شريطة أن يكون نابعاً من الفِكر لا مجرَّد عاطفة محضة وقد يكون هذا الشَّيء ، بالنسبة إلى القلَّة ، أحد استخدامات الأدب ، على افتراض أنْ ليس لَهُ أيُّ استخدام اخر.

فمعاناة العقل، لسوء الحظّ، أقلُّ إيلاماً من معاناة العواطف، وإنَّ معاناة العواطف، لسوء الحظِّ مرَّة أخرى، أقلُّ إيلاماً من معاناة الجسد. أقول السوء الحظِّ الْأَنَّ كرامة البشر تتطلَّب بالطَّبع نقيض ذلك. فلا إحساسَ مُعذَباً بسرُ الحياة يؤلم كالحُبِّ أو الغيرة أو الشَّوق، فهو يخنقُ كما يخنقُ الحوف الجسديُّ الشَّديدُ أو يُبدَّلُ الأحوالَ كالغضب أو الطَّموح. بَيدَ أنَّ الآلام التي تُحزِّقُ الرُّوح لا يمكن أن تكون آلاماً حقيقيَّة كمثل ألم الأسنان أو ألم المغص أو المُخص أو المُخص أو المُخص أو المُخص أو المُخص أو المُخصِّ ألم الولادة...

لقد جُبِلنا على أنَّ البصيرة التي تسمو بعواطف أو أحاسيس معيَّنة، وتعلو بها فوق العواطف والأحاسيس الأخرى، هي أيضاً التي تحطُّ من قَدْرها، حين تبدأ في عقد مقارنات بينها.

أُكتبُ كَمَن ينامُ، وليستُ حياتي كلُّها إلَّا كمثل إيصالِ استلام في انتظار التَّوقيع. يصيحُ الدِّيكُ بترانيم الحُريَّة، من داخل قِنِّ الدَّجاج، حتَّى يجين الوقت الذي سوف يذهب فيه إلى الذَّبح، لأنَّهم قد منحوه تَجثمَيْن لَهُ وحَده.

[1931]

أُودُّ أَنْ أَكُونَ فِي الرِّيفَ كِي أَستمتعَ بوجوديَ فِي المَدينة، لا أَكثر. فلطالما أُستمتعُ بوجوديَ في المدينة، ولكنَّ متعتي سوف تتضاعف حين أكونُ في الرِّيف.

347

[1931]

التَّجربةُ المباشرة هي حيلةُ أولئك الذين يفتقرون إلى المخيِّلة، والمكان الذي يختبئون فيه. فحين أقرأُ عن المخاطر التي تكبَّدها صيَّادُ نمورٍ، أُجابِهُ جميع المخاطر التي تستحقُّ المجابهة، إلَّا المخاطرة نَفْسَها، التي لم تكُن جديرةً إلَّا بالقيل حتَّى إنَّها قد سقطتْ من الوجود.

لا يدري أصحابُ الأفعال بأنَّهم عبيدُ المفكّرين. فالأشياء لا تكتسبُ قيمَتها إلّا حين تُفسّر. ويصنعُ بعض النَّاس حينئذ أشياء كي يجعلها الآخرون، حين يُسبغون عليها المعنى، نابضةً بالحياة. فأنْ تحكي هُوَ أنْ تُبدع، أما العيشُ فهو مجرّد أن تعيش.

348

[\$1931]

تبدو حتَّى المدينة التي تُبرِّدُ آلامنا، في هذا اليوم المشرق، كأنَّها الذَّهب الإبريز. ثمَّة رقَّةٌ تحفُّ بكلِّ شيء يحدثُ. فلو قِيلَ لي إنَّ الحرب قد اندلعَتْ، لأنكرتُ ذلك. فلا شيء، في يوم كهذا اليوم، يمكن أن يكدِّر صَفْوَ الرِّقَّة التي تتفشَّى في كلِّ شيء.

349

[91931]

... العالَمُ، كومةُ روثٍ من دوافع غريزيَّة تكادُ تلمعُ، في أعمدة ضوء الشَّمس، ذهباً باهتاً وذهباً داكناً.

ليستِ الأوبئة والعواصف والحروب، بقدر ما أستطيع أن أرى، إلَّا نتائِجَ القوَّة العمياء

ذاتها، التي تصنعُ شرورَها أحياناً عبر جراثيمَ غير واعية، وعبر صواعق برق وفيضانات غير واعية بين تارة وأخرى، وعبر بشر غير واعيين في أحايين أخرى. لا أرى فارقاً بين هزَّة أرضيَّة ومجزرة، إلَّا إنْ كُنَّا نرى فارقاً بين أن يُذبَح المرءُ بالسَّكِين أو الخنجر. ولسوف ينتشر الوحش الكامنُ في الأشياء كلِّها على الأرجح -ولا يبدو أنَّ الوحش يكترث، سواء أكان ذلك يصبُّ في مصلحته أم يسبِّب لَهُ الضَّرر - فلا فرقَ بتاتاً بين سقوط جلمود صخر من مكان مرتفع وبين أن يمتلئ قلبٌ فجأة بالغيرة أو الجشع. الجلمود يسقط فيقتل واحداً من البشر؛ والجشع أو الغيرة تضع سلاحاً في يد شخص ما، والبدُ تقتل واحداً من البشر. هكذا هو العالم، كومةٌ روثٍ من دوافع غريزيَّة تكادُ تلمعُ، في أعمدة ضوء الشَّمس، ذهباً باهتاً أو فيهاً داكناً.

أدرك المتصوِّفةُ أنَّ الزُّهد كان الطريقة الفُضلَى لمواجهة وحشيَّة اللَّامبالاة التي تُكوِّن أُسَّ الأشياء المرئيِّ. إنه إنكارُ العالمَ والابتعاد عنهُ ابتعادَ المرءِ عن شاطئ بحيرة. أن نفعل مثلما فعل بوذا فننكرَ حقيقتَهُ الواقعيَّة المُطلَقة؛ وأن نفعل مثلم فعل المسيح فننكرَ حقيقتَهُ الواقعيَّة النِّسبيَّة أيضاً؛ أن نُنكر [...]

كلُّ ما طلبتُهُ من الحياة كان لأجل ألَّا تسألني الحياةُ شيئاً. لقد جلستُ على عتبة الكوخ الذي لم أملكه قطُّ، في الشَّمس التي لم تشرق قطُّ، مستمتعاً بالكهولة المستقبليَّة لحقيقتي الواقعيَّة المُتعبَة (متمتِّعاً بلذَّة أنَّني لم أصل إلى الكهولة بَعْدُ). يكفي فقراء الحياة المساكين أنَّهم لم يموتوا بَعْدُ، وأنَّهم مازالوا قادرينَ على الأمل [...]

350

[1931]

نحن الموت. وهذا الشَّيُّ الذي نظنَّهُ الحياة هُوَ نومةُ الحياةِ الحَقَّة، ليس إلَّا، ومِيتةُ ما نحنُ عليه حقاً. فالموتى يُولَدون، إنَّهم لا يموتون. لقد تبادل العالمان أماكنهُ إلى فحين نُفكِّرُ في أنَّنا على قَيْد الماتِ؛ فَلْنَعِشْ ونحنُ نموتُ.

العلاقةُ بين النَّوم والحياة هي ذاتها العلاقةُ بين ما نُسمِّيها الحياة وما نُسمِّيه الموت. نحن ننامُ، وهذه الحياة حلمٌ، لا بالمعنى المجازيِّ أو الشِّعريِّ، وإنَّما بالمعنى الحقيقيِّ تماماً.

كلَّ النَّشاطات التي نعدُّها مشاركةً متفوِّقة في الموت، هي الموتُ. أليس المَثُلُ الأعلى إقرارٌ بأنَّ الحياة ليستْ جيَّدة بها يكفي؟ أليس الفنُّ إنكاراً للحياة؟ فالتَّمثال جسدٌ ميِّتُ نُحِتَ كي بُانًا الحياة في مادَّةٍ لا تَفسَد. وحتَّى اللَّذَةُ، التي تبدو أنَّها انغماسٌ في الحياة، هي بالأحرى انغماسٌ في أنفُسِنا، وتدمير للعلاقة التي بَيْنَنا وبين الحياة، ظلُّ متحرِّكُ للموت.

والعيشُ في حدِّ ذاته موتٌ، فكلُّ يوم نعيشُهُ يعني أنَّ الذي تبقَّى لنا من الحياة قد نقصَ يوماً.

نقطنُ في الأحلام، إنَّنا ظلالٌ تطوفُ غاباتٍ مستحيلة، حيث الأشجار هي البيوت والعادات والأفكار والمُثُل العليا والفلسفات.

ولن نجدَ الله البتَّة، ولن نعرف البتَّة إن كان الله موجوداً! نعبر من عالَم إلى عالم، ومن تجشُّد إلى تجشُّد إلى تجشُّد إلى تجشُّد إلى تجشُّد، غارقين دائهاً في حضن الوهم الذي هُو عزاؤنا الوحيد، يداعبُنا دائهاً الإيهانُ الضَّالُ.

ولن نصل إلى الحقيقة البتَّة، ولن نكفَّ البتَّة! ولن نتَّحدَ مع الله البتَّة! ولن نجدَ السَّكينة التَّامَّةَ البتَّة، وإنَّها تغشانا ذرَّةٌ من سكنيةٍ، فنرغب دائهاً في المزيد!

351

[1931]

تأخذُ بخناقي، على حين غِرَّةٍ، طبيعةُ العاديِّ الخانقةُ، فأشعرُ بالغثيان يسري في جسدي جرَّاء أصوات بني جِلدي المزعومين وإياءاتهم. فالغثيان الحَقُّ، الذي أشعر به في معدي ورأسي، هو الدَّهشة الحمقاء لحساسيةٍ متحفَّزة... وكلُّ شخص يتكلَّمُ معي، وكلُّ وجه تلتقي عيناه بعينيَّ، يكون له التَّأثير ذاته عليَّ بوصفه إهانة مباشرة أو لغة بذيئة. أفيضُ رُعباً من كلِّ شيء. أدوخُ حين أشعر بِنَفْسي وهي تشعرُ بهذا كلَّه.

وحين أشعر بالغثيان في معدتي على هذه الشَّاكلة، يكادُ يتجلَّى أمامي دائماً رجلٌ، أو امرأة، أو حتَّى طفل، بوصفه تعبيراً عن الابتذال الذي يصيبُني. ليسوا تعبيراً عن أيَّ عاطفة من

عواطفي الذّاتية المُعتبَرة، وإنَّها عن حقيقة موضوعيَّة تتوافقُ، في شكلها الخارجي، مع ما أشعر به في دخيلة نَفْسي، والنَّاجم عن بعض سِحرٍ تناظُريٌّ كي يزوِّدني بمثالٍ على القاعدة العموميَّة التي يصدف أنّني كنتُ أُفكّر فيها.

352

[1931]

تستيقظ سياءُ الصَّيف الشَّاسعة، كلَّ يوم، زرقاءَ تُخضرَّة ثُمَّ سرعان ما تستحيلُ زرقاءَ مشوبةً، في البَدْءِ، برماديِّ ثُمَّ أبيض صامتٍ (329). لكنَّها كانت، في الغرب، باللَّون الذي اعتاد النَّاس على وصفْ السَّياء به.

فكم عدد أولئك الذين، وهم يقولون الحقيقة ويحقِّقون ما يصبون إليه وينكرون أنَّ كلَّ شيء وهم، يلجؤون إلى مثل تلك الأشياء والأرض تغورُ تحت أقدامهم وتنزلق بعيداً! وكم عدد تلك الأسهاء اللَّائعة الصِّيت التي تُعلَّمُ بأحرف كبيرة، مثل الأماكن الموجودة على الخارطة، التَّصوَّرات ثاقبة النَّظر المقروءة في صفحات رصينة!

كُوزموراما (330) أحداث مستقبليَّة لا يمكن أن تحدث البيَّة! لازَوَرْدُ عواطف متقطَّعة! هل لك أن تتذكَّر كم عدد الذَّكريات التي تحتوي عبى بعض الافتراضات الواقعيَّة، وكم عدد تلك ألتي كانت مُجرَّد تخيُّلات؟ ثُمَّ تصعدُ، في هذيان يتخلَّلهُ بعضُ اليقينيَّات، أصواتُ خرير الماء الخفيفةُ والقصيرة، والنَّاعمة، في كلِّ مُتنزَّه، عاطفة خالصة من أعماق وعيي بِنَفْسي. لا أحد يجلسُ على الدِّككِ العتيقة، والمرَّات الطَّافحة بكابةِ الشَّوارع الخالية.

اللَّيلُ في هليو بوليسَ (اللَّيلُ في هليو بوليس! اللَّيلُ في هليو بوليس! فَمَن سينطقُ هذي الكَلمات العقيمة ليعوِّضني عن الدَّم والحيرة؟

⁽³²⁹⁾ الكلمة التي يستخدمها يسُوًّا في الأصل هي "mudo" (وفي صنعة حول كوستا: muted): أخرس، صامت، أيكم، مكتوم الصَّوت... إلَخ. (المترجم) (Cosmorama: معرض يستخدم العدسات والمرايا لعرض صور مختلفة من العالم لإظهارها بالشُّكل الفعليُّ الذي

تظهر عليه في الحياة. (المترجم) (Heliopolis (331) وتعني عمدينة الشّمس، مدينة في مصر القديمة. (المترجم)

[\$1931]

لا أذكر أُمِّي. ماتت حين كنتُ في السَّنة الأولى من عمري فحسب (332). إنْ كانت حساسيتي متنافرةٌ، وتعتريها غِلطةٌ، فمردُّ ذلك، في أصل تكوينه، عائدٌ إلى غياب الدِّف، وإلى الحنين العبثيِّ إلى القُبُلات التي لا أستطيع حتَّى أن أتذكَّرها. أنا مُزيَّفٌ. كنتُ أستيقظُ دائهاً على صدور نساء أُخريات، حيثُ لا دفءَ حقيقياً، كأنَّهنَّ يمنحنني الدِّفءَ نيابةً عن

آهِ، إِنَّه التَّوقُ الحرَّاقُ إلى الشَّخص الآخر الذي كان من الممكن أن أكونَهُ؛ الشُّخص الذي يُكدِّرُ صَفْوي ويُقلِقني. فَمَن كنتُ سأكونُ الآن لَوْ غمرتني تلك العاطفةُ التي تتدَّفَّقُ بالفطرة من الرَّحم كي تُطبَع قُبلاتٍ على وجه الطَّفل؟

لستُ متأكِّداً إنْ كان إقراري بقحط المشاعر الإنسانيَّة، الذي يضربُ في أعماق قلبي، يجعلني حزيناً أمْ غير ذلك. فأنا أهتمُّ بالصِّفة أكثرَ من الصَّر خة الحَقَّة التي تنبعثُ من روحي. فَمُعلِّمي ڤيرا [...]

ولكنَّني مختلفٌ في بعض الأحيان وأذرفُ دموعاً حَقَّةً، دوماً ساخنةً، دموعَ أولئك الذين لا أُمُّهات لديهم أو لم يمتلكوا أُمُّهات على الإطلاق؛ فعيناي، اللَّتان تحترقان بتلك الدُّموع الميِّتة، تحترقان في أعماق قلبي أيضاً.

ولعلَّ الحنين النَّابِع من أنَّني لم أكُن ابنَ امرأةٍ مُعيَّنة قد أسهم في لامبالاتي العاطفيَّة. فالمرأةُ التي ضمَّتني إلى صدرها حين كنتُ طفلاً لم تستطع أن تضمَّني إلى قلبها حقاً. كانت المرأة الوحيدة التي تستطيع فعل ذلك قد ذهبت بعيداً، مُسجَّاة في القبر - الأُمُّ التي كانت ستكون أُمِّى لو أرادَ القدرُ ذلك.

، قالوا ذلك لاحقاً، حين أخبروني أنَّ أُمِّي كانت امرأة جميلة، ولكنَّني لم أنبس ببنت شفة.

⁽³³²⁾ ماتت أمُّ بِسُوًّا، في الحفيقة، حيى كان عمره 37 عاماً؛ في حين مات أبوه وهو في الخامسة من عمره، ومات شفيفه في العام الذي يليه. ولكنَّهُ يتحدَّث، هُنَا، بلسان نِدَّه سوارش. (المترجم)

كنتُ قد كبرتُ حينتذِ جسداً وروحاً، لكنَّني كنتُ أجهلُ المشاعر، ولم يكُن الكلامُ بَعْدُ، بالنِّسبة إليَّ، مجرَّد معلومات مستقاة من الصَّفحات المستحيلة لكتاب آخر.

أمّ أي، الذي يعيشُ بعيداً عنّا، فقد قتل نَفْسه حين كنتُ في النَّالثة من عمري، فلم أعرفهُ قطُّ. ومازلتُ لا أعرف لماذا عاش بعيداً جداً، ولم أُرد قطُّ معرفة السَّبب. أتذكَّرُ موتَهُ كأنَّ عباءةً كبيرةً من المهَابة والوقار قد خيَّمتْ علينا في أثناء وجباتنا الأولى بعد أن سمعنا الخبر. أتذكَّر، بين الفينة والأخرى، أنَّهم كانوا ينظرون إليَّ، فأنظر إليهم، غير مستوعب الأمر على نحو أخرق، ثمَّ ألتهم طعامي بمزيد من التَّاني، مغبَّة أن يكون الآخرون لايزالون ينظرون إليَّ. فرون الآخرون لايزالون ينظرون إليَّ. وسواءٌ علي أأعجبني ذلك أمْ لم يعجبني، فإنَّني مازلتُ أُحسُّ، في أعهاق حساسيتي المُهلِكة، بهذه الأشياء كلِّها.

354

[\$1931]

كلُّ شيءٍ عبثيٌّ. يقضي بعضُهم حياتَهُ في كسب المال الذي سوف يدَّخره، حتَّى لو لم يُنجِب أولاداً ليترك لهم هذا المال، ولم يكُن لديه أدنى أمل بأنَّ ساءً في مكان ما تُنعِمُ عليه بعطيَّةٍ إلهيَّة. ويبذل بعضهم الآخر جهوده كلَّها كي يذيعَ صيتُهُ حتَّى يُذكَر بعد مونه، ولكنَّه لا يؤمن بنجاة الرُّوح التي سوف تمنحه معرفة ذيوع ذلك الصِّيت. بَيْدَ أنَّ بعضاً يُضنِي نَفْسَهُ باحثاً عن أشياء لا يُحبُها حتَّى. ثُمَّ هُنالك الإنسان الذي...

يقرأ المرء كي يعرف، كلَّ معرفة عبث. ويُمتِّعُ المرء نَفْسَهُ كي يعيش، كلُّ متعة عبث. أركبُ الترام وأنا أستوعب، متمهلاً كما تعوَّدتُ، كلَّ تفصيلةٍ من تفاصيل البشر الذين مِن حولي. وأقصد بكلمة القصيلة»: الأشياء والأصوات والكلمات. أرى في ثوب الفتاة التي أمامي مباشرة، على سبيل المثال، المادَّةَ الخام التي صُنعَ منها الثَّوب، والشُّغلَ المبذول في صُنعه أمامي مباشرة، على سبيل المثال، المادَّة الخام التي صُنعَ منها الثَّوب، والشُّغلَ المبذول في صُنعه النَّه ثوبُ لا مجرَّد مادَّة – فأرى في التَّطريز الدَّقيق حول العنق خيطَ الحرير الذي طُرِّزَ به وجميع الأشغال المبذولة في ذلك. أرى على الفور ماثلة أمامي، كما لو كنتُ أقرأ في كتاب تمهيديً عن الاقتصاد السَّياسيِّ، المصانع والأشغال المختلفة كلها: المصنع حيث صُنعَتْ المادَّة الخام؛ والمصنع الذي صنعَ الخيطَ الدَّاكن الذي يُوشِّي عنقَ الثَّوب بخطوط متعرِّجة مُنَمْنَمَة؛ وأرى والمصنعَ الذي صنعَ الخيطَ الدَّاكن الذي يُوشِّي عنقَ الثَّوب بخطوط متعرِّجة مُنَمْنَمَة؛ وأرى

الورش المختلفة التي في المصنع، والآلات، والغيّال، والحنيّاطات. حتّى إنّ تحديقتي الجوّانيّة تنفذُ إلى المكاتب، حيث أرى المدراءَ يحاولون البقاء هادئين والأرقامَ مُدوَّنة في دفاتر الحسابات، ولكنّ هذا ليس كلّ شيء: أُحدِّقُ، أبعدَ من ذلك كلّه، في الحيوات العائليّة لأولئك الذين يقضون ساعات عملهم في تلك المصانع والمكاتب... عالم بأكمله يتجلّى أمام عينيّ بسبب الحواشي الخضراء الدَّاكنة، المُطرَّزة بأسلوب مُنتظِم على نحو مُتفرِّق، التي تحفُّ ذلك النَّوب الأخضر الباهت الذي ترتديه الفتاة الموجودة أمامي والتي لا أرى سوى عنقها الأسمر.

طريقة حياة بأكملها تتجلَّى أمامي.

فأحسُّ بالغراميَّات والأسرار والأرواح لجميع أولئك الذين كدَّوا كي تستطيع هذه الفتاة، الماثلة أمامي في الترام، أن ترتدي حول عنقها الفانيةِ الابتذالَ المُتعرِّج لخيط الحرير الأَحضر الدَّاكن المُوشَى على خلفيَّةٍ من قهاش أخضر فاتح.

أدوخُ. تحملني مقاعد الترام، المصنوعة من خيزران أملس وقويَّ، إلى أقاليم بعيدة مقسَّمة إلى مصانع، وعُمَّال، ومنازل، وحيوات، وحقائق واقعيَّة، وكلِّ شيء. أترجَّلُ من الترام، وقد هدَّني التَّعبُ، فلقد عشتُ، سائراً في نومي، حياةً بأكملها.

355

[\$1931]

كلُّ شيء ليس روحي هُوَ، بالنِّسبة إليَّ، رضيتُ بذلك أمْ لم أرضَ، مُجرَّد مشهد، بجرَّد ديكور. وحتَّى لو أدركتُ على الصَّعيد الفِكريِّ أنَّ الإنسانَ كائنٌ حيُّ مثل نَفْسي، فإنَّ نَفْسي الفطريَّةَ الحَقَّةَ قد شعرتْ على الدَّوام بأنَّه أقلُّ أهميَّة من شجرة، إنْ كانت الشَّجرة أجمل منه. وهذا السَّبب الذي جعلني دائها أرى الأحداث البشريَّة -مآسي التَّاريخ العظيمة الجهاعيَّة أو ما نصنعه منها- بوصفها أفاريز ملوَّنة، طافحة بأشكال لا رُوح فيها. لم يسبق أن أثرَ فِيَ حدثُ مأساويُّ حدث في الصِّين، فهو مجرَّد منظرٌ خلفيٌّ بعيد، حتَّى لو كان طاعونا أو حدثاً سالتُ فيه الدِّماء.

أذكرُ بحزن مُتهكّم مظاهرةً قام بها عُمَّالٌ، على الرّغم من أنّني لستُ متأكّداً من صدق المتورّطين فيها (أجدُ صعوبةً في الاعتراف بأنّ أيّ شيء تقوم به الجهاعةُ يمكن أن يكون

صادقاً، فالمخلوق الوحيد الذي يتمتّع بعقل واع حَقاً هُوَ الفَرْد). كانتْ مجموعة يائسة من الحمقى المُتحمِّسين مرُّوا بالقُرب من لامبالاتي المُطلَقة تصدحُ حناجرهم بالشَّعارات. شعرتُ بالغثيان فجأة، على الرَّغم من أنَّ ثيابهم لم تكن قذرة البتَّة. فأولئك الذين يعانون حقاً لا يشكِّلون جماعات، ولا يطوفون الشَّوارع كأنَّهم عصابة. أولئك الذين يعانون، يعانون، يعانون وحيدين،

فيا لهم من زُمرة! وكم يفتقرون إلى الإنسانيَّة والألم! فحقيقتهم الواقعيَّة في حدَّ ذاتها هي التي جعلتهم ساخطين. لن يكتب أحدٌ عنهم رواية أو حتَّى مشهداً وصفياً. إنَّهم يتدَّفقون مثل النُّفاية أسفل النَّهر، نهر الحياة. انتابني النُّعاس وأنا أشاهدهم، فشعرتُ بالغثيان والتَّفوُّق.

356

[?1931]

بتُ لا أُطيقُ كلَّ شيء إلَّا الحياة -المكتب، ومنزلي، والشَّوارع- وحتَّى ما هُوَ نقيض هذه الأشياء، إنْ كان ثمَّة نقيض - فكلُّ شيء يستحوذُ عليَّ ويقهرني. وحدَها كُليَّةُ الأشياء تُربِحني. نعم، فأيُّ جزء منها يكفي كي يُواسيني. شعاعٌ من أشَّعة الشَّمس يسقطُ بلا نهاية في المكتب الميِّت؛ صرخةٌ في الشَّارع تعلو حتَّى نافذة غرفتي؛ وجود البشر، ووجود المناخات والتَّغيُّرات في أحوال الطَّقس، وموضوعيَّةُ العالمَ المُرعبة...

فجأةً، دخل شعاعُ الشَّمس فِيَّ، أقصدُ أنَّني قد رأيتُهُ فجأةً... كان شريطاً ساطعاً من ضوءٍ يكادُ يكون بلا لونٍ يقطعُ كنصلٍ عارٍ عبر الأرضيَّة الخشبيَّة المعتمة، فَيُحيي كلَّ شيء من حوله، المساميرَ القديمة والأخاديد التي بين ألواح الأرضيَّة، والصَّفائح غير البيضاء المُقلَّمة بحزوز سوداء.

ثُم رأيت، لدقائق مديدات، تأثيرَ الشَّمس التَّدِريجيَّ وهي تنفذُ إلى المكتب الهادئ... كأنَّني أُروِّح عن نَفْسي في السِّجن! وحدَّهُ المسجون قد ينتبهُ، بالدَّهشة التي تعتري شخصاً يرقبُ النَّمل، إلى شعاع شمسِ يتحرَّكُ على هذا النَّحو. أُجابِهُ، هادئاً، بها لا يزيد عن ابتسامة روحي السَّاخرة، احتماليَّة ألَّا تغدو حياتي أكثرُ من مجرَّد أن أظلَّ حبيسَ خُوا دُش دُوْرَادُوْرِش إلى الأبد، في هذا المكتب، محاطاً بهؤلاء البشر. فلديَّ مكان أعيش فيه، ووقت البشر. فلديَّ مكان أعيش فيه، ووقت فراغ يكفي كي أحلمَ فيه، وأكتب -وأنام - فأيُّ شيء أكثرَ أطلبُه من الآلهة أو أرجوه من المقدَر؟

كانت لديَّ طموحاتٌ عظيمة وأحلام فائضةٌ، وكذلك السَّاعي والخيَّاطة أيضاً، فالجميع لديه أحلامٌ، والفارق الوحيد يكمن في أن نمتلك القوَّة لتحقيق تلك الأحلام أو أن يُحقِّقها القدَرُ من خلالنا.

لكنَّني، فيها يخصُّ الأحلام، لا أختلف عن السَّاعي والحُيَّاطة. الشَّيء الوحيد الذي يفرقني عنهما هُوَ أَنَّني أستطيع الكتابة. نعم، الكتابة نشاط، حقيقةٌ واقعيَّة عن نَفْسي التي تفرقني عنهما. بَيْدَ أَنَّني مازلتُ الشَّخص ذاته في قرارة روحي.

أعرفُ بأنَّ جُزُراً تُوجَد في الجنوب وشغفاً كونياً عظيماً وعارماً و[...]

أعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّني لو خُزتُ العالَم في يدي، فسوف أستعيض عنه بتذكرة ترام عائد إلى خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش.

ربَّها قدري أن أظلَّ محاسباً مساعداً إلى الأبدوأن يظلَّ الشِّعرُ والأدبُ فراشتَين تحطَّان على ربَّها قدري أن أظلَّ محاسباً مساعداً إلى الأبدوأن يظلَّ الشِّعرُ والأدبُ فراشتَين تحطَّان على رأسي، ليس إلَّا، فتُبرزان تفاهتي بجالهما الذاتي فحسبُ.

ولسوف أفتقدُ مُورِيرًا، ولكنْ ما أهميَّةُ أن أفتقدَ شخصاً بعينه مقارنةً بفرصة حصولي على ترقيةٍ حَقَّةٍ في الوظيفة؟

أعرفُ أنَّ اليوم، الذي سوف أغدو فيه كبير محاسبي شركة « قاسْكِش وشركاؤه"،

سيكون أحد أعظم الآيَّام في حياتي. أعرف ذلك بمرارةٍ وتهكُّم يرجُمان بالغَيب، لكنَّني أعرف ذلك بالحقيقة الفِكريَّة المُطلَقة التي يستطيعُ أن يجلبها اليقينُّ.

358

[1931]

تلاحقُ يراعةٌ نَفْسَها في برازخ تومضُ. والرَّيفُ في كلِّ مكان، عند العتمة، غيابٌ عظيم للصَّوت الذي تكادُّ تفوحُ منه رائحةٌ طيِّبة. توجعني السَّكينةُ التي تغشى هذا كلَّه وتشتدُّ وطأتُها عليَّ. سأمٌ عديمُ الشَّكل يخنقني.

لا أذهب إلى الرَّيف كثيراً، ونادراً ما أقضي النَّهار كلَّه هُنَاك أو أبيتُ فيه. لكنَّني جئتُ اليومَ تساور في الشُّكوك، كرجل خجول في طريقه إلى حفلة كبيرة، لأنَّ الصَّديق الذي سوف أنزل في بيته لن يسمعني وأنا أرفض دعوته. غير أنَّ السعادة غمرتني حين وصلتُ؛ استمتعتُ بالهواء العليل والفضاءات المفتوحة؛ تغدَّيتُ وتعشَّيت جيَّداً، بَيْدَ أنَّ ريبةَ المكان تملؤني بالقلَق وأنا جالس الآن، في جوف اللَّيل البهيم، في حجرتي التي لا قنديلَ فيها.

تطلُّ نافذة الحجرة حيث سأنام على الرِّيف الممتدِّ بلا حَدِّ، على رحابةٍ لا نهائيَّة، التي هي رحابة الحقول، وعلى اللَّيل العظيم المُرصَّع بالنَّجوم على نحو غامض، حيث أستطيع أن أشعر بنسيم صامت يتحرَّك. أتأمَّلُ بأحاسيسي، واقفاً عند النَّافذة، الهباء الكونيَّ الذي هُناك. يستقرُّ الوقتُ في تناغُم قلِق يطغى على كلِّ شيء؛ بدءاً من الخَفاء المرئيِّ لكلِّ شيء حتَّى الحشب (على حافَّة النَّافذة المُبيَّضة حيث أُريحُ يدي اليسرى) الذي هُوَ خشنٌ بعض الشَّيء كي يُلمَس حيث تقشَّر الطِّلاء القديم.

ولكنْ كم مرَّة تاقتْ عيناي إلى هذه السَّكينة التي أهربُ منها في هذه اللَّحظة، إن استطعتُ القيام بذلك بسهولة ودماثة! وكم مرَّة، هُناك بين الشَّوارع الضَّيقة للبنايات العالية، فكَّرتُ القيام بذلك بسهولة ودماثة! وكم مرَّة، هُناك بين الشَّوارع الضَّيقة للبنايات العالية، فكَّرتُ في إيهاني بإمكانية العثور هُنَا على السَّكينة والنَّثر واليقين، بين الأشياء الطبيعيَّة، لا حيث في إيهاني بإمكانية الغثور هُنَا على المرعينسي خشبَ الصَّنوبر المطليَّ بالورنيش الذي يستريح مفرشُ مائدة الحضارة الذي يجعل المرعينسي خشبَ الصَّنوبر المطليَّ بالورنيش الذي يستريح فوقة أو الآن، هُنَا، وأنا أشعرُ بالعافية والتَّعب المُعافَى من كلِّ سُوء، ينتابُني القلَقُ، أشعر بأنَّي عالقً في هذا المكان، وينتابني الحنين إلى الدِّيار.

لا أعرفُ إِنْ كان هذا الشَّيء بحدث لي أنا وحدي أمْ لكلِّ أولئك الذين كانت الحضرة تعني لهم أن يُولَدوا من جديد. ولكن يبدو لي، وللَّذين يشعرون مثلها أشعر، أنَّ المُصطَنع قد بات يبدو طبيعياً وأنَّ الطبيعيَّ بات غريباً. كلَّا، ليس الأمر على هذه الشَّاكلة تماماً: لم يَبُدُ المُصطَنع طبيعياً بَعْدُ، ولكنَّ الطبيعيَّ بات مختلفاً، ليس إلَّا. إنني أمقتُ السيَّارات ومنتجن المُصطَنع طبيعياً بَعْدُ، ولكنَّ الطبيعيَّ بات مختلفاً، ليس إلَّا. إنني أمقتُ السيَّارات ومنتجن العلوم الأخرى -الهواتف والبرقيَّات - وأستطيع أن أعيش بسعادة من دونها؛ تلك المنتجان التي تجعل الحياة سهلةً، أو المنتجات الثَّانويَّة التي صنعها الخيال الجامحُ -الغراموفونات والمذياعات - التي تجعل الحيال الجامحُ -الغراموفونات والمذياعات - التي تجعل الحياة مرحةً، بالنِّسبة إلى من يحبُّون هذه المنتجات.

لستُ مهتاً بأيِّ شيء من تلك الأشياء؛ ولا أريدُ أيَّ شيء. بيد أني أحبُ نهر تيجو لأنَّ للدينة العظيمة مُشيَّدة على ضفَّتيه. وأستمتعُ بالسَّماء لأنَّني أراها من نافذة الطَّابق الرَّابع بشارع في بَايْشًا. فلا شيء في الرِّيف أو في الطَّبيعة يستطيع أن يمنحني أيَّ شيء يعدل البهاءَ المُتشظِّي للمدينة الهادئة، المضاءة بنور القمر، حين تُرَى من غراسا أو سَوِّ بِيدْرُوْ ذَا الْكُنْتَرَة (دَدَة). فلا زهورَ، بالنِّسبة إليَّ، يمكن أن تضاهي ألوان لشبونة التي لا تكفُّ عن التَّنُوع في أشعّة الشَّمس.

وحدَهمُ الذين يرتدون الثيّاب يَرَوْنَ الجسدَ العاري جميلًا، فالقيمةُ الطَّاغية التي تتمتَّعُ بها العِفَّةُ هي، بالنّسبة إلى الغريزة الشَّهوانيَّة، كامنةٌ في أنَّها تعمل بوصفها كابحة للطَّاقة. والنَّزعة إلى المُصطَنع طريقٌ للتَّمتُّع بكلِّ ما هُوَ طبيعيٌّ، فأنا لم أتمتَّع بهذه الحقول الشَّاسعة، مثلها تمتَّعتُ، إلَّا لأنّني لا أعيشُ هُنَا. لا يمكن للشَّخص الذي لم يعرف القيود البتَّة أن يكون لديه مفهوم عن الحريَّة.

الحضارة تربيةً في الطّبيعة. يوفّر المُصطّنع مُدخلاً إلى الطّبيعيّ.

بَيْدَ أَنَّ من الضروري ألَّا نغلط بين المُصطَنع والطَّبيعيِّ، فلا نعودُ نعرف الواحد من الآخَر.

إِنَّ جوهرَ الرُّوحِ الإنسانيَّةِ المُتفوِّقةِ يكمن في التَّناغم بين الطَّبيعيِّ والمُصطَّنع.

⁽³³³⁾ Graça (وتعني حرفياً: نعمة/ عطيَّة، إلخ) و Sao Pedro de Alcântara: مرصدان في لشبونه. واضح أنَّ لفظة

لا شيء يُشير حنقي أكثر من مفردات الفحوى الأخلاقي والمسؤوليّة الاجتهاعيّة. أجد، بادئ ذي بَدْء، أنَّ كلمة الواجب، مُستهجّنة مثل دخيل يقتحم بيتي. أمَّا عبارات الواجب المدني، و «التَّكَافُل» و "حُبُّ الخير للنَّاس» وما شاكلها من العبارات الأخرى، فتثير اشمئزازي مثل كومة نفايات ألقاها فوق رأسي شخص من النَّافذة. أشعرُ بالإهانة من الافتراض الضِّمنيِّ بأنَّ هذه التَّعابير تسري عليَّ، وألَّا أجدها دون قيمةٍ فحسب، وإنَّها ذات مغزى.

رأيت، ليس منذ أمد بعيد، شيئاً في قترينة متجر ألعاب ذكّرني بتلك التّعابير على وجه الضّبط: أطباقُ مزيّفة مملوءة بطعام مزيّف من أجل بيت الدُّمى. فها الذي يرتجيه شخص حقيقي، شهوانيٌّ، وأنانيُّ، وأجوف، يكسبُ الأصدقاءَ لأنَّه معسول اللِّسان ويمتلك موهبة الشَّرثرة، ويصنعُ الأعداءَ لأنَّه يمتلك موهبة الحياة، ما الذي ينبغي أن يكسبه من اللَّعب مع دهى تلك الكلمات العقيمة الفارغة؟

تقوم الحكومة على شيئين: القمع والخداع. ولكنَّ المشكلة المتعلَّقة بهذَيْن المصطلحين البرَّاقَيْن كامنة في أنَّهما ليسا قمعاً ولا خداعاً. فهما يُسببان النشوة على الأكثر، وهذه مسألة مختلفة تماماً.

إنْ كان ثمَّة شيءٌ واحد أمقُتُه، فهو المُصلح. المُصلحُ شخص يرى عِلَلَ العالَم السَّطحيَّة فيقترح علاجَها بجعل العِلَل المزمنة تستفحلُ أكثر. يحاول الطَّبيب تكييف جسد عليلٍ مع آخرَ صحيح، بَيْدَ أَنَّنا في المجتمع لا نعلمُ ما الصَّحيح وما العليل.

أرى البشريَّةَ واحدةً من مدارس الرَّسم الرَّائجة، تلك التي تُفضَّلُ الفنَّ الزُّخرفيَّ المرسومَ في الهواء الطَّلق (334). لا أستطيع، في الأساس، التَّفريق بين الإنسان والشَّجرة، لكنَّني أُفضًل في الحقيقة، أيَّ الاثنَيْن كان مُزَّيناً على نحو أكثر، وأيَّهما أثار انتباهَ عينيَّ المُفكِّرتَيْن على نحو

Não posso considerar a) تبتعد جول كوست، هُنَا، عن الحرفيَّة في النَّفْر؛ فاجُملة كي هي في الأصل عند بِشُوّ، (Ahumanidade senão como uma das ultimas escolas na pintura decorativa da Natureza المُستخدم للمُستخدم الطّبيعة في الرَّسم الزُّخرفيُّ. فآثرتُ جُول كوستا ترجة كلمة الطّبيعة الرّى البشريَّة تُجرَّد واحدة من أحدَث مدارس الطّبيعة في الرَّسم الزُّخرفيُّ. فآثرتُ جُول كوستا ترجة كلمة الطّبيعة الرّى البشريَّة تُجرَّد واحدة من أحدَث مدارس الطّبيعة في الرّسم الذي يستخدم للإشارة إلى هذه المدرسة الفيّة التي تشجّع على الرسم في الهواء الطّلق، في أحضان الطّبيعة. (المترجم)

أكثر. إذا وجدتُ الشَّجرة تثير الانتباه على نحو أكثر، فإنَّني سوف أحزنُ لو قُطعَتْ تلك الشَّجرة أكثر من عُزني على الإنسان الذي يحتضر. يُحزنني مغيبُ شمس يتلاشى أكثر من حزني على موت طفل. وكي أستطيع الشُّعور على ذلك النَّحو، فإنَّني دائماً أحتفظُ بمشاعري لِنَفْسي.

أكاد أشعر بالذَّنب لكتابة شِبْه-التَّامُّلات هذه، في هذه السَّاعة المتأخِّرة من الظَّهيرة، حين راح ينهض، متلوِّناً، نسيمٌ خفيفُ. كلّا، ليس هُوَ الذي يتلوَّنُ، وإنَّما الهواء الذي ينسابُ فوقَهُ مُتردِّداً؛ ولمَّا كان يُخيَّلُ إليَّ بأنَّ النَّسيم هُوَ الذي يتلوَّنُ، وهذا ما أقوله، فلا بُدَّ أن أقول -نظراً إلى النَّسيم هُوَ الذي يتلوَّنُ، وهذا ما أقوله، فلا بُدَّ أن أقول -نظراً إلى النَّسيم.

360

[1931]

(كُتِبَتْ على فترات متباعدة وتحتاجُ إلى كثير من النَّنقيح)(٥٥٥

ومَا إِنْ خَبَتِ النَّجَاتُ الأخيرةُ فصارَتْ عَدَماً في ساء الصَّباح، والنَّسيمُ الذي هبَّ في الضَّوء الخفيف الأصفر-البرتقاليِّ المُسَّاقطِ على بعض غيات واطئةٍ قد باتَ أبردَ، حتَّى الضَّوء الخفيف الأصفر-البرتقاليِّ المُسَّاقطِ على بعض غيات واطئةٍ قد باتَ أبردَ، حتَّى استطعتُ، أخيراً، على الرَّغم من أنَّني لم أنم بَعْدُ، أنْ أرفعَ على مهلي جسدي (الذي هدَّهُ التَّعبُ بعد أنْ لم يفعل شيئاً) من السَّرير الذي تخيَّلتُ فيه الكون.

ذهبت إلى النّافذة، وجفناي يحرقانني لأنّها لم يغمضا طيلة اللّيل. كان الضّوء، بين الأسطح المكتظّة، يُجرِّبُ نَفْسَهُ بظلالٍ مختلفة من الأصفر الشَّاحب. وقفتُ هُنَاك ناظراً إلى كلُّ شيء ببلاهة كبيرة نظراً لقلّة النّوم، وكان الأصفر، فوق الكتل المنتصبة للبيوت الشَّاهقة، يلعب فيه الهواءُ ولا يكادُ يُحَسُّ، وكان الأفق، بعيداً جهة الغرب حيث استدرتُ، قد أضحى أبيض مُخضَراً،

⁽³³⁵⁾ على الرَّغم من أنَّ يشوًا قد رقن هذه لشَّذرة كنَّها، بالحبر الأسود، على الآلة لكاتبة، فإنَّه وضع هذه العبارة، بين قوسين، في رأس الصَّعحة من الحهة اليُمنَى، ونحتها مباشرة في الجهة اليُسرَى عبارة «L. do D.» في إشارة منه إلى أنَّها جزء من كتاب القلق، فهل كتبها على فترات ثُمَّ ضربها على الآلة الكاتبة -كما هي حين كُتِبَتُ أوَّل مرَّة، دون تنقيح- ذلك أن ثمَّة إشارة في نهاية النَّصُ إلى أنَّه كتبها بقلم رصاص ؟ (المة حد)

أعرفُ أنَّ اليوم سوف يكون مملاً بالنِّسبة إلىَّ، كمثل الملل الذي ينتاب المرء حين يعجز عن فهم شيء ما. وأعرف أنَّ كلَّ شيء سوف أفعله اليوم لن يصيبَه الإرهاقُ النَّاجم عن قلَّة النَّوم، وإنَّما أرقُ اللَّيلة، وأعرفُ أنَّ حالي المعتادة في السَّير أثناء النَّوم سوف تتجلَّى حتَّى تبدو واضحة للعيان، لا لأنَّني لم أنم فحسب، وإنها لأنَّني لم أستطع النَّوم.

كأنَّ بعض الآيًام فلسفات كاملة، في حدِّ ذاتها، تقترحُ لنا تفسيرات للحياة، حواشٍ هامشيَّة طافحة بالنَّقد اللَّاذع في كتاب قَدَرنا الكونيِّ. أشعرُ بأنَّ هذا اليوم واحدٌ من تلك الأيَّام. تصعقني الفكرة الحمقاء بأنَّ عينَيَّ الثَّقيلتَيْن ورأسي الفارغ ليست إلَّا قلم الرَّصاص الذي يُشكِّلُ حروفَ ذلك البَوْح العقيم الذي لا يُسبَر غورُه.

361

[91931]

كلَّما عظُمتِ الحساسيةُ وعَظُمَتِ القُدرةُ على الشَّعور، زادَ ارتعاشُ المرء وارتجافُهُ العبثيُّ من الأشياء الصَّغيرة. يحتاجُ المرءُ إلى بصيرة مُذهلة كي يشعر بالأسى حين تكفهرُّ سهاءُ النهار فتُلَبِّدُها الغيومُ. ولكنَّ البشريَّة التي تفتقر إلى الحساسية المفرطة لا يزعجها الطَّقسُ، فالطَّقس دائماً هُوَ الطَّقسُ؛ لا تشعرُ البشريَّةُ إلَّا بالمطرحين ينهمر فوق الرُّؤوس.

إِنَّه يومٌ هاديٌّ، وباهت، وحارٌّ رطب. أراجعُ حياتي، وحيداً في المكتب، فلا أرى إلَّا ما يُشبه هذا اليوم الذي يستبدُّ بِيَّ ويوجعني. أذكرُ نَفْسي طفلاً يسرُّه أيُّ شيء، ويافعاً يملؤه الطُّموح، ورجلاً بلا مسرَّةٍ وبلا طموح. ولقد حدث هذا كلُّه، بهدوءٍ، على نحو باهت، كاليوم الذي يجعلني أراهُ أو أتذكره.

فَمَن مِنَّا يستطيعُ القولَ، وقد استدار لينظرَ خلفَهُ إلى الطَّريق التي لا عودةَ منها، إنَّنا قد مشينا تلك الطّريق كما يتوجَّبُ؟

362

[\$1931]

لطالما شعرتُ باشمئزاز من الأشياء الباطنيَّة، يسري في جسدي كلَّه - الدَّسائس، الدُّبلوماسيَّة، الجمعيَّات السِّرِيَّة، والتَّنجيم. أجدُ الشَّيئَيْن الأخيرَيْن مثيرَيْن للقلَق على وجه

الخصوص، على الشَّاكلة التي يؤمن بها بعض البشر، بغطرسة، أنَّهم حين يصلون إلى تفاهم مع الآلهة أو الأسياد أو القوى الخلَّاقة سوف يكتشفون - محتفظين، بالطَّبع، باكتشافاتهم لأنفسهم، مستبعدين بقيَّتنا جميعاً - الأسرار العظيمة التي هي أُشُّ العالم ومنبع وجوده. لا أستطيع تصديق أن يكون ذلك صحيحاً، لكنَّني أظنُّ أنَّ شخصاً سوف يستطيع ذلك. فهل جميع أولئك البشر مجانين وواهمون؟ كثرتُهم لا تثبت شيئاً؛ فثمَّة أشياء على شاكلة ذلك. فهل جميع أولئك البشر مجانين وواهمون؟ كثرتُهم لا تثبت شيئاً؛ فثمَّة أشياء على شاكلة

هلوسات جماعيَّة.

ما يصعقني بشأن أولئك الذين يُعلِّمون الاطلاع على الغيب، الضَّالعين في أسراره، حبن يكتبون عن أسرارهم واصفين إيَّاها، أنَّهم يكتبون على نحو في غاية الرَّداءة حقاً. أشعر يالإهانة حين يقوى شخصٌ على قهر الشَّيطان، ولا يستطيع التَّضلُع في اللِّغة البرتغاليَّة. الذا يتوجَّب أن تكون مواجهة الشَّيطان أسهل من مواجهة قواعد اللُّغة؟ ولماذا، بعد كلَّ تلك التَّارين الطَّويلة في التَّركيز وقوَّة الإرادة، يستطيع شخصٌ، أو هكذا يقول، مكابدة الرُّؤى النَّجميَّة، ولكنَّه لا يستطيع، باذلاً أقلَّ القليل على صعيد التَّركيز وقوَّة الإرادة، أن يمتلك رؤية واضحة عن التَّخو؟ ما الذي تنطوي عليه عقيدة الفنون السِّحريَّة وطقوسها ويمنع المرء من الكتابة، ليس بالضَّرورة على نحو واضح، فقد يكون الغموض جزءاً من النَّاموس الباطنيِّ، وإنَّها بأناقة وفصاحة على الأقلَّ، وهما أمران ممكنان تماماً حتَّى حين تكون الكتابة حول مواضيع غامضة؟ لماذا يُبدِّد المرءُ طاقة الرُّوح كلَّها في دراسة لغة الآلهة، فلا تتبقًى لديه خرَّة طاقة ينفقها على دراسة صِبْغَة لغة البشر وإيقاعها؟

لا أثقُ بالمُعلَّمين الذين لا يستطيعون تعليم أبسط الأشياء. فَهُم، بالنَّسبة إلىَّ، مثل أولئك الشَّعراء الغرباء (336) العاجزين عن الكتابة كأيَّ شخص آخر. لا أستطيع قبول أنَّهم غرباء لكنَّني أرغب في أن يُثبتوالي أنَّهم غرباء لأنَّهم شذُّوا عن القاعدة لا لأنَّهم يفتقرون إلى القُدرة على أن يكونوا بخلاف بدلك.

يقول النَّاسُ إنَّ علماء رياضيَّات غظماء يرتكبون أخطاء في عمليَّة جَمْع بسيطة، ولكنَّ المسألة لا تتعلَّقُ بارتكاب الأخطاء، بل بالجهل المُطلَق. أستطيع قبول أن يجمع عالمُ رياضبَّات

⁽³³⁶⁾ تنطوي كلمة غرب (estranhos) هُنَا، عند بِسُوًّا، على المعاني العميقة كافَّة الله قد تنطب علما: غرب الأطواد . المدائد ما الخرب الأطواد

عظيمٌ اثنَيْن واثنَيْن فيكون النَّاتج خمسة؛ هذا قد يحدث لأيِّ شخص حين يشرد ذهنُه. ما لا أستطيع قبوله هُوَ أن يكون جاهلًا بهاهيَّة الجَمْع أو كيفيَّة القيام بذلك. وهذه هي الحال مع الغالبيَّة العظمى من مُعلِّمي العلوم الباطنيَّة.

363

[1931]

تجعلني فكرةً السَّفر أشعرُ بالغثيان يسري في جسدي كلِّه.

فلقد رأيتُ كلَّ شيء لم أرَهُ مِن قَبْلُ. ولقد رأيتُ كلَّ شيء لم أرَهُ بَعْدُ.

سأمُ الجديدِ المُتجدِّدِ، سأمُ الاكتشاف، تحتَ الاختلاف العابر للأشياء والأفكار، تطابُق الأشياء الدَّائمُ، التَّكافؤ المُطلَق بين المسجد والمعبد والكنيسة، التَّكافؤ المُطلَق بين الكوخ والقلعة، الجسدُ الماديُّ ذاتهُ في مَلِكِ بكامل أناقته وزينته وفي بربريِّ عارٍ، تجانُس الحياةِ الأبديُّ مع نَفْسِها، رُكود كلِّ شيء يحيا رغم التَّغيُّرات الدَّائمة المحكوم عليه بها إلى الأبد. المناظر الطَّبيعيَّة تكراراتُ. أقسِّمُ نَفْسي بلا طائل وعلى نحو عصبيِّ، في رحلة عاديَّة

المناظر الطبيعية للمرارات. المسم تعلى بر عامل وعلى عنو علمبي، في راحا عاد بالقطار، بين عدم النَّظر إلى المنظر الطَّبيعيِّ وعدم النَّظر إلى الكتاب الذي سوف لا يكفُّ عن التَّرويح عني لو كنتُ شخصاً آخر. لقد منحتني الحياةُ مِن قَبْلُ إحساساً غامضاً بالغثيان، والحركةُ تُفاقِمُ ذلك الإحساس، لا أكثر،

والمناظر الطَّبيعيَّةُ والكُتبُ الوحيدة التي ليستْ تُملَّة هي تلك المناظر التي لم تُخلَقْ بَعْدُ والكتبُ التي لن تُقرأ أبداً. فالحياةُ، بالنِّسبة إليَّ، مجرَّد غفوةٍ لا تؤثِّر في الدِّماغ؛ إنني أحافظ عليه مُتحرِّراً من كلِّ شيء بوصفه الموضع الذي أشعر فيه بالحُزن.

سأترك السّفر لتلك المناظر الطّبيعيَّة التي لم تُخلَق بَعْدُ! فمن المُفتَرض، بالنّسبة إلى شخص مُو لا شيء، أن تكون الحياة، مثل نهر، مُجرَّد مسألة بسيطة من التَّدفُّق إلى الأمام أبداً. أمَّا بالنِّسبة إلى أولئك الذي يشعرون، أولئك الذين هُم مستيقظون، فإنَّ تجربة الجلوس المروَّعة في قطار أو في عربة أو في سفينة تجعلهم لا ينامون ولا يستيقظون.

أعودُ من رحلتي، مهم كانت قصيرة، كأنّني عائد من نوم طافح بالأحلام - في حالة من الذُّهول الخَدِر، وقد التصقَتْ أحاسيسي، بعضُها ببعض، ثَمِلاً ثمّا رأيتُ.

لا أستطيع الرَّاحةَ فروحي عليلةٌ. ولا أستطيع الحركةَ فتمَّة شيء مفقود بين الجسد والرُّوح؛ ليسَت الحركة هي التي أفتقدُ إليها، وإنها الرَّغبة في الحركة.

لطالمًا أردتُ عبور النَّهر، تلك الدَّقائق العشر التي تستغرق العبور من المُخَايْرُو دُو يَاسُّو (557) إلى «كاسيلياس (358)». ولطالما كدتُ أشعر دائهاً بالقهر من كلِّ أولئك النَّاس ومن نَفْسي ومن قراري بالذَّهاب. قمتُ بالرَّحلة مرَّتَيْن، فشعرتُ بالرُّعب يدبُّ في أوصالي طيلة طريق الذَّهاب والعودة، بَيْدَ أنَّ الإثارة تملَّكتني حين وطِئتْ قدماي اليابسة مرَّة أخرى حين عدتُ.

حين تتملَّكُ المرءَ الإثارة الشَّديدةُ، يغدو نهر تيجو محيطاً أطلنطياً لا حدَّ لَهُ، وتغدو «كاسيلياس» قارَّة أُخرى أو حتَّى كوناً آخَر.

364

[91931]

أترغبُ في السَّفر؟ تحتاجُ كي تسافر إلى أن تكون على قَيْدِ الوجود فحسب. أسافرُ في قطار جسدي أو في قطار قدري، من يوم إلى يوم، كأنَّني أسافر من محطَّة إلى أُخرى، مائلاً إلى الحارج كي أنظر إلى الشَّوارع والميادين، والإيهاءات والوجوه، التي تتشابه دائها، وتختلفُ دائها، على الشَّاكلة التي تبدو فيها المناظر الطَّبيعيَّة، في حقيقة الأمر.

إِنْ تَأَمَّلَتُ شَيئًا، رَأَيتُهُ. فأيُّ شيء أكثرَ سأفعله لو سافرتُ؟ وحدَهُ وَهَنُ المُخيِّلةِ الشَّديدُ قادرٌ على تبرير حاجةِ المرء إلى السَّفر من أجل أن يشعر.

«إِنَّ أَيَّ طريق، حتَّى هذه الطَّريق البسيطة إلى إنْتِيْفُول، سوف تقودك إلى نهاية العالمَ الانْقُول، ولكنَّ نهاية العالمَ التي ولكنَّ نهاية العالمَ، حين تكون قد أرهقت العالمَ بالدَّوران حولَهُ، هي إنْتِنْفُول ذاتُها التي الطلقتَ منها. وليستُ نهايةُ العالمَ وبدايتُهُ، في الحقيقة، إلَّا مجرَّد مفهو منا عن العالمَ. فلا تغدو

⁽³³⁷⁾ أنظر الحاشية 110 لمزيد من التفاصيل. (المترجم)

⁽³³⁸⁾ Cacılhas: قرية صبَّادي أسهاك سابقة في ألماذا بلشبونة. (المترجم)

⁽³³⁹⁾ أيظر الحاشية 301 للمزيد بشأن هذه الجملة المقتبسة من أقوال كارلامل. (المترجم)

المناظرُ الطَّبيعيَّةُ مناظرَ طبيعيَّةً إلَّا في أنْفُسِنا. ولذلك، فإنَّني حين أتخيَّلُها أخلقُهَا؛ وإذا خلقتُها، فإنَّها تُوجَد؛ وإذا وُجِدَت، فإنَّني أراها كما أفعل مع المناظر الطَّبيعيَّة الأخرى. لمَ السَّفرُ، إذن؟ أينَ سأكون، سواء في مدريد، أو في برلين، أو في بلاد فارس، أو في الطِّين، أو في القُطبَيْن أين سأكون، سواء في مدريد، أو في برلين، أو في بلاد فارس، أو في الطِّين، أو في القُطبَيْن الشَّالِيِّ والجنوبيِّ، إنْ لم أكن داخل نَفْسي، شاعراً بتلك المشاعر التي تخصُّني أنا وحدي؟ الشاليِّ والجنوبيِّ، إنْ لم أكن داخل نَفْسي، شاعراً بتلك المشاعر التي تخصُّني أنا وحدي؟ الحياةُ هي كلُّ ما نجنيه منها. الرَّحَالة هُوَ الرِّحلة. فها نراهُ ليس ما نراهُ وإنَّها ما نحنُ عليه.

365

[931]

أعدتُ قراءة كلِّ شيء كتبتُه بجلاء وأناة قطعةً، فوجدتُه عقياً كلَّه وشعرتُ أنَّ من الأفضل لو أنَّني لم أكتبُه بتاتاً. فحقيقةُ إكال أي شيء أو إنجازه، سواءٌ أكان إمبراطوريَّة أم جُمُلة، تحمل في طيَّاتها أسوأ ما يتعلَّقُ بالأشياء الحَقَّة: معرفتنا بأنَّها ستَفنى. لكنَّني وأنا أُعيد قراءة هذي الصَّفحات على مهلي لا ينتابني هذا الشُّعور، ولا أتألَّم لأنَّني كتبتُ ما قد كتبتُه. أتَّا لأنَّ ما كتبتُه لم يكن جديراً بالكتابة، ولأنَّ كلَّ الذي جنيتُه من الوقت الذي بدَّدتُه هُوَ الوهمُ المُحطَّمُ في هذي اللَّحظة؛ وهمُ أنَّه كان جديراً بالكتابة.

لا نبحثُ عن الأشياء إلَّا حين نصبو إليها، فإمَّا أن نُخفِق في تحقيق ما نصبو إليه فنغدو الفقراءَ البائسينَ، وإمَّا أن نظنَّ بأنَّنا قد حقَّقنا ما نصبو إليه فنغدو مجرَّد أثرياء مجانين.

ما يؤلمني هُوَ أَنَّ أفضلَ ما كتبتُه ردي مُ وأنَّ شخصاً آخر (إنْ كان موجوداً؛ شخصاً أحلمُ بوجوده) سوف يكتبه أفضل مني. فكلُّ ما نفعله في الفنِّ والحياة نسخة ناقصة عمَّا عزمنا عليه. إنَّها [نسخةً] تخون المُثُل العليا للكَمَال الجوَّانيِّ والخارجي على حدَّ سواء؛ إنَّها لا تخذلُ مفهومَنا عمَّا توجَّب أن يكون فحسب، وإنَّها عمَّا كان يمكنُ أن يكون أيضاً. إنَّنا جُوفٌ في وليجةِ أنْفُسِنا وفي خارجها على حدِّ سواء، مُجرَّد منبوذين؛ منبوذي التَّشؤُفِ والوعد.

فَمِن أَين استمدَّتْ روحي المتوحِّدةُ القُوَّةَ كي أكتبَ صفحةٌ إثرَ صفحة متوحدة كي أعيش، مقطعاً إثرَ مقطع، السِّحرَ الباطلَ، لا فيها كنتُ أكتبُه، وإنَّها فيها كنتُ أتخيَّلُ أنَّني كنتُ أكتبُه؟ وإنَّها فيها كنتُ أتخيَّلُ أنَّني كنتُ أكتبُه؟ فَيَا للسِّحرِ المُتهَكِّم الذي أصابني فجعلني أظنُّ نَفْسي شاعرَ النثر الذي أكتبه، في

اللَّحظة المُجنَّحة التي يتدفَّقُ فيها النَّشُرُ فِيَّ، أسرعَ ثمَّا استطاعَ قلمي أن يكتب، مثل انتقام ماكر من إهاناتِ الحياة! أنظرُ، وأنا أُعيدُ اليومَ قراءةَ ما كتبتُ، فأرى دُماي الغاليات وقد مُزِّقت أشلاءً، أرى القشَّ طافحاً من أجوافها، أراها وقد تناثرت كأنَّهُا لم تكُن...

366

[1931]

كلُّ شيء يتعلَّقُ بِيَّ يتلاشى بعيداً. حياتي كلُّها، وذكرياتي، ومُخيِّلتي وما تحويه، وشخصيَّتي، كلُّ شيءٍ يتلاشى بعيداً. لا أكفُّ عن الشُّعور بأنَّني كنتُ شخصاً آخَر، بأنَّني قد شعرتُ وفكَّرتُ مثل شخص آخر. أتلهَّى بمشهديَّات مختلفة، والمسرحيَّة الدَّراميَّة التي أشاهدها هِيَ نَفْسى.

وأعثر أحياناً في غمرة الابتذال المتراكم لأعمالي الأدبيَّة المُخزَّنة كيفها اتَّفقَ، في أدراج مكتبي المختلفة، على أشياء كتبتُها قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً أو يزيد. فَيخيَّلُ إليَّ بأنَّ غريباً قد كتب أكثرَ ما كتبتُه؛ لا أعرف نَفْسي فيها قد كتبتُ. لقد كتبها شخص آخر وكان هذا الشَّخصُ هُوَ أنا. لقد كان أنا الذي أحسَّ بها قد كتبتُ، ولكنْ في حياة أخرى قد استيقظتُ منها في هذه اللَّحظة كأنَّني أستيقظُ من حلم.

وغالباً ما أعثرُ على أشياء كتبتُها حين كنتُ ماأزال يافعاً، فقراتٍ كتبتُها حين كنتُ في السّابعة عشرة أو في العشرين من عمري. ويمتلك بعضُها قوَّة التّعبير التي لا أذكرُ أنّني قد امتلكتُها في ذلك العُمر. وبعض العبارات وبعض الجمُل المكتوبةُ حين كنتُ قد بلغتُ يفاعتي أو أكادُ تبدو نتاجَ ما أنا عليه الآنَ، بكلِّ ما قد تعلَّمتُهُ على مرِّ السِّنين والتَّجارب التي قد خضتُها. أُدركُ أنّني مازلتُ الشَّخصَ الذي كُنتُهُ. ولكنّني أتساءلُ -بعد أن فكرتُ ملياً في قد خضتُها. أُدركُ أنّني مازلتُ الشَّخصَ الذي كُنتُهُ. ولكنّني أتساءلُ -بعد أن فكرتُ ملياً في أصل إلى ما أنا عليه الآن- بشأن التَّطوُّر الذي طرأ علي إنْ كنتُ في ذلك الوقت ما أنا عليه في هذه الأثناء.

ثمَّة سرٌّ، في هذا كلُّه، يُضعضعني ويقهري.

قبل أيَّام قليلة فقط، عثرتُ على نص قصير كتبتُه منذ بضع سنين، هزَّني هزاً. أعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّ دقَّتي اللَّغويَّة (النِّسبيَّة) تعود إلى بضع سنين خلت فحسب، لكنَّني عثرتُ

في أحد الأدراج على قطعة كتبتُها منذ أمد بعيد، كانت لا تقلُّ روعة في الدُّقة اللَّغويَّة التي أَخَدَّتُ عنها. إنني لا أستطيع حقاً فهم تلك النَّفْس الماضية. كيف تطوَّرتُ لأغدو ما كنتُه فحسب؟ وأنَّى لي أن أعرف نَفْسيَ اليومَ حين لم أستطع أن أعرفها بالأمس؟ يغدو كلُّ شيء ضائعاً في متاهةٍ أُضيَّعُ فيها نَفْسي.

أَتُركُ أَفْكَارِي تُجَرِفْنِي فِينتابُنِي يقينٌ بأنَّ ما أَكَتْبُهُ في هذي اللَّحطة قد كتبتُهُ مِن قَبْلُ. أذكرُ، فأسألُ بَعضيَ الذي يتظاهرُ بأنَّهُ أنا، إنْ لم تكُن ثمَّة، في نظرة الحواسِّ الأفلاطونيَّة، ذكرياتُ أُخرى أشدُّ غموضاً، وذكرى أُخرى لحياة سابقة هي في الحقيقة هذه الحياة...

يا إلهي، مَن هذا الذي أراهُ فِيَّ، يا إلهي؟ وكم عددُ الذين أنطوي عليهم؟ ومَن أنا؟ وما هذي الْهُوَّةُ التي بَيْنِي وبينَ نَفْسِي؟

367

[91931]

عثرتُ مرَّة أخرى على مقطع كتبتُهُ بالفرنسيَّة قبل نحو خمسة عشر عاماً. لم أذهب إلى فرنسا قطُّ ولم أكن وثيق الصِّلة بالفرنسيِّين بتاتاً. وعلى الرغم من أنَّي لم أمارس اللَّغة، فإنَّني لا أستطيع القول إنَّني لم أمارسها إطلاقاً. أقرأ الفرنسيَّة الآن أكثر من أيِّ وقت مضى. فأنا أكبر سناً، وأكثر خبرة؛ ولا بُدَّ أنَّ لغتي قد تطوَّرت. بَيْد أنَّ ذلك المقطع الذي يرجعُ إلى ماضيَّ البعيد ينطوي على لمسة في استخدام الفرنسيَّة، لا يرقى إليها الشَّكُ البَّة، أعجزُ عن الكتابة بمثلها اليوم؛ فالأسلوب متدفِّق على نحو لا أستطيع إنشاء، مرَّة أخرى، في تلك اللَّغة، وثمَّة فقرات كاملة، وجُمَن كملة، وتعابير وصفيَّة كاملة، تشي بفصاحة فقدتها دون أن أعرف أنّني ملكتُها. فكيف يستطيع المرء تفسير ذلك؟ مكنُ مَن ذاك الذي اغتصبتُهُ في وليجة نَفْسي؟ اعرفُ أنَّ من السَّهل بها يكفي التَّوصُّل إلى نظريَّة بشأن تدفُّق الأشياء والأرواح، كي المعوفُ أنّن من السَّهل بها يكفي التَّوصُّل إلى نظريَّة بشأن تدفُّق الأشياء والأرواح، كي نفهمَ أنّنا دفقٌ جوَّانيٌّ للحياة، ونتخيَّلَ أنّنا كثيرون، وأنّن نعبرُ من خلال أنفيسنا ليسَ إلَّا، فهمَ أنّنا دفقٌ جوَّانيٌّ للحياة، ونتخيَّلَ أنّنا كثيرون، وأنّن نعبرُ من خلال أنفيسنا ليسَ إلَّا، فهمَ أنّنا دفقٌ جوَّانيٌّ للحياة، ونتخيَّلَ أنّنا كثيرون، وأنّن نعبرُ من خلال أنفيسنا ليسَ إلَّا، فهمَ أنّنا دفقٌ جوَّانيٌّ للحياة، ونتخيَّلَ أنْ ثمَّة شيئاً آخر يجري هُمَا ليس مجرَّد تدفُّق الشَّخصيَّة بين ضفَيَتِها: ثمَّة هُمَا الآخر المُطلَق، وبعض طرائق البصيرة، وبعض طرائق الشُعور. بيد أن ذلك كلَّهُ العُمْر، المُخيِّلة، والعاطفة، وبعض طرائق البصيرة، وبعض طرائق الشُعور. بيد أن ذلك كلَّهُ

لن يروعني على الرَّغم من الألم الذي يجلبه. ولكن، ما الذي يحدث لي حين أستطيع قراءة ما كتبتُهُ كما لو أنَّ غريباً قد كتبَهُ؟ وأيُّ شاطئ سأكون واقفاً عليه يسمح لي بأن أنظر إلى الأسفل فأرى نَفْسى في قاع البحر؟

لقد وجدتُ، في مناسبات أخرى، مقاطع لا استطيع تذكَّر انَّني كتبتُها، وهي مسألة لا تحيَّر في كثيراً، بَيَّدَ أَن أكونَ عاجزاً حتَّى عن تذكُّر انَّني كنتُ قادراً على كتابة شيء ما، فذلك يدبُّ الرُّعب في نَفْسي، وبعض العبارات تنتمي إلى طريقة أُخرى في التَّفكير تماماً، كانَّني قد عثرتُ على صورة شخصيَّة قديمة، لا ريب أنَّها صورتي، غير أنها تُظهِر قوامَ شخص آخر، بملامح لا أستطيع التَّعرُّ ف إليها لكنَّها ماتزال تخيفني على نحو لا يرقَى إليه الشَّكُ.

368

[1931]

رأيتُ بالأمس رجلاً عظيماً وأصغيتُ إليه المند. ولستُ أعني شخصاً ذاع صيتُهُ على أنّهُ رجلٌ عظيم، وإنّما رجلٌ هُوَ في الحقيقة عظيم. رجلٌ رفيعُ الشّأن ينطوي على قيمة بالغة، إنْ كان ثمّة قيمةٌ في هذا العالمَ؛ يعرفُ الآخرون ذلك وهو يعرف بأنّهم يعرفون. ولهذا فهو يستوفي جميع الشّروط اللّازمة التي تسمح في بأنْ أدعوه رجلاً عظيماً. وهذا ما أدعوه به في حقيقة الأمر.

يبدو من النّاحية الجسديّة رجلَ أعمالِ هذّهُ التّعب. وتبدو أماراتُ التّعب التي تلوحُ على أعمالُ نابعة ، بكلّ بساطة ، من عيشه حياة غير صحيّة ، أو من إفراطه في التّفكير. إيهاءاتُه عاديّة مناماً. وثمّة بريقٌ مُعيَّنٌ في عينيه - ميزة من لا يعاني قصر البصر . أمّا صوتُهُ فمشوَّش قليلاً كأنَّ شللاً كُلّياً باشر في مهاجمة سيهاء روحه المُميَّزة ، روحه التي أفصحَتْ عن وجهات نظر تتعلّق بالسّياسة الحزبيّة ، وخفض قيمة الإشكُوْ ذُوْ (340) ، وأكثر الجوانب خِسَّة التي يتّصِفُ بها أندادُه في العَظَمة.

ولو لم أكُن أعرف من هُوَ، لما استطعتُ التَّخمين من مظهره. أعرف، حقَّ المعرفة، أنَّه لا يتوجَّب على المرء أن يستسلم للأفكار البطوليَّة حول البشر العظام الذين ينجذب إليهم

⁽³⁴⁰⁾ Escodo: وتعني حرفباً «الدَّزع»، وهي انعملة التاريخيَّة للبرتعال قبل التحوُّّل إلى استخدام اليورو. (المترجم)

البسطاء: لا بُدَّ أن يمتلك الشَّاعرُ جسدَ أپولُّو ووجهَ نابليون أو، على نحو أقلَّ تطلَّباً، لا بُدَّ لَهُ أن يكون عيَّزاً وصاحب وجهٍ مُعبِّر. أعرفُ أنَّ تلك الأفكار السَّخيفة، وإن كانت طبيعيَّة، عجرَّد زلَّات بشريَّة. ومع ذلك، فليس من غير المعقول توقُّع بعض علامات العَظَمة. وحين ينتقل المرء من التَّركيز على المظهر الجسديِّ إلى تأمُّل ما تتلَّفظ به الرُّوح، في الوقت الذي يستطيع فعل ذلك من دون هِمَّة أو حيويَّة، فإنَّه يتوقَّع بصيرةً تُجلِّلُها على الأقلِّ مسحةٌ من الجَلال المهيب.

وهذا كلَّه، كلُّ خيبات الأمل البشريَّة هذه، تجعلنا نرتابُ في حقيقة الذي يُسمَّى الإلهامَ على نحو مُبتذَل. يبدو أنَّ هذا الجسدَ المُقدَّرَ أن يكون رجلَ أعمالٍ، وهذي الرُّوحَ المنذورة لتكون روحَ رجل مُثقَّفٍ، قد أُنعِمَ عليهما سويَّة، وعلى نحو غامض، بخاصيَّةٍ خارجية وجوَّانيَّة، على التَّوالي، تجعلُ شيئاً ما يتكلَّمُ من خلالهما، في الوقت الذي لا ينبسان فيه ببنت شفةٍ، فينطقُ ذلك الصَّوتُ الكلامَ الذي لو قالَهُ الجسدُ أو الرُّوح، وحدهما، لكانَ باطلاً يُفتَرى.

ولكنَّ هذه مجرَّد تأمُّلات عقيمة وكسولة. وأكادُ أندم على أنَّني قد انغمستُ فيها. فملاحظاتي لم تَحُطَّ من قَدْر الرُّجل ولم تُحسِّن من مظهره الخارجي على حدِّ سواء. فالحقيقةُ أَنْ لا شيءَ يُغيِّرُ شيئاً، وأنَّ ما نقوله أو نفعله لا يمسح إلَّا قمم الجبال التي في وديانها تنامُ الأشياءُ.

369

[91931]

تمشَّيْنا ولمَّا نزل صغاراً تحت الأشجار الباسقة [في كنف] الغابة التي تهمسُ بغموض. كان القمرُ يصنعُ بحيراتٍ في المطارح المقطوعة الأشجار التي ظهرتْ فجأةً على امتداد اللَّرب، حيث الضِّفافُ المتشابكة لتلك البحيرات الأكثر إعتاماً من اللَّيل البهيم. وكان النَّسيمُ الدَّافئُ للغابات العظيمة يتنفَّسُ بصوتٍ خفيض حولنا. تكلَّمنا عن أشياء مستحيلة؛ كانت أصواتنا بعضاً من اللَّيل والقمر والغابة. سمعناها كما لو كانت تنتمي إلى غيرنا.

ولم تكُن تلك الغابة التي يكتنفها الغموض خاليةً من الدُّروب تماماً. كانت ثمَّة مسالك عرفناها بطريقة أو أخرى، فسرن مُرتابين على طولها بين الظَّلال المُرقَّطة وأعمدة ضوء

القمر الباردة القاسية. كُنَّا نتكلَّمُ عن أشياء مستحيلة، وكان ذلك المنظر الطَّبيعيُّ الحَقُّ كلُه مستحيلاً بالقَدْر ذاته.

370

[1931]

كلَّما تَعُوَّلنا بعيداً في الحياة، زادتْ قناعتُنا بحقيقتَيْن متناقضتَيْن. تقولُ الأولى إنَّ قَصَص الأدب وخيالَ الفنِّ الجامحَ لا قيمة لها إطلاقاً مقارنة بواقع الحياة. وعلى الرَّغم من انَّ الأدب والفنَّ يمنحاننا متعة أنبل من الحياة، فإنَّها في الحقيقة يشبهان الأحلام التي نتذوق فيها مشاعر لم نذقها في الحياة بتاتاً وتستحضر لنا أشكالاً لم نرها قَطُّ النَّها مجرَّد أحلام يستيقظ منها المرء، وليست ذكريات أو مشاعر حنين حرَّاقة قد نعيش بها حياةً ثانية فيها بَعْدُ.

أمَّا الحقيقةُ الثَّانية: فترغبُ كلُّ روح نبيلة في أن تعيش الحياة إلى حدِّها الأقصى، أن تعبَّها عباً، فتذوق كلَّ شيء، وتختبر كلَّ شعور، وتعرف كلَّ زاوية من زوايا الأرض. ولأنَّ ذلك كلَّهُ مستحيل من النَّاحية الموضوعيَّة، فلا يُمكن عيشُ الحياة إلى حدِّها الأقصى إلَّا من النَّاحية الدُّر أن نعيشها بأكملها إلَّا حين نزهدُ فيها.

وهاتان الحقيقتان غير قابلتين للاختزال على نحو مُتبادَل. ولسوف يُحجم الحكيمُ عن محاولة الخلط بينهم وكذلك عن جحد إيِّ منهما. ولكنْ، لا بُدَّ أن يختار واحدةً ثُمَّ يعيش وقد اعتصره النَّدم لأنَّه لم يختر الأخرى، أو يرفضهما على حدِّ سواء، فيعلو على نَفْسه صاعداً في معراج روحه كي يبلغ النِّير قانا التي يصبو إليها.

طُوبَى للَّذي لا يطلبُ من الحياة أكثرَ عمَّا عنحه على نحو عفويً، الذي يَسُوسُ نَفْسه بغريزة القطط، الذي يبحثُ عن الشَّمس حين تكون ثمَّة شمسٌ، ويبحثُ عن أيِّ دفع حين لا تكون ثمَّة شمسٌ، فيجد المتعة في تأمُّل حيوات لا تكون ثمَّة شمسٌ، فيجد المتعة في تأمُّل حيوات الآخرين، ولا يختبر الانطباعات في حدِّ ذاتها وإنَّها المشهدَ الخارجيَّ لتلك الانطباعات، طُوبى للَّذي يزهدُ حيننذٍ في كلِّ شيء، فلا يُؤخذ منهُ شيءٌ إذَّاكَ ولا يُنقَصُ.

الرِّيفَيُّ، وقارئُ الرِّوايات، والزَّاهد القُحُّ: هؤلاء الثَّلاثة هُمُ السُّعداءُ حقاً، فلقد أنكروا وجودَهُمُ الشَّخصيَّ - الأوَّل، لأنَّهُ يعيش بالفطرة، فالفطرة مُتجرِّدةٌ [عن كلِّ شيءً]؛ والنَّاني، لأَنَّهُ يعيش بالمُخيِّلة، فالمخيِّلةُ نسيانٌ؛ والثَّالثُ، لأنَّهُ لا يعيشُ وإنها ينامُ لأنَّه لم يمُت بَعْدُ. لا شيءَ يُرضيني، ولا شيءَ يواسيني، وكلُّ شيءٍ -وُجِدَ أَمْ لَمْ يُوجَد بَعْدُ- يُتخِمُني. لا أُريدُ روحي ولا أرغبُ في التَّخلِّي عنها، أشتهي ما لا أشتهيه وأزهدُ فيها لا أملكُ. لا أستطيعُ أن أكون لا شيءَ ولا كلَّ شيءٍ: لستُ إلّا جسراً بين ما لا أملكُ وما لا أريدُ.

371

[1931]

ماذا يهمُّني لو لم يقرأ أحدٌ ما أكتبُ ؟ أكتبُ كي ألهي نَفْسي عن البقاء على قيد الحياة، وأنشرُ ما أكتبُ لأنَّ تلك هي قواعد اللَّعبة. إنْ فُقِدَتْ غداً كتاباتي كلَّها، فسوف أحزن، لكنَّي أظنُّ أنَّني لن أشعر بالحزن الجنوني المُبرح الذي قد تتوقَّعُونه نظراً إلى أنَّ كتاباتي تحوي حياتي كلَّها. أليسَ صحيحاً أنَّ الأُمَّ تستطيع الضَّحك، بعد شهور من وفاة طفلها، عائدةً إلى نَفْسها القديمة؟ والأرضُ العظيمة، التي تعتني بالموتي، سوف تعتني أيضاً بأوراقي، وإنْ كانتِ الأرضُ أُما أقلَّ. لا شيء يهمُّ، وهُنَاكَ -أظنُّ - كانَ الذين لم يصبروا طويلاً على الطَّفل حين استيقظ، والذين تاقوا إلى السَّكينة والهدوء اللذين سيسودان حين يذهبُ الطَّفلُ أخيراً إلى النَّوم.

372

[91931]

هذا الحادثُ العَرَضيُّ الذي نُسمِّيه الحياة...

كانت تمطرُ منذ يومَيْن والمطرُ الذي ينهمر من السَّهاء الرَّماديَّة الباردة لَهُ لونٌ يُصِيبُ الرُّوحَ بِالْحُون. يومانِ... وأنا حزينٌ من كثرة المشاعر متأملاً هذا كلَّهُ عند النَّافذة على صوت الماء المتقاطر والمطر المنهمر. تغمرُ قلبي الكآبةُ فتستحيل ذكرياتي كلُّها كَرْباً مُبرحاً. لستُ نعسانَ، ولا سببَ يدعوني كي أنعسَ، لكنَّني أشعرُ برغبة عظيمة في النَّوم. مرَّةً، وأنا طفلٌ تغمرني السَّعادة، كان صوتُ ببغاء أخضرَ برَّاقِ اعتادَ العيش في باحة البيت المجاور. لم يشعرِ الصَّوتُ بالحُون بتاتاً، في الأيَّام المَّليرة، ولكنَّهُ كان يبعثُ، من مخبته في القفص دون ريب، شعوراً متواصلاً يُحوِّمُ في الكآبة المُخيِّمة كآنَّهُ غراموفون يصدحُ قبل أوانه.

ما الذي جعلني أُفكِّرُ بالببغاء في هذه اللَّحظة؟ هل لأنَّني أشعر بالحزذ وطفولتي البعيدة تذكِّر في به؟ كلَّا، إنَّه يعنُّ على بالي لأنَّني أسمعُ في هذه اللَّحظة تماماً، قادماً من الباحة الواقعة على حدود هذه اللَّحظة الحاضرة، صوتَ ببغاءِ يصدحُ بكلمات مُلتبسة.

يختلطُ كلُّ شيءٍ فِيَّ. وحين أَفكُرُ في أنَّني قدَّ تذكَّرتُ شيئًا، فإنَّني أكون في الواقع أُفكُرُ في شيءٍ آخَر؛ وإذا نظرتُ لا أرى شيئًا، بيدَ أنَّني حين أسرحُ أرى كلَّ شيء واضحاً.

أديرُ ظهري للنّافذة الرَّماديَّة، لألواحِ الزُّجاجِ الباردة حين تُلمَس، ثُمَّ، ببعض حِيَل هالات الظِّلال، أحملُ معي الجزءَ الدَّاخليَّ للمنزل العتيق حيث اعتادَ ببغاءٌ أن يصدح، في الباحة المجاورة؛ فتُغمض عيناي من النُّعاس على الحقيقة التي لا تُعوَّض بأنَّني في الحقيقة عشتُ.

373

[\$1931]

لا يتأثّر بؤسُ حاليَ البتّة بالكلمات التي أخطُّها؛ الكلماتِ التي أُشكِّل بها، شيئاً فشيئاً، أفكارَ هذا الكتاب العشوائيِّ. أظل على قيد الحياةِ بجرَّدَ شيءٍ في قاع التّعابير كلِّها، مثل مسحوق لا يدوبُ إطلاقاً في قعر كأس لا تضمُّ إلَّا الماء. أكتبُ أدبي وأنا أُدوِّنُ قيودي المحاسبيّة في دفتر الحسابات - بلامبالاة تُحترسة. أكتبُ في دفتر الحسابات وأمامي السَّاءُ الرَّحبة المُرصَّعة بالنُّجوم وأُحجية الأرواح الكثيرة، وليلُ الهاوية المجهولة وفوضى الجهل المُطلق، أكتبُ وأمامي هذا كلُّه، بيّد أنَّ ما أخطُّه على روحي الورقيَّة هذه، يظلُّ عالقاً هُنَا، ثابتاً لا يتزحزح، في خُوا دُس دُوْرَادُوْرِش، ولا شأن لَهُ إلَّا قليلاً بملايين المساحات الشَّاسعة الهائلة الموجودة في الكون.

وليس هذا كلَّه إلَّا تُجرَّد حُلم وتخيُّلات تماماً، ولا يهمُّ كثيراً إنْ كان الحُلم بجرَّد قَيْدٍ في دفتر الحسابات أو قطعة نثر بديعة. فما جدوى الحُلم بأميرات عوضاً عن الباب المُفضي إلى المُكتب؟ كلُّ ما نعرفُه مجرَّد انطباع نكوِّنه، وكلُّ ما نحنُ عليه بجرَّد انطباع شخص آخر عنّا، ميلو دراما شخصيَّة نعي فيها أنَّنا نظّارةُ أنْفُسِنا، وآلهةُ أنْفُسِنا، بإذنِ كريم من المجلس البلديَّ.

[1931]

الفُرصة السَّانحة (30 كالمَال الذي هُوَ في الحقيقة فرصة سانحة، بطريقة أو أخرى. الفُرصة، بالنَّسبة إلى أصحاب الأفعال، شيءٌ يتعلَّقُ بالإرادة، ولستُ مهتماً بالإرادة. لكنَّ الفُرصة، بالنِّسبة إلى شخص مثلي لا يفعل شيئاً البَّلة، أغنيةٌ لا تُغنِّبها عرائسُ البحر على الفرصة، بالنَّسبة إلى شخص مثلي لا يفعل شيئاً البَّلة، أغنيةٌ لا تُغنِّبها عرائسُ البحر على الفرصة، لا بُدَّ أن تُرْدرَى على نحو شهوانيًّ وتُبعَد في مكان عالِ كشيءٍ لا طائلَ منه.

أَنْ تحظى بفر صة ... هذه هي البقعة التي سوف يُقيمون فيها تمثالاً للزُّهٰد.

آهِ، أَيَّتُهَا الحقول الفسيحةُ التي تنبرها الشَّمسُ، يا مَن يتأمَّلُكِ من الظِّلِّ المُتفرِّجُ الذي خُلِقَ من أجلكِ، أنتِ، وحدَكِ.

خُرُ الكهات الباذخة والجُمَل المديدة التي تصعدُ كأمواج بأنفاسِ إيقاعاتها، ثمَّ تسقطُ ثانيةً وهي تبتسمُ، كأنَّها حيَّاتُ زبدِ مُتهكِّمةٌ في البهاء الحزين لَّلَيل البهيم.

375

[17 يناير 1932]

ينتمي العالم إلى الذين لا يشعرون. فالشَّرط الوحيد للإنسان العملي هُوَ غيابُ أيِّ حساسية. والميزة الأهم في الحياة اليوميَّة هي تلك التي تقود إلى الفِعْل، أقصدُ الإرادة القويَّة. وثمَّة شيئان، في الوقت الحاضر، يعوقان الفِعْل ويعترضان طريقة - الحساسية والفِكر التَّحليليُّ الذي هُوَ، في نهاية المطاف، ليس أكثر من الفِكر مضافاً إليه الحساسية. ولكنَّ الفِعْل، في حدِّ ذاته، انعكاسُ الشَّخصيَّة في العالم الخارجي، وبها أنَّ العالم الخارجي يتكوَّنُ، إلى حدِّ في حدِّ ذاته، انعكاسُ الشَّخصيَّة سوف يؤدِّي إلى قطع درب بعيد جداً، من كائنات آدميَّة أُخرى، فإنَّ أيَّ انعكاسِ للشَّخصيَّة سوف يؤدِّي إلى قطع درب شخص آخر، وإزعاج الآخرين أو إلحاق الضَّرر بهم أو سحقهم، وفقاً للطَّريقة التي يتصرَّفُ بها المرء.

ولذلك، فمن الضّرورة أن يمتلك المرء، الذي يودُّ العمل، القُدرةَ على تخيُّل شخصيًّات الآخرين، وآلامهم، وأفراحهم. فالذي يتعاطف يضيع. يتعامل صاحب الأفعال مع العالم الخارجي كأنَّه قد خُلِقَ كُلَّيةً من مادَّة خاملة، سواء أكانت خاملة في ذاتها، مثل حجر يدوس عليه المرءُ أو يركله إلى جانب الطَّريق، أمْ مثل كائن بشريًّ عاجز عن مفاومة صاحب الأفعال؛ كائن بشريًّ عاجز عن مفاومة صاحب الأفعال؛ كائن بشريًّ قد يكون هُوَ الآخرُ حجراً سيُداسُ عليه، أيضاً، أو يُركل إلى أحد جانبيِّ الطَّريق. مِثَالُ الإنسان العمليِّ هُوَ الاستراتيجيُّ، فهو يخلطُ تركيزه الشَّديد على الفِعْل بإحساسه مِثَالُ الإنسان العمليِّ هُوَ الاستراتيجيُّ، فهو يخلطُ تركيزه الشَّديد على الفِعْل بإحساسه بأهميَّة ذاته. الحياة مثلها يلعب لاعب الشُطرنج بأحجار الرُّقعة. فهاذا سيحدث للاستراتيجيُّ لو فكر، عند كلِّ حركة يأتي بها، في الظلام الذي ألقاه على آلاف البيوت والألم الذي أوجده في ثلاثة آلاف قلب؟ وماذا سيحدث للعالم لو كُنَّا إنسانين؟ لو شعر المرءُ حقاً، فلن تكون حضارة. الفنُّ بمثابة مَهربِ للحساسية التي توجَّب على الفِعْل أن يتركها خلقه. الفنُّ هُوَ السَّندريلًا التي بقيت في المنزل لأذَّ ذلك هُوَ الذي توجَّب على الفِعْل أن يتركها خلقه. الفنُّ هُوَ الني توجَّب أن يكون.

ولا بُدَّ أن يكون صحب الأفعال إيجابياً ومتفائلاً بالضَّر ورة، فالذين لا يشعرون سعداء. وتستطيع معرفة صاحب الأفعال فهو لا يكون في مزاج سيِّئ البتَّة. فالذي يعمل، على الرَّغم من مزاجه السَّيِّء، خاضعٌ للعمل؛ وقد يكون، في الحياة، في الحياة برمَّتها، محاسباً مثلي أنا. ولكنَّه لن يكون حاكماً على الأشياء أو البشر. فالقيادة تتطلَّبُ انعدام الحساسية. وحدهم الشُعداء يحكمون، فكي تكون حزيناً لا بُدَّ أن تشعر بالمقام الأوَّل.

عقد فاسْكِش، ربُّ عملي، اليومَ صفقة أفلسَتْ رجلاً مريضاً وعائلته. كان، في أثناء إبرام الصَّفقة، قد نسي تماماً وجود ذلك الفَرْد إلا بوصفه خصماً تجارياً. وما إن تمَّت الصَّفقة، حتى تدفَّقتْ حساسيتُه، عائدة إليه – بعد ذلك، بالطَّبع، فلو تمتَّع بحساسيته قبل ذلك، لما تمَّت الصَّفقة قَطُّ. قال لي: «أشعرُ بالأسف حقاً تجاه ذلك الرَّجل»، ثُمَّ أشعل سيكاراً، وأضاف: «سيخدو مُعدَماً. حسناً، لو احتاج إلى شيء منِّي» –يقصدُ بعض المساعدة – «فلن يغيب عن بالي بأنَّ الفضل يعود إليه في إبرامي لتلك الصَّفقة الجيِّدة التي أكسبتني بضعة آلاف إشكُوْدُوه. ليس فاسْكِش قاطع طريق؛ إنَّه رجل أفعال. والرَّجل الذي خسر المناورة في هذه اللَّعبة المعيَّنة يستطيع، في الحقيقة، الاعتهادَ عليه طلباً للمساعدة في المستقبل، لأنَّ فاسْكِش رجل كريم.

لا يختلف قاسْكِش بتاتاً عن جميع أصحاب الأفعال: قادة الصّناعة والتّجارة، والسّاسة، ورجال الحروب، والمثالثين الاجتاعيّين، والشُّعراء والفنّانين العِظام، والنِّساء الجميلات، والأطفال الذين أفسدهم الدَّلال. فاليدُ العُليَا للَّذي لا يشعرُ بشيء. والفائز هُوَ الذي لا يُفكّرُ إلَّا في تلك الأفكار التي تجلبُ له النّصر. أمّا البقيَّةُ -عالمُ البشريَّة الغامضُ في العموم الذين بلا ملامح مُحدَّدة، الحسّاسون، الحياليُّون المُبدعون، الهشّون، فهم لا شيءَ إلّا الخلفيّة الذي يتبخرُ أمامَها هؤلاء الممثّلون حتَّى تنتهي مسرحيّة الدُّمي المتحرِّكة، والرُّقعة التي تقف عليها أحجار الشّطرنج حتَّى يُبعدَها اللّاعبُ الأعظم الوحيد الذي يخدع نَفْسه بأنْ لا شريك لَهُ، فلا يلعبُ إطلاقاً إلّا ضدَّ نَفْسه.

376

[26 يناير 1932]

تستحوذ عليّ، من بين انشغالاتي الدَّائمة، محاولة فهم الكيفيّة التي يُوجَد بها الآخرون، والكيفيّة التي تُوجَد بها أرواحٌ أُخرى غير روحي ووعيٌ (٢٥٠٥) آخر غير وعيى، لأنَّ الوعي يبدو بالنسبة إليَّ الشّيءَ الفريد. أفهم تمامَ الفهم أنَّ الإنسان الواقف أمامي، الذي يتلفّظ بكامات تشبه الكلمات التي أتلفّظ بها، ويومئ بالإيهاءات ذاتها التي أقوم بها أو أستطيع القيام بها، هُوَ بطريقة أو أخرى الكائنُ الحيُّ الذي يشاركني الوجود. لكنَّني أشعرُ بالشّيء ذاته تجاه البشر في الصُّور التي أحلم بها، وتجاه الشّخصيّات التي أراها في الرِّوايات أو الشخصيات الدِّراميّة على خشبة المسرح التي تتكلَّمُ من خلال الممثلين الذين يُمثّلونهم. أفترضُ ألَّا أحدَ يعترفُ حقّ بوجود شخص آخر. قد يُقرُّ المرُّ بأنَّ الشَّخص الآخر حيُّ افترضُ ألَّا أحدَ يعترفُ حقّ بوجود شخص آخر. قد يُقرُّ المرُّ بأنَّ الشَّخص الآخر حيُّ ملوس، لا يستطيع المرءُ أن يضع إصبعه عليه تماماً. فنمّة أشكالٌ من أزمنة منصويّة، صور ويشعر ويُفكِّر مثل نفسه هُو، بيّد أنَّه سيظلُّ موجوداً دائماً عنصرُ اختلاف مجهول، تناقضٌ ملموس، لا يستطيع المرءُ أن يضع إصبعه عليه تماماً. فنمّة أشكالٌ من أزمنة منصويّة، صور فنتازيَّةُ في الكتب، تبدو حقيقيّة، بالنِّسبة إلينا، أكثر من هذه النَّياذج من اللَّمبالاة المتجسّدة التي تُكلَّمُنا عبر طاولات تقديم الشَّراب في الحانات، أو تجدبُ انتباهنا فتخطف أبصارنا في الترامات، أو تمسّنا مساً رقيقاً بعشوائيَّة فارغة، حين تمرُّ بنا مسرعة في الشَّواع. الآخرون، الرّمات، أو تمسّنا مساً رقيقاً بعشوائيَّة فارغة، حين تمرُّ بنا مسرعة في الشَّواع. الآخرون،

بالنَّسبة إلينا، مجرَّد جزءٍ من المنظر الطَّبيعيِّ الذي عادة ما يكون المنظر الطَّبيعيَّ المحتجبَ لشارع مألوف.

أشعرُ بروابط وثيقة وصلات حميمة مع بعض الشّخصيّات الموجودة في الكُتُب وبعض الصُّور المُعيّنة التي رأيتها في النُّقوش والتَّصاوير، أكثرَ مَمَّا لديَّ مع كثير من أولئك اللين من الصُّور المُعيّنة التي رأيتها في النُّقوش والتَّصاوير، أكثرَ مَمَّا لديَّ مع كثير من أولئك اللين من المفترض أنَّهم بشر حقيقيُّون، مع العبثيَّة الغيبيَّة المعروفة باسم «اللَّحم والدَّم» ولكنَّ عبارة «اللَّحم والدَّم» تصفهم على أكمل وجه: فهم عبارة عن كتل من اللَّحم مفرودة على عبارة «اللَّحم من النَّم على قيد الحياة، وشرائح وضم الجنَّار الرُّخاميِّ، ومخلوقات ميِّنة تنزف على الرَّغم من أنَّها على قيد الحياة، وشرائح لم خاصرة القَدر وَريَش أضلاعه.

لا أخجلُ من الشُّعُورَ على هذه الشَّاكلة لأنَّني أعرف أنَّ الجميع يشعرون على هذا النَّحو. فالافتقارُ إلى الاحترام السَّائد بين البشر، واللَّامبالاةُ التي تسمح لهم بقتل الآخرين دون ندم (على شاكلة المجرمين) أو دون التَّفكير بأنَّهم يهارسون القتل (على شاكلة الجنود)، نابعان من حقيقة أنْ لا أحدَ يُبدي الاهتهامَ المطلوب تجاه الفكرة، التي تبدو مُلتبِسةً في الظَّاهر، والقائلةُ إلى للآخرين أرواحاً أيضاً.

لكنَّني أُدركُ فجأةً، في أيَّام معيَّنة وفي أوقات مُحدَّدة حين يهبُّ إليَّ وعيٌ يحملهُ نسيمٌ مجهول تَجلَّى حين فُتحَ بابٌ سرِّيٌ، أنَّ البقَّال الذي في زاوية الشَّارع كائنٌ روحانيُّ، وأنَّ معاونَهُ الواقف بالباب، منحنياً فوق كيس البطاطا، روحٌ قادرة على المعاناة حقاً.

بالأمس، حين أخبروني أنَّ الغلام الذي يعمل معاوناً في متجر بيع التَّبغ قد انتحر، لم أستطع تصديق الخبر. يا للفتى المسكين، لقد كان موجوداً أيضاً! لقد نسينا ذلك جميعاً؛ نحن الذين عرفنا بوجوده فحسب، وأولئك الذين لم يعرفوه قطُّ. ولسوف ننساه غداً بسهولة أكثر. بَيْدَ أنَّ من المؤكَّد أنَّهُ امتلك روحاً، روحاً كافيةً كي يقتل نَفْسه. شغف؟ مشاعر قلق؟ بالطَّبع. لكنَّ كلَّ الذي يتبقَى، بالنِّسبة إليَّ، ولبقيَّة البشريَّة، هُوَ ذكرى ابتسامة سخيفة ترتسم فوق سُترةٍ صوفيَّة مُتَسخة لم تكن على مقاس كتفيه تماماً. هذا كلُّ ما سوف يبقى، بالنِّسبة إليَّ، ولبقيَّة عناماً. هذا كلُّ ما سوف يبقى، بالنِّسبة إليَّ،

⁽³⁴³⁾ العبارة المستخدمة هي «flesh and blood» (وفي الأصل البرتغالي «carne e osso»: اللَّحم والعظم)، التي تعني، بعيداً عن معناها احرفي، الطَّبيعةَ البشريَّة، ولكنَّ بِسُوًّا يستخدمها هُنَا بمعناها الحرفيِّ، كما يتَّضع في الجملة التي بعدها. (المترجم)

من شخص شعر عميقاً بها يكفي كي يقتل نَفْسه، فليس من سبب آخر في نهاية المطاف يدفعه إلى قتل نَفْسه، . . أذكرُ أَنَّني فكَّرتُ ذات مرَّة، حين كنتُ اشتري منه بعض السَّكَائر، في أنَّه قد يغدو أصلع قبل أوانه، غير أنه، كها يبدو، لم يكن لديه الوقت الكافي كي يصلع. بيد أن هذه مجرَّد ذكرى لديً عنه، ولكنُ أيُّ ذكرى أُخرَى قد تتبقى عنه إنْ كانتُ ذكراي في الحقيقة ليستُ عنهُ وإنَّها عن فكرة راودتني؟

تنتابني رؤية فجائيَّة عن جثمانٍ، وعن كفنٍ سجَّوه فيه، وعن القبر الغريب الذي لا بُدَّ أنَّهم قد شيَّعوا جنازتَهُ إليه، ثُمَّ أرى أنَّ معاون صاحب متجر التَّبغ، قد كان، على نحوٍ ما، بسترته الممزَّقة شرَّ تمزيقِ، خير تُمثِّل للبشريَّة جمعاء.

لم تَدُم الرُّؤيةُ إلا وهُلة. واليومَّ، بالطَّبع، لأنَّني مجرَّد بشر، أُفكِّرُ في أنَّهُ قد مات فحسب، ولا شي أكثر.

كلًا، الآخرونَ غيرُ موجودين... فالشَّمسُ الغاربة لا تفردُ أجنحتَها الثَّقيلة؛ أجنحةَ ألوانِ السَّديمِ القاسيةِ إلَّا لي وحدي. ولا يلمعُ النَّهرُ العريض تحت أشعَة الشَّمس، على الرَّغم من أنَّني لا أستطيعُ رؤيةَ مياههِ تجري، إلَّا لي وحدي. ولم تُشيَّد هذي السَّاحةُ المفتوحة، التي تُطِلُّ على النَّهر في مدِّه المُتقلِّب، إلَّا لي وحدي. فهل دُفِنَ اليومَ في القبر الجماعيِّ معاونُ صاحب متجر التَّبغ؟ غروبُ الشَّمس ليس لَهُ اليوم. بَيْدَ أَنَّني، حتَّى وأنا أُفكرُ في هذا كلَّه ضدً إرادي تماماً، أدركتُ فجأةً أنَّ الغروبَ سيكفُّ عن أن يكون لي أيضاً...

377

[29 يناير 1932]

ما إن فترَتْ حرارةُ الصَّيف الأخيرة فاسحة المجال لوجود شمس ألطف، حتَّى بدأ الخريف حتَّى قبل أن يحلَّ علينا - بحُزنِ خفيف، وغامض، ومديد، كأنَّ السَّماء فقدت الخريف حتَّى قبل أن يحلَّ علينا - بحُزنِ خفيف، وغامض، ومديد، كأنَّ السَّماء فقدت قدرتها على الابتسام. كانت في بعض الأحيان زرقاءَ شاحبة، وكادت تكون خضراءَ في قدرتها على الابتسام. كانت واهية دائم حتَّى في المكان الذي يكون فيه اللَّونُ على أشدَّه؛ كان أحايين أُخرى، لكنَّها بدت واهية دائم حتَّى في المكان الذي يكون فيه اللَّونُ على أشدَّه؛ كان ثمَّة بجمودٌ يلفُّ الغيوم في ظلالها المختلفة التي من أرجوانيَّات خابية؛ بَيْدَ أنَّهُ سادَ، في هذه اللَّحظة، مالئاً الوَحشةَ التي مازالت تعبر من خلالها الغيوم، شعورٌ بالسَّام لا الحَدَر.

كانت بداية الخريف قد بشَّرت بها برودةً حقيقيَّة سرتْ في الهواء الذي لم يبرد بَعْدُ، وبُهنانُ ما تبقّى من ألوان لم تبهت بَعْدُ، وظهورُ شيء من العَثْم والغياب لم يكن موجوداً هناك من قَبْلُ في المسحة اللَّونيَّة للمناظر الطَّبيعيَّة والمظهر المُغبَّش للأشياء. لم يكُن ثمَّة شيء يحتضر بَعْدُ، ولكنَّ كلَّ شيء راح يتطلَّع بلهفةٍ عارمة إلى الحياة ثانية، كأنَّهُ يبتسم ابتسامةً لم يتبسّمها بَعْدُ.

ثُمَّ ها قد حلَّ أخيراً الخريف الحَقُّ: كان الهواء قد برَّدته الرِّبحُ؛ وأوراقُ الأشجار نطقَتُ بدرجاتٍ لونيَّة جافَّةٍ قبل أن تذوي وتموتُ، والأرضُ كلُّها أخذَتْ لونَ أرض السَّبخات الغدَّارة وشكلَها الذي لا يُحسُّ. وما كان الابتسامة الباهتة الأخيرة قد تلاشى بعيداً بجفون مرحيَّةٍ مُتعَبة، في إيهاءات من اللَّامبالاة. وكلُّ شيء يشعرُ، أو ما نتخيَّلُ أنَّه يشعرُ، ضمَّ تلويحة وداعه قريباً من صدره، ثمَّ طاف صوتُ عصفة ريح تهبُّ في الرُّواق عبر وعينا بشيء آخر. لا يتوقُ المرءُ إلَّا كي يشعرَ بالحياة حقاً، كي يغدو سقيهاً يتعافى من سَقَمِه.

ولكنَّ أوَّل أمطار الشِّتاء، وقد جاءتُ مثلها جاءتُ في غمرة هذا الخريف الجَليِّ الذي لا ريب فيه، جرفَتْ شِبْهَ الأمشاجِ اللَّونيَّة هذه بعيداً بجلافة وازدراء. وفي غمرة زخَّات المطر الموسميَّة المثيرة للعجب، أطلقَت الرِّياحُ العاتبة العنانَ لكلهاتٍ مُشتَّتة من احتجاج مجهول، أصوات حزينة، أصوات يأس عديم الرُّوح تكاد تغضب، صافرة حول ما كان جامداً، ساحبة ما ترسَّخ في الأرض، جارَّة معها أيَّ شيء يتحرَّك.

ثُمَّ، في النِّهاية، في برد ورماديَّة، انقضى الخريف. كان خريفاً شتائياً باتَ في هذه اللَّحظة كالغُبار الذي يغدو في النِّهاية وحلاً، لكنَّه يجلب معه كلَّ خير برد الشِّتاء، بعد أن مضى الصَّيف القاسي، والرَّبيع سوف بأتي، والخريف قد أفسح الطَّريق أخيراً للشِّتاء. وفي السَّهاء العالية، حيث الألوان الباهتة فقدَتْ كلَّ ذكرى عن الحَرِّ والحُزن، كان كلُّ شيء قد تهيَّاً للَّيل وحِينِ من التَّامُّل لا حَدَّ لَهُ.

هَكَذَا رَأَيتُ كُلِّ شيء دون أن أَفزعَ إلى التَّفكُّر. وأكتبُ كلَّ شيء اليومَ لأنَّني أذكره، فالحريف الذي لديَّ هُوَ الحريف الذي فقدتُهُ.

[5 فيراير 1932]

رأسي يوجعُنِي والكونُ كلُّهُ. ثمَّة أوجاع وآلامٌ جسديَّة، أوضح من الأوجاع والآلام الأخلاقيَّة، تُطلِقُ العنانَ، عبر حالة من الاستبطان الرُّوحانيِّ، لِكَاسٍ لا تنطوي هي عليها. إنَّها تُعبِّر عن نفاد صبرها تجاه كلِّ شيء، كلِّ شيء، حتَّى تجاه الكونِ كلَّه وصولاً إلى النَّجم الأخير.

أنا لا أُشارك أحداً في شيء، ولم أفعل قَطُّ. وأظنَّنِي لن أكون قادراً على المشاركة في ذلك المفهوم المُنحطِّ الذي نكون بموجبه، نحن الأرواح، بجرَّدَ عواقب شيء ماديٍّ يُدعى الدِّماغ الذي يُوجَد منذ الولادة داخل مادَّة أُخرى تُدعى القِحْف. لا أستطيع أن أكون مادياً، كها يشي ذلك المفهوم على ما أعتقد، لأنَّني لا أستطيع إقامة صلة واضحة - أقصدُ صلة بصريَّة بين كتلة رماديَّة مرتيَّة أو أيِّ مادَّة ملوَّنة أخرى وبين الد «أنا» التي ترى، من وراء عينيَّ، السَّموات فتتأمَّلُها وتتخيَّلُ سهاوات أخرى غير موجودة. ولكن، حتَّى لو لم أستطيع الوقوع بتاتاً في شَرَكِ افتراضِ أنَّ هذا الشَّيء هُو ذاتُه ذلك الشَّيء لمجرَّد أنَّها موجودان بكلِّ بساطة في الكان ذاته، كمثل جدار وظلِّي الذي يسقط عليه، أو افتراضِ أنَّ علاقة بين الرُّوح والدِّماغ هي أكثر منطقيَّة من علاقة بيني، في أثناء رحلتي إلى العمل، وبين العربة التي أركبُها، لكنَّتي ما ذلتُ أومن بوجود علاقة حيمة بين التي هي روحٌ نقيَّةٌ فِيْنَا وما هُوَ جسدٌ وأنَّ هذه العلاقة يمكن أن تتفاقم فتنشب بينهما النَّزاعات. وتشبه هذه النِّزاعات تلك التي يسعى فيها الطَّرفُ يمكن أن تتفاقم فتنشب بينهما النَّزاعات. وتشبه هذه النِّزاعات تلك التي يسعى فيها الطَّرفُ المُفرِّطُ في ابتذاله إلى مضايقة الطَّرف الأقلِّ ابتذالاً.

رأسي يوجعني اليوم، لعل معدي موطن ذلك الوجع، ولكنَّ الوجع، بمجرَّد أن تقترحه معدي على رأسي، سوف يقطع أيَّ تأمُّلات دائرة خلف حقيقة أنَّني أمتلكُ دماغاً. لو غطَّى أحدهم عينيَّ، فسوف يحرمني لبعض الوقت من الرُّؤية، لكنَّه لن يُعميني، غير أني أجدُ، في هذه اللَّحظة التي يوجعني فيها رأسي، المشهدَ الحاليَّ الرَّتيب والعبثيَّ للعالمَ الموجود خارجي يفتقرُ، تمامَ الافتقار، إلى القيمة أو الرِّفعة إلى درجة أنَّني لا أكاد أستطيع تصوُّرَهُ على أنَّه العالمَ. وأسي يوجعني، وهذا يعني أنَّني واع بالإهانة التي يوجهها إلى العالمَ الماديُّ، ولأنَّها تزعجني، مثل جميع الإهانات، فإنَّني أشعرُ بالميل إلى أن يكون مزاجي سيئاً مع الجميع، بمَن في ذلك

الشَّخص الأقرب إليَّ، حتى لو لم يكُن هو الذي أهانني.

رغبتي الوحيدةُ أن أموت، لبعض الوقت على الأقلّ، ولكنّ هذه الرّغبة، مثلما قلتُ، ليستْ إلّا لأنّ رأسي يوجعني. ثُمّ يخطر ببالي، فجأة، في هذه اللّحظة، كيف سيصوغُ هذا كلّه، على نحو أفصح، أحدُ كتّاب النّثر العظام. لا بُدّ أنّه سيفضٌ، عبارةٌ إثرَ عبارةٍ، الألمَ المجهول للعالم كلّه، فتتجلّ أمام نظريه فقراتٌ مُلهَمة تستحضرُ جميع الأعال الدراميّة البشريّة الأرضيّة، ثُمّ يصوغُ، عبر اضطِّراب صُدعَيْه المحمومين، فلسفة غيبيّة كملة عن الشّقاء. بيد أني أفتقرُ إلى الفصاحة الأسلوبيّة. رأسي يوجعني لأنّ رأسي يوجعني. والكونُ يوجعني لأنّ رأسي يوجعني. والكونُ يوجعني لأنّ رأسي يوجعني. ولكنّ الكونَ الذي يوجعني حقاً ليس هُوَ الكونُ الذي يُوجَد لأنّه رأسي يوجعني، ولكنَّ الكونَ الذي يُوجَد لأنّه لا يعرف أنّني موجودٌ، وإنّا الكونَ الذي هُو كوني، الذي، لو مررتُ أصابعي في شعري، فسوف يبدو أنّه سيجعلني أشعرُ بأنّ كلَّ شعرة في رأسي تعاني كي تجعلني أعاني فحسبُ.

379

[تحق 5 فبراير 1932]

ما أشعرُ به فوق كلِّ شيء هُوَ التَّعب والقلَق الذي هُوَ توامُّ التَّعب حين لا يكون ثمَّة سببٌ لوجوده غير حقيقة الوجود نَفْسه. أتوجَّسُ خِيفةٌ من الإيهاءات التي لم أقُم بها بَعْدُ، وأخجلُ على الصَّعيد الفكريِّ من الكلمات التي لم أنطقها بَعْدُ. فكلُّ شيء محكومٌ عليه بالتَّفه هِ سَلَفاً. السَّأمُ الذي لا يُطَاق لكلِّ هذي الوجوه، البلهاء الفطِنة أو التي تفتقر إلى الفِطنة، الشَّنيعة حَدَّ الغثيان في سعادتها أو تعاستها، المرعبة في حقيقة وجودها المجرَّدة، التي ليستُ إلَّا مُجرَّد منفصل من أشياء حيَّةٍ غريبة عني تماماً...

380

[16 مارس 1932]

مرَّت شهورٌ منذ آخر مرَّة كتبتُ فيها أيَّ شيء. لقد كان وعيي خاملاً فعشتُ كأنَّني شخص آخَر. لطالما انتابني إحساسٌ بسعادةٍ هي سعادة شخص غيري، فأنا لم أُوجَد بَعْدُ؛ لقد كنتُ شخصاً آخَر فعشتُ غافلاً عن كلَّ شيء.

لكنّني عُدتُ إليَّ اليومَ فجأةً أو إلى ما حلمتُ أنَّهُ أنا. كان ذلك في لحظة تعب شديد غمرني بعد إنجاز مهمَّة عقيمة بعض الشَّيء، أرحتُ رأسي في يديَّ، ومرفقاي على المنضدة المائلة العالية. ثُمَّ، وأنا أغمض عينيَّ، عثرتُ على نَفْسي ثانيةً.

تذكَّرتُ، في تَنَائِي ذلك النَّوم الباطل، كلَّ شيءٍ كُنتُهُ، ثُمَّ، فجأةً وبكلِّ الوضوح الذي يتمتَّع به منظر طبيعيُّ حَقُّ، تَجلَّى أمامي هُنَاك، الجدارُ الطَّويل للمزرعة القديمة، فرأيتُ إذَّاكَ، في غمرة تلك الرُّؤية، أرضَ البَيْدَر الخاوية.

انتابني على الفور إحساسٌ بعبثيَّة الحياة وعقمها. فاختلطت فِيَّ الرُّؤيةُ والشُّعور والتَّذكُّر والنَّسيان، بعضُها في بعض، رفقةَ وجع خفيف في مرفقيَّ والهمهماتِ المتشظَّية المنبعثة من الشَّارع في الأسفل والأصواتِ الباهتة للعمل اليوميِّ الثَّابت الدَّاثر في المكتب الهادئ.

وحين أرحتُ يدي على المنضدة ثانية ، طاش بصري من حولي بها لا بُدَّ أنَّه الذي قد كان التَّعبَ الرَّهيب لِعَوالم طالَ عليها الموتُ ، فكانَ أوَّل شيء رأته عينايَ ذبابة زرقاء (هذا جاثمة فوق محبري (ذلك الطَّنينُ الغامض الذي كان يتعالى غريباً على الجُلَب الأخرى المتعالية في المكتب!). تأمَّلتُ تلك الذَّبابة المجهولة اليَقِظة على أنَّه قادمة من قاع الهاوية. كانت ألوانها الضَّاربة إلى الأخضر البرَّاق والأزرق المُسْوَدِّ مُنفَّرة على نحو غريب، لكنَّها ليستُ بشعة. لقد كانت الحياة!

ربًّا تُوجَد قوى عُلويَّةً، آلهةُ الحقيقة أو شياطينها؛ الحقيقة التي نهيمُ على وجوهنا في ظلالها؛ الحقيقة التي لستُ أنا إلَّا ذبابة برَّاقة تستريحُ لحظة أمام تحديقة آلهتها أو شياطينها. ملاحظة بسيطة؟ تعليق مُبتذَل؟ فلسفة بلا فِكر أصيل؟ ربَّا، باستثناء أنَّني لم أُفكِّر في الأمر فحسب: لقد شعرتُ به. وعقدتُ هذه المقارنة المُضحكة، على نحو مباشر، بكلِّ ذرَّة في كياني، يعتريني إحساسٌ غامض بالرُّعب. فحين قارنتُ نَفْسي بالذَّبابة كنتُ ذبابة. شعرتُ أنَّ نَفْسي قد باتَتْ ذبابة حين تخيَّلتُ أنَّني شعرتُ بذلك. شعرتُ أنَّ لي روح ذبابة، فذهبتُ إلى النَّوم مثل ذبابة، وشعرتُ نَفْسي حبيسة في جسد ذبابة. بَيْدَ أنَّ الرُّعب الأعظم كان كامناً في أنَّني كنتُ في وشعرتُ نَفْسي. نظرتُ إلى السَّقف، دونَ أن أدري، كي أتيَّقن بعدم وجود كائن عُلويً الوقت ذاته نَفْسي. نظرتُ إلى السَّقف، دونَ أن أدري، كي أتيَّقن بعدم وجود كائن عُلويً يحمل مسطرة ليسحقني مثلها أستطيعُ سحق ذبابة. لكنَّني حين نظرتُ ثانيةً، كانتِ الذَّبابة

⁽المترجم) Bluebottle (وفي البرتغاليَّة: mosca varejeira): ذبابة منزليَّة كبيرة ذات بطن آزرق. (المترجم)

قد تلاشَتْ، لِحُسن الحِظِّ، دون أدنى صوت. وكان المكتبُ قد مُحرِمَ، ضدَّ إرادته مرَّة أخرى، من الفلسفة كلِّها.

381

[28 مارس 1932]

يُحوِّمُ فوق سطح تعبي الضَّوءُ الذهبيُّ ذاتُه الذي نراه فوق الماء حين تهجرهُ الشَّمس الغاربة. أرى نَفْسي وتلك البحيرة المُتخيَّلة، فلا ألمح فيها إلَّا نَفْسي. لا أعرفُ كيف أُفسِّرُ تلك الصُّورة أو ذلك الرَّمز أو تلك «الأنا» التي أتخيَّل أنَّها ستكون نَفْسي. غير أني على يقين بأنّني أرى، كأنَّني أستطيع أن أراها حقاً، شمساً تغربُ خلف التِّلال، وترمي ضوءاً محتضراً على البحيرة التي تتلقَّاهُ على شاكلة ذهب معتم.

إحدى مخاطر التفكير أن ترى وأنت تفكر، فأولئك الذين يُفكِّرون بعقولهم يميلون إلى أن تسرح أذهانهم، والذين يُفكِّرون بعواطفهم نائمون، والذين يُفكِّرون بإرادتهم ميتون. لكنَّني أُفكِّر بمخيِّلتي، فيتحوَّلُ كلُّ شيءٍ فِيَّ؛ كلُّ ذلك الذي لا بُدَّ أنَّه منطقٌ أو حزنٌ أو غريزةٌ، إلى شيءٍ بعيد أو لامُبالٍ في وليجة نَفْسي، مثل تلك البحيرة الميِّتة القابعة بين الصُّخور التي يُحوِّمُ فوقَها آخرُ شعاع شمس يتلكاً.

ولأَنْنِي توقَّفتُ، اهتزَّتِ المياهُ. ولأنَّني فكَّرتُ، تقهقرتِ الشَّمسُ. أغمضُ عينيَّ المُّنَاقِلتَيْن الطَّافحتَيْن بالنَّوم، ولا شيءَ فِي إلَّا أرض بحيراتٍ حيثُ راحَ اللَّيلُ يكفُّ عن كونه النَّهارَ في بركة بُنِّية غامقةٍ من مياهٍ تطفو عل سطحها أعشابُ خضراء.

ولأنَّني أكتبُ، لا أتكلُّمُ. وانطباعي أنَّ كلَّ موجودٍ يُوجَدُ في أرضٍ أخرى خلف النِّلال، وبأنَّه تُوجَدُ رحلاتٌ عظيمة لا بُدَّ أن نشرع فيها لو امتلكنا روحاً كافيةً للقيام بتلك الخطوات الأولى.

توقَّفتُ، كالشَّمس في منظري الطَّبيعيِّ، فكان كلُّ الذي تبقَّى عَمَّا قِيلَ، أوشُوهِدَ، ليلٌ معتم طافحٌ بوهج البحيرات الميِّت، فوق سهلٍ، بلا بطُّ بريِّ، ميِّتٍ، وسيَّالٍ، ورطبٍ، ومشؤوم.

ر 2 مايو 1932]

لا أنامُ أبداً: أعيشُ وأحلمُ أو بالأحرى أحلمُ وأنا أعيشُ وأنامُ، فالنوم أيضاً حياةً. لا يتوقّفُ وعيي: أُحسُّ بها هُو حولي حتَّى حين لا أنامُ تماماً أو لا أنام جيداً. أبداً في الحلم بمجرَّدَ أن أغطَّ في النوم، إنني فيضٌ أبديٌّ من صور مترابطة وغير مترابطة –أتنكَّرُ دائهاً في هيئة شيءٍ خارجي – يحولُ بين البشر والضَّوء إنْ كنتُ مستيقظاً، أو بين الأشباح والعتمة المرتيَّة إنْ كنتُ نائهاً. لا أعرفُ، حقَّ المعرفة، كيف أُميَّزُ بين الحالتَيْن، ولا أجرؤُ على تأكيد أنني لستُ على وشك الاستيقاظ حين أكون نائهاً. الحياةُ مثل كرة من الصُّوف شابك خيوطها، بعضها ببعض، شخصٌ ما. سيكون ثمَّة منطقٌ لو خُلَّتْ وفُرِدَتْ على طُولها، أو أُنَّتْ كها يتوجَّبُ. ولكنَّها، مثلها هي، معضلةٌ لم منطقٌ لو خُلَّتْ وفُرِدَتْ على طُولها، أو أُنَّتْ كها يتوجَّبُ. ولكنَّها، مثلها هي، معضلةٌ لم

أشعرُ في هذه اللَّحظة بها سوف أكتبُهُ لاحقاً، فلقد حلمتُ على الفور بالعبارات التي سوف أستخدمها؛ أُحسُّ عبر هذا اللَّيل، الذي يختلطُ فيه النَّوم باليقظة، بالمناظر الطبيعيَّة للأحلام الغامضة وضجيج المطر المنهمر في الخارج الذي يجعلها أشدَّ غموضاً. إنَّها ظُنُونُ نشأتُ في الخواء، مرتعشة على شفير الهاوية، يتقاطرُ من خلالها، على نحو عبثيِّ، الصَّوتُ الهادر للمطر الذي لا يكفُّ في الخارج؛ الصَّوت الذي هُوَ التَّفصيلةُ الوحيدة الوفيرة للمنظر الطبيعيُّ؛ منظرِ كلُ ما يُسمَع، الأمل؟ كلَّ. حزنٌ مائيٌّ، تحملهُ الرِّيحُ، ينهمرُ من السَّماء المحتجبة، أواصِلُ نومن.

يتجشُّم أحدٌ عناءَ أن يلفُّها كُرةً، وبَلبلةٌ لا مكانَ تمضي إليه.

لا ريب أنَّ المَاساة التي وُلِدَتْ منها الحياةُ قد حدثَتْ على امتداد ممرَّات المُتنزَّه. كان ثمَّة مخلوقان، جميلان على حدِّ سواء، رغبا في أن يكونا شيئاً آخَر؛ كان الحُبُّ ينتظرهما بعيداً في المستقبل المُمِلِّ والحنينِ إلى ما سوف يصل بوصفه طفل الحُبِّ الذي لم يشعرا به قطُّ. هكذا، تحت ضوء القمر في الغابة الغريبة - لأنَّ الضوء قد تقاطر عبر الأشجار - سوف يمشيان، يداً بيد، ولا يشعران بأيِّ رغبة أو أمل، عبر صحواء الممرَّات المهجورة. كانا مثل طفليْن، ليس بيد، ولا يشعران بأيِّ رغبة أو أمل، عبر صحواء الممرَّات المهجورة. كانا مثل طفليْن، ليس بيّلًا، لأنَّها لم يكونا طفليْن تماماً. ثمَّ راحا يتمشيّان، من ممرِّ إلى ممرَّ، مُظلَّليْن مثل قُصاصاتِ بين الشّجر، في مسرح تلك الأرض الحرام. وهكذا، أشدَّ قُرباً وأكثرَ افتراقاً، اختفيا خلف بين الشّجر، في مسرح تلك الأرض الحرام. وهكذا، أشدَّ قُرباً وأكثرَ افتراقاً، اختفيا خلف

الينابيع، وصوتُ المطر الرَّقيق -الذي توقَّف أو يكادُ- هُوَ، في هذي اللَّحظة، صحبُ الينابيع الينابيع وصوتُ المطر الرَّقيق -الذي كان حُبَّهما، ولهذا أستطيعُ سماعهما في هذا اللَّيل الأَرِق، ولهذا أنا قادرٌ على العيش تغمر في التَّعاسة.

383

[15 مايو 1932]

لا شيء تشتدُّ وطأتُهُ، ثقيلةً جداً، على المرء كمثل مودَّة الآخَرين، ولا حتَّى الكراهية، فالكراهية مُتقطِّعة أكثر من المودَّة، ذلك أنها تنزعُ بالفطرة، لكونها عاطفة بغيضة، إلى أن تكون أقلَّ حضوراً بين أولئك الذين يشعرون بها. ولكنَّ الكراهية والحُبَّ شعوران مُستبدًان على حدًّ سواء، فهما يُفتَشان عَنَّا، معاً، فيقتفيان آثارَنا ولا يتركاننا وحدنا البتَّة.

سيكون مثالي الأعلى أن أعيش كلّ شيء كها لو في رواية، وأن أعيش الحياة بوصفها مكاناً أستريح فيه - أن أقرأ عواطفي، وأن أعيش از درائي لها. فمغامراتُ بطل إحدى الرّوايات تمدُّ أولئك الذين يتمتّعون بمخيِّلة ذات حساسية عالية، بمتعة كافية تماماً، ولاسيّما أنّ تلك المغامرات هي مغامراتُه ومغامراتُنا في آن معاً. لا مغامرة أعظم من أن تكون قد عشقت اللّيدي ماكبث حقاً وصراحة، فهاذا عسى مَن ذاق مثل ذلك العشق أن يفعل، في هذه اللّيدي ماكبث حقاً وسراحة، فهاذا عسى مَن ذاق مثل ذلك العشق أن يفعل، في هذه اللّيطة، سوى أن يستريح وألّا يعشق أحداً على الإطلاق في الحياة الحَقّة؟

لا أعرف ما جدوى هذه الرِّحلة التي أُجبرتُ على القيام بها بين ليل وآخَر، رفقة الكون كُنِّهِ. أعرف أنَّني أستطيعُ القراءة كي أُشتَّتَ نَفْسي. إنني أعدُّ القراءة الطَّريقة الأبسط لعبود هذه الرِّحلة وأيِّ رحلة أخرى، فأرفعُ عينيَّ، بين فينةٍ وأُخرى، عن الكتاب الذي أختبرُ فيه عواطف حَقَّة، لأرى، مثل غريب، المنظرَ الطَّبيعيَّ يطيرُ بالقُرب منِّي -الحقول، والبلدات، والرِّجال والنِّساء، والعواطف والحنين إلى أشباء مفقودة وهذا بالنِّسبة إليَّ مجرَّد مشهلِ واقعيِّ من المشاهد التي أراها في رُقادي، وتشتُّتِ يَقِظٍ أُريحُ عينيَّ عليه من تلك الصَّفحات المقروءة على نحو شديد الوطأة.

ما نحدمُ به هُوَ ما نحنُ عليه حقاً، وكلُّ شيء آخر، بسبب الحقيقة البسيطة التي تقول إنَّه موجودٌ، ينتمي إلى العالمَ وإلى كلِّ شخص آخر. لو قُدِّرَ أن أُحقِّق حُلماً في الحقيقة، فسوف

أغارُ منه، لأنّه خانني بالسّماح لنَفْسه بأنْ يتحقّق. يقول الإنسانُ الضّعيف: «لقد حقّقتُ أحلامي كلّها»، ولكنّ تلك كذبة، فالحقيقةُ ألّهُ قد حلمَ على نحو نبوئيّ بكلّ شيء حقّقته الحياةُ من خلاله. نحن أنفُسنا لا نحقّق شيئًا، فالحياةُ تقذفنا ببطء كالحجر في الهواء، لنقول ونحن نطيرُ: «أترى، إنّني أتحرّك».

لائِدَّ لهذا الفاصل المسرحيِّ الدَّائر تحت ضوء الشَّمس السَّاطع والنُّجوم اللَّامعة أن يعرف، بصرف النَّظر عمَّا يكونُ، أنَّه مجرَّد فاصل، ليس إلَّا؛ فإنْ كانت الحياةُ هي التي تكمنُ خلف أبواب المسرح فسوف نعيشُ؛ وإنْ كان الموتُ فسوف نموتُ، والمسرحيَّةُ حينئذِ لا تليقُ.

ولهذا لم أشعر قَطُّ بأنّني شديدُ القُرب من الحقيقة، وأنّني أكثر انهاكاً فيها تماماً، أكثر ممّا شعرتُ في تلك المناسبات النّادرة حين ذهبتُ إلى المسرح أو السّيرك: أعرف، إذّاك، أنّني سوف أشهد، في النّهاية، تمثيلاً متقناً للحياة. والممثّلون والممثّلات، والمهرّجون والسّحرة، مجرّدُ أشياء عقيمة مُهمّة على شاكلة الشّمس والقمر، والحُبّ والموت، والطّاعون، والمجاعة والحرب، بالنّسبة إلى بني البشر، كلُّ شيء مسرحٌ. وإذا أردتُ الحقيقة، فسوف أواصل قراءة هذي الرّواية...

384

[23 مايو 1932]

لا أعرفُ ما الوقت، ولا أعرفُ ما الطَّريقة الحَقَّةُ، إنْ كان ثمَّةَ طريقة، لقياسهِ. أعرفُ أَنَّ الطَّريقة التي تقيسُ فيها السَّاعةُ الوقتَ باطلةٌ: فهي تُقسِّمُ الوقتَ مكانياً، مِن خارجه. وأعرفُ أنَّ الوقتَ الذي تحفظه العواطفُ باطلٌ أيضاً: فهي لا تُقسِّمُ الوقتَ وإنَّما الإحساس بالوقت. ووقتُ الأحلام كذلكَ خاطئٌ؛ نحن نمشُ الوقتَ مساً رقيقاً حين نعبرُه، بطيئين أحياناً ومسرعين في أحايين أُخرى، فيغدو الذي نختبره إمَّا بطيئاً، وإمَّا سريعاً، وفقَ الطَّريقة الفريدة التي يتدفَّقُ فيها الوقتُ، وهي سيرورةٌ لا أفهم طبيعتَها.

يخطر ببالي أحياناً أنَّ كلَّ شيء باطلٌ، وأنَّ الوقت مجرَّد إطار يُستخدم للإحاطة بأيِّ شيء غريب عن نَفْسه. فالوقتُ، في ذكريات حياتي الماضية، مُنظَّمٌ وفَّنَ درجات ومستويات عبثيَّة، حتَّى أكون يافعاً في الخامسة عشرة، في طورٍ من أطوار حياتي، وطفلاً محاطاً بألعابي، في طور

أَفكَرُ فِي تلك الأشياء التي تزدادُ حيرةُ وعيي بشأنها. أُحسُّ بوجود خطأٍ في ذلك كلُّه؛ ولكنَّني لا أعرفُ أين يكمن ذلك الخطأ، كأنَّني كنت أشاهد حيلةً سحريَّة. ولأنَّني أعرف أنَّها حيلةً، فقد أدركتُ أنَّني قد تعرَّضتُ للخداع، لكنَّني لا أستطيع فهم آليَّات الخداع أو براعتها الفنيَّة.

ثُمَّ اجتاحتني أفكارٌ لا أستطيع رفضها تماماً على الرَّغم من عبثيَّتها. أتساءلُ إنْ كان الذي يتأمَّلُ برويَّةٍ، داخل سيَّارة مسرعةٍ سرعةً فائقة، يتحرَّكُ بسرعة أو على نحو بطيء. وأتساءلُ إِنْ كَانَ الذي ينتحرُ، مُلقياً نَفْسه في البحر، يسقط بالشُّرعة ذاتها التي ينزلتُ فيها شخص على أرضيَّة المُتنزَّه فحسب. وأتساءل إنْ كانت ثلاثةُ أفعال تحدث في الوقت ذاته -تدخيني لسيكارةٍ، وكتابتي هذه الفقرة، وتفكيري بتلك الأفكار العبثيَّة - متزامنةً حَقاً.

يستطيع المرءُ أن يتخيَّل أنَّ دولاباً، من بين دولابَيْن يدوران على المحور ذاته، سوف يسبقُ أحدهما الآخَر دائهًا، حتَّى ولو بجزء من الملِّيمتر فحسب. ويعمل المجهر على تضخيم تلك الإزاحة المكانيَّة إلى الحَدِّ الذي يجعلها غير قابلة للتَّصديق، ومستحيلة، لولم تكُن حقيقيَّةً. لمذا لا يكون المجهر أصحَّ من بصرنا الكلير؟ وهل هذه مجرَّد أفكار عقيمة؟ إنَّها كذلك بالطَّبع. هل هي مجرَّد أوهام الفِكر؟ لا ريب في ذلك. ما هذا الشَّيء، إذن، الذي يقيسَّنَا بلا قياس ويقتُلنا على الرَّغم من أنَّه هُوَ نَفْسُهُ غير موجود؟ لا أختبر الوقتَ كشخص، إلَّا في أوقاتَ كهذه، حين أشكُّ في وجود الوقت، فيخامرني شعورٌ بأنَّني ذاهبٌ إلى النَّوم، ليس إلَّا.

385

[31 مايو 1932]

لم ألحظ قدومَ الرَّبيع، للوهلة الأولى، في الحقول الفسيحة أو الحدائق الكبيرة. كان ذلك في الأشجار القليلة المثيرة للشَّفقة، النَّامية في ساحة مدينة صغيرة. يبدو الأخضر البرَّاقُ هُنَاكَ وكأنه عطيَّة، وهو مثير للبهجة كنوبةِ حُزنِ شَفِيفٍ.

أُحبُّ هذه السَّاحات المتوحِّدة المتناثرة بين الشُّوارع الهادئة، والتي هي في حدِّ ذاتها هادئة وغير مزدحمة. إنَّها أشياء تنتظرُ، ومساحات خالية وسط جُلَبٍ بعيدة. إنَّها بقايا حياة قرويَّة

تكابد كي تظلُّ على قيد الحياة في قلب المدينة.

أمضي ماشياً في الشَّوارع التي تفضي إلى السَّاحة، ثُمَّ أعود أدراجي كي أرى السَّاحة ثانيةً. إنَّها مختلفة حين تُرَى من الطَّرف الآخر، ولكنَّ الهدوءَ ذاته يغمر الطَّرف الذي لم أره من قَبْلُ بحنين فجائيًّ.

كلُّ شيء عبثيٌّ، وهذا ما أشعرُ به. لقد نسيتُ كلَّ شيء عشتُهُ كها لو كان شيئاً تناهى إلى مسامعي صُدفةً، لا أكثر. وليس ثمَّة أثرٌ في ذاكرتي لما سوف أكونُهُ هُنَاك، كأنَّني قد عشتُ ثُمَّ نسيتُ.

غروبُ شمس طافحٌ بأحزان مُرهفَةٍ يحومُ غامضاً من حولي. كلُّ شيءٍ يبردُ، ليس لأنَّهُ باردٌ حقاً، بل لأنَّني مَشَيْتُ، بكلِّ بساطةٍ، في شارع ضيِّق ولم أَعُد أُبصِرُ السَّاحةَ من جديد.

(345) 386

[7 يونيو 1932]

قال أَمْيِل (الله الله الله الله الطبيعي حالة ذهنية ، بيد أن هذه العبارة البهيجة قد صاغها على نحو يفتقرُ إلى الدِّقة حالمٌ فاترُ الهِمَّة. فالمنظرُ الطبيعيُّ منظرٌ طبيعيٌّ ولا يمكنُ أن يكون حالة ذهنيَّة. ولا بُدَّ للمرء ، كي يكون قادراً على التَّجسيد ، أن يكون قادراً على الخَلْق ، فلا أحدَ يقول إنَّ القصيدة المُكتملة هِي حالةُ التَّفكيرِ في كتابة قصيدة . قد تكون الرُّوية أن نحلم يقول إنَّ القصيدة المُكتملة هي حالةُ التَّفكيرِ في كتابة قصيدة . قد تكون الرُّوية والحُلم . ولكن ، لكنّنا نستخدم كلمة الرؤية » عوضاً عن كلمة الحُلم » الأَننا نُفرَّقُ بين الرُّوية والحُلم . ولكن ، ما جدوى هذه التَّامَّلات في سيكولوجيَّة الكلمات ؟ فالعشبُ ينمو ، مستقلاً عني تماماً ، والمطرُ يروي العشبَ النَّامي والشَّمسُ تُحيلُ حقلَ العُشب الذي نها ، أو الذي سوف ينمو ، والمطرُ يروي العشبَ النَّامي والشَّمسُ تُحيلُ حقلَ العُشب الذي نها ، أو الذي سوف ينمو ، الى ذهب . ولقد كانت الجبالُ هُنَاكُ منذُ الأزمنة السَّحيقة ، ويبدو صوتُ الرِّيح التي حبَّ في هذه اللَّحظة كأنَّه صوت الرِّيح التي هبَّتْ من أجل هوميروس (حتَّى لو لم يكُن موجوداً على الإطلاق) . سيكون من الأصوب القول إنَّ الحالة الذَّهنيَّة منظرٌ طبيعيٌ ، وهكذا تغدو هذه الإطلاق) . سيكون من الأصوب القول إنَّ الحالة الذَّهنيَّة منظرٌ طبيعيٌ ، وهكذا تغدو هذه

⁽³⁴⁵⁾ نُشر عذا النَّصُّ، أصلاً، في الصَّفحة التَّالثة، الصَّفحة الأدبيَّة (Pagina Literaria) من المجلَّد السَّابع والأربعين لصحيفة Revolução (=الثَّورة) موقعاً باسم يِسُوَّا الصَّريح، منسوباً إلى سوارش، رفقة إشارة إلى اللَّه مُقتطَف من كتاب القلَق. (المترجم) كتاب القلَق. (المترجم)

المقولة مميَّزةً بأنَّها لا تحوي بُهتاناً نظرياً وإنَّها حقيقة الاستعارة.

لقد أملَتْ عليّ هذه الكلمات الرَّحابةُ العظيمة للمدينة التي رأيتُها مضاءة بنور الشَّمس الكونيِّ، من أعلي سَوِّ بِيدُرُوْ ذَا أَلْكَنْتَرَة (٥٠٠)، وفي كلِّ مرَّة أنظرُ فيها، على هذه الشَّاكلة، إلى المنظر الطَّبيعيَّ الشَّاسع، مُحرِّراً تَفْسي من طُول قامتي البالغ مترا و 70 سنتيمترا و من الد 61 كيلوغراماً التي تكوِّن جسدي، أبتسمُ ابتسامة غيبيّة إلى أولتك الذين يحلمون بأنَّ الحُلم هو بحرَّد حلم ثُمَّ أعشقُ، بالفضيلة النَّبيلة التي وُلِدَتْ من الفهم، حقيقة العالم الخارجي المُطلق. ونهرُ تيجو الذي في الحلفيّة بحيرةٌ زرقاءُ والتِّلالُ على الشَّاطئ البعيد كأنَّها سويسرا وقد أقعتُ. قاربٌ صغير –قاربُ شحن بخاريُّ أسودُ – يغادر شواطئ بُوْشُوْدو بيشپو (١٩٠٥) صوبَ فم المصبِّ الذي لا أستطيع رؤيتَهُ من هُنَا. وحتَّى يكفَّ مظهرُ نَفْسي الخارجي عن الوجود، فم المصبِّ الذي لا أستطيع رؤيتَهُ من هُنَا. وحتَّى يكفَّ مظهرُ نَفْسي الخارجي عن الوجود، فم المَسبِّ الذي لا أستطيع رؤيتَهُ من هُنَا. وحتَّى يكفَّ مظهرُ نَفْسي الخارجي، وهذا الإحساس في المَّرة في هذه الفكرة الصافية المشرقة عن الحقيقة الخارجية، وهذا الإحساس بعدم أهميّتي، وهذا الشَّعور المُريح بكوني ضئيلاً وقادراً على تخيُّل أنَّني سعيد.

387

[11 يونيو 1932]

وما إن تلاشى الحَرُّ وراحتُ تشتدُّ زخَّات الأمطار الخفيفة الأولى كي تجعل أنْفُسَها مسموعة، حتَّى عمَّ الهواءَ هدوءٌ كان غائباً جرَّاءَ الحَرِّ السَّابق، سكينةٌ جديدة ملاها المطرُ نسياً من صُنعه. وكان الفرحُ البرَّاق الصَّافي للمطر النَّاعم على تلك الشَّاكلة، بلا عواصف أو سهاوات معتمة، حتَّى إنَّ الذين خرجوا بلا شمسيَّاتٍ أو ثياب واقية من المطر، كلَّ الذين خرجوا في الحقيقة أو يكادون، ضجُّوا بالضَّحك حين أسرعوا مُثر ثرينَ في الشَّوارع التي تلمعُ.

يمَّمتُ وجهي، في برهةٍ لم يكن لديَّ فيها شيءٌ أفعله، إلى النَّافذة المفتوحة في المكتب -كانت مفتوحةً بسبب الحَرِّ وتُركَث مفتوحة حين هَلَّ المطرُ - فرأيتُ حين نظرتُ إلى المشهد، تختلطُ فِيَّ اليقظة الشَّديدة باللَّامبالاة، المشهدَ الذي وصفتُهُ قبل أن أراهُ بالضَّبط. لا ريبَ

⁽³⁴⁷⁾ أنظر الحاشية 304، لمزيد من المعلومات. (المترجم)

⁽³⁴⁸⁾ Poço do Bispo (وتعني حرفياً: بئر الأَسْقُف): ميناء في شيال شرق لشبونة. (مترجم)

بِتِنَا أَنَّ فَرِحاً كَانَ يِمشِي فِي الشَّارِعِ مَتَخَفِّياً فِي هيئة شَخْصَيْنَ عَادِيَّيْنَ، يِتَحَدَّثَانَ ويبتسهان في المطر الرَّقيق غير مُسرعَيْن، وإنَّما يتمشَّيانَ بِحُفَّةٍ فِي الصَّفاء النَّقيِّ للنَّهارِ الذي يُعتِمُ.

ولكنَّ مفاجأةً كانت تنتظرُ عند زاوية الشَّارِع تماماً: بغتةً ظهر رجلٌ بائس فقيرٌ، ولكنَّه لم يكُن مسكيناً البتَّة، يشقُّ طريقه وقد طفح به الكيلُ، عبر المطر المُتراخي. كان هذا الرَّجل، الذي من الواضح أنَّه لم يخرج لقضاء حاجة عاجلة، قد عِيلَ صبرُهُ على الأقلِّ. تأمَّلتُهُ باهتهام بالغ، ليس بالعين السَّارحة التي ينظرُ بها المرُّ إلى الأشباء في العادة، وإنَّها بالعين التَّحليليَّة التي يدَّخرُها لفكُ شفرة الرُّموز. لم يكُن يرمز إلى أحد؛ ولهذا بدا في تلك العجلة من أمره. كان يرمزُ إلى أولئك الذين لم يكونوا أحداً على الإطلاق، وكان ذلك سببَ معاناته الأعمق. لم يكُن يسمي إلى أولئك الذين تبسَّموا أسفلَ بهجة المطر، وإنَّها إلى المطر نَفْسهِ - كاتنٌ غير واع، غيرُ واع إلى الحديد الذي لا يستطيعُ فيه الشَّعور بالحقيقة الواقعيَّة.

لَكنَّ ذلكَ ليس ما أردتُ قولَهُ. ثمَّة شرودٌ غامضٌ، أزمةٌ اللَّهُ بالرُّوح جعلتني عاجزاً عن الاستمرار، حالتْ بين أن أراقب ذلك العابر (الذي لم أعُد أراه حقيقةً، لأنَّني توقَّفتُ عن النَّظر إليه) والاصرة التي تربطني بهذه المُشاهدات. لكنَّني سمعتُ، دون أن أسمع، في خلفيّة شرودي، صوت العاملين في حجرة البريد في الطَّرف القصيِّ من المكتب حيث يبدأ المستودع، ثمَّ رأيتُ دون أن أرى، على الطَّاولة التي قرب النَّافذة التي تُطِلُّ على الباحة في غمرة الأصوات المُتندِّرة وطَقَّة المقصَّات، خيوطَ القُنَّب وهي تُلَفُّ حول الطُّرود المغلَّفة بورق بنيً، مرزومةً بعُقَدٍ مُزدوجَة.

لا يستطيعُ المرء رَوْيةَ إِلَّا ما قد رآةً.

388

[14 يونيو 1932]

لا أحدَ يفهمُ الآخَر. فنحنُ، مثلها قال الشَّاعرُ (349)، جُزُرٌ معزولةٌ في بحر الحياة؛ والبحرُ الذي يُعيِّنُ حدودَنا، ويفصلُنا عن بعض، يتدفَّقُ بَيْنَنَا. ولا تستطيع نَفْسٌ، مهما كابدتْ

⁽³⁴⁹⁾ يقصد الشَّاعر الإنگليزيَّ ماثيو آرنولد. في قصيدته «إلى مارغريت-استكيالاً لما بُدِه»: «نعم، مثل حُزُر نحنُ معزولونَ في بحر الحياة/ وسلالمُ تتردَّدُ أصداؤها مرميَّة بَيْنَتَا/ تتناثرُ فوق المياه الجامحة التي لا ضفاف لها/ نحن الملايين الفانين نعيشُ وحدَنا. ٤. (المترجم)

لتعرف نَفْساً أُخرى، إلَّا أن تحكمَ على الكلمات التي تُقَالُ؛ الكلمات التي هِيَ ظلَّ بلا شكلٍ على أرض فَهْمِنَا.

أُحبُّ جوامَّع الكَلِم لأنَّني لا أعرف ما تعنيه بتاتاً، فأنا كالفيلسوف والمُنجِّم لُوِي-كلود دو سان-مارتان(350): أُقنعُ نَفْسي بها مُنحَ لِي. أرى، وهذا وحده يكفي تماماً. فَمَن ذا الذي يستطيع فهمَ كلِّ شيء؟

وربَّما لأنَّني أرتابُ كثيراً في كلَّ ما هُوَ جَلِيٌّ حقاً، فإنَّني أنظرُ باهتمامٍ متساوٍ إلى الشَّجرة والوجه، واللُصَق الإعلانيِّ والابتسامة. (كلُّ شيء طبيعيُّ، وكلُّ شيء اصطناعيُّ، وكلُّ شيء أله على المُّاسيَّة إلىَّ، مرئيُّ تماماً، سواء أكان الأزرق الشَّاسعَ أمْ سهاءَ الصَّباح القدم التي يشوبُها الأخضرُ أمْ عبوسَ الألم الباطلَ الذي يعتري وجه شخص يُدرِكُ، وَهُوَ في حضرة موتِ عزيزِ على قلبهِ، أنَّ الأبصار شاخصةٌ إليه.

النَّقُوشُ وَالتَّصاويرُ والصَّفحات الموجودة وقد قُلِبَتْ... وقلبي ليس فيها، ولا حتَّى المِنْهِ ولا حتَّى المتهامي الذي يطوف عبر سطح الأشياء، تشبه ذبابةً فوق قصاصة من ورق.

فهلَ أعرفُ حتَّى أَنَني أشعرُ، وأفكِّرُ، وأُوجَدُ؟ لا شيءَ: ليس إلَّا خلاصة موضوعيَّة من ألوان وأشكال وانطباعات لستُ إلَّا مرآتها الدوَّارة - المعروضة للبيع.

389

[23 يونيو 1932]

الحياةُ رحلةٌ تجريبيَّة نشرع فيها كَرْهاً. إنَّها رحلةُ الرُّوح عبر العالَم الماديِّ، ولأنَّ الرُّوح هي الني ترحلُ، فإنَّها في الرُّوح تُختبَر. ولهذا تُوجَد أرواحٌ متأمِّلة عاشتُ أكثر جموحاً، على نطاق واسع، وأكثر صخباً من أرواح أخرى عاشتْ حيواتها من خارجها تماماً، فلا يُعتدُّ إلَّا

⁽³⁵⁰⁾ العبارة التي يستخدمها بِسُوَّا في الأصل هي: "Sou como o mestre de Saint Martin" (- أنا مثل مُعلَّم سانُ مارتان)، ولكنَّ جُول كوسَتا، تضيف، هُنا، عبارة "الفيلسوف والمُنجَّم"، بعد أن ذكرت اسم سان مارتان كاملاً، مارتان)، ولكنَّ جُول كوسَتا، تضيف، هُنا، عبارة "الفيلسوف والمُنجَّم"، بعد أن ذكرت اسم سان مارتان وإنَّما عن Louis-Claude de Saint Martin، مُعلِّمه مارتينز پاسكوالي Pasqually، ولاسيَّما أنَّ زينيث يذكر، في حواشي طبعته، أنَّ عبارة "أُقنعُ نَفْسي بها مَنحَ به التي يوردها بِسُوًا في الجملة التي تني ذلك، محويرٌ للعبرة التي قالها پاسكوائي حين سأله سان مارتان، في الفترة التي كان يقرأ فيها عليه العلوم الباطنيَّة ويتعلَّمُ منه أسرار الطُقوس: "هل ثمَّة كثيرٌ من الأشياء الصَّروريَّة لكون قادرين على الصَّلاة للرب، يا مُعلَّم؟". فأجاب پاسكوائي: "لا بُدَّ أن نقنعَ بها لديد". (المترجم)

بِالنَّتِيجِةِ النِّهَائيَّةِ، ولا يشعر المرء إلَّا بِهَا قد ذَاقَهُ وجرَّبِه. يخلد المرءُ إلى النَّوم وقد هدَّهُ النَّعب من الأحلام مثلها يخلدُ وقد بذل مجهوداً بدنياً شاقاً، فلا يعيش المرءُ البَّنَّة بالمشقَّة التي يعيشُ فيها حين يفكِّرُ ملياً.

الشَّخص الواقف بعيداً في زاوية الغرفة يرقص مع الرَّاقصين جميعاً. إنَّه يرى كلَّ شيء، ولأنَّه يرى، فهو يختبرُ كلَّ شيء. ما الرُّؤية في الحقيقة إلَّا مجرَّد شعور آخَر، فرؤية الجسد، أو حتَّى تذكُّره، لا تختلف بتاتاً عن الاحتكاك المباشر بذلك الجسد. وهكذا، حين أرى الآخرين يرقصون، فإنَّني أرقصُ أيضاً. أتَّفقُ مع الشَّاعر الإنگليزيِّ (351) الذي كتب، واصفاً كيف استلقى بعيداً في العشب يرقب ثلاثة جزَّازينَ يجزُّون العشب: «ثمَّة رجلٌ رابع يجزُّ العشب، وهذا الرَّابع أنا».

وهذا كلَّه، الذي أحكيه مثلها أشعرُ به تماماً، مرتبطٌ بالتَّعب الشَّديد الذي اجتاحني اليوم فجأة، بلا سبب واضح. لا أشعر بالتَّعب فحسبُ، وإنَّها بالمرارة، على الرَّغم من أنَّ سبب تلك المرارة غير معروف أيضاً. أشعر بمثل ذلك الكَرْب وأنا على وشك أن أذرف الدَّموع، الدموع التي سوف تظلُّ طَيَّ الكتهاد لَوْ لَمْ تُذرَف، الدموع التي تُولَدُ من سَقَمِ الرُّوح لا من رَبَّ الله و الله المَّوا الله و الله المُوا الله و الله المُوا الله و الله المُوا الله المُوا الله و الله المُوا الله و الله و

لقد عشتُ كثيراً دونَ أن أعيش، وفكَّرتُ كثيراً دونَ أن أفكر. أشعرُ بوطأة عوالم عُنفٍ لم يظهر إلى العلَن بَعْدُ، وطأة مجازفات وُلِدتْ ميَّتةً. سئمتُ عَمَّا لم أملكهُ قَطُّ وعَمَّا لن أملكه أبداً، سئمتُ الآلهة التي على وشك أن تُوجَد دائهاً. أحملُ على جسدي جروحَ جميع الحروب التي لم أخضها. عضلاتي متعبة من الجهود التي لم أُفكّر في بذلها على الإطلاق.

م الحصها. عصاري سببه من المهروسي المسلم التي في الأعالي إلى صيف ميّت، لم يكتمل قَطَّ. الهمّة، وخرساء، وخاوية ... تنتمي السَّماء التي في الأعالي إلى صيف ميّت، لم يكتمل قَطُّ انظرُ إليها كأنَّها لم تكُن هَنَاك. أُنوِّمُ ما أفكَّرُ فيه، وأستلقي حتَّى وأنا أمشي، وأعاني ولا أشعرُ انظرُ إليها كأنَّها لم تكن هَنَاك. أنوِّمُ ما أفكَّرُ فيه، وأستلقي حتَّى وأنا أمشي، وأعاني ولا أشعرُ الشيء حنيني العظيم إلى لا شيء بتاتاً، إنَّهُ لا شيء في حدِّ ذاته كالسَّماء في الأعالي التي لا أراها، والتي أنظرُ مُتجرِّداً إليها.

[16 يوليو 1932]

ثمَّة حزنٌ بهيجٌ في النَّقاهة، ولاسيَّما إنْ كان المرض السَّابيُّ قد أصاب الأعصاب. وثمَّة لمسة من خريف في عواطف المرء وأفكاره، أو بالأحرى يشعر المرء كأنَّة يومٌ من أيَّام الرَّبيع الباكر حين يبدو الهواء والسَّماء أقرب إلى الخريف لا الرَّبيع، باستثناء أنَّه لا أوراق أشجر تسقط بالطَّبع.

نذوقُ التَّعب البهيج ولكنَّ إحساسنَا بالسَّرَّاء يوجعُ قليلاً، ونشعرُ أَنَّنا مُبعدون عن الحياة على الرَّغم من أَنَّنا مانزال فيها، كأنَّنا نقف على شرفة منزل الحياة. نتأمَّلُ، لكنَّنا لا نُفكِّرُ في أيِّ أفكار، ونشعرُ، لكنَّنا لا نحس بأيِّ عاطفة تُحدَّدة، وتهدأ الإرادة لأنَّنا لم نَعُد في حاجةٍ إليها.

حينئذ فقط تعرجَ بأناةٍ، في مُرتقَى وعينَا، ذكرياتٌ محدَّدةٌ وآمال معيَّنةٌ ورغباتٌ عامضة أكيدةٌ، كرحَالةٍ بعيدين شُوهِدُوا من قمَّة الجبل. ذكرياتُ أشياء عقيمة، وآمالٌ ترنو إلى أشياء لم تتحقَّق قَطُّ فلم نَعُد نكتر ث بها بتاتاً، ورغباتٌ لم تكن عنيفة بطبعها ولا حتَّى في نيِّتها ولم تكن راغبة إطلاقاً في أن تكون على قيد الوجود.

وحين يأتي اليوم المناسب لمثل هذه المشاعر كاليوم، على الرَّغم من أنَّ الوقت مايزالُ صيفاً والسَّماء مُقلَّمة بالغيوم والرِّيحُ الخفيفة باردةُ لأنَّها لم تكُن دافئةً بكلِّ بساطة، تغدو تلك الحالة الذِّهنية أوضح ولاسيما الطَّريقة التي نفكِّرُ فيها، أو نشعر بها، أو نختبرُ عبرها تلك الانطباعات. وذلك لا يعني أنَّ ذكرياتنا أو آمالنا أو رغباتنا تكون أشدَّ وضوحاً، وإنَّما أشد حضوراً فحسب، وتغدو شِدَّةُ أجزائها جميعاً، بصرف النَّظر عن مدى عبثيّة ذلك، أقلَّ وطأةً على القلب.

[25 يوليو. 1932]

مصنّفو العالم، أولئك العلماء الذين تنحصرُ معرفتهم بقدرتهم على التّصنيف، يجهلون، بصفةٍ عامّة، حقيقة أنَّ القابلَ للتّصنيف لا نهائيٌّ، ولذلك فهو عصيٌّ على التّصنيف. لكنَّ أكثرَ ما يُثير دهشتي هُوَ أنَّهم لا يعرفون أيَّ شيء عن وجود شرائح مُعيَّنةٍ، مجهولة وقابلة للتّصنيف، أشياء الرُّوح والوعي التي تعيشُ في فجوات المعرفة.

وربَّما لأنَّني أُفكِّرُ كثيراً وأحلمُ كثيراً فلا أستطيع بكلِّ بساطة التَّمييز بين الحقيقة الواقعيَّة الموجودة وهذا فإنَّني أُقحم عبر تأمُّلاتي في السَّماء والأرض أشياء لا تلمعُ في الشَّمس ولا تُدَاسُ تحت الأقدام: العجائبُ السيَّالة للمُخيِّلة.

أُسربلُ نَفْسي بِذَهِبِ مغيباتِ شمسٍ مُتخيَّلة، بَيْدَ أَنَّ المُتخيَّلَ يعيشُ في المخيِّلة. وأُفرِّحُ نَفْسي بنسائم متخيَّلة، فالمتخيَّلُ يعيشُ حين يُتَخيَّل. تمَدُّني فرضيَّات مختلفة بروحٍ، و لأنَّ لكلِّ فرضيَّة روحها الخاصَّة، فإنَّ كلَّ واحدة تمنحني الرَّوحَ التي تملكها.

ثمَّة معضلة واحدة: الحقيقة الواقعيَّةُ، وأنَّها حيَّة وغير قابلة للحَلِّ. فها الذي أعرفه حول الفارق بين شجرة وحُلم؟ أستطيعُ لمسَ الشَّجرة، وأعرفُ أنَّي أمتلكُ الحُلم. فها الذي يَعنيه ذلك كله حقاً؟

ما الذي يعنيه؟ أن أكون قادراً على العيش وحيداً في المكتب المهجور، وأن أتخيّل دون الإساءة إلى بصيري. تستطيع أفكاري التّدفُّق دونَ أن يزعجها حضورُ المكاتب المهجورة وحجرة البريد بأوراقها وبكرات خيوطها القنّب. لقد تركتُ مقعدي العالي، ثمّ استلقيتُ في كرسيِّ مُورِيرًا ذي الدِّراعَيْن المُقوَّستَيْن، مستمتعاً سلفاً بحصولي على ترقيةٍ مفترضَة. ربّا في كرسيِّ مُورِيرًا ذي الدِّراعَيْن المُقوَّستَيْن، مستمتعاً سلفاً بحصولي على ترقيةٍ مفترضَة. ربّا هُو تأثيرُ المكن الذي يُمرِّخني ببلسم التَّجريد. هذه الأيّام القائظة تجعلني أنعس، فأنامُ بلا نوم لافتقاري إلى الطّاقة، ولهذا السّبب تراودُني هذه الأفكارُ،

[بعد 4 أغسطس 1932]

العالَمُ الخارجي مثلُ مُمثِّلٍ على خشبة مسرح: إنَّهُ هُنَاكُ ولكنَّهُ يتظاهرُ بأنَّهُ شيءٌ آخَر.

393

[28] سپتمبر 1932]

مَرَّ بعض الوقت، ربيًّا أيّامٌ وشهور، مُذ لاحظتُ أيَّ شيء، ولهذا لا أُفكِّرُ، فأنا غير موجود. لقد نسيتُ مَن أنا؛ ولا أستطيعُ الكتابةَ لأنَّني لا أستطيعُ أنْ أكُونْ. كنتُ، وقد أخذتني سِنةٌ من نوم مُتجَانِفٍ، شخصاً آخَر. ومعرفةُ أنَّني لا أستطيعُ أنْ أتذكَّر نَفْسي تُوقظُنِي.

يُغمَّى عليَّ من الحياة قليلاً. أعودُ إلى نَفْسي بلا ذاكرةٍ عمَّا كنتُ، وذاكرةُ الشَّخص الذي كُنتُهُ تعاني من ذلك الانقطاع. لا أعي إلَّا الفكرةَ المشوَّشة لهذا البرزخ المسيِّ، والجهودَ العقيمة التي بذلَتْها ذاكرتي للعثور عليَّ أنا الآخر. غير أني لا أستطيعُ جمع شتاتِ نَفْسي. فإنْ عِشتُ، فلقد نسيتُ كيف أعرفُ أنَّني عشتُ.

وليسَ أوَّل أيَّام الحزيف الحَقَّة هذا -أوَّل أيَّام البرد (التي حلَّتُ محلَّ تلك الأيَّام المعتدلة البرودة) والتي تُسَرِيلُ الصَّيف الميِّتَ بضوءِ أقلَّ - هُوَ الذي يجعلُنِي صفاؤُهُ الغريبُ أشعرُ بأنَّ طموحات ميِّتة أو نوايا باطلة تعتملُ فِيَّ. وليس الأثرُ اللَّتِسُ للذِّكرى العبثيَّة التي ينطوي عليها برزخُ الأشياء الضَّائعة هذا. إنَّهُ شيءٌ أشدُّ إيلاماً من ذلك كلِّه، إنَّهُ سأمُ محاولة تذكُّر ما لا أستطيع أن أتذكَّرَه، واليأسُ ممَّا ضيَّعَهُ وعيي بين طحالبِ شاطئ آخر مجهول وقصَبه. في أُدركُ، أسفلَ سهاء زرقاء لا لبسَ فيها وتحتَ ظلِّ أفتحَ من الأزرق الأعمِّ، أنَّ النَّهاد مُشرِقٌ وهادئ. أُدركُ أنَّ الشَّمسَ، التي هي أقلُّ ذهبيَّة بعضَ الشَّيء مَّا كانتْ عليه، تُذَهِّبُ الجدران والنَّوافذَ على حدِّ سواء بانعكاساتِ سيَّالة. أُدركُ أنَّ برودةً مُنعشة تحوم حول المدينة التي يغشاها السَّديمُ، على الرَّغم من عدم وجود ريح أو نسيم يُذكِّرُ بوجودِ الرِّيح أو يُنكِرُ التي يعشاها السَّديمُ، على الرَّغم من عدم وجود ريح أو نسيم يُذكِّرُ بوجودِ الرِّيح أو يُنكِرُ وجودِ الرِّيح أو يُنكِرُ وجودِ الرَّي هذا كلَّهُ، دون تفكير وبلا إرادة، فلا تنتابُنِي رغبةً في النَّوم، وإنَّا ذكرى تلك وجودَها. أُدركُ هذا كلَّهُ، دون تفكير وبلا إرادة، فلا تنتابُنِي رغبةٌ في النَّوم، وإنَّا ذكرى تلك الرَّغبة، ليسَ إلَّا، فلا أشعرُ بالحنين، لا أشعرُ إلَّا بالقلق فحستُ.

أُشْفَى من سَقَم لم يُصبني، عقيهاً وبعيداً. أُهيِّعُ نَفْسِم، وقد تأهَّتُ بعد أن استيقظتُ،

لا سوف أجرؤُ على ألّا أفعلُهُ. فأي نوع من النّوم كان ذاك الذي لم يجلب لي الرّاحة؟ وأي مُداعَبة تلك التي تُكلّمني؟ ويا لبهجة أن أتنشّقَ نَشْقَةً باردةً من ربيع مُسْكِرٍ فأكون شخصاً آخر! يا للبهجة التي هي أفضلُ من الحياة كثيراً، أن أكون قادراً على تخيّل أنّني شخصٌ آخر، في حين ينحني القصبُ بعيداً، في الصّورة المُتخيّلة وحتّى في غياب نسمة ربح، أخضرً أزرقَ على الشّاطئ.

وعندما أتذكّرُ الشَّخصَ الذي لم أكنهُ، أتخيّلُ نَفْسي في الغالب وقد عُدتُ فَتِياً فأنسى! فهل كانت مختلفة تلك المناظرُ الطَّبيعيَّة التي لم أرها قَطُّ؟ وهل كانت جديدة لكنَّها غير موجودة تلك المناظرُ الطَّبيعيَّة التي رأيتُها؟ ما جدوى ذلك؟ لقد بدَّدتُ نَفْسي في حوادث عارضة، في صُدوع، ولأنَّ برودة النَّهار وبرودة الشَّمس واحدة في هذه الأثناء، فإنَّ القصبَ المعتم قُربَ النَّهر نَائمٌ نومَهُ الباردَ في مغيب الشَّمس الذي أراهُ لكنَّني لا أملكُه.

394

[28 سپتمبر 1932]

لم يتفتّقُ ذهنُ أحدٍ عن تعريفِ للسّام بَعْدُ، ليس على الأقلِّ في لغة يفهمها شخص لم يلُق طعمَ السّام بَعْدُ. فيا يُسمّيهُ بعضُهم السّام ليس أكثر من ضَجَرٍ، ويستخدمُ آخرون الكلمة قاصدينَ توعُكا جسديًا بعينهِ، بَيّدَ أنَّ السّام لايزال، بالنّسبة إلى بعضهم، مجرَّد تَعبِ فحسبُ. ينطوي السّامُ على النّعب والتّوعُكِ والضَّجَر، ولكن على الشَّاكلة التي ينطوي فيها الماء على الهيدروجين والأكسجين اللَّذَيْن يتكوَّن منها؛ إنَّهُ يشتملُ عليها دون أن يشبهها. فإذا كان بعضهم يُضفي على السَّام إحساساً مُحدَّداً غير مكتمل، فإنَّ بعضهم الآخر يمنحهُ أهميّة سامية أو تكادُ، كمثل أن تُستخدَم كلمة "سأم"، على سبيل المثال، لوصف حالة الغثيان الرُّوحي العميقة التي تنتابُ المرءَ جرَّاء عشوائيّة العالمَ ولا يقينيّته. يجعلُ الضَّجرُ المرء بنناءب، ويجعلُ التَّوعُ اللَّوعَاتُ الجسديُّ المرءَ يتململ، ويحرمُ التَّعبُ المرءَ من الحركة بناتاً، بيدُ أنْ السَّام ليس أيَّ حالٍ من هذه الأحوال، وليس أيضاً ذلك الإحساس العميق بخواء الأشياء عيث تتصارع الطُّموحات المحبطة بحريَّة، إنه إحساسٌ من ثوق حرَّاقِ خائب الرَّجاء ينتابُ المرءَ فيبذرُ في الرُّوح البذرةَ التي يُولَدُ منها الصُّوفيُ أو القدِّيشُ.

نعم، السّامَ هُو الضَّجُرُ من العالم، والتَّوعُكَ الذي يصيبُ الجسدُ من البقاء على قيد الحباة، والتَّعبُ الذي يجتاحُهُ لكونه عاش؛ السَّامُ، في الحقيقة، أن يشعر المرَّ بأنَّ خواءَ الأشباء المُطلَق يسري في جسده. والسَّام أيضاً أكثر من ذلك كله؛ إنَّهُ الضَّجرُ من العوالم الأخرى، سواء أكانت موجودة أمْ لمَ تُوجَد بَعْدُ؛ التَّوعُكُ الذي يصيبُ الجسدَ من بقاته على قيد الحياة، حتَّى لو كان المرُّ شخصاً آخر، بحياة أخرى، في عالم آخر؛ تعَبُّ ليس من الأمس أو اليوم فحسبُ، وإنَّا من الغد أيضاً، تَعَبُّ من الأبديّة كلّها (إنْ كانتُ موجودة) ومن العَدَم كلهِ (إنْ كان هُوَ الأبديّةُ). وليس مجرَّد خواء الأشياء والكائنات الذي يُوجِعُ الرُّوحَ حين يغمرها السَّامُ، إنَّهُ خواء شيء آخر أيضاً، خواء الرُّوح التي تذوقُ ذلك الخواء فتشعر بِنَفْسها خاريةً، الحَواء الذي يستثيرُ إحساساً بقرفِ المرء مِن نَفْسه ونبذه إيَّاها.

السَّامُ إحساسٌ جسديٌّ مثيرٌ بالفوضي وحقيقة أنَّ الفوضي هي كلَّ شيء. فالضَّجِرُ، أو المُتعَبُ، يشعرُ بأنَّهُ رَهِينُ زنزانة صغيرة. ويشعرُ الذي قد ضاقَ ذرعاً مِن ضِين الحياة بأنَّه مُصفَّدُ في زنزانة كبيرة. لكنَّ الذي هجمَ عليه السَّامُ يشعرُ بأنَّهُ رهينُ حريَّةٍ عقيمة، في زنزانة لا تُحدُّد وقد تنهارُ جدران الزَّنزانة التي تحيط بالضَّجِر، أو المُكدَّر، أو المُتعَب، فتدفنه تحت أنقاضها. وقد تسقط الأصفادُ عن أطراف رهين المَحْبَسِ الذي ضاق ذرعاً من ضِيق العالم فتسمحُ لَهُ بأنْ يهرب؛ أو، حين يعجز عن تحرير نَفَّسه من تلك الأصفاد، فإنها قد تؤله، وربَّها تحيي تجربةُ ذلك الألم في نَفْسه شهوةَ الحياة. ولكنَّ جدران الزِّنزانة المُطلَقة لا يمكن أن تنهار وتدفننا تحت أنقاضها لأنها غير موجودة، ولا نستطيع أن نتذرَّع بالألم الذي سببته الأصفاد التي لم يضعها أحدٌ حول معاصمنا، بوصفه دليلاً على وجودنا.

هذه مشاعري وأنا واقف أمام الجهال الهادئ لهذا المساء الخالد الذي يحتضر. أنظرُ إلى السَّهاء الصّافية العالية، حيث أشكالٌ قرمزيَّة غامضة، كظلال الغيوم، هي الزَّغبُ غير المحسوس على أجنحة حياة بعيدة، ثُمَّ أنظرُ أسفلَ نحو النَّهر حيث المياه التي تلتمعُ قليلاً، ذات لون أزرقَ يبدو الصُّورة المنعكسة لسهاء أعمق، ثُمَّ أنظرُ إلى السَّهاء ثانيةً، فأرى بياضاً ثلجياً باهتاً في الهواء المحتجب بين الألوان الغامضة التي تنحلُّ دونَ أن تنحلُّ عاماً، كأنَّ توعُّكاً قد ألمَّ بالأشياء كلِّها في أعلى مستوياتها وأكثرها روحانيَّة؛ سأماً في المادَّة نَفْسها؛ إحساساً باستحالة بالأشياء كلِّها في أعلى مستوياتها وأكثرها روحانيَّة؛ سأماً في المادَّة نَفْسها؛ إحساساً باستحالة أن يكون شيءٌ هو مَا هُوَ عليه فحسب؛ آصرة من قلَق وخراب لا يمكن تصورُّرها.

ولكن، ماذا لوكان ثمّة؟ وأيُّ شيء آخر في الهواء إلَّا الهواء العالي، الذي هُوَ عَدَمٌ؟ وماذا في السَّاء سوى لونِ مُستعَار؟ وماذا في هذي الجُذاذات الصَّغيرة التي تكاد تكون غيوماً، والتي أشكُّ في وجودها، سوى ضوءٍ قليل مُنعكس نثرتهُ الشَّمسُ الخاضعة؟ وماذا في هذا كلَّه إلَّا نَفْسي؟ آهِ، ولكنَّ السَّام يكمنُ في ذلك، وفي ذلك فحسب. إنَّها حقيقة أنَّ في ذلك كلَّه -السَّاء، والأرض، والعالم - لا شيءَ البتَّة إلَّا نَفْسي!

395

[2 نوفمبر 1932]

سديمٌ أمْ دخان؟ هل اصَّاعدَ من الأرض أمْ تنزَّلَ من السَّماء؟ كان من المستحيل أن نعرف: كأنَّهُ أشبه بعدوى من الهواء أكثرَ من كونه انبعاثاً من الأرض أو تساقطاً من السَّماء. ويبدو في بعض الأحيان أَشْبَهَ بألم في العينَيْن أكثرَ من كونه حقيقةً من حقائق الطَّبيعة.

وكان قلَقٌ غامضٌ قد اجتاحَ المنظرَ الطَّبيعيَّ على بكرةِ أبيه، بصرف النَّظر عن حقيقة ذلك الشَّيء؛ قلَقٌ مِن نسيانِ وحقيقة واقعيَّةِ واهية. كأنَّ صمتَ الشَّمس العليلة قد ظنَّ جسداً ناقصاً أنَّهُ جسدُه. كأنَّ شيئاً، يُمكِنُ أن يُحسَّ في كلِّ شيءٍ، كانَ على وشك أن يحدث ولهذا أرخَى العالمُ المرئثُ حِجاباً على نُفْسه.

كان من الصَّعْب معرفة ما الذي يغطّي السَّاء - غيومٌ أم سديمٌ. كأنَّ سُبَاتاً كئيباً قد مَسَّهُ، هُنَ وهُنَاك، لونٌ قليلٌ، رماديٌّ غريب مُصفرٌّ، إلَّا حيثُ تشظَّى قُرمزياً أو أزرقَ باطلاً، ولكنَّ المرءَ لا يستطيعُ، حتَّى حينئذٍ، معرفة أكانتِ السَّاءُ تتجلَّى شفَّافةً من وراءهِ، أمْ مُجرَّد طبقةٍ من النَّرة قق

لم يكن ثمّة شيء أكيد، ولا حتى ما هُو عصيٌّ على أن يكون أكيداً. ولهذا كان المرء يشعرُ بميل إلى أن يُسمّي السّديم (دُخاناً)، فَهْوَ لم يَبّدُ كالسّديم، أو أن يتساءل ما الذي كانه، سديماً أم دُخاناً، لقد كان مستحيلاً أن يعرف. وكان دفء الهواء، في حدِّ ذاته، متواطئاً في إثارة هذه الرّيبة. لم يكن دافئاً، ولا بارداً، ولا فاتراً؛ بدا كأنّه يستمدُّ حرارتَهُ من شيء آخر غير الحرارة. لقد بدا، في الحقيقة، كأنّ السّديم كان بارداً على العينين ودافئاً حين يُمَسُّ، كأنّ البصر واللّمس كانا طريقتين مختلفتين للشّعور بالحاسّة ذاتها.

ولم تكُن ثمَّة ظلالُ الحوَّافِ والزَّوايا الحادَّة تلكَ التي تُضفيها الشَّدُم المتوانيةُ في العادة على الحواف الخارجيَّة للأشجار أو زوايا البنايات، ولم تكُن البناياتُ أو الأشجار حتَّى شِبْه جَلِيَّةٍ وشِبْه مُحتجبةٍ مثلها يتوقَّعُ المرء لو كان [السَّديمُ] دخاناً حقيقيّاً. كأنَّ كلَّ شيء قد انعكسَ حولَ ظلِّ نهاريٍّ غامض، ولكن دون أن يكون ثمَّة مصدرُ ضُوء قد يُنتجُ مثل ذلك الظلِّل، ولا أي سطح قد ينعكسُ عليه فنعرفُ أنَّنا لللكَ نراهُ.

لكنَّنا حَقّاً لم نَرَهُ، كَان مجرَّدَ تلميحٍ (واضح على حدٌّ سواءٍ في كلِّ مكانٍ) لشيءٍ على وشك أن نراهُ، كأنَّ الذي على وشك أن يتجلَّى قد تردَّدَ في الظُّهور.

فأيَّ شعورٍ قد أوجدَ فِيْنَا؟ استحالةَ أنْ يكونَ ثمَّةَ [شعورٌ البَّتَة]، بل شواشُ القلب والعقل، وارتباكُ المشاعر، وسُباتُ الوجود المُستيقِظ، وإحساسٌ شديدُ الرَّهافةِ في الرُّوح يعدلُ ذاك الذي يغمرُ المرءَ كي يتجلَّى لَهُ شيءٌ عبثيٌّ لكنَّهُ أكيدٌ، شيءٌ على وشك أن يتجلَّى دائماً، كالحقيقة، ولكنَّه يظلُّ، كالحقيقة، صِنْوَ الذي سوف يظلُّ محتجباً ولن يتجلَّى أبداً.

لقد نبذتُ الرَّغبةَ في النَّوم الذي تجلبه الأفكارُ إليَّ، فحتَّى التَّثاؤَبُ الأوَّلُ يبدو جهداً كبيراً جداً. وحتَّى عدمُ الرُّؤية يُوجِعُ عينيَّ. وكلُّ الذي يتبقَّى من العالَم المستحيل، بعدَ زُهْدِ الرُّوحِ كُلِّها، هُوَ الأصواتُ البعيدةُ التي خلفَهُ.

آه، ليت لي عالماً آخر، طافحاً بأشياء أخرى، وروحاً أُخرى تجعلني أشعرُ بهذه الأشياء، وأفكاراً أُخرى أعرف بها تلك الرُّوح! أيَّ شيء آخر، حتَّى السَّأم، ولكنْ ليس مزيجَ الرُّوح والعالم هذا، وليس الخرابَ المُزرقَ النَّاجم عن هذا الافتقار إلى التَّعريف الذي يطغى على كلِّ شيء.

(332) 396

[28 نوفمبر 1932]

كُنَّا نمشي، سويَّةً ومُتباعدَيْن، عبر مرَّات الغابات التي لم تكف عن تغيير مسارها كيفها

⁽³⁵²⁾ يظهر اسمُ فرناندو بِشُوًا مطبوعاً بأحرف كبيرة، وببُنط عريض، في الجهة العلويَّة اليُسرى من الصَّفحة الثَّانية الني دوَّن عليها هذا النصَّ مرقوناً على الآلة الكاتبة، وتحت الاسم، ماشرة، العنوان التالي: خُوَا ذا سَوَّ جُوْلْيَق، 52، الطَّبعة الأُولى، لشبونة. (المترجم)

اتَفْق. كانت خطواتنا، التي لم تكن خطواتنا، متَّحدةً، تتبادلُ السَّير متناغمةً فوق اللَّيُونة الهُشَّة لأوراق الأشجار المتساقطة، المتناثرة، صفراءَ وخضراء باهتة على الأرض الوعرة. وكانت خطواتنا مُتباعدة أيضاً، فقد كُنَّا فكرتَيْن مختلفتَيْن، ولا شيءَ مشتركاً بينهما، إلَّا أنَّ الذي لم نكن عليه قد تبادل السَّير على السَّطح المسموع نَفْسه.

كان الخريف قد بدأ حقاً، فسمعنا، بالإضافة إلى صوت أوراق الأشجار التي كُنّا نمشي فوقها في كلّ مكان ذهبنا إليه أو كُنّا فيه، الشُّقوطَ المتواصلَ لأوراقِ أُخرى، أو أصوات أوراق أُخرى، صُحبةَ الرِّيح العاصفة. لم يكُن ثمّة منظر طبيعيُّ آخر غير الغابة التي حجبَتْ كلّ المناظر الأخرى. ولكنّها بدت كافية، كموقع لأولئك الذين يشبهوننا ومكانٍ لهُم، أولئك كلّ المناظر الأخرى. ولكنّها بدت كافية، كموقع لأولئك الذين يشبهوننا ومكانٍ لهُم، أولئك الذين لم تكُن حياتُهم الوحيدة إلّا أن يمشوا بتناغُم مُنوَّع فوق الأرض التي تموتً. كان الفين لم تكُن حياتُهم الوحيدة إلّا أن يمشوا بتناغُم مُنوَّع فوق الأرض التي تموتً. كان فصول الوقتُ -أظنَّ - نائة النّهار، أيّ نهار، أو ربّها نهاية النّهارات كلّها، في خريف كان فصول الخريف كلّها، في تلك الغابة الحَقَّة والرمزيَّة.

حتَّى إِنَّنَا لَم نستطع القول أيَّ بيوتٍ أو واجبات أو علاقات غراميَّة تركناها خلفنا. كُتَّا، في تلك اللَّحظة، مجرَّدَ مُسافريُن نمشي بين ما قد نسپناهُ وبين ما لم نعرفهُ، مُجرَّدَ فارسَين نسيرُ على الأقدام مُدافعين عن فكرة سامية مهجورة. بَيْدَ أَنَّهُ، في هذا كلّه، كما في صوت أوراق الأشجار الذي لم ينقطع تحت أقدامنا، وصوت الرِّيح المُتردِّدة الذي مازال عاصفًا، يكمنُ سببُ خروجنا أو عودتنا، لأنَّنا حين نجهلُ الدَّربَ أو سبب ذهابنا في ذلك الدَّرب، لا نعرف إنْ كُنَّا خارجَيْن حقاً أمْ عائديْن. كان كلُّ الذي حولنا -وهو لا يُرَى بَلْ يُسمَع فحسبُ- ذلك الصَّوت الحزين لأوراق الأشجار التَّالفة السَّاقطة وَهُوَ يُهدهِدُ الغابة كي تنام.

لم ينتبه أحدُنا إلى الآخر قَطَّ، على الرَّغم من أنّنا لم نواصل الطَّريق وحيدَيْن البِتَّة. كانتُ صُحبتُنا نوعاً من النَّوم المُشترَك. ساعدَ صوتُ وقع أقدامنا المتناغم على أن يُفكّر الواحدُ مِنَّا دون الآخر، على الرغم من أنَّ خطواتنا المنفردة كانت ستذكِّرُ أحدَنا بحضور الآخر. كانت الغابة كلُّها مساحات شاسعة باطلة، كأنَّها باطلة، في حدِّ ذاتها، أو على وشك أن تنتهي، بَيْدَ أَنَّ ذلك الباطل لم ينته، ولم تنته الغابة. واصلت خطواتنا المتناغمة المسير، وكان صوتُ سقوط الأوراق الخافتُ يختلطُ بضجيج الأوراق التي تدوسها أقدامُنا في الغابة التي باتَتْ كلَّ شيء، في الغابة التي باتَتْ كلَّ شيء، في الغابة التي باتَتْ الكون.

فَمَن كُنّا؟ هل كُنّا اثنين أمْ شكلين للشّخص ذاته؟ لم نعرف ولم نسأل قَطَّ. لا بُدَّ أنَّ شمساً كانت في مكان ما، فالغابة لم تكن ليلاً معتماً بَعْدُ؟ ولا بُدَّ اثنّا امتلكنا هدفاً أيضاً، فقد واصلنا المسير. ولا بُدَّ أنَّ علماً من نوع ما كان موجوداً، فقد كانت الغابة موجودة. ولكنّنا لم نكترث على الإطلاق بها كان أو ما قد يكون، كُنَّ مسافريْن لا نهائيّين، نسحقُ باقدامنا الأوراق الميّنة مُتناغمَيْن، مجهولَيْن، ومُنصِتيْن مُستحيلَيْن للأوراق السَّاقطة، ولا شيءَ أكثر. همسةً، هي الآن صاخبةً، والآن ناعمةً، تهمسُ بها الرِّيحُ الغامضة، وهمهمةٌ، هي الآن عاليةُ، والآن خافتةً، تنبعثُ من الأوراق المُحاصَرة، فجوةٌ، وشكٌ، ومخاولة مُخفِقةٌ، ووهم لم يكن على الإطلاق – إنه الغابة، والمسافران، وأنا. لا أعرفُ أيَّ المسافريْن كنتُ، ولا أعرفُ إنْ كُنتُهُما معا أو إنْ لَمْ أَكُنتُهُما قطُّ. ولقد شهدتُ، دونَ أن أنتظر لأرى كيف انتهَتْ مأساةُ الذي كُنتُهُما معا أو إنْ لَمْ أَكُنتُهُما قطُّ. ولقد شهدتُ، دونَ أن أنتظر لأرى كيف انتهَتْ مأساةُ الذي لم يكن أيَّ شيء البتّة سوى الخريف والغابة، والرِّيح المتردِّدة التي مازالتْ تعصفُ، وأوراق الأشجار التي سقطتْ دائهاً أو مازالتْ تسقطُ. أستطيعُ، دائها، أن أرى بوضوح، حتَّى لو الأشجار التي سقطتْ دائهاً أو مازالتْ تسقطُ. أستطيعُ، دائها، أن أرى بوضوح، حتَّى لو كان ذلك بلا غايةٍ، صمتَ الغابةِ المُهمْهِمَ، كأنَّ شمساً كانت هُناك حقاً أو نهاراً.

(353) 397

[نحو نوفمبر 1932]

تلكاً الهواءُ الطّافحُ بالشّمس، على الرّغم من كَهَال النّهار الواضح. إنه ليس التّوتَّرَ الحالي النّاجم عن العاصفة الرّعدية التي تحتشدُ، والقَلقَ الذي يجتاحُ الأجسادَ التي تفتقرُ إلى الإرادة، والكُدْرةَ الغامضة التي تصيب ساء أخرى زرقاءَ صافيةً. إنّهُ السّبات المحسوس الإرادة، والكُدْرةَ الغامضة التي تصيب ساء أخرى زرقاءَ صافيةً. إنّهُ السّبات المحسوس لوعد أوقات الفراغ، ريشةٌ تلمسُ بخفّة وجْنة يرنو إليها النّعاسُ. كأنّه الرّبيعُ، على الرّغم من أنّنا في عِزّ الصّيف. يبدو الرّيفُ مُغرياً حتّى بالنّسبة إلى شخص لا يستمتعُ به في العادة. لو كنتُ شخصاً آخر، لكانَ هذا النّهارُ على ما أظنَّ بهاراً آخر، لأنّني سوف أشعرُ به دون أن أفكر فيه. ولسوف أنهي عملي اليوميّ، تغمرني المسرَّةُ المرجوَّة؛ العمل الذي يبدو، بالنّسبة إلى، رتيباً على نحو غير طبيعيّ، كلَّ مرَّة وكلَّ يوم. سأستقلُّ الترام الذَّاهب إلى بَيْفِيكا بالنّسبة إلى، رتيباً على نحو غير طبيعيّ، كلَّ مرَّة وكلَّ يوم. سأستقلُّ الترام الذَّاهب إلى بَيْفِيكا

⁽³⁵³⁾ نُشر النَّصُّ، في الأصل، موقَّعاً باسم بِسُوَّا الصَّريح، منسوباً إلى سوارش، في مجلَّة Revista (العدد الأوَّل، المجلَّد الأوَّل، المجلَّد الأوَّل، المجلَّد الأوَّل، المجلَّد الأوَّل، المجلَّد الأوَّل، ص8) الصَّادر في العام 1932. (المترجم)

رفقة مجموعة من الأصدقاء. سنتعشَّى في الهواء الطَّلق والشَّمس على وشك أن تغيب. ستبدو سعادتنا جزءاً طبيعياً من المنظر الطَّبيعيُّ، ويعرفُ أنَّها كذلك كلُّ مَن يرانا.

ولانّني نَفْسي، فإنّي أختلسُ متعةً عابرةً من المسرّة العابرة التي تغمري حين أتخيّل نَفْسي شخصاً آخَر. نعم، سرعان ما سوف يأكلُ الذي أنا هُوَ، جالساً تحت عريشة عنب أو شجرة، ضعفَ ما أستطيع التهامّة في العادة، ويشربُ النّبيذَ ضعفَ ما أجروُ على شربه، ويضحكُ ضعفَ ما أتخيّل أنّني قادرٌ عليه. كنتُ في البَدْء هُوَ، والآنَ أنَا نَفْسي. نعم، كنتُ لوهلة شخصاً آخر: رأيتُ مثل شخص آخر فعشتُ تلكَ السّعادة الإنسانيّة المتواضعة مثل بهيمة خرقاء ترتدي قميصاً لا شيء فوقّهُ. فيا لهُ من نهارٍ رائع يجلب لي مثل ذلك الحُلم! ولا شيء في الأعالي إلّا زرقةٌ تامّةٌ وبهاءٌ كاملٌ مثل حُلمي العابر في أن أكون مندوبَ مبيعاتِ جوّالاً، في الأعالي إلّا زرقةٌ تامّةٌ وبهاءٌ كاملٌ مثل حُلمي العابر في أن أكون مندوبَ مبيعاتِ جوّالاً، في أنمّ صحّةٍ وعافية، يذهبُ في نزهة للتّرويح عن نَفْسه بعد انقضاءِ ساعات العمل.

398

[13 ديسمبر 1932]

وبها أنّني كنتُ أَفكرُ وأتأمّلُ - بِقَدْر ما أستطيع - فقد بات من الواضح، بالنّسبة إليّ، أنّ البشر لا يعرفون أو لا يستطيعون التّوافق بشأن ما هُو مُهمٌّ حقاً في الحياة، أو ما هُو مفيدٌ بوصفه دليلاً للعَيْش فيها. فالعِلم الأدقُّ هُو الرّياضيّات؛ وهو العِلمُ الذي يحيا منعزلاً في قواعده وقوانينه الخاصّة؛ وإنّهُ مفيدٌ، بالطّبع، حين يُطبّق لتوضيح العلوم الأخرى، لكنّه لا يُرضِّحُ إلّا ما تكتشفه تلك العلوم، ولا يساعدها على الوصول إلى تلك الاكتشافات. فاليقينيّات الوحيدة التي تنطوي عليها العلوم الأخرى لا تمتُ بصلة إلى الأهداف السّامية للحياة. تَعرف الفيزياءُ مُعامل تمدُّد الحديد، لكنّها لا تعرف الآليّات الفعليّة لنشأة العالم. وكلّى ارتقينا فيها نودٌ أن نعرفه، غرقنا أعمق في الذي نعرفه. فعِلمُ الغيبيّات الذي يتوجَّب أن يكون الدَّليل الأسمى، لكونه العلم الوحيد الذي يهتمُّ بالمقاصد السّامية للحقيقة والحياة، يكون الدَّليل الأسمى، لكونه العلم الوحيد الذي يهتمُّ بالمقاصد السّامية للحقيقة والحياة، ليس نظريَّة علميّة، وإنها كومةٌ من آجُرِّ تُشيَّدُ منها –اعتماداً على مَن يقوم بعمليّة البناء منازلُ عديمة الشَّكل، بلا ملاط يشدُّ بعضَها إلى بعض.

وأُلاحظُ، أيضاً، أنْ لا فرقَ بيّن حيوات الحيوانات والبشر، باستثناء الطَّريقة التي يخدعون

بها أنفُسهم، أو المدى الذي يجهلون فيه ماهيّة الحياة. فالحيوانات لا تعرف كُنّة أنفُسها: تُولَدُ، وتحيش، وتموت، دون أن تُفكّر أو تتأمّل أو تمتلك أيّ مستقبل حقيقي. فكم من البشر، على الرّغم من ذلك، يعيشون حياة تختلف عن تلك التي تعيشها الحيوانات؟ نعن ننام جميعاً، والفارق لا يكمن إلّا فيها نحلم به وفي مدى الأحلام ونوعيّتها، ربّها سوف يوقظن الموتُ، ولكن لا يقينَ لدينا على ذلك إلّا يقين الإيهان (بالنّسبة إلى من يعدُّ الإيهان كافياً)، والإحسان (بالنّسبة إلى من يعدُّ العطاء أخذاً). والأمل (بالنّسبة إلى من يعدُّ العطاء أخذاً). إنّها تمطرُ في هذا النوم الشّتائيّ البارد الحزين، كها لو أنّها تمطرُ على هذا النّحو الرّتيب مُنذ أن خُطّت صفحة العالم الأولى. إنّها تمطرُ، ومشاعري كأنَّ المطرينكبُ عليها فتسجدُ مرخية أبصارها على الأرض التي يفيضُ فوقها ماءٌ لا يغدِّي شيئاً ولا يغسل شيئاً من أدرانه ولا يعلب فرحاً. إنّها تمطرُ، فأشعرُ فجأة بالثّقل الهائل الطّاغي لكوني حيواناً لا يعرف ما هُوَ، يحلم بأفكاره ومشاعره محدودباً كأنّهُ في زريبةٍ، في منطقة مكانيّة من كينونته، قانعاً بالدِّف، يعلم بأفكاره ومشاعره محدودباً كأنّهُ في زريبةٍ، في منطقة مكانيّة من كينونته، قانعاً بالدِّف، القليا, قناعته بالحقيقة الأبديّة.

399

[30 ديسمبر 1932]

وبعد أن انهمرت آخر الأمطار من السَّماء فهطلتْ على الأرض -تاركةً السَّماءَ صافية والأرض رطبة تلمعُ كالمرآة- أصاب الفرحُ العالمَ تحته لما خلفه المطر من برودة، وصفاء الحياة العظيم الذي عاد رفقة زُرقة السَّماوات قد مدَّ كلَّ روح بسمائها الخاصَّة، وكلَّ قلب بنضارة جديدة.

نحن عبيدُ السَّاعة في أشكالها كافَّة وألوانها كلِّها، سواءٌ أأَعجبنا ذلك أمْ لَمْ يعجبنا، ونحن رعايا السَّاء والأرض. وبعضنا الذي يمقتُ الأشياء التي تُحيط به يغوص عميقاً داخل نفسه، فلا يسلكُ الدُّروب ذاتها حين تمطر، مثلها يفعل حين تكون السَّهاء صافية. ذاك، بكلِّ بساطة، لأنَّ السَّهاء حين تمطر، أو تتوقَّف عن المطر، تَحدثُ تحوُّلات غامضة قد لا نحسُ بها إلَّا في صميم مشاعرنا الأشدِّ تجريداً؛ نشعرُ بهذه التَّحوُّلات دون أن نعرف، لأنّنا نشعرُ بالطَّقس حتى حين لا نكون واعين بأنّنا نشعرُ به.

كلُّ واحدٍ مِنَّا أكثرُ من شخص، إنَّهُ أشخاصٌ كثيرون، تَنَاسُلُ نَفْسهِ الواحدة. ولهذا يختلفُ الشَّخصُ ذاتُهُ، الذي يمقتُ الأشياء التي تُحيط بهِ، عن ذلك الذي يُسَرُّ بها أو يعاني من وجودها. ثمَّة أنواع مختلفة كثيرة من البشر، في مستعمرة كينونتنا الشَّاسعة، وكلُّ نوع يُفكِّر ويشعر بطريقة مختلفة. فاليومَ، وأن أَدوِّنُ هذه الانطباعات القليلة في الفُسحة التي أباحتها قلَّةُ العمل لديَّ، كنتُ الشَّخصَ الذي يكتبها بعناية فائقة، والشَّخصَ الذي غمرته المسرَّةُ لأنَّهُ لم يكُن يعمل في تلك الأثناء، والشَّخصَ الذي ينظر إلى السَّماء على الرَّغم من أنَّهُ لن يراها من مكانه، والشَّخصَ الذي يُفكِّرُ في هذا كلِّه، والشَّخصَ الذي يشعر بأنَّ الرَّاحة دبَّتْ في جسده فلاحظُ أنَّ يديه مازالتا باردتَيْن قليلاً.

لكنَّ عالمي هذا، الذي يُشبه حشداً متنوِّعاً لكنَّه مرصوص، مكوَّنٌ برمَّته، في حدِّ ذاته، من بشر مختلفين، و لا يعكس إلَّا ظلاً واحداً، ظلَّ هذه الهيئة الهادئة التي تكتبُ على مكتب بُور جيش العالي، حيث جئتُ الأستردّ دفتر الحسابات الذي استعارَه منّى.

400

[\$1932]

يجعلُك الحَرُّ، الذي يُشبِه قطعة ثيابٍ محجوبة، راغباً في خلعهِ.

401

[1932]

ارتجف، مُعتهاً، نصلُ برقٍ مُنَهكٌ في الغرفة الكبيرة، وعَمَّتْ سَكُتَةٌ قبلَ صوت الرَّعدِ المُحدِق، كأنَّه كان يعبُّ الهواءَ، ثُمَّ تلاهُ هزيمٌ مُهاجِر عميق. تأوَّه المطرُ، مثلها يتأوَّهُ المُشيِّعون المحترفون حين يتجاذبون أطراف الحديث. لكنَّ أخفض الأصوات بدا، داخل البيوت، عالياً ومضطرباً إلى حدُّ بعيد.

[91932]

لا بُدَّ أَن تُعَدَّ جميعُ الأشياء غير السَّارَّة التي تحدث لنا في الحياة -كأنْ نبدو سخيفين في نظر الآخرين، على سبيل المثال، فنُسيئ التصرُّفُ أو نرتد عن الفضيلة - مجرَّدَ أحداثٍ خارجية لا عَتلك القوَّة كي تلمس أعهاق أرواحنا. ولا بُدَّ أَن نُفكِّر فيها بوصفها وجعاً في الأسنان أو تأليل الحياة، أشياء تزعجنا لكنَّها، على الرَّغم من أنَّها لَنَا، موجودةٌ خارجنا، بوصفها أشياء يتوجَّب على وجودنا العضوي أن يتعامل معها، أشياء لا تحتاجُ إلى أن تقلق بشأنها سوى طبيعتنا البيولوجيّة.

وحالمًا نتبنّى تماماً هذا الموقف الذي هُوَ، بطريقة أو أخرى، موقف الصُّوفيِّين، فإنَّنا لا نحتمي من العالمَ فحسب، وإنَّما من أنْفُسنا أيضاً، لأنَّنا نكون قد قهرنا كلَّ ما هُوَ غيرُنا، وكلَّ ما هُوَ خارجيُّ، وكلَّ ما هُوَ ضدُّنا، ولذلك فهو عدُّونا.

هذا ما قصدَهُ هُوراس (350 حين تحدّث عن الإنسان العادل الذي لا يهتز له جفن حتّى حين ينهار العالم من حوله. قد تكون الصُّورة عبثيّة، لكنَّ حقيقة معناها لا جدال فيها. وحتّى لو انهارَ ما نتظاهرُ أنَّنا عليه، فلا بُدَّ ألَّا يهتز لنا جفن لله وأن أنْفُسَنا الحَقّة وما نتظاهرُ أنَّنا عليه يتعايشان سويَّة لا لأنَّنا عادلون، بل لأنَّنا أنْفُسَنا، وأن نكون أنْفُسَنا يعني أنَّنا لا نملك شيئاً نفعله حيال تلك الأشياء الخارجية التي تنهار حولنا حتّى لو كانت، في أثناء سقوطها، تُدمِّرُ مَا نمثله بالنِّسبة إليها.

لا بُدَّ أَن تظلُّ الحياة، بالنِّسبة إلى أفضلنا، خُلماً يتحاشَى أيَّ مقارنة.

403

[\$1932]

جميعُ العواطف التي فِيِّ سطحيَّةٌ، لكنَّها صادقةٌ تماماً. ولطالما كنتُ عثَّلاً، وعثَّلاً جيِّداً، فكلَّم أحبيتُ، تظاهرتُ بالحُبِّ فحسبُ، حتَّى لِنَفْسي.

يتجلَّى الصَّباحُ فوق المدينة، مازجاً الضُّوء بالظِّلِّ (أو بالأحرى درجاتِ من شدَّة الضَّوء) بين البيوت. لا يبدو أنَّهُ قادمٌ من الشَّمس وإنَّا من الحياة نَفْسِها، ويبدو أنَّهُ ينبعُ من جدران المدينة وسطوحها (لا من تلك الجدران والأسطح، في حدِّ ذاتها، وإنَّا من الحقيقة البسيطة لوجودها هُنَاك).

وحين أشعرُ بذلك، أحس بأنّني طافح بالأمل، مُدركاً في الوقت ذاته أنّ الأمل شعورٌ أدبيٌ تماماً. غداً سيكون الرّبيعُ والأمل جميعَ الكلمات المرتبطة شِعرياً بعاطفة واحدة، وروحياً بذكرى تلك العاطفة. كلّا، فإنْ تأمّلتُ نَفْسي من كَثَبِ مثلما أتأمّلُ المدينة، أُدرِكُ أنّ كلّ الذي أرجوهُ هُوَ أنْ ينتهي هذا اليومُ مثل أيّ يوم آخر. أنظرُ بعيني بصيري إلى الفجر فأرى أنّ الأملَ الذي أودعتُه إيّاهُ (إنْ وُجِدَ البتّة) لم يكن أملي. كان ينتمي إلى أولئك البشر الذين يعيشون اللّحظة العابرة، والذين جسّدتُ لوهلة طريقتَهم في التّفكير دون قصد.

الأمل؟ ما الذي يرجوهُ واحدٌ مثلي؟ فالوعدُ الوحيد الذي بحمله هذا اليوم لي هُوَ أَنَّهُ سيكون مجرَّد يوم آخر، يدومُ وقتاً مُحدَّداً وينتهي نهايةً مُحدَّدة. الضُّوء يبهجُ لكنَّهُ لا يُغيِّرُني لاَنَّني سوف أُغادرُ هذا المكان مثلها جئتُ: أكبرَ ببضع ساعات، تغمرني مسرَّةُ شعور جديد ويحزنني الفِكرُ. يستطيع المرءُ، حين يُولَدُ شيءٌ، التَّركيزَ بسهولة على حقيقة مولده مُتخيَّلاً موتَهُ المحتَّم. يبدو منظرُ المدينة الطَّبيعيُّ، في هذه الأثناء في أشعَة الشَّمس القويَّة والسَّخيَّة، كأنَّهُ حقلٌ من البيوت: فسيحٌ وطبيعيٌّ ومُنظَم. ولكن، هل أستطيعُ، حتَّى وأنا أرى هذا كلَّهُ، نسيانَ وجودي حقاً؟ وعيي بالمدينة هُوَ، في الأعماق، وعيي بِنَفْسي.

أتذكّر، فجأة، حين كنتُ طفلاً ورأيتُ الفجر (بها أنّني لم أعُد قادراً اليوم على ذلك) ينبلجُ فوق المدينة. لم تُشرقِ الشّمسُ من أجلي حينتذ، وإنّها من أجل كلّ الذي تنطوي عليه الحياة، لأنّني (حين كنتُ ماأزال كائناً غير واع) كنتُ الحياة. رأيتُ الصّباح فكنتُ سعيداً؛ واليوم أرى الصّباح فأفرحُ في البَدْءِ ثُمّ أحزنُ. فهازال الطّفل الذي فِي هُنَاك ولكنّه قد هوى واليوم أرى الصّباح فأفرحُ في البَدْءِ ثُمّ أحزنُ. فهازال الطّفل الذي فِي هُنَاك ولكنّه قد هوى في الصّمت. أرى مثلها تعوّدتُ أن أرى، لكنّني أرى مِن وراء عينيْ نَفْسي وَهْيَ ترى، وتلك الحقيقة تجعلُ الشّمسَ عظلمة، وتجعلُ لون الأشجار الأخضرَ باهتاً، وتجعلُ الأزهار تذوي

حتى قبل أن تتفتّع. نعم، قَدِ انتميتُ إلى هُنَا مرَّةً. واليوم، مها قد يبدو المنظرُ الطَّبيعيُّ جديداً بالنَّسبة إلى، أعودُ من المرَّة الأولى التي أراهُ فيها، كأنَّني أجنبيٌّ، وضيفٌ، ورحَّالةٌ، وغريبُ عن كلِّ الذي أراهُ وأسمعُهُ، فأراني فجأةٌ وقد بلغتُ من الكِبَرِ عِتِياً.

لقد رأيتُ كلَّ شيءٍ مِن قَبْلُ، حتَّى الذي لم أَرهُ قَطُّ والذِّي لن أَراهُ أبداً. حتَّى المناظرُ المستقبليَّة الأقلُّ أهميَّة باتَتْ تتدفَّقُ في دمي، وكَرْبُ معرفةِ أنَّني سوف أضْطَرُّ ثانيةً إلى رؤية المناظر الطَّبيعيَّة التي رأيتُها مِن قَبْلُ، يملؤني بالضَّجَرِ قبلَ أن يكون الضَّجَرُ.

مائلاً على الشُّرِقة، مستمتعاً بالنَّهار، أنظر إلى الأشكال المختلفة للمدينة برمَّته، فتملأ روحي فكرةٌ واحدة، ليس إلَّا الرَّغبةُ المُزمِنة في أن أموت، أن أنتهي، وألَّا أرى مزيداً من الضُّوء يسقطُ على المدينة، وألَّا أفكر أو أشعر، وأن أتركَ خلفي، مثلَ ورقِ تغليفٍ مُهمَل، مسارَ الشَّمس وأيَّامَ الشَّمس كلَّها، وأن أخلعَ جهدَ الكينونة الجَبْريَّ، مثلها يخلعُ المرءُ ثبابَهُ التَّقيلة ويرميها أسفلَ السَّرير الكبير.

405

[1932]

(عاصفةٌ)(355) صمتٌ معتم يفيضُ شاحباً. وكذلك العربة التي تمرُّ، بين حِينِ وآخَر، مسرعةٌ في الشَّارع، وشاحنةٌ قريبة تُدوِّي برعدها - صدى سخيفٌ وميكانيكيُّ لمَّا حدث حقيقةً في السَّهاوات التي تلوحُ.

يومضٌ عبر السَّماء، مرَّة أخرى وبلا نذير، رمحُ ضوءٍ مغناطيسيٍّ ويرمشُ، فيشهقُ القلبُ شهقةٌ عميقة، وتتناثرُ في الأعالي قُبَّةٌ زجاجيَّة مثل قُبَّة صغيرة تتهشَّمُ شظايا. وابلٌ من مطر شرِّير ينهالُ على صوت الأرض في الأسفل.

(فاسْكِش، رَبُّ عملي). شابَتْ وجهَهُ الشَّاحبَ مسحةٌ من لون أخضرَ باطل ومرتبك. أراهُ يلتقطُّ أنفاسَهُ اللَّاهِثة، فيخامرني الشَّعور الأخويُّ النَّاجم عن معرفة أنَّني لاَ بُدَّ أن أبدو مثله.

⁽³⁵⁵⁾ تظهر كلمة «عاصفة»، في الأصل البرتغالي، مكتوبة بالإنگليزيَّة، (Storm)، بين هلالين كبيرين، في منتصف رأس الصَّفحة، بوصفها عنواناً لهذه الشَّلرة، وتحت عبارة (L. do D.) مباشرة، عَمَّا يعني أنَّها جزءٌ من كتاب القنق، وليس كما تظهر، هُنَا، في مُعتَتَح الكلام. ولقد وردت على هذا النَّحو في الطبعات، المنتاء التاريخ من كتاب التعنق، وليس

[1932]

ساورني القلقُ قبلَ أن يدهمني القلقُ، توقَّفَ الصَّمتُ عن التَّنقُس دفعةً واحدة. واليومُ الأزليُّ تشظَّى كالفولاذِ فجأةً. ربضتُ كحيوان، ومخالبُ يديَّ العقيمتيْن تتشبَّنان بمفرش الطَّاولة النَّاعم، اقتحمَ ضوءٌ قاسِ كلَّ زاويةٍ وكلَّ رُوح، وتحدَّرَ من جبل قريبٍ صوتٌ حُطَّ مِن عَلِ، وشقَّتْ صرخةٌ جدرانَ الهاويةِ الحريرَ، توقَّفَ قلبي. ودقَّتْ حنجرتي، كان الشَّيءُ الوحيد الذي وَعَاهُ ذهني هُوَ بقعةُ الحبر على قصاصةِ الورق.

407

[932]

يخامرني هاجسُ الموت، في بعض الأحيان، لكنّني لا أعرف لماذا... ربّم بجرّد وعكم غامضة تنزعُ، لكونها لا تتجسّدُ في شكل ألم، إلى أن تغدو هاجساً روحانيا، أو تعباً يتطلّبُ نوماً عميقاً جداً إلى درجة أنّه لا يستجيبُ لأيّ قَدْرٍ [آخر] من النّوم، ولكنّني على يقين أنّني أشعرُ أخيراً كأنّ يديّ الضّعيفتين، بعد أن ألمّ بي مرضٌ تفاقم تدريجياً، تنزلقان بلا عنف أو ندم من فوق الملاءة المفرودة على السّرير حيث تستريحان.

"أتساء ل، حينيذ، ما هذا الشّيء الذي نُسمّيه الموت؟ لا أقصدُ سرَّ الموت، الذي لا أستطيع النّهاذَ إليه، وإنّها الإحساس الجسدي المثير حين نكفًّ عن البقاء على قيد الحياة. فالبشريّة تخافُ الموت، حتَّى لو تردَّدت، والإنسان العاديُّ ينسلخُ عن جسده بخفّة، لذلك فهو، حين يمرض أو يهرم، لا يُلقِي نظرةً مرتعبة إلى الهاوية التي يجدها في الخواء إلَّا لماماً. وهذا مجرَّد افتقار إلى المخيّلة، على شاكلة من يتخيّلُ الموت كأنه نوم. كيف سيكون الأمرُ لو كان الموت لا يُشبه النوم على الأقلِّ؟ فسمةُ النّوم الأساسيَّة أنَّ المرء يستيقظُ منه، في حين أنّه، بِقَدْر ما نعرفُ على الأقلِّ، لا يستطيعُ الاستيقاظ من الموت أبداً. لو كان الموت يُشبِهُ النَّوم فلا بُدَّ أن تكون لدينا فكرةٌ عن الاستيقاظ منه، ولكنَّ هذا ليس ما يتخيَّله الإنسان العاديُّ: إنَّه يتخيَّلُ الموت كأنّه نومٌ لا يستيقظ منه المرء، وهذا شيءٌ لا معنى لَهُ تماماً. ما أودُّ قولَهُ هُوَ أنَّ الموت ليس كالنَّوم، فالمرءُ يكون في النَّوم حياً، لكنَّهُ نائمٌ؛ ولا أعرفُ كيف يستطيع المرءُ مقارنةَ ليس كالنَّوم، فالمرءُ يكون في النَّوم حياً، لكنَّهُ نائمٌ؛ ولا أعرفُ كيف يستطيع المرءُ مقارنةَ ليس كالنَّوم، فالمرءُ يكون في النَّوم حياً، لكنَّهُ نائمٌ؛ ولا أعرفُ كيف يستطيع المرءُ مقارنةَ ليس كالنَّوم، فالمرءُ يكون في النَّوم حياً، لكنَّهُ نائمٌ؛ ولا أعرفُ كيف يستطيع المرءُ مقارنةَ

الموت بأيِّ شيء، فهو لا يستطيعُ تجربة الموت أو حتَّى أيَّ شيء يُقارَن به عن بُعْد. يبدو الموتُ حين أرى شمخصاً ميِّتاً كأنَّه رحيل، ويبدو الجثمانُ كبذلة خلَّفها أحدٌ وراءَهُ. لقد غادر ذلك الشَّخص ولا حاجةَ كي يأخذ معه البدلة التي كانت لديه.

408

[\$1932]

أتساء لُ كم من البشر تأمّلوا بشراً في شارع مهجور، كما يستحقُّ أن يُتأمَّل. حتَّى إنَّ صياغة العبارة على تلك الشَّاكلة يجعلها تبدو كأنَّني كنتُ أحاول قول شيء آخر، ولقد كنتُ في الحقيقة أُحاول ذلك. فالشَّارع المهجور ليس ذاك الذي لا يمشي فيه أحد، وإنَّما شارعٌ يمشي فيه النَّاس كما لو أنَّهُ كان مهجوراً. ولن يجد المرء مشقَّة في استيعاب هذا المفهوم إلا حين يرى شارعاً مهجوراً؛ فلا بُدَّ أن يغدو الحمارُ الوحشيُّ، بالنِّسبة إلى الشَّخص الذي لم يعرف في حياته قطُّ إلَّا البغال، شيئاً غير قابل للتَّصوُّر.

المشاعر تتكيَّفُ في دواخلنا حسبَ المستويات والطَّرائق التي نفهمها بها. وثمَّة طرائق من الفهم تُملي طرائقَ فهمها.

إِنَّهُ اخَتِناقُ الحِياة في نَفْسي، رغبةٌ تعتملُ في كلِّ ثُقبٍ مِن مسامٌ كينونتي كي أكون شخصاً آخَر، تحذيرٌ عاجل من أنَّ النَّهاية قد أَزِفَتْ.

409

[91932]

استمتعتُ مرَّتَيْن بالذُّل المؤلم الذي تجلبه المحبَّةُ، في الوقت الذي يبدو كأنَّه مراهقتي البعيدة. والأنَّني أشعرُ بأنَّه بعيدٌ جداً، فهو يبدو كشيءٍ لا بُدَّ أنَّني قرأتُ عنه، أو مجرَّد حكاية شخصيَّة قصَّها عليَّ أحدٌ. فمن النُّقطة المُشرِفة التي أنطرُ بها، اليومَ، ذلك الماضي الذي لم أعُد دارياً إنْ كنت سأصفة بالبعيد أو القريب، يخطر ببالي أنَّ من الجيِّد ذوقي طعمَ خيبة الأمل تلك مبكِّراً جداً.

لم يكُن ثمَّة شيء في الحقيقة بتاتاً سوى ما شعرتُ به في ذلك الوقت، فلقد ذاقت جحافل من البشر العذابات ذاتها، من وجهة نظر موضوعيَّة. ولكنُّ [...] ولقد استوعبتُ في فترة مُبكّرة من حياتي فكرةَ أنَّ حياة المُخيَّلة، مهما يبدو ذلك مُروِّعاً، هي الأمثلُ بالنَّسبة إلى الحالات المزاجيَّة التي تنتابُني، ويعود الفضل في ذلك إلى تجربة أخرى متزامنة وذات صلة أثَّرتُ في حساسيتي وبصيرتي. فقد ترهقني خيالات مُخيِّلتي (اللَّاحقة)، لكنَّها لا تؤذي أو تُذِلُّ. فالابتسامةُ الزَّائفة، وإظهارُ المودَّة الحادع، والمداعبة الماكرة، بالنِّسبة إلى العُشَّاق المستحيلين، مستحيلةً على حدِّ سواء، فهي لا تهجرنا البثَّة أو تتلاشى من حياتنا.

حالاتُ القلق العظيمة التي تنتابُ أرواحَنا هي دائماً كوارثُ كونيَّةٌ. فحين تنتابُنا، ترتجُّ الشَّمسُ وتضطربُ النُّجوم. فالنَّهار لا يشرق، في كلِّ روح تشعرُ، إلَّا حين يُدبِّرُ القَدَرُ بهايةً كارثيَّةً لعالم القلَق - جاعلاً جميع السَّهاوات وجميع العوالم تمطرُ عبى ذلك الإحساس بالخراب.

نشعرُ بالتَّفوُّق لكنَّنا مازلنا نجدُ القدَرَ يعاملنا بدونيَّةٍ وبأنَّنا أقلُّ شأناً من أحطَّ المخلوقات قَدْراً - فَمَن يفخرُ بأنَّهُ بشرٌ في مثل ذلك المقم؟

لوْ مُنِحتُ، ذات يوم، موهبة تعبير عظيمة تُقطَّرُ فِيَّ الفنونَ كلَّها، لكنتُ قادراً على كتابةٍ تُمَجِّدُ النَّوم. لا أعرف مسرَّةً في الحياة أعظم من القُدرة على النَّوم. فناءُ الحياة والرُّوح، والانسحابُ الكامل من كلِّ شيء يجعلُكَ بشراً، فرداً، وليلك خالياً من جميع الذِّكريات والأوهام، ولا ماضي لك أو مستقبلَ، [...]

410

[\$1932]

أَنْ نَكتَبَ يعني أَنْ نَسَى، فالأَدبُ أَبِهِجُ طَرِيقةٍ لتجاهُل الحياة. الموسيقى تُهدَّئُنا، والفنون البصريَّةُ تُنعشنا، والفنون الأدائيَّة (كالرَّقص والتَّمثيل) تُسلِّينا. ولذلك فإنَّ الأولى تنأى بنفسها عن الحياة كي تجعل منها حُلهًا؛ لكنَّ الفنون الأخرى لا تفعل ذلك، لأنَّ بعضها يستخدم صيغاً بصريَّة، تغدو حيويَّةً جرَّاءً ذلك، ويستمدُّ بعضها الآخر حياتَهُ من الحياة البشريَّة نَفْسها.

لكنَّ هذه ليستُ حالَ الأدب، فالأدبُ يحاكي الحياة. الرَّواية تاريخُ الذي لم يكُنِ قَطُّ، والمسرحيَّةُ روايةٌ بلا سَرْدٍ، والقصيدةُ تعبيرٌ عن الأفكار والمشاعر بلغةٍ لا أحدَ يستخدمها؛ فلا أحدَ يحكي بالكلام المنظوم.

411

[91932]

أن تعيش حياةً مُثقَفَة ونزيهة في هواء الأفكار الطَّلق (356)، تقرأً، وتحلم، وثُفكّر في الكتابة، فإنها حياةٌ بطيئة بها يكفي لتكون دائماً على شفير السَّام، ليس إلَّا، لكنَّ عدم الانزلاق إليه فإنها حياةٌ بطيئة بها يكفي لتكون دائماً على شفير السَّاعر والأفكار، فلا تستمتع إلَّا بأفكار المشاعر ومشاعر الأفكار. أن تركُدَ، ذهبياً في الشَّمس، مثل بحيرة معتمة تحيط بها الأزهارُ. أن تُروِّحَ في الظَّلال عن فردانيَّة العقل النَّبيلة، تلك التي تكمنُ في عدم توقُّع أي شيء من الحياة. أن تكون في تعاقب العوالم كغبار طلع الأزهار مُبحراً في هواء المساء على أجنحة ربح عجهولة، مُسَّاقطاً في سُبات الغسق كيفها اتَّفق، جاثها بين الأشياء الكبيرة دون أن يلحظك أحد. أن تكون هذا كلَّه وقد تيقَّنتَ تماماً، لا سعيداً ولا حزيناً، مُعتناً للشَّمس على سَنَائِها وللتُجوم على بُغدِها. ألَّا تكون أكثرَ، وألَّا تملك أكثرَ، وألَّا تُريدَ أكثرَ... موسيقى الجائع، وأغنية الأعمى، ورفات المسافر المجهول، وخُطَى الجَمَل السَّائر في الصَّحراء على غير وأغنية الأعمى، ورفات المسافر المجهول، وخُطَى الجَمَل السَّائر في الصَّحراء على غير ولا حِل عليه...

⁽³⁵⁶⁾ العبارة، عند يِسُوَّا، في الأصل: «ao relento das idéas». وكلمة relento تعني حرفياً: النَّدى/ السَّديم؛ لذا نرى أنَّ جول كوستا قد آثرت ترجمة العبارة بـ «beneath the dewfall of ideas» (التي قد أترحمه بـ: ايهطلُ عليكَ ندى الأفكار»)؛ في حين نرى أنَّ زينيث آثر، في طبعته الإنگليزيَّة، ترجمتها بعبارة «أمواء العَلق»، أيضاً. فالعبارة والطوعة المواء الطلق»، أيضاً. فالعبارة البرتغاليَّة «معني «الهواء الطلق»، أيضاً. فالعبارة البرتغاليَّة «معنى عليه منه العبارة من معنى عميق بشير إلى حُرَّية الفِكر والمعتقد وأن يعيش المرء حياتة وفق ما يشتهي ويرضى، (المترجم)

الحياة، بالنّسبة إلى معظم البشر، ضجرٌ ينتهي قبل أن يدركوا ذلك، أشغالٌ حزينة تتخلّلها بضعة فواصل سعيدة، أو بالأحرى مثل الحكايات التي يرويها أشخاصٌ يسهرون على راحة الموتى كي يقضوا اللّيل السّاكن الذي لا نأمة فيه، ويُكملوا يقظنّهُم. فلطالما وجدتُ الله طائلَ من التّفكير في الحياة بوصفها وادياً من الدُّموع: وادياً من الدُّموع لكنّهُ واد لا يبكي فيه البشرُ إلّا نادراً. قال هَايْنَهُ ((35) إنَّ البشر يمتخَّطُون جميعاً بعد كلِّ مأساة عظيمةٍ. فلقد رأى، كيهوديِّ، الطبيعة الكونيَّة للبشريَّة، بوضوح شديد.

لن تطاق الحياة لوكُنّا واعين بها حقاً. لكنّنا، لحُسن الحظّ، لسنا كذلك. نعيشُ غير واعين كالحيوانات، بالطَّريقة العبثيَّة والعقيمة ذاتها تماماً، وإذا ما فكَّرنا في موتنا، مفترضين أنَّ الحيوانات لا تُفكِّرُ في موتها (على الرَّغم من أنَّ المرء لا يستطيع التَّيقُن من ذلك) فإنَّنا نفعل ذلك بطريقة غافلةٍ، ومُشتَّتة، وملتوية، ولا نكاد نقول إنَّ من الممكن أن نُفكِّر بها البتَّة.

ولأنّنا نعيش على هذا النّحو، فلا مُبرِّرَ حقاً لتفكيرنا في أنّ أَنفُسنا تتفوّقُ على الحيوانات. لا نختلفُ عنها إلّا في التّفاصيل الخارجية الصّرفة، وفي حقيقة كلامنا وكتابتنا، وفي امتلاكنا لبصيرة مُجرَّدة تُشتّتُنا عن البصيرة الحَقّة، وفي قدرتنا على تخيُّل المستحيل. بَيْدَ أنَّ هذه الأشياء كلّها ليستُ إلَّا خصائص جُزافيّة لجوهر كينونتنا العضويّ. فالكلام والكتابة لا يُشكّلان فارقاً بالنّسبة إلى غريزتنا الأساسيّة للبقاء على قيد الحياة، وهي غريزة غير واعية تماماً. وبصيرتنا المُجرَّدة مفيدة لبناء المنظومات الفكريَّة، أو الأفكار شِبْه المنهجيَّة التي تتلخَّص لدى الحيوانات في الاستلقاء في الشَّمس، لا أكثر. وحتَّى قدرتن على التَّخيُّل المستحيل قد لا تكون موهبة فريدة، فلقد شاهدتُ قِططاً تُحدِّقُ في القمر ولا أعرف سوى أنّها قد تاقت إلى ذلك.

مَن خلال وعيه الفرديّ. فإذا مرَّرت الحياة والعالمَ عبر وعيَيْن -وجودِنا الماديِّ ووجودِنا المُحرَّد- فسوف تخلقُ وعياً متفوِّقاً، تماماً مثلها يمرُّ التيَّارُ الكهربائيُّ عبر غازَيْن فيخلِقُ سائلاً.

⁽³⁵⁷⁾ هاينريش هاينه Heine: الشَّاعر الألماني الذَّائع الصَّيت. وأظنَّه يشير إن عبارة هايمه: "مهما كانت الدُّموع التي قد يذرفها المرء، فلا بُدَّ في النهاية أن يتمخَّط». (المترجم)

طُوبَى لَن لا يُفكِّرُ حينئذ، ذاك أنَّهُ سوف يستوعب، بفطرته وقَدَره العضويِّ، ما لا نستوعبُه إلَّا عبر أشدَّ الطُّرُق تُعرُّجاً، وقدَرنا الاجتهاعيِّ غير العضويِّ. طُوبَى لَمِن يُشبهُ البه ئم المتوحِّشة إلى حدِّ بعيد، ذاك أنَّهُ، دون عناء، ما نكافحُ أن نكونَهُ جميعاً؛ لأنَّهُ يعرفُ الطَّريق إلى المبيت الذي لا نعثر عليه إلَّا بِطُرُق الحيال الجانبيَّة وبعد أن نقتفي آثار الخطوات كثيراً؛ ولأنَّهُ، وقد تجذَّر مثل شجوةٍ، جزءٌ من المنظر الطبيعيِّ، ومِن ثَمَّ فهو جزءٌ من جَماله، وليسَ أسطورة عابرة مثلنا جميعاً، أو عارض أزياء يرتدي ثياب الغرور والنِّسيان البرَّاقة.

413

[29 مارس 1933]

لا أعرفُ لماذا -فلقد لاحظتُ ذلك وحسب- لكنّني وحيدٌ في المكتب. أحسستُ بذلك على نحو غامض سلفاً. كان ثمّة إحساسٌ عميق بالرَّاحة في جزء من وعيي، إحساسٌ برئتيًّ تتنفَّسان بحريَّة أكبر. وهذا واحدٌ من أغرب الأحاسيس المثيرة، تلك التي تثيرها فينا المُصادَفات والغيابات: أن نجد أنفُسنا وحيدين في بيت يعجُّ بالنَّاس والضَّجيج عادةً أو في منزل ينتمي إلى شخص آخر. ينتابُنا فجأة شعورٌ بالتَّملُك المُطلق، شعورٌ بالتَّمكُن السَّهل الأريحي، إحساسٌ غامرٌ -مثلها قلتُ- من الرَّاحة والسَّكينة.

يا لبهجة أن نكون وحيدين تماماً! أن نكون قادرين على التَّحدُّث إلى أنْفُسنا بصوت عال، وأن نمشي في الجوار دونَ أن تلحقنا عيونُ أحد، وأن نستلقي تغمرنا أحلامُ يقظة لا تنقطع! يغدو كلُّ بيتِ سهلاً، وتغدو كلُّ حجرة برحابةِ دارةٍ ريفيَّة كبيرة.

وتبدو كلُّ الأصوات التي يسمعها المرَّ تنبعثُ من مكانِ آخَو، كأنَّها تنتمي إلى كون قريب لكنَّه مُستقلُّ. نحنُ ملوكُ أخيراً. وهذا ما نرنو إليه جميعاً، ومَن يدري ربَّها يرنو الرُّعاعُ بلهفة إلى ذلك أكثر من أولئك الذين تطفح جيوبهم بالذَّهب المُزيَّف. نحنُ متقاعدو الكون، لوهلة، نعيشُ على دخولنا المعتادة لا نحتاجُ إلى شيء ولا يساورنا القلق.

آهِ، بَيْدَ أَنَّني، مِن الْخُطَى الصَّاعدة على الدَّرَج، الخُطَى التي تُفصِحُ عن قدومِ شخصِ مجهول، أعرفُ الشَّخص الذي سوف يقطعُ العزلةَ التي استمتعُ بها. فالبرابرة على وشكُ أن يغزوا إمبراطوريَّتي غير المُعلَنة. ولا يمكنني القول إنَّني أستطيع من الخُطَى الصَّاعدة على الدَّرج معرفة أنَّ ذلك الشَّخص قادمٌ إليَّ، ولا أنَّ تلك الحُطَى تذكَّرُني بِخُطَى شخص بعينه. بل إنَّ غريزة سريَّة تمتكها الرُّوح هي التي تخبرني بذلك، على الرَّغم من أنَّ الخُطَى بعينه. بل إنَّ غريزة سريَّة تمتكها الرُّوح هي التي تخبرني بذلك، على الرَّغم من أنَّ الخُطَى لَم تَوَلَّى فحسب، أيّا كان الذي يقتربُ على الدَّرج (الذي أراه فجأة أمامي لمجرَّد أنَّني أفكّر في الشَّخص الذي يصعدُ عليه). نعم، إنَّه أحدُ الكَتبة. يتوقَّف. أسمعُ الباب بنفتح، فيدخل، أراه كما ينبغي في هذه اللَّحظة. ثُمَّ يقول لي، في أثناء دخوله: «وحدك تماماً، يا سيِّد سوارش؟». فأجيب: «نعم، لقد كنتُ كذلك لبعض الوقت الآن...»، ثُمَّ، وهو يخلع سترته، ناظراً إلى سترته الأخرى، سترته القديمة، معلَّقةً على المشجب، قائلاً: «ضجرٌ رهيب أن ناظراً إلى سترته الأثوري، سترتهُ القديمة البالية، ثم قال وهو يذهب إلى مكتبه: « يكفي أنَهُ هذه الأثناء، قد ارتدى سترتهُ القديمة البالية، ثم قال وهو يذهب إلى مكتبه: « يكفي أنّهُ فهذه الأثناء، قد ارتدى سترتهُ القديمة البالية، ثم قال وهو يذهب إلى مكتبه: « يكفي أنّهُ يعلك راغباً في الذَّهاب إلى النَّوم». فأوافقه، مُتبسًا: «إنَّهُ كذلك دون شكً». ثُمَّ أمدُّ يدي يعلك راغباً في الذَّهاب إلى العافية المجهولة للحياة الطبيعيَّة.

414

[5 أبريل 1933]

أَنْ نَعُدَّ كَرْبَنَا الأعظم مجرَّد حادثة بلا أهميَّة، ليس بالنِّسبة إلى حياة الكون وإنَّما بالنِّسبة إلى أرواحنا، هُوَ بداية المعرفة. أَنْ نتأمَّل هذه المسألة لوهلة في غمرة ذلك الكَرْب هُوَ المعرفة الكاملة. فحين نعاني، يبدو الألم البشريُّ بلا نهايةٍ. ولكنَّ الألم البشريُّ ليس بلا نهايةٍ، فلا شيءَ بشرياً بلا نهاية، وليس أَلْنَا على الإطلاق أكثر من مجرَّد ألم نحسُّ به.

كم مرَّة، تحت وطأة سأم على شفير الجنون أو كَرْبِ يفوقُ كُلَّ كرب، أتوقَفُ وأتردَّدُ قبل أن أثور، أتوقَفُ وأتردَّدُ قبل أن أجعل نَفْسي إلها أ فمن يستطيع أن يعرف أي ألم أسوأ من الآخر: ألمُ عدم فهم سرِّ الحياة، ألمُ ألَّا نُحَبَّ، ألمُ ظُلم الآخرين لنا، ألمُ الحياة التي تسحقنا وتخنقنا وتسجننا، ألمُ وجع الأسنان ووجع الحذاء الضَّيِّق الذي يقرصُ أقدامنا؛ ومن يستطيع أن يعرف أيها الأسوأ بالنَّسبة إلى الآخرين، أو أيها الأسوأ بالنَّسبة إلى الآخرين عموماً؟

 شخص حسَّاس يعرف نَفْسه وبذلك يعرف ما هي الحساسية.

ليس صحيحاً أنَّ الحياة مؤلمة، أو أنَّ من المؤلم التَّفكير في الحياة. الصَّحيح هُوَ أنَّ أَلَمْنا ليس فادحاً ومُهماً إلَّا بالقَدِّر الذي نتظهر به. ولو عشنا على نحو طبيعيٍّ، فسوف يزول بالسُّرعة التي حلَّ بها، سوف يذوي سريعاً مثلها تفتَّح. فكلُّ شيء لا شيء، وألمُنا ليس استثناءً.

أكتبُ هذه الأشياء تحت وطأة سأم طاغ يبدو أنّه على وشك أن يكتسح حدود كينونتي أو يبدو بالأحرى أنّه في حاجة إلى حيِّز أكبر من روحي كي يُوجَد فيه. يضطهدني البشرُ جميعاً وكلُّ شيء يستبدُّ بي، يختقني ويُجننني؛ يغمُّني إحساسٌ جسديٌ ساحقٌ لافتقار الآخرين إلى القدرة على الفَهْم. لكنّني أنظرُ عالياً إلى السَّاء الزَّرقاء، كاشفا وجهي للنسيم اللاخرين إلى القدرة على الفَهْم. لكنّني أنظرُ عالياً إلى السَّاء، فأنسى وجنتي حالما أشعرُ بالنسيم. البارد غير الواعي، ثُمَّ أُرخي جفنيَّ وقد رأيتُ السَّاء، فأنسى وجنتي حالما أشعرُ بالنسيم. لا أشعرُ أنّني بتُ أفضلَ، أشعرُ أنّني ختلف. أرى نَفْسي تتحرَّرُ من نَفْسي. أكادُ أبتسم، لا لأنني أفهم نَفْسي، وإنّا لأنّني، وقد أصبحتُ شخصاً آخر، لم أعُد قادراً على فَهم نَفْسي. عالياً في السَّاء، مثل خواء مرئيًّ، تتدلّى غيمة صغيرة جداً، نُتفَةُ شاحبة منسيَّةٌ من الكون بأسم ه.

415

[7 أبريل 1933]

لم يلاحظني أحدٌ، على الرَّغم من أنَّني مشيتُ غريباً بينَهُم. ولم يشكّ بِي أحدٌ، ولا حتَّى أنا، على الرَّغم من أنَّني عشتُ جاسوساً بينَهُم. عَدَّني الجميعُ أحدَ الأقرباء، ولم يعرف أحدٌ أنَّي قد تبدَّلتُ عند الولادة. هكذ اكنتُ كالآخرين ولم أكن مثلهم، أخَ الجميع دونَ أن أكون فرداً من العائلة.

جئتُ من أراض عجيبة، من مناظر طبيعيَّة أجمل من الحياة نَفْسها، لكنَّني لم أتكلَّم بتاتاً عن تلك المناظر الطَّبيعيَّة التي لمحتُها في عن تلك المناظر الطَّبيعيَّة التي لمحتُها في الأحلام. كانت خطواتي تتردَّدُ أصداؤها فوق الأرضيَّات الخشبيَّة وحجارة الرَّصيف مثل خطواتهم تماماً، ومها بدا نبضُ قلبي قريباً، فقد تباعد دائهاً، إنني سيِّدَ زائف على جسدِ غريب ومنفيِّ.

لم يعرفني أحدٌ تحت قناع المساواة، ولم يُخمنوا مرَّةً واحدة أنَّهُ كان قناعاً، فلا أحدَ عرف بوجود اللَّاعبين المُقنَّعين في هذا العالم. ولم يتخيَّل أحدٌ أنَّ ثمَّة أحداً إلى جانبي دائماً: أنا الحقيقيُ، فلطالما ظنُّوني عَيِّنَ نَفْسي تماماً.

أجارتني بيوتهم، وصافحتني أياديهم، ورَأَوْنِي أمشي في الشَّارع كَانَّني قد كنتُ حقاً هُنَاك، ولكنَّ الشَّخصَ الذي أنا هُوَ لَمْ يكُنِ قَطُّ في تلك الحُجرات، والشَّخصَ الذي يعيشُ في ليسَ لَهُ يدان كي يصافحَهُ النَّاسُ، والشَّخصَ الذي أعرف أنَّ نَفْسي ستكونهُ ليس لَهُ شوارع يمشي فيها ولا يستطيع أن يراه أحدٌ هُنَاك، إلَّا إن كانت تلك الشَّوارع هي الشَّوارع كانتَ تلك الشَّوارِ في يراهُ النَّاسِ جميعاً.

ولسوف نعيشُ تلك الحيوات البعيدة والمجهولة؛ ولسوف نكابدُ، مُتنكِّرينَ، قدرَ الغرباء. ولكنَّ هذه المسافة بين المخلوق الآخر وأنْفُسِنا لا تُكشَفُ بتاتاً لدى بعضهم؛ ولا تُكشَف لدى بعضهم الآخر إلَّا بين حِين وآخر، عبر الرُّعب والألم، مضاءة بوميض برقٍ لا يُحَدُّ؛ غير أنَّها ما تزالُ لدى بعض الثَّابتَ المؤلمَ لحيواتهم اليوميَّة.

وإذا نعلمُ بكلِّ وَضوحِ أنَّ ما نحن عليهِ لا يمتُّ إِلَيْنَا بصلةٍ، وأنَّ ما نُفكِّر فيه أو نشعرُ به هُوَ دائهًا في طَوْر التَّرجمة، وأنَّ ما نرغبُ فيه ربَّها لم نرغب فيه البتَّة - أن نعرف هذا في كلَّ لحظة، أن نشعر بهذا كلِّه في كلِّ شعور، أليس هذا ما يعنيه أن تكون غريباً في روحك، منفياً عن مشاعرك؟

ولكنَّ الشَّخص الذي كنتُ أُحدِّقُ فيه بسلبيَّة، وكان واقفاً في الزَّاوية يُكلِّمُ شخصاً غير مُقنَّع، مَّد يدَهُ أخيراً، في ليلة الكونقال الأخيرة هذه، ثُمَّ ودَّعني ضاحكاً. استدارَ الشَّخصُ غير اللَّفنَّع يسارَ زاوية الزُّقاق التي كانا يقفان فيها، في حين سارَ الشَّخص اللَّقنَّعُ -في دومينو غير مُتخيَّلة - إلى الأمام، مُتحرِّكاً بين الظُّلال والأضواء العَرَضيَّة، في وداع نهائيٌ كان مختلفاً غير مُتخيَّلة - إلى الأمام، مُتحرِّكاً بين الظُّلال والأضواء العَرَضيَّة، في وداع نهائيٌ كان مختلفاً عن الذي فكرتُ فيه. لم ألحظ إلَّا حينئذِ أنَّ شيئاً آخر كان في الشَّارع، فضلاً عن مصابيح الشَّارع: ضوءَ قمر مُنتشراً، خبيئاً وصامتاً، طافحاً بالعَدَم، كالحياة...

[29 أغسطس 1933]

حتَّى المدينة لها لحظاتُها من الهدوء الرِّيفيِّ، والسيِّما في ظهيرة الطَّيف القائظ، حين يجتاح الرِّيفُ مدينة لشبونة المشرقة هذه، كالرِّيح. وحتَّى هُنَا، في نُحوا دُشْ دُوْرَادُوْرِش، ننامُ قريري العَيْن.

يا لبهجة الرُّوح وهي ترقبُ تحت شمس هادئة عالية صمتَ هذه العربات المُحمَّلة قشاً، وهذه الصَّناديق الفارغة، وهؤلاء المارَّة المُتمهِّلين، المنقولين إلى هُنَا من بعض القرى! وحبن أرقبُهم من نافذة المكتب، حيث أكون وحيداً، فأنا نُقِلتُ أيضاً: إنَّني في بلدة ريفيَّة هادئة، أو راكدٌ في قرية صغيرة مجهولة، تغمرني السَّعادة، لأنَّني أشعر بأنِّ شخص آخَر.

أعرفُ آنَّهُ لا يتوجَّبُ عليَّ إلَّا أَنْ أَرفعَ عينيَّ لأَرى أمامي خطَّ أُفق المنازل الشَّاحب، والنَّوافذ غير المغسولة لجميع المكتب في بَايْشَا والنَّوافذ الفارغة للشَّقق الواقعة في الطَّوابق العلويَّة، والغسيل المحتوم المُعلَّقُ فوقها، حول أسطح العليَّات، كي يجفَّ في الشَّمس بين أصص الزُّهور والنَّباتات. أعرفُ هذا ولكنَّ الضُّوءَ الذَّهبيَّ الذي يسقطُ ناعمٌ جداً، والهواءَ الهادئ الذي يلفُّنِي فارغٌ جداً، فأُدركُ افتقاري إلى حافز بصريٍّ كي أهجر قريتي الباطلة، بلدي الرِّيفيَّة، حيث تجلب لي حركةُ التِّجارة الدَّائرة فيها الرَّاحة والهدوء.

أعرفُ، أعرفُ... إنَّهُ الوقت الذي يتناول فيه الجميع طعام الغداء أو يَقيلُون أو يأخذون قسطاً من الرَّاحة. كلُّ شيء يمرُّ طافياً، تغمره البهجةُ، على سطح الحياة. وحتَّى حين أَمِيلُ خارج الشُّرفة، كأنَّها سياجٌ يحيط بسطح سفينة، ناظراً إلى المنظر الطَّبيعيِّ الجديد، فإنَّني أيضاً، أنامُ. أطردُ من بالي جميعَ الأفكار التي تعلَّبني كما لو أنَّني كنتُ أعيش حقاً في الأقاليم. ثمَّ فجأة ينهض شيءٌ آخر، فيلفُّني ويُحكِمُ قبضته عليَّ: أرى، خلف مشهد الظَّهيرة حياة تلك البلدة الرِّيفيَّة كلَّه؛ أرى السَّعادة البلهاء الهائلة للحياة العائليَّة؛ سعادةَ الحياة والحقول، والقناعة في غمرة التَّفاهة. أرى لأنَّني أرى. غير أني لا أرى المزيدَ، حينئذ، فأصحو. أنظرُ من حولي مبتسماً، وقبل أن أفعل أيَّ شيء آخر، أنفضُ الغبار عن كوعَي بذلتي، وهي بذلة داكنة للأسف تغبَّرتُ جرًاء اتّكائي على سياج الشُّرفة الذي لم يُكلِّف أحدٌ نفسه عبء تنظيفه، غبر

مُدركِ أنَّه سيغدو ذات يوم، ولو لوهلةٍ، السِّياج (الخالي من الغبار المحتمل كلَّه) الذي يحيط بسطح سفينةٍ انطلقتْ مبحرةً في رحلة أبديَّة.

417

[8 سپتمبر 1933]

عالياً في اللّيل الوحيد، خلف نافذة، يتوهّجُ مصباحٌ بجهول. كلُّ شيء آخر في المدينة معتمّ اللّا حيث تنبعث الأشعة الواهية من مصابيح الشّوارع، فَتُشبِهُ، هُنَا وهُنَاك، أكثر أضواء الأقيار الأرضية شحوباً. ولا تكادُ تَبِينُ، في سواد اللّيلِ، ألوانُ البيوت ودرجاتها المختلفة؛ إنها ملتبسة كل الالتباس، وبإمكان المرء أن يقول إنّها تكاد تكون مجردة، فالاختلافات تُبرِزُ الختلالاتِ الكُلِّ المُنفَلِد.

موصولٌ أنا بصاحب المصباحِ عبر خيطً محجوب. لا نكون في الغالب مستيقظين في الوقت ذاته، ولا تَعامُل بالمِثْل في هذه العلاقة. فهو لا يستطيع أن يراني، لأنّني واقف عند النّافذة في العتمة. إنّه أمرٌ آخر، يخصّني وحدي، أمرٌ يتّصلُ بشعور الوحدة الذي يشاركُني النّافذة في العتمة، فيختارُ ذلك المصباح بوصفه شيئاً يتعلّقُ به، فلا شيءَ سواهُ. كأنّ العتمة تبدو حالكة لأنّ ذلك المصباح مضاءً فحسب. ويبدو أنّ المصباح يشتعلُ هُنَاك، لأنّني مستيقظٌ، أحلمُ في العتمة، لا أكثر.

ربَّما لا يُوجَدُّ كلَّ شيء إلَّا لأنَّ شيئاً آخر يُوجَدُ. فلا شيءَ موجودٌ في حدِّ ذاته، كلَّ شيءٍ موجودٌ مع غيرهِ؛ لعلَّ هذا صحيحٌ. أشعرُ أنّني لن أُوجَد في هذي السَّاعة (أو ليس بالشَّاكلة ذاتها تماماً على الأقلّ، عبر وعيي الحاضر بِنَفْسي التي، لأنّها واعيةٌ، ولأنّها حاضرةٌ، هي في هذه اللَّحظة أنا تماماً) لو لم يكن ذلك المصباح مضاء هُناك، في مكان ما، منارة لا تشير إلى شيء، مُشيَّدة على المكانة الرَّفيعة الباطلة التي أسبغها عليها شموخُها. أشعرُ بهذا كلّه لأنّني لا أشعرُ بشيء. وأفكرُ في هذا كلّه لأنّه لا شيء. لا شيء. لا شيء، مجرَّد بعض من اللّيل والصَّمت وبعض الخواء والسَّلبيَّة والطّيش الذي أشاركهما إيّاهُ، والفضاء المُوجود بَيْنِي وَالصَّمت وبعض أضلَّهُ إله...

[1933 سېتمبر 1933]

يقولون إنَّ السَّام مرضَّ يصيب الكُسَالي أو يهجمُ على أولئك الذين لا شيء لديم يفعلونَه فحسب. ولكنَّ محنة الرُّوح، هذه، أشدُّ رهافة من ذلك: إنَّها تهجمُ على أولئك الذين يعملون إليها، وهي أكثر تسامحاً مع أولئك الذين يعملون أو يتظاهرون بأنَّهم يعملون (الأمر الذي يُفضي إلى الشيء ذاته على أيِّ حال) عمَّا هي مع الكسالي حقاً.

لا شيء أشد سُوءا من التَّناقض بين الأُبَّهة الطَّبيعيَّة للحياة الجوَّانيَّة، بجُزرها الهنديَّة وبلدانها الني لم تُكتَشف بَعْدُ، وبين قذارة رتابة الحياة اليوميَّة، حتَّى حين تكون قذارة حقاً. تشتدُّ وطأة السَّأم كثيراً حين لا تكون العَطالة عُذراً. سأمُ العظهاء والمشغولين هُوَ السَّأمُ الأعظمُ.

السَّأَمُ ليس مرضاً ناجماً عن ضجر ألَّا يكون ثمَّة ما نفعلُه، ولكنَّهُ المرض الأسوأُ لشعورنا بأنْ لا شيء يستحقُّ أن نفعله. وهكذا، فكلَّا اشتدَّ عملُ المرء، اشتدَّ سُوءُ سأمِه.

كم مرَّة رفعتُ عينيَّ عن الكتاب الذي أكتبُه، فشعرتُ أنَّ رأسي خاوِ تماماً من العالَم كلَه. من الأفضل لو كنتُ كسولاً، لا أفعل شيئاً، ولا شيء لديَّ أفعله. وعلى الرغم من أن ذلك السَّأم حقيقيُّ، فإنَّني قادر على الاستمتاع به على الأقلِّ، لا راحة -في حالي الرَّاهنة - ولا نُبْلَ، ولا عزاء في شعوري بعدم الرَّاحة؛ ثمّة بلادة رهيبة في كلِّ إيهاءة آتي بها، وليس ثمَّة تَعَبُّ مُفترَضُّ في الإيهاءات التي لن آتي بها أبداً.

419

[2 توفمبر 1933]

ثمّة أحزانٌ عميقة الجذور، شديدة الغموض والتّغلغُل، إلى درجة تجعل من الصّعب معرفة إنْ كانت تنتمي إلى الرُّوح أم الجسد، إنْ كانت نابعة من التَّوعُك النَّاجم عن تأمَّل عقم الحياة أو ناجمة بالأحرى عن اعتلال ألمَّ بهُوَّةٍ داخل أنفُسنا: المعدة، أو الكبد، أو الدِّماغ. كم مرَّة حجبَتْ وعبي العاديَّ بِنَفْسي الثُّهَالةُ التي اضطربَتْ في قاع بَعض راكدٍ مني! وكم مرَّة يجرحني الوجودُ إلى الحدِّ الذي أشعرُ فيه بغثيانٍ شديد الغموض فلا أستطيع معرفة إنْ مرَّة يجرحني الوجودُ إلى الحدِّ الذي أشعرُ فيه بغثيانٍ شديد الغموض فلا أستطيع معرفة إنْ

حزينة روحي اليوم في كلَّ ذرَّة من ذرَّات وجودها. كلُّ شيء يوجعني – الذَّاكرة، والعينان، والذِّراعان. كأنَّ أوجاعاً مُبرحة قد ألمَّت بجميع مفاصل كينونتي. لا شيء يمسُّ كينونتي: لا الإشراق الصَّافي للنَّهار، ولا السَّاء الزَّرقاء الصَّافية العظيمة، ولا المَد الثَّابت للضُّوء المُنتشر. ولا يؤثِّرُ فِيَّ بتاتاً النَّسيمُ الخريفيُّ الخفيف الذي مازال بحمل آثار صيف لَمْ يُسُن بَعْدُ، مَضفياً لوناً على الهواء. ولا شيء يعني أيَّ شيء بالنَّسبة إليَّ. إنَّني حزينٌ، ولكنَّني لا أعرفُ أيَّ حُزنِ حُزنِ، حُزني هُنَاك، في الشَّارِع الطَّافح بالصَّناديق.

ولا تُعبِّرُ هذي الكلماتُ عمَّا أشعر به تماماً، فلا شيء يستطيعُ، بلا أدنى شكَّ، التَّعبيرَ عمَّا يشعر به المرابقة أو أخرى، أن أمنح فكرةً عمَّا أشعر به، وهو مزيجُ مَناحٍ مختلفة منِّي ومن الشَّارع في الأسفل الذي، لأنَّني أراهُ، ينتمي إليَّ وهو بعضٌ منِّي، على نحوِ حميميًّ على التَّحليل.

أُودُ أَن أُعيشَ حيواتٍ مختلفة في أراض بعيدة. أودُ أَن أموتَ شخصاً آخَر تحت راياتٍ مجهولة. أودُ أَن أُتوَّجَ إمبراطوراً في زمن آخَر (زمن أفض لأنَّه بكلِّ بساطة ليس هُوَ اليوم) يتجلَّى لي بألوان زاهية بين تماثيل أبي هَوْلِ مجهولة. أريدُ أيَّ شيء يجعلني الشَّخص الذي أبدو عليه سخيفاً. أودُّ، أودُّ... ولكنْ ثمَّة الشَّمسُ دائماً حين عليه سخيفاً. أودُّ، أودُّ... ولكنْ ثمَّة الشَّمسُ دائماً حين تشرقُ الشَّمسُ واللَّيلُ دائماً حين يبطُ اللَّيلُ. وثمَّة حزنٌ دائماً حين يجتاحُنا الحزنُ وأحلامُ دائماً حين تُهدهدنا الأحلامُ. وثمَّة دائماً ما هُوَ دائماً هُنَاكُ وليسَ ما يتوجَّبُ أَن يكون هُنَاكُ دائماً حين أن ذلك أفضل أو أسوا، وإنَّم لأنَّهُ الآخَرُ. ثمَّة دائماً.

الزَّبَّالُون يعملُون في الأسفل، ينظُّفُون الشَّارِع من صناديق القيامة. يضحكون ويتكلَّمون، يضعون الصَّناديق واحداً فو احداً في العربات. أنظرُ إليهم من نافذة مكتبي العالية، بعينَيْن خاملتَيْن تحت جفنين متهدَّلين. ثمَّة شيءٌ غامض، لا يُسبَر غوره، يربطُ ما أشعرُ به بالصَّناديق التي أراها تُعبَّأُ في العربات؛ شعورٌ مجهول يضع سأمي وكَرْبي وغثياني، أو أيَّ شيءٍ كان، في صندوق، ثمَّ يرفعه على كتفي رجل يُنكِّتُ بأعلى صوته، ثمَّ يضعه في عربة ليستُ هُنَا. وضوءُ النَّهار الهادئُ مثلها هُوَ دائهاً يسقطُ مُنحرفاً على طول الشَّارِع الضيِّق، في المكان الذي يحمَّلُون

فيه الصَّناديق وليس على الصَّناديق أنْفُسها التي في الظلِّ، وإنَّمَا على الزَّاوية في الأسفل هُنَاكِ حيث الصِّبيةُ الشَّعاةُ مشغولون بعشوائية، دون أن يفعلوا أيَّ شيء.

420

[23 دىسمبر 1933]

حين نتأمّل، في ضوء سكينتنا الجوّانية، جميع الحوادث العَرَضيّة المؤسفة في حياتنا -حين نكونُ إمّا سخيفين وإمّا خسيسين وإمّا متأخّرين على نحو مخيف فسوف نراها مصائب حدثتْ في أثناء الرِّحلة. نحنُ رحّالةٌ في هذا العالم، طَوْعاً أو كَرْها، بين لا شيءَ ولا شيء، أو بين كلّ شيء وكلّ شيء، عُرَّد مسافرين ولا بُدّ لنا ألّا نُسبغ أهميّة بالغة على أيّ انتكاسات عرّضنا إليها في الطّريق، وأيّ كدمات ورضوض أصابتنا على امتداده. أُواسي نَفْسي بذلك كلّه، لكنّني لا أعرف إنْ كان يواسيني في الواقع، أمْ ثمّة شيءٌ فيه يواسيني حقاً. بَيْدَ أَنَّ تلك المواساة المتخيّلة تغدو حقيقيّةً حين لا أُفكّرُ فيها.

ثمّة أشياء كثيرة تجلبُ السُّلوان! ثمّة السَّاءُ العالية، الهادئة، الصَّافية التي تطفو عبرها الغيمةُ النَّاقصة العبرة، وثمّة النَّسيمُ الخفيف الذي يهزُّ أغصان الأشجار الطَّافحة بالأغصان حين يكون المرءُ في الرِّيف، والذي يجعلُ الثيّاب ترفرف وهي منشورة كي تجفَّ خارج نوافذ الشُّقق الواقعة في الطَّابق الرَّابع أو الخامس حين يكون المرء في المدينة. وثمّة حرُّ الأيّام القائظة ويرودةُ الأيّام الباردة، حيث ثمّة ذكرى أو حنينٌ أو أملٌ، في الخلفيّة دائما، وشيءٌ يبتسمُ في النَّفذة المفتوحة على الخواء، ورغباتُنا تطرق عبى بابِ مَاهيّتِنا مثل الشَّخاذين الذين يتجسد بهم المسيح.

421

[\$1933]

كان يُغنِّي بأعذب صوت أغنيةً تنتمي إلى بلاد بعيدة. كانت الموسيقى قد جعلت الكلمات الغريبة تبدو مألوفة. بَدَتْ مثل أغنية فَاذُوِّ (850) أُلِّفَتْ للرُّوح، على الرَّغم من أنَّها لم تكُن أغنيةَ فَاذُوْ حقاً.

⁽³⁵⁸⁾ أنظر الحاشية 137. (المترجم)

تحدَّثت الأغنيةُ، عبر كلماتها المحتجة ولحنها الإنسانيِّ، عن أشياء موجودة في كلِّ روح ولكنّنا لا نعرف عنها أيَّ شيء. كان يُغنِّي كأنَّهُ في غيبةِ النَّشوة، واقفاً في الشَّارع وقد شَفَّهُ الوجدُ، غائباً عن كلِّ شيء حتَّى الجمهور الذي يصغي إليه.

كان الذين احتشدوا هُنَاك كي يستمعوا إليه قد فعلوا ذلك بشيءٍ من التّهكّم. كانت الأغنية تنتمي إلينا جميعاً وكانت الكلمات تتحدّثُ في بعض الأحيان إلينا مباشرة عن السّرِّ الشَّرقيِّ لعرق بشريٌّ مفقود. كان ضجيجُ المدينة يتعالى دون أن نسمعه، إنْ كُنَا قد لاحظنا وجودَهُ أصلاً، فتَمُرُّ العرباتُ على مقربة شديدة مِنَا حتَّى إنَّ عربة لمستْ ستري بخفّة حين عبرتْ مسرعة. لم أسمعها على الإطلاق، بيد أني شعرتُ بها فحسب. كانت ثمّة حِدَّةٌ في غناء الغريب أحيَتِ الحالم الذي فينا، أو الجزءَ الذي لا يستطيع أن يحلم منا. ولكنّة كان بالنسبة إلينا بحرَّد شيء ننظرُ إليه في الشَّارع فنلحظُ قدومَ الشرطيِّ على مهله عند الزَّاوية. وهلة خلف الصّبيِّ الذي يبيع الشَّمسيَّات، كما لو أنّه قد لحظ شيئاً ما. فتوقف المُغنِّي في تلك اللَّحظة تماماً، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة، ثمَّ ولفَ الشرطيُّ.

422

[1933]

مرَّتِ العاصفةُ التي كانت تتوَّعدُ السَّكينةَ القَلِقة أخيراً، فتعاقبَتْ ثلاثةُ أيَّام من حَرِّ لا يكفُّ، جلبَتْ برودة فاترة لكنَّها منعشةٌ إلى سطح الأشياء الشَّفَاف. والشَّيء ذاته يحدث حين تشعرُ الرُّوح، في مشوار الحياة، وقد أرهقت كاهلها الحياة، بأنَّ الوطأة قد زالتْ فجأةً على نحو غير قابل للتَّفسير.

أَتَأُمَّلُ البشر على أنَّهم أحوالٌ جوِّيةٌ تتوَّعدها دائهاً عواصفُ ستندلعُ في مكان آخر. امتدادُ الأشياء الشَّاسعُ الخاوي، والنِّسيانُ العظيم الذي يملأُ السَّماءَ والأرض... قَصصُ الفاصل المسرحيِّ (310) تُلوِّنُ ما ينطوي عليه كُفْرُنَا من لامبالاةٍ وخُمُول.

424

[31 سارس 31]

مضى وقت مديدٌ على المرَّة الأخيرة التي كتبتُ فيها أيَّ شيء! عشتُ خلال تلك الأيّام قروناً من الزُّهد المُتردُّد. ركدُتُ كبحيرة مهجورة في منظر طبيعيٍّ غير موجود.

غمر تني، غمر تني بمسرَّةٍ في تلك الأثناء الرَّتابةُ المتنوِّعة للأيَّام، والتَّعاقُب الذي لا بكفُّ عن التَّغيُّر للسَّاعات التي لا تتغيَّر؛ أقصدُ الحياةَ، على وجه الاختصار.

غالباً ما أُخفق في معرفة نَفْسي، وهذا حدَثُ شائع بين أولئك الذين يعرفون أنْفُسهم. أرقبُ نَفْسي في أقنعتها التنكُريَّة المختلفة التي أعيش بها، ولا أستبقي من الأشياء التي تتغيَّر سوى ما يبقى على حاله فحسب، ولا أستبقي من الأشياء التي يقوم بها المرء إلَّا التَّافه الذي لا قيمة له فحسب.

وأتذكّر، بعيداً فِيّ، كما لو كنتُ منهمك في رحلة جوّانيّة، الرَّتابة المتنوِّعة لذلك المنزل في الأقاليم... المنزل الذي قضيتُ فيه طفولتي، ولكنّني، حتّى لو رغبتُ في ذلك، لا أستطيع القول إنْ كانت حياتي أسعد ممّا هي عليه اليوم أو أقلَّ سعادة. فالشّخص الذي عاش هُنَاكُ لم يكُن أنا، وإنّما شخصٌ آخر: إنّهما حياتان مختلفتان، متنوِّعتان، وغير قابلتين للمقارنة الرّتابتان ذاتهما اللّتان تبدوان متشابهتين في الظّاهر ولكنّهما مختلفتان، دون شكّ، في الباطن.

⁽³⁵⁹⁾ كان يِسُوَّا ينوي استخدام هذه العبرة القصصُ لفاصل المسرحيِّ Ficções do interludio عنواناً للأعيال الني خصصها لأنداده، إذ كان بخطط، وفق ما يذكر زبنيث في حواشي طبعته، لنشرها في بجلّدات مختلفة، ولكنَّه لم يطلق هذه العبارة، في حقيقة الأمر، إلَّا على مجموعة من خمس قصائد نشرها موقَّعة باسمه الصَّريح في العام 1917. وعبارة interludio (أو interlude) في الإنگليزيَّة) تشير إمَّا إلى مسرحيَّة قصيرة، وإمَّا إلى الفاصل الذي يكون بين فقرات عرض مسرحيِّ كبير، سواه أكن ذلك الفاصل موسيقياً أم أدائياً أم غنائياً، أم غير ذلك. انظر الفقرتيَّن الأخيرتَيْن من المقطع 383 لمزيد من الضوء على مفهوم هذه لعبارة عند يسُوَّا، أو المقطع 233، حين يقول: «نحنُ شيءٌ يحدثُ في أثناء فاصل مسرحيٌ، فنلمحُ، أحياناً، عبر أبواب معيَّنة، ما قدّ يكونُ المشهد، ليس إلَّا، ولا بُدَّ من العودة، أيضاً، إلى الملحق الذي يحمل العنوان ذاته، في آخر الكتاب. (المترجم)

لم تكُونا رتابتَيْن وإنَّما حياتان.

ولكن، لماذا أتذكَّر؟ أهُوَ التَّعب؟ التَّذكُّر راحةٌ، فهو لا ينطوي على أيِّ فِعل. نم مرَّة، كي ينتابني إحساسٌ عميق بالرَّاحة، تذكَّرتُ الذي لم أَكُنهُ، بَيْدَ أَنْ لا صفاءً، ولا حنينَ في ذكرياتي عن تلك البلدة الرِّيفيَّة التي عشتُ فيها، على شاكلة الآخرين؛ ذكرياتي التي تطفو فوق ألواح الأرضيَّات الحشبيَّة، داخلةً في الزَّمن البعيد وخارجةً منه، في الغرف الفسيحة التي لم أعرفها قطُّ.

صرتُ نَفْسِي المتخيَّلةَ تماماً، حتَّى بات أيَّ شعور طبيعيٍّ ينتابُني (إنْ كان يتوجَّب عليَّ أن أُجرِّب هذا الشَّعور) يغدو، في اللَّحظة التي ينتابُني فيها، شعوراً مُتخيَّلاً على الفور: تغدو الذَّاكرةُ حلماً، ويغدو الحُلم نِسياناً للأحلام، وتغدو معرفةُ النَّفْس افتقاراً للتَّامُّل في النَّفْس. لقد جرَّدتُ نَفْسِي من كينونتي تماماً حتَّى بات وجودي يعني أن أكسو نَفْسِي، فلا أكون نفشي إلَّا حين أتنكر. وكلُّ الأشياء التي من حولي، حين تتلاشى، مغيباتُ شموس مجهولة تغمرُ بالذَّهب مناظرَ طبيعيَّة لن أراها أبداً.

425

[5 بونيو 1934]

السَّكينةُ أخيراً (360). تتبدَّدُ من روحي ثُهَالَةُ القلَقِ أو حطامُهُ، كأنَّهُ لم يكُن قَطَّ. أجلسُ وحيداً تغمرني الطُّمأنينةُ. كانتِ الوهلة التي مرَّتْ في الحال كأنَّها وهلة هداية دينيَّة، لكن لا شيءَ يجعلني أُيمَّمُ وجهي شطرَ السَّهاء، مثلها لا شيءَ، أيضاً، يجعلني أُرخي ناظريَّ إلى الأرض. أشعرُ أنَّني حرَّ، كأنَّني كففتُ عن الوجود واستبقيتُ وعبي.

السَّكينةُ، نعم، السَّكينةُ (افك). طمأنينةٌ عظيمة تتغلغلُ في أعماق كينونتي، عذبةً عذوبة السَّكينةُ، نعم، السَّكينةُ (افك). طمأنينةٌ عظيمة والواجبات التي أدَّيتُها، وأفعال حياتي وأحداثها العبثيِّ المُطلَق. باتَتِ الصفحات التي قرأتُها، والواجبات التي أدَّيتُها، وأفعال حياتي وأحداثها الجُزافيَّة مجرَّد شِبْه ظلِّ غامض، هالةٍ لا تكادُ تُرَى تحيطُ بشيء غريب وهادئٍ ومجهول بالنِّسبة الجُزافيَّة مجرَّد شِبْه ظلِّ غامض، هالةٍ لا تكادُ تُرَى تحيطُ بشيء غريب وهادئٍ ومجهول بالنِّسبة

الا انقيّد بها ذهبت إليه، معضلاً ترجمه عباره بِسُوا مها مني في الأصل «Socégo, sim, socégo»، وليس بحسب ما اقترحتُ

⁽³⁶⁰⁾ تستحدم جول كونستا، هُنَا، عبارة العالمة العالمة العبارة بِسُوًا المحارة بِسُوًا العارة ولكنّي آثرتُ الرث الّا أتقيّد بها ذهبت إليه، مفضّلاً ترجمة عبارة بِسُوّا كم هي في الأصل: «السّكينة أخيراً». (المترجم).

إلىّ. والجهدُ الذي أبدُله في بعض الأحيان كي أنسى روحي، والفكرةُ التي تخطر ببالي أحياناً كي أهجر الأفعال كلّها - يعودان إلىّ، في هذه الأثناء، في شكل رقّةٍ غير عاطفيّة، وحنانٍ عقيم، لا طعمَ له.

وإنّه ليس هذا النّهار العذب، المتواني، الغائم، اللّطيف. وإنّه ليس النّسيم الذي لا يكاد يُوجَدُ، والذي لا يكادُ أن يكون أكثر إلحاحاً من الهواء الذي أشعرُ به على جلدي. وإنّه ليس لون السّماء المجهول، المموس بالأزرق، هُنَا، وهُنَاك، على نحو باهت. وإنّه ليس ذاك. لأنّني لا أشعرُ بشيء. أرى سهوا، بلا قصد، المُتفرِّج اليَقِظَ الذي يتفرَّجُ على مشهدِ غير موجود. لا أشعرُ بروحي ولكنّ نَفْسي مطمئنّةٌ تماماً. لقد باتَ كلُّ شيء، في العالم الخارجي، واضحاً وساكناً، حتّى تلك الأشياء التي تتحرّك، فيتراءى في المشهدُ كما تراءى العالم لمسيح حين نظرَ إلى المدينة الممتدّة أمامَهُ فأغواهُ الشّيطانُ. لا شيءَ هذه الأشياء، فأفهمُ لم لم يُغو المسيخ. إنّه الا شيءَ فلا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لمحنّك عريقٍ كالشّيطان أن يتخيّل كيف يمكن أن تكون مغوية.

فَلْتَعْبُرِي، خفيفة، أيَّتها الحياةُ التي لا تحسُّ حتَّى بِنَفْسها، يا جدولاً رقراقاً صَامتاً تحت أشجارٍ منسيَّة! وَلْتَعْبُري، هادئةً، أيَّتها الرُّوح التي لا تعرف نَفْسها، يا خريراً تحجبهُ عن الأنظار أغصان ساقطة عظيمة! وَلْتَعْبُر، عبثاً، بلا غايةٍ، أيَّها الوعيُ الذي لا يعي شيئاً، أيَّها الوميضُ البعيد الغمضُ، عبر أمداءَ مُورقةٍ، لا أعرفُ من أينَ تأتي ولا أينَ تذهبُ. فَلتَعبُر، فَلتَعبُر، واتركني لأنسى!

أيُّها النَّسيمُ الحَافَّ؛ يا نسيمَ كلِّ الذي لم يجرو أن يعيشَ، يا أيُّها النَّفَسُ الأخرسُ؛ يا نَفَسَ كلِّ الذي لم يرغب في أن يشعرَ، يا أيُّها الخريرُ العبثيُّ؛ يا خريرَ كلِّ الذي لم يُرد التَّفكيرَ، مُرَّ على مهلكَ كسولاً في دوَّامات الماء التي تنتظرُكَ لا محالةَ، وفي المنحدرات الزَّلِقة الموضوعة هُنَاكَ من أجلكَ، مُرَّ في الظّلال أو في الضّوءِ مُر، يا شقيقَ العالمَ، في المجدِ مُرَّ أو في الهاوية، يا ابنَ الشَّواشِ، ويا ابنَ اللَّيل، دونَ أن يغيب عن بالكَ، دوماً، في زاوية من زوايا كينونتك، أنَّ الآلهة جاءت لاحقاً، وأنَّ الآلهة أيضاً ستذوي.

[9 يونيو 1934]

أحزنُ حين يحلُّ الصَّيف. قد يظنُّ المرء أنَّ بهاء ساعات الصَّيف، مهما كانت قاسية، تبدو علية لشخص غافل عن هوِّية نَفْسه. لكنَّني لستُ على تلك الشَّاكلة البَّة. فثمَّة تناقضٌ حادٌّ بين تلك الحياة الخارجية التي تفيضُ وما أشعر به وأُفكِّرُ فيه، دونَ أن أعرف كيف أشعر أو أفكِّر - هذا جثمان مشاعري الدَّائم الذي لم يُدفَن بَعْدُ. يخامرني انطباعٌ بأنَّني في هذا الوطن عديم الشَّكل الذي يُسمَّى الكون سوف أعيشُ تحت طغيان سياسيٍّ. وعلى الرَّغم من أنَّه لا يضطهدني مباشرة، فإنَّهُ سيظلُّ يسيءُ إلى مُعتقد خفيٌّ تنطوي عليه روحي. ثُمَّ يتجلَّ فِي، على مهلهِ خفية في تلك اللَّحظة، الحنينُ المأمولُ إلى منفى مستحيل.

ما أرغبُ فيه رغبة عارمة هُوَ النّوم. ولكنّ النّوم الذي أشتهيه، بخلاف التّنويعات الأخرى حتّى تلك التي يولدها المرض، لا يشتمل على ثواب راحة الجسد. ولا يساعد المرء على نسيان حياته، أو يجلب معه وعدَ الأحلام، موازناً على الصّينيّة التي يحملها حين يقتربُ من روحنا الهية الرّائقة للتّخلّي النّهائيّ. كلّا، إنّهُ نوم لا ينامُ بتاتاً، تشتدُّ وطأته على الجفون ولكنّه لا يُغمضها أبداً ويُغضّنُ زوايا الشّفتين المُرتابتين في إيهاءات يشعر المرء بأنّها مزيج من الاشمئزاز والغباء. إنّه ليس النّوم الذي تشتدُّ وطأته على الجسد في أثناء فترات الأرق العظيم الذي يجتاح الرُّوح.

⁽³⁶²⁾ تظهرُ، على ظهر القصاصة التي رقن عليها بِشُوَّا هذه الشَّذرة بالآلة الكاتبة، عمليَّاتُ حسابيَّة مكتوبة بقلم رصاص، وثمَّة أيضاً الرُّموز التَّالِبة التي شطَّب عليها: ٢٫32|3-۲۱ (A. Th) ٩٠٤٠-١٩٥٩). (المترجم)

[تحو 19 يونيو 1934]

حين لا نكفُّ عن العيش في المُجرَّد -سواء أكان تجريد الفِكر أَمْ تجريد المشاعر التي فكَّر فيها المرء- فإنَّنا سرعان ما سنصلُ، على النقيض من مشاعرنا وإرادتنا الشَّخصيَّة، إلى الأشياء التي لا بُدَّ أَنْ نشعر في أعماق أنْفُسنا في الحياة الحَقَّة، أنَّها باتَتْ بالنِّسبة إلينا مجرَّد أوهام.

حين أسمعُ بمرض أحدهم أو موته، بصرف النَّظر إنْ كنتُ صديقه الحميم أو الحقيقي، فإنَّه يترك لديَّ انطباعاً غامضاً ومُلتبساً وكثيباً إلى درجة أنَّي أشعرُ بالخجل لأنَّه ينتائبني. ولن يؤثِّر فِيَّ إلَّا أن أرى الحدَث نَفْسه، وأن أجدَ المشهدَ ماثلاً أمامي. فالعيش طويلاً على المُخيِّلة يُفقِد المرء قدرتَهُ على التَّخيُّل، ولاسيَّا قدرته على تخيُّل الأشياء الحَقَّة، والعيشُ ذهنياً على ما ليس كائناً ولا يمكن أن يكون، يجعلنا في النهاية عاجزين حتَّى عن تأمُّل ما يمكن أن يكون، يجعلنا في النهاية عاجزين حتَّى عن تأمُّل ما يمكن أن يكون، يجعلنا في النهاية عاجزين حتَّى عن تأمُّل ما يمكن أن يكون، يجعلنا في النهاية عاجزين حتَّى عن تأمُّل ما يمكن

علمتُ بالأمس أنَّ صديقً قديهاً، لم أره منذ وقت مديد لكنَّني لم أكف عن التَّفكير فيه بها قد أعدُّه نوعاً من الحنين، قد أُدخل المستشفى لإجراء عمليَّة جراحيَّة. كان الشُّعور الوحيد الإيجابيُّ والواضح الذي خامرني يتعلَّقُ بمدى السَّأم الذي سينتابني لو توجَّب عليَّ الذَّهاب لزيارته، دونَ أن يغيب عن بالي بديل ذلك المثير للتَّهكُّم الماثل في أنَّني لو لم أكلف نفسي بزيارته، فسوف أندم على عدم زيارته وحسب.

هذا كلَّ شيء... فبعد سنين من مقارعة الأطيف، صرتُ طيفاً أنا نَفْسي، في كلِّ ما أُفكَر فيه، وما أشعر به، وما أنا عليه. ثُمَّ يدخلُ الحنينُ إلى الشَّخص العاديِّ، الذي لم أكنهُ قَطُّ، في نسيج كينونتي تماماً. ولكنّني لا أشعرُ إلَّا بذلك، وليس إلَّا ذلك فحسب. لا أشعر حقاً بالأسف تجاه صديقي الذي سوف تُجرَى له عمليَّة جراحيَّة. ولا أشعر حقاً بالأسف تجاه جميع الآخرين الذين سوف تجرَى لهم عمليَّات جراحيَّة، وجميع أولئك الذين يعانون في هذا العالم ويجزنون. لا أشعر بالأسف إلَّا لأنّني لا أعرف كيف أكون شخصاً يشعر بالأسف. ثمَّ سرعان ما أكون في اللَّحظة التَّالية حتماً، يحرِّكني باعثٌ مجهول، قد بدأتُ التَّفكيرَ فعلاً في شيء آخر. حيننذ، وكانّني أهذي، يختلطُ حفيفُ الأشجار وصوت الماء المتدفّق في البرك في شيء آخر. حينئذ، وكانّني أهذي، يختلطُ حفيفُ الأشجار وصوت الماء المتدفّق في البرك والحديقة غير الموجودة، مع كلّ ما لم أستطع الشُّعور به، وكلّ ما لم أستطع أن أكونَهُ... أحاولُ

الشُّعور لكنَّني لم أعُد أعرف كيف، صرتُ طيفَ نَفْسي الذي أسلمتُ لَهُ كينونتي كلَّها. ولكَنَّني، بخلاف بيتر شليميل في الحكاية الألمائيَّة، لم أبع ظلِّ للشَّيطان، وإنَّها جوهر نَفْسي الله أعاني لا أعاني، لأنَّني لا أعرف كيف أعاني. أَحَيُّ أنا أمْ أتظاهرُ بأنَّني حَيُّ فحسبُ؟ أَعاني لأنَّني لا أعاني، لأنَّني لا أعرف كيف أعاني. أَحَيُّ أنا أمْ أتظاهرُ بأنَّني حَيُّ فحسبُ؟ أَناتمُ أنا أمْ مستيقظٌ؟ نسيمٌ خفيف باردٌ في حَرِّ النَّهار يجعلني أنسى كلَّ شيء. جفوني تشعرُ بأنَّها ثقيلةً وقد غمرتها المسرَّةُ... أَخَيَّلُ أنَّ هذه الشَّمس الذَّهبيَّة ذاتها تسقطُ على الحقول حيث لا أكونُ وحيث لا أرغبُ في أن أكون... ينبعثُ صمت عظيمٌ من صخب المدينة. كم هُوَ عذبُ! ولكنْ، كم سيبدو أعذب كثيراً ربَّها لو استطعتُ أن أشعر به!

(363) 428

[1934 يونيو 21]

وما إن نؤمنُ بأنَّ هذا العالم ليس إلَّا مجرَّد وهم وخيال، حتَّى نكون أحراراً من الاعتقاد بأنَّ كلَّ شيء يحدث لنا مجرَّد حُلم، شيء يتظاهرُ بأنَّه موجود لأَنَّنا ننامُ، ليس إلَّا. ثُمَّ تُولَدُ فِيْنَا حيتند لا مبالاةٌ غامضة وعميقة تجاه منغُصات الحياة ومصائبها. يستديرُ أولئك الذين ماتوا عند زاوية في الطَّريق بكلِّ بساطة، ويغيبون عن الأنظار؛ وأولئك الذين يعانون يموتون أمام أعيُننا مثل كابوس (إنْ كُنَّا نشعرُ)، ومثل حُلم يقظة بشع (إنْ كُنَّا نفكِّرُ). ولن تكون معاناتُنا أي شيءٍ أكثرَ من ذلك العدم. فنحن ننامُ على شِقنَا الأيسر، في هذا العالم، ونسمعُ في أحلامنا نبضَ قلبنا المستبدّ.

لا شيءَ أكثر... شمسٌ صغيرة، نسيمٌ خفيف، بضعُ أشجار تؤطَّرُ المسافة، الرَّغبةُ في أن نكون سعداء، ألمُنا حين نشعرُ بمرور الأيَّام، والمعرفةُ التي لن تكتمل تماماً أبداً والحقيقةُ التي هي داڻماً على وشك أن تتكشَّف... لا شيء أكثر، لا شيء أكثر... كلَّا، لا شيء أكثر...

⁽³⁶³⁾ هذا المقطع في الأصل موقّع باسم فرناندو يشوًا الصّريح، منسوبً من لدنه إلى سواوش، وثمَّة إشارة من يِسُوّا على لصّفحة الثانية التي رقنت عليها هذه الشّدرة بالآلة الكاتبة، إلى أنّها جزء من كتاب القلق. (المترجم)

[29 يونيو 1934]

أَنْ أَذُوقَ مَلذَّاتِ الحَالِ الصَّوفِيَّة، دون المُشقَّة التي تفرضها تلك الحال؛ أَن أَكُون المؤمنَ الذي لا يؤمن بأيِّ إلهِ، وقد شَفَّهُ الوجدُ؛ المُريدَ الصُّوفيَّ الذي لم يسلك الطَّريق بَعْدُ أو الزَّائي الذي لم يُجرِّبُ طقوس الأسرار: أَنْ أقضي أيَّامي مَتَامِّلًا في جنَّةٍ لا أُومنُ بها - كلِّ تلك الأشياء التي تبهجُ الرُّوح، لو كانتِ الرُّوح تعرفُ معنى ألَّا تعرف.

عَرُّ الغيوم الصَّامِتَة عالياً فوقي، فوق هذا الجسد المحبوس في ظلَّ، مثلها عَرُّ الحقائقُ المجهولة عالياً فوقي أيضاً، فوق هذي الرُّوح الأسيرة في جسد... كلَّ شيء يمرُّ في الأعلى... وكلُّ شيء يحدث في الأعلى مثلها يحدثُ في الأسفل، ولا غيمةٌ تتركُ أيَّ شيء أكثر من المطر، ولا حقيقةٌ تتركُ أيَّ شيء أكثر من الألم... نعم، كلُّ شيء في الأعلى يمرُّ في الأعلى، وكلُّ شيء قد يرغب فيه المرءُ بعيدٌ جداً ويمرُّ بعيداً جداً... نعم، كلُّ شيء يجذبُ، وكلُّ شيءٍ شيءٌ آخر وكلُّ شيء يمرُّ.

... فَهَاذَا لُو عَرِفْتُ، سُواءٌ أَأَمطرتِ السَّهَاءُ أَمْ أَشْرَقَتِ الشَّمسُ، وسُواءٌ أَكنتُ جسداً أَمْ روحاً، أَنَّني سوف أمرُّ أنا أيضاً؟ لا يهمُّ ذلك مثقالَ ذرَّةٍ، بغضِّ النَّظر عن أملِ أَنَّ كلَّ شيءٍ هُوَ لا شيءَ، ولذلك، فإنَّ اللَّاشيءَ هُوَ كلُّ شيء.

430

[نحو 29 يونيو 1934]

الكسلُ العميمُ عزاؤنا في كلِّ شيء، والتَّقاعسُ عن الأفعال مُعِيلُنا العظيم. والقدرة على التَّخيُّل هي كلُّ شيء، طالما لا تُفضي إلى أن نُحرِّك ساكناً. فلا أحدَ يستطيع أن يكون ملك العالم إلَّا في الأحلام. وكلُّ واحد مِنَّا يرغبُ، لو كُنَّا صادقين، في أن يكون ملك العالم. ألَّا تكون، وإنَّا أن تُفكِّر، هذا هُوَ العرشُ الحَقُّ. وألَّا ترغب، وإنَّا تشتهي، هذا هُوَ التَّاجُ.

epopt (364) (وفي البرتغائيّة epopta): أحد مريدي طريقة باطنيّة شاعت في إليوسيس Eleusis باليونان، وتقوم على معظيم ديميتير وبيرسفونه. وقد آثرت ترجمة epopt بالرَّائي، لأنَّ الكلمة في أصلها اليوناني تعني «المُطّلع على الأسرار»، والطَّقس الذي تمارسه هذه الطَّائفة يعرف باسم epopteia الذي يعني «الرُّؤية». (المترجم)

فكلُّ ما نزهدُ فيه ندَّخرهُ في أحلامنا دونَ أن يَمْسَسْهُ سُوء، مغموراً إلى الأبد في الشَّمس غير الموجودة أو القمر الذي لن يُوجَد أبداً.

431

[26 يوليو 1934]

ثمّة إيمانٌ بالله موجودٌ في كلِّ عقل سليم، ولكنّه ليس بإله مُحدّد. فالله مجرّد وجود علويٌ، مستحيل، يُهيمن على كلِّ شيء؛ ولا يستطيع أحدٌ أن يُعرّف ذاته، إنْ كان يمتلكُ ذاتاً؛ ولا يمكن لأحدٍ أن يفهم نواياه، إنْ كانت لديه نوايا. وحين نُسمّيه الله، فإنّنا نقول ذلك بالضّبط، لأنّ كلمة الله لا معنى مُحدّداً لها، ولهذا نؤكّد وجودهُ دونَ أن نؤكّد أنّه موجودٌ فعلاً. وإنّ صفات المُطلق، أو الأبديّ، أو القدير، أو العادل العليّ، أو اللّطيف، التي نُثبتها لَهُ في بعض الأحيان، تَنزِعُ نَفْسَها [عَنهُ]، مثلها تفعل جميعُ الصّفات غير الضّر ورية، حين يكفي الاسمُ في حدّ ذاته. ولهذا لا نستطيع أن نُثبِتَ لله أيّ صفاتٍ فهو غير محدودٍ، ولهذا فهوَ، للسّبب ذاته، الاسمُ المُطلق.

واليقين ذاتُه والغموض ذاتُه يحيطان بخلود الرُّوح. نحن نعرفُ جميعاً أنَّنا سنموت؛ ونشعرُ جميعاً أنَّنا لن نموت. إنَّما ليستُ رغبة أو أمل يجلب لنا ذلك الإحساس الغامض بأنَّ الموت سُوءُ فَهْم، إنَّهُ غريزة عميقة الجذور، كتلك التي تجعل أزهاراً بعينها تستديرُ نحو الشَّمس.

432

. [نحو 26 يوليو 1933]

الرِّيفُ يكمن حيث لا نكون. فَهُناك، وليس إلَّا هُنَاك، تُوجَدُ الظِّلالُ الحَقَّةُ والأشجار الحَقَّة.

الحياةُ تردُّدٌ بين علامة تعجُّبِ وعلامة استفهام. وثمَّة، بعد الشَّكَّ، نُقطةٌ ختاميَّة. المعجزةُ علامة على كسل الإله أو، بالأحرى، على الكسل الذي نُشِبته لَهُ باختراع المعجزة. الآلهةُ تجسيدٌ لما لا يمكن أن نكونَهُ أبداً. استنزاف الفرضيَّات... بأي وضوح سوف أملي العبارات، التي لن أكتبها أبداً والمناظر الطّبيعيَّة التي لن أكون قادراً على وصفها إطلاقاً، على عجزي وأصفها في تأمَّلاتي حين لا تربطني بالحياة، وأنا مُستلق في كرسيِّ، سوى الصِّلات الأبعد. أنحتُ بُمَلاً كاملةً، بلا أخطاء؛ مسرحيَّات دراميَّة تحبكُ نَفْسَها في عقلي، أحسُّ في كلِّ كلمة الإيقاعَ اللَّفظيَّ والوزنيَّ للقصائد العظيمة؛ فيتبعني في الظّلال حماسٌ عظيم، مثل عبد محتجب. ولكنَّني لو تحرَّكتُ خطوة أبعدَ من الكرسيِّ الذي في الظّلال حماسٌ عظيم، مثل عبد محتجب. ولكنَّني لو تحرَّكتُ خطوة أبعدَ من الكرسيِّ الذي أجلس فيه أتعهَّدُ برعاية هذه المشاعر التي تكادُ تكتمل، فأخطو صوب المنضدة كي أدوِّنها، تمرب الكلياتُ، وتموتُ الأحلامُ، فلا يبقى من الآصرة الحيويَّة التي تربط هذه الهمهات تمرب الإيقاعيَّة سوى توقِ بعيد، وأثر ضوء شمس على جبال قصيَّة، وريح تحرَّكُ أوراق الأشجار على حافَّة الصَّحراء، وعلاقة لن تُكشَف البَّتَة، ومسرَّاتِ تمتَّع بها الأخرون، ومرأةٍ لم تُوجَد في الحقيقة قَطُّ، يُغبرنا حَدْسناً أنَّها سوف تنظرُ إلى الوراء.

لقد قمتُ بكلَ مشروع يمكن تصوُّره. فثمَّة منطقٌ مُلهِمٌ يكمن وراء الإلياذة التي ألَّفتُها، وتمتاز إيْپُودَاتها(65 بتجانُس عضويٌ لم يتمكن هوميروس من تحقيقه قَطُّ. كَالُ هذه الأبيات المدروس، الذي لم يُنظَم في كلماتِ البَّة، يجعلُ دِقَّة قرجيل المُحكَمة واهية، وقوَّة ميلتون ضعيفة. والإجادة الرَّمزيَّةُ لكلِّ تفصيلة ملائمة من تفاصيل كوميدياتي الهجائيَّة الأليغورية التي نظمتُها تفوقُ كلَّ مَا كتبَهُ سويفت على الإطلاق. فكم قرلين (666) كنتُ!

ُ فِي كُلِّ مُرَّة أَنهضُ فيها من على كُرسيِّي، حيث تمتلكُ هذه الأشياء وجوداً أبعدَ من الأحلام المحضة، أُعاني المأساةَ المزدوجة لمعرفة أنَّها ستكون بلا جدوى، ولكنَّني أعرفُ

(365) الإَيْهُوْدَة epode: الجزء النَّالَث من القصيدة الغنائيَّة (الأُوْد Ode) ويتكوَّن من بيتَيْن يختلفان غالبًا في الوزن. والأوَّل يكون أطول من الثَّاني في العادة. (المترجم)

⁽³⁶⁶⁾ وهُنَا ثمَّة مثال واضح آخر على (تعدُّد) قراءة خطَّ بِسُوّا من لدن أولئك الذي عكفوا على فكَ شفرته. فالاسم في طبعة برادو كويلو (المقطع 368) هُوَ القرلين Verlaine وفي طبعة سوبراو كونيا (المقطع 717)، وفي طبعة زينيث (المقطع 200) هُوَ المُوراس Horac.o؛ وتجدر الإشارة إلى أنَّ زينيث، على الرَّغم من قراءته الاسم على أنَّه هوراس، فقد ذكر في حواشي طبعته إلى أنَّ الاسم -بحسب خطَّ بِسُوّا- يحتمل القراءتَيْن معاً. ولا بُدَّ من الإشارة، أبضاً، إلى أنَّ بيسارُّو كان قد قرأ الاسم على أنَّه (هوراس) في طبعته الصادرة في العام 2010 (المقطع 440) إلَّا أنَّه عدل عن ذلك في طبعته الصادرة في العام 2010 (المتبدله بـ (قرلين)) في طبعته المسادرة في العام 2010 (المتبدله بـ (قرلين)) في طبعته المسادرة في العام 2013 (المتبدله بـ (قرلين))

في الوقت ذاته أنَّني لم أحلم حقاً بتلك الأشياء تماماً، وأنَّ بعض أثرٍ منها قد أطالَ اللَّقامَ على العتبة المُجرَّدة لتفكيري فيها وفي وجودها.

كنتُ عبقرياً في الأحلام أكثر من كوني كذلك في الحياة، وهذه مأساتي. كنتُ العدَّاءَ الذي سقط قبل خطِّ النِّهاية تماماً، على الرَّغم من أنَّني كنتُ في طليعة العدَّائين طيلة السِّباق حتَّى لحظة سقوطي.

434

[934]

الأشياء البسيطة، الأشياء البسيطة الحَقّة التي لا يستطيع شيءٌ أنْ يجعلها أبسط، قد باتَتْ مُعقّدةً لمَّا جرَّبتُها. أشعرُ بالرُّعب، في بعض الأحيان، حين أضْطَرُ إلى أن أقول صباح الخير إلى شخص ما. يجفُ صوتي، كما لو أنَّ لفظَ الكلمات بصوت عالٍ كان جرأة استثنائيَّة. أشعرُ بالحَرَج من وجودي؛ لا توجَد كلمات أخرى لوصف ذلك.

تحليلُ مشاعرنا المتواصل يُوجِدُ طريقة جديدةً للشَّعور تبدو مصطنعة بالنَّسبة إلى أيِّ شخص لا يُحلِّلُ إلَّا بعقله بدلاً من التَّحليل بالشُّعور نَفْسه.

لقد كنتُ، طيلةَ حياتي، طائشاً يؤمنُ بالغيبيَّات وجاداً لعوباً. لم آخذ أيَّ شيء على محمل الجِدِّ بتاتاً، مهم رغبتُ في ذلك، رغبةً شديدة. لقد اتَّخذني قدَرٌ عابثٌ ملعباً لَهُ.

وكم أرغبُ في أن تكون لديَّ مشاعرُ من نسيج قطنيٍّ مُنقَطِ، أو حريرٍ، أو إستبرق! وكم أودُّ أن تكون لديَّ مشاعرُ يمكن وصفها بسهولةً على ذلك النَّحو، أن تكون لديَّ مشاعرُ يمكن وصفُها على الأقلِّ!

ينهضُ في روحي شعورٌ بالنَّدم هُوَ ندمُ الإله على كلِّ شيء، غضبٌ أخرس، بكَّاءٌ، على إدانة الأحلام في كلّ أجساد أولئك الذين حلموا بها... وأكرهُ، دونَ كراهية، الشُّعراءَ الذين

نظموا الأشعار، وجميعَ المثاليِّين الذين حقَّقوا مُثَّلَهم العُليا، وجميع أولئك الذين نالوا ما رغبوا فيه.

أطوف، هائهاً على وجهي، عبر الشَّوارع الهادئة، أمشي حتَّى يتعبُ جسدي تعبَ روحي، حتَّى أشعر بذلك الألم المألوف الذي يُعربدُ فِيَّ، وقد أشفق على نَفْسه، شفقةَ الأمِّ على وليدها؛ شفقةً غامضة وقد صارتْ موسيقى.

يا للنَّوم، أن أنام أخيراً! أن أجد بعض السَّكينة! أن أكون وعياً مُجَرَّداً لتنفُّسي الهادئ، بلا عالمٍ، وبلا نجوم، وبلا روح - بحرَ عاطفةٍ ميِّتاً، لا يعكسُ إلَّا غيابَ النُّجوم ا

435

[1934]

لم أطلب من الحياة إلّا ما طلبه ديوجينُ من الإسكندر: ألَّا تُبعَدُ الشَّمسُ عنِّي. لديَّ رغباتُ، لكنَّني مُحرمتُ سبب أن تكول لديَّ. وكان من الأفضل لو أنَّني قد وجدتُ في الحقيقة ما قد وجدتُه. الحُلم [...]

وصغتُ بُملاً مثاليَّةً وأنا في الخارج أمشي، لكنَّني نسيتُها حالَ دلفتُ إلى البيت. ولا أعرف إنْ كان الشِّعرُ الذي يعلو على الوصف لتلك الجُمَل ينتمي برمَّته إلى حقيقة أنَّها كانت مفقودةً أمْ ينتمي في جزء منه إلى حقيقة أنَّها لم تُدوَّن قَطُّ.

أتردّدُ قبل فعل أيّ شيء، دونَ أن أعرف لماذا في الغالب. فكم مرّةً -مثل الخطّ المستقيم المناسب لطبيعتي (أتصوّرُ هذا الخطّ في عقلي بوصفه الخطّ المستقيم المثاليّ) - بحثتُ عمداً عن المسافة الأطول بين نُقطتين. لم أمتلك قطّ موهبة الحياة الفاعلة. فلط لما أخطأتُ بالإياءات التي لا يخطئ بها أحدٌ، ولطالما جاهدتُ كي لا أنسى القيام بها وُلِدَ الآخرون للقيام به، ولطالما رغبتُ في تحقيق ما حقّقه الآخرون مصادفة أو كادوا، ولطالما كان بين نَفْسي والحياة ألواحٌ من زجاج معتم، لا أستطيع رؤيتها أو لمسها، فأنا لم أعش الحياة في الحقيقة وفق خُطّة ألواحٌ من زجاج معتم، لا أستطيع رؤيتها أو لمسها، فأنا لم أعش الحياة في الحقيقة وفق خُطّة

بتاتاً؛ كنتُ حلم يقظةِ ما رغبتُ في أن أكونَهُ، وقد بدأ حلمي في إرادتي، ولطالما كان مقصدي الحكاية الخياليَّة الأولى لما لم أكُنْهُ قَطُّ.

لم أعرفِ إطلاقاً إنْ كانت حساسيتي أرقى من بصيرتي أو إنْ كانت بصيرتي أرقى من حساسيتي. فلطالما تأخَّرتُ كثيراً، ولا أعرف على أيِّما قد تأخَّرتُ، ربَّما عليهما معاً، أو على إحداهما دون الأخرى على أيِّ حال، أو ربَّما كان شيءٌ ثالث هو الذي تأخَّر.

الحالمون في القرون الماضية -الاشتراكيُّون، والإيثاريُّون، والإنسانويُّون ومَن لَفَّ لفيفَهُم-يصيبونني بالغثيان حتَّى أعماق أعماقي. إنَّهم مثاليُّون بلا مُثُل عليا. وإنَّهم مفكِّرون بلا أفكار، يعشقون ظاهر الحياة، بسبب حبِّهم القاتل للنُّفاية التي تطفو أيضاً على سطح الماء، والتي يعتقدون أنَّها جميلة، لأنَّ الأصداف الفارغة تطفو أيضاً على سطح الماء.

436

[91934]

لاريبَ أَنْ يَخامرَ كلَّ من يقرأُ الجزءَ السَّابق من الكتاب انطباعٌ بأنَّي حالمٌ، لكنَّهم على خطأٍ إِنْ كانوا كذلك، فلا مالَ كافياً لديَّ لأكون حالماً.

الكآبات العظيمة، والأحزان الطَّافحة بالسَّأم، لا تُوجَد إلَّا في جوِّ من الرَّاحة والرَّفاهية الرَّزينة، ولهذا يجلسُ إيجائيوس پُوْ (367) في قلعة أسلافه العتيقة، غارقاً في ساعات طويلة من التَّأَمُّل السَّوداويِّ، في حين تدورُ الحياة العاديَّة، خلف باب القاعة الكبيرة، ورؤساء الخَدَم ينظِّمون [أوقات] وجبات الطَّعام ويُدبِّرون الشُّؤون المنزليَّة.

يتطلّب الحُلم العظيم ظروفاً اجتهاعيّة معيّنة. أتخيّل نَفْسي، ذات يوم وقد أسرني شجىً موسيقيٌّ مُعيَّن فيها كتبتُه، أنّني شاتوبريان آخر، لكنّني سرعان ما أدركُ بحدَّة أنّني لم أكُن نبيلاً، ولا حتَّى بريتانياً (368). وحين يُخيّلُ إليَّ، في مناسبة أخرى، أنَّ كلماتي تنطوي على شَبَه بكلهات روشُو، لا أستغرقُ وقتاً طويلاً كي أُدرك أنّني لم أمتلك ميزة أن أكون نبيلاً أو آمر قلعة، علاوة على أنّني لم أكن سويسرياً ولا صعلوكاً جوّابَ آفاق.

⁽³⁶⁷⁾ يقصد إيجايُّوس Egaeus بطل الفصَّة القصيرة "بيرنيس Berenice" لإدغار ألان بُو. (المترجم) (368) Breton: أحد أولئك الذين يتحدرون من منطقة بريتاني Brittany في فرنسا. ويضع بِسُوَّا بعد كلمة bretāo في الأصل، كلمة normando التي تعني نور مَندي، بين قوسين كبيرين، توضيحاً منه لما يقصد. (المترجم)

لكنَّ الكون موجودٌ، رغم كلِّ شيءٍ، هُنَا في خُوَا دُشْ دُوْرَادُورِش، الله يتكفَّلُ هُنَا كذلك باستمرارَ وجود أُحجية الحياة. ولهذا، على الرَّغم من بؤسها، كالمنظر الطَّبيعيِّ للعربات وصناديق التَّغليف، فإنَّ الأحلام التي أتمكَّن من النزاعها من بين العجلات والألواح هي كلُّ ما أملكُ وما سوف أكون قادراً على امتلاكه.

لاريبَ أنَّ شموساً حَقَّةً تغربُ في مكان آخر. ولكنَّ المرء، حتَّى في هذي الغرفة بالطَّابق الرَّابع فوق المستودعات، لا ريبَ الرَّابع فوق المستودعات، لا ريبَ البَّة، ولكن بلا نجوم فوقَةً... هذه الأفكار التي خطرت ببالي وأنا واقفٌ عند النَّافذة العالية ناظراً إلى نهاية المساء البطيئة، شاعراً باستياءِ البرجوازيِّ الذي لستُ إياه، وخزنِ الشَّاعر الذي لن أستطيع أن أكونَةُ أبداً.

437

[1934]

دُهبتُ إلى صالون الحلاقة مثلها أفعل دائهاً، شاعراً بالمتعة التي أذوقها دائهاً من قدرتي على أن أدخل أماكن أعرفها دونَ أن يكدِّرني الأسى. حساسيتي تجاه الأشياء الجديدة محنةٌ دائمةٌ بالنَّسبة إليَّ؛ لا أشعر بالأمان إلَّا في الأماكن التي كنتُ فيها من قَبْلُ.

وما إنَّ جلستُ في الكرسيِّ، ووضع الحلَّق الشابُّ منشفةً كَتَّانيَّةً نظيفةً باردةً حول عنقي، حتَّى عَنَّ لي أن أسأل عن زميله المُفعم بالحيويَّة، الأكبر منه سناً، الذي بدا مريضاً في الآونة الأخيرة، وكان بهارس عمله عادةً على الكرسيِّ ذات يميني. قفز السُّؤال إلى ذهني عفوياً، لأنَّ المكان ذكَّرني به، لا أكثر، وفي حِبن كانت الأصابع مشغولة بوضع آخر طرف من المنشفة بين عنقي وياقة قميصي، أجاب الصَّوت من خلف المنشفة بنبرة حاسمة: القد مات بالأمس المات فجأةً روح دعابتي المرحة اللَّاعقلائيَّة، مثلها غاب الحَلَّق إلى الأبد في هذه اللَّحظة عن الكرسيِّ الذي بجانبي، تجمَّدت أفكاري كلُّها، فلم أنبس ببنت شفة.

الحنين! أشعرٌ به حتَّى تُجاه شخص لم يعنِ لي شيئاً، جرَّاء القلَق من فوات الزَّمن والغثيان النَّابِع من سرِّ الحياة. ينتابني الحزن حين تختفي الوجوه التي أمرُّ بها يومياً في الشَّوارع؛ على الرَّغم من أنَّها لم تعن لي أيَّ شيء قَطُّ سوى أنَّها رمز للحياة برمَّتها.

الكهل الكئيب ذو الجرموقين المُتَسخين الذي اعتدتُ المرور به في التَّاسعة والنِّصف صباحاً، وبائع اليانصيب الأعرج الذي لم يفلح في إزعاجي، والنَّبيل العجوز البدين، بوجهه المتورِّد وسيكاره، الذي اعتاد الوقوف بباب متجر بيع التَّبع، وبائع التَّبغ شاحب الوجنتين نفسه. ماذا حلَّ بهؤلاء النَّاس الذين، لمجرَّد أنَّني رأيتهم يوماً بعد يوم، أصبحوا جزءاً من حياتي؟ غداً، سوف أغيبُ أنا أيضاً من خُوا ذَا پْرَاتا، وخُوا دُش دُوْرَادُورِش، وخُوا دُش فَانْكِيرُش (669). غداً، أيضاً، وهذي الرُّوح التي تُفكِّرُ وتشعرُ، الكون الذي أنا هُوَ بالنِّسبة إلى نَفْسي - نعم، غداً، أيضاً، لن أكون الذي يمشي في هذه الشوارع، الذي سيذكره الآخرون بعبارة: «ما الذي حلَّ به؟» وكلُّ الذي أفعله، وكلُّ الذي أشعر به، وكلُّ ما أختبره، سيكون بعبارة: «ما الذي حلَّ به؟» وكلُّ الذي أفعله، وكلُّ الذي أشعر به، وكلُّ ما أختبره، سيكون بعبارة: «ما الذي حال به؟» وكلُّ الذي أفعله، وكلُّ الذي أشعر به، وكلُّ ما أختبره، سيكون بعبارة: «ما الذي حال به؟» وكلُّ الذي أفعله، وكلُّ الذي أشعر به، وكلُّ ما أختبره، سيكون بعبارة: «ما الذي حال به؟» وكلُّ الذي أفعله، وكلُّ الذي أشعر به، وكلُّ ما أختبره، سيكون بعبارة في الشَّوارع اليوميَّة لمدينة أو أخرى.

438

[91934]

الحرَّيَّةُ احتماليَّةُ العُزلة. لن تكون حُراً إلَّا حين تستطيعُ أن تعتزل البشرَ وتشعر بعدم حاجتك إلى أن تسألهم المال، أو المجتمع، أو الحُبَّ، أو المجد، أو حتَّى الفضول؛ فلا شيء من هذه الأشياء يحيا في الصَّمت والعزلة. إنْ لم تستطع العيشَ وحيداً، فقد وُلدتَ عبداً. وربَّما تكون قد امتلكتَ جميع الصِّفات المتفوِّقة للنَّفْس والرُّوح، إلَّا أنَّك إنْ كنتَ ما تزال مجرَّد عبد نبيل أو قِنَّ فَطِن، فأنت لستَ حُراً. ولكنَّ ذلك ليس مأساتك، فمأساة أن تُولد على تلك الشَّاكلة ليستُ مأساتُك أنت وإنَّما مأساة القدر. ولكن، الويل لك إنْ سمحتَ لوطأة الحياة في حدِّ ذاتها أن تستعبدك. والويلُ لك إنْ سمحتَ للفاقة أن تجبرك على معاشرة النَّاس، إن في حدِّ ذاتها أن تستعبدك. والويلُ لك إنْ سمحتَ للفاقة أن تجبرك على معاشرة النَّاس، إن كنتَ قد ولدتَ حُراً وقادراً على أن تعيل نَفْسك وتميا وجودك منفصلاً عن كلِّ ما سواهُ.

صفة الإنسان العظمى أن يُولَد حُراً؛ إنَّها التي تجعل النَّاسك المتواضع أسمى من الملوك، وأسمى حتَّى من الآلهة، الذين يعززون ذواتهم بفضل قوَّتهم فحسب، لا بفضل ازدرائهم لها.

⁽³⁶⁹⁾ خُوَا دُش فَانْكِيْرُش Rua dos Fanqueiros: شارع في بَايْشًا بلشبونة، كان يعرف في السابق باسم شارع الأميرة الجديد. (المترحم)

والموتُ تحرُّرٌ، فحين تموتُ لا تحتاجُ إلى أحد. فالعبد البائس يجد نَفْسه وقد تحرَّرَ عنوةً من كلِّ مسرَّاته وأحزانه، ومن الحياة المتواصلة التي تاق إلى التحرِّر منها. ويجد الملك نَفْسه وقد تحرَّرَ من السُّلطان الذي لم يرغب في التَّخلِي عنه، والنِّسوة اللَّواتي منحنَ الحُبَّ بحرِّيةٍ يجدنَ أَنفُسهنَ وقد تحرَّرنَ من الفتوحات [الجنسيَّة] التي شُغفنَ بها. ويجد الغزاة أنفسهم وقد تحرَّروا من الانتصارات التي كتبتها عليهم حيواتُهم.

يسمو الموتُ بالجثمان المسكين العبثيّ ويُكفّنه بثياب مبهرجة لم يعرفها في حياته قطّ. هُنَاك يتحرَّرُ الإنسانُ من يكون الإنسانُ حُراً، على الرَّغم من أنَّه لم يسع إلى الحُريَّة، دونَ شكّ. هُنَاك يتحرَّرُ الإنسانُ من عبوديَّته، عبى الرَّغم من أنَّه بكى كي ينعتق من رقّه. وقد يكون الملكُ مثيراً للضّحك كبشر، لا ينطوي على شيء عظيم البتّة سوى لقبه، لكنَّه بِحُكم ذلك اللَّقب كائنٌ أسمى. والإنسانُ الميّت، على الرَّغم من البشاعة التي قد يبدو عليها، فإنَّه يظلُّ كائناً أسمى، لأنَّ الموت حرَّره. أغلق مصراعي النَّافذة، وقد هدَّني التَّعب، أعتزلُ العالمَ فأكون حُراً لوهلة. سأعود غدا أغلق مصراعي النَّافذة، وقد هدَّني التَّعب، أعتزلُ العالمَ فأكون حُراً لوهلة. سأعود غدا إلى كوني عبدًا؛ لكنَّني في هذه اللَّحظة، وأن وحيدٌ، لا أحتاج إلى أحد، أخافُ أن يزعجني الى كوني عبدًا؛ لكنَّني في هذه اللَّحظة، وأن وحيدٌ، لا أحتاج إلى أحد، أخافُ أن يزعجني ألى كوني عبدًا؛ لكنَّني في هذه اللَّحظة، وأن وحيدٌ، ولحظة الانتشاء الرُّوحيِّ التي تخصُّني أنا وحدى.

أنسى، في الكرسيِّ الذي أجلسُ فيه الحياة التي تضطَّهدني. والألمُ الوحيد الذي أشعرُ به هُوَ أَلمُ انَّني شعرتُ، ذاتَ مرَّةٍ، بالألم.

كتاب القلَق: مُنحقَان

ملحوظتان

[929]

ملحوظة المؤلِّف بخصوص أيِّ طبعة مستقبليَّة [من كتاب القلّق] (ويمكن استخدامها في أيِّ مُقدِّمة أيضاً).

حين تُجمَع لاحقاً القصائدُ المختلفة التي لم تُدرَج في كتاب القلَق معاً؛ فلا بُدَّ أن يحمل ذلك الكتاب المنشود عنواناً يشير، بطريقة أو أخرى، إلى أنَّه يحوي بقايا حطامٍ أو أنَّه في حدًّ ذاته هُوَّةٌ أو شيء منبوذ مشابه.

ولا بُدَّ أن يُشكِّل الكتابُ، علاوة على ذلك، جزءاً من مجموعة نهائيَّة من القصائد الرَّديئة؛ المستودع غير المنشور لما هو غير قابل للنَّشر، الذي يمكن أن يظلَّ مثالاً حزيناً. أو يمكن أن يكون بالأحرى على شاكلة القصائد غير المكتملة لشاعر غنائيًّ مات شاباً، أو رسائل كاتب عظيم، سوى أنَّ المادَّة التي يحتويها الكتاب لن تكون أقلَّ جودة فحسب، وإنَّما مختلفة، وأنَّ خلك الاختلاف سيكون سبب نشرها، إذ لا معنى لنشر ما لا ينبغي نشره.

[\$1931]

ولا بُدَّ أن يُنظَّم الكتاب وفقَ انتخابٍ صارم، بِقَدْر المستطاع، للنُّصوص الموجودة، مع تهيئة أيِّ نصوص قديمة كي تغدو متواثمة مع سيكولوجيَّة برناردو سوارش مثلها تتجلَّى في هذه الأوقات. ولا بُدَّ، بمعزل عن هذه المسألة، القيام بمراجعة عامَّة للأسلوب، ولكن دون فقدان النَّبرة الشخصيَّة أو المنطق المنحرف، غير المتهاسك، الذي يميِّزها.

وقد يكون ثمَّة داعٍ لتضمين فقرات طويلة، ذات عناوين باذخة، مثل «جنازة لودڤيغ

الثَّاني، ملك باڤاريا» أو «سيمفونيَّة اللَّيل المضطرب». وثمَّة داعٍ أيضاً لنبل فقرة «الجنازة» مثلها هي أو تضمينها في كتاب آخر رفقة الفقرات الطوّيلة الأخرى على حدِّ سواء.

[91929]

قُصصُ الفاصل المسرحيِّ xxiv

أُدرِجُ شخصيات معينة في القصص أو أُضمّنُها في العناوين الفرعيّة للكتُب، ثُمَّ أُوقَعُ ما يقولونَهُ باسمي؛ ولا أُخطّط بتاتاً لتوقيع ما تقوله شخصيات أُخرى، ولا أُوقّعُها إلّا كي أقول إنّني أنا الذي اختلقتُها. ويمكن التّفريق بين هذيّن النّوعَيْن من الشخصيات على النّحو التّالي: أولئك الذين يختلفون عنّي تماماً، وأسلوبهم الكتابيُّ غريبٌ عليّ، وإذا تطلّبت الشّخصية فإنّ أسلوبها يغدو على النّقيض من أسلوبي تماماً؛ أمّا الشخصيات التي أُصادِق على وجودها باسمي، فإنّ أسلوب أفرادها لا يختلف عن أسلوبي إلّا في بعض التّفاصيل الصّغيرة التي لا مندوحة عنها، حيث لا يمكن التّفريق بينهم من دونها.

فَلْأُقَارِنَ بِين بعض تلك الشخصيات، كي أضرب مثالاً على ذلك. فبرناردو سوارش، المحاسب المساعد، وبارون تيف (570)، هُما أنا وليسَا أنا على حدِّ سواء، من ناحية أنّها يكتبان في الجوهر بالأسلوب ذاته الذي أكتب به، ويستخدمان النّحُو ذاته، والطّريقة ذاتها في استخدام اللّغة: إنّها يكتبان بأسلوب، سواء أكان ذلك خيراً أم شراً، هُو أسلوبي الخاصُ. أقارن بين هاتَيْن الشَّخصيَّتَيْن لأنّها مثالان للظّاهرة ذاتها - العجز عن التّكيُّف مع الحقيقة الواقعيّة للحياة، وللدّوافع والأسباب ذاتها. بَيْدَ أنَّ أسلوبيهها يختلفان، على الرّغم من أنّ برتغاليّة بارون تيف وبرناردو سوارش هي ذاتها؛ ذاك أنَّ برتغاليّة البارون أكثر ثقافة، وخالية من الصّور المجازيّة، و، لا أعرف كيف أصوغ ذلك، مُتكلّفة ورسميّة قليلاً؛ أما برتغاليّة البرجوازيّ سوارش، ففصيحةٌ، وأكثر موسيقيّة وتصويريّة،

⁽³⁷⁰⁾ Barão de Telve: نسب إليه بِسُوَّا كتابَهُ «A educação do estó.co» (– تربيةُ الزُّواقيُّ). وثمَّة، من بين المتخصِّصين في عوالم بِسُوَّا، مَن تعامل مع هذا الكتاب بوصفه «الطَّوْر الثَّالت» من كتاب القلق، مثلما فعلت البرازيليَّة تريزا ريت لويِّس، حين أدرجته في الطَّبعة التي حرَّرته من كتاب القلَق، الصَّادرة في سَوِّ باولو في العام 2017، تحت عنوان: Livro(s) do Desassossego. (للترجم)

وغير بنيويَّة. يُفكِّرُ النَّبيل بوضوح، ويكتب بوضوح، ويتحكَّم في عواطفه، إنْ لم يكُن في مشاعره؛ والمحاسبُ المساعد لا يتحكَّمُ بعواطفه ولا بمشاعره، وحين يُفكِّرُ، فإنَّ تفكيره خاضعٌ لمشاعره.

وفي حين تُوجَد، من جهة أخرى، تشابهاتٌ ملحوظة بين برناردو سوارش وألفَر دو كامپوش (371)، فإنَّ برتغاليَّة ألفَر دو كامپوش أكثر مرونة، وصوره المجازيَّة أكثر بذخاً، وأكثر شخصيَّة، وأكثر عفويَّة، من تلك التي لسوارش.

[1929؟] [قَصصُ الفاصل المسرحيً]

ثمَّة تناقضاتٌ في الطَّريقة التي أفرِّق فيها بين هذه الشخصيات، وهي شيء يثقل كاهلي كحمل ثقيل تشتدُّ وطأته على قوى فراستي العقليَّة. كيف أُميِّز بين مقطوعة موسيقيَّة ألَّفها برناردو سوارش عن مقطوعة مشابهة من تأليفي...

ثمَّة أوقات أستطيع فيها القيام بذلك على الفور، بِكَمَالٍ يدهشني، وليس ثمَّة ادِّعاء بشأن هذه الدَّهشة. وبها أنَّني لا أومن بأنَّنا، نحن البشر، نمتلك مثقال ذرَّة من الحُرِّيَّة، فإنَّني دَهِشُّ مَّا يحدثُ فِيَّ بِقَدْر دهشتي مَّا يحدث داخل شخص آخَر - فكلانا غريبان.

ولا يستطيع إلَّا حَدْسٌ قويٌّ أن يكون بمثابة بوصلةٍ في يَبَابِ الرُّوح الشَّاسع؛ ولكنَّنا لا نستطيع التَّمييز بين الحقائق الواقعيَّة لتلك الشخصيات التي نحلم بها، الواحدة من الأخرى، إلَّا عبر إحساس تصفَّى عبر بصيرتنا، ولكنَّهُ، في الوقت الذي يعتمد عليها، يختلف عنها تماماً.

قصص الفاصل المسرحيّ

تنقسمُ هذه الشَّخصيَّات (372) المتباينة، أو، بالأحرى، الشَّخصيَّات المختلفة التي ابتكرتها، إلى فئتيْن أو نوعَيْن، ستكشفان للقارئ خصائصها الميَّزة، لو تتبعها من كثب. ستمتلك الشَّخصيَّة، في الفئة الأولى، أفكاراً ومشاعر معيَّنة تختلف تماماً عن أفكاري ومشاعري، مثلها ستكون ثمَّة أفكار في المستوى الأدنى من الفئة ذاتها، ربَّها صِيغَتْ في شكل خطاب أو مجادلة، ليستُ أفكاري على نحو واضح، أو، إن كانت كذلك، فإنَّني لا أعرفها. «المصرفي عادفوضويً» (373) مثالٌ على تلك المجموعة الفرعيَّة؛ في حين ينتمي كتاب القلق وبرناردو سوارش، من جهة أخرى، إلى مستوى أعلى.

سيلاحظُ القارئ، على الرَّغم من أنَّني سأنشر كتاب القلق (374) (إنْ نشرته فعلاً) بوصفه مكتوباً من لدن برناردو سوارش، المحسب المساعد الذي يقطن مدينة لشبونة، أنَّني لم أدرجه في «قصص الفاصل المسرحيُّ» هذه. وذاك لأنَّ برناردو سوارش، على الرَّغم من أنَّه يختلف عنِّي في أفكاره ومشاعره وطرائق رؤيته وفهمه، فإنَّهُ لا يختلف عنِّي في طريقة التَّعبير عن تلك الأشياء. لقد منحته شخصيَّة مختلفة، لكنَّني عبَّرتُ عنها من خلال الأسلوب الذي يأتيني عفوياً، وهذا يعني أنَّ الاختلاف الحتميَّ غير موجود إلَّا في النَّبرة التي تنبع من الطبيعة الخاصَّة للمشاعر التي عبَّرتُ عنها.

وليستُ الأفكار والمشاعر فحسب هي التي تُميِّزُ مؤلِّفي «قصص الفاصل المسرحيِّ» عنِّي، وإنَّما تكنيك التَّاليف والأسلوب نفساهما يختلفان أيضاً. فلا تُصوَّرُ كلُّ شخصيَّة، هُنَاك، على نحو مختلف فحسب، وإنَّما تُبتكر على أن تكون شخصية مختلفة تما، ولهذا فإنَّ الشِّعر يسودُ في «قصص الفاصل المسرحيِّ». من الصَّعب، في النَّثر، أن يكون المرءُ شخصاً آخر.

⁽³⁷²⁾ أُفرِّق، هُنا، بين الشخصيات characters (المشار إليها في المقاطع السَّابقة) وبين الشَّخصيَّات personalities المستخدمة في هذا المقطع. (المترجم)

⁽³⁷³⁾ المصر فيُّ الفوضويُّ Banqueiro Anarquista : قصَّة نشر ها يسُوًّا في لشبونة عام 1922. (المترجم)

⁽³⁷⁴⁾ يشير زينيث في حواشي طبعته إلى أنَّ بسُوًا ترك 350 نصاً شرياً في مُغلَف كبير عنونه الدينيث في حواشي طبعته إلى أنَّ بسُوًا ترك 350 نصاً شرياً في مُغلَف كبير عنونه البرتغال، بيد أنَّ ثمَّة عشرات وهي تشكّل المغنَّف الجمسة الأولى من أرشيف بِسُوًا المحفوظ بالمكتبة الوطنيَّة في البرتغال، بيد أنَّ ثمَّة عشرات النصوص الأخرى، التي أشَّر عليها بعبارة «La do D.» (الأحرف الأولى من عنوان الكتاب) متناثرة عبر أوراقه الأخرى. (المترجم)

الحواشي الختامية

- ألبيرتو كآيرُو هُوَ نِدُّ پسُوًا الشَّعريُّ الرَّئيس، ويعدُّه النِّدان الرَّئيسان الآخران، ألفَر دو كامپوش وريكاردو خايش، وحتَّى پسُوًّا نَفْسه، معلِّمهم. (جول كوستا)
- أسس هذه المجلّة الأدبيّة في العام 1915 فرناندو پشوًا وماريو ذي سا كارنيرو ولويش ذي مونتالڤور. وعلى
 الرّغم من أنّه لم يصدر من المجلّة سوى عددَيْن، فإنّها تمتّعتْ بتأثير بالغ على تطوُّر الأدب البرتغاليِّ المعاصر.
 (جول كوستا)
- ii أنطونيو نُوْبُرُ Nobre (1867–1900): شاعرٌ برتغاليٌّ لم ينشر سوى ديوان شعري وحيد في حياته، «وحيداً 86°، وصفه بنفسه أنَّه أكثر الكتب حزناً في البرتغال. (جول كوستا)، [إضافة: نُشر الكتاب في پاريس سنة 1892. (المترجم)].
 - iv يحمل هذا المقطع ملحوظة بالإنگليزية: «لَعِبُ طفولتنا ببكرات القطن... إلخ». (جول كوستا)
- وضع كتاب «الأمير». (جول كوستا)
 إيطالياً، قِيَل إنَّه أحد مصادر الإلهام التي دفعت ميكاڤيلي إلى
 - vi ثمَّة ملحوظة تتبع هذا العنوان: «(فَلْتُدرَج في كتاب القلَّق)». (جول كوستا)
- vii ثمَّة عبارة مكتوبة بالإنگليزية فوق هذا المقطع "فصلٌ عن الاختلاف أو شيء من هذا القبيل". (جول كوستا)، [إضافة: العبارة مرقونة على الآلة الكاتبة بين قوسَيْن، بالحبر الأحمر، وفوقها عبارة "كتاب القَلق" وتحتها خطُّ، والطبعات البرتغالية المختلفة توردها كعنوان لهذا المقطع، كما أورده بِسُوًا، ولا تذكرها في الحواشي. (المترجم)].
- viii تتصدَّرُ هذا المقطع ملحوظةٌ بالإنگليزيَّة: «المقالة الأولى». ومن المحتمل أن يكون المقطعان 134 و136 بمثابة نصَّين عهيديَّيْن [إلى مُقدَّمة مُحتمَلة]. فلم يُقدِم بِسُوَّا على خطِّ مُقدَّمة واحدة للكتاب، في نحو العام 1917، وإنَّما حاول ذلك عدَّة مرَّات. (جول كوستا)، [إضافة: النَّص في الأصل مرقون، بحبر أسود، على الآلة الكاتبة؛ والعنوان كذلك، والإشارة المختصرة (ـb. do D.) من لدن بِسُوًا، وهي ندلٌ على أنَّ هذا المقطع جزء من كتاب القلق (المترجم)].
- العبارة تعني: «مُقدَّمة؟»، وهي البرتغاليَّة: (Prefacio?). (جول كوستا)، [والعبارة تعني: «مُقدَّمة؟»، وهي مذكورة في الطبعات البرتغالية الرئيسة كانَّة كعنوان، وليس في الحواشي، كما تظهر مُنَا. (المترجم)].

- x تتصدّر هذا المقطع عبارة بالبرتغاليّة: «(trecho inicial)»: «مقطع استهلاليّ». (جول كوستا)
- Cesário Verde xi (1855–1856)، أحد روَّاد الشعر البرتغالي المعاصر، عمل بوظيفة كاتب معظم حياته. كان بِسُوَّا يشعر بأُلفة عميقة تجاه شعره، مشاركاً إيَّاه مُحبَّ لشبونة. (جول كوستا). [ملحوظة: لفظُ اسم Verde في البرتغاليَّة الأوروبيَّة فِيرد، ولكنَّه يُلفظ في البرتغاليَّة البرازيلية فِيخْجِي أُو فِيهْجِي. (المترجم)].
- xii أنتيرو ذِي كونتال (1842–1891)، شاعر وفيلسوف برتغاليٌّ. كتب عنه بِشُوَّا قائلاً: الله يكُن ثُمَّة أُدبُّ برتغاليُّ، بكلِّ ما في الكلمة من معنى، قبل أنتيرو دي كونتال؛ لم يكن ثُمَّة تمهيد، قبل ذلك، لأدب مستقبلي، أو أدب أجنبيً مكتوب باللغة البرتغاليَّة». (جول كوستا)
- xiii كان فيَالْيُو ذِي ألميذا Fialho de Almeida (1911-1857) كاتباً وصحفياً برتغالياً تبنَّى المذهب الطّبيعي/ الطّبيعانيَّة، ولكنَّه مال في أواخر حياته إلى حركة الانحلال/ الانحطاط. (جول كوستا)
- xiv كان أنطونيو كاردوزو بورجيش دي فِغِريدُو Figueiredo (1792–1878) قسِّيساً برتغالياً كتب عدداً من الكتب للمدارس. وُجدتْ نسخة مشروحة، ومُجعَّدة صفحاتها لكثرة التَّصفُّح، من كتابه «الخطابة» في مكتبة پشوًا الشخصيَّة. (جول كوستا)
- du Tendre Pays xv (عن الفرنسيَّة Carte du Tendre الرَّقيقة تَظهِر منطقة «المشاعر الرَّقيقة tender sentiments»، رسمتها مادلين دو سمكودري Scudéry (1607–1701). (جول كوستا)، [إضافة:Tender sentiments هي أرض الحُبِّ، وقد ظهرت الخارطة لأوَّل مرة في روايتها «كلِيْلِي Clélie». (المترجم)]. xvi كان لويش ذي سوزا Sousa (نحو 555–1632) راهباً دومينيكانياً، وكاتباً ومؤلِّف سِيَر شخصيَّة. أمَّا
- أنطونيو ڤيرا Vieira (1608-1697)، فقد كان قسيساً يسوعيّاً، عمل دبلوماسيّاً في أوروبّا ومبعوثاً تهشيرياً في البرازيل حيث مات. كان خطيباً مُفوّها وأحد كتّاب النشر الباروكيّ البارزين في البرتغال. (جول كوستا)
- xvii كتبّ فرانسيشكو جوزيه فريير Freire (1719-1773) باسمه المستعار كانديذو لوشيتانو، وكان أحد مؤسّسي الجهاعة الأدبيَّة التي عرفت باسم «الأركاديُّون Arcadians». (جول كوستا)
- xvii پول بورجيه (1852–1835) روائيٌّ فرنسيٌّ وناقد. فرانسوا-رينيه دو شاتوبريان (1768–1848) كاتب وسياسيٌّ ومؤرِّخ فرنسيُّ، من أشهر أعماله روايته القصيرة «رينيه» وسيرته الشخصيَّة «ذكريات من وراء القبر». هنري-فريدريك أَمْيِلَ (1821–1881) كاتب يوميَّات وناقد سويسريُّ، نشرت يوميَّاته «شذرات من يوميَّات حيمية» بين 1883 و1887. وكان ألفريد دي ڤيني (1797–1863)، الشَّاعر والرُّوائيُّ الرُّومانسيُّ الفرنسيُّ، مؤلِّف أوبرا «تشاترتون» (1835). كان العالم، بالنِّسبة له، مكاناً للمعاناة، والحياة سيرورة متواصلة من نكران الذَّات، والإله (إن كان موجودا) فهو إله قاس من العهد القديم. أما إتيان بيڤير دو سينانكور (1770–1846)، فكاتب مقالات وفيلسوف فرنسيُّ، يُعرَّف بروايته المؤثَّرة «أوبرمان». (جول

xix كان «الدُّون سِبَشْنِياوْ Dom Sebastião» ملك البرتغال في الفترة التي امتدَّت من 1557 حتَّى 1578. اختفى في معركة «القصر الكبير Alcacer Quibir» الكارثيَّة، فافتُرض أنَّه قُتِل في أثناء القتال. يشير إليه النَّاس في الغالب باسم «O Desejado» (المنشود/ المُشتهَى The Desired One) معتقدين أنَّه، لو عاد، لحال دون الغالب باسم «جول كوستا)، [إضافة: سِبَشْتِيَاوْ هو المقابل البرتغاليُّ لاسم سبستيان. (المترجم)].

xx كان كاميليو بِسَّانْيَا Pessanha (1926-1926) شاعراً برتغالياً رمزياً. (جول كوستا)

xxi كان فرانشيسكو سانشيز Sanches (1551-1623) فيلسوفاً وإنسانوياً برتغالياً سابقاً على ديكارت. (جول كوستا).

xxii يظهر على ظهر القصاصة [التي كتب عليها بِسُوَّا هذه الشَّذرة] اسمُ "جيغر Jaeger"، إشارة إلى هاني الاريسا جيغر، عشيقة أليستر كراولي Crowley. فهل من المكن أن يكون كراولي هو "الرَّجل العظيم"؟ (جول كوستا)

xxiii بِيتَر شائِمِيل Peter Schlemihl: بطل الرَّواية التي تحمل الاسم ذاتَهُ التي أَلَّفها أُدلبيرت فون تشاميزو (1781–1838). (جول كوستا)

xxiv كان هذا العنوان هو العنوان العموميُّ الذي منحه بسُوَّا لأعمال أنداده الكاملة، التي كان يُخطَّط لنشرها في عدَّة مجلَّدات مختلفة. ولكنَّ العنوان، في النَّهاية، لم يُطلَّق إلَّا على خس قصائد نُشرت باسمه الصَّريح في العام 1917. (جول كوستا)، [إضافة: العنوان الأصلي بحسب بسُوًّا هُو: «Prefacio as Ficções do Interludio» (= مُقدِّمةٌ إلى قصص الفاصل المسرحيُّ). أنظر الحاشية 330، لمزيد من التَّفصيل. (المترجم)].

كتاب القلق

يُعسدُ هذا الكتاب تحفة فرناندو بِسُسوَّا النثريَّة، وأحد أعظم الأعبال الأدبيَّة التي ظهرت في القرن العشرين. وليسستُ هذه المقولة من باب التهكُّم، حين نعوف أنَّ بِسُسوَّا لم يُكمِل كتاب القلق قَطُّ. فلقد كان يعتقد، وهو يحدُّس هذه الشَّذرات بعضها فوق بعض في صندوقَيْن خشبيَّيْن كبيرين ظلَّا طيَّ النَّسيان سبعة وأربعين عاماً، «أنَّ إكباله سبكون شكلاً من أشكال الجُبن، أو العجز، أو كمسيرة مهرّوم ". غير أنَّ هذا الكتاب -الذي بذل محرّروه المتعاقبون كلَّ ما في وسعهم لجمعه وإكباله- لا مندوحة عنه لمَن يرغب في البَدْء بقراءة أعبال بشوًا.

بدأ كتاب القلق بوصفه نوعاً من اليوميّات الرمزيّة، المتأثّرة باليوميّات والاعترافات التقليديّة التي ظهرت في القرن التّاسيع عشر، بيد أنه انتهى بوصفه يوميّات شخصين مُتخيّلين: فسنته غيدش، في البَدْء، ومِن ثُمَّ برناردو سوارش. وما يُميّز هذه الطبعة، عن مختلف الطبعات الأخرى التي سيقتها، أنّها تقترح فراءة الكتاب على الشّاكلة التي ظهر عليها إلى الوجود، وليس بخلط نصوص الطّور الأوّل مع تلك التي تنتمي إلى الطّور الثّاني.

لسمر 70 درهماً







